كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل
الاوحد فريد عصره وحيد دهره مجموع الفضائل
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل
ابن ابراهيم المقدسي الشافعي
تغمده الله تعالى
برحمته
آمين

م

رواية الشيخ الامام مجد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي سماعا عنه

﴿الجزء الاول﴾

(طبعة جديده)

بمطبعة وادي النيل بمصر القاهرة

سنة ١٢٨٧

(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)
(النوريه والصلاحيه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بلطفه تصلح الاعمال * وبكرمه وجوده تدرك الآمال * وعلى وفق مشيئته تتصرف الافعال * وبارادته تتغير الاحوال * واليه المصير والمرجع والمآل * سبحانه هو الباقى بلا زوال * والمنزه عن الحلول والانتقال * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال * نحمده على ما أسبغ من الانعام والافضال * ومنّ به من الاحسان والنوال * حمدا لا توازنه الجبال * ملء السموات والارض وعلى كل حال * ونصلى على رسوله ونبيه * وخيرته من خلقه وصفيه * وخليله ووليه * وحبيبه المفضال * سيدنا أبى القاسم محمد بن عبد الله ذى الشرف الباذخ * والفضل الشامخ * والعلم الراسخ * والجمال والكمال * صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين * والانبياء والمرسلين * وعترتهم الطيبين * ما أفل كوكب وطلع هلال * وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل * وعلى تابعيهم باحسان وجميع الاولياء والابدال * وعفا عن المقصرين من أمته أولى الكسل والملال * وحشرنا فى زمرته * متمسكين بشريعته * مقتدين بسنته * متعظين بما ضرب من الامثال * مزدحمين تحت لوائه * فى جملة أوليائه * يوم لا بيع فيه ولا خلال * (أما بعد) فانه بعد ان صرفت جل عمرى * ومعظم فكرى * فى اقتباس الفوائد الشرعيه * واقتناص الفرائد الادبيه * عنّ لى أن أصرف الى علم التاريخ بعضه * فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه * اقتداء بسيرة من مضى * من كل عالم مرتضى * فقل امام من الائمة الا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمه * منهم امامنا أبو عبد الله الشافعى رضى الله عنه قال مصعب الزبيرى ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعى ويروى عنه انه اقام على تعلم أيام الناس والادب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك الا الاستعانة على الفقه قلت وذلك عظيم الفائده * جليل العائده * وفى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السالفه وأنباء القرون الخالفه * ما فيه عبر لذوى البصائر * واستعداد ليوم تبلى السرائر * قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين * وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقال سبحانه وتعالى ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر * وحدث النبى صلى الله عليه وسلم

بحديث أم ذرع وغيره مما جرى فى الجاهليه * والايام الاسرائيليه * وحكى عجائب ما رآه ليلة أسرى به وعرج * وقال حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج * وفى صحيح مسلم عن سماك بن حرب قال قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم كثيرا كان لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس فاذا اطلعت قام وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم * وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كان نبى الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بنى اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاه * قلت ولم تزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون فى حديث من مضى * ويتذاكرون ما سبقهم من الاخبار وانقضى * ويستنشدون الاشعار * ويتطلبون الآثار والاخبار * وذلك بيّن من أفعالهم * لمن اطلع على أحوالهم * وهم السادة القدوه * فلنا بهم اسوه * فاعتنيت بذلك وتصفحته * وبحثت عنه مدة وتطلبته * فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين * من الانبياء والمرسلين * والصحابة والتابعين * والخلفاء والسلاطين * والفقهاء والمحدثين * والاولياء والصالحين * والشعراء والنحويين * وأصناف الخلق الباقين * ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين * كأنه قد عاصرهم اجمعين * وانه عندما تفكر فى أحوالهم أو تذكرهم * كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم * فهو قائم له مقام طول الحياه * وان كان متعجل الوفاه * قال نعيم بن حماد كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس فى بيته فقيل له الا تستوحش فقال كيف أستوحش وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفى رواية قال قيل لابن المبارك يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود فى البيت وحدك فقال أنا وحدى أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعنى النظر فى الحديث وفى رواية اخرى وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم باحسان قلت وقد أنشدت لبعض الفضلاء

كتاب اطالعه مؤنس * احب الىّ من الآنسه
وادرسه فيريني القرو * ن حضورا وأعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه لنا ان نكون آخر الامم واطلعنا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليه * ونعيها أذن واعيه * فهل ترى لهم من باقيه * ولنقتدى بمن تقدمنا من الانبياء * والائمة الصلحاء * ونرجو بتوفيق الله عز وجل ان نجتمع بمن يدخل الجنة منهم * ونذاكرهم بما نقل الينا عنهم * وذلك على رغم أنف من عدم الادب * ولم يكن له فى هذا العلم ارب * بل أقام على غيه وأكب * والمرء مع من أحب * هذا وان الجاهل بعلم التاريخ راكب ظهر عمياء * خابط خبط عشواء * ينسب الى من تقدم أخبار من تأخر * ويعكس ذلك ولا يتدبر * وان رد عليه وهمه لا يتأثر * وان ذكر فجهله لا يتذكر * لا يفرق بين صحابى وتابعى * وحنفى ومالكى وشافعى * ولا بين خليفة وأمير * وسلطان ووزير * ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من انه نبى مرسل * فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الاول * الذين بذكرهم ترتاح النفوس * ويذهب البوس * ولقد رأيت مجلسا * جمع فيه ثلاثة عشر مدرسا * وفيهم قاضى قضاة ذلك الزمان * وغيره من الاعيان * فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة وهم ذوو القربى المذكورون فى القرآن * فقال جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب * وعدلوا بأجمعهم فى ذلك عما يجب * فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب * ولم يهتدوا الى أن المطلب هو عم عبد المطلب * وان عبد المطلب هو ابن هاشم * فما أحقهم بلوم كل لائم * ان هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه * وباب من أبواب العلم جهلوه * ولزم من قولهم اخراج بنى المطلب من هذه الفضيله * فابتغيت الى الله تعالى الوسيله * وأنفت لنفسى من ذلك المقام * فأخذت بعلم أخبار الانام * وتصحيح نسبتها * وايضاح محجتها * فان كثيرا ممن يحفظ شيأ من الوقائع يفوته معرفة نسبتها الى أربابها * وان نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها * وهو باب واسع غزير الفوائد * صعب المصادر والموارد * زلت فيه قدم كثير من نقلة الاخبار * ورواة الآثار * ثم أردت ان اجمع من هذا العلم كتابا يكون حاويا لما حصلته * وأتقن فيه ما خبرته * فعمدت الى أكبر كتاب وضع فى هذا الفن على طريقة المحدثين وهو تاريخ مدينة دمشق حماها الله عز وجل الذى صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن العساكرى رحمه الله وهو ثمانمائة جزء فى ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته * وزدته فوائد من كتب أخر جليلة واتقنته * ووقف عليه العلماء * وسمعه الشيوخ والفضلاء * ومر بى فيه من الملوك المتأخرين * ترجمة الملك العادل نور الدين * فأطربنى ما رأيت من آثاره * وسمعت من أخباره * مع تأخر زمانه * وتغير خلانه * ثم وقفت

بعد ذلك فى غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما فى المتأخرين * كالعمرين رضى الله عنهما فى المتقدمين * فان كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه فى العدل والجهاد * واجتهد فى اعزاز دين الله أى اجتهاد * وهما ملكا بلدتنا * وسلطانا خطتنا * خصنا الله تعالى بهما * فوجب علينا القيام بذكر فضلهما * فعزمت على افراد ذكر دولتيهما بتصنيف * يتضمن التقريظ لهما والتعريف * فلعله يقف عليه من الملوك * من يسلك فى ولايته ذلك السلوك * فلا يبعد انهما حجة من الله على الملوك المتأخرين * وذكرى منه سبحانه فان الذكرى تنفع المؤمنين * فانهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين * ومن حذا حذوهم من الائمة السابقين * ويقولون نحن فى الزمن الاخير * وما لاولئك من نظير * فكان لما قدّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين الزام الحجة عليهم بمن هو فى عصرهم * من بعض ملوك دهرهم * فلن يعجز عن التشبه بهما احد * ان وفق الله الكريم وسدد * وأخذت ذلك من قول أبى صالح شعيب بن حرب المدائنى رحمه الله وكان احد السادة الاكابر فى الحفظ والدين * قال انى لاحسب يجاء بسفيان الثورى يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق يقال لهم ان لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان الا اقتديتم به وكذا أقول هذان الملكان حجة على المتأخرين * من الملوك والسلاطين * فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيره * وجميل السريره * وهما حنفى وشافعى * شفى الله بهما كل عىّ * وظهرت بهما من خالقهما العنايه * فتقاربا حتى فى العمر ومدة الولايه * وهذه نكتة قل من تفطن لها ونبه عليها * ولطيفة هدانى الله بتوفيقه اليها * وذلك ان نور الدين رحمه الله ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة وتوفى سنة تسع وستين * وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وتوفى سنة تسع وثمانين * فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى وكلاهما لم يستكمل ستين سنه * فانظر كيف اتفق ان بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما احدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين * وملكها صلاح الدين سنة سبعين * فبقيت دمشق فى المملكة النورية عشرين سنة وفى المملكة الصلاحية تسع عشرة سنه * تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنه * وهذا من عجيب ما اتفق فى العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما فى سيرتيهما والفضل للمتقدم فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله * والارشاد الى عظم محله * فانه أصل ذلك الخير كله * مهد الامور بعدله وجهاده * وهيبته فى جميع بلاده * مع شدة الفتق * واتساع الخرق * وفتح من البلاد * ما استعين به على مداومة الجهاد * فهان على من بعده على الحقيقه * سلوك تلك الطريقه * لكن صلاح الدين أكثر جهادا * وأعم بلادا * صبر وصابر * ورابط وثابر * وذخر الله له من الفتوح أنفسه * وهو الذى فتح الارض المقدسه * فرضى الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر (كم ترك الاول للآخر)

وألبس الله هاتيك العظام وان * بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
يسقى ثرى أودعوه رحمة ملأت * مثوى قبورهم روحا وريحانا

وقد سبقنى الى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء * والاكابر الفضلاء * فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن الدمشقى فى تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكى رحمه الله ولاجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه فى خطبته وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى فى مذيل التاريخ الدمشقى قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية الى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى عرف بابن الاثير مجلدة فى الايام الاتابكية كلها وما جرى فيها وفيه شئ من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق احدى الدولتين بالاخرى لكونها متفرعة عنها وصنف القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلى عرف بابن شداد قاضى حلب مجلدة فى الايام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى وصنف الامام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى كتابين كلاهما مسجوع متقن بالالفاظ الفصيحة والمعانى الصحيحة أحدهما الفتح القدسى اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والثانى البرق الشامى ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة الى وفاة صلاح الدين وهى

سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية الا ان العماد فى كتابه طويل النفس فى السجع والوصف يمل الناظر فيه * ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه * فحذفت تلك الاسجاع الاقليلا لانها استحسنتها فى مواضعها ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه فى أخبار فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى وانتزعت المقصود من الاخبار من بين تلك الرسائل الطوال * والاسجاع المفضية الى الملال * وأردت ان يفهم الكلام الخاص والعام واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال * ومافيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضليه * وعلى جملة من الاشعار العماديه * مما ذكره فى ديوانه دون برقه وعلى كتب اخرى من دواوين وغيرها فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو باحديهما وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقاة * ومن المدركين لتلك الاوقات * فاختصرت جميع مافى ذلك من أخبار الدولتين وماحدث فى مدتيهما من وفاة خليفة أووزير * أوأمير كبير * أوذى قدر خطير * وغير ذلك * فجاء مجموعا لطيفا * وكتابا طريفا * يصلح لمطالعة الملوك والاكابر * من ذوى المآثر والمفاخر * وسميته (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين) ولله در حبيب بن أوس حيث يقول

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ❊ فكأنها وكأنهم أحلام

﴿فصل﴾ أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القسم محمود بن عماد الدين اتابك وهو أبو سعيد زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركى ويلقب زنكى أيضا بلقب والده قسيم الدولة ويقال لنور الدين بن القسيم وسنتكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه وقدمت من اجمال أحواله مايستدل به على أفعاله ذكر الحافظ أبو القاسم فى تاريخه انه ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة وان جده آق سنقر ولى حلب وغيرها من بلاد الشام ونشأ أبوه زنكى بالعراق ثم ولى ديار الموصل والبلاد الشامية وظهرت كفايته فى مقابلة العدو عند نزوله على شيزر حتى رجع خائبا وفتح الرها والمعرة وكفر طاب وغيرها من الحصون الشامية واستنقذها من أيدى الكفار فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة احدى وأربعين وخمسمائة ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازيا فى اعمال تل باشر فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد وكسر ابرنس انطاكية وقتله وثلاثة آلاف افرنجى معه وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التى كانت لهم فى التأذين وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ووقف الاوقاف واظهر العدل وحاصر دمشق مرتين وفتحها فى الثالثة فضبط أمورها وحصن سورها وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها ووسع أسواقها ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وعاقب على شرب الخمر واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة وغيرهما وكان فى الحرب ثابت القدم حسن الرمى صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى ان يحشره من بطون السباع وحواصل الطير ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمى الخط والقرآن وساكنى الحرمين وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التى بأحد وبنى الربط والجسور والخانات وجدد كثيرا من قنى السبيل وكذا صنع فى غير دمشق من البلاد التى ملكها ووقف كتبا كثيرة وحصل فى أسره جماعة من أمراء الفرنج وكسر الروم والارمن والفرنج على جارم وكان عدتهم ثلاثين ألفا ثم فتح جارم وأخذ أكثر قرى انطاكية ثم فتح الديار المصرية وكان العدو قد أشرف على أخذها ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينيه متبعا للآثار النبويه مواظبا على الصلوات فى الجماعات عاكفا على تلاوة القرآن حريصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصدا فى الانفاق متحريا فى المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره واشهى ما اليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد الى سنة يتبعها وقال أبو الحسن بن الاثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا اكثر تحريا للعدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه ونحن نذكر ما نعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه فلو كان فى امة لافتخرت به فكيف ببيت واحد اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها الايأكل ولا يلبس ولا

يتصرف فيما يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين احضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فاخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبتة ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير او ذهب او فضة ومنع من شرب الخمر و بيعها فى جميع بلاده ومن ادخالها الى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى كل الناس عنده فيه سوا

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين و وزيرها قال كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس فى المكان المختص به وتقوم فى خدمته لا تتقدم اليه الا ان يأذن فى أخذ ثيابه عنه ثم تعتزل عنه الى المكان الذى يختص بها او ينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الاشغال أوفى مطالعة كتاب أتاه و يجيب عنهما وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل و يقوم الى الوضوء والصلاة الى بكرة فيظهر للركوب و يشتغل بمهام الدولة قال وانها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها فارسلتنى اليه اطلب منه زيادة فى وظيفتها فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال من أين أعطيها اما يكفيها مالها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ان كانت تظن ان الذى بيدى من الاموال لى فبئس الظن انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها قال وكان يحصل منها قدر قليل قال ابن الاثير وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الا بنية حسنة كان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس وكان نور الدين يكاتبه و يراسله و يرجع الى قوله و يعتقد فيه اعتقادا حسنا فبلغه ان نور الدين يدمن اللعب بالكرة فكتب اليه يقول ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول والله ما يحملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر وانما نحن فى ثغر العدو قريب منا و بينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على أدمان السير فى الطلب ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب فهذا والله الذى بعثنى على اللعب بالكرة قال ابن الاثير فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير الذى يقل فى أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله فان من يجئ الى اللعب يفعله بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل فى العالم مثله وفيه دليل على انه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين وحكى عنه انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها و بيناهم معه فى حديثها واذا قد جاءه رجل صوفى فامر بها له فقيل له انها لا تصلح لهذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له فانى أرجو ان اعوض عنها فى الاخرة فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميرى أو سبعمائة دينار قلت قرأت فى حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى اياها قال أعطاها الشيخ الصوفية عماد الدين أبى الفتح بن حمويه بغير طلب ولا رغبة فبعثها الى همدان فبيعت بألف دينار قال ابن الاثير وحكى لنا الامير بهاء الدين على بن السكرى وكان خصيصا بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط قال كنت معه يوما فى الميدان بالرها والشمس فى ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فاجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لى اتدرى لاى شئ أجرى فرسى وألتفت ورائى قلت لا قال قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت رضى الله عن ملك يفكر فى مثل هذا وقد أنشدت بيتين فى هذا المعنى

مثل الرزق الذى تطلبه ❊ مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه متبعا ❊ فاذا وليت عنه تبعك

قال ابن الاثير وكان يعنى نور الدين رحمه الله يصلى كثيرا من الليل ويدعو و يستغفر ويقرأ ولا يزال كذلك الى ان يركب

جمع الشجاعة والخشوع لربه ❊ ما أحسن المحراب فى المحراب

قال وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته فى كل شئ وسمع الحديث وأسمعه طلبا للاجر وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف وترك

المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه والزم بذلك اتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم واستحيوا ان يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامه قال فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى اليه الاموال الكثيرة فليذكر نبى الله سليمان ابن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيد الزاهدين فى زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين قال وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها قال وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما فمن عدله انه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا بل اطلقها رحمه الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل واعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا وهذا لم تتسع له نفس غيره وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان القوى والضعيف عنده فى الحق سواء وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلاجرم سار ذكره فى شرق الارض وغربها قال ومن عدله انه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن نحفظ لها نمضى أوامرها فمن اتباعه أحكامها انه كان يلعب بدمشق بالكرة فرأى انسانا يحدث آخر ويومى بيده اليه فأرسل اليه يسأله عن حاله فقال لى مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضى ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمنى على الملك الفلانى فعاد اليه ولم يتجاسر ان يعرفه ما قال ذلك الرجل وعاد يكتمه فلم يقبل منه غير الحق فذكر له قوله فالقى الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضى وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزورى وأرسل الى القاضى يقول له انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر هل ثبت له عندى حق قالوا لا فقال اشهدوا انى قد وهبت له هذا الملك الذى قد حاكمنى عليه وهو له دونى وقد كنت أعلم انه لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن انى ظلمته فحيث ظهر ان الحق لى وهبته له قال ابن الاثير وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهى درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الموافقة معه قلت وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتفرق الكلمة والا فقد انقاد الى المضى الى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلى رضى الله عنهما ثم حكى نحو ذلك عن أبى جعفر المنصور وقد نقلنا ذلك كله فى التاريخ الكبير وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض اليه وقد بلغنى ان نور الدين رحمه الله تعالى استدعى مرة أخرى بحلب الى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه فدخل حاجبه عليه متعجبا واعلمه ان رسول الحاكم بالباب فانكر عليه تعجبه وقام رحمه الله مسرعا ووجد فى أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوش واستخراج ما فيه فوكل من ثم وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع قال ابن الاثير ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد فى غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة فى العقوبة والاخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر قال وحكى لى من أثق به انه دخل يوما الى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل ان القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شئ وأمر برده واعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه فأرسله متولى الخزانة الى كمال الدين فرده الى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى انه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال وأما أنا فرقبتى دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى يعاد قولا واحدا قال ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب ما يحكى ان انسانا كان بدمشق غريبا استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله فلما توفى تعدى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكاه

فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه وطيب قلبه ووهبه شيئا وأنصفه فبكى أشد من الاول فقال له صلاح الدين لم تبكي قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكلما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه قلت ومن عدله انه بنى دار العدل قال ابن الاثير كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل وكان سبب بنائها انه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كانه شريك في الملك واقتنوا الاملاك وأكثروا تعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها فكثرت الشكاوى الى كمال الدين فانصف بعضهم من بعض ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه فانهى الحال الى نور الدين فامر حينئذ ببناء دار العدل فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم اعلموا ان نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار الا بسببي وحدي والا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبنه فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شئ أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي فقالوا له ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال خروج املاكي عن يدي أسهل علي من ان يراني نور الدين بعين أني ظالم أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين فقال نور الدين لكمال الدين ما أرى أحدا يشكو من شيركوه فعرفه الحال فسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا قال ابن الاثير فانظر الى هذه المعدلة ما أحسنها والى هذه الهيبة ما أعظمها والى هذه السياسة ما أسدها هذا مع انه كان لا يريق دما ولا يبالغ في عقوبة وانما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته قال وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما فانه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا وأجودهم معرفة بأمور الاجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون انهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كانما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدرهم عليها لم ير جوكانه يعلو على رأسه وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها الى آخر الميدان وكانت يده لا ترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب وكان اذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فانك عمادهم ولئن اصبت والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف وأخذت البلاد فقال يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو قال وكان رحمه الله يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ما ملكه من بلادهم به ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا وكان يقاتل به الافرنج وكان يقول انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة وليس لنا اليها طريق وهو يخرج منها اذا أراد فينال من بلاد الاسلام فاذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج قال وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيره غير هذا الطريق ملك المتولي الارمن بعد مليح كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه قال ومن أحسن الاراء ما كان يفعله مع أجناده فانه كان اذا توفي أحدهم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه فان كان الولد كبيرا استبد بنفسه وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه فيتولى أمره الى ان يكبر فكان الاجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها وكان ذلك سببا عظيما من الاسباب

الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب وكان ايضا يثبت اسماء اجناد كل أمير فى ديوانه وسلاحهم خوفا من حرص بعض الامراء وشحه ان يحمله على ان يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد و يقول نحن كل وقت فى النفير فاذا لم يكن أجناد كافة الامراء كاملى العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام قال ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا قال وأما فعله فى بلاد الاسلام من المصالح مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماة وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها واحكم بناءها واخرج عليها من الاموال ما لا تسمح به النفوس وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية وبنى الجوامع فى جميع البلاد فجامعه فى الموصل اليه النهاية فى الحسن والاتقان ومن أحسن ما عمل فيه انه فوض أمر عمارته والخروج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله وهو رجل من الصالحين فقيل له ان هذا لا يصلح لمثل هذا العمل فقال اذا وليت العمل بعض أصحابى من الاجناد والكتاب اعلم انه يظلم فى بعض الاوقات ولا يفى الجامع بظلم رجل مسلم واذا وليت هذا الشيخ غلب على ظنى انه لا يظلم فاذا ظلم كان الاثم عليه لا علىّ قال وهذا هو الفقه فى الخلاص من الظلم وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها وجدد فى غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم اما بزلزلة أو غيرها وبنى البيمارستانات فى البلاد ومن اعظمها البيمارستان الذى بناه بدمشق فانه عظيم كثير الخرج جدا بلغنى انه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غنى وفقير قال وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أر ده شعرا بذلك وانما هذا كلام شاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الاغنياء للفقراء فيه والله المستعان وانما صرح بأن ما يعز وجوده من الادوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج اليه من الاغنياء والفقراء فخص ذلك بذلك فلا ينبغى ان يتعدى الى غيره لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين وقال بعد ذلك فمن جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى وروى ان نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه وذلك موافق لقوله فى كتاب الوقف من جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى والله أعلم وبلغنى فى أصل بنائه نادرة وهى ان نور الدين رحمه الله وقع فى أسره بعض أكابر ملوك الفرنج خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه فى فدائه مالا عظيما فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ومال نور الدين الى الفدى بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلا لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفدا وموت ذلك اللعين فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الامراء لانه لم يكن عن ارادتهم كان قال ابن الاثير وبنى أيضا الخانات فى الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم وباتوا فى الشتاء فى كن من البرد والمطر وبنى أيضا الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضا وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا قال وبنى الربط والخانقاهات فى جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الادرارات الصالحة وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم فاذا أقبل أحدهم اليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عند البحث والنظر فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده فى أعلى محل وأعظمه وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول ومن المعصوم وانما الكامل من تعدذنوبه قال وبلغنى ان بعض أكابر الامراء حسد قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه فحسده ذلك الامير فنال منه يوما عند نور الدين فقال له يا هذا ان صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهى العلم والدين وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيآتكم مع عدم حسناتكم أفلا أحتمل سيئة هذا ان صحت مع وجود حسنته على انى والله لا أصدقك فيما تقول وان عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك فكف عنه قال ابن الاثير هذا والله هو الاحسان والفعل

الذى ينبغى ان يكتب على العيون بماء الذهب وبنى بدمشق أيضا دارا الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كبيرة وهو أوّل من بنى دار التحديث فيما علمناه وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للايتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة وبنى أيضا مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن قال وهذا فعل لم يسبق اليه بلغنى من عارف باعمال الشام ان وقوف نور الدين فى وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح شرعى ظاهرا وباطنا فانه وقف ما انتقل اليه ووزن ثمنه أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه قال وأمّا هيبته ووقاره فاليه النهاية فيهما ولقد كان كما قيل شديدا فى غير عنف رقيقا فى غير ضعف واجتمع له ما لم يجتمع لغيره فانه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه الى غاية لا مزيد عليها وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير ولم يجلس عنده أمير من غير ان يأمره بالجلوس الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأما من عداه كاسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الدايه وغيرهما فانهم كانوا اذا حضروا عنده يقفون قياما الى ان يأمرهم بالقعود وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم اذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه وكان اذا أعطى أحدهم شيئا يقول ان هؤلاء لهم فى بيت المال حق فاذا أقنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء لا تؤبن فيه الحرم وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه الا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة فى أمر الجهاد وقصد بلاد العدوّ لا يتعدّى هذا بلغنى ان الحافظ ابن عساكر الدمشقى رضى الله عنه حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه ما لا حدّ عليه فشرع يحدّث صلاح الدين كما كان يحدّث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدّثين وقلة استماعهم فقام وبقى مدّة لا يحضر المجلس الصلاحى وتكرّر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه فقال نزهت نفسى عن مجلسك فانى رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه الى قائل ولا يردّ جواب متكلم وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كانما على رؤسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار فاذا تكلم أنصتنا واذا تكلمنا استمع لنا فتقدّم صلاح الدين الى أصحابه انه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ قال ابن الاثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة وأما حفظ أصول الديانات فانه كان مراعيا لها لا يهملها ولا يمكن أحدا من الناس من اظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ فى ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والاذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الاصل قال وحكى ان انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر اتباعه أظهر شيئا من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فاحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع ثم نفاه من دمشق فقصد حرّان وأقام بها الى ان مات قال ويسوق الله القصار الاعمار الى البلاد الوخمة قلت وذكر العماد الكاتب فى أوّل كتابه البرق الشامى انه قدم دمشق فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة فى دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى وأخذ فى وصفه بكلامه المسجوع فقال

كان ملك بلاد الشام ومالكها والذى بيده ممالكها الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأيا وأنقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجهدهم وأظهرهم وأطهرهم وأقواهم وأقدرهم وأصلحهم عملا وأنجحهم أملا وأرجحهم رأيا وأوضحهم وأيا وأصدقهم قولا وأقصدهم طولا وكان عصره فاضلا ونصره واصلا وحكمه عادلا وفضله شاملا وزمانه طيبا واحسانه صيبا والقلوب بهابته ومحبته ممتليه والنفوس بعاطفته وعارفته متمليه وأوامره ممتثله وجدّه منزه عن الهزل وثوابه فى أمن من العزل ودولته مأمولة مأمونه وروضته مصوبة مصونه والرياسة كامله والسياسة شامله والزيادة زائده والسعادة مساعده والعيشة ناضره والشيعة ناصره والانصاف صاف والاسعاف عاف وأزر الدين قوى وظمأ الاسلام روى وزند النجح ورى والشرع مشروع والحكم مسموع والعدل مولى والظلم معزول والتوحيد منصور والشرك مخذول وللتقى شروق وما للفسوق سوق وهو الذى أعاد رونق الاسلام الى بلاد الشأم وقد غلب الكفر وبلغ الضرّ فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها

وأشاع بها شعار الشرع فى جميع الحل والعقد والابرام والنقض والبسط والقبض والوضع والرفع وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الاسلام بالشام قطائع فقطعها وعفى رسومها ومنعها ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبدّد سلوكهم وصان الثغور منهم وحماها عنهم وأحيا معالم الدين الدوارس وبنى للائمة المدارس وأنشأ الخانقاهات للصوفية وكثرها فى كل بلد وكثر وقوفها وقرّر معروفها وأدنى للوافدين من جنى جنانه قطوفها وأجد الاسوار والخنادق وأنمى المرافق وحمى الحقائق وأمر فى الطرقات ببناء الربط والخانات فضافت ضيوف الفضائل وفاضت فيوض الافاضل وهو الذى فتح مصر وأعمالها وانشأ دولتها ورجالها ثم ذكر العماد فى أثناء حوادث سنة تسع وستين وهى السنة التى توفى فيها نور الدين قال

وفى هذه السنة أكثر نور الدين من الاوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة وتعفية آثار الآثام واسقاط كل ما يدخل فى شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج قال وأمرنى بكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور وحسبنا ما تصدّق به على الفقراء فى تلك الاشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار وكانت عادته فى الصدقة انه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون فى جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف اليهم صدقاتهم وكان له برسم نفقة الخاص فى كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفى قرطيس يصرفها فى كسوته ونفقته وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويستفضل منه ما يتصدّق به فى آخر الشهر وأما ما كان يهدى اليه من هدايا الملوك وغيرهم فانه كان لا يتصرف فى شئ منه لا قليل ولا كثير بل اذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضى ويحصل ثمنه ويصرف فى عمارة المساجد المهجورة وتقدّم باحصاء ما فى محال دمشق فاناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفا قال ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته فى كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ الى أمد ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغنى عن خبرها بالعيان ويكفى أسوار البلدان عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفى شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول وواظب على عقد مجالس الوعاظ ونصب الكراسى لهم فى القلعة للانذار والاتعاظ وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابورى وهو مشغوف ببركة أنفاسه واغتنام كلامه واقتباسه ووفد من بغداد ابن الشيخ أبى النجيب الاكبر فبسط له فى كل أسبوع المنبر وشاقه وعظه وراقه معناه ولفظه وكذلك وفد اليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوروة وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه قال ولما أسقط نور الدين الجهات المحظوره والشبه المحذورة عزل الشحن وصرف عن الرعية بصرفهم المحن وقال للقاضى كمال الدين ابن الشهرزورى انظر أنت ذلك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة قال ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل ولا لديوانه طائل فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم فوفره ثوابه وكثروه وما كان نور الدين يحاسب القاضى على شئ من الوقوف ويقول أنا قد قلدته على ان يتصرف بالمعروف وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه فى بناء الاسوار وحفظ الثغور وكانت دولته نافذة الاوامر منتظمة الامور قلت وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله انه حضر مع عمه الحافظ أبى القاسم رحمه الله مجلس نور الدين لسماع شئ من الحديث فمرّ فى أثناء الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج متقلدا سيفا فاستفاد نور الدين أمرا لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف يشير الى التعجب من عادة الجند اذ هم على خلاف ذلك لانهم يربطونه بأوساطهم قال فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس يجتمعون ينتظرون ركوب السلطان فوقفنا ننظر اليه معهم فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك فرحمة الله على هذا الملك الذى لم يفرط فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة لما بلغته رجع بنفسه وردّ جنده عن عوايدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم فما الظنّ بغير ذلك من السنن ولقد بلغنى انه أمر باسقاط القابه فى الدعاء له على المنابر ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى الشاعر فى منامه انه يغسل ثيابه وقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمره بكتابة اسقاط المكوس وقال هذا تفسير منامك وكان فى تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد ان أبطل ذلك استجعل من الناس فى حل وقال والله ما أخرجناها الا فى جهاد عدوّ الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله فردا فى زمانه من بين

سائر الملوك ولو لم يكن الا استماعه للموعظة وانقياده لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها قرأت في تاريخ أربل لشرف الدين ابن المستوفي رحمه الله قال المنتخب الواعظ هو أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد اربل ووعظ بها وكان له قبول عظيم وسافر الى نور الدين محمود بن زنكي من آق سنقر الى الشام لسبب الغزاة وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها ثم ردها عليه أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف انه سمعها من لفظه

شعر

مثل وقوفك أيها المغرور ❊ يوم القيامة والسماء تمور
ان قيل نور الدين رحت مسلما ❊ فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من ❊ كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا ❊ وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول اذا نقلت الى البلى ❊ فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ❊ يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ❊ ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت انك ما وليت ولاية ❊ يوما ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة ❊ في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا ❊ قلقا ومالك في الانام مجير
أرضيت ان تحيى وقلبك دارس ❊ عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت ان يحظى سواك بقربه ❊ أبدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ❊ يوم المعاد ليعلك المعذور

قلت ولعل هذه الابيات من أقوى الاسباب المحركة للسلطان في ابطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه ووفق من رام الاقتداء به ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر ابن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه وسمعت من لفظه ان نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الاول سنة احدى وأربعين وخمسمائة وأحسن الى الرعية وثبت العدل ورفع الجور وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجاز واله منهم أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد وأبي البركات الحسن وأبي منصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي قال ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن صغير القيسراني كتبها الى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور فنقلت جميع ما فيها قال وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ويصونه عن الكذب وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد

أعلى الله قدر المولى في الدارين وبلغه آماله في نفسه وذريته وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وجده وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله الى الله تعالى بان يرضى عنه وعن والديه وان يسهل له السلوك الى رضاه والقرب منه والفوز عنده انه على كل شئ قدير رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف زاده الله شرفا وهو ان يذكر الخطيب على المنبر اذا أراد الدعاء للمولى اللهم اصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد في سبيلك المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فان هذا جميعه لا يدخله كذب ولا زيادة والرأي أعلى وأسمى ان شاء الله تعالى فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته مقصودي ان لا يكذب على المنبر انا بخلاف كل ما يقال لا أفرح بما لا أعمل قلة عقل عظيم الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره الى جميع البلاد وكتب في آخر الرقعة ثم نبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم اسعده اللهم انصره اللهم وفقه

من هذا الجنس قال وحدّثنى والدى قال استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم وشرف الدين بن أبى عصرون الى الميدان الاوّل وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص فلما شهدنا عليه التفت الينا وقال بالله انظروا أى شئ علمتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه واشركونا فى الثواب فقال شرف الدين بن أبى عصرون والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر الا وقد فعله ولم يترك لاحد من بعده فعل خير الا وقد سبقه اليه وقال قال لى والدى دخل فى أيام نور الدين الى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف بها ولدا صغيرا ومالا كثيرا فكتب بعض من بحلب الى نور الدين يذكر له انه قد مات هاهنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها وله ولد عمره عشر سنين وحسن له ان يرفع المال الى الخزانة الى ان يكبر الصغير يرضى منه بشئ ويمسك الباقى للخزانة فكتب على رقعته أما الميت فرحمه الله وأما الولد فانشاه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعى فلعنه الله قال وبلغتنى هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا وحدّثنى الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النورى قال سمعت الطواشى شاذبخت الخادم يحكى لنا قال كنت يوما أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما وجعل ينكت بأصبعه فى الارض فتعجبنا من فكره وقلنا ترى فى أى شئ يفكر فى عائلته أو فى وفاء دينه فكانه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان فقلنا ما قلنا شيئا فقال بحياتى قولا لى فقلنا تعجبنا من افراط مولانا فى الفكر وقلنا يفكر فى عائلته أو فى نفسه فقال والله انى أفكر فى وال وليته أمرا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابى وأعوانى وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم والا فخبزى عليكم حرام لا تريان قصة ترفع الىّ أو تعلمان مظلمة الا وأعلمانى بها وارفعاها الىّ

وسمعت قاضى القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال كان نور الدين ينفذ كل سنة فى شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملا شيئا يفطر عليه فكان ينفذ اليه الا كياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك فكان نور الدين يفطر عليه وكان اذا قدم الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا قال وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل ان لا يعمل شيئا الا بالشرع اذا أمر القاضى به وان لا يعمل القاضى والنوّاب كلهم شيئا الا بأمر الشيخ عمر الملا قال وكان لا يعمل بالسياسة وبطلت الشحنكية فى أكابر الدولة وقالوا الكمشتكين قد كثر الدعار وارباب الفساد ولا يجئ من هذا شئ الا بالقتل والصلب فلو كتبت الى نور الدين وقلت له فى ذلك فقال لهم أنا لا أكتب اليه فى هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب اليه فحضروا عنده وذكروا له ذلك فكتب الى نور الدين وقال له ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع سياسة فمثل هذا لا يجئ الا بقتل وصلب وضرب واذا أخذ مال انسان فى البرية من يجئ يشهد له قال فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ولو علم ان على الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى قال فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا فى كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول سمعت مقلدا يعنى الدولعى يقول لما مات الحافظ المرادى كنا جماعة الفقهاء فيما بين العرب والاكراد فمنا من مال الى المذهب وأردنا ان نستدعى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون وكان بالموصل ومنا من مال الى علم النظر والخلاف وأراد ان يستدعى القطب النيسابورى وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد الى بلاد العجم فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء الى القلعة بحلب وخرج اليهم مجد الدين يعنى ابن الداية عن لسانه وقال لهم نحن ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واظهار الدين وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق وقد قال المولى نور الدين نحن نرضى الطائفتين ونستدعى شرف الدين بن أبى عصرون وقطب الدين النيسابورى فاستدعاهما جميعا وولى مدرسة ابن أبى عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى لقطب الدين قال وعلقت أيضا من خط فقيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبى الحسن بن بنجة الاشترى وكان ممن ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة قال كان نور الدين يقعد فى الاسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام فى دار العدل للنظر فى أمور الرعية وكشف الظلامة لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع الى خزانته وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلبا للثواب والزلفى فى الآخرة

ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل اليه الضعيف والقوى والفقير والغنى ويكلمهم باحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغنى فى دفع الفقير بالمال ولا القوى فى دفع الضعيف بالقتال ويحضر فى مجلسه العجوز الضعيفة التى لا تقدر على الوصول الى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعا فى عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله فيظهر الحق عنده فيجرى الله تعالى على لسانه ما هو موافق الشريعة ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الامور الغامضة فلا يجرى فى مجلسه الا محض الشريعة قال وأما زمانه فهو مصروف الى مصالح الناس والنظر فى أمور الرعية والشفقة عليهم وأما فكره ففى اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله وفى زمانه صارت مقرّ العلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم ولم يكن من هذه الخصال الا ما علم منه وشاع انه اذا وعد وفى واذا أوعد عفا واذا تحدّث بشئ وقف عليه ولا يخالف قوله ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لسكن ولا يجرى فى مجالسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح فى الناس والكلام فى اعراضهم كما يجرى فى مجالس سائر الملوك ولا يطمع فى أخذ أموال الناس ولا يرضى بان يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق قال وبلغنا باخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم انه أكثر الليال يصلى ويناجى ربه مقبلا بوجهه عليه ويؤدّى الصلوات الخمس فى أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها قال وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار انهم يقولون ابن القسيم له مع الله سر فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل فانه يصلى بالليل و يرفع يده الى الله ويدعو فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يردّ يده خائبة فيظفر علينا قال فهذا كلام الكفار فى حقه قال وحدّثنا الشيخ داود المقدسى خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام قال حضرت فى دار العدل فى شهر ربيع الاوّل سنة ثمان وخمسين فقام رجل وادّعى على الملك العادل ان أباه أخذ من ماله شيئا بغير حق قال وأنا مطالب لك بذلك فقال نور الدين أنا ما أعلم ذلك فان كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد اليك ما يخصنى فانى ما ورثت جميع ماله كان هناك وارث غيرى فمضى الرجل ليحضر البينة فقلت فى نفسى هذا هو العدل قال وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد فسألت عنه فقالوا أخو الشيخ أبى البيان وكان قد اودع عند أخيه أبى البيان وديعة وقد توفى فادعى المودع على هذا الشيخ انه يعلم بالوديعة وطالبه بالرد عليه فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة فأوجب عليه القاضى كمال الدين حكم الشرع ان يحلف انه لا علم له بهذه الوديعة فحلف على ذلك فجعل المودع يشنع عليه ويقول انه حلف كاذبا ويتكلم فى عرضه ويقول فى حقه من التمس وغيره فحضر عند الملك العادل شاكيا منه وذاكرا سيرته وطريقته ومن الذى يقدر ان يقول فى حق هذا ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل والتقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول فى حقه فلما فرغ من الكلام ورمى ما كان فى جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة وكان حاصله التماس الانكار عليه فقال الملك العادل أليس ان الله تعالى يقول فى كتابه واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فاذا كان هو يجهل عليك ويقول فى حقك بالجهل ما لا يجوز فيجب عليك ان لا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله فكانك قابلت الاساءة بالاساءة ومن حقك ان تقابل الاساءة بالاحسان فقلت فى نفسى الحق ما قال الملك العادل أمّا قراء هذا فى كتب التفاسير فثبت فى قلبه وأجراه الله على لسانه وأنطقه به قال وحضر جماعة من التجار وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار فى الوسط وانما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية فسكت ساعة وقال اذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكانى خربت بيوت الرعية فان كل واحد من السوقة عنده عشرة الاف وعشرون ألف قرطاس أى شئ يعمل به فيكون سببا لخراب بيته قال فأى شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية قال وحضر صبى وبكا عند الملك العادل وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف فسأل عن حاله

فقالوا هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف وليس له قدرة على الاجرة وقد حبسه وكيل الوقف لانه اجتمع عليه أجرة سنة فسأل الملك العادل كم أجرة السنة فقالوا مائة وخمسون قرطاسا وذكروا سيرته وطريقته وفقره ففرّق له وأنعم عليه وقال نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه الى الاجرة ويقعد فيها وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس فوصل الى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويدا يحضر الخصوم الى مجلس الحكم فحضر بعض التجار وادّعى انّ له على نور الدين دعوى فقال الكردري لسويد المذكور امض الى نور الدين وادعه الى مجلس الحكم وعرّفه انه حضر شخص يطلب حضوره وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد الى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده مقدم سويد اليه وقال سيرني تاج الدين يعني القاضي وذكر انه حضر تاجر وذكر ان له دعوى على المولى نور الدين وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا فضحك اسماعيل الخزندار ودخل على نور الدين ضاحكا وقال له مستهزئا يقوم المولى فقال الى أين فقال حضر سويد غلام تاج الدين الكردري وقال انّ تاج الدين أرسله يطلب المولى الى مجلس الحكم فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه وقال تستهزئ بطلبي الى مجلس الحكم وقال نور الدين يحضر فرسي حتى نركب اليه السمع والطاعة قال الله تعالى انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى سويدا وقال له امض الى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له انى جئت الى هاهنا امتثالا لامر الشرع واحتاج في الحضور الى مجلسه الى سلوك هذه الازقة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى وان توجهت على يمين أحضر ان شاء الله تعالى قال فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجهت اليمين فقال الكردري قد توجهت اليمين فليحضر فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم انه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر وأصلح الامر فيما بينه وبينه وأرضاه وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال أرسلني الملك العادل نور الدين الى عمي أسد الدين شيركوه وكان لا يفعل شيئا الا بمشورته فقال امض وقل لاسد الدين قد خطر في بالي ان أبطل هذه الضمانات باسرها والمؤن والمكوس واخذ رأيه في ذلك قال فجئت اليه وأنهيت ما قال لي فقال امض وقل له يا مولانا اذا فعلت ذلك فالاجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم ويحتاج اليهم للغزاة وخروج العساكر قال السلطان صلاح الدين فقلت لعمي هذا أمر قد ألهمه الله اياه فساعده عليه فصاح فيّ وقال امض اليه وقل له ما أقول لك قال فعدت الى نور الدين فانهيت اليه ما قال عمي فقال امض اليه وقل له اذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج قال فعدت الى عمي وقلت ما قال فقال قل له ان تركوك تقعد فيدهو فراجعته في ان لا يثبطه عن ذلك فصاح فيّ وقال امض اليه وقل له ما أقول لك فجئت اليه وقلت له ذلك فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه قال لي صقر بن يحيى بلغني ان موفق الدين خالدا رأى في النوم كأن نور الدين دفع اليه ثيابه ليغسلها فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل فاستدعاه يوما نور الدين وقال تعال قد آن لك ان تغسل ثيابي اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والاعشار واكتب للمسلمين انى قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم قال فكتب موفق الدين توقيعا سمعت خليفة ابن سليمان بن خليفة الفقيه يقول سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين يعني كسرة البقيعة تكلم البرهان البلخي فقال أتريدون ان تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور كلا وكلا ما مع هذا فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة وشرع في ابطال المكوس الى ان خرج في نوبة حارم وكسر الافرنج سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري وكان ابوه أحد مماليك نور الدين فاعتقه يقول سمعت والدى يقول كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل قال وكان يرفع يديه الى السماء ويبكي ويتضرع ويقول ارحم العشار المكاس قال لي قاضي القضاة بهاء الدين سير نور الدين الى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق ويسأله ان يتقدم الى الوعاظ بأن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل اليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك حدثني رضي الدين

أبو سالم عبد المنعم بن المنذر ان نور الدين حين خرج لاخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته فأمره نور الدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحرّان وسنجار والرحبة وعزاز وتلّ باشر وعداد العرب فكتب عنه توقيعا نسخته

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به الى الله سبحانه وتعالى صالحا وأطلقه مسامحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم الله لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار أبادهم الله عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد رأفة بالمسلمين المثاغرين ولطفا بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد واستحنهم بمجاورة أهل العناد اختبارا لصبرهم واعظاما لاجرهم فصبروا احتسابا وأجزل الله لهم أجرا وثوابا انما يوفى الصابرون أجورهم بغير حساب وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من املاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمريه وأقرّها في الدولة الاسلاميه بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدّمين واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدّي وأقرّ الحق مقرّه لقوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره وقمع به عادية الكفر وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفره بالفئة الطاغيه وأمكنه من ملوكها الباغيه فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرقاد وآخرين مقرنين في الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب علم ان الدنيا فانيه فاستخدمها للآخرة الباقيه واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخرا للمعاد فالتقوى مادّة داره اذا انقطعت المواد وجادّه واضحة حين يلتبس الجواد يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول اليها ومتهافت عليها تجنبا لاثمها واكتسابا لثوابها فكان مبلغ ما سامح به واطلقه وأنفذ الامر فيه اتباعا لكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار جهة ذلك حلب خمسون ألف دينار عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار تل باشر أحد وعشرين ألف دينار المعرّة ثلاثة آلاف دينار دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على نفسهم وأموالهم من استيلاء العدوّ وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة وهو رسم يسمونه القسمة عشرون ألف دينار حمص ستة وعشرين ألف دينار حرّان خمسة آلاف دينار سنجار ألف الرحبة عشرة آلاف دينار عداد العرب عشرة آلاف دينار وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها وما وقفه على دور الصرفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والاسوار وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز وما وقفه على فكاك الاسرى وتعليم الايتام ومقرّ الغربا وفقراء المسلمين وما وقفه على الاشراف العلويين والعباسيين وما ملكه لجماعة من الاولياء والغزاة والمجاهدين هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدّم ذكرها فانه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه جعل ذلك ذريعة عند الله وتقربا اليه مضافا الى ما أنفقه في الغزاة والجهاد واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد من خزائنه المعموره وأمواله الموروثة المذخوره طلبا لما عند الله والله عنده حسن الثواب فالواجب على كل امام عدل وسلطان قادر ان يمدّه ويودّه ويشدّ عضده ويقوّي عزمه وينفذ حكمه وعلى كل مسلم ان يواصله بالدعاء أثناء الليل وأطراف النهار كتبه خادم دولته وغذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي غفر الله له ورحمه ورضي عنه الى كل من يصل اليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين أحسن الله توفيقهم وسدّد الى اغراض الخير تفويقهم ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّدين اليهم من السفار ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويمدّوه بأدعيتهم ويبرؤا ذمّته مما سبق من أخذ مؤنتهم فانه لم يصرف ذلك الا في خدمة وجه برّ وتجهيز جيش ومعونة مجاهد وردع كافر ومعاند فهم شركاؤه في الثواب

قال لى رضى الدين أبو سالم بن المنذر فلما وقف نور الدين على قوله ويرئ ذمته مما سبق استحسن ذلك كثيرا ووعده باقطاع حسن واتفق موته بعد ذلك قلت ونقلت من خط الشيخ الامين أبى القاسم عبد الرحمن بن الحسين ابن الخضر ابن الحسين بن عبدان الازدى الدمشقى وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التى من قبليه بعد عمارته واصلاح ما يحتاج اليه على تطييب المساجد التى يأتى ذكرها وهى جامع دمشق المحروسة جامع قلعة دمشق مدرسة الحنفية التى جدّدها نور الدين مسجد ابن عطية داخل باب الجابية مسجد بن لبيد بالفسقار مسجد سوق الرماحين المسجد المعلق بسوق الصاغة مسجد دار البطيخ العتيق مسجد العباسى بسوق الاحد مسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود جامع الصالحين بجبل قاسيون يبتاع بذلك عرد وطيب ويفرّق على هذه الاماكن النصف للجامع بدمشق والنصف الثانى ينقسم على احد عشر جزأ جزآن للمدرسة وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزء واحدا تطييب هذه الاماكن فى الاوقات الشريفة ومواسم الاجتماعات وليالى شهر رمضان والاعياد وأيام الجمع وقت عقد الجمعة فى الجوامع وليالى الجمعة والخميس والاثنين ونقلت من خطه أيضا ان نور الدين رحمه الله حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضى زكى الدين أبو الحسن على بن محمد بن يحيى القرشى والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد والامام عز الدين أبو القاسم على بن الماسح الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكى وشرف الاسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلى ورضى الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمى رئيس دمشق ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبى المضا متولى الوزارة بدمشق والاعيان من شهود العدالة بدمشق وهم عبد الصمد بن تميم وعبد الواحد بن هلال والصائن أبو الحسين وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف الى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التى ليست وقفا عليه وان يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم ليس يجوز لاحد منكم ان يعلم من ذلك شيئا الا ويذكره ولا ينكر شيئا مما يقوله غيره الا وينكره والساكت منكم مصدّق الناطق ومصوّب لقوله وليس العمل الا على ما تتفقون عليه وتشهدون به وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون فى مصالح المسلمين فكل من الحاضرين شكره على ما قصده وأثنى عليه ودعا له بالبقاء ثم أمر نور الدين متولى أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وفى السبيل وما يجرى مع ذلك ان يقرأ عليهم بحضر من المذكورين ضريبة الاوقاف موضعا موضعا ليفردوا ما يعلمون انه للمصالح دون الوقف فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان فقال الصائن وابن تميم وابن هلال هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لانه أحدث فى طريق المسلمين وقد صرف فى الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة ثم عين للمصالح أيضا ما فى زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد فى الصف القبلى والشامى من العضائد والحوانيت والحجر التى طباقها وطباق الطريق بحضرتها وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل وحانوت الخواصين فى الصف الغربى واثنا عشر حانوتا متلاصقات فى الصف الشرقى تعرف بالمعتصميات ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة الى سوق على وعدّتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة وثلاث حوانيت فى الصف الشامى من سوق على ملصق الفرجة من شرقها وحانوت بالفسقار فى الصف القبلى يعرف بسكنى ثعلب الفقاعى وحوانيت اللبادين والتى بحضرة الفرارة وتحت اللبادين وقيسارية العقيقى بسوق الاحد وتعرف بدار الشجرة وحانوتان فى الصف الشرقى بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين وحانوت بقنطرة الشماعين فى الصف الشامى بحضرة البياطرة وقطعة بجوار المأمونية من غربها والعضائد التى فى الصف الشامى من سوق الاحد وهى خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة وذلك كله بعضه ميراث عن بنى أمية كالخضراء ودار الخيل وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال وبعضه أحدث فى الطريق فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكروا ان منافع ذلك وأجوره جارية فى المصالح قال نور الدين انّ أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه ثم

سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها فى عمارة الاسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين عبدالوهاب المالكى بجواز ذلك ومنهم من روى فى مهلة النظر وقال الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الشافعى لايجوز ان يصرف وقف مسجد الى غيره ولا وقف معين لجهة الى جهة غير تلك الجهة واذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقه الا ان يقترضه من اليه الامر فى بيت مال المسلمين فيصرفه فى المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك ثم سأل ابن أبى عصرون نور الدين هل أنفق شئ قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكلاسة من شأم الجامع وعلى انشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامى من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير اذن مولانا وهل كان الا مبلغا للامر العالى فى عمل ذلك فقال نور الدين لم ينفق ذلك ولا شئ منه الا باذنى وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين وكتب مبلغا عنى ومؤديا أمرى قلت وقد رأيت المحضر الذى كتب فيه صورة ماجرى فى ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك فى وقوفه مع أوامر الشرع وفى ذلك المحضر خطوط لجماعة الحاضرين وصورة ما كتبه المالكى المفتى (حضرت المجلس المذكور عمره الله وزينه بالعدل أبدا ما عاش صاحبه وشهدت على ما تضمنه من المشورة المباركة وما نسب الى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب اليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة وقد ذكروها فى المصالح المشهورة وما نسب الىّ من الفتوى فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أوضعفه عن القيام بما يحتاج اليه المسلمون ومهماتهم الدينية كتبه عبدالوهاب بن عيسى بن محمد المالكى)

﴿فصل﴾ وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى باشعار كثيرة وأوصافه فوق ما مدح به وكان فى أوّل دولته شاعرا زمانهما أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير وأبو الحسن أحمد بن منير ولهما فيه اشعار فائقة سيأتى جملة منها فى مواضعها وقد رأيت ان أقدم منها شيئا هنا قرأت فى ديوان محمد بن نصر القيسرانى (كتبت الى نور الدين سلام الله وحنانه ورأفته وامتنانه وروحه وريحانه على من عصم بعز العواصم وخصم بحجته الدهر المخاصم والجم بهيبته العائب والواصم الذى انتضى فى سبيل الله سيوف الجهاد وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد واهتدى الى طاعة الله وليس غير الله من هاد ومن أصبحت أطراف البلاد أوطاد المملكته ومعاقل الكفار فى عقال ملكته ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر وممالك الاسلام متوجة بتيجان الفخر وصعاب الامور منقادة اليه بازمّة القهر ومن رأى الحكم دارسة فبنى مدارسها والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ومن عمر ربع السنن بعد ماعفى وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا ومن نشر اعلام الفضل وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ومن أنار بوجهه الايمان وأخذ الناس به من الزمان توقيع الامان شعر

ذو الجهادين من عدوّ ونفس ❊ فهو طول الحياة فى هيجاء
فهو المالك الذى ألزم الناس ❊ سلوك المحجة البيضاء
قد هديت الملوك للعدل لما ❊ سرت فى الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت فى الناس حتى ❊ لقسمت التقى على الاتقياء
شيم الصالحين فى جتر الترك ❊ وكم من سكينة فى قباء
أنت حينا تقاس بالاسد الورد ❊ وحينا تعدّ فى الاولياء
صاغك الله من صميم المعالى ❊ حيث لا نسبة سوى الآلاء
وكان القباء منك لماضمّ ❊ من الطهر مسجد بقباء
أنت الا تكن نبيا فما فاتك ❊ الاخلائق الانبياء
رأفة فى شهامة وعفاف ❊ فى اقتدار وسطوة فى حياء
وجمال ممنطق بجلال ❊ وكمال متوج ببهاء
واذا ما الملوك خافت سهام الذ ❊ م زرّت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك انك فى الحر ❊ ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكان السيوف من عزمك الما ❊ ضى أفادت ماعندها من مضاء
ولعمرى لو استطاع فداك الـ ❊ قـوم بالامهات والأباء

وله فيه شعر

لله عزمك أى سيف وغى ❊ طبعت مضاربه على القهر
مازفت الحرب العوان به ❊ الا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنى ❊ صدع الدجى عن خجله البدر
ملك مهابته طليعته ❊ أبدا امام جيوشه تسرى
كم فل كيدهم بصاعقة ❊ شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم ❊ فالقوم قبل الاسر فى أسر
عصم العواصم فهى ضاحكة ❊ تجلو الظبى ثغرا على الثغر
فاذا سرايا خيله قفلت ❊ نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندلها ❊ حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلى عن نهج سيرته ❊ هل غير مفرق هامه الفجر
عال حقيق من تأمله ❊ ان يحيى العمرين بالذكر
وشهامة فى الله خالصة ❊ عقدت عليه تمائم الاجر
وندى يد ماضر واردها ❊ ان لا يبيت مجاور البحر
هذا المخيم فى ذرى حلب ❊ وثناؤه أبدا على ظهر

وله فيه وقد وصف داره

دار تغار الشمس فى أفق ❊ من حسنها والشمس مغيار
يزأر فيها ضيغم ماله ❊ غير سيوف الهند أظفار
تمسى وتضحى وهو جارها ❊ والله ذو العرش له جار
لسيفه الباتر من دهره الـ ❊ جائر ما يهوى و يختار
قد ملأ الاسفار من ذكره ❊ تشرله فى الارض إسفار
حمد يضوع الجو من طيبه ❊ كأنما راويه عطار
ان خطرت فى قلبه خطرة ❊ أجابها ماض وخطار
وان دعا داعيه يوم الوغى ❊ سيوفه لبته أقدار
وانما صارمه مرسل ❊ له من التأييد أنصار
يا مالك الدنيا ولكنها ❊ دنيا لها فى الدين آثار
و يا جوادا ما لا لآته ❊ غير قضاء الحمد مضمار

وله فيه أيضا

تدارك ملة العربى ذبا ❊ الى ان عده منه معد
وحل ذرى العواصم وهى نهب ❊ فأجلى الشرك حتى ليس ضد
ثنى يده عن الدنيا عفافا ❊ ومال بها عن الاموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا ❊ فأهدر قبل ما أنشاه تعد
ومد لها رواق العدل شرعا ❊ وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها ❊ لدولته دعاء لا يرد

وله فيه

ملك أشبه الملايك فضلا ❊ وشبيه بمالك الامر جنده
عم احسانه فأصبح يتلى ❊ شكره فى الورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أينما حل ❊ ل ولا فاته من النصر رفده

وله فيه

ضحكت تباشير الصباح كانها ❊ قسمات نور الدين خير الناس
المشترى العقبى بأنفس قيمة ❊ والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه ❊ انّ الدعاء يعد فى الحرّاس
راض الخطوب الصم بعد جماحها ❊ وألان من قلب الزمان القاسى
وأعاد نور الحق فى مشكاته ❊ وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين سائس ملكه ❊ فحمى السياسة منه طود راسى
فهو الخبير بكل داء معضل ❊ ياسو جراح زماننا ويواسى
وأذل سلطان النفاق بعزة ❊ خضعت لها الأساد فى الاخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها ❊ ألوى يمارسها أشد مراس
ولوان فيض النيل فائض نيله ❊ لم تفتقر مصر الى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تخبط ❊ وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه ❊ وأذنت للاطماع بعد الياس
حتى منحت الخلق كل مسرّة ❊ فالناس فى عرس من الاعراس

وله فيه

بسام الشآم و يالها من صفقة ❊ لولاه ماعنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت ❊ فيها العواصم وهى غير عواصم
تلك التى جمحت على من راضها ❊ ودعوت فانقادت بغير شكائم
واذا سعادتك اجتبت فى دولة ❊ قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة ❊ فالدرع من عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع فى محلك طامع ❊ طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السموّ خلقت ❊ فكأنما هى دعوة فى ظالم
وأظن انّ الناس لما لم يروا ❊ عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه

قلت يقول الله لاخائفا ❊ مع حكم القرآن حكم القران
لاراقب النجم ولا سائلا ❊ ما فعل السعدان والنيران
بل غرت للاسلام حتى لقد ❊ دان له من بالطواغيت دان
رعت نواميس نواقيسها ❊ بحلية الآذان وقت الأذان
تمحو تصاوير الدمى عن يد ❊ تبنى المحاريب خلال الجنان
هذا وكم أنشأت من منبر ❊ فارسه فارس سحر البيان
من نال بالاخلاص مانلته ❊ كان من الله مكين المكان
ياشائما بالشام صوب الحيا ❊ ودانيا من كل قاص ودان
هذى سجوف الملك مرفوعة ❊ عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبل العدل مفتنة ❊ فللبرايا بالدعاء افتنان

ألغى حقوقا كلها باطل ❊ الى مآل حط مال الضمان
عطفا ورفقا بالرعايا وان ❊ أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة ❊ وشاهد فى صهوة من حصان
فى كل يوم يثنى سيفه ❊ ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت فى ديوان أحمد بن منير الطرابلسى من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى

يا محيى العدل ويا منشره ❊ من بين اطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذى وطده ❊ طال وارسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف اذ لاسفه ❊ يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى ❊ عليه اخلاد الليالى مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا ❊ لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لارجاس اليهود دولة ❊ أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ ❊ معنى وفى الوصف مغار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على ❊ صفحته جرى النسيم فى الومد
عدل جنيت اليوم حلو ريعه ❊ وسوف يجنى لك أحلى منه غد
لازال للاسلام منك عدة ❊ يقيم منه كل زيغ وأود
الناس أنت والملوك شرط ❊ تعد ليثا ويعدون نقد
مثلك لا يسخو به زمانه ❊ ومثل ما أوتيت لم يؤت أحد

وله فيه أيضا

أيا نور دين خبا نوره ❊ ومذ شاع عدلك فيه اتقد
رآك الصليب صليب القناة ❊ أمين العثار متين العمد
تهم فتسلبه ما اقتنى ❊ وتدنى فتثكله ما احتشد
زبنتهم أمس عن صرخد ❊ فمضوا كأن نعاما شرد
ويوم العريمة أقبلتهم ❊ عراما يثعلب منه الاسد
حبست مليكهم فى الصفاد ❊ وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل ازرتهم فى الرها ❊ موازق مزقن جزذ الجرد
بقيت ترقع خرق الزما ❊ ن قياما لابنائه ان قعد
تثقف من زيغه ما التوى ❊ وتصلح من طبعه ما فسد

وله فيه

أيا ملك الدنيا الحلاحل والذى ❊ له الارض دار والبرية أعبد
وليست بدعوى لا يقوم دليلها ❊ ولكنه الحق الذى ليس يجحد
أخو الغزوات كالعقود تناسقت ❊ تحل بأجياد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسو نهاره ❊ بهاء وجفن فى الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أغرقا وتألقا ❊ فلا الورد مثمود ولا الباب موصد
مرام سماكى وحزم مسدد ❊ ورأى شهابى وعزم مؤيد

وله فيه

أبدا ينكب عن ضلال سادرا ❊ بثقوب زندك أو تدل على هدا
سدت الكهول من الملوك مراهقا ❊ وشأوت شيبهم البوازل أمردا

ان شيدوا صرحا أناف مناره * أو يسجد والكأس جدد مسجدا
واذا استهزتهم فلائذ معبد * هزته موعظة فعزف معبدا
قسما بشام الشام منك مهندا * أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتمسك الاسلام منك بعروة * الله أبرم حبلها فاستحصدا
أشفى فكنت شفاءه من حادث * غاداه عارضه فردى بالردا
كنت الصباح لليله لما دجى * والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى * يجتاب من مهج الاصافر مجسدا
نشوان غنتك الظبى مفاولة * وأمال عطفيك الوشيج مقصدا
فى معرك ماقام بأسك دونه * الأأقام المشركين وأقعدا
ولكم مكر رقت فيه معلما * أرضى الهك والمسيح وأحمدا
يوم العريكة والخطيم وحارم وشعاب ياسوطا وهاب وصرخدا
لايعدم الاشراك جدك انه * ماسل فيهم حاكما الا اعتدا
أهمدتهم من بعد ماملأ والملا * زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا
طلعت نجوم الحق من آفاقها * وأعادها كر العصور كما بدا
وهوى الصليب وحزبه وتجبر الا * سلام من بعد التساقف أعيدا
سبق المحلى للخطى فرفعه * نسق بثم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه

محمود المربى على اسلافه * ان زاد فى حب الحسيب نجار
ملك اذا تليت مآثر قومه * كسد اللطيم وهجن النوار
ملأ الفرنجة جور سيفك فيهم * فلهم على سيف المحيط جوار
يومايزيرك جوف عزقة معلما * جوف له خلف الدروب أوار
وتجر فى الاردن فضلة ذيله * نقع بأكناف الانطمشار
اماتبيح حريم انطاكية * أو يلجأ الداروم منك دمار
عفى جهادك رسم كل مخوفة * وصفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم * لله فى خطراته أسرار
غضبان للاسلام مال عموده * فلنوره مما عراه نوار
وجذمت كل يد تسور على يد * فاحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ماكس مسلم سلقا ولا * ساع لمظلمة ولا عشار
هدوا كما هدت ثمود وقادهم * بخسارهم مما أتوه قدار
العار فى الدنيا شقوا بلباسه * ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمرية * رفعت لها فى الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما * باقالها تستعبد الاحرار
تقفو طريق الصالحين مسابقا * لهم وتطلع خلفك الابرار
نفس السيادة زهدمثلك فى الذى * فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى ادعى ماتدعيه محكم * أوهى معاقد دينه دينار
لله ماظفرت به منك المنى * وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أبيك فانه * أزكى ثرى قطرت عليه قطار

شهدت نضارة عودك الغض الجنى ❊ ان الذى استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد ❊ والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة ❊ أى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى

رأينا الملوك وقد ساجلو ❊ ك فمنوا امنونا وغرّوا غرورا
أبى لك ان يدركوه أب ❊ يزار فينسى الاسود الزئيرا
وجد اذا جدّ يوم الرها ❊ ن ابقى لتاليه جدّا عثورا
تصب عصاك على من عصاك ❊ يوما عبوسا بها قمطريرا
لقد البس الشام هذا الابا ❊ ء برسا من الامن لينا وثيرا
تداركت أرماقه والقلو ❊ ب نوافر ان يستجنّ الصدورا
أقمت جثاثا وكانت جثا ❊ وشدّت قصورا وكانت قبورا
وكم لك من غضبة للهدى ❊ تميت الهوى وتجب الذكورا
اذا قطب البأس كانت ردى ❊ وان ضحك العفو عادت نشورا
كملت فوقيت عين الكمال ❊ تبيد السنين وتفنى العصورا
وجاد لنا بك رب برا ❊ ك للكفر نارا وللدين نورا
اذا ما خدمت فولى كريما ❊ وأما عبدت فعبدا شكورا
امام المحاريب برّا حصورا ❊ وتحت الحروب هزبرا هصورا
تبارك من شاد هذى الخلال ❊ فى ظلة الملك طودا وقورا
وألف فى مقعد التاج منـ ❊ ك سطوا سعيرا وعفوا غيرا

وله فيه

عقل الحق ألسن المدعينا ❊ أنت خير الملوك دنيا ودينا
وأسد الانام قولا وأفعا ❊ لا ونفسا ونية ويقينا
أنت أسناهم ابا واباء ❊ وأمر أحيا وأمرع حينا
بسط الرزق فى البسيطة كفاك ❊ فكلتا يديك تلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنا ❊ ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الابحر ❊ عامت فى ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا ❊ مثل نون الهجاء أوخيل نونا
مشرعا منزعا ومنا مهنا ❊ ورباعا فحا وكنا لبونا
ومحيا طلقا ومالا طليقا ❊ وابتهاجا قصدا وحبلا متينا
بين ذب يميت عادية الشر ❊ ك وهب يحيى به المسلمونا
تتسنى من الفتوح ألوفا ❊ أنت أعلى من ان تعدّ المئينا
كلما خرت ثوب نصر عزيز ❊ من مرام قبلت فتحا مبينا
صرف الله عنك صرف زمان ❊ أنت علمت صرفه ان يهونا
يا بن من طبق البسيطة آثا ❊ را وعلّ المنابذيها لاجونا
وعدت حصنه على شرح هذا الد ❊ ين من شلة الاعادى حصونا
كم تعالى صهيلها فى ربى الشا ❊ م فأعلى خلف الخليج الرنينا
كان صنو الرشيد أبقاك للحكـ ❊ مة والبأس بعده المأمونا

سمع الله فيك دعوة سكن * أوطنوا من حمالك حصنا حصينا
غرّقتهم مدى الخطوب فاحييـ * ـت رفاتا من التراب دفينا
البسوا عدلك المدبج فاختا * لوا بنات فى وشيه وبنينا
سهرت عينك الكلوء وناموا * تحت أكناف رعيها آمنينا

قلت فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع انهما ماتا فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل ان يفتح نور الدين دمشق وبقى نور الدين حيا بعدهما احدى وعشرين سنة يترقى كل عام فى ازدياد من جهاد واجتهاد ولو كانا أدركا ذلك لاتيا فى وصفه بعجائب المدائح مع انه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما ولابى المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموى من قصيدة فيه

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه * كالرمح دل على القساوة لينه
ووراء يقظته اناة مجرّب * لله سطوة بأسه وسكونه
هذا الذى فى الله صح جهاده * هذا الذى بالله صح يقينه
هذا الذى بخل الزمان بمثله * والمشمخرّ الى العلى عرنينه
ملك الورى ملك أغرّ متوّج * لا غدره يخشى ولا تلوينه
ان حل فالشرف التليد أنيسه * أو سار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهد انه لمعزه * والشرك يعلم انه لمهينه
مازال يقسم ان يبدد شمله * والله يكره ان تمين يمينه
فتح الرها بالامس فانفتحت له * أبواب ملك لا يزال مصونه

وممادح نور الدين رحمه الله كثيرة وذكر الحافظ أبو القاسم انه كان قليل الابتهاج بالشعر ومات حادى عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى قبته بمدرسته بجوار الخواصين قلت وقد جرّب استجابة الدعاء عند قبره وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ونحن بعد ذلك نأتى بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى فى زمانهم على سبيل الاختصار ان شاء الله تعالى

﴿فصل﴾ أصل البيت الاتابكى هو قسيم الدولة اق سنقر جدّ نور الدين فنذكره وما تم فى أيامه ثم نذكر ولده زنكى وما تم فى أيامه ثم نذكر ولده محمود بن زنكى ثم نذكر ما بعده وهى الدولة الصلاحية الايوبية وما تم فى أيامها فنقول كان اق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن الب ارسلان وهو عم دقاق بن تتش بن الب أرسلان الذى كان سلطان دمشق وقبره بقبة الطواويس بها ابنته والمشهد والدته وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بنى بويه بالعراق فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربى معه فى صغره واستمرّ فى صحبته الى حين كبره فلما أفضت السلطنة بعد أبيه اليه جعله من أعيان أمرائه وأخص أوليائه واعتمد عليه فى مهماته وزاد قدره علوّا الى ان صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير مع تحكمه على السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان ان يولى اق سنقر مدينة حلب واعمالها وأراد بذلك ان يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يدا بذلك قال ابن الاثير ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه قسيم الدولة وكانت الالقاب حينئذ مصونة لا تعطى الا لمستحقيها وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وكان زوج ابنة نظام الملك الى الموصل وسير معه جيشا عظيما وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة اق سنقر فساروا نحو الموصل ولقيهم فى الطريق الامير ارتق التركمانى جد ملوك الحصن وماردين فاستصحبوه معهم فحصروا الموصل وحاربوا من بها وتسلموها وسار صاحبها الى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لاحد أمراء بنى عقيل وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى الى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية كهيت والانبار وغيرها وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها وملك مدينة حلب وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة

واتفق ان وقع بينه وبين صاحب انطاكية خلاف وذلك ان انطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ولم يزالوا بها الى هذه السنة ففتحها سليمان بن قتلمش وهو جدّ الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب انطاكية الرومى جزية يأخذها كل سنة فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلد فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدده فقال أنا فى طاعتك وهذا الفتح بسعادتك والخطبة والسكة لك ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم فلج شرف الدولة فى طلب المال فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره وسار سليمان الى حلب فحصرها وسار اليها من دمشق تاج الدولة تتش بن الب أرسلان اخو السلطان ملكشاه فالتقى عسكر تتش وسليمان فقتل سليمان وانهزم عسكره وملك تتش مدينة حلب دون القلعة فأرسل أهل القلعة الى ملكشاه ليسلموها اليه وهو يومئذ بالرها وكان سبب مسيره اليها ان ابن عطية النميرى كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها فسار ملكشاه اليها فى هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها الامير بزان فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم سار اليهم فلما بلغ مسيره الى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ووصل السلطان الى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلى وهو ابن عم شرف الدولة فسلمها الى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر وكان قد ملكها فى هذه السفرة من صاحبها جعبر النميرى وكان شيخا كبيرا أعمى فبقيت بيد سالم وأولاده الى ان أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتى فلما ملك السلطان حلب أرسل اليه الامير نصر بن على بن المقلد بن منقذ الكنانى صاحب شيزر ودخل فى طاعته وسلم اليه اللاذقية وفامية وكفرطاب ثم ان نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها الى قسيم الدولة آق سنقر فاقطعه الجميع وبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة كما سيأتى وأقطع السلطان مدينة انطاكية الامير باغى سغان ولما استقر قسيم الدولة فى الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته فى جميع بلاده ثم ان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه فى تجمل عظيم لم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه فاستحسن ذلك منه وعظم محله عنده ثم أمره بالعود الى حلب فعاد اليها فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها وفى سنة احدى وثمانين قصد قسيم الدولة شيزر فنهبها وعاد الى حلب وفى سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها ومضى ابن ملاعب الى مصر وفى سنة أربع وثمانين وملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام وملك الرحبه

﴿فصل﴾ وفى عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحاق قتله صبى ديلمى بعد الافطار وقد تفرّق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس وحمل فى محفة لنقرس كان به الى خيمة الحرم فلقيه صبى ديلمى مستغيثا به فقرّبه منه ليسمع شكواه فقتله وقتل الصبى أيضا فعدمت الدنيا واحدها الذى لم تر مثله وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه فاستبشر نظام الملك بذلك وأظهر السرور به وقال هذا أبغى وايّاه اطلب وكان قد بلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره وكان عالما فقيها دينا خيرا متواضعا عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم وكان أقرب الناس منه وأحبهم اليه العلماء وكان يناظرهم فى المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لانه اشتغل بالفقه فى حال حداثته مدّة وأما صدقاته ووقوفه فلا حد عليها ومدارسه فى العالم مشهورة لم تخل بلد من شئ منها حتى جزيرة ابن عمر التى هى فى زاوية من الارض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة وهى التى تعرف الآن بمدرسة رضى الدين وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة فى التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توضأ ولا توضأ الا صلى وكان يقرأ القرآن حفظا ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة حتى انه كان اذا غفل المؤذن أمره بالاذان واذا سمع الاذان أمسك عن كل ما هو فيه واشتغل باجابته ثم بالصلاة وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة الب ارسلان والد ملكشاه قبل ان يلى السلطنة فى حياة عمه السلطان طغرلبك أوّل الملوك السلجوقية ببغداد فلما توفى طغرلبك سعى نظام الملك فى أخذ السلطنة لصاحبه الب ارسلان وقام المقام الذى تعجز عنه الجيوش الكثيرة واستقرت السلطنة له وبقى معه الى ان توفى ثم وزر بعده

لولده السلطان ملكشاه الى ان قتل وكان قد تحكم عليه الى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والامراء وميل العامة والخاصة اليه لحسن سيرته وعدله وهذا كلام أبى الحسن بن الاثير وقرأت فى كتاب المعارف المتأخرة ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمدانى قال وزر نظام الملك أبو على الحسن ابن على بن اسحاق الطوسى للسلطان الب ارسلان ولولده السلطان ملكشاه أربعا وثلاثين سنة وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره قال وقيل ان السلطان ملكشاه الف عليه من قتله لانه سئم طول عمره ومات بعده بشهر وخمسة أيام وقد تقدم نظام الملك فى الدنيا التقدم العظيم وأفضل على الخلق الافضال الكثير وعم الناس بمعروفه وبنى المدارس لاصحاب الشافعى ووقف عليهم الوقوف وزاد فى الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ولم يبلغ أحد منهم منزلته فى جميع أموره وعبر جيحون فوقع على العامل بانطاكية بما يصرف على الملاحين وملك من الغلمان الاتراك الوفا وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه قلت وأنشد أبو سعد السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد فقال أنشدنى عمى الامام أبو القاسم أحمد ابن منصور السمعانى غير مرة من لفظه للامير شبل الدولة يعنى مقاتل بن عطية ابن مقاتل البكرى

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ❊ ثمينة صاغها الرحمن من شرف

عزت ولم تعرف الايام قيمتها ❊ فردها غيرة منه الى الصدف

(فصل) عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوما ومات فى منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاما ونصف عام وكانت مملكته قد اتسعت اتساعا عظيما وخطب له من حدود الصين الى الداروم من أرض الشام وأطاعه اليمن والحجاز وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية وأطاعه صاحب طراز واسبيجاب وكاشغر وبلاسغون وغيرها من الممالك البعيدة وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار فى طلبه ولم يزل حتى ظفر به وأحسن اليه واستصحبه معه الى أصفهان وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيرا منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة وحفر من الابار وبنى مدرسة عند قبر الامام أبى حنيفة رحمة الله عليه وبنى الجامع الذى بظاهر بغداد عند دار السلطنة وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البرية الى الكوفة بمكان يعرف بالسبعى وبنى مثلها بسمرقند أيضا قيل انه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة وبنى هناك منارة نزل فى أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها فى طريقه وبعد موته وتنازع ابناه تكياروق ومحمود دامت الحروب بينهما نحوا من ثنتى عشرة سنة الى ان توفى تكياروق واستقرت السلطنة لمحمد وفى مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل وملكوا انطاكية أولا ثم غيرها من البلاد وكان السلطان قد أقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس فلما توفى ملكشاه طمع تاج الدولة فى السلطنة فسار الى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران وباغى سغان صاحب انطاكية فسار وامعه نحو الرحبة ونصيبين فأخذها وأرسل صاحب الموصل ابراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد فامتنع فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل وأخذت بلاده وسار الى ميافارقين فملكها وسائر ديار بكر ثم سار الى أذربيجان فالتقى هو وابن أخيه تكياروق مع ملكشاه فانتقل قسيم الدولة وبوزان الى تكياروق فرجع تاج الدولة الى الشام ورجعا الى بلادهما بأمر تكياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فجمع تاج الدولة العساكر وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين تكياروق بالامير كربوقا وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا فقتله تاج الدولة صبرا ودخل بزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها وأخذهما أسيرين وأرسل الى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين وأما كربوقا فانه سجنه بحمص فلم يزل الى ان أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة قال ابن الاثير وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظا لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده متى أخذ عند

قال ابن الاثير حدثني والدي رحمه الله قال كتب ملك الفرنج الى طغتكين ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها فلما قتل الامير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للامير حبوش بك وسير معه ولده الملك مسعود الى الموصل ثم انه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا وفيهم عماد الدين زنكي وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي فسار البرسقي الى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها وقتل من بها من الفرنج والارمن وضاقت الميرة عن العسكر فرحل الى سميساط وهي أيضا للفرنج فاخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى بلد شبختان فاخرب ما فيه للفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله وعاد البرسقي الى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والامير حبوش بك الى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد علا قدره وظهر اسمه

(فصل) وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ومن أعجب ما يحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل فتعلق المهد في شجرة ونقص الماء فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة وفيها ايضا زلزلت أربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنين وتسعين وأربعمائة وقطعت خطبته عدة مرار ولقي من المشاق والاخطار ما لم يلقه أحد الى أن توفي أخوه تكيارق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد وأصحاب الاطراف لطاعته وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ومن عدله انه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر ان يوفي الثمن من عامل خوزستان فاوصل اليه البعض ومطل بالباقي فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه فأمر من يستعلم حاله فعاد الحاجب واعلم السلطان حاله فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق

قال ابن الاثير وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى للبيت الاتابكي فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه وقد تقدم ذلك ولما علم الامراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فامن الناس وظهر العدل وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فقام بالسلطنة وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب انهزم فيها محمود وعاد الى عمه بغير عهد فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم باقصى الشام ومن الممالك همذان واصفهان وبلد الجبال جميعه وبلاد كرمان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان وارمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مضر وديار ربيعه والشام وبلد الروم الذي بيد قليج ارسلان وما بين هذه الممالك من البلاد *

قال ابن الاثير ورأيت منشوره بذلك وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقيه وهو أخو ملكشاه تاج الدولة تتش وركن الدولة تكيارق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والاصول وغيرهما وكان يسارع الى اعمال البر والمثوبات حسن الخط جيد التوقيعات ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله ودفن في حجرة كانت له يألفها وفي أيامه توفي جماعة من العلماء ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن

احدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الاموال من قليل وكثير فكانت السيارة اذا بلغت قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا آمنين وقام أهل القرية يحرسونهم الى ان يرحلوا فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته وفى المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفى الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة وهو أبو القاسم عبد الله ابن الامير محمد بن القائم بأمر الله وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وأمه تركية وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة مات فى حياة أبيه فلم يل الخلافة

﴿ذكر اخبار زنكى﴾

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار فى فصول الى حين وفاته ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الاولاد غير واحد وهو عماد الدين زنكى والد نور الدين وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه وفيهم زين الدين على وهو صبى أيضا ثم ان الامير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وتوجه الى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها ثم سار الى نصيبين فملكها ثم الى الموصل فملكها وأزال عنها على بن شرف الدولة العقيلى وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه وهو فى طاعة ركن الدولة بركياروق فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكى وقال هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده فاقطعهم الاقطاعات السنية وجعلهم على عماد الدين زنكى واستعان بهم فى حروبه وكانوا من الشجاعة فى أعلى درجاتها فلم يزالوا معه فتوجه بهم الى آمد وصاحبها من أمراء التركمان فاستنجد بمعين الدين سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن فكسرهم قوام الدولة كربوقا وهو أول مصاف حضره زنكى بعد قتل والده ولم يزل كربوقا الى ان توفى سنة أربع وتسعين وأربعمائة وملك بعده موسى التركمانى فلم تطل مدته وقتل وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه فاخذ زنكى فقربه واحبه واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده فبقى معه الى ان قتل سنة خمسمائة فلا جرم ان زنكى رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد فانه أخذ ولده ناصر الدين كورى فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولى سقاؤه فاتصل به عماد الدين زنكى وقد كبر وظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد وكان جاولى قد عبر الى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان فارسل السلطان الى الموصل الامير مودود وأقطعه اياها سنة اثنين وخمسمائه فلما اتصل الخبر بجاولى فارقه زنكى وغيره من الامراء فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكى أكرمه وشهد معه حروبه فسار مودود الى الغزاة بالشام ففتح فى طريقه قلاعا لهم من شختان كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم ثم سار الى الرها فحصرها ولم يفتحها فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ثم سار الى معرة النعمان فحصرها ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا الى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من اتابك زنكى شجاعة لم يسمع بمثلها منها انه كان فى نفر وقد خرج الفرنج من البلد فحمل عليهم هو ومن معه وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ووصل رمحه الى الباب فاثر فيه وقاتلهم عليه وبقى ينتظر وصول من كان معه فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما فعجب الناس من أقدامه أولا ومن سلامته أخرا ثم التقى الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فاذن الامير مودود للعسكر فى الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه فى الربيع فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوما يصلى الجمعة فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال لا لقيت الله الا صائما فانى ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت وتوفى فى بقية يومه رحمه الله فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من يقتله وكان خيرا عادلا حسن السيره

يزيد على ثلثمائة مجلد قال ابن الاثير رأيت منه تفسير الفاتحة فى مجلد كبير وفى ذى الحجة توفى الامام أبو نصر الحميدى مصنف الجمع بين الصحيحين وفى شوّال سنة احدى وتسعين توفى الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبى وله نحو تسعين سنة وفى سنة اثنين وخمسين ومائة توفى أبو زكريا التبريزى اللغوى وفى ذى الحجة منها توفى أبو الفوارس الحسين بن على بن الخازن صاحب الخط المشهور وفى سنة خمس وخمسمائة توفى الامام أبو حامد الغزالى وفى سنة سبع وخمسمائة توفى الامام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشى الفقيه رحمهم الله أجمعين

(فصل) لما ولى السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل مع أتابكه جيوش بك فبقى مطيعا لأخيه الى سنة أربع عشرة وخمسمائة فحسن له الخروج عن طاعته وطلب السلطنة فاظهر العصيان وخطب للملك مسعود بالسلطنة وكان زنكى يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ويحذرهم عاقبة العصيان فلم ينفع فالتقى الاخوان فى عسكريهما فانهزم عسكر مسعود واسر جماعة من الامراء والاعيان منهم الاستاذ أبو اسمعيل الحسين ابن اسماعيل الطغرائى وزير مسعود فقتله السلطان محمود وقال قد صح عندى فساد اعتقاده ودينه وكان قد جاوز ستين سنة وكان حسن الكتابة جيد الشعر قلت وقيل انه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع مائة عشرة أو ثمانى عشرة وخمسمائة وقيل ان الذى قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ذكر ذلك كله أبو سعد السمعانى فى تاريخه وسماه الحسين بن على بن عبد الصمد الديلى وأنشد له اشعارا احسانا منها

اذا ما لم تكن ملكا مطاعا ❁ فكن عبدا لمالكه مطيعا
وان لم تملك الدنيا جميعا ❁ كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك ❁ ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشئ ❁ سوى هذين يحى بها وضيعا

ثم استأمن مسعود وأتابكه جيوش بك فأمنهما السلطان وأخذ الموصل منهما فاقطعها اق سنقر البرسقى مع اعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما فى صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند اشارته ففعل البرسقى ذلك وزاد عليه لمكان زنكى من العقل والشجاعة وتقدم والده فى الايام الركنية وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته وفى سنة ست عشرة وخمسمائة اقطع أتابك زنكى مدينة واسط وشحنكية البصرة وظهر من كفايته فى البلدين ما لم يظنه أحد فازداد شأنه عظما وهاب الامير دبيس بن صدقة الاسدى صاحب الحلة ناحيته وجرت بينه وبين البرسقى حروب ومواقعات وهم دبيس بقصد بغداد فسار البرسقى اليه وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير وكان لعماد الدين زنكى أثر حسن فى هذه الواقعة أيضا بين يدى الخليفة وذلك فى أوّل المحرّم سنة سبع عشرة وأما دبيس فانه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود وأمر السلطان محمد للبرسقى ان يرجع الى الموصل فعاد واستدعى زنكى من البصرة ليسير معه الى الموصل فقال زنكى لاصحابه قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام فسار من البصرة الى السلطان محمود فأقام عنده وكان يقف الى جانب تخت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله وبقى لولده من بعده ثم أتى السلطان الخبر ان العرب اجتمعت ونهبت البصرة فأمر زنكى بالمسير اليها واقطعه اياها لما بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى وقت اختلاف العساكر والحروب ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله وكان قد جرى بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة فتهدّده المسترشد فسار عن بغداد الى السلطان فى رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد وحذر السلطان جانبه واعلمه انه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق فسار السلطان الى بغداد وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع ثم اصطلحا وعادا الى ما كانا عليه وأقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح ان يلى شحنكية بغداد والعراق يؤمن معه من الخليفة ويضبط الامور فولى ذلك زنكى مضافا الى ما بيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد وفى سنة عشرين وخمسمائة قتل اق سنقر البرسقى بالجامع

العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة وكان يصلى كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين فى وضوءه بأحد فقرر السلطان ولده عز الدين مسعودا على ما كان لابيه من الاعمال وهى الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماه وجزيرة ابن عمر وغيرها وكان شابا عاقلا فضبط البلاد فلم تطل أيامه وتوفى سنة احدى وعشرين وولى الامر بعده أخوه الصغير وقام بتدبير دولتهما الامير جاولى وهو مملوك تركى من مماليك أبيهما فجرت الامور على أحسن نظام

(فصل) فى ولاية زنكى الموصل وغيرها من البلاد التى كانت بيد البرسقى وذلك فى شهر رمضان من سنة احدى وعشرين وسبب ذلك ان عز الدين البرسقى لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير وتولى امره جاولى أرسل الى السلطان محمود يطلب ان يقر البلاد عليه وكان المرسل بذلك القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن الشهرزورى وصلاح الدين محمد الياغبسانى فحضرا ببغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك وكانا يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة فأشار عليهما ان يطلبا البلاد لعماد الدين زنكى ففعلا وقالا للوزير قد علمت أنت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وكان البرسقى يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها وقد أنهينا الحال اليكم لئلا يجرى خلل أووهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان فانهى الوزير ذلك الى السلطان فأعجبه وقال من ترى ان يصلح لهذه البلاد فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره فأجاب السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته فولى البلاد جميعا وكتب منشوره بها وسار من بغداد الى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان منعه جاولى عن البلاد فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فخرج جاولى الى لقائه وعاد فى خدمته الى الموصل فسيره الى الرحبة واعمالها وأقام هو بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها فولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وفوض اليه أمر الولاية جميعا وجعل الدزدارية فى البلاد جميعها له وجعل الصلاح محمدا الياغبسانى أمير حاجب الدولة وجعل بهاء الدين قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد ووفا لهم بما وعدهم وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ورتب الامور على أحسن نظام وأحكم قاعدة وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم وضعف أهلها عن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار فى البلاد شرر شرهم وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق وكانت سراياهم من ديار بكر الى آمد ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس عين وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم فى ذل وهوان وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجا وإتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود الى أهله أخذوه وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا وأما أهل حلب فان الفرنج أخذوا منها مناصفة اعمالها حتى فى الرحا التى على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة وأما باقى بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين فلما نظر الله سبحانه وتعالى الى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكى فغزا الفرنج فى عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثارهم واستنقذ منهم حصونا ومعاقل وسيأتى تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الاسلامية هو وابنه من بعده ان شاء الله تعالى

(فصل) ثم شرع زنكى رحمه الله فى أخذ البلاد فافتتح جزيرة ابن عمر ثم مدينة اربل فى رمضان سنة اثنتين وعشرين ثم عاد الى الموصل وسار فى جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين الى سنجار فتسلمها وسير منها الشحن الى الخابور فملكه ثم قصد الرحبة فملكت قسرا ثم انتهى نصيبين وسار الى حران وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله وأهل حران معهم فى ضيق عظيم فراسلوا زنكى بالطاعة واستحثوه على الوصول اليهم ففعل وهادن

الفرنج مدة يسيرة يعلم انه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية وكان اهم الاشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحصن بزاعة وحاصر حلب ثم فتحت له فرتب أمورها وسار عنها الى حماه فملكها وقبض على صاحب حمص وحصرها وذلك سنة ثلاث وعشرين وفى سنة أربع وعشرين اتفق صاحب أمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهم من الملوك وجمعوا عساكر نحو عشرين الفا وقصدوا زنكى فلقيهم فهزمهم وملك سرجة ودارا ثم صمم على الجهاد فنازل حصن الاثارب وكان أضر شئ على أهل حلب فجمع الفرنج جمعا عظيما فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة بقيت عظام القتلى بتلك الارض مدة طويلة ثم رجع الى الحصن فملكه عنوة فاخربه ومحا أثره وأزال من تلك الارض ضرره ثم رحل الى حصن حارم فانفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم فاجابهم الى ذلك لان عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فاراد ان يستريحوا فهادنهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالامن وحاول النصر وسيرت البشائر الى البلاد بذلك وفيها استولى زنكى على مدينة حماه وما فيها وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بورى فاخذ رجاله ثم طلب فى اطلاقهم خمسين ألف دينار فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما فطلبه زنكى وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه وكذلك الرئيس أبو يعلى وفى سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفى السلطان محمود بهمذان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته مايقارب أربع عشرة سنة وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخواه مسعود وسلجوق شاه أبناء محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة فى همذان وأصفهان والرى وسائر بلاد الجبل وفى سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه الى الموصل فى ثلاثين ألف فارس فحصرها ثلاثة أشهر ثم عاد الى بغداد ولم يبلغ غرضا وفى سنة تسع وعشرين استولى زنكى على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقير وقلعة شوش وحاصر مدينة أمد ثم مدينة دمشق وفيها توفيت والدته بالموصل وفى المحرم سنة تسع وعشرين توفى السلطان طغرل بن محمد ابن ملكشاه فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد فى عسكرين عظيمين عاشر رمضان فهزم عسكر الخليفة وقبض عليه وعلى خواصه وأنفذ السلطان شحنة الى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد وهو فى الخيمة فقتلوه وكتب السلطان الى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبى جعفر المنصور ابن المسترشد فبايعه فى السادس والعشرين من ذى القعدة ولقب بالراشد وكان عمر المسترشد ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وكان شهما شجاعا مقداما فصيحا وتمكن فى خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته الا ان يكون المعتضد والمكتفى لان المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ولم يزالوا كذلك الى ملك الديلم واستيلائهم على العراق فزالت هيبة الخلافة بالمرة الى انقراض دولة الديلم فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما فى وزارة نظام الملك فانه أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها الا ان الحكم والشحن بالعراق كان الى السلطان وكذلك العهد وضمان البلاد لم يكن للخلفاء الا اقطاع يأخذون دخله وأما المسترشد فانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ولم يكن للسلطان محمود معه فى كثير من الاوقات سوى الخطبة واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب وفى سنة ثلاثين وخمسمائه سار الراشد الى الموصل صحبة زنكى ملتجئا اليه وذلك ان جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فأجابهم الى ذلك وظهر منه تنقل فى الاحوال وتلون فى الاراء وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون وتقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها فخرج الراشد ملتجئا الى زنكى فسار به الى الموصل ودخل مسعود بغداد وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمه أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ففعل ذلك ولقب المقتفى لامر الله وأما الراشد فان السلطان سنجر أرسل الى أتابك يأمره باخراجه عن بلده فسار الى أذربيجان ثم الى همدان فاجتمع اليه ملوك وعساكر كثيرة وسار السلطان اليهم فتصافوا

فانهزم الراشد وقصد اصبهان فقتلة الباطنية بها فى السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ودفن باصبهان وفى سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوّج زنكى بالخاتون صفوة الملك زمرّد ابنة الامير جاولى أم شمس الملوك اسماعيل واخوته بنى تاج الملوك بورى بن طغتكين أتابك وهى أخت الملك دقاق واليها ينسب مسجد خاتون الذى هو مدرسة لاصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلى بأرض دمشق بأرض صنعاء وتسلم قلعة حمص

(فصل) فى جهاد زنكى للفرنج كان فى سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيما وكان زنكى مشغولا بما تقدّم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها وهى على مرحلة من حلب وفتحها عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرّية فى شعبان ثم سار عنها الى شيزر وهى حصن منيع على مرحلة من مدينة حماه فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا وارسل صاحبها أبو العساكر سلطان ابن منقذ الى زنكى يستنجده فنزل على حماه فكان يركب كل يوم فى عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شرقى شيزر فأرسل اليهم زنكى يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيبا لهم فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك أتظنون ان معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم وكان أتابك زنكى مع هذا يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التى بأيديهم منهم وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه فرحل ملك الروم عنها فى رمضان وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار زنكى خلفهم وظفر بطائفة منهم فى ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لا سيما مدينة حماه لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموى له قصيدة قد ذكرتها فى ترجمته فى التاريخ أوّلها

بعزمك أيها الملك العظيم * تذلّ لك الصعاب وتستقيم
ألم تر ان كلب الروم لما * تبين انك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك فى خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر فى المفاضة منك جيشا * فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل ان تجود بها عليه * وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا * وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا * بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ * ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوف الافاق حينا * وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك * وعاد وما يعادله سقيم
اذا خطرت سيوفك فى نفوس * فأوّل ما يفارقها الجسوم

وله أيضا من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادى التوتان صاحب حماه

وما جاء كلب الروم الا ليحتوى ❊ حماة وهل يسطو على الاسد الأكلب
أراد بها ان يملك الشام عنوة ❊ وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما ذمّ فيها العيش حتى صدمته ❊ فمال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها ❊ نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة فى مدح أتابك زنكى رحمه الله سيأتى بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها ان شاء الله تعالى ومنها

وما يوم كلب الروم الا أخو الذى ❊ أزجت به ما فى الجناجن من نبل
اتاك يمثل الروم حشدا وانه ❊ ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل
فقاتلته بالله ثم بعزمة ❊ تصك قلوب العاشقين بما يسلى
توهم ان الشام مرعى ومادرى ❊ بأنك أمضى منه فى الشزر والسحل
فطار وخير المغنمين ذماؤه ❊ اذا ردّ عنه مغنم المال والاهل

قال ابن الاثير ومن عجائب ما يحكى فى هذه الحادثة ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر قام الامير مرشد بن على أخو صاحبها وهو ينسخ مصحفا فرفعه بيده وقال اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجئ الروم فاقبضنى اليك فتوفى بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته ولما عاد الروم الى بلادهم نزل أتابك الى حصن عرقه وهو من اعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش وفيها توفى بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى قاضى الممالك الاتابكية وكان أعظم الناس منزلة عنده وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت

﴿فصل﴾ فى فتح شهرزور وبعلبك وحصار دمشق قال ابن الاثير كانت شهرزور واعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجق بن ارسلان تاش التركمانى وكان ملكها نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيهم يرون طاعته فرضا حتما فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرّضوا لها لحصانتها فعظم شأنه وازداد جمعه فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد اتابك عنه ما اقتضى ان يقصد بلاده فهزم عسكره وملك بلاد شهرزور وغيرها فأضافها الى بلاده واصلح احوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان وعاد الى الموصل عازما على المسير الى الشام فانه كان لا يرى المقام بل لا يزال ظاعنا اما لردّ عدوّ يقصده واما لقصد بلاد عدوّ واما لغزو الفرنج وسدّ الثغور وكانت مياثر السروج أثر عنده من وثير المهاد والسهر فى حراسة المملكة أحب اليه من عرض الوساد وأصوات السلاح الذ فى سمعه من الغناء لا يجد لذلك كله عنا وفى هذه السنة وهى سنة أربع وثلاثين ولد تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى وفيها سار الشهيد فى جنده بعد ملك شهرزور الى مدينة دمشق فحصرها وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بورى بن طغتكين وكان محكوما عليه والغالب على أمره معين الدين بن مملوك جده طغتكين وكان اتابك قد أمر كمال الدين ابا الفضل بن الشهرزورى بمكاتبة جماعة من مقدّمى احداثها وزناطرتها واستمالتهم واطمعهم فى الرغائب والصلات ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير الى تسليم البلد وخرجوا متفرّقين الى كمال الدين وجدّد عليهم العهود وتواعدوا يوما يزحف فيه الشهيد الى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد اليه فاعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك فقال لا أرى هذا رأيا فان البلد ضيق الطرق والشوارع ومتى دخل العسكر اليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لانهم يقاتلون على الارض والسطوحات واذا دخلنا البلد اضطررنا الى التفرّق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره

ومن العجب ان محمد بن بورى صاحب دمشق توفى وأتابك يحصره فضبط آز الامور وساس البلد فلم يتغير بالناس حال وأرسل الى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين آتق بن محمد بن بورى ورتبه فى الملك مكان أبيه فمشى الحال بتمكين معين الدين آز وحسن تدبيره وهذا مجير الدين آتق هو الذى منه أخذ نور الدين محمود بن زنكى دمشق كما سيأتى ولما دخل مجير الدين دمشق اقطع بعلبك معين الدين آز فأرسل اليها نائبه وتسلمها فلما علم الشهيد ذلك سار الى بعلبك

وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزدارا وعزم على العود عنها الى دمشق فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة فأجابه الى ذلك وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيها وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه قال يحيى ابن أبي طيّ الحلبي واتفق ان الامراء الذين نزلوا من بعلبك أفسدوا وذاع خبرهم فقبض عليهم اتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان وليّ قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الناغبساني فحكى انه أحضر اليه في جملة الامراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له أمرد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين سألتك بحياة المولى اتابك الاصلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت وبكى وكان نجم الدين أيوب واقفا فرحم الشيخ وبكى وسأل صلاح الدين في اطلاقه فقال ما أفعل خوفا من المولى اتابك فذهب نجم الدين الى اتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله فاذن باطلاقه واطلاق من بقي من الجماعة ووهبه نصف بعلبك وقيل ان نجم الدين ورد على اتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الامراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكا واستقرّ فيها هو وأهله ولم يزل بها الى أيام نور الدين محمود بن زنكي فأخرجه منها على ما سنذكره ثم ان اتابك بعد ملكه بعلبك سار الى دمشق فنزل البقاع فوردت هدية صاحب دمشق ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار ويعطيه حمص فأشار نجم الدين على زنكي بقبول ذلك وقال هذا مال كثير وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء ودمشق بلد عظيم وقد آلف أهله هذا البيت وتمرّنوا على سياستهم وقد بلغتهم الاحوال التي جرت ببعلبك فامتنع زنكي من قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه

﴿فصل﴾ ثم سار اتابك الشهيد في هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه فلقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج فصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله الا ما يحكى عن ليلة الهرير ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم قد دخلوا حصن بارين وفيهم ملك القدس لانه كان أقرب حصونهم وأسلموا عدّتهم وعتادهم وكثر فيهم الجراح ثم سار الشهيد الى حصن بارين فحصره حصرا شديدا فراسلوه في طلب الامان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى الا أخذهم قهرا فبلغه ان من بالساحل من الفرنج قد ساروا الى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون اليهم ما فيه ملوكهم من الحصر فجمعوا وحشدوا وأقبلوا الى الساحل ومن بالحصن لا يعلمون بشئ من ذلك لقوّة الحصر عليهم فأعادوا مراسلته في طلب الامان فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم امداد النصرانية فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا اعجزتم عن حفظه يوما أو يومين فحلفوا لهم انا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا والى الآن فلما عميت الاخبار عنا ظننا انكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دمانا بتسليم الحصن قال ابن الاثير وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج عن المسلمين فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده الى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة قلت وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكي قصيدة أوّلها

حذار منا واني ينفع الحذر ❊ وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ❊ من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها ❊ صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى اذا ما عماد الدين أرهقهم ❊ في مازق من سناه يبرق البصر
ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم ❊ والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم ❊ طول وان كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا ❊ يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة ❊ فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا اقتتلوا أو حاربوا حربوا ❊ أو طاردوا اطردوا أو حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم ❊ حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مقترع أبكار أنفسهم ❊ ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظل محيى العدل لامعة * كالصبح تطوى من الاعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته * بحيث كان وان كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة * كأنما حل فى أكنافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها * ودام لنقضك ابرامها
وزلت لعيشك أقدامها * وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم اليك القلو * ب هواها لما صح اسلامها
أيا محيى العدل لما نعا * ه أيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة * أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تقتفيك الاسو * د والبيض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو * ف حتى تشاءم ها شامها
وصارت عوارى أكنافه * متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير ولما وصل الروم والفرنج الى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين فنازلوا حلب وحصروها فأرسل الشهيد ان يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لانهم كانوا فى جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها وأرسل القاضى كمال الدين بن الشهرزورى الى السلطان مسعود ينهى اليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدو ويطلب منه النجدة وارسال العساكر فقال له كمال الدين أخاف ان تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر فاذا توسطوا البلاد ملكوها فقال الشهيد ان هذا العدو قد طمع فى وان أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار قال فلما وصلت الى بغداد وأديت الرسالة وعدنى السلطان بانفاذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشئ وكتب الشهيد الى متصلة يحثنى على المبادرة بانفاذ العساكر وأنا أخاطب فلا ازداد على الوعد قال فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم أحضرت فلانا وهو فقيه كان ينوب عنه فى القضاء فقلت خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوباش بغداد والاعاجم واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وانت معهم واستغاثوا بصوت واحد وا اسلاماه وادين محمداه ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين ثم وضعت انسانا آخر يفعل مثل ذلك فى جامع السلطان فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع الا من قام يبكى وبطلت الجمعة وسار الناس كلهم الى دار السلطان وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون وخرج الامر اء عن الضبط وخاف السلطان فى داره وقال ما الخبر فقيل له ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة فقال أحضروا ابن الشهرزورى قال فحضرت عنده وأنا خائف منه الا انى قد عزمت على صدقه وقول الحق فلما دخلت عليه قال يا قاضى ما هذه الفتنة فقلت ان الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر ولا شك ان السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو وانما بينكم نحو أسبوع ولئن أخذوا حلب انحدروا اليك فى الفرات وفى البر وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد وعظمت الامر عليه حتى جعلته كأنه ينظر اليهم فقال اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والامداد تلحقك قال فخرجت الى العامة ومن انضم اليهم فأخبرتهم وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس وكتبت الى الشهيد أعرفه الخبر وانه لم يبق غير المسير وأجدد استئذانه فى ذلك فأمرنى بتسييرهم والحث على ذلك فعبرت العساكر الجانب الغربى فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ويأمرنى بترك استصحاب العساكر فلما خوطب السلطان فى ذلك أصر على انفاذ العساكر الى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده ان تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها

فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر الى الجانب الشرقي وسرت الى الشهيد قال ابن الاثير فانظروا الى هذا الرجل الذى هو خير من عشرة آلاف فارس يعنى كمال الدين رحمه الله الشهيد فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوى الرأى والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفرلهم العطا (حكى لى والدى) قال قيل للشهيد ان هذا كمال الدين يحصل له فى كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار فقال لهم بهذا العقل والرأى تدبرون دولتي ان كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار فان شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار وكان كما قال رحمه الله تعالى

﴿فصل﴾ قال وفى سنة سبع وثلاثين سار الشهيد الى بلد الهكارية وكان بيد الاكراد وقد أكثروا فى البلاد الفساد الان نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيرا من بلادهم فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعبانى وهى من أعظم قلاعهم وأحصنها فلكها وأخربها وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما فأخربه الاكراد لعجزهم عن حفظه لكبره فلما ملك اتابك الشهيد البلاد التى لهم قال اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه القلعة العمادية نسبة الى لقبه عماد الدين وفى هذه السنة خطب لاتابك بآمد وكان قد أرسل الى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء الى خدمته والخطبة له فأجابه الى ذلك وفيها ملك الشهيد مدينة عانة وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها فى شوال وقصد ولاية دمشق فشتى بها وفى سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعساكره وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار أماميه يحملها الشهيد الى السلطان وطلب ان يحضر الشهيد فى خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج فعذره وشرط عليه فتح الرها وكان من أعظم الاسباب فى تأخر السلطان عن قصد الموصل انه قيل له ان مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين فانها قد وليها قبله مثل جاولى سقاوة ومودود وجيوش بك والبرسقى وغيرهم من الاكابر وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد الى ان وليها اتابك فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم وعز الاسلام به ومن الاسباب المانعة له أيضا ان الشهيد كان لا يزال ولده الاكبر سيف الدين غازى فى خدمة السلطان مسعود بأمر والده وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به فأرسل اليه الشهيد يأمره بالهرب والمجىء الى الموصل وأرسل الى نائبه بالموصل يأمره ان يمنعه من دخول الموصل ومن المسير اليه أيضا ففعل ذلك وقال له ترسل الى والدك تستأذنه فى الذى تفعل فأرسل اليه فعاد الجواب انى لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك فالزمه بالعود اليه فعاد ومعه رسول الى السلطان يقول له انى لما بلغنى ان ولدى فارق الخدمة بغير اذن لم اجتمع به ورددته الى بابك فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا وأجاب الى ما أراد الشهيد ولما استقر المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار ثم ان الامور تقلبت وعاد أصحاب الاطراف خرجوا على السلطان فاحتاج الى مداراة الشهيد وأطلق له الباقى استمالة له وفى هذه السنة سار الشهيد الى ديار بكر ففتح عدة بلاد منها طنزة واسعرد وملك مدينة المعدن الذى يعمل منه النحاس من ارمينية ومدينة حيزان وأخذ من اعمال ماردين عدة مواضع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حانى وحاصر آمد وأرسل عسكرا الى مدينة عانة فلكها وقد تقدم ذكرها فى السنة قبلها

﴿فصل﴾ فى فتح الشهيد الرها فى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وكانت لجوسلين وهو عاتى الفرنج وشيطانهم والمقدم على رجالهم وفرسانهم وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما وأعادها الى حكم الاسلام وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا وهى احدى الكراسى عندهم فأشرفها البيت المقدس ثم انطاكية ثم رومية ثم قسطنطينية والرها وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شر عظيم وملكوا من نواحى ماردين الى الفرات على طريق شبختان عدة حصون كسروج والبيره وجملين والموزر وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ورأس عين والرقة وأما حران فكانت معهم فى الخزى كل يوم قد صبحوها بالغارة

فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم انه لا ينال منها غرضا مادام جوسلين بها فأخذ فى اعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها الى بعض البقاع فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التى بيد الاسلام كحانى وجبل جور وآمد فكان يقاتل من بها قاقة الانفيه ابقاء وهو يسرحشوا فى ارتغاء فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن انه لا فراغ له اليه وانه لا يمكنه الاقدام عليه ففارق الرها الى بلاده الشامية ليلاحظ اعماله ويتعهد ذخائره وأمواله فأقبل الشهيد مسرعا بعساكره الى الرها ثم وصف ابن الاثير الجيش وأنشد

بجيش جاش بالفرسان حتى ❊ ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر ❊ تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم ❊ وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ❊ قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا ❊ وهيبته جناحا للجناح

وألح الشهيد فى حصارها فلكها عنوة فاستباحها ونكس صلبانها وأباد قسوسها ورهبانها وقتل شجعانها وفرسانها وملأ الناس أيديهم من النهب والسبى ثم انه دخل البلد فراقه فأنف لمثله من الخراب فأمر باعادة ما أخذ من اثاث ومال وسبى ورجال وجوار وأطفال فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ والنادر فعاد البلد عامرا بعد ان كان داثرا ثم رتب البلد وأصلح من شأنه وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين وكان فتحا عظيما طار فى الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء

قال ابن الأثير (حكى) لى جماعة أعرف صلاحهم انهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن على بن مهران الفقيه الشافعى وكان من العلماء العاملين والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة ذكروا عنه انه غاب عنهم فى زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور وعنده من الارتياح مالم يروه أبدا فلما قعد معهم قال حدثنى بعض اخواننا ان اتابك زنكى فتح مدينة الرها وانه شهد معه فتحها يومنا هذا ثم قال ما يضرك يا زنكى ما فعلت بعد اليوم يردد هذا القول مرارا فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ثم ان نفرا من الاجناد حضروا عنده هذا الشيخ وقالوا له منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره وهم يقسمون انهم رأوه عيانا قال وحكى لى بعض العلماء بالاخبار والانساب وهو أعلم من رأيت بها قال كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها سير ملك الفرنج هذا جيشا فى البحر الى افريقية فنهبوا وغاروا وأسروا وجاءت الاخبار الى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربى وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت أين كان محمد عن نصرتهم فقال له كان قد حضر فتح الرها فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك لا تضحكوا فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرها عند النصرانية قال وحكى لى أيضا غير واحد ممن أثق اليهم ان رجلا من الصالحين قال رأيت الشهيد بعد قتله فى المنام فى أحسن حال فقلت له ما فعل الله بك فقال غفر لى قلت بماذا قال بفتح الرها قلت وهناه القيسرانى عند فتح الرها بقصيدة أولها

هو السيف لا يغنيك الا جلاده ❊ وهل طوق الاملاك الا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ❊ سناها وان فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطوله ❊ ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وزاد قسيم الدولة ابن قسيمها ❊ عن الله مالا يستطاع زياده
ليهن بنى الايمان أمن ترفعت ❊ رواسيه عزا واطمأن مهاده

وفتح حديث فى السماع حديثه ❊ شهى الى يوم المعاد معاده
أراح قلوبا طرن عن وكناتها ❊ عليها قوافٍ كل صدر فؤاده
لقد كان فى فتح الرهاء دلالة ❊ على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة ❊ ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة ❊ يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الابصار حتى لوانها ❊ ترقت اليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها ❊ الى ان ثناها من يعز قياده
فأوسعها حرّ القراع مؤيد ❊ بصير بتمرين الالدّ لداده
كأنّ سنا لمع الاسنة حوله ❊ سرار ولكن فى يديه زناده
فأضرمها نارين حربا وخدعة ❊ فاراع الاسور هاوأنهداده
فصدّت صدود البكر عند اقتضاضها ❊ وهيهات كان السيف حتما سفاده
فياظفراعم البلاد صلاحه ❊ بمن كان قدعم البلاد فساده
فلامطلق الاوشدّ وثاقه ❊ ولاموثق الاوحل صفاده
ولا منبر الا ترنح عوده ❊ ولا مصحف الا أنار مداده
فان يشكل الابرتر فيها حياته ❊ والاقل للنجم كيف سهاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونها ❊ كما تتنزا عن حريق جراده
الى أين يا أسرى الضلالة بعدها ❊ لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لامانع من مظفر ❊ يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لو ان عزمه ❊ رمى سدّ ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ❊ ممالكها ان البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فليتنه الدجى ❊ فياطالما غال الظلام امتداده
ومن كان املاك السموات جنده ❊ فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده ❊ وروضة قسطنطينية مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضى كمال الدين بن الشهر زورى أولها

هى جنة المأوى فهل من خاطب

يقول فيها

ان الصفائح يوم صافحت الرها ❊ عطفت عليها كل اشوس ناكب
فتح الفتوح مبشرا بتمامه ❊ كالفجر فى صدر النهار الآيب
لله أية وقفة بدرية ❊ نصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه ❊ كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدّكم جيش الملائك نصرة ❊ بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تمور ريح الصبا ❊ جند النبوّة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت ❊ ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها ❊ ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدّ الى أرض الفرنجة بعدها ❊ ان الدروب على الطريق اللاحب
أفغرّكم والثار رهن دمائكم ❊ ما كان من اطراق لحظ الطالب
واذا رأيت الليث يجمع نفسه ❊ دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير

صفات مجدك لفظ جل معناه ❊ فلا استرد الذى أعطاكه الله
ياصارما بيمين الله قائمه ❊ وفى أعالى أعادى الله حداه
أصبحت دون ملوك الارض منفردا ❊ بلا شبيه اذا الاملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته ❊ جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للاعادى الامو توابه كمدا ❊ فالله خيبكم والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته ❊ تقى وتسهر للمعروف عيناه
مازال يسمك والايام تخدمه ❊ فيما ابتلاه يؤدى ماتوخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره ❊ قدرا وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا ❊ وأين مما رووه ماراينا
أين الخلائف عن فتح أتيح له ❊ مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه ارج ❊ مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الاسلام بهجته ❊ فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته ❊ حديثها نسخ الماضى وأنساه
ان الرها غير عورية وكذا ❊ من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزا ما بغا أحد ❊ من الملوك لها وقافواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ❊ رأى يبيت فويق النجم مسراه
مشمرا وبنو الاسلام فى شغل ❊ عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يامحيى العدل اذ قامت نوادبه ❊ وعامر الجود لما مح مغناه
يانعمة الله يستصفى المزيد بها ❊ للشاكرين ويستقنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ❊ من لم يتوجك هذا التاج الاهو

ولابن منير ايضا من قصيدة تقدم بعضها

أيا ملكا ألقى على الشرك كلكلا ❊ أناخ على أماته كالكل الثكل
جمعت الى فتح الرها سد بابه ❊ بجعلك بين النهب والاسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه ❊ وتوج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده ❊ جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجردت للاسلام دون ملوكه ❊ تبشك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفطما ❊ يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى

بعماد الدين أضحت عروة الدين معصو بابها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة القسم من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عينا لم تزل ❊ همها تشريد هم الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد ❊ فقأت غيظا عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامه ❊ فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف فى أوصافه ❊ كان أولاها أمير المؤمنين
ماروى الراوون بل ماسطروا ❊ مثل ماخطت له أيدى السنين
اذا ناخ الشرك فى أكنافه ❊ بمأى ألف تلاها بمئين

وقعة طاحت بكلاب الروم من * قطعة البين الى قطع الوتين
ان جت مصر فقد قام لها * واضح البرهان ان الصين صين
والرها لو لم تكن الا الرها * لكفت قطعا الشك الممترين
هم قسطنطين ان يفرعها * ومضى لم يحومها قسطنطين
ولكم من ملك حاولها * فتحلا الحين وسما فى الجبين
هى أخت النجم الا انها * منه كالنجم لرأى المبصرين
منيت منه بليث قائد * بعران الذل آساد العرين
زارها يزأر فى أسد وغى * تبدل الاسد من الزأر الانين
صولجوا بالبيض من بضرب نشـ * ـر الهام فى ساحتها نثر الكرين
يالها همة ثغر أضحكت * من بنى القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس ذلة * بعدما جاست حوايا جوسلين
وسروج مذ وعت أسراجه * فرقت جماعها عنها عضين
تلك أقفال رماها الله من * عزمه الماضى بخير الفاتحين
شام منه الشام برقا ودقه * مؤمن الخوف مخيف الآمنين
كم كنيس كنست قد رامها * منه بعد الروح فى ظل السفين
دنت الآجال من آجالها * فأخلتها القطا بعد القطين
ومنار يجتلى صلبانه * بين بيض تتبارى فى البرين
قرعته البيض حتى بدلت * قرعة الناقوس تثويب الاذين
بالقسيميات مقسوم لها الـ * ـدهر فى علك لجين أو لحين
سل بها حرّان كم حرّى سقت * بردا من يوم ردت ما ردين
سمطت أمس سميساط بها * نظم جيش منهج للناظرين
وغدا يأتى على القدس لها * كلكل يدرسها درس الدرين
همة تمسى وتضحى عزمة * ليس حصن ان تحطه بحصين
قل لقوم غرّهم امهاله * ستذوقون شذاه بعد حين
انه الموت الذى يدرك من * فرّ منه فسحا للعاملين
وهو يحيى ممسكا عروته * انها حبل لمن تاب متين
من يطع ينج ومن يكفر يكن * من غداة عبرة للآخرين
بك يا شمس المعالى ردّت الـ * ـروح فى الميتين من دنيا ودين
أقسم الجدّ بأن تبقى لكى * تملك الارض يمينا لا يمين
وتفيض العدل فى اقطارها * منسيا مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارك كيف انتقلت * كعبة محفوظة بالطائفين
كل يوم يجتلى جيدها * من نظيم المدح بالدرّ الثمين
كلما أخلص فيها دعوة * لك قالت ألسن الخلق أمين

(فصل) لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة البيرة وهى حصن حصين مطل على الفرات وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب فرحل عنها خوفا من ان يحدث بعده فى البلاد فتق يحتاج الى المسير اليها فلما رحل عنها سير اليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى صاحب ماردين عسكرا فسلمها الفرنج اليهم

خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها وكان قتل النصير فى ذى القعدة سنة تسع وثلاثين وسببه ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان مسعود وأصحاب الاطراف يرون ان البلاد التى بيده للملك الب ارسلان وانه نائبه فيها وكان اذا ارسل رسولا أو أجاب عن رسالة فانما يقول قال الملك كذا وكذا وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الاموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة وبها نصير الدين وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعود فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له انك ان قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز اتابك ان يقيم بين يديك ولا يجتمع معه فارسان عليك فوقع هذا فى نفسه وظنه صحيحا فلما دخل نصير الدين اليه على عادته وثب عليه جماعة فى خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه الى أصحابه ظنا منهم ان أصحابه اذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك البلاد وكان الامر بخلاف ما ظنوا فان أصحابه وأصحاب اتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الاجلاد ذوى الرأى والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شئ وكان فى جملة من حضر القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى أخو كمال الدين فدخل الى السلطان وخدعه حتى أصعده الى القلعة وهو يحسن له الصعود اليها وحينئذ يستقر له ملك البلاد فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير وأرسلوا الى اتابك يعرفونه الحال فسكن جاشه واطمأن قلبه وأرسل زين الدين على بن بكتكين واليا على قلعة الموصل وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غير الطريق التى سلكها النصير وسهل الامر فاطمأن الناس وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار الى حلب فجهز منها جيشا الى قلعة شيزر وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها قلت كذا وقع فى كتاب ابن الاثير وقد وهم فى قوله الب ارسلان المعروف بالخفاجى فالخفاجى غير الب ارسلان على ما ذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية فانه قال كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى الب ارسلان وهو فى معقل من معاقل سنجار والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجى وهو بالموصل وكان هذا الملك مسلما الى الامير دبيس بن صدقة فانتزعه منه زنكى فى حرب جرت فكانت زوجة زنكى خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول ان عقل والاعقلته وان ثقل طبعه والا ثقلته فدبر فى قتله مع أصحابه فقد عودفى دهليز داره لما دخل للسلام على الملك ثم أصعد القاضى تاج الدين الملك الى القلعة فلم يرله أثر والتقط مماليكه ثم عطف زنكى على الملك الآخر الب ارسلان فاستخرجه من معقله وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتية ونوبا ورتب له فى حالتى ركوبه وجلوسه رتبا وأغرى بتولى اكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ما جرى من هلاك أخيه ثم ذكر قصة موت زنكى على قلعة جعبر كما سيأتى وفى سنة أربعين وخمسمائة أرسل اتابك الى زين الدين على يأمره بارسال عسكر الى حصن فنك يحصره فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه الى ان أتاهم الخبر بقتل الشهيد اتابك وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر وهو للاكراد البشنوية وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلثمائة سنة وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب الى عين ماء لا يمكن ان يحال بين أهله وبينها قلت وفى هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكى يهنيه بالعافية من مرض عرض له فى يده ورجله قصيدة أولها

يابدر لا أفل ولا امحاق ❊ ولا يرم مشرقك الاشراق
بالدين والدنيا الذى يشكو وهل ❊ يهتز فرع لم يقمه ساق
لن تورق القضب ويجرى ماؤها ❊ الا اذا ما التأثت الاعراق
ان الرعايا ما سلمت فى حمى ❊ للخطب عن طرقته إطراق
غرست بالعدل لهم خمائلا ❊ ترتع فى حديقها الاحداق
ياهضبة الدين التى عاذبها ❊ فعاد لا بغت ولا ارهاق
لولم تحطه راحلا وقافلا ❊ أصبح لا شام ولا عراق
عماد دين مذ أقام زيغه ❊ حي ومات الشرك والنفاق

يامحيي العدل الذي في ظله * تسربلت زينتها الآفاق
يفديك من لان مهاد جنبه * لما نبا بجنبيك الاقلاق
من لشبرا سيفك انبطت له الا * عذب وماعيشته زعاق
تجرّع السم ولولم تحمه * بحدّه لعزه الدرياق
ملوك أطراف حمى أطرافها * عزمك هذا اللاحق السباق
لولم ترق ماء كرى العين لما * ساغت بأفواههم الارياق
شققت من دونهم مرج الردا * وشق أكبادهم الشقاق
أقسم لو كلفتهم ان يسمعوا * حديث أيامك ماأطاقوا
لما اشتكيت دبّ في أهوائهم * توجس للسمع واستراق
تطاولوا لاعدمت أمالهم * تصرا ولاجانبها الاحقاق
توهموها غسقا ثم انجلت * والصفو من مشربهم غساق
لئن ألمّ ألم بقدم * خدالسها لنعلها طراق
أوكان مدّيده الى يد * يجرى بها الآجال والارزاق
فالنصل يعلى صدأ وتحته * حد حسام وسنا رقراق
رمى الصليب بصليب الرأى عن * زوراء أوهى نزعها الاغراق
ونوم من خلف الخليج سهر * والعيش في فرنجة سياق
ماتوا فلاهمس ولا اشارة * خوف هموس زاره ازهاق
لاسلبت منك الليالى ماكست * ولاعرت جدّتك الأخلاق

(فصل) في وفاة زنكي رحمه الله قال ابن الاثير كانت قلعة جعبر قدسلمها السلطان ملكشاه الى الاميرسالم بن ملك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب فلم تزل بيده وبيد أولاده الى سنة احدى وأربعين فسار الشهيد اليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ماهو لغيره دوان قل للحزم الذي كان عنده والاحتياط وأقام عليه يحصره بنفسه الى ان مضى من شهر ربيع خمس ليال فبيناهو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم الى القلعة ولم يشعر أصحابه بقتله فلما صعد أولئك النفر الى القلعة صاح من بها الى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه اليه فأدركه أوائلهم وبه رمق ثم ختم الله له بالشهادة أعماله

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا * انّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الامل وأدركه الاجل وتخلى عنه العبيد والخول فأىّ نجم للاسلام أفل وأىّ ناصر للايمان رحل وأى بحرندى نضب وأى بدرمكارم غرب وأىّ أسد افترس ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته وكم أدّبها في حفظه وحراسته فأتاه مبيد الامم ومفنيها في الحدث والقدم فأصار بعد القهر للخلائق مقهورا وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا رهين جدث لا ينفعه الا ماقدّم فطويت صحيفة عمله فهو موثوق في صورة مستسلم ثم دفن بصفين عند أصحابه على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه قلت وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال قصد زنكي حصار قلعة جعبر فنازلها وكان اذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح وهو يحبهم ويحبونه ولكنهم مع الوفاء منه يخيفونه وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم وكان من دأبه انه اذا نقم على كبير أرداه واقصاه واستبقى ولده عنده واخصاه فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم فخافوا من سطوته فلما نام ركبه كبيرهم واسمه برتقش فذبحه وخرج ومعه خاتمه فركب فرس النوبة موهما انه يمضى في مهم وهو لا يرتاب به لانه خاص زنكي فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم وذكر الحديث قلت ثم نقل الى الرقة فدفن بها وقبره الآن فيها قال ابن الاثير وكان حسن الصورة مليح العينين قد وخطه الشيب طويلا وليس بالطويل البائن وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولى بعده ونور الدين محمودا الملك العادل وقطب

الدين مودودا وهو أبوا الملوك بالموصل ونصرة الدين أمير أميران وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ونور الدين من الذكور ولم يبق الملك الا فى عقب قطب الدين ولقد أنجب رحمه الله فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم قلت ومن عجيب ما حكى انه لما اشتدّ حصار قلعة جعبر جاء فى الليل ابن حسان المنبجى ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له هذا المولى اتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزير ولا معين وأنا أرى ان أدخل فى قضيتك وآخذ لك من المولى اتابك مكانا عوض هذا المكان وان لم يفعل فأى شئ تنتظر فقال له صاحب القلعة انتظر الذى انتظر أبوك وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره فى منبج أشدّ حصار ونصب عليه عدّة مجانيق وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أى شئ تنتظر اما تسلم الحصن فقال له حسان انتظر سهما من سهام الله فلما كان من الغد بينا بلك يرتب المنجنيق اذ أصابه سهم غرب وقع فى لبته فخر ميتا ولم يكن من جسده شئ ظاهر الا ذلك المكان لانه كان قد لبس الدرع ولم يزرّها على صدره فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه وفى تلك الليلة قتل اتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبى طى فى كتاب السيرة الصلاحيه

(فصل) فى بعض سيرة الشهيد اتابك زنكى وكانت من أحسن سير الملوك وكانت رعيته فى أمن شامل يعجز القوى عن التعدّى على الضعيف قال ابن الاثير حدّثنى والدى قال قدم الشهيد الينا بجزيرة ابن عمر فى بعض السنين وكان زمن الشتاء فنزل بالقلعة ونزل العسكر فى الخيام وكان فى جملة أمرائه الامير عز الدين أبو بكر الدبيسى وهو من أكابر أمرائه ومن ذوى الرأى عنده فدخل الدبيسى البلد ونزل بدار انسان يهودى وأخرجه منها فاستغاث اليهودى الى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله فأخبره وكان الشهيد واقفا والدبيسى الى جانبه ليس فوقه أحد فلما سمع اتابك الخبر نظر الى الدبيسى نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ولم تكن الارض تحتمل وضع الخيام عليها الكثرة الوحل والطين قال فلقد رأيت الفرّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرته جعلوا على الارض تبنا ليقيموها ونصبوا الخيام وخرج اليها من ساعته قال وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغنى عنها وان خرجت البلاد عن أيدينا فان الاملاك تذهب معها ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبوهم أملاكهم ثم ذكر ما تجدّد فى أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل وذلك لحسن سيرته فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار اقامة وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ثم رفع سورها وعمق خندقها وهو الذى فتح الباب العمادى واليه ينسب قال وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة وكان الذى يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته اذا أراد أن يزنه فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفى ولايتها قال ومن أحسن آرائه انه كان شديد العناية بأخبار الاطراف وما يجرى لاصحابها حتى فى خلواتهم لاسيما دركات السلطان وكان يغرم على ذلك المال الجزيل فكان يطالع ويكتب اليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدّة قاصدين وكان مع اشتغاله بالامور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير وكان يقول اذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا وكان لا يمكن رسول ملك يعبر فى بلاده بغير أمره واذا استأذنه رسول فى العبور فى بلاده اذن له وأرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم سلم يوما خشكنانكة الى طشت دار له وقال احفظ هذه فبقى نحو سنة لا يفارق الخشكنانكة خوفا ان يطلبها منه فلما كان بعد ذلك قال له أين الخشكنانكة فأخرجها فى منديل وقدّمها بين يديه فاستحسن ذلك منه وقال مثلك ينبغى ان يكون مستحفظا لحصن وأمر له بدزدارية قلعة كواشى فبقى فيها الى ان قتل اتابك وكان لا يمكن أحدا من خدمه من مفارقة بلاده ويقول ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرّق الخصوم اليها قال ومن صائب رأيه وجيده ان سير طائفة من التركمان الايوانية مع الامير اليارق الى الشام وأسكنهم بولاية

حلب وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد للفرنج وجعله ملكا لهم فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيرا من السواد وسدّوا ذلك الثغر العظيم ولم يزل جميع ما فتحوه فى أيديهم الى نحو سنة ستمائة قال ومن آرائه انه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب وقال ان جرى على بعض هذه الجهات خرق أوحيل بينى و بينه استعنت على سدّ الخرق بالمال فى غيره قال وأما شجاعته وأقدامه فاليه النهاية فيهما وبه كانت تضرب الامثال ويكفى فى معرفة ذلك جملة ان ولايته أحدق بها الاعداء والمنازعون من كل جانب الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمنية وأعمالها بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق وكان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم فى عقر داره ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده بل كان يحمل أصحاب الاطراف على الخروج عليه فاذا فعلوا عاد السلطان محتاجا اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقرّ القواعد على يده قال وأمّا غيرته فكانت شديدة ولاسيما على نساء الاجناد فان التعرّض اليهنّ كان من الذنوب التى لا يغفرها وكان يقول ان جندى لا يفارقونى فى أسفارى وقلما يقيمون عند أهلهم فان نحن لم نمنع من التعرّض الى حرمهم هلكن وفسدن قلت وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى وذكر حديث رجم النبى صلى الله عليه وسلم ماعزا قال ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا قال أوكلما انطلقنا غزاة فى سبيل الله خلف رجل فى عيالنا له نبيب كنبيب التيس على الا أوتى برجل فعل ذلك الا نكلت به قال ابن الاثير وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزدارا اسمه نور الدين حسن البربطى وكان من خوّاصه وأقرب الناس اليه وكان غير مرضى السيرة فبلغه عنه انه يتعرّض للحرم فأمر حاجبه صلاح الدين الباغبسانى انه يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فاذا دخلها أخذ البربطى وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما الى الحريم ثم يصلبه فسار الصلاح مجدا فلم يشعر البربطى الا وقد وصل الى البلد فخرج الى لقائه فأكرمه ودخل معه البلد وقال المولى اتابك يسلم عليك ويريد ان يعلى قدرك ويرفع منزلتك ويسلم اليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين فتجهز وتحدّر مالك فى الماء الى الموصل وتسير الى خدمته ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلا ولا كثيرا الانقله الى السفن ليحدرها الى الموصل فى دجلة فحين فرغ من جميع ذلك اخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به وأخذ جميع ماله فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شئ من أفعاله قال وأما صدقاته فقد كان يتصدّق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهرا ويتصدّق فيما عداه من الايام سرا مع من يثق به وركب يوما فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه فقال له كلاما لم يفهمه ولم يتجاسر على ان يستفهمه منه فعاد عنه الى بيته وودّع أهله عازما على الهرب فقالت له زوجته ماذنبك وما حملك على هذا الهرب فذكر لها الحال فقالت له انّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به فقال أخاف ان يمنعنى من الهرب فاهلك فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّى عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه وقال له خذ هذه الصرّة الدنانير واحملها اليه فهى التى أراد فقال الله الله فى دمى ونفسى فقال لا بأس عليك فانه ما أراد غير هذه الصرّة فحملها اليه فحين رآه قال أمعك شئ قال نعم فأمره ان يتصدّق به فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال من أين علمت انه أراد الصرة فقال له انه يتصدّق فى هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل الى من يأخذه من الليل وفى يومنا هذا لم يأخذه ثم بلغنى انّ دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك الىّ فعلمت انه ذكر الصدقة قال وحكى لى من شدّة هيبته ما هو أشدّ من هذا قال والدى خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية وقال له اقعد فحين رأى الشهيد سقط الى الارض فحركوه فوجدوه ميتا قال وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطئ الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك الى ان قتل الا بذنب يوجب التغيير والامراء والمقدّمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له وكان الانسان اذا قدم عسكره لم يكن غريبا ان كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه وان كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان وان كان عالما قصد القضاة بنى الشهرزورى فيحسنون اليه ويؤنسون غربته فيعود

كانه أهل وسبب ذلك جميعه انه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العليه والاراء الصائبة والانفس الابيه ويوسع عليهم فى الارزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف قلت وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله فى قصيدة

فى ذرا ملك هو الده ❊ ر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ ❊ ث سحا وانسكابا
فاتح فى وجه كل ❊ أزمة للنصر بابا
ترجف الدنيا اذا حر ❊ ك للسير الركابا
وتحـز المشمخرا ❊ ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من ❊ هيبته تأوى الشعابا
واذا ما اقتحم نا ❊ ره صارت رواكبابا
يا عماد الدين لا زا ❊ ت على الدين سحابا
جاعلا من دونه ❊ سيفك ان ريع حجابا
فالبس النعماء فى الام ❊ ن الذى طبت وطابا
وأصف عيشا ان أعـ ❊ داءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب استولى زنكى على الشام من سنة اثنتين وعشرين الى أن قتل فى سنة احدى وأربعين وهو الذى فتح الرها عنوه واحتل بها من السعادة ذروه فتسنى بفتح الرها للمسلمين وجاس بلاد جوسلين وعاد جميعها الى الاسلام فى عهد ولده زنكى نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع وعقائلها تفترع وقال الرئيس أبو يعلى التميمى كانت الاعمال بعد قتل زنكى قد اضطربت والمسالك قد اختلت بعد الهيبة المشهوره والامنة المشكوره وانطلقت أيدى التركمان والحرامية فى فساد الاطراف والعيث فى سائر النواحى والاكناف ونظمت فى صفة هذه الحال أبيات من قصيدة

كذاك عماد الدين زنكى تنافرت ❊ سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر ❊ وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة ❊ يحامى عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم ❊ يروع الاعادى حليه وبراجمه
فلو رامت الكتاب وصف شياتها ❊ بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه ❊ وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكانت ولاة الارض فيها لامره ❊ وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من فى كل قطر لهيبة ❊ يراع بها اعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يذكر عدله ❊ فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه ❊ وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الاملاك بأسا وسطوة ❊ ولم يبق فى الاملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله ❊ وراعت ولاة الارض منه لوائمه
أتاه قضاء لا ترد سهامه ❊ فلم تحمه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه ❊ وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلا ❊ صريعا تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان فى الجيش اللهام مبيته ❊ ومن حوله ابطاله وصوارمه
وسمر العوالى حوله بأكفهم ❊ تذود الردى عنه وقد نام نائمه

ومن دون هذا عصبة قد ترتبت * بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام فى الايام راحة سره * وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم ملك للسفر آمن سبله * ومسرح حى لن تراع سوائمه
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه * من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذى يأتى بهيبة مثله * وينفذ فى أقصى البلاد مراسمه
فلو رقيت فى كل مصر بذكره * أراقم ذلت هناك أراقمه
فمن ذا الذى ينجو من الدهر سالما * اذا ما أتاه الامر والله حاتمه
ومن رام صفوا فى الحياة فإنى * له صفو عيش والحمام يحاومه
فإياك لا تغبط مليكا بملكه * ودعه فان الدهر لا شك قاصمه
وقل للذى يبنى الحصون لحفظه * رويدك ماتبنى فدهرك هادمه
وفى مثل هذا عبرة ومواعظ * بها يتناسى المرء ماهو عازمه

قال وفى ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم برتقش القاتل لعماد الدين زنكى وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه منه فوصل دمشق ميقنا انه قد أمن بها ومدلا بما فعله وظنا منه ان الحال على ما توهمه فقبض عليه وأنفذ الى حلب من صحبه من حفظه وأوصله فأقام بها أياما ثم حمل الى الموصل وذكر انه قتل بها قلت وللحكيم أبى الحكم المغربى قصيدة فى مرثية الشهيد عماد الدين زنكى رحمه الله منها

عين لا تذخرى المدامع وابكى * واستهلى دما على فقد زنكى
لم يهب شخصه الردى بعد ان كا * نت له هيبة على كل ترك
خير ملك ذى هيبة وبهاء * وعظيم بين الانام بزرك
يهب المال والجياد لمن يمـ * ـه مادحا بغير تلكى
ان دارا تمدنا بالرزايا * هى عندى أحق دار بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد * وانضحوه بزعفران ومسك
أى فتك جرى له فى الاعادى * بعدما استفتح الرها أى فتك
كل خطب أتت به نوب الدهـ * ـر يسير فى جنب مصرع زنكى
بعد ما كاد ان تدين له الرو * م ويحوى البلاد من غير شك

(فصل) فيما جرى بعد قتل زنكى من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازى ومحمود قال الرئيس أبو يعلى توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه وانضم اليه الى ناحية الموصل ومعه سيف الدين غازى بن عماد الدين اتابك وامتنع عليهم الوالى بالموصل على كوجك أياما الى حين تقررت الحال بينهم ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الامر وانتصب منصبه وعاد الامير سيف الدولة سوار وصلاح الدين يعنى محمد بن أيوب الياغبسانى فى تلك الحال الى ناحية حلب ومعهما الامير نور الدين محمود بن زنكى وحصل بها وشرع فى جمع العساكر وانفاق المال فيها واستقام له الامر وسكنت الدهماء وفصل عنه الامير صلاح الدين وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه وقال الحافظ أبو القاسم لما راهق نور الدين لزم خدمة والده الى ان انتهت مدته على قلعة جعبر وسير فى صبيحة الاحد الملك الب ارسلان بن السلطان مسعود الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخى سيف الدين غازى الى الموصل فهى له وأنتم فى خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب فى القلعة والمدينة قال ابن أبى طى الحلبى لما اتصل قتل اتابك باسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له اعلم ان الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعول على تقديم اخيك سيف الدين وقصده الى الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر وقد أنفذ الى جمال الدين وأراد نى على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت ان أصيرك الى حلب وتجعلها

كرسي ملكك وتجمع فى خدمتك عساكر الشام وأنا أعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان ملك الشام يحصل بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق فركب وأمر ان ينادى فى الليل فى عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا وساروا فى خدمة نور الدين الى حلب ودخلوها سابع ربيع الاول ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين الى تحت القلعة ونادى واليها واصعد نور الدين اليها وقرر امره ومشى أحواله فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمن بأنه كان السبب فى توليته وقال ابن الاثير لما قتل اتابك الشهيد ركب الملك الب ارسلان ابن السلطان مسعود وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه فأرسل جمال الدين الوزير الى الصلاح يقول له المصلحة ان يترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا يبقى به الملك فى اولاد صاحبنا ونعمر بيته جزاء لاحسانه الينا فان الملك قد طمع فى البلاد واجتمعت عليه العساكر ولئن لم نتلاف هذا الامر فى أوّله ونتداركه فى بدايته ليستعز الخرق ولا يمكن رقعه فأجابه الصلاح الى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه فركب الجمال الى الملك يخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقالا له ان اتابك كان نائبا عنك فى البلاد وباسمك كنا نطيعه فقبل قولهما وظنه حقا وقربهما طمعا ان يكونا عونا له على تحصيل غرضه وأرسلا الى زين الدين بالموصل يعرّفانه قتل الشهيد ويأمرانه بالارسال الى سيف الدين غازى وهو ولد عماد الدين زنكى الاكبر واحضاره الى الموصل وكان بشهرزور وهى اقطاعه من أبيه ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده الى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك وقال الجمال للملك ان من الرأى ان يسير الصلاح الى مملوكك نور الدين بحلب يدبر أمره وكانت حماه اقطاع الصلاح فأمره فسار وبقى الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء وأراد ان يعطى الامراء شيئا فمنعه خوفا من ان تميل قلوبهم اليه وقال لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن اتابك الشهيد واحدا بعد واحد وكل من حلف يأمره بالمسير الى الموصل هاربا من الملك وأقام بالملك فى الرقة عدّة أيام ثم سار به نحو سنجار وكان سيف الدين غازى قد دخل الموصل واستقر بها فقوى حينئذ جنان جمال الدين ووصل هو والملك الى سنجار فأرسل الى دزدارها وقال له لا تسلم البلد ولا تمكن أحدا من دخوله ولكن أرسل الى الملك وقل له إنا تبع الموصل فتى دخلت الموصل سلمت اليك ففعل الدزدار ذلك فقال الجمال للملك المصلحة اننا نسير الى الموصل فان مملوكك غازى اذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد فسار واعن سنجار وكثر رحيل العسكر الى الموصل هاربين من الملك فبقى فى قلة من العسكر فساروا الى مدينة بلد وعبر الملك دجلة من هناك فلما عبرها دخل الجمال الموصل وأرسل الامير عزالدين أبا بكر الدبيسى الى الملك فى عسكر وهو فى نفر يسير فاخذه وادخله الموصل فكان آخر العهد به واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل وجعل الجمال وزيره وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود فى أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به ويبسطه فلما خوطب فى اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف قال ابن الاثير فانظروا الى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه وهذا المقام الذى ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ولقد قلل من قال الناس ألف منهم كواحد وهو معذور لانه لم ير مثل جمال الدين قال ولما استقر سيف الدين فى الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان واسعرد وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها قال ولما فرغ سيف الدين من اصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عبر الى الشام لينظر فى تلك النواحى ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه اليه استمالة لقلبه واستقرت الحال بينهما على ان يجتمعا خارج العسكر السيفى ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب فى خمسمائة فارس وسار سيف الدين من معسكره فى خمسة فوارس فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا وقعد سيف الدين ونور الدين بعد ان اعتنقا وبكيا فقال له سيف الدين لم امتنعت من المجىء الىّ أكنت تخافنى على نفسك والله ما خطر ببالى ما تكره

فلمن أريد البلاد ومع من أعيش وبمن اعتضد اذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس الي فاطمأن نور الدين وسكن روعه وعاد الى حلب فتجهز وعاد بعسكره الى خدمة أخيه سيف الدين فامره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده وقال لا غرض لي في مقامك عندي وانما غرضي ان يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السوء بنا يكف عنه فلم يرجع نور الدين ولزم الى ان قضيا ما كانا عليه وعاد كل واحد منهما الى بلده قلت ومن قصيدة لابن منير في نور الدين

أيا خير الملوك أبا وجدا ❊ وأنفعهم حيا الغليل صاد
علوا وغلوا وقال الناس فيهم ❊ شوارد من ثناء أو أحاد
وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم ❊ بمنصبك القسيمي العمادى
وهل حلب سوى نفس شعاع ❊ تقسمها التمادى والتعادى
نفى ابن عماد الدين عنها الـ ❊ شكاة فاصبحت ذات العماد
تبختر فى كساء عدل و بذل ❊ مدبجة التهائم والنجاد
وفى محرابها داود منه ❊ يهذب حكمة آيات صاد
تجاوزت النجوم فاين تبغي ❊ ترق فلا خلوت من ازدياد

(فصل) فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والافرنج المخذولين قال ابن أبي طي في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب انطاكية البيمند فخرج في يومه بعساكر انطاكية وقسم عسكره قسمين قسما أنفذه الى جهة حماه وقسما أغار به على جهة حلب وعاث في بلادها وكان الناس آمنين فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل الى صلدى ونهبها ووصل الخبر الى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وجد في السير ففاته الفرنج وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الاسرى فقتلهم واستنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته وسار مجتنبا عن طريق الفرنج الى ان شن الغارة على بلد ارتاح واستاق جميع ما كان للفرنج فيه وعاد الى حلب مظفرا وقال ابن الاثير لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر الى بعلبك وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين فسلمها اليه واخذ منه مالا وملكه قرايا من اعمال دمشق وانتقل أيوب الى دمشق وأقام بها وقال ابن أبي طي اشتد صاحب دمشق في القتال وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر فاتفق ان الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شئ فصار أهل القلعة يستمدون من البلد فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة فاشتد الامر فطلبوا الامان والمصالحة فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذى كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها ولما بلغ ذلك نور الدين خاف ان يفسد عليه أسد الدين الى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده ومال نور الدين الى مجد الدين أبي بكر بن الدايه حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته فشق ذلك على أسد الدين قال الرئيس ابو يعلى لما اتصل خبر موت زنكي بمعين الدين أنر شرع في التأهب والاستعداد لقصد بعلبك وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمجنيقات فنزل عليها وضايقها ولم يمض الأيام قلائل حتى قل الماء فيها قلة دعتهم الى النزول على حكمه وكان الوالي بها ذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور فاشترط ما قام له به من اقطاع وغيره وسلم البلد والقلعة اليه ووفى له بما قرر الامر عليه وتسلم ما فيه من غلة وآلة في أيام من جمادى الأولى من السنة وأرسل معين الدين الوالي بحمص وتقررت بينه و بينه مهادنة وموادعة يعودان بصلاح الاحوال وعمارة الاعمال ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماه وتقرر بينهما مثل ذلك ثم انكفأ بعد ذلك الى البلد عقيب فراغه من بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها قال ووردت الاخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بان ابن جوسلين جمع الافرنج من ناحيته وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف اليه من التركمان وغيرهم زهاء عشرة آلاف فارس و وقعت الدواب في الطرقات من شدة السير ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل وانهزم الى برج يقال له برج الماء فحصل فيه ابن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه وأحدق بهم المسلمون وشرعوا

فى النقب عليهم حتى تعرقب البرج فانهزم ابن جولسين فى الخفية من أصحابه وأخذ الباقون ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها واستخلص من كان فيه أسيرا من المسلمين ونهب منها شئ كثير من المال والاناث والسبى وانكفأ المسلمون بالغنائم الى حلب وسائر الاطراف وقال ابن الاثير لما قتل زنكى كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته غرب الفرات فى تل باشر وماجاورها فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الارمن وواعدهم يوما يصل اليهم فيه فأجابوه الى ذلك فسار فى عساكره اليها وملكها وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وجدّ فى قتالهم فبلغ الخبر نور الدين وهو يومئذ بحلب فسار اليها بعسكره فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها ولم يبق منهم بها الا القليل ووصل خبر الفرنج الى سيف الدين غازى بالموصل فجهز العساكر الى الرها فوصل العساكر وقد ملكها نور الدين فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين قال ومن عجيب ماجرى ان نور الدين أرسل من غنائمها الى الامراء وأرسل الى زين الدين على جملة من الجوارى فحملن الى داره ودخل لينظر اليهن فخرج وقد اغتسل وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال لما فتحنا الرها مع الشهيد كان فى جملة ماغنمت جارية مالت نفسى اليها فعزمت على ان أبيت معها فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر باعادة السبى والغنائم وكان مهيبا مخوفا فلم أجسر على اتيانها وأطلقتها فلما كان الآن أرسل الى نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفا من العود قلت للقيسرانى قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها

أما آن ان يزهق الباطل ❊ وان يحز العدّة الماطل
الى كم يغب ملوك الضلال ❊ سيف باعناقها كافل
فلا تحفلن بصوت الذئا ❊ ب وقد زار الاسد الباسل
وهل يمنع الدين الافقى ❊ يصول انتقاما فيستاصل
أبا جعفر أشرقت دولة ❊ أضألها بدرك الكامل
فاما نصبت لرفع اسمها ❊ فانكما الفعل والفاعل
ليهنك ما افرج النصر عنـ ❊ ـه وماناله الملك العادل
فقل للحقاق الطريق الطر ❊ يق فقد دلف المقرم البازل
وجاهد فى الله حق الجها ❊ د محتسب بالعلى قافل
وهل يمنع السور من طالع ❊ يشايعه القدر النازل
فان بك فتح الرها لجة ❊ فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا ❊ ر ان المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرما ❊ ح ولا بد ان يضرب الشائل
يقوى معاقله جاهدا ❊ وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بواقى الجها ❊ ت لمن فات حسبته الحاصل

ولابن منير من قصيدة فى نور الدين

ملك ماأذل بالفتح ارضا ❊ قط الا أعزها اغلاقه
والوها فى الرهاء أزجى اليها ❊ عارضا شيب الدجى ابراقه
لجأت جارة اليه خلى ❊ عطلا من اعناقها اعناقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها ❊ شامة والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطلـ ❊ ـق يرينا اضاءة اطلاقه
سنة سنها أبوه بكلب الرو ❊ م لما أطله ارهاقه
خافقا قلبه الى أمل عا ❊ جله دون نيله اخفاقه

قسمت راية المواضي القسمـ ❊ ـات وابتز من لهاه عراقه
وكذا أنت يا ابنه ما عدا من ❊ خلقه فيك خصلة خلاقه
وكفى الجرانه ابن سحـاب ❊ ماونى سحه ولا اصعاقه
لم يمت من سددت ثلمتـه يا ❊ من على الدين كظه اشفاقه
رهبة لم تدع على الارض قلبا ❊ خلف صدر ينشق عنه شقاقه
كلما طن ذكرها منه فى السمـ ❊ ـع تكافى النافقاء نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يأ ❊ ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى

بنور الدين روّض كل محل ❊ من الدنيا وجدّد كل بال
أقام على ثنيـة كل خوف ❊ سهادا بات يكلأ كل كال
وصوّب عـدله فى كل أوب ❊ فعوّض عاطلا منه بحال
ينكسر رأيه رأى المحامى ❊ وتقبل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت للاسلام عزا ❊ يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم محفات ❊ عصاما غير منتكث الحبال

(فصل) وقفت على توقيع كتب فى ذى القعدة سنة احدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه (الحمد لله رب العالمين)
الى القاضى الاشرف أبى المجد على بن الحسن بن الحسين البيسانى (وهو والد القاضى الفاضل وكان يومئذ متولى القضاء والحكم بمدينة عسقلان) قد انتهى الى حضرة أمير المؤمنين ان قوما من أهل ثغر عسقلان حماه الله قد صاروا يؤدّون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهود المعروفين بالتزكية لهم مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول فانكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم وخرج عالى أمره بان لا يسمع قول شاهد ولا يتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة فى موضع شريف الامن زكاه أعيان شهود الثغر المحروس وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس عبد الساتر بن عبد الرحمن عبد العزيز بن مفضل على بن قريش أحمد بن حسن أحمد ابن على عبد الرحمن بن محسن اسامة بن عبد الصمد على بن عبد الله قلت وهذا احسن ما يؤرخ عن امام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتى ان شاء الله تعالى وقال الرئيس أبو يعلى وفى شوال من سنة احدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين انر الى ان استقرت الحال بينهما على اجمل صفة واحسن قضية وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين وتأكدت الامور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد فى دمشق بحضر من رسل نور الدين فى الثالث والعشرين من شوال وشرع فى تحصيل الجهاز وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة الى حلب فى صحبتهم ابنة معين الدين ومن فى جملتها من خواص الاصحاب فى النصف من ذى القعدة قال وتوجه معين الدين الى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام امين الدولة كمشتكين الاتابكى الذى كان واليها اولا قلت هو الذى تنسب اليه المدرسة الامينية قبلى الجامع بدمشق قال وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله انه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق وان الافرنج يعينونه على مراده وكان قد خرج من حصن صرخد الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم فقال معين الدين بينه وبين العود الى أحد الحصنين وراسل نور الدين فى انجاده على الكفرة فأجابه وكان مبرزا بظاهر حلب فى عسكره فثنى اليه الاعنة وأجدّ المسير فوصـــل الى دمشق فى التاسع والعشرين من ذى الحجه فأقام أياما يسيـــيره (ودخلت سنة اثنتين واربعين وخمسمائة) فتوجه نور الدين نحو صرخد ولم يشاهد احسن من عسكره وهيئته وعدته وفور عدته واجتمع العسكران وارسل من بصرخد اليهما يلتمسون الامان والمهلة اياما وتسلم المكان وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة الى ان يصل عسكر الافرنج لترحيلهم وقضى الله تعالى وصول من اخبر بتجمع الفرنج

واحتشادهم ونهوضهم فى فارسهم وراجلهم مجدين السير الى ناحية بصرى وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها فنهض العسكر فى الحال الى ناحية بصرى فسبقوا الافرنج اليها فحالوا بينهم وبينها ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الادبار وتسلم معين الدين بصرى وعاد الى صرخد فتسلمها وعاد العسكر ان الى دمشق فوصلاها يوم الاحد السابع والعشرين من المحرم وفى هذا الوقت وصل التونتاش الذى خرج من صرخد الى الفرنج بجهله وسخافة عقله الى دمشق من بلاد الافرنج من غير أمان ولا تقرير واستئذان توهما منه انه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام فاعتقل فى الحال وطالبه اخوه خطلخ بما جناه عليه من ثمل عينيه وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة واوجبوا عليه القصاص فثمل كما ثمل اخاه واطلق الى داره بدمشق فاقام بها قلت وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التى يأتى ذكرها فى قصيدة قد تقدم بعضها منها

اى شأن ادركت يانور دين الــــله اعيى على الملوك لحاقه
نطق الحاسدون بالعجز عن ما ✽ لك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد ✽ ليس الا الى المعالى سباقه
سل بصيرا كم اعتقت يوم بصرى ✽ من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت ✽ ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب واختيـ ✽ ـها لها صكت الاسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو ✽ طاولكن طواه عنه ارتفاقه

وفى هذه السنة ولد بعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وقيل فى سنة فتح زنكى الرها قال أبو يعلى وفى ليلة الجمعة الثالث من ربيع الاول توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوى المصيصى بدمشق كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعى ولم يخلف بعده مثله قال وفى جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن صرخد للامير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة وشروط وايمان دخل فيها وقام بها واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف قال وفى الحادى والعشرين من شوال وهو مستهل نيسان أظلم الجو ونزل غيث ساكن ثم أظلمت الارض فى وقت العصر ظلاما شديدا بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين وبقيت السماء فى عين الناظرين اليها كصفرة الورس وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر اليه من حيوان وجماد ونبات ثم جاء فى أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ما ارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان وقلقت لذلك الخيل فى مرابطها وبقى الامر على هذه الحال الى وقت العشاء الآخرة ثم سكن بقدرة الله تعالى وأصبح على الارض والاشجار وسائر النبات غبار فى رقة الهواء بين البياض والغبرة قال ابن الاثير وفى سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين ارتاح بالسيف وحصن بارا وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا انهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا من نور الدين هذا الجد علموا ان ما أملوه بعيد

﴿فصل﴾ فى نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها قال الرئيس أبو يعلى وفى هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم الالمان والفنش وجماعة من كبارهم فى العدد الذى لا يحصر لقصد بلاد الاسلام بعد ان نادوا فى سائر بلادهم ومعاقلهم النفير النفير اليها والاسراع نحوها وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشئ الكثير الذى لا يحصى بحيث يقال ان عدتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان ويقال أكثر من ذلك وغلبوا على اعمال قسطنطينية واحتاج ملكها الى الدخول فى مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم شرعت ولاة الاعمال المصاقبة لهم والاطراف الاسلامية القريبة منهم فى التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم وقصدوا مناقذهم ودروب معابرهم لكى يمنعوهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم واستحر القتل فيهم والفتك بهم الى ان هلك منهم

العدد الكثير وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر اذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء اعدادهم الى أواخر سنة اثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون
(ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة) وتواترت الاخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع من بها من الفرنج ويقال انهم بعد ما فنى منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير ثمانمائة ألف وقصدوا البيت المقدس وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم الى بلادهم فى البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقى الالمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الاراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية الى ان استقرت الحال على منازلتهم دمشق وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤا فى تقدير خمسين ألفا ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء وزحفوا الى البلد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم فى يوم السبت سادس ربيع الاول ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الاعمال والاجناد والاتراك والقتال واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه واستشهد فى هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوى المالكى رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه فى وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر الله تعالى فى كتابه الكريم وقال بعنا واشترى وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى
(فصل) قلت وذكر الامير أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار ان ملك الالمان الفرنجى لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم وفى جملتهم الفقيه الفندلاوى المالكى والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول رحمهما الله وكانا من خيار المسلمين فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن اما هؤلاء الروم قال بلى قال فالى متى نحن وقوف قال سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى قتلا فى مكان واحد رحمهما الله تعالى ثم قال أبو يعلى وشرعوا فى قطع الاشجار والتحصن بها وهدوا القطائر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور اليهم فى غد ذلك اليوم وهو الاحد وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجراح فيهم وأبلى الامير معين الدين فى حربهم بلاء حسنا وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد فى غيره بحيث لا ينى فى جهادهم ولا ينثنى عن دمارهم ولم تزل رحاء الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم الى ان مالت الشمس الى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم الى مكانه وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ والاستنجاد وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الاطراف تتتابع وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم وتفوىبهم وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرح بحيث يقع فى مخيمهم فى راجل أو فارس أو فرس أو جمل ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق الى مستقره فى هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم فى مخيمهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن انهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة الى ان يجدوا الجملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم فى المسالك وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤسهم لطلب الجوائز عليها وحصل من رؤسهم العدد الكثير وتواترت اليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة الى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا الاراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التى حصلوا فيها غير الرحيل فرحلوا سحر يوم الاربعاء التالى

مفلولين وحين عرف المسلمون ذلك برزوا اليهم فى بكرة هذا اليوم وساروا فى آثارهم بالسهام بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ووجدوا فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لاعدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرايج من جيفتهم تكاد تصرع فى الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة المسدودية فى تلك الليلة واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من اجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدّة فلله الحمد على ذلك والشكر واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للانجاد لها وقال ابن الاثير خرج ملك الالمان من بلاده الافرنج فى جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الفرنج الى بلاد الشام فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الالمان الا انه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره قال وهذا النوع من الفرنج هو اكثرهم عددا وأوسعهم بلادا وملكهم أكثر عددا وعددا وان كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا فلما حاصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين انق بن محمد بن بورى ابن طغتكين وليس له من الامر شئ وانما كان الامر الى مملوك جده طغتكين وهو معين الدين انر فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلا دينا خيرا أحسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الفرنج وزحفوا اليهم سادس ربيع الاوّل فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى شيخ المالكية بدمشق وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا خرج راجلا فرآى معين الدين فقصده وسلم عليه وقال له ياشيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوّة على القتال قال قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعنى قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة) الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيدا وقوى أمر الفرنج وتقدّموا فنزلوا بالميدان الاخضر وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه وكان معين الدين قد أرسل الى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدّة الامر فجمع سيف الدين عساكره وسار مجدّا الى مدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى فان أنا جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابى وأصحابى وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها فان أردتم ان ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد الى من أثق اليه وأنا أحلف لك ان كانت النصرة لنا على الفرنج انى لا آخذ دمشق ولا أقيم بها الا مقدار ما يرحل العدوّ عنها وأعود الى بلادى فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج فأرسل سيف الدين الى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم انه على قصدهم ان لم يرحلوا وأرسل معين الدين اليهم أيضا يقول لهم قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به فان أنتم رحلتم عنا والا سلمت البلد اليه وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه وأرسل الى فرنج الشام يخوّفهم من أولئك الفرنج الخارجين الى بلادهم ويقول لهم أنتم بين أمرين مذمومين ان ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم ما بايديكم من البلاد وان سلمت أنا دمشق الى سيف الدين فأنتم تعلمون انكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدّس وبذل لهم ان يسلم اليهم بانياس ان رحلوا ملك الالمان عن دمشق فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده وانه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل فأجابهم الى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقى معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله كما سنذكره

﴿فصل﴾ قلت وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله فى تاريخه ان الفقيه الفندلاوى رؤى فى المنام فقيل له أين أنت قال فى جنات عدن على سرر متقابلين وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله وأما عبد الرحمن الحلحول فقبره فى بستان الشعبانى فى جهة شرقه وهو المسجد المحاذى لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت وكان مقامه فى حياته فى ذلك المكان رحمه الله وقرأت قصيدة فى شعر أبى الحكم الاندلسى شرح فيها هذه القصة منها

بشطى نهر داريا * أمور ما تؤاتينا ❋ وأقوام رأوا سفك الـ * دماء فى جلق دينا
أتانا ما تتا ألف * عديدا أو يزيدونا ❋ فبعضهم من اندلس * وبعض من فلسطينا

ومن عكا ومن صور * ومن صيدا وتبنينا ❊ اذا أبصرتهم أبصر * ت أقواما مجانينا
ولكن خرقوا في عا * جل الحال البساتينا ❊ وجازوا المرج والتعدي * ل أيضا والميادينا
تخالهم وقد ركبوا * قطائرها حرادينا ❊ وبين خيامهم ضموا الا * خنازر والقرابينا
ورايات وصلبانا * على مسجد خاتونا ❊ وقلنا اذ رأيناهم * لعل الله يكفينا
سماهم معين قد * أعان الخلق والدينا ❊ وفتيان تخالهم * لدى الهيجاء شياطينا
فولوا يطلبون المر * ج من شرقي جسرينا ❊ ولكن غادروا اليا * س تحت الترب مدفونا
وشيخا فندلاويا * فقيها يعضد الدينا ❊ وفتيانا تفانوا من * دمشق نحو سبعينا
ومنهم مائتا علج * وخيل نحو تسعينا ❊ وباقيهم الى الآ * ن من القتل يفرونا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها

عرج على نجد لعلك منجدى ❊ بنسيمها و بذكر سعدى مسعدى

يقول فيها

من قاتل الافرنج دينا غيرة ❊ والخيل مثل السيل عند المشهد
ردّ الامان بكل ندب باسل ❊ ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ❊ ومن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه ❊ وغدا بمجد من شريعة أحمد

وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جد مجير الدين أنشده اياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أول القصيدة

الحق مبتهج والسيف مبتسم ❊ ومال أعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّ ❊ نت العباد فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ❊ معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ❊ كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال في عدد ❊ يؤود حاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا ❊ أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه ❊ سياسة ما يعفي اثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة ❊ بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم ❊ والله يعصم من بالله يعتصم
حتى اذا بدت الآراء ضاحكة ❊ وأقبلت أوجه الاقبال تبتسم
اتبعت جنّ سرايا هم مضمرة ❊ فيها النجوم اذا جدّ الوغى رجوا
والنصر دان وخيل الله مقبلة ❊ ترجو الشهادة في الهيجاء وتغتنم
صاب الغمام عليهم والسهام معا ❊ فما دروا أيما الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الاعمار فانتهبوا ❊ قتلا و يغتنموا الاموال فاغتنموا
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم ❊ مجنونة وعلى ارماحنا القمم
وأدبر الملك الطاغي يزعزعه ❊ حرّ الاسنة وهو البارد الشيم
وافوا دمشق فظنوا انها جدة ❊ ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح انهم ❊ ان لم يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا ❊ وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لايدى المسلمين وقد ❊ أغرى القنا بتمادى خطفهم نهم

لا يملك الجسم دمعا عن مقاتله ❊ كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الادنى فاعبرت ❊ عن مسجد القدم الاقصى لهم قدم

﴿فصل﴾ قال ابن الاثير لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين انر الى بعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر عنده فاجتمعا فوصل اليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج وكان سبب ذلك ان ولد الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان الى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص وأظهر انه يريد أخذ طرابلس منه أيضا وجد هذا الذى ملك العريمة هو الذى غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين فى قصده فسارا اليه مجدّين فصحباه وكتبا الى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من به من رجل وصبى وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب وقال الرئيس أبو يعلى قتل أكثر من كان فيه يعنى فى حصن العريمة وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمّه ونهب ما فيه من العدد والخيول والاثاث وعسكر سيف الدين الى أخيه بحمص ونور الدين عاد الى حلب ومعه ولد الملك وأمّه ومن أسر معهما وانكفأ معين الدين الى دمشق قال ووردت الاخبار فى رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه فى عسكره الى ناحية الاعمال الافرنجية وقصد افامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الافرنجية وبعدّة وافرة من الافرنج وان صاحب انطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه فنال من عسكره وأثقاله ذكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة وانهزم بنفسه وعسكره وعاد الى حلب سالما فى عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج وأقام بحلب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك وما يحتاج اليه من آلات العسكر وعاد الى منزله وقيل لم يعد وذكر ابن أبى طى ان أسد الدين لما كان فى نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهى وقعة يغرا ومرّ به نور الدين فقال له ما هذا الوقوف والغفلة فى مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا فقال يا خوند ايش ننفع نحن انما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الامر فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك وألزم مجد الدين ان يعرف لاسد الدين حقه وأصلح بينهما قال وقتل فى هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر وقيل فى كسرة البقيعة قلت وهو والد عز الدين فرخشاه وتقى الدين عمر والست عذرا المنسوب اليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العونية ظاهر دمشق رحمهم الله قلت ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذارا عما جرى فى هذه الغزاة قال

لم يشنه من ماء يغرا ان نزالا ❊ الاشابات ذادعنها انذلاقه
كان فيها الليث العرين حمى الا ❊ شبال منه غضبان كالنار ماقه
وشبيه النبى يوم حنين ❊ اذ تلافا أدواءهم درياقه
وهى الحرب خلها عجس الكسر ❊ إن عض بأسها الانياقة

﴿فصل﴾ وقال ابن الاثير وفى سنة ثلاث واربعين ايضا سار نور الدين الى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج فى قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير وفى هذه الوقعة يقول القيسرانى من قصيدة أوّلها

ياليت ان الصدود مصدود ❊ اولا فليت النوم مردود
الى متى تعرض عن مغرم ❊ فى خده للدمع اخدود
قالوا عيون البيض بيض الظبى ❊ قلت ولكن هذه سود
يخاف منها وهى فى جفنها ❊ والسيف يخشى وهو مغمود

ثم خرج الى المدح فقال

وكيف لا نثنى على عيشنا الـ ❊ محمود والسلطان محمود
فليشكر الناس ظلال المنى ❊ ان رواق العدل ممدود

ونيرات الملك وهاجة ❊ وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينثنى ❊ الا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة ❊ الا ونور الدين موجود
مظفر فى درعه ضيغم ❊ عليه تاج الملك معقود
نال المعالى مالكا حاكما ❊ فهو سليمان وداود
ترتشف الافواه اسيافه ❊ ان رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها ❊ عند ملوك الشرك مشهود
والقوم اما مرهق صرعة ❊ أو موثق بالقد مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها ❊ قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى ❊ فكل ما يضمن مردود
والكر والفر سجال الوغى ❊ فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بغيها ❊ عادوا وقد عاد لها هود
قد حصحص الحق فجاحد ❊ فى قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح ❊ وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة فى نور الدين وأنشده اياها بظاهر حلب وقد كسر الافرنج على يغرا وهزمهم الى حصن حارم وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أولا بهذا الموضع أولها

تفى بضمانها البيض الحداد ❊ وتقضى دينها السمر الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ ❊ فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام ❊ يشد بضبعه السبع الشداد
أظنوا ان نار الحرب تخبو ❊ ونور الدين فى يده الزناد
وجند كالصقور على صقور ❊ اذا انقضوا على الابطال صادوا
اذا اخفوا مكيدتهم أخافوا ❊ وان أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها ❊ وهل يخشى وأنت لها عماد
وان تتل القوافى ما تلته ❊ بآنبه ما يؤنبها سناد
جرت بالنصر أقلام العوالى ❊ وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الاعلاج خصبا ❊ فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا ❊ ولا طعن هناك ولا طراد
وللابرنس فوق الرمح رأس ❊ توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه ❊ وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس ❊ وعايرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا ❊ فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر بيتى الوغى مثوى حبيب ❊ فمن عن باب مسلمه ذياد
ولا فى باب فارس غير ثكلى ❊ بفارسها يضئ بها الحداد
لانطاكية يحمى ذراها ❊ وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت ❊ ملبية لدعوتك العباد

قلت ووقعة أنب هذه كانت عظيمة وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتى ذكرها قريبا ان شاء الله تعالى

﴿فصـــل﴾ قال أبو يعلى التميمى وفى رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بإبطال حى على خير العمل فى أواخر أذان الغداة والتظاهر بسب الصحابة وأنكر ذلك انكارا شديدا وساعده على ذلك جماعة من اهل السنة بحلب وعظم هذا الامر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهوره والهيبة المحذوره قلت وأنشده ابن منير فى رمضان

فداك من صام ومن أفطرا ❊ ومن سعى سعيك أو قصرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم ❊ وهل يوازى عرض جوهرا
عدل تساوى تحت اكنافه ❊ مطافل العين واسد الشرى
يا نور دين الله كم حادث ❊ دجى وأسفرت له فانشرى
وكم حمى للشرك لا يهتدى الـ ❊ وهم له غادرته مجزرا
يا مالك العصر الذى صدره ❊ افسح من أقطارها مصدرا
وابن الذى طاول أفلاكها ❊ فلم يجد من فوقه مظهرا
مناقب تكسر كسرى كما ❊ تقصر عن ادراكها قيصرا
ما عام فى اوصافها شاعر ❊ الا رأى أوصافها أشعرا
لله أصـل أنت فرع له ❊ ما أطيب المجنى وما أطهرا
ما حلب البيضاء مذ صنتها ❊ الاحرام مثل أم القرى
شيدت فى معمور ارجائها ❊ لكل باغى عمره مشعرا
فاصبح الشادى اذا ثوب الـ ❊ داعى له هلل أو كبرا
لاعدم الاسلام من كفه ❊ كهف لمن ارهق أو احصرا
كانما ساحته جنة ❊ أجرت بها راحته كوثرا
تصرم الشهر الذى كنت فى ❊ أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل فى نهار غزا ❊ اذ كنت فيه الاصبر الاشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ❊ ماهز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من ❊ خلاك فى ليلهما نيرا
حتى ترى عيسى من القدس قد ❊ نجا الى سيفك مستنصرا

قال ابو يعلى وفى رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم فى الجامع المعمور بدمشق على جارى العادة والرسم فبدا من اختلافهم فى أحوالهم واغراضهم والخوض فى قضايا لا حاجة اليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وابطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد وطمع سفهاء الاوغاد وذلك فى آخر شعبان منها قال وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية فى الاعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق فاغار معين الدين على اعمالهم وخيم فى ناحية من حوران بالعسكر وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان وأطلق أيديهم فى نهبهم والفتك بهم فلم يزل على النكاية فيهم والمضايقة لهم الى ان ألجأهم الى طلب المصالحه

﴿ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة﴾ جددت المهادنة فى المحرم مدة سنتين وأنفذ نور الدين الى معين الدين يعلمه ان صاحب انطاكية قد جمع افرنجه بلاده وظهر يطلب بهم الافساد فى الاعمال الحلبية وانه قد برز فى عسكره الى ظاهر حلب للقائه والحاجة ماسة الى معاضدته فندب معين الدين مجاهد الدين نزان بن مامين فى فريق وافر من العسكر الدمشقى للمصير الى جهته و بذل المجهود فى طاعته ومناصحته وبقى معين الدين فى باقى العسكر بناحية حوران قال وفى صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى وله الحمد على حشد الفرنج المخذول ولم يفلت منهم الا من أخبر ببوارهم وتعجيل دمارهم وذلك ان نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارسا مقاتلة

سوى الاتباع والسواد فنهض بهم الى الفرنج فى الموضع المعروف بآنب وهم فى نحو أربعمائة فارس وألف راجل فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدمهم صريعا بين حماته وأبطاله فعرف وقطع رأسه وحمل الى نور الدين وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهى فى الشر وذلك يوم الاربعاء الحادى والعشرين من صفر ثم نزل نور الدين فى العسكر على باب انطاكية وقد خلت من حماتها والذابين عنها ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم وترددت المراسلات بينه وبينهم فى طلب التسليم اليه وايمانهم وصيانة أموالهم فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه الا بعد انقطاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال ثم استمهلوا فامهلوا ثم رتب نور الدين بعض العسكر للاقامة عليها والمنع لمن يصل اليها ونهض فى بقية العسكر لمنازلتها ومضايقتها فالتمسوا الامان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد فى ثامن عشر ربيع الاول وانكفأ نور الدين فى عسكره الى ناحية انطاكية وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل الى صوب انطاكية لانجاد من بها فاقتضت الحال مهادنة من فى انطاكية وموادعتهم وتقرير ان يكون ما قرب من الاعمال الحلبية له وما قرب من انطاكية لهم ورحل عنهم الى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك فى هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمة وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان فى العسكر الدمشقى وقد كان له فى هذه الوقعة ولمن فى جملته البلاء المشهور والذكر المشكور لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وأصابة الرأى والمعرفة بمواقف الحروب وقال ابن أبى طى حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب انطاكية وجماعة من وجوه عسكره ولم يقتل من المسلمين من يقوم به وعاد المسلمون بالغنائم والاسارى وكان لاسد الدين فى هذه الحرب اليد البيضاء ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها

ان كان آل فرنج أدركوا فلجا ❋ فى يوم يغرا ونالوا امنية الظفر
ففى الخطيم خطمت الكفر منصلتا ❋ أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا وانتهبت لنا ❋ على الخطيم نفوس المعشر البتر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا ❋ قوامص الكفر فى ذل وفى صغر

قال وحصل لاسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير وعدة أسارى وخيول كثيرة فأنفذ لاخيه نجم الدين منها شيئا وفى هذه السنة عظم أمر أسد الدين وقال ابن الاثير سار نور الدين الى حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس وأنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا وفيمن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند فبقى مع أمه بانطاكية فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بانطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم الى ان يكبر بيمند ثم ان نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر وكان فى الاسرى البرنس الثانى زوج أم بيمند فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن منه وبقى بها الى ان أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس فمن قال فيه القيسرانى الشاعر من قصيدة أنشده اياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل انطاكية أولها

هذى العزائم لا ما تدعى القضب ❋ وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت ❋ تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صافحت يا بن عماد الدين ذروتها ❋ براحة للمساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة ❋ حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى وهمك ما ❋ أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب

ياساهد الطرف والاجفان هاجعة * وثابت القلب والاحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وان صمت مسامعها * قولا لصم القنا فى ذكره أرب
ما يوم آنب والايام دائلة * من يوم بغرا ببعيد لاولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم * كم أسلم الجهل ظنا غرة الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى * وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الاعادى من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه * فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقرّ لها * قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد * كما استقل دخان تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركة * لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له * سوى القسى وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته * كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللاسنة عما فى صدورهم * مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم * فاستسلموا وهى لانبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجته * لا فى العدى والقنا فى كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم * يارب حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم * ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم فى ثياب من دمائهم * مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت * فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا * من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ما سمت والليل معتكر * الا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه فى كل حادثة * ووجهه نائب عن وصفه اللقب
فى كل يوم لفكرى من وقائعه * شغل فكل مديحى فيه مقتضب
من باتت الاسد أسرى فى سلاسله * هل يأسر الغلب الا من له الغلب
فلكوا سلب الابرنس قاتله * وهل له غير أنطاكية سلب
من الشقى بما لاقت فوارسه * وان يسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة * برأسه ان أثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء ارهقه * أنبوبة فى صعود أصلها صبب
مافارقت عذبات التاج مفرقه * الا وهى منه لاتاج ولاعذب
اذا القناة ابتغت فى رأسه نفقا * بدا لثعلبها من نحره سرب
كنا نعدّ جنى أطرافنا ظفرا * فلكتك الظبى ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها * كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق * كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب * يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله * فانما أنت بحر لجه لجب

يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة * من الظبي عن ثغور زانها الشنب
مازلت تلحق عاصيها بطائعها * حتى أقمت وأنطا كية حلب
حللت من عقلها أيدي معاقلها * فاستجفلت والى ميثاقك الهرب
وأيقنت انها تتلو مراكزها * وكيف يثبت لا جوق ولا طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها * جرى الجفون امتراها بارح حصب
وما ركزت القنا الا ومنك على * جسر الحديد هزبر غيله اشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة * يأوى الى جنة المأوى لها حسب
ان لا يكن أحد الابدال في فلك الـ * تقوى فلا تمارى انك القطب
فلو تناسب أفلاك السماء بها * لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة * الا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى

ألا لله درك أى درّ * صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذى استولى مسيحا * على ما بين فامية وسيح
ووقعتك التى بنت العوالى * صوادر عن قتيل أو جريح
بأنب يوم أبرزت المذاكى * من النقع الغزالة فى مسوح
غداة كأنما العاصى احمرارا * من الدم عبرة الجفن القريح
وقد وافاك بالابرنس حتف * أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس اذلا * يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا * وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت الى ذرا حلب حميدا * سمو البدر من بعد الجنوح
فان جليت بغرتك الليالى * فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فواقا * بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وان ارحت الخيل وقتا * فهمك غير همّ المستريح

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه الى حلب وأنشده أيضا اياها بجسر الحديد

أقوى الضلال واقفرت عرصاته * وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده * من بعد ما غلبت دما عبراته
ردّت على الاسلام عصر شبابه * وثباته من دونه وثباته
ارسى قواعده ومدّ عماده * صعدا وشيد سوره وسوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا * اصلاته وصلاته وصلاته
لما توا كل حزبه وتخاذلت * أنصاره وتقاصرت خطواته
رفعت لنور الدين نار عزيمة * رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته * ومشوقه بين الصفوف شذاته
تغرى بجحفله اليراع بنانه * ان لذ حجفلة الكؤس لداته
ويروقه ثغر العدى قان دما * لا الثغر يعبق في اللماء لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه * نطف النفوس تديرها نشواته
فتح تعممت السماء بفخره * وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله * واختال في أوضاحها جبهاته

وانهل فوق الابطحين غمامه * وسرت الى سكينها نفحاته
لله بلجة ليلة محصت به * واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها * ضرب يصلصل فى الطلى صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته * فرس الفوارس والقنا غاياته
لجيوب عمرية غضباته * لله معتصمية غزواته
تحيا الضيق صفاده اسراؤه * وتفيض ماشؤ ونها نغماته
بين الجبال خواضعا أعناقها * كالذودنابت عن براه حداته
نشرت على حلب عقود بنودهم * حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكر جياده * واستوأرت جمالة جملاته
متساندين على الرحال كما انتشى * شرب امالت هامه قهواته
لم تنبت الأجام قبل رماحه * شجرا فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ماجدحت له * شربات غرس هذه مخباته
وسقى صداذاك الحيا صوب الحيا * خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت * لمقر منصبك السرى سراته
ماضر هذا البدر وهو محلق * ان الكواكب فى الذرى ضراته
فى كل يوم تستطيل قناته * فوق السماء وتعتلى درجاته
وترى كشمس فى الضحى آثاره * مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الاولى ملأوا الطروس زخارفا * عن نزف بحر هذه قطراته
غدقوا بأعناق العواطل ماله * من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه * سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
تمسى قنانيه بنات قيونه * فوق القوانس والقنا قيناته
صلتان من دون الملوك تقرها * حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم * وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا امسجذه الجبال وأسكنت * زحل الرحال مع السها عزماته
لو لاح للطائى غرة فتحه * باءت بجمل تأوه باآته
أوهب للطبرى طيب نسيمه * لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده * فتفرقت ايدى سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة * بالروح مقر ماجنت غدراته
فانقاد فى خطم المنية أنفه * يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت أنب همة * أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف ففجأته * فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما * اغضت وقد كرت لها لحظاته
بخلوته تبكى الاصادق تحته * بدم إذا ضحكت له شماته
تمشى القناة برأسه وهو الذى * نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته * لاراك شاهد خفضه اخباته
ما انقاد قبلك أنفه بخزامه * كلا ولاهمت لها هدراته
طيان خلف السرح طال زئيره * نطقت سطاك له فطال صماته

لما بدا مسود رأيك فوقه * مبيض نصرك نكست راياته
ورأى سيوفك كالصواعق طاوحت * مثل الكرين فقلصت كثراته
ولى وقد شربت ظباك كماته * تحت العجاج وأسلمته حماته
ترك الكنائس والكناس لناهب * بالبيض نهب ما حواه عفاته
غلاب اروع لا يميت عداته * داء المطال ولا تعيش عداته
والآن ملقى بالعراء يقتاته * ما كان قبل يصيده يقتاته
اليوم ملكك القراع قلاعه * متسنما ما استشرفت شرفاته
وغدا تحل لك الحلائل اسهم * متوزعات بينهن بناته
اوطأت أطراف السنابك هامه * فتقاذفت بعنيفها قذفاته
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه * أبدا ويلفت في الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه * من شاء فلتسرع اليه هناته
أنت الذي تحلى الحياة حياته * وتهب أرواح القصيد هباته

(فصل) قال ابن الاثير وفيها سار نور الدين الى حصن فامية وهو للفرنج أيضا وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وامنعها وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فاهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلا ونهارا وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جده في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قصاراهم ان صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء واكثروا منهم أبو الحسين أحمد بن منير حيث قال

اسنى الممالك ما اطلت منارها * وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها * منناً وزاد هوى نخص نزارها
مضرية طبعت مضاربه وان * عدته ذروة فارس اسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها * وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقر ضجعتها وأنبت نبهها * وأساغ جرعتها واثبت زارها
ملك أبوه سمالها فسما بها * وأجارها فعلت سهيلا جارها
نهج السبيل له فأوضح خلفه * وشدا له يمن العلى فانارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد * من بعد ما شمل البلى اصحارها
ان جانأت عدل السنان قوامها * أو نانأت كان الحسام جبارها
علقت مع العصم العواصم مذ غدت * هذي العزائم أسرها وإسارها
وتكفلت لك ضمرة انضيتها * في صونها ان تسترد ضمارها
كلأت هواملها وردّ مطارها * ما أريشته وثقفت آطارها
كم حاولت من كفتيها غرّة * غلب الاسود فقلمت أظفارها
اني وحامي سرحها من لو سمت * للفلك بسطته أحال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة * للدين يجمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر ان غدا الا * خطباء تنثر فوقها تقصارها
همم تجلت الملوك وراءها * بدم العثار وما اقتفت آثارها

وعزائم تستوثر الآساد عن ❊ نهش الفرائس ان أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفة الذرى ❊ بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغزت افاميــة فما في بيته ❊ كو بار أجناها الاران بوارها
أرهفت رائك فوق رائك تحتها ❊ حططت من شغفاتها أعفارها
أدركت ثارك فى البغاة وكنت يا ❊ مختار أمة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سما لها ❊ منك المغيرة فاسترد معارها
زأر الهزبر فقيدت عاناتها ❊ عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ولربما ❊ بانت تنافثها النجوم سرارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت ❊ شعراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم قرعت بقرباتك مثلها ❊ تلعا وقلدت الكماة عذارها
حتى اذا اشتملتك أشرق سورها ❊ عزا وحلاها سنانك سوارها
خر الصليب وقد علت نغماتها ❊ واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع انطاكية ❊ سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستذم مجيرها ❊ من جوره وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها ❊ ان زر أطواق القباء وزارها
ماض اذا قرع الركاب لبلدة ❊ ألقت له قبل القراع ازارها
واذا مجانقه ركعن لصعبة ا ❊ ملقاة أسجد كالجدير جدارها
ملأ البــــلاد مواهبا ومهابة ❊ حتى استرقت آيه أحرارها
يذكى العيون اذا أقام لعينها ❊ أبدا ويفضى بالظبى أبكارها
أوما الى رمم الندى فأعاشها ❊ وهما لسابقة المنى فأزارها
نبوى تشبيها لفتوح كأنما ❊ أنصاره رجعت له أنصارها
أحيا الصرح سلامها سلمانها ❊ وأمات تحت عمارها عمارها
ان سار سار وقد تقدم جيشه ❊ رجف يقصع فى اللهى دعارها
أوحل حل حبا القروم بهيبة ❊ سلب البدور بدارها ابدارها
واذا الملوك تنافسوا درج العلى ❊ اربى بنفس أفرعته خيارها
ونهى اذا هيضت تدل لجبرها ❊ وسطى تذل اذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسمه ❊ لو لم فاعلة بها لا بارها
الفاعل الفعلات ينظم فى الدجى ❊ بين النجوم حسودها سمارها
ساع سعى والسابقات وراءه ❊ عنقا فعصفر منتهاه عثارها
كالمضرحى اذا بصر صرا يبا ❊ خرس البغاث وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع ❊ يغشى اذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سطعت وقد حاولتها ا ❊ لاقدار عجزا ان تشق غبارها
لله وجهك والوجوه كأنما ❊ حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس فى الصدور صدورها ❊ هبرا وتكتحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا ❊ جذب المواتح غاورت أبارها
فبقيت تستجلى الفتوح عرائسا ❊ متمليا صدر العلى وصدارها
فى دولة للنصر فوق لوائها ❊ زبر تمق فى الطلى أسطارها

فالدين موماة رفعت بها الصوى * وحديقة ضمنت يداك ابارها

وله فيه من قصيدة أخرى

خنس الثعالب حين زمجر مصحر * ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق * جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلاته * كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد اذا ماعاد من ظفر بمفترس أحدّ لمثله اظفورا
يتبادر الاعداء منه سطوة * ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع * وفي بها الاسلام أمس نذورا
أبدا يطاف رك القضاء على الذى * تبغي فترجع ظافرا منصورا
قوّضت فانتقع الظهائر ظلمة * وقفلت فاشتعل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم * ينشي الرشيد و ينشر المنصورا

﴿فصل﴾ فى وفاة معين الدين انر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفى فى هذه السنة قال أبو يعلى التميمى فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل الى دمشق فى أواخر ربيع الآخر لامر أوجب ذلك ودعا اليه وأمعن فى الاكل فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود الى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق وقد زاد به وضعفت قوّته وتولد معه مرض فى الكبد فأوجب الحال عوده الى دمشق فى محفة لمداواته فوصل وقضى نحبه فى ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر ودفن فى ايوان الدار الاتابكية التى كان يسكنها ثم نقل بعد ذلك الى المدرسة التى عمرها قلت قبره فى قبة بمقابر العونية شمالى دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم اليها وفيه يقول الامير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها اليه من مصر لما التقى الفرنج فى أرض بصرى وصرخد مع نور الدين وقد تقدّم ذلك كتب اليه قصيدة يقول فيها

كل يوم فتح مبين ونصر * واعتلاء على الاعادى وقهر
صدق النعت فيك أنت معين الـ * ـدين ان النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كلّ * غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا * ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا * ك هما الباقيان أجر وشكر

قال وفى يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال القسمة المستخرجة من الرعية وازالة حكمها وتعفية رسمها وابطال دار الضرب فكثر دعاء الناس له وشكرهم قال واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الاحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما وذلك فى ثالث عشر رجب ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما فما وثقا بذلك وجدا فى الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا اغلاقه واطلقوا من فيه واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقى وفعلوا مثل ذلك وحصلوا فى جمع كثير وامتلأت بهم الازقة والدروب فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا فى القلعة بالسلاح الشاكى واخرج ما فى خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر وعزموا على الزحف على جميع الاوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم فسأل جماعة من المقدمين التمهل فى هذا الامر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق والحوا عليه الى ان أجاب سؤالهم ووقعت المراسلة والتلطف فى اصلاح ذات البين فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا الى بعضها وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره ويكون ولده وولد أخيه فى الخدمة فى الديوان ولا يركب الى القلعة الا مستدعى اليها وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال الى ما كانت

عليه

عليه من العناد واثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين واتفقوا على الزحف الى القلعة وحصر من بها وطلب من عين عليه من الاعداء الاعيان فى أواخر رجب ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير وعاد كل فريق منهم الى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه الى ناحية بعلبك ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة الى ان اقتضت الصورة ابعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة فى دار السلارين وأصحابهما وعمها النهب والاخراب ودعت الضرورة الى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما واعادة الرئيس الى الوزارة والرياسة بحيث لا يكون له فى ذلك معترض ولا مشارك قلت وفى هذه الفتنة يقول العرقلة

ذر الاتراك والعربا ❊ وكن فى حزب من غلبا ❊ بجلق أصبحت فتن ❊ تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا ❊ وان تخرب فوا عجبا

وقال فى الرئيس لما زحف الى القلعة

زد علوا فى المجد يا ابن على ❊ هكذا من أراد ان يتعالى ❊ قد حوى الدين يا مؤيده منـ ❊ ـك هزبرا وديمة وهلالا
وغدت جلق تناديك عجبا ❊ هكذا هكذا والا فلالا ❊ جئتها فى الظلام خيلا ورجلا ❊ وحميت النفوس والاموالا
لن تبالى من بعدها بعدو ❊ انما ذاك كان قطعا فزالا ❊ قد بلغت المراد من كل ضد ❊ وكفى الله المؤمنين القتالا

قال أبو يعلى التميمى وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر فى خامس جمادى الآخرة وولى الامر بعده ولده الاصغر ابو منصور اسماعيل ولقب بالظافر وولى الوزارة له أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربى

﴿فصل﴾ فى وفاة سيف الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل وهو أخو نور الدين الاكبر قال ابن الاثير كان اتابك الشهيد يعنى زنكى ملك دارا وبقيت بيده الى ان قتل فأخذها صاحب ماردين ثم سار اليها سيف الدين بن الشهيد فى سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها ثم حصر ماردين عازما على ان يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده فتفرق العسكر فى بلدها ينهبون ويخربون فقال صاحب ماردين كنا نشكو من اتابك وأين أيامه فلقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ولا أخذوا كفا من اتبن بغير ثمن

رب دهر بكيت منه فلما ❊ صرت فى غيره بكيت عليه

ثم انه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد الى الموصل وجهزت الخاتون وسيرت اليه فوصلت الى الموصل وهو مريض فتوفى ولم يدخل بها وذلك فى أواخر جمادى الآخرة وكان عمره نحو أربعين سنة وكان من أحسن الناس صورة ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل وخلف ولدا ذكرا أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته وزوجه ابنة عمه قطب الدين مودود فلم تطل أيامه وادركه أجله فى عنفوان شبابه فتوفى وانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا ذا عزم وحزم وهو أول من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الاطراف فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية وهو أول من امر عسكره ان لا يركب أحدهم الا والسيف فى وسطه فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة وهى من أحسن المدارس وأوسعها وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية بصفين وبنى رباط الصوفية بالموصل أيضا وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ووقف عليهما الوقوف الكثيرة وكان كريما قصده شهاب الدين حيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة وهى من جيد شعره فأجازه عنها ألف دينار أميرى سوى الاقامة والتعهد مدة مقامه وسوى الخلع والثياب قلت أول تلك القصيدة الى م يراك فى المجد فى زى شاعر يقول فى آخرها

اتابك ان سميت فى المهد غازيا ❊ فسابقة معدودة فى البشائر
وفيت بها والدين قدما لروقه ❊ وصدقتها والكفر بادى الشعائر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم بعضها أولها هو الجد بز التمام البدورا يقول فيها

سوى كل ماجنت الحادثا ❊ ت ما كنت ظلا علينا قريرا
أساءن وأحسن كرّ الهلال ❊ وملأتنا منك بدرا منيرا
اذا نبج البحر أخطأته ❊ فلا غرو ان ينشفن الغديرا
وأصغر بفقدانتا الذاهبـ ❊ ين ماعشت تاتيك ملكا كبيرا
وما أغمد الدهر ذاك الحسا ❊ م ماسل حداك عضبا بتورا
قسيم علاك ونعم القسـ ❊ يم أخ شاف نزرا وأعطى كثيرا
وكان نظيرك غار الزما ❊ ن من ان يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوس بك استوطنت ❊ من الامن نورا وقد كن بورا
وغيرك يمهد بسط العزا ❊ ء ويولى المسلمين سمعا وقورا
ومانقص الدهر اعدادكم ❊ اذا شف قطرا وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم ❊ لخطلهم فى السماء القبورا
حياتك أحيت رميم الرجا ❊ ء وأمطت من الجود ظهرا ظهيرا
بقيت معزا من الهالكيـ ❊ ـن توقى الردو توفى الاجورا

وللقيسرانى قصيدة منها

ما أطرق الجوّ حتى أشرق الافق ❊ ان أغمد السيف فالصمصام يأتلق
دون الاسى منك نور الدين فى حلب ❊ مملك ينجلى عن وجهه الغسق
هو الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى ❊ أراق ماء الكرى من جفنك الارق
تلقى الاسى من لباس الصبر فى جنن ❊ حصينة تحتها الاحشاء تحترق
ومدّة الاجل المحتوم ان خفيت ❊ فان أيامنا من دونها طرق
وانما نحن فى مضمار حلبتها ❊ خيل الى غاية الاعمار تستبق
شاو اذا ابتدر الاقوام غايته ❊ كان المؤخر فيها من له السبق
ان كان صنوك هذا قد ثوى فذوى ❊ ففى مغارسك الاثمار والورق
أو أصبحت بعده الاهواء نافرة ❊ أيدى سبا فعلى علياك تتفق
ما غاب من غاب عن آفاق مطلعه ❊ الا ليفترّ عن أنوارك الافق
مادام شمسك فينا غير آفلة ❊ فالدين منتظم والملك منتسق

(فصل) قال ابن الاثير لما توفى سيف الدين غازى كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلبا للسلامة منه فانه كان لين الجانب حسن الاخلاق كثير الحلم كريم الطباع فاحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة وحلف له الامراء والاجناد واستقر فى الملك وأطاعه جميع ما كان لاخيه سيف الدين لان المرجع كان فى جميع المملكة الى جمال الدين وزين الدين ولما ملك واستقر فى الملك تزوّج امرأة أخيه التى مات ولم يدخل بها الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ماسنذكره ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها قال وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمارها عند خمس عشر ملكا من آبائها وأجدادها واخوتها وبنى اخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ثم ذكرهم ابن الاثير فى كتابه وسماهم وذكر انها أشبهت فى ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لها ان تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية رضى الله عنه الى آخر خلفاء بنى أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فانه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها وما تم له ذلك الا بعد ذكره ان أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فمعاوية جدّ أمها ويزيد جدّها لأمها ومعاوية بن يزيد خالها ومروان جدّها لابيها وعبد الملك أبوها والوليد وسليمان وهشام ويزيد اخوتها وعمر بن

عبد العزيز زوجها والوليد بن يزيد بن الوليد أولاد اخوتها وهؤلاء كلهم خلفاء وعدّتهم ثلاثة عشر قلت وهذا كله مبنى على أصل فيه خلل وهو ان فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بل أمها امرأة مخزومية على ما بيناه فى ترجمتها فى تاريخ دمشق ولكن الصواب فى ذلك ان يقال كان لفاطمة ان تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد فبقى اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها معاوية جدّها ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان جوها وعبد الملك زوجها والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها ويزيد بن عبد الملك ابنها والوليد بن يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها ولو اضيف الى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالاخوة والاعمام والاخوال وبنى الاخوة لتضاعف العدد كخالد بن يزيد بن معاوية أخى عاتكة وعبد العزيز ابن مروان عم فاطمة ومسلمة وعبد الله ابنى عبد الملك وغيرهم وذلك ظاهر لمن عرف انساب بنى أمية وماذكره ابن الاثير من أمر بنت حسام الدين فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من اخوتها الاربعة المعظم وصلاح الدين والعادل وسيف الاسلام ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الاكبر شاهنشاه بن أيوب تقى الدين وذرّيته أصحاب حماه وفرخشاه وابنه الامجد صاحب بعلبك

﴿فصل﴾ قال ابن الاثير ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين فكاتبه بعض الامراء وطلبوه اليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم وهو حينئذ دزدار سنجار فسار نور الدين جريدة فى سبعين فارسا من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما فوصلوا الى ماكسين فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد فلم يعرفهم الذين بالباب وأرسلوا الى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الاجناد كأنهم تركمان فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه وسار مجدا الى سنجار فوصلها وليس معه الا نفر يسير فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه وأرسل الى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله وكان المقدّم قد استدعى من الموصل لان خبره مع نور الدين بلغ من بها فارسلوا اليه فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين فسار الى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار وقال له انا أتأخر فى الطريق فان وصل نور الدين فارسل من يعلمنى فلما فارق سنجار وصل نور الدين فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا الى أبيه بالخبر وانهى الحال الى نور الدين فخاف فوات الامر ووصل القاصد الذى سيره ابن المقدّم الى أبيه فادركه بتل يعفر فعاد الى سنجار وسلمها الى نور الدين وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده وبذل له قلعة الهيثم فسار اليه بجنده فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر وأرسلوا الى نور الدين ينكرون عليه أقدامه واخذه ما ليس له وتهدّدوه بقصده واخراجه من البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا فأعاد الجواب انى أنا الاكبر وأنا أحق ان أدبر أمر أخى منكم وما جئت الا لما تتابعت الى كتب الامراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم يعنى الجمال والزين فخفت ان يحملهم الغيظ والانفة على ان يخرجوا البلاد من أيديكم فأما تهدّدكم اياى بالقتال فأنا ما أقاتلكم الا بجندكم وكان قد هرب اليه جماعة من أجنادهم خافوا ان يلقوه لئلا يخامر عليهم باقى العسكر ودخل الامراء فى الصلح وأشار به جمال الدين الوزير وقال نحن نظهر للسلطان والخليفة اننا تبع نور الدين ونور الدين يظهر للفرنج انه بحكمنا ويهدّدهم بنا فان كاشفناه وحاربناه فان ظفر بنا طمع فينا السلطان وان ظفرنا به طمع فينا الفرنج ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار فهذه أنفع لنا من تلك وتلك أنفع له من هذه والرأى ان نسلم اليه حمص ونأخذ سنجار وهو فى ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته فاتفق الجماعة على هذا الرأى وسار جمال الدين الى نور الدين وأبرم معه الامر وتسلم حمص وسلم سنجار الى أخيه وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين لان حمص كانت لاخيه ينال وهو مقيم بها واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم وكل واحد منهما لا يصدر الا عن أمر أخيه وطلب نور الدين ان يكون الجمال عنده فقال له الجمال أنت عندك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير وليس عندك من الاعداء مثل ما عند أخيك لان عدوّك كافر فالناس

يدفعونه ديانة وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم واذا كنت عند أخيك فالنفع اليك عائد وأريد من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي فأجابه الى ذلك فقال له جمال الدين أنت عليك خرج كثير لاجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة فأمر له بها فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشترى بها أسرى من الفرنج ويطلقهم قلت وقرأت فى ديوان القيسرانى وقال فى نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار واعمال الرحبة والفرات وذلك فى منتصف ذى القعدة سنة أربعين وخمسمائة

هذا الذى ولدت له الافكار ❋ وتمخضت فالابه الاشعار
وجرت له خيل النهى فى حلبة ❋ وردت وصفو ضميرها المضمار
واتت به نذر القوافى برهة ❋ ان القوافى وحيها انذار
حكمت لسيفك بالممالك عنوة ❋ حكما لعمرى ماعليه غبار
يا ايها الملك المطيل نجاده ❋ بريدين بهديه الابرار
يا أبن السيوف وهل فخرت بنسبة ❋ الاسما بك للجدود فخار
فارقت دار الملك غير مفارق ❋ لك من علاك بكل ارض دار
فى عسكر يخفى كواكب ليله ❋ نقع افيط لمعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه ❋ وأمامه بل جحفل جرار
تدنى لك الغايات أكبر همة ❋ نورية هم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة ❋ دانت لعظم نظامها الاقطار
وملكت سنجارا ومامن بلدة ❋ الا تمنت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفا طالما ❋ طالت بها الآمال وهى قصار
وجرت بامداد الجياد شعابها ❋ جرى السيول وماسواك قرار
وثنى الفرات الى يديك عنانه ❋ والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت ❋ منها العيون كاعب معطار
جاءتك فى حلل الربيع وحليها ❋ قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة ❋ وتود لو ان النجوم نثار
فأتت كالشمس المنيرة ان ناءت ❋ عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أخيه ❋ ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد اليك ألسنة الظبى ❋ فيجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يا ابن عماده ❋ بقنا أسنتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدك قادما ❋ كالصبح نم بثغره الاسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعدما ❋ اعتركت على قسماته الابصار
حتى عمرت بكل قلب صدره ❋ حيث الصدور من القلوب قفار
ان تمس فى حلب رياحك غضة ❋ فلها بانطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة ❋ ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها الى مهج العدى ❋ صرف الردى ومسيره احضار
وأرى صياح القمص كان خديعة ❋ فطغى وجار وليس ثم وجار
خان الصنيعة غير محقوق بها ❋ والخير يهدم مابنى الختار
ذئب اذا ماغبت أقدم عاتيا ❋ اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوك بغيه ❋ بالغدر يطعن فى الوغى الغدار

فاحسم عناد ذوى العناد بجحفل * كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جرد امام صدورها * صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصرة * ولكل هادى أمّة أنصار
ملك له من عدله و وفائه * جيش به تستفتح الامصار
واذا الملوك تثاقلت عن غاية * وأرادها خفت به الاقدار
واذا انتضته الى الثغور عزيمة * قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه

ترنح معطف الزوراء لما * دعاك لزو رسنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر * غداة علتك فى قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف * ولو قد شئت ضمهما اقرام
بعيشك يا مبيد الخيل ركضا * حمام هن تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنيه بتسليم قلعة حمص من ينال وأنشده فى القلعة قصيدة أولها

ارحها فهى ازلام المعالى * لهن الى الوغى توق المغالى
أما ومقيلهن بكل نقع * يقوّض بالهدى عمر الضلال
وأى سيوفك الحمر الحواشى * منزلة متى دعيت نزال
مواض ان سللن سلكن جزما * نفاه من الطلى لفظ اعتلال
لقد غلب الصليب بجر حرب * يشيب أوارها لمم الليالى
وشمت لنصر هذا الدين ناسا * تحرّم منه كل حمى حلال
وقايع أنزعت فى كل فج * وقايع جوّها دامى العزال
تسائل حمص عن منسى دين * تقاضاه لك الحجج الخوالى
فوانت وهى أخت النجم بعدا * ووعدا صيغ من مطل مطال
تشامخ أنفها عزا وشدّت * على ان لا تنال يدا ينال
فمازالت رقاك تجدّ نقضا * لما تثنيه من مر الحبال
الى ان أطلق الحسناء كرها * وآل الى ملاوحة المالى
يصد الوحه عن شما القت * يد الاشم ذى باع طوال
شغلت بها يمينك والمواذى * تكفل ان مصرا للشمال
اذا فتح القتال عليك أرضا * أباحك أختها الا عن قتال

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج فى الاعمال الحورانية بالنهب والسبى فعزم على التأهب لقصدهم وكتب الى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعى المعونة على ذلك بألف فارس تصل اليه مع مقدّم يعول عليه وقد كانوا عاهدوا الفرنج على ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس وبعض العسكر بيعضور فلما اقرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه وكانوا قد نهضوا الى ناحية عسقلان لعمارة غزة و وصلت أوائلهم الى بانياس وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم وقال لا انحرف عن جهادهم وهو مع ذلك كاف أيدى أصحابه عن العيث والافساد فى الضياع وأمر باحسان الرأى فى الفلاحين والتخفيف عنهم والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها وسائر البلاد وأطرافها وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطه ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الامر فلما وصل نور الدين الى بعلبك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة وأقام الى مثله فروى الاكام والوهاد وجرت الاودية و زادت الانهار

وامتلات برك حوران ودارت ارحيتها وعاد ماصوح من الزرع والنبات طريا وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته ثم رحل من منزله بالاعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر فى السادس والعشرين من ذى الحجة وأرسل الى مجير الدين والرئيس وقال انى ماقصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم وانما دعانى الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بان الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم واطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم ولا يسعنى مع ما أعطانى الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ان أقعد عنهم ولا انتصر لهم مع معرفتى لعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذى دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتى وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم وهذا امالا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ولا بدّ من المعونة من ألف فارس مزاحى العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة قال فكان الجواب عن هذه الرسالة ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الافرنج مايعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت الينا فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه أكثر التعجب منه والانكار له وعزم على الزحف الى البلد ومحاربته فى غد ذلك اليوم فأرسل الله من الامطار وتداركها ودوامها مامنعه من ذلك

﴿ثم دخلت سنة خمس وأربعين﴾ ففى مستهل المحرم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب فى ذلك ان نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أجناد دعته الى ذلك واتفق انهم بذلوا له الطاعة واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكذا السكة ووقعت الايمان على ذلك وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق وأعاده مكرما محترما وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم ثم استدعى الرئيس الى المخيم وخلع عليه خلعة كاملة أيضا وأعاده الى البلد وخرج اليه جماعة من الاجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ولا أكدى سائله ورحل عن مخيمه عائدا الى حلب بعد احكام ماقرر وتكميل مادبر قلت وفى ذلك يقول القيسرانى

لك الله ان حاربت فالنصر والفتح ❊ وان شئت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت الا السيف فى كل حالة ❊ فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها ❊ ترنح من سكر فخل القنا تصحو
وما كان كف العز الا اشارة ❊ الى الحزم لولم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا ❊ الى السلم ماتنوى بذلك وما تنحو
اذا ما دمشق ملكتك عنانها ❊ تيقن من فى ايليا انه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى ❊ فلا مهمه يحوى الضلال ولا سفح
اذا سار نور الدين فى الجيش غازيا ❊ فقولا لليل الافك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها ❊ فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر غير مغبة ❊ فسيق اليك الملك يسعى به النجح
كأن القنا تجلو له وجه أمره ❊ ولو أمهلت بلقيس ماغرها الصرح
بدولتك الغراء أصبح ضدها ❊ بهيا ولولا الحسن ماعرف القبح
وكم من قريح القلب لوبات واردا ❊ موارد هذا العدل مامسه قرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى ❊ على انه مازال فى طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة ❊ ونحن نراه اليوم يثبت مايمحو
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى ❊ وأثمرت الآداب واطرد المدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلى ❊ ودانت لك الدنيا وعز بك السرح
فلا قلب الا قد تملكته هوى ❊ ولا صدر الا قد جلاه لك النصح

وما الجود فى الاملاك الاتجارة * فمن فاته حمد الورى فاته الربح
ولم اختصر ماقلت الالانى * اعبر عما لايقوم به الشرح

(فصل) فى فتح عزاز قال أبو يعلى وورد الخبر فى الخامس من المحرّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب عزاز وأصحابه وحصلوا فى قبضة الاسر فى قلعة حلب فسر هذا الفتح كافة الناس وتوجه نور الدين فى عسكره الى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظب قتالها الى ان سهل الله تعالى ملكها بالامان وهى على غاية من المنعة والحصانة والرفعة فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به ورحل عنها ظافرا مسرورا عائدا الى حلب فى أيام من شهر ربيع الاوّل قلت وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق فى قصيدة أوّلها

فدتك القلوب بألبابها * وساح الملوك بأربابها
كتائب ترمى جنود الصليب منها بتقطيع أصلابها
اذا ماانثنت من قراع الكماة كست وفدها وشى أسلابها
تبرنس منها البرنس الثياب وحلته من وقع احلابها
عشية غصت على آنب * نفوس النصارى بغصابها
وقام لاجد محمودها * يجذع موارن أحزابها
تجلى لها حيدرى المصاع * أغلب مود بغلابها
مورث أركاسها من أب * أكول الفوارس شرابها
همام اذا أعصوصبت نبوة * دهاها بهاشم اعصابها
مضى وجنى لك حلو الشها * دمما تمطق من صابها
وأوصى بها لك من بعدما * تجرّع ممقرا وصابها
واقسم جدّك ان لايليق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت دمشق بمشق الجيا * د زور الوغى بن أحدابها
واصلت رايك قبل الحسام محمد جمرة اجلابها
فاعطتك مالم تنله يد * وفازت رقاك باصحابها
وأنت تصرف فضل الزمام من حمص تأخير ركابها
تخوّنها الجور فاستدركت * بعدلك أغيار ظبظابها
وفاجأت قورس بالشائلات * تمج القنا سم اذنابها
فارمت حتى رمت بيضها * اليك أزمة ضرابها
وعزت عزاز فاذللتها * بمجرى مضيق لاسهابها
باشمخ من أنفها منكبا * وأكثر من عدّ طورابها
دلفت لعيطا أم النجوم فى الامر ايطاء أترابها
وعذرا مذ عمرت مااهتدت * ظنون الليالى لاخرابها
تفرعتها بفروع الوشيج مثمرة هام أوشابها
وعوج اذا انبضت اغمضت * ذكاء لارسال نشابها
ومحدودبات تطير الخطوب * ملافظ ألسن خطابها
تصوّب عقبان ريب المنون * متى زينتها باعقابها
وماركعت حول شم الهضا * ب الاسجدن لانصابها
فلاذت بمعتصم بالكتاب وهوب الممالك سلابها
بمعتصى الذرى والهدى * هموس السرى غير هيابها

محلي المحل بوصف الفتو ❊ ح ووصف التهاني وأربابها
وتعجز مداحه أن تحيط بآدابه فلك آدابها
بدائع لورد دهر رمين بنات حبيب بأحبابها
وأين ابن أوس وآياته ❊ من اللاء أودت بحسابها
من اللاء عاد عتيق لها ❊ وردّ عليها ابن خطابها
فأيامه من حبور تكا ❊ د يطربها فرط إعجابها
لك الفضل ان راسلتك الجيا ❊ د وقامت أدلة أنجابها
أقول لمؤجره بالغرو ❊ ر نمطت هواها فأهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو ❊ ث تخشى صواعق الهابها
ولا تخدعوا باقترار الليو ❊ ث فالنار في برد أنيابها

(فصل) في صفة أسر جوسلين قال ابن الاثير سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب منها تل باشر وعين تاب وعزاز وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسلهم وراحلهم ولقوا نور الدين وكان بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح داركان لنور الدين أسيرا وأخذ ما معه من السلاح فانفذه الى السلطان مسعود بن قلج ارسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الاعمال وكان نور الدين قد تزوّج ابنته وأرسل مع السلاح اليه يقول قد أنفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتيلا واما اسيرا فاتفق ان جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيرا فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه واجابوه الى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين فارسل جوسلين في احضار المال فأتى بعض التركمان الى نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا وكان نور الدين حينئذ بحمص وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين فانه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها وأصيبت النصرانية كافة باسره وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا امن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقيه غدره وحاق به مكره ولا يحيق المكر السيء الا باهله فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها عين تاب وعزاز وقورس والراوندان وحصن البارة وتل خالد وكفرلاثا وكفرسوب وحصن نسر فوب بجبل بني عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص قال وكان نور الدين رحمه الله اذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفا من نصره يتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شيء وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده

دعا ما ادعى من غره النهي والامر ❊ فما الملك الا ما حباك به الامر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها ❊ تصرف فيما شاء عن اذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى ❊ فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
اذا الجدّ أمسى دون غايته المنى ❊ فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك ❊ زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها ❊ حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر

وانك

وانك نور الدين مذ زرت أرضها * سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها * وخطب العلى بالسيف مادونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا * عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة * نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الامن والعدل نحلة * فامست ولا اسر تخاف ولا اصر
فان صافحت يمناك من بعد هجرها * فاحلى التلاقى ماتقدمه هجر
وهل هى الا كالحصان تمنعت * دلالا وان عز الحيا وغلا المهر
ولكن اذا ماقستها بصداقها * فليس له قدر وليس لها قدر
هى الثغر أمسى بالكراديس عابثا * وأصبح عن باب الفراديس يفتر
على انها لو لم تجبك انابة * لارهقها من بأسك الخوف والذعر
فاما وقفت الخيل ناقعة الصدى * على بردا من فوقها الورق النضر
فمن بعدما أوردتها حومة الوغى * وأصدرتها والبيض من علق حمر
وجللتها نقعا أضاع شياتها * فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر
علا النهر لما كاثر القصب القنا * مكاثرة فى كل نحر لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدى * الى ان جرى العاصى وضحضاحه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لايد * لجابرها ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل * فمن بارز الابرنز كان له الفخر
ومن برنس انطاكية من مليكها * أطاعته ألحاظ المؤللة الخزر
أخو الليث لولاغدره نزعت به * الى الذئب ان الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضا وغودر شلوه * وليس سوى عافى النسور له قبر
وقد كان فى استبقائه لك منة * هى الفتك لولم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الاقدار للقمص اسره * وأسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
والقت بايديها اليك حصونه * ولولم تجب طوعا لجاء بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لو انها الوكر
فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر
كانى بهذا العزم لافل حده * وأقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها * فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبى صوارم * مساجدها شفع وساجدها وتر
وان يتيمم ساحل البحر مالكا * فلا عجب أن يملك الساحل البحر
سللت سيوفا أثكلت كل بلدة * بصاحبها حتى تخوفك البدر
اذا سار نور الدين فى عزماته * فقولا لليل الافك قد طلع الفجر
ولو لم يسر فى عسكر من جنوده * لكان له من نفسه عسكر مجر
مليك سمت شم المنابر باسمه * كما زهيت تيها به الانجم الزهر
فيا كعبة مازال فى عرصاتها * مواسم حج لايروعها النفر
خلعت على الايام من حلل العلى * ملابس من أعلامها الحمد والشكر

وتوّجت ثغر الشأم منك جلالة * تمنت لها بغداد لو أنها ثغر
فلا تفخر مصر علينا بنيلها * فمينالك نيل كل مصر بها مصر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله * ويا طالما أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت في الافرنج من كان بأسه * تخوّف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها * ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدعي في قتلك الشرك شركة * اذا لم يكن عند القوافي له ذكر
هي القانتات الحافظات فروجها * فشاهدها عدل ورائقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها * سوى انها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيها من وقائعه أوّلها

أما وخيال زار ممن أحبه * لقد هاج من ذكراه ما لا أغبه
اذا ما صبا قلب المحب الى الصبا * ذكرت نسيما بالشغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة * يحامي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده * فان فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم * غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها * سنا بشر نور الدين تهطل سحبه
اذا ما سما في مبهم الخطب وجهه * تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى * منافسة أي الثلاثة تربه
يعدّ مضاء في الظبي لا وضربه * بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه * الى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت * وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها * فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع * ملىّ برعي الهندواني خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية * ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت * كوادي ثمود اذ رغا فيه سقبه
وعاصي على العاصي بارعن خاطب * دم الافك حتى أنكح النصل خطبه
بانب لما اكسب المال واتقى * بصاحب انطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه * وللرمح حتى توّج الرأس قلبه
على حين للخطي فيه عوامل * يعاقبه خفض الحسام ونصبه
ووقائع محمودية النصر لم تزل * غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده * وتفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه * مضى وهو نصل والممالك قربه
الى أن دعته ربها كل بلدة * فليس من الامصار ما لا يربه
ولما يرى بالقمص عجب هوى به * على أم رأس البغي والغدر عجبه
فاصبح في الجلين ينكر خطوه * بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه * فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تناجي عزازا باسمه تل باشر * فيلعنه لعن الصريح وسبه
فان يكن المعهود من ثل عرشه * فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه

فقل لملوك الخافقين نصيحة ❊ كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقه ❊ بحكم الردينيات والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا ❊ فان القنا فى ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره ❊ اذا ضاق من صدر المملك رحبه
عفوّ عن الجانى يكاد الذى جنى ❊ يكرّ به شوقا الى العفو ذنبه
أمتخذ الاخلاص لله جنة ❊ ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استردّ الشأم بالسيف عنوة ❊ وللروم بأس طالما غال خطبه
اذا ذب عن أضغاث دنياه مالك ❊ فانت الذى عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة ❊ فافرجت عن رأى يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة ❊ بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يبتغى ❊ دليلا بأن الله من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص

هيهات يعصم من أردت حذار ❊ انى ومن أوهاقك الاقدار
طلعت عليك بجوسلين ذريعة ❊ لا سحل انشاها ولا امرار
وسعادة مازلت تمرى خلفها ❊ فيشف وهو الناتق المدرار
فارتك ما يجنى الوفىّ وفاؤه ❊ وأرته كيف تحين الغدّار
عود أمرّ على ابارك طلعه ❊ فاحيل ذاك البر وهو بوار
مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا ❊ والله يهدم ما بنى الكفار
حتى أتاح لقومه ماجرّه ❊ لثمود من عقر الفصيل قدار
اسرى فاصبح فى براثن اسرما ❊ لازال يدمى ظفره الاظفار
يهب التلاد من البلاد وما حوت ❊ ان السماحة للبحار بحار
يقظان يخشى الله فى خلواته ❊ لا مترف لاه ولا جبار
نصب المراقب للعواقب ناظرا ❊ فيها كذلك تربأ الابرار
لا كالذين تعجلوا حسواتها ❊ وتغلسوها بعد وهى خسار
درجوا وأدرج فى ملف رفاتهم ❊ اسوا تساء لذكرها الآثار
والمرء من يطوى فينشر طيه ❊ ما أودعته صدورها الاخيار
قل للأولى ناموا على ناماته ❊ ما كل هبة بارح اعصار
لا تأمنوا فى الله بطشة ثائر ❊ لله مل سريره اسرار
صاف اذا كدر المعادن عادل ❊ ان حاف حكام الملوك وجاروا
أعلى أبوه له النجاد وشيد فى ❊ صهواتها مما ابتناه منار
محمود المحمود آثارا اذا ❊ نظمت على جيد الدجى الاسمار
دانت له الايام صاغرة كما ❊ دانت له فى ظله الامصار

وله من أخرى أوّلها (ما الملك الا ما حواك نجاده) يقول فيها

وتدين حسده لمحكم آيه ❊ والفضل ما شهدت به حساده
شمس اذا ما الحرب زرجيوبها ❊ حل المعاقد كره وطراده
الوى الدجى الشريعة جهده ❊ وأذل ناصية الضلال جهاده
صعق البرنس وقد تلالا برقه ❊ واطار ساكن جاشه ارعاده

ولي وقد سلت فسلت ضغنه ❊ زبرتسلق فودهن فؤاده
مستلئما مستنسلما لاعـدّه ❊ ردّ المنا عنه ولا استعداده
وبجوسلين احتثهن فاصبحت ❊ نهبي لهن بلاده وتلاده
جاءت به بعد الشماس عوابس ❊ قوديلين لعنقهنّ قياده
وبه تصيدلك السعود وقلما ❊ ينجو بخير من أردت مصاده
دانى له قيناه أدهـم كلما ❊ غناه طار شماتة عوّاده
سلبت عزاز عزاءه وبقورس ❊ محجوبة فرشت له اقتاده
وبتل خالد يوم تل جبينها ❊ خلط الثرى بجبينه اخلاده
وغدا بباشرتل باشر قلبه ❊ باحرّ ما حمل القلوب عداده
منت أمانيه بشائرك التي ❊ عادت لهن مآتما أعياده
وحبوت ملكك من نظيم ثغوره ❊ حليا تشابه تحته اجياده
لا يخدعنك فانما اصلاح من ❊ يخشى انتشاط خناقه افساده
أنزله حيث قضت له غدراته ❊ واحله طغيانه وعناده
في حيث لا يأوى له سجانه ❊ حتفا ويكشط جلده جلاده
وثن هدمت بني الضلال بهدمه ❊ وعدت عبادك عنوة عباده
فتكت به آيات من لمحمد ❊ ولدينه ابداؤه وعواده
أو انشط اللدّ الحرام تواءمت ❊ تثني عليه تلاعه ووهاده
ولو ان منبره أطاق تكلما ❊ نطقت بباهر فضله اعواده
نام الخليفة واستطال لذنبه ❊ عن سدتيه واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه ❊ مازان رونق مائها اغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه ❊ ورأيت زرع الملك حان حصاده
الى تميل الحادثات رواقه ❊ ببويها وابن العماد عماده

(فصل) قال ابن الاثير لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ملك بعضا وأبقى بعضا فاجتمعت الفرنج فالتقوا مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها

هي الخيل خير عتاد الكريـم يحضر للهم احضارها
اقت فأدررت أفواهها ❊ وسرت فقلمت أظفارها
الام ولم تبق مما غرو ❊ ت قلوبا تكابد اذ عارها
أما في مفصل أي القرا ❊ ع ان تضع الحرب أوزارها
عسى ان تحم لهذا الحما ❊ م أن يتوكر أوكارها
وما يوم من غلته واحد ❊ فتودعه اللسن أشعارها
وأين المقاول مما فعلـت ولو شفع الفطراء كثارها
فكم اجلبت خلفك الجائفا ❊ ت فصلصل فخرك فخارها
أعدت بعصرك هذا الانيـق فتوح النبي واعصارها
وكان مهاجرها تابعيـك وانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها ❊ وعمر جدك عمارها
وما يوم آنب الاكتيـ ❊ ـك بل طال بالبوع اشبارها
وأيامك الغر من بعـده ❊ يعيد الى الطي اغرارها

ولما هبت بمصرى سمكت باهباء خيلك أبصارها
ويوم على الجون جون السرا * ة عـــز فسعطها عارها
صدمت عزيمتها صدمة * أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تسور أسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شددت فصدقت أخبارها
وشب التدامر حتى طلعت عليها فولتك أدبارها
مشاهد مشهورة نمنمت * على صفحة الدهر اسطارها
يلذ الاغانى ترجيعها * وتستسفر السفر اسفارها
بنيت لوفد المنى كعبة * يجير المعلق استارها
ملكت الاراضى مغبرة * تكاد تحدث أخبارها
فمازلت تدجن حتى محو * ت دجاها وشعشعت أنوارها
وصلت فأعززت مسكينها * وصلت فأذللت جبارها
وصغت حلى من على أحكمت * على عنق الدهر ازرارها

قال أبو يعلى وفى رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الافرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم وامتلأت الايدى من غنائمهم وسبيهم واستولى على حصن خالد الذى كان مضايقه ومنازله قال وفى أيام من المحرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذين فى طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد فى السنين الخالية ولا يكون أبشع منها وذكرانه كان فى هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخواتين أمر العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير والاموال الجمة والامتعة الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الاكثر وسلم الاقل وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش فضاقت الصدور لهذه النازلة فكسا العارى منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم الى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق ذلك تقدير العزيز العليم

﴿فصل﴾ قال وكان مجاهد الدين بزان قد توجه الى حصنه صرخد ليتفقد أحواله فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه وتوجهوا ولم يتعرض لشئ من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها قال وو ردت الاخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الامير المظفر ابن السلار ووقوع الحرب وسفك الدماء الى ان أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه فى الوزاره قال وفيها فى سابع عشر رجب توفى القاضى بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلى وكان اماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبى حنيفة بحكم ما كان عليه عند اقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم وكان يعرف اللسان الفارسى مع العربى وهو حسن الحديث فى الجد والهزل وكان له يوم مشهود ودفن فى جوار أبيه وجده فى مقابر الشهداء قال وتوفى عقيب وفاته الشريف القاضى النقيب فخر الدولة أبو الحسين ابن أبى الجن وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته

(ودخلت سنة ست وأربعين) ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم وكتبها اليه من حماه وهو محاصر دمشق وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها

الخليفة الله الذى ضمنت له * تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره * والمستطال اليه شقة صرصر
يا نور دين الله وابن عماده * والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دارا شائب * عقلوا جيادك عن بنات الاصفر

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا * نار الخش بهم غدا في المحشر
اذ كوا بجلق حرها واستسعرت * لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا * ماظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذى ادّرع الضلال على اغر مشهر
قلده ما اهدى علىّ لمرحب * فلقد تهكم في الخداع الخيبرى
ما الغش ممن أمه نصرانة * لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذى العزائم لاخبت * ماغار من سنن الملوك الغبر
اثقاب اراء المعز وخفق را * يات العزيز ويقظة المستنصر
شمر فقد مدّت اليك رقابها * لايدرك الغايات غير مشمر
أولست من ملأ البسيطة عدله * واجتب بالمعروف أنف المنكر
حدب الاب البر الكبير ورأفة ا * لام الحفية باليتيم الاصغر
يا هضبة الاسلام من يعصم بها * يؤمن ومن يتول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقا * انبت بنيته بكل مذكر
آثارهم انجس اذال المسجد ا * لاقصى فصن ما دنسوه وطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم * بلهاك المتدمشق المتمصر
بعرمرم صلت وعاوعه عرى * اسماع جيحون وسيف البربر
يفتر عن ملك الملوك مخل ا * لنواء بل سعد السعود الاكبر
عن طاعن الفرسان غير مكذب * ومتمم الاحسان غير مكدر
بدر الجحافل والمحافل فارس الا * ساد في غاب الوشيج الاسمر
ملك تساوى الناس في أوصافه * عذر المقل وبان عجز المكثر
يا أيها الملك المنادى جوده * في سائر الآفاق هل من معسر
ان القصائد أصبحت أبكارها * في ظل ملكك غاليات الامهر
ان كنت أحييت ابن حمدان لها * فانا الذى غبرت في وجه السرى
ولانت أكرم من أناس نوّهوا * باسم ابن اوس واستخصوا البحترى
ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل * ان تغز تغنم أو تقاتل تظفر

وكتب اليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول

ابوك اب لو كان للناس كلهم * اباورضوا وطء النجوم لفندوا
وما مات حتى شد ثلة ملكه * بك الله ترمى مارماه فتصرد
صدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقده * وكالسلك قد أمسى يحل ويعقد
يقلب خلف السجف عينا سخينة * ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجده * له كل يوم ثوب عجز يجدّد
فيارا كبا اما عرضت فبلغن * بيوتا على جيرون بالذل تعمد
وقل لمبيد الدين وهو مجيره * بزعمه له وجه الحقيقة أزبد
حملت الصليب باغيا ونبذته * وثغرك مطووس النبات وأدرد
وحاربت حزب الله والله ناصر * لناصره ودين احمد احمد
تنصرت حينا والبلاء موكل * ولا بد من يوم به تتهوّد
وأقسم ماذاق اليهود بايليا * وموضعها من بختنصر أسود

كبعض الذى جرّعته فسرطته * وأيد فيه من عمالك المؤيد
ولايته عزل اليك موجه * وتصحيفه قتل عليك مؤبد
رماك ببا قلا دمشق فلم تكن * سوى بقلة حمقاء بالحمق تحصد
وجالدت جلادا وأنت مؤنث * تذكرت والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لانفس تسمى ولا أب * وراءك زحفا انما أنت مقعد
امسعاة نور الدين تبغى ودونها الـ * ـاسنة تبر والعوامل تعضد
بمحمود المحمود سيفا وساعدا * جملت لقد ناجتك صمّا مؤيد
وهل يستوى سار تأسد طاويا * ونشوان يعلو معصما ويؤيد
تنصرت اما بل تمجست والدا * وعما فعرق الكفر فيك مردّد
تخذت بنى الصوفى اسراواسرة * لكى يصلحوا ما فى يديك فأفسدوا
لعمرى لنعم العبد أنت تجيعه الـ * ـموالى وتوليه هوانا فيحمد
اليكم بنى العلات عن متشاوس * له الشأم مرفا والعراق مرفد
ومامصر الا بعض امصاره التى * الى أمره تسعى قياء وتحفد
انيبوا اليه فهو أرحم قادر * له الصفح دين واقبلوا النصح ترشدوا
ولا ترشفوا نفس المؤيد انه * عن الخير يروى أوالى المين يسند
وفرّوا الى مولاكم والذى له * عليكم أياد وسمها ليس يجحد
ولا تكفروه انما أنتم له * ومنه ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان جول وللظبى * رعود فريص الموت منهن يرعد
ولما اكفهرّ اليوم واربدّ وجهه * وعوّز مرهون وفر مزبد
وأيقن من بين السدير وجاسم * بان الجرار السود بالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخدّ خيله * وقد أبصرت بصرى رداها وصرخد
وطاروا تهز المرهفات طلاهم * كما انصاع من اسد نعام مشرد
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركه * ومازج نيران الوغى تتوقد
رمى وأخوه مغرب الشمس دونكم * بشرقها غضبان يعدو ويشتد
فذوردت ماء الارنط مغذة * أثارت بشورا غلة ليس تبرد
أياسيف شامته يد الملك صارما * فهمها اذ يسرى ويسرى فيهمد
دمشق دمشق انما القدس سرحة * ومركزها صرح عليها ممرد
حموها لكى يحموا وقد باغ المدى * بهم أجل حتم وعمر محدّد
متى انا راء طائر الفتح صادحا * يرفرف فى أرجائها ويغرد

وله من قصيدة أخرى

نذرك بالغوطتين قد ضمنت * ربوتها ربعه ومقراها
أطلع لها الشمس من جبينك لم * ترج سواها فى النوم جفناها
فالخيل صور الى تساهم سهمية * هاوملهى فى بيت لهياها
دولة من دانت البلاد له * وعمها ظله فأغناها
لابسواها يليق بهجتها * ولا سواه تبغى رعاياها

قال أبو يعلى وفى عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها وفى الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق فلما خرج منها اليهم أسرع النذير اليهم فحذرهم

وقد ظهر الكمين فانهزموا الى البلد وفى الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا بين عذراودومة وامتدوا الى تلك الجهات ونزلوا من الغد فى أراضى حجيرا وراوية فى الخلق الكثير والجم الغفير وانبسطت أيدى المفسدين من العسكر الدمشقى والاوباش من أهل العيث والفساد فى زروع الناس فحصدوها وفى الثمار فافنوها بلا مانع ولا دافع وتحرك السعر وانقطعت السابلة ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين الى ولاة البلد يقول انا ما أوثر الاصلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من فى أيديهم من الاسارى فان ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد فلم يعدا الجواب اليه بما يرضاه فنزل فى أرض مسجد القدم وماوالاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديد قبلى البلد قلت هو الذى يسمى فى زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس قال وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين وأهمل الزحف الى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الاخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لانجاد أهل دمشق فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة والمناوشات فى كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة فلم يزل ذلك الى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النورى من هذه المنزلة ونزل فى أراضى قدايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد وما عرف فى قديم الزمان من أقدم على الدنو منها ثم رحل فى العشرين من صفر الى ناحية داريا لتواصل الارجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوة عزمه على لقائهم وصار العسكر النورى فى عدد لا يحصى وفى كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لاحد من عسكره فى التسرع والظهور ولا يعودون الا خاسرين مغلولين وأقام على هذه الصورة ثم رحل الى ناحية الاعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده واقتضى رأيه الرحيل الى جهة الزبدانى استجرارا لهم وافرق من عسكره فريقا ينا هز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدمين ليكونوا فى أعمال حوران مع العرب لقصد الافرنج ولقائهم وترقبا لوصولهم وخروج العسكر الدمشقى اليهم واجتماعهم بهم ثم يقاطع عليهم واتفق ان عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله الى الاعوج ونزل به فى ثالث ربيع الاوّل ودخل منهم خلق كثير الى البلد لقضاء حوائجهم وخرج مجير الدين ومؤيد الدين فى خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس فى النفوس من كثرة ولا قوة وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ثم رحل عسكر الافرنج الى رأس الماء ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقى اليهم لعجزهم واختلافهم وقصد من كان بحوران من العسكر النورى ومن انضاف اليهم من العرب فى خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم والتجأ عسكر الافرنج الى لجاة حوران للاعتصام بها ونمى الخبر الى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا الى دمشق وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقى وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقى قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر اليهم سرخاك واليها فى رجاله وعادوا عنها خاسرين وانكفأ عسكر الافرنج الى أعماله وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقى القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق وقالوا لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم قال أبو يعلى وفى هذه الايام ورد الخبر بوصول الاسطول المصرى الى ثغور الساحل فى غاية من القوّة وكثرة من العدّة وذكر ان عدّة مراكبه سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال ولم يخرج مثله فى السنين الخالية وقد انفق عليه فيما حكى وقرب ثلثمائة ألف دينار وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا واحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والافرنج ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك وحصل فى أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقا عظيما وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فى الكل مثل ذلك ووعد نور الدين بمسيره الى ناحية الاسطول المذكور لاعانته على تدويخ الفرنجية فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده اليها لمضايقتها وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الاجناد والرعية اليه واشارتهم لولايته وعدله قال وذكر ان نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ثم رحل ونزل بالدهمية من عمل البقاع ثم نزل بأرض كوكبا غربى داريا ثم نزل بأرض داريا الى جسر الخشب ونودى فى البلد بخروج الاجناد والاحداث اليه فلم يظهر منهم الا اليسير ممن كان يخرج أوّلا ثم تقدم ونزل القطيعة وماوالاها ودنا منها بحيث قرب من البلد ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير

زحف

زحف ولا شدّ فى محاربة تحرجا من قتل المسلمين وقال لا حاجة الى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا وانا اوفرهم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين قال وورد الخبر الى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسن المنجى مدينة تل باشر بالامان فى الخامس والعشرين من ربيع الاوّل وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الاحوال وترددت المراسلات فى عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات وتردّد فيها الفقيه برهان الدين على البلخى والامير أسد الدين شيركوه واخوه نجم الدين أيوب وتقارب الامر فى ذلك الى ان استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به فى عاشر ربيع الآخر ثم رحل نور الدين من الغد طالبا ناحية بصرى للنزول عليها والتمس من دمشق ما تدعوا اليه الحاجة من آلات الحرب لان واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال الى الافرنج فاعتضد بهم فأنكر نور الدين ذلك عليه وانهض اليه فريقا وافرا من عسكره قلت ولابن منير فى نور الدين بذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أوّلها

ما برقت بيضك فى غمامها * الا وغيث الدين لابتسامها
محمود المحمود جدا وجدا * ارخص جلد الارض حكم عامها
ملك ازال الروم عن صلبانها * دفاعه وكب من اصنامها
جال على الجولان امس جولة * صفرت الادحىّ من نعامها
والجون قد جرعها اجونه * وفل مشحوذا من اعتزامها
وشدّ فى القدّ له مليكها * قود عتود القوط فى شبامها
وفى الرها صابت له سحابة * صاروا جفاء خف فى التطامها
وهب فى هاب له عواصف * تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لاثا لاث فى جبينها * لثم ظبى ابت على اشامها
وقايع برفص تحت وقعها * نظم الثريا فى فضا مصامها
فساعة البيض اذا عدّدها * سوط عذاب صب فى أيامها
واعجبا لعصب الشرك التى * لم يعصب الرشد على احلامها
حكمة استواؤها فى غيها * فى نقض ما أحصد من ابرامها
مظفر الرايات والراى اذا الـ * حرب مشت تعثر فى خطامها
عدّت به حدّ العلاء همم * هن النجوم أو نواصى هامها
جلت له الدنيا على زبرجها * عفوا فلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمى ظفره * انفذ فى المشكل من حكامها
فتوّجته العز فى مرتبة * تمنطق الجوزاء فى نظامها
غضبان للاسلام لا يغيظه اسـ * تسلامها للقسر من اسلامها
خط على مثل اب طاعت له الا * فاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على ايشاره * عراقها مستردفا بشامها
لولم يكن دون منى فات المنى * واقعد الفائز من قوّامها
وامتك فيما كره رواضع * يقصر باع الدهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا * من أهله الاشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى فى حمى * من مؤلم الارداء او لمامها
تلبس بيت الله وشى يمن * يقرأ آياتك من اعلامها
فانما الدين رحى قطبتها * وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الآمال منك كعبة * سلم اللبا الى اية استسلامها

وارشقتنا بك ثغر نعمة * لا نسأل الله سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه

بجدك أصحب الجد الحزون * واطلع بجره الفتح المبين
وفي كنفيك سولت الليالي * وفارق طبعه الزمن الخؤون
ومنك تعلم القطع المواضي * وقد زبنت بها الحرب الزبون
وأنت السيف لم تمسسه نار * ولا شحذت مضاربه القيون
ترقرق فوق صفحته الاماني * ويقطر من غراريه المنون
وقبلك ما سمعت بذى فقار * يثير الفقر كان ولا يكون
ولا غيث سماوته سرير * ولا ليث وسادته عرين
ولا قمر له الهيجاء هال * ولا تاج له الدنيا جبين
جبلت ندى وعفوا وانتقاما * وماء كل مجبول وطين
وملكك عمر الاقطار قطرا * فأمرعت الاواعث والحزون
تلا لأ تحته غرر الليالي * اذ الايام عند سواك جون
وأنت أقمت للجدوى منارا * يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب النعمى زلال * اذا عبقت مشاربها الاجون
تحكم في عطائك كل عاط * وقد شيدت من المنع الحصون
لقد أشعرت دين الله عزا * تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى * قوى منك في الجلى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف * أسير في صفادك أو كنون
فبرنست البرنس لقاع خف * وجرع مر جوسك جوسلين
اذا ما الفعل عل تلاه حذف * يتاح له سهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصدى في أرضهم حف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا * فردته قناك وفيه لين
وما خطرت بدار الشرك الا * هوى الناقوس وارتفع الاذين
ملأت عظام ساحهم عظاما * فكل ملا لقولك به جرين
وبينهم القنا تجرى نجيعا * كأن عيون أكعبها عيون
وبين حرار صرخد ذبن حرا * له في كل حجبة كمين
وفين من العريمة في عرام * له في جونها الاقصى وجون
وكم حرم لحارم غادرته * ودارته لمنسفها درين
وفي شعراء قورس صغن شعرا * تدار على غراريه الحجون
وقائع صرن في صنعاء طيرا * يوقعها على عدن عدون
نماك أب اذا عد انتسابا * تراقى مصعدا والناس دون
شمالا كان املاك البرايا * وقد قيسوا به وهو اليمين
فصار قضاؤه في الارض حتما * فطاعة أهلها البنيه دين
لهذا اليوم تنتخب القوافي * ويذخر نفسه الدر المصون
ونحن أحق منك بأن نهنى * اذا قرت برؤيتك العيون
سلمت لنا فأنا كل صعب * نوازيه بأن تبقى يهون

ترابطنا بعقوتك التهانى * ويغبطنا بدولتك القرون

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال أبو يعلى وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله فى حديث ولا قديم بحيث أحصى المفقود منهم فى سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص وفى سنة ست وأربعين مثلهم فصار الجميع أربعة عشر ألفا وخلت دور كثيرة من أهلها وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها وفيها فى ثانى جمادى الآخرة توفى القاضى السديد الخطيب أبو الحسين بن أبى الحديد خطيب دمشق وكان خطيبا بليغا صيتا عفيفا ولم يكن له من يقوم مقامه فى منصبه سوى أبى الحسن الفضل ولد ولده وهو حدث السن فنصب مكانه وخطب وصلى بالناس واستمر الامر له ومضى فيه قال ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة اهتزت الارض لها ثلاث رجفات فى اعمال بصرى وحوران وما والاها من سائر الجهات وهدمت عدة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى قال وفى ثانى عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق الى حلب فى خواصه ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه وبالغ فى الفعل الجميل فى حقه وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد ان بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه فى دمشق ورجع الى دمشق مسرورا فى سادس شعبان قلت وفى ذلك يقول القيسرانى

وفت لك الدنيا بميعادها * باذلة افلاذ أكبادها
وأوفدت غرس لاطينها * عليك فى همة انجادها
تبغى سناء أقصدت قصده * طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها * يوم التلاقى يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلى * فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى * قد أشرق الافق بايقادها
فيممت منك حيا مزنة * بيض الايادى ورد وزادها
فاسأل مجير الدين عن خبرة * أوردها محمودا رادها
تبوأت من عزها قبة * سمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة * فت بها أعين حسادها
يغدو المعادى كالموالى لها * فوالها ان شئت أوعادها
ياما لكا يزهى باسمائه * منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الاسماع أوصافه * عن جمع الدنيا وأعيادها
كم للمعالى فيك من رغبة * تفنى الامانى دون تعدادها
لك المساعى الغر يا جامعا * من طرفيها بين أضدادها
يغشى الورى أفرس فرسانها * وفى التقى أزهد زهادها
فانت نسكا غيث ابدالها * وأنت فتكا ليث آسادها
فى أمة أنت محيى دينها * حينا وحينا شمس عبادها
يطوى بك العمر الى غاية * حسبك تقوى الله من زادها
هذا وكم من سنة بدعة * أعدمتها من بعد ايجادها
مآثر لو عدمت راويا * تكفل النظم باسنادها

قال أبو يعلى وفى أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس فخرج اليهم واليها من الافرنج فى أصحابه وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا وفى رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغار وأفانهض اليهم والى بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم فاستخلصوا منهم الغنيمة قلت والى بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف قال ابن أبى طى فى سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل

بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه فعاد التركمان عليهم فكسروهم واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج فأنفذ عسكرا الى التركمان استعاد منهم ما أخذوه واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع والناس غافلون فامتلأت أيديهم من الغنائم والاسارى واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه فقدم عليهم ولده شمس الدولة فخرج وأوقع بالفرنج واتفق انه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم وجاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة وخلص من كان عند الفرنج من الاسارى قال وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار الى خدمة عمه أسد الدين بحلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله واقطعه اقطاعا حسنا قال أبو يعلى وفي ثاني شوال وهو الثاني من شباط وافت قبيل الظهر زلزلة اهتزت لها الارض ثلاث هزات هائلة وتحركت الدور والجدران ثم سكنت قلت وفي هذه السنة في غرة جمادى الاولى كتب أحمد بن منير من حماه الى نور الدين قصيدة يهنيه بوصول الخلع اليه من بغداد من عند الخليفة على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ويصف الفرس الاصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أولها

لعلاك التأييد والتأميل ❊ وللملك التأبيد والتكميل
أبدا تهم وتقتضي فتنال ما ❊ عز الورى ادراكه وتنيل
اما كتاب يستقل به الكتا ❊ ئب أو رسول للنجاح رسيل
لك من أبي سعد زعيم سعادة ❊ فمن تفاءل فيك ليس يفيل
نعم الحسام جلوته وبلوته ❊ يرضيك حين يصل ثم يصول
سهم تعود في الكنانة عودة ❊ ويقصر المطلوب وهو طويل
سددته قضي وقرطس صادرا ❊ كالنجم لا وهل ولا تهليل
فثنى القلوب الى ولائك حول ❊ منه بما يجني رضاك كفيل
وأقام ينشر في العراق ودجلة ❊ آيا تأولها لمصر النيل
وكساك من رأي الخليفة جبة ❊ لا النقص يوهيها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في تشريفه ❊ ماء عليه من سناك دليل
اليوسف لما طلعت مقرطقا ❊ طمثت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا ❊ سجف الرواق وضعضع الكبول
وملك في السرج أم ملك سطت ❊ لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلا ❊ ل جلاه في حلل الدجى التهليل
خلع خلعن على القلوب مسرة ❊ سدكاتها التعظيم والتبجيل
نثرت نضارا جامدا أعلامها ❊ وتكاد تجري رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها ❊ رب براك فلا تلاك عديل
أنت المهند منذ سلته العلى ❊ لم يخل من مهج عليه تسيل
مذ هز قائمه الامام تألقت ❊ غرر شدخن للملك وحجول
والبيت دولته فتهت بدولة ❊ متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته خلاك أبيض دونه ❊ صرف الزمان اذا استكل كليل
قلدته وكلا كما مثله خذم ❊ عضب فران المغمد المسلول
وحبا ركابك حين قر بزحفه الـ ❊ ـقرآن واستخذى له الانجيل
باقب أصفر مشرف الهادي له التـ ❊ ـحجيل لون والملا تحجيل
قسم الدجى بين الغدائر والشوى ❊ واعتام رونقه الاصيل أصيل

وتقاسم الرأوه تحتك أنه ✽ حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال فى حبك الحلى مخيلا ✽ ان الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه ✽ طرف باطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه ✽ ان شب زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهدولم ✽ يشلل على برق سواه شليل

وأنشده فى هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن ✽ فى العد بعد مؤمل معدود
وأزمة الاقدار طوع يديك والا ✽ يام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى ✽ بمذمر الشعرى فأين تريد
تالله أبيك فهل سليمان يرى ✽ فى الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ ✽ معدوم مالم يشفع الموجود
لم يخترم جد نماك ولا أب ✽ ان النباهة فى الخليف خلود
شمخت منارك فى اليفاع وأمها ✽ من لم يسد فارته كيف يسود
وهببت للاسلام وهو مصوح ✽ فاهتز اعضاب ورق نجود
وقتأت جرة صالبيه بصيلم ✽ نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح ✽ نفس الارين لوأرهن برود
وزمو اعلى الجولان منك بجولة ✽ تؤتيد هانسر الضلال وثيد
ولحا عظامهم بعرقه عارق ✽ مازلت تمحض جوه فيجود
وشلت بالروح السروج وفوقها ✽ زرع لحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم ✽ ملك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر باشرولك فعافسوا ✽ أهب الاساود حشوهن أسود
أودوا كما أودى بعاد غيها ✽ وعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
ان آلموا عقرا فانك صالح ✽ أوآلموا غدرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة ✽ خد به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب مل الملا ✽ شتى وان خل البسالة عود
آثارها محمودة واثارها ✽ مشهودة وشعارها محمود
لبست من اسمك فى الكريهة ملبسا ✽ يبلى جديد الدهر وهو جديد
وقصيرة الآجال طول باعها ✽ بوع يسامى هامها وقدود
مطرورة الاسلاب مذهزعتها ✽ تاه الهدى وتبختر التوحيد
أشرعتها فعلى شريعة أحمد ✽ مماجنته بوارق وعقود
ولكم نثرت نظيمها فى موقف ✽ تغريد صالى حره التغريد
يجلو سنانك ظلامه ويحل ما ✽ عقدت قناه لواؤك المعقود
فى هبوة زحم السماء رواقها ✽ والارض ترجف تحته وتميد
ضربت مخيمها فكان كأنها ✽ أوتاده القصوى وأنت عمود
فى كل يوم من فتوحك صادح ✽ هزج الغناء وطائر غرّيد
تهدى لعانة كاسه فرغانه ✽ وتسيغ زبدة ماشداه زبيد
فغرار سيفك للاحابش محبس ✽ ومثار نقعك للصعيد صعيد

لاتعدمن هذا المقلد أمة ❊ ملقى اليه لرعيها الاقليد
الورد غمر والمسارح رحبة ❊ والرفد مدّ والضلال مديد
والعيش أبلج مشرق القسمات وال ❊ اشجار غر والاصائل غيد
والملك ممدود الرواق منوّر ال ❊ آفاق وضاء المنى محسود
فى دولة مذ هب نشر ربيعها ❊ نشر الرفات وأثمر الجلمود
محمودة الآثار محمودية ❊ كل المواسم عندها تعييد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين فى الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها

هنيت روزى ذراك صومك والميـ ❊ ـلاد جاء والسعد فى نسق
فذاك انحلت فيه كل يد ❊ وذاك أنحلت فيه كل نقى
وجه كصدر الحسام تصبوله الـ ❊ ـعين وينقد القلب من فرق
ومقلة شوقها ليقظتها ❊ شوق لحسادها الى الارق
ومرتق تعجب السماء له ❊ اذا استطالت اليه كيف رقى
توجهت شهبها بشرفة ❊ مشرفة شهبها على الافق
جوّ تهادى منه كواكبه ❊ طرفه طرف رجوم مسترق
فوارس تذهل القوارس ان ❊ تهافتت من ارشاقها الرشق
من راكض فى الهواء أهوى ❊ ومن الفتح مجرّ من تحته لبق
شاو من الخصر لو تحاوله الـ ❊ ـخضر لزلت عن موطئ زلق
يقول من دينه الفروسة ما ❊ لاقك الاضرب من الالق
بدائع تغبط السماء بها الار ❊ ض ويذكى الاشفاق فى الشفق
فى دولة جمعت ايالتها ❊ من بدد الحسن كل مفترق
تذرّ أطوافها على ملك ❊ مكتفل رزق كل مرتزق
محمود اسما وميسما وندى ❊ واعتصب الدم كل مرتفق
طبق طوفانه فلست ترى ❊ الامغيثا مشف على غرق
يابحر لاخلق تدعى شبها ❊ فات المدى ماحويت من خلق
ملكك هذا الذى تملأه ❊ صباه يجرى والدهر فى طلق

﴿ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة﴾ قال أبو يعلى وورد الخبر فى المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس فى عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الافرنج وطلب الباقون الامان على النفوس فأجيبوا الى ذلك ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عدة من الحصون بالسبى والسيف والاخراب والاحراق والامان قال وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالافرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون قلت وقرأت فى ديوان بن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور وعوده عنهما فذكر قصيدة منها

ابدا يباشر وجه غزولثضا حكا ❊ وتؤب منه مؤيدا منصورا
تدنى لك الامل البعيد سواهم ❊ محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لوابتغى ذو اربع ❊ فى الجوّ مطلبها لكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت ❊ سحرا بعرق عرقه الاظفورا
وعدون صافيناء لاح شوارها ❊ قد اتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فان تعامى عن هدى ❊ عضوا هاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم ❊ يفرى بياض أديمها الديجورا

أين الذبال من الغزالة أشرقت * وجها وطبقت البسيطة نورا
غضبان اقسم لا يشيم حسامه * والارض تحمل فى الكفور كفورا
غسل العواصم امس من ادرانهم * واليوم ردّ به السواحل بورا
لم يبق بين الجولتين وآمد * وترا لمضطغن ولا موتورا
اخلى ديار الشرك من اوثانها * حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائد هامهم * من بعد ما جعل القصور قبورا
بشواحب الالياط تقطو فى الظلا * م قطا وتهوى فى الصباح نشورا
غادرت انطرسوس كالطرس انمحى * رسما وجر ردعها يحمورا
وهى الزناد لفتنة كانت على الا * سلام احكم كسرها كسيرا
شمت طرابلسا فاصبح ثغرها الـ * ـبسام من عز الثغور ثغيرا
اقليدها كانت وقد انطيته * واسأل به ممن دهته خبيرا
ان الاولى امنوا وقاعك بعدها * غرّوا وقد ركبوا الاغرّ غرورا
التى العصافين أطاع ومن عصى * منهم ودمر أرضهم تدميرا
لا يلههم ان قد منت وشنها * شعواء تصلى الكافرين سعيرا
باكر بركز قنا تدسف اسها * والخيل صور كى تزيرك صورا
وتريك لامعة التريك بساحة الا * قصى مطهرة لها تطهيرا
اولست من قوم اذا هزوا القنا * فتلوا معاصمهم لها تسويرا
واذا هم خطبوا اليراع غريرة * ساقوا الشفار على المهار مهورا
التى قسيماهم اليك ازمة الا * ملاك المطل على السها تأثيرا
ضحكت لك الايام واكتأب العدا * قلقا جئت مبشرا ونذيرا
لا ملك الاملاك محمود الذى * تخذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشى وراء حدوده احكامه * تأتمهن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله فى دولة * جاءت لمطوى السماح نشورا
خلف الخلائف قائما عنهم بما * عيوا به الوى الدّ غيورا
البر والمعصوم والمهـ * ـدى والمأمون والسفاح والمنصورا
بشروا به فعهودهم وعهادهم * يمحن تحت لوائه منشورا

وأنشد بحلب فى هذه السنة قصيدة أوّلها

المجد ما ادّرعت ثراك هضابه * وتثقفتك شعوبه وشعابه
ملك تكنف دين أحمد كنه * فأضاء نيره وصاب شهابه
فالعدل حيث تصرفت احكامه * والامن حيث تصرمت اسرابه
متهلل والموت فى نـ * ـبراته يرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما * حلت عقود تميمها اترابه
اسد فرائسه الفوارس والظبى * اظفاره والسمهرية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه * وسنانه واهابه وثيابه
وتهش ان كتب الوجوه كانما * اعداؤه تحت الوغى احبابه
نشرت بمحمود شريعة أحمد * وأرى الصحابة ما احتذاه صحابه

ماغاب اصلع هاشم فيها ولا ال * فاروق باء بخطبه خطابه
ابناء قيلة قائمون بنصره * ان اجلبت من قاسط احزابه
صبحوا المحلقة البرنس بحالق * حرش الضباب من القلوب ضبابه
مازال يغلب من بغاه ضلاله * حتى اتيح من الهدى غلابه
ملقى بوحش الاصرمين تزيلت * آراؤه وتزايلت آلابه
دون الارنط سخت به نجداته * ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درة تاجه يد ضيغم * لم تنجه من بأسه اسلابه
واتته تحلب جوسلين جنائب * هبت فقل الى القتال هبابه
اسرته لا منعت سراه وغره * بالقاع ان رام الورود سرابه
لا تل باشره ولا كيسونه * صدت منى عنه ولا عنتابه
ضمنت شقاوته سعادة صافح * غطى على اعناته اعتابه
مازال يغدر ثم يغدر قادرا * حتى أتاه بجامح أصحابه
قصر الاماني ان يملأ عصرك ال * اسلام مصر وباعليه حجابه
مجر يجر الى الغنائم قبه * وحمى يزار على الفتوح قبابه

وأنشده بحلب فى شوال من هذه السنة قصيدة منها

لقد أوطأت دين الله عزا * اديم الشعريين له رغام
دعاك وقد تناوشت الرزايا * له اهبا وزعها العذام
فقمت بنصره والناس فوضى * فيام ذم ما اقترفت فئام
جذبت بضبعه من قعر يم * له من فوق مقسمه التطام
وملت على معاقلهم نخرت * ولاء مثل ما انتقض النظام
بصرخد والخطيم وفى عزاز * وقايع هز مشهدها الانام
ولولم تعترف وتشم امسى * وأصبح لا عراق ولا شآم
صببت على الصليب صليب بأس * قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا * على الاشراك أمقره العرام
لقولك كأن ماسلوه سيح وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس وبكفرلاثا * ذممت وأنت للجلى ذمام
صدمتهم بارعن مرجحن * كأن مطارا نسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها * لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل * تعفت فى الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حد * حمى من ان تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه * فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير ما يرجوه راج * وأنفع ما يبل به أوام

(فصل) وفى هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه به ابن منير فى بعض قصائده ثم توفى بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضى الله عنه اذا دخل الحظيرة فى مقابر الباب الصغير وقصيدة ابن منير قد تقدم بعضها فى أول الكتاب ومنها فى ذكر المولود

توالت الاعياد لازلت لها * تبلى دبابيج البقاء وتجد

الفطر

الفطر والميلاد والمولود لو ❊ قابله بدر التمام لسجد
ثلاثة تعرب عن ثلاثة ❊ لمثلها يذكر جدا من جد
فتح مبين وطلاب مدرك ❊ ودولة ماتنتهى الى أمد

وله من أخرى يقول

وجئت باجد فلا تحدا ❊ موارد كان مغذبها عذابا
تهلل وجه ملكك يوم أهدت ❊ قوابله لك الملك اللبابا
شبيهك لا يغادر منك شيئا ❊ سناوحيا وبذلا واستلابا
قسيم المجد الا ان حرفا ❊ من اسمك زاد للمعنى منابا
ألا لله يوم فز عينا ❊ وركب نص بالبشرى الركابا

قال أبو يعلى فى أواخر صفر توجه مجير الدين فى العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره وأراد مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه فى ذلك فقال له هذا المكان بحكمك وأنا فيه وال من قبلك وأنفذ الى ولده سيف الدين محمد النائب فيه باعداد ما يحتاج اليه ويلقى مجير الدين بما يجب له فخرج فى أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل اليه فى خواصه وسر بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك وعاد الى مخيمه على بصرى وحاربها عدة أيام الى ان استقر الصلح والدخول فيما أراد وعاد الى دمشق وفيها فى شوال توفى الامير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن ابن الملحى ودفن فى مقابر الكهف وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد وتقدم والده فى حلب فى التدبير والسياسة وعرض الاجناد قال ابن الاثير وفيها توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان وعهد الى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وخطب له ببلاد الجبل وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكرى فقام بامر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه وكتب الى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه اليه ليخطب له بالسلطنة وكان غرض خاص بك ان يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه فلما كاتب محمدا أجابه الى الحضور عنده وسار اليه وهو بهمدان واجتمع به وخدم خاص بك خدمة عظيمة فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه الى أصحابه فتفرقوا واستقر محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين وبقى مطروحا حتى أكلته الكلاب وكان ابتداء أمره انه كان من بعض أولاد التركمان فخدم السلطان فمال اليه وقدمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد وهو كان السبب فى أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود فان الامراء الاكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم وذكر الوزير يحيى بن هبيرة فى كتاب الافصاح انه لما تطاول على الخليفة المقتفى أصحاب مسعود وأساؤا الادب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأى على الدعاء على مسعود بن محمد شهرا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على رعل وذكوان شهرا فابتدى هو والخليفة سرا كل واحد فى موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة واستمر الامر على ذلك كل ليلة فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوما ولا ينقص يوما ووصل القصاد بذلك من همذان الى بغداد فى ستة أيام فازال الله يده ويد أتباعه عن العراق وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين قال وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول لا أدل على وجود موجود أعظم من ان يدعى فيجيب

﴿ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة﴾ ففيها أخذت الفرنج خذلهم الله عسقلان وبقيت فى أيديهم الى ان فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى ان شاء الله تعالى قال الرئيس أبو يعلى التميمى وتواصلت الاخبار من ناحية نور الدين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الاعمال والبلدان للغزو فى احزاب الشرك والطغيان ولنصرة أهل عسقلان على الافرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف اليها بالبرج المخذول وهم

في الجمع الكثير ثم اقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق الى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الافرنج والارمن وحصل العسكر من المال والسبي الشئ الكثير ونهضوا طالبين ثغر بانياس ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين فقضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فاجفلوا عنها من غير طارق من الافرنج طرقهم ولا عسكر رهقهم ونزلوا على المنزل المعروف بالاعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين الى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الاوّل وعاد نور الدين الى حمص ونزل بها في عسكره ووردت الاخبار بوصول اسطول مصر الى عسقلان فتقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج اليهم واستمرّ ذلك الى ان تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه وهجموا البلد وقتل من الفريقين الخلق الكثير وألجأت الضرورة والغلبة الى طلب الامان فأجيبوا اليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر الى ناحية مصر وغيرها وقيل ان في هذا الثغر المفتتح من العدد الحربية والاموال والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر ولما شاع هذا الخبر في الاقطار ساء سماعه وضاقت الصدور وتضاعفت الافكار بحدوث مثله فسبحان من لا يردّ نافذ قضائه ولا يدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه

﴿فصل﴾ قال وعرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين اخويه عز الدولة وزين الدولة مشاحنات ومشاجرات اقتضت المساعاة الى مجير الدين في جمادى الاولى فأنفذ مجير الدين الى الرئيس يستدعيه للاصلاح بينهم في القلعة فامتنع من ذلك وجلس في داره وهمّ بالتحصن عنه باحداث البلد والغوغا وآلت الحال الى تمكن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه وتقرّر بينهما اخراج الرئيس من البلد وجماعة الى حصن صرخد مع مجاهد الدين بزان واليه بعد ان قرر له بقاء داره وبستانه وما يخصه ويخص أصحابه وتقلد أخوه زين الدولة مكانه وأمر ونهى ونفذ الاشغال على عادته في العجز والتقصير وسوء الافعال والتماس الرشا على أقل الاعمال ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل الى بعلبك لتطييب نفس واليها عطاء الخادم واستصحابه معه الى دمشق لينوب عنه في تدبير الامور وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الدين بزان ان نية مجير الدين قد تغيرت فيه فاستوحش من عوده الى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانه في نفسه فوعد بالاجابة فعاد الى داره بدمشق ثم هجس في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم فدعاه ذلك الى الخروج من البلد سرا طالبا صرخد فحين عرف خبره انهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد فقبض عليه واعيد الى القلعة بدمشق واعتقل بها اعتقالا جميلا ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره اشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه الى القلعة على حين غفلة عن القضاء النازل به لسوء فعاله وقبح ظلمه وخبثه ثم عدل به الجاندارية الى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبرا واخرج رأسه ونصب على حافة الخندق ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته وكثر السرور بمصرعه والتهيج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من اعوانه على الفساد من أهل العيث الى منازله وخزائنه ومخازن غلاته واثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك الا النزر اليسير ورد أمر الرياسة والنظر في البلد الى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن اسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره فطاف في البلد مع اقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في اخراب منازل الظالم ونقل أخشابها قال وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الامور ومدّ يده في الظلم واطلق لسانه بالهجو وافرط في الاحتجاب وقصر في قضاء الاشغال فتقدّم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه قال وورد الخبر من ناحية مصر بان العادل المعروف بابن السلار الذي كانت رتبته

قد علت ومنزلته فى الوزارة قد تمكنت كان لزوجته ولد يعرف بالامير عباس قد قدمه واعتمد عليه فى الاعمال ولعباس هذا ولد قدمه الوزير وأنعم عليه وأذن له فى الدخول بغير اذن اليه فدخل عليه وهو نائم فى فراشه فقطع رأسه وحصل عباس فى منصب العادل ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره قلت هو أبو الحسن على بن السلار وزير خليفة مصر وهو الذى بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبى طاهر السلفى رحمه الله وكان قتله فى سادس المحرم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ وفيها فى آخر شعبان توفى الفقيه برهان الدين أبو الحسن على البلخى رئيس الحنفية ودفن فى مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع مع الورع والدين والعفاف والتصوّف وحفظ ناموس العلم والتواضع والتودد الى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة قال وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الاديب أبى الحسين أحمد بن منير الشاعر فى جمادى الآخرة ووصل فى ثانى عشر شعبان الى دمشق الاديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسرانى من حلب باستدعاء مجير الدين له ومات بعد عشرة أيام فى الثانى والعشرين من شعبان قلت هما شاعرا الشام فى وقتهما وقد شبههما العماد الكاتب فى كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير وكذلك كان اتفق موتهما فى سنة واحدة ومات جرير بعد الفرزدق بقليل وقد سبق من شعرهما فى مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة وسيأتى غير ذلك فى موضعه لغرض سنذكره ومما قاله ابن منير من قصيدة له

أيا سيفا أعز الدين منه الـ ... غرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا ... كأن الارض خامرها دوار
علاك حلى على الدنيا فتاج ... بمفرقها وفى يدها سوار
أضاءت شمس عدلك فى دجاها ... فكل زمانها ساكنها نهار
فتحرق من عصاك وأنت ماء ... وتغرق من رجاك وأنت نار
بالاله وجهـ ... ـك والمنايا مكحلة وللبيض افترار
هتكت حجابها والنصر غيب ... وللهبوات طى وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام ... وضرب للرؤس به انتثار
تبادره كأن الموت غنم ... وما من عادة البدر البدار
انخت على الصليب مطا صليبا ... به من صك مبركه هدار
بمشرفة المناكب مقربات ... لهن بمتن كل وغى حصار
جبين بأنب أنب العناصى ... وأضن وللقنا منها ثمار
وفى هاب أهبت بها فجاءت ... كما أجلى من الكشم الصوار
وكم فى فج حارم من حريم ... عفته فلا جدير ولا جدار
وانطاكية استنت اليها ... فاجفل خيطها وله عرار
وصبح فى عزاز بها عزاز ... فامسى وهو وعث أو خبار
يشق بها دجى الغمرات عسفا ... جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى

وما يوم الفرنجة منك فذ ... فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا ... بعيد الغور ملتطم العباب
واحكم بالحطيم لهم خطاما ... أمر بريمه مر الضراب
مشوا متساندين الى صليب ... يبرقعه بهوه الصخ الصلاب
تلقفهم المنايا فى الثنايا ... وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشت سهمهم كبشهم هناة ... فكنت ذباب طائشة الذباب

جالت التاج عنه وحل تاجا * مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى * وأبهى منه فى ظل العقاب
فاشرف وهو عن شرف معوف * واصعد وهى غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض * ثناه مناه عن رجع الجواب
بعيدا من قراع واقتراع * يؤوب له الى يوم المآب
وكم سوط بحيلك اقبلوه الصدور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بارض الشام شاما * لظفر تتقيه أولناب
هتكت حجابهم والشمس وسنى * بشمس لا توارى بالحجاب
بابيض من حبيك الهند صاف * مصون المتن مبتذل الذباب
له سمة الشيوخ صفاء شيب * وفى خطواته ترف الشباب
الا يا ناظرا الدنيا بعين * أرته علابها خدع السراب
تبطنها فطلقها ثلاثا * على عز التملق والخلاب
فلا يأوى الى رأى شعاع * ولا يثنى الى أمل خراب
ترفع عن مجاوزة الامانى * وحلق عن محاضرة التصابى
صلاة الله كل درور شمس * على مثوى أبيك من التراب
فقد ألقى الى الاسلام عضبا * يطبق فى النوائب غير نابى
تجيش له رواس كالرواسى * تمدها جفان كالجوابى

وله من أخرى

مظفر العزم ممدود الرواق على * معالم الدين يرفيها و يبنيها
ردّ الكنائس كنسا للهدى فجنت * نار الضلال ووارتها اثافيها
وأورد العلم عدا من ايالته * فاستن واقتن عبا فى صوافيها
وبث للشرك اشراكا فما درجت * طريدة منه الا استوهقت فيها
يا بدر مذ أشرقت فى الدست غرته * غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمودها علما * به استقام على البيضاء ساريها
محيى شريعته من بعد ما انهدمت * واستعجمت بعد افصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته * حتى استقرت على سمت سواريها

وله من أخري

عزت سيوفك فالعراق عراقها * والشام غير مدافعات شامها
ان أغمدت حبل العزائم حلها * أو جردت حرم الكرى احرامها
شخصت عداك بها فلا اشراقها * بمفازة منها ولا إعتامها
سربت فصبحها بها يقظاتها * هدأت فبيتها بها احلامها
كالماء الآن فى رشفانه * نارا حشاشات النفوس ضرامها
خفت على أيمانكم أوزانها * يوم الوغى واستشعلتها هامها
حتى اجلن الشام شاما صرصرت * فيه جنادبها وصدّع هامها
ورحصن اردان الجزيرة بعدما * غمرت بها وهداتها اوا كامها
شطرا أبرت ومثله أنظرته * وقع الخطوب تكرها أيامها
بالخابطات الغاب تزأر أسده * والمجفلى الحي اللقاح صيامها

أوردتها اجمات انطاكية * عتقا وقد شبت الصدا اجامها
تلقى المشافر فى مراشف كلما * بردت بها الأكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراح سراحها * وتوزعت فى كنسها آرامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل الـ * ـاذان من رجع الاذان صلامها
وغدا يخالها الخليل سواجبا * عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضب بالدين الله حص جناحه * بغيا وأدمى صفحتيه لدامها
فالآن رد النور فيه نوره * وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما اذا * خام الكماة وزلزلت اقدامها
الفارج الكرب العظام تضاجمت * اشداقها وفرا القلوب ضغامها

وله من أخرى

أما الرعايا فانها رشفت * لديك نعمى عذبا شآياها
سلكت نهج العدل القويم لها * فاجدت دينها ودنياها
وكم امنت خوفا فامنها * مثالف الخوف خوفك الله
لله أقطارك التى قبطرت * لها مناها الى مناياها
أنب فى أنب فوارسها * تردى فتردى أولاك أخراها
أشجت لهاة البرنس هبوتها * وكم عتا عاتيا فاشجاها
وجوسلين استساغ نطفتها * فاحتلب الذل تحت مغداها
ردته صفرا من كل ما ملكت * يداه أيد ماضل مسراها
جولس جاستك أوجه لارأت * بوسا وجاد الحيا محياها
فى سرية لو تكون فارسها * يومئذ ما انبعثت أشقاها
لا زال ظل النعماء عن ملك * ما الشمس كفؤا له اذا باها
والله جازيه عن معبده * أعزها الله مذ تولاها
محمود المعتلى الى فلك * الجد وثيرا له ولايا ها
أعطاكه جد لك المتوج بالجـ * ـد ونفس لله مغزاها
نفس عزوف عن الخنا طبعت * نزهها الله يوم سواها
أنت الذى سلم الانام له * يمنى طباق العلى ويسراها
وأنت مولى الملوك قاطبة * من كل فنا خسرو وشاهنشاها
والشعر هذا لا أقول أجده * أوه بديل من قولتى واها

وله من أخرى

يا ابن الذى لم يال فى نجدة الا * سلام ادلاجا وتهجيرا
تكنف الشام وقد شام بر * ق الخوف انجادا وتغويرا
وكف كلب الروم من بعد ان * انشب نابا واظفورا
فاهله رقك ان انصفوا * رقا بحد السيف مسطورا
بدر هوى واستخلف الشمس فى * دستك اشراقا وتأثيرا

وله من أخرى

بملك كسى الاسلام من ذبه * بردا يتسدبج الظبى معلما
من أصبح الشام به شامة * يقطر من قتل عداه دما

لولم يقم منصلتا دونه * لم تلق فى أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده الى حلب

الدهر مارضته بالجود والباس * مقسم بين اغراس واعراس
فتح تعاقبه فتح ومطلب * دانى المنال وملك ثابت راسى
نصرا ببصرى وصفحا عن حماة لقد * أحسنت للداء حسما أيها الآسى
يا ابن الذى عنت الدنيا لدولته * من فاطمى اعزته وعباسى

وله فيه أيضا

غدا الدين باسمك سامى العلم * أمين العماد مكين القدم
لذلك لقبت نورا له * وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه * وفضت عرى الدين لما ادلهم
ولم تمش رهوا لنصر الرها * ومثلك أدرك لما عزم
ويوم بسوطا بسطت الحما * م على الهضب من ركنها فانهدم
وبصرى وصرخد لولم تثر * دراكا لكانا رديفى ارم
ومذ فض جيشك فى الغوطتين قص الصليب له مانظم
وفى كفرلاثا وهاب حلت عقد البرنس ببيض خذم
معودة انها لاتسل الامقسمة للقمم
ويوم بسرفود جرعتهم * أجاجا أغصهم واضطلم
وفوق العريمة غشاهم * عرام جيوشك سيل العرم
وأنت بكلبهم فى الكبو * ل مباح الحريم مذال الحرم
وبارتهم أذنت انها * ابارتهم فليبؤا بذم
بنوها واعلوا ولم يعلموا * بما خط فى اللوح منك القلم
وانك خادم ما أحكمو * ه ومن ديننا راقع ما انخرم
فترفع من بعد خفض هدى * وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجو * م فكم منجم تحتها قد نجم
وعاش الحنيفى والشافعى * بما شدت منها وكانا رمم
وان لم تكن هاشمى الاصو * ل فانك فرع الهزبر الهشم
ومن يدعى فى العلى ما ادعيت وأنت ابن من عز لما احتكم
واقسم ما غاب ميت سقت * مغارسه عين هذى الشيم

قلت وقصائد ابن منير فى مدح نور الدين كثيرة ونفسه فيها طويل ولم يبق بعد موت القيسرانى وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغى الا ابن أسعد الموصلى وسيأتى شئ من شعره الى ان قدم العماد الكاتب الشام فى سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الامر وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته باحسن العبارات وأتمها نظما ونثرا وسيأتى كل ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى قال ابن الاثير وفيها توفى صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين البى بن تمرتاش ارتق قلت وقد مدحه القيسرانى والعرقلة وغيرهما من الشعراء

(ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة) قال ابن الأثير ففيها ملك نور الدين دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أنق بن محمد وكان الذى حمل نور الدين على الجد فى ملكها ان الفرنج ملكوا فى السنة الخالية عسقلان وهى مدينة فلسطين حسنا وحصانة ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على ازعاجهم عنها لان دمشق فى طريقه وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج فى الوسط وقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا فى دمشق

واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله وأكثروا القتل بها والنهب والسبى وزاد الامر بالمسلمين بها الى ان جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة وكان رسولهم يجىء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وأساءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عندهم واليهم والعود الى أوطانهم فمن أحب المقام تركوه ومن أحب وطنه سار اليه وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد الى ان حصروه فى القلعة مع انسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفى فلما كانت الامور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو فلجأوا الى الله تعالى ودعوه ان يكشف ما بهم من الخوف فاستجاب لهم وأذن فى خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده اليه وأحسنهم طريقه وأمثلهم سيره وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود فحسن له السعى فى ملك البلدة وألقاه فى روعه فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم انه ان رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه لان صاحبه متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم قلت وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدم ذكر شئ منها ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة

يظن صلاح الدين فرسان جلق ❊ كفرسانه ما الاسد مثل الثعالب
رجال اذا قام الصليب تصلبت ❊ رماحهم فى كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق ❊ معودة ابطاله للمصائب
لها الليل نقع والاسنة أنجم ❊ فما غير ابطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور فان ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش وانما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الباغبسانى صاحب حماه أحد أصحاب زنكى وقد تقدم ذكره مرارا وكأنه كان فى مقدمة الجيش النورى لما قصد دمشق فى المرتين الاوليين أوفى احديهما أوفى زمن حصار زنكى لها والله أعلم قال ابن الاثير وكان أبغض الاشياء الى الفرنج ان يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق فكيف اذا أخذها وقوى بها وانضاف الى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فان الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل فلما رأى الحال هكذا عمد الى اعمال الحيلة فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق اليه ثم صار يكاتبه فى بعض الاوقات ويقول له ان فلانا ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين قد كاتبنى فى المخامرة عليك فاحذره فتارة يأخذ اقطاع أحدهم وتارة يقبض عليه فلما خلت دمشق من الامراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه فقبض عليه مجير الدين وقتله فقال له عند قتله ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلنى فانه سيظهر لك ما أقول فلم يصغ الى قوله وقتله قلت وفى بعض قصائد ابن منير ما يدل على ان عطاء هذا كان له مع نور الدين فى دمشق حديث فانه قال

ودمشق فى دمشق رجال سلم ❊ لحور نسائهم منهم نساء
هى الفردوس أصبح وهو عاف ❊ من العالى ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنات فيها ❊ ولا رأى هنالك ولا رواء
لاسمح صعبها ودنت قصاها ❊ وامكنك اقتياد وامتطاء
وبانعم العطاء عطاء رب ❊ توسطه فانشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفال وعد ❊ يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذى شزرت قواه ❊ وهذبه لخدمتك الصفاء
وسيف ان تشمه تشم حساما ❊ وان يغمد فنار بل ذكاء
جنته لك السعادة قطف رأى ❊ لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز انه لم يكن لعطاء فى ذلك حديث وانما هذه الابيات أو ما فى معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك وعطاء هذا هو الذى ينسب اليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقى بدمشق وجورة عطاء بيت أبيات وهى أرض فيها أخشاب

كبار من الحور تربى أوتار الجامع دمشق وهى وقف عليه وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء قال ابن الاثير فلما قتل عطاء قوى طمع نور الدين فى دمشق فراسل احداث البلد وناظرته واستمالهم فأجابوه الى تسليم البلد فسار اليهم وحاصرهم عشرة أيام فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك ان رحلوا نور الدين عنه فالى ان جمعوا وجاؤا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفى حنين وأما نور الدين فانه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا اليه البلد من الباب الشرقى فدخله بالأمان عاشر صفر وحصر مجير الدين فى القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكثير من جملته مدينة حمص فأجاب الى تسليم القلعة وصار الى حمص وقال ابن ابى طى أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا الى صاحب دمشق فخرج فى تجمل عظيم ومعه ألف فارس فعظم على مجير الدين ذلك وقال ماهذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج الى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق فى المقال وأنفذ الى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه فسار نور الدين فى عساكره وزحف الى البلد من شرقيه وكانت الحرب فى عاشر صفر وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلى البلد ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لانّ نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجاندارية والحلبيين الى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا الى السور وتعلقوا به وحصلوا فى الحال على الاسوار ويقال ان امرأة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه وملك نور الدين دمشق وكان لاسد الدين اليد الطولى فى فتحها فولاه نور الدين أمرها ورد اليه جميع أحوالها وفى هذه السنة اقطعه نور الدين الرحبة وقال الرئيس أبو يعلى فى العشر الثانى من المحرّم وصل الامير أسد الدين شيركوه رسولا من نور الدين الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج فى عسكر يناهز الالف فأنكر ذلك ووقع الاستخوان منه واهمال الخروج اليه لتلقيه والاختلاط به وتحررت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغلات ووصل نور الدين فى عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومة ورحل فى الغد ونزل بيت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكره واحداثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوما بعد يوم وتأكد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقى فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلى البلد وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الامر غير نفر يسير لا يؤبه لهم فتسرع بعض الرجالة الى السور وعليه امرأة يهودية فأرسلت اليه حبلا فصعد فيه وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وطلعوا على ما نصبوه على السور وصاحوا نور الدين يامنصور وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره وبادر بعض قطاعى الخشب بفأسه الى الباب الشرقى فكسر اغلاقه وفتحه فدخل منه العسكر وسعوا فى الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ثم دخل نور الدين وخواصه وسرّ كافة الناس من الاجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الاسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم فى خواصه الى القلعة وأنفذ اليه فأومن على نفسه وماله وخرج الى نور الدين فطيب نفسه ووعده الجميل ودخل نور الدين القلعة فى اليوم المقدّم ذكره وامر بالمنادية بالامان للرعية والمنع من انتهاب شئ من دورهم وتسرع قوم من الرعاع والاوباش الى سوق على وغيره فعاثوا ونهبوا وأنفذ نور الدين الى أهل البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم وأخرج مجير الدين ما كان له فى دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والاثاث على كثرته الى الدار الاتابكية دار جده وأقام أياما ثم تقدم اليه بالمسير الى حمص فى خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد ان كتب له المنشور باقطاعه عدة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده وتوجه الى حمص على القضية المقررة ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار وخوطبوا بما زاد فى ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم اليه ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الانهار

وانشأ

وأنشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء الى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه وقال ابن الاثير لما استقل نور الدين فى البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلا عاما قلت قد تقدّم ذكره فى أوّل الكتاب وسيأتى منه أشياء مفرّقة فيما بعد قال وألقى الاسلام جرانه بدمشق وثبتت أوتاده وأيقن الكفار بالبوار ووهنوا واستكانوا وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين وأما مجير الدين فانه أقام بحمص وأرسل أهل دمشق فى اثارة الفتنة فانتهى الامر الى نور الدين فخاف ان يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الافرنج فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس فلم يرضها وسار عن الشام الى العراق فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفى بها قال ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا انه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة الى قتالهم فراسله كل كند وقمص وتقرّبوا اليه ثم ان من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها اليه فأرسل الى الامير حسان المنبجى وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره ان يتسلمها منهم فسار اليها وتسلمها وحصنها ورفع اليها ذخائر كثيرة

﴿فصل﴾ قال الرئيس أبو يعلى وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد الى داره ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب الى دمشق مع ولده النائب عنه فى صرخد الى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشئ من التصرفات والاعمال فبدا منه من الاسباب المعربة عن اضمار الفساد والعدول الى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعيا الى فساد النية فيه وكان فى احدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع فى فيه زائد فقضى نحبه فى رابع ربيع الاوّل ودفن فى داره واستبشر الناس بهلاكه والراحة من سوء أفعاله قال ووردت الاخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين ولقبوه بالفائز وعباس الوزير ثم ورد الخبر بان الامير فارس الدين طلائع بن رزيك وهو من أكابر الامراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى اليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد وقصد العود الى مصر فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب فى خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله وسار معدّا فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج اليه جماعة من خيالة الافرنج فاغتر بكثرة من معه وقلة من قصده فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذى قتل العادل بن السلار مع ولده وحرمه وماله وكراعه وحصلوا فى أيدى الفرنج ومن هرب لقى من الجوع والعطش شدّة ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل فى أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس وانتصب فى الوزارة وتدبير الامور موضعه ووصل الى دمشق منهم من الجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعرى فى آخر ربيع الآخر قلت وفى ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له

لكم يا بنى رزيك لا زال ظلكم ❊ مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم ❊ قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الامير أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار ان نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس بعض حتى يفنوهم وشرع الظافر مع ابن عباس فى حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة فقال تحنى فى ذلك فنهيته فاطلع والده على الامر فاستماله أبوه ولاطفه به وقرّر معه قتل الظافر وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه الى داره ورتب من أصحابه معه فى جانب الدار نفرا ثم لما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورموه بجب الدار وأصبح عباس جاء الى القصر ضحوة نهار للسلام وجلس فى مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر وقال ما لمولانا ما جلس للسلام فتبلد الاستاذ فى الجواب فصاح عليه وقال مالك لا تجاوبنى قال يا مولاى مولانا ما ندرى أين هو وقال مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال فمضى ورجع فقال ما وجدنا مولانا فقال يبقى الناس بلا خليفة ادخل الى الموالى اخوته يخرج منهم واحد لنبايعه فمضى وعاد وقال الموالى يقولون لك ما لنا فى الامر شئ والدنا عزله عنا وجعله فى الظافر والامر لولده بعده قال أخرجوه

حتى نبايعه وعباس قد قتـل الظافر وعزم على ان يقول لاخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم فخرج ولد الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الاستاذ فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس ثم دخل به الى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ قال ابن منقـد ونحن فى الرواق جلوس وفى القصر أكثر من ألف رجـل من المصريين فما راعنا الا قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين الى القاعة فاذا السيوف تختلف على انسان فقلت لغلام لى ارمنى انظر من هذا المقتول فمضى وعاد وقال ما هؤلاء مسلمين هذا مولاى أبو الامانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه ثم ان واحدا شق بطنه يجذب مصارينه ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الامير يوسف تحت ابطه وفى رأسه ضربة سيف والدم يفور منها وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر ثم ادخلوهما خزانة فى القصر فقتلوهما وفى الخزانة ألف سيف مجرّد قال وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التى جرت علىّ لانى رأيت من الفساد والبغى ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه وذكر الامير أسامة بن منقـد فى ديوانه قال كان لعباس أربعمائة جمل يحمل أثقاله ومائتا بغل ومائتا جنيب فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الاوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمـل ويخرج فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء الى قصر السلطان الى الايوان خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يده فقال للجمالين والخربندية والركابية روحوا الى بيوتكم وسيبوا الدواب ففعلوا ذلك وانحازوا الى المصريين يقاتلونه معهم وكان ما جرى من تسميك الدواب لطفا من الله تعالى به فانها سدّت الطريق بينه وبين المصريين ومنعتهم من الوصول اليه وهم فى خلق كثير ونحن فى قلة ما نبلغ خمسين رجلا وغلمان عباس ومماليكه فى ألف ومائتى غلام بالخيول الجياد والسلاح التام وثمانمائة فارس من الاتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا فى الفضاء الذى بينه وبين رأس الطابية فرارا من القتال فشرع المصريون فى نهب الخيل والجمال والبغال فلما فتحوا طريقهم اليه خرج عباس من باب النصر وجاؤا فى أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا الى نهب دوره وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة ألف فارس يتقوّى بهم على المصريين واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر الى الليل فاذا نزل أمهلوه الى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع ويخرج اليهم منها ما فيه منعة وقوة فيأخذونه فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الافرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصده الفرنج اليه قال ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهارا الى آخر يوم الخميس ثم جاؤا اليه وأخذوا منه حسبا على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم ان له عودة اليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس ويوم الاحد صبحتهم الافرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الاوسط وأسروا ابنه الاكبر وقتلوا خلقا كثيرا وأخذوا نساء عباس وخزائنه وأسروا أولاده صغارا وانصرفوا قلت عباس هذا هو عباس بن أبى الفتوح بن تميم بن المعز باديس الحميرى ويلقب بالافضل ركن الدين ويكنى بأبى الفضل ورأيت علامته فى الكتب أيام وزارته الحمد لله وبه أثق وفيه يقول أسامة بن منقد

لقـد عم جود الافضل السيد الورى ❊ وأغنى غناء الغيث حيث يصوب

ومن أبيات لابن أبى أسعد فيه لما قتل الظافر

وأنفق من انعامهـم فى هـلاكهم ❊ وأظهر ما قد كان عنـه تنافق

ومـدّ يدا قـد طوّلوها اليهـم ❊ وحلت بأهل القصر منه البوائق

سقى ربه كاس المنايا وما انقضى ❊ له الشهر الا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه انه لا ينفصل عنه ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذى داره من يدخل على حرمه الى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عنده أهـله وأولاده وقال قد حلت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين يعنى ولده ناصر الدين وباخوانه فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه فاعادهم أسامة من بلبيس وانفذ الى الملك الصالح يقول له قد انفذت أهلى وأولادى اليك وأنت ولى ما تراه فيهم فأنزلهم فى دار وأجرى عليهم الجارى الواسع

وأحسن اليهم غاية الاحسان وكان يكاتبه فى الرجوع الى مصر وهو يلطف الامر معه قصدا لخلاص أهله وأولاده فلما عرف ذلك منه نسبه الى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين فأنفذ اليه يقول له تصل الى مكة فى الموسم ويلقاك رسولى اليها يسلم اليك مدينة أسوان وانفذ اليك أهلك وأمدك بالاموال وهى كما علمت الثغر بيننا وبين السودان وما يسد ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته فى قربه ورعايته وما بينه وبينه من قديم الصحبة فاستأذن أسامة فى ذلك الملك العادل نور الدين وكان فى خدمته فقال يا فلان ما تساوى الحياة الشتات والرجوع الى الاخطار والبعد عن الاوطان ومنعه من ذلك باحسانه ووعده ان يستخلص أهله فكتب أسامة الى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وترددت بينهما مكاتبات واشعار متصلات الى ان سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة فى الاكرام والاحترام الى آخر ولايته وذكر ان أهل القصور والامراء أنكروا تسييرهم وقالوا تكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو فى العسكر النورى بحلب فأخبره ان من كان له بمصر من الاهل والاولاد والاصحاب وصلوا وان المراكب انكسرت بهم فى ساحل عكا ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا الى دمشق الا بأنفسهم وان متملك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم وأكتروا ظهرا الى دمشق قال أسامة

الى الله أشكو فرقة دميت لها * جفونى وأذكت بالهموم ضميرى
تمادت الى ان لاذت النفس بالمنى * وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما اقضى الله اللقاء تعرضت * مساءة دهرى فى طريق سرورى

﴿فصل﴾ قال أبو يعلى وفى آخر ربيع الاول وصل الامير مجد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين فى حلب الى دمشق عقيب عوده من الحج وأقام أياما وعاد الى منصبه فى حلب وتدبير اعمالها قلت مجد الدين هذا هو ابن الداية وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى اخوته وسيتكرر ذكرهم فى هذا الكتاب ومجد الدين أكبر اخوته وقد مدحه الشعراء قال القيسرانى من بعض ما قاله فيه

دعوا ما مضى من قبل هذا المبعد * فاقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لعفاته * ترى أن كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى * ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففى قربه الزلفى وفى وعده الغنى * وفى نيله الحسنى وفى رأيه الرشد
اذا وجه نور الدين قابل مجده * فقل فى كمال البدر قابله السعد

وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين هاشم بن فليته وولى الحرمين ابنه قاسم بن هاشم وهو الذى أرسل عمارة اليمنى الفقيه الشاعر الى الديار المصرية وسيأتى ذكره قال أبو يعلى وفى ثامن جمادى الاولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت الى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفرا وبعد ذلك عاد من كان هرب منها فى البحر بعد الحادثة ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه قال وفى شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضى فخر الدين أبى منصور محمد بن عبد الصمد الطرسوسى وكان ذا همة ماضية ويقظة ومروءة ظاهرة فى داره وولده ومن يلم به من غريب ووافد وقد نفذ أمره وتصرفه فى اعمال حلب فى الايام النورية وأثر فى الوقوف أثرا حسنا توفر به ارتفاعها ثم اعتزل عن ذلك أحمد اعتزال

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة) ففيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك ذكر ابن الاثير ان ذلك كان فى سنة اثنتين وخمسين وقال كان ضحاك البقاعى ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج فلطف الحال معه الى ذلك الوقت فملكها واستولى عليها وقال ابن أبى طى لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب فكاتب نور الدين فى تسليم بعلبك فانفذ اليه وتسلمها منه وألحقه باصحابه قال ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر ان مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله فى البلد وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك فلما ملك نور الدين دمشق خرج الى بعلبك واستنزل منها ضحاكا

وتوسط أسد الدين فى أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين فاقطعه اقطاعا وسيره الى دمشق فاقام فيها وورد نظر دمشق اليه وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها الى ان توفى فولى صلاح الدين شحنكية دمشق قلت هذا وهم تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذى فتح اليمن فى أيام أخيه صلاح الدين فكيف يقول انه مات قبل ان يلى صلاح الدين شحنكية دمشق وأما كونه ولى الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب وقد رأيت ما يؤكده قرأت فى ديوان العرقله وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق وهو فى دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذى

قلبى لحسادك زيد وافى الحسد * قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا ان حل دار عمه * اما تحل الشمس فى برج الاسد

وقال فى صلاح الدين لما ولى الشحنكية

لصوص الشام توبوا من ذنوب * تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا * فولاى الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا

رويدكم يالصوص الشآم انى لكم ناصح فى مقالى
واياكم وسمى النبى يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدى النساء وهذا مقطع أيدى الرجال

قال ابن ابى طى وولى صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فاقام فيه أياما ثم تركه وصار الى حلب لاجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبى سالم همام فانفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته وطيف به فى دمشق قلت وابن همام هذا هو الذى ذكره الشباسى فى قصيدته وأشار الى حلق لحيته بقوله

كابى سالم بن همام لما * قام للنصح عاديمشى ملثم

ثم قال ابن أبى طى واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر وكان يفوق الناس جميعا فى لعب الكرة وكان نور الدين يحب لعب الكرة قال أبو يعلى ونزل نور الدين بعسكره بالاعمال المختصة بالملك قليج أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قيلمش ملك قونية وما والاها فملك عدة من قلاعها وحصونها بالسيف والامان وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند وتصروا عليهم فى وقعة كانت باقصرا فى شعبان فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين فى بلاده عظم عليه هذا الامر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فاجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال وبقى الامر بينهما مستمرا على هذه الحال وعاد نور الدين من حلب الى دمشق قال وولى الاسطول المصرى مقدم شديد البأس بصير باشغال البحر فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج وألبسهم ثيابهم ونهض بهم فى عدة من المراكب الاسطولية وأقلع فى البحر لكشف الاماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ثم قصد مينا صور وقد ذكر له ان فيه بطورة رومية كبيرة فيها رجال كثير ومال وافر فهجم عليها وملكها وقتل من فيها واستولى على ما حوته وأقام ثلاثة أيام ثم أحرقها وعاد عنها فى البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج فقتل وأسر وانتهب وعاد مصر بالغنائم والاسرى قلت وفى هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد وهو المقتفى الى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره ان يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج جديدا قد ألبس جميع خشبه فضة وطلى بذهب وان يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير اليه خشب الباب القديم مجردا ليجعله تابوتا يدفن فيه عند موته وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال سألنى أمير الحرمين ان ابيع له الفضة التى أخذها من الباب فى اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت الى زبيد وعدت من مكة فى صفر سنة احدى وخمسين وحججت فى الموسم منها فدفعت لامير الحرمين ماله والزمنى الترسل عنه الى مصر يعنى مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام

﴿ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة﴾ قال ابن الاثير فيها حاصر نور الدين قلعة حارم وهى حصن غربى

حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهى من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه لمنعه وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون الى رأيه فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها وان حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه ففعلوا ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين فى الصلح على ان يعطوه حصة من حارم فأبى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية فأجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد وفى ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير وقد سبق ان ابن منير توفى فى سنة ثمان وأربعين فاما ان يكون ابن منير قال هذا الشعر فى غير هذه الغزاة واما ان تكون هذه الغزاة فى غير هذه السنة وقد قرأت فى ديوان ابن منير وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم

ما فوق شأوك فى العلى مزداد ❊ فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا ❊ فالشهب اطناب لها وعماد
أنت الذى خطبت له حساده ❊ والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلندد ❊ وانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها ❊ ارج المهب ودوحها مياد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعها ❊ فالبرض نجم والهشيم مراد
فالعيش الا فى جنابك ميتة ❊ والنوم الا فى حماك سهاد
واذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا ❊ كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها ❊ جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحى الكماة صفورها ❊ فالزجر قيد والندى قياد
سحب اذا سحبت بأرض ذيلها ❊ فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدى النواظر فى دجنة نقعها ❊ بدر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يانوره ❊ عزا له فوق السها إسعاد
مازلت تسمكه بمياد القنا ❊ حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه ❊ عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما ❊ حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن جنت منك الاعادى مهلة ❊ فلهم الى المرعى الوبى معاد
ولكم لكم فى أرضهم من مشهد ❊ قامت به لظبا كم الاشهاد
ملق باطراف الفرنجة كلكلا ❊ طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا حوض الردى ❊ حاموا برانش كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة ❊ حوما بحارم والمصاد مصاد
ضجت ثعاليه فأخرس جرسها ❊ بيض تناسب فى الحديد حداد
وسواعد ضربت بهن وبالقنا ❊ من دون ملة أحمد الاسداد
يركزن فى حلب ومن افنانها ❊ تجنى فواكهه أمنها بغداد
يامن اذا عصفت زعازع بأسه ❊ خمدت جحيم الشرك فهى رماد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا ❊ عودا فواتاهم اليه مراد
ورأوا لواء النصر فوقك خافقا ❊ فأقام منهم فى الضلوع فؤاد
من منكر ان ينسف السيل الربا ❊ وأبوه ذاك العارض المداد
أو ان يعيد الشمس كاسفة السنا ❊ نار لها ذاك الشهاب زناد

لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـــعلياء حتى ترفع الاولاد
ملك يقيد خوفه ورجاؤه ❊ ولقلما تتظافر الاضداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أولها (لملك ماتشاء من الدوام) يقول فيها

حظيت من المعالى بالمعانى ❊ ولاذ الناس بعدك بالاسامى
عـزيز المنتمى عالى المراقى ❊ بعيد المرتمى غالى المسامى
فما أحد الى العلياء يدلى ❊ بمجدك القسيمى القسامى
أبوك المعتلى قمم الاعادى ❊ اذا استعرت مذامرة التمام
زكا عرق العراق وقد تكنى ❊ به وأطال من شمم الشآم
وجدك جد حتى قال قوم ❊ على الفلك أبتنى عمد الخيام
فخــرت ففت آباء عظاما ❊ اذا فخر المنافــر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات ❊ وروح العنبرى الختام
أساطر كالزبور مفصلات ❊ كأنا من صلاة فى نظام
لدى ملك سجاياه سجال ❊ تعاقب بين عفو وانتقام
كريم أكثرت يده أيادى الـــعفاة وقلت عدد الكرام
فأهلنا السالفـــتى هلال ❊ وكفرنا الضا حكتى حسام
ذهلنا والسماط تخال سمطا ❊ وقد سجد المقاول للسلام
هل الدست استقل بليث غاب ❊ أم الفلك ارتدى بدر التمام
يطـــربه الى العلياء نفس ❊ غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام ❊ اذا طرب الملوك الى المدام
سقى الله العوامل من جبال ❊ سعفن النفع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم ❊ بها وحسمت من داء عقام
بآبب والرعال كأن ثولا ❊ تطاوح تحت عير من ايام
مقام كنت قطب رحاه أرجى ❊ مقام بين زمزم والمقام
رميتهـــم بارعن مرجحن ❊ ابارهم وكنت أبر رام
وقت وقد تناعس كل راع ❊ وقام وقد تقاعس كل حام
فايدى الخيل تذرع بحر لج ❊ من الدم من يد التشخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما ❊ عـزيز القوم معتدل القوام
وفى شجراء حارم شاجرتهم ❊ سواهم كالسهام بكالسهام
فلو قد مثل الاسلام شخصا ❊ لرشف ماوطئت من السلام
فاكذب مدعين هفوا وغروا ❊ بان الارض تخلو من همام
أولى الابصار كم هذا التعاشى ❊ عن النور المبين بل التعامى
عن القمر الذى يجلوه ظل الـــعواصم فى ضيا الليل التهامى
هو المهدى لا من ضل فيه ❊ كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ماء يعـــنى ❊ به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق ❊ أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى استـــتوت بين الفوارس والنعام

تطابق لاسمه لفظ ومعنى ❊ أحلاه الطباق على الانام
جرى قدّامه ابن سبكتين ❊ وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى ❊ اليه من عنايات التسامى
وجئت فصار أشمخ ما بناه ❊ لما شيدت الطأ من رغام
أطاعك اذ أطعت الله جدّ ❊ ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يا ربما اتفق الاسامى ❊ وفاضل بينها درج التسامى
جنى شرفا من استغواه حتف ❊ اليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت ❊ كأنك من طعان فى طعام

﴿فصل﴾ قال الرئيس أبو يعلى توجه نور الدين الى ناحية حلب فى بعض عسكره فى الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج اليه بعيثهم فى أعمال حلب وافسادهم وصادف فى طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبى بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤس الافرنج المذكورين وطيف بها فى دمشق قال وعاد نور الدين الى دمشق فى بعض أيام رمضان سالما بعد تهذيب حلب واعمالها وتفقد أحوالها واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ما كان حدث بينهما وفى شوّال تقررت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الافرنج مدّة سنة كاملة أوّلها شعبان وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية ألف دينار صورية وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالايمان والمواثيق المشدّدة قال وفى العشر الآخر من ذى الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقرّ من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وكفرة من الفرنج فى البحر وقوة شوكتهم بهم ونهضوا الى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس وقد اجتمع فيها من جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحى الضياع ومواشى الحلابين والعرب والفلاحين الشئ الكثير الذى لا يحصى فيذكر للحاجة الى الرعى بها والسكون الى الهدنة المستقرّة ووقع للمندوبين بحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع من أسروه من تركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين والله عادل فى حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتى فى حوادث السنة الآتية وفيها توفى القاضى أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس كاتب الانشاء بالحضرة المصرية وأصله من دمياط ذكره العماد الكاتب فى الخريدة وأثنى عليه ومن شعره فى رجل كان يكثر التكبير فى آخر الصلاة

وفاتر النيـة عنينها ❊ مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين فى مرة ❊ كأنه صلى على حمزه

وله فى وصف كتاب

مداده فى الطرس لما بدا ❊ قبلة الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما ❊ أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغنى ان القاضى الفاضل كان يعظمه كثيرا ويسميه ذا البلاغتين وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا الا فى ركوبه من القصر الى منزله بمصر ومن منزله الى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه فى فنون الكتابة والآداب والشعر قال وفيها فى يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الاوّل من هذه السنة توفى الفقيه الزاهد أبو البيان نبأ بن محمد المعروف بابن الحورانى وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا الى ان قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محبا للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب وكان له عند خروج سريره لقبره فى مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضى الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه قلت وفى هذه السنة والتى بعدها كثرت الزلازل بالشام قال أبو يعلى فى ليلة الثانى والعشرين من ربيع الاوّل وافت زلزلة هائلة وجاءت قبلها وبعدها مثلها فى النهار وفى الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهن بحيث أحصين ست مرات وفى ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها فى أوّل النهار وآخره وتواصلت الاخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع

كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية بهذه الزلازل المباركة وذكر ان الذى أحصى عدده منها تقدير الاربعين وما عرف مثل ذلك فى السنين الماضية والاعصار الخالية وفى التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية فى آخره وفى أول شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة وفى ثالث رمضان ثلاث زلازل وأخرى وقت الظهر وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل وفى ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق وعند الصباح أخرى وفى الليلة التى يليها زلزلتان أوّلها وآخرها وفى اليوم الذى بعد يومها وفى ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة وفى ثانى شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم وفى سابعه وسادس عشره وفى اليوم الذى جاء بعده أربع زلازل وليلة الثانى والعشرين منه ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ماخاف أهلها من توالى ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم فله الحمد والشكر لكن وردت الاخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها وأما شيزر فان الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير وأما كفرطاب فهرب أهلها منها خوفا على أرواحهم وأمّا حماه فكانت كذلك وأمّا باقى الاعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة والله أعلم ﴿ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة﴾ ففى ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة وتلاها أخرى وكذا فى ليلة العشرين واليوم بعدها وتواصلت الاخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل وفى ليلة الخامس والعشرين من جمادى الاولى وافت أربع زلازل وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس وفى ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الاخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت فى حلب تأثيرا أزعج أهلها وأقلقهم وكذا فى حمص وهدمت مواضع فيها وفى حماه وكفرطاب وافامية وهدمت ما كان بنى من مهدوم الزلازل وحكى ان تيما أثرت فيها هذه الزلازل تأثيرا مهولا وفى رابع رجب نهارا وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم ير مثلها فيما تقدّم ودامت رجفانها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهربوا من الدور والسقائف وانزعجوا وأثرت فى مواضع كثيرة ورمت من فص الجامع الشئ الكثير الذى يعجز عن اعادته ثم وافت عقيبها زلزلة فى الحال ثم سكنتا بقدرة من حركهما ثم تبع ذلك فى أوّل ليلة اليوم المذكور زلزلة وفى وسطه زلزلة وفى آخره زلزلة وفى ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس وتلاها فى النصف منها ثانية وعند انبلاج الصبح ثالثة وكذلك فى ليلة السبت وليله الاحد وليلة الاثنين وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح ووردت الاخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والاطفال والنسوان وهم العدد الكثير والجم الغفير بحيث لم يسلم منهم الا القليل اليسير وأمّا شيزر فان ربضها سلم الاما كان خرب أوّلا وأمّا حصنها المشهور فانه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه الا اليسير ممن كان خارجا وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قد اختلفوا منها الى ظاهرها فسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها وأمّا حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها الى ظاهر البلد وكفرطاب وافامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل الى جبلة وجبيل وأتلفت سلمية وما اتصل بها الى ناحية الرحبة وما جاورها ولو لم يدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخطب أفظع وقد نظم فى ذلك من قال

روّعتنا زلازل حادثات ❊ بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة ❊ أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وحصونا ❊ وثغورا موثقات البناء
واذا ما رنت عيون اليها ❊ أجرت الدمع عندها بالدماء
واذا ماقضى من الله أمر ❊ سابق فى عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا ❊ ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكى العيـ ❊ ـن مروعا من سخطة وبلاء
جل ربى فى ملكه وتعالى ❊ عن مقال الجهال والسفهاء

قال

قال وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والاماكن المسقفة الى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفا على أنفسهم ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس الى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون الى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم قال وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها ووافت الاخبار من ناحية حلب بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير وانها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وانها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت تلتجئ اليها وانها دامت فيها أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة فسبحان من له الحكم والامر وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ فلما كان ليلة السبت العاشر من شوّال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء الآخرة أزعجت وأقلقت وتلاها في اثرها هزة خفيفة وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفر الناس من هولها الى الجامع والاماكن المنكشفة وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرّع الى الله تعالى وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الارض وانزعج لها الناس * وقال ابن الاثير في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد واهلكت العباد وكان أشدّها بمدينة حماه وحصن شيزر فانهما خربا بالمرّة وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة وغيرهما من البلاد والقرايا وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه الا الله تعالى وتهدّمت الاسوار والدور والقلاع ولولا انّ الله تعالى منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد والا كان دخلها الافرنج بغير حصار ولا قتال قال ولقد بلغني من كثرة الهلكى انّ بعض المعلمين بحماه ذكر انه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب قلت وقرأت في ديوان الامير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة احدى وخمسين وخمسمائة وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة قال وكتب هذا المكتوب والزلازل الى الآن تتعاهد البلاد

نعاعن الموت والمعاد وأصبحـ ــنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذى الزلازل أى * تيقظوا كم ينام من ناما

وقال أيضا

ايها الغافلون عن سكرة المو * ت واذ لا يسوغ في الحلق ريق
كم الى كم هذا التشاغل والغفـ ــلة حار السارى وضل الطريق
انما هزت الزلازل هذى الـ ــارض بالغافلين كى يستفيقوا

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور والنزهة في أكواخ عملوها بالاخشاب لئلا تهدّها الزلازل

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من * هذى الزلازل فهى الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم * ركاب بحر مع الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم * لمصرع السلف الماضين يرتقب
تعوّضوا من مشيدات المنازل بالـ ــأكواخ فهى قبور سقفها خشب
كأنها سفن قد أقبلت وهم * فيها فلا ملجأ منها ولا هرب

وقال يرثى أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها

ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم * ولا تخرمهم مثنى ووحدانا
فكنت اصبر عنهم صبر محتسب * وأحمد الخطب فيهم عز او هانا
واقتدى بالورى قبلى فكم فقدوا * أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لكن سقيت المنايا وسط جمعهم ❊ رغاخروا على الاذقان اذعانا
وفاجأتهم من الايام قارعة ❊ سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا
ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا ❊ هل ما ترى تارك للعين انسانا
اعزز على بهم من معشر صبروا ❊ على الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لم يترك الدهر لى من بعد فقدهم ❊ قلبا أجشمه صبرا وسلوانا
فلو رأونى لقالوا مات أسعدنا ❊ وعاش للهم والاحزان اشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرنى ❊ عنهم فيوضح ماقالوه تبيانا
بادوا جميعا وماشادوا فواعجبا ❊ للخطب أهلك عمارا وعمرانا
هذى قصورهم أمست قبورهم ❊ كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل أفنت معشرى فاذا ❊ ذكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا
لا اتقى الدهر من بعد الزلازل ما ❊ حييت الا كسير القلب حيرانا
أخنت على معشرى الادنين فاصطلمت ❊ منهم كهولا وشبانا وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت ❊ بأسا تبادره الاقران ازمانا
ان اقفرت شيزر منهم فهم جعلوا ❊ منيع اسوارها بيضا وخرصانا
هم حموها فلو شاهدتهم وهم ❊ بها شاهدت اسادا وخفانا
تراهم فى الورى أسدا ويوم ندى ❊ غيثا مغيثا وفى الظلماء رهبانا
بنو أبى وبنو عمى دمى دمهم ❊ وان أرونى مناواة وشنآنا
يطيب النفس عنهم انهم رحلوا ❊ وخلفونى على الاثار عجلانا

وكتب اليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها

بأبى شخصك الذى لا يغيب ❊ عن عيانى فهو البعيد القريب
ياأخلاى بالشام ان غبتم فشوقى اليكم لا يغيب
غصبتنا الايام قربكم منا ولا بد ان تردّ الغصوب
كره الشام أهله فهو محقو ❊ ق بأن لا يقيم فيه لبيب
ان تجلت عنه الحروب قليلا ❊ خلفتها زلازل وخطوب
رقصت ارضه غشية غنى الرعد فى الجوّ والكريم طروب
وتثنت حيطانه اذ أمالتها شمال بزمرها وجنوب
لا هبوب لنائم من أمانيه وللعاصفات فيها هبوب
وأرى البرق شامتا ضاحك السن وللجوّ بالغمام قطوب
ذكروا انه يذوب به السحب فما للصخور أيضا تذوب
أيذنب أصابها قدر الله فللارض كالانام ذنوب
ان ظنى والظن مثل سهام الرمى منها المخطى ومنها المصيب
ان هذا الآن غدت ساحة القد ❊ س وما للاسلام فيها نصيب
منزل الوحى قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر وبارى الناقوس فيه الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا ❊ ذكروا انه له منسوب
لهف نفسى على ديار من السكان أقوت فليس فيها مجيب
ان تخصيصكم نوائب مازا ❊ لت لكم دون من سوا كم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـــــاس قوم الاههم مصلوب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الديـن واصبر فالحادثات ضروب
فكذاك القناة يكسر يوم الـــــروع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت فى ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل فى بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذى هما فيه فقال العرقلة

قل لصلاح الدين رب الندى ❊ بلغ عبيدا كل ما أمله
بثقـــله لما انضاجسمه ❊ سلمك الله من الزلزله

وقرأت فى بعض كتب أبى الحسين الرازى عن شيوخه انه وقع بدمشق فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حكى عنها نحو مما مضى ذكره وأكثر نسأل الله تعالى تمام العافيه.

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى فى ثالث عشر ربيع الاوّل توجه نور الدين الى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها وتواصلت الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الاعمال وفى خامس عشر ربيع الاوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى اليه خبر الفرنج انهم قد انهضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس لتقويتها أسرع النهضة اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم وقد كان كمن لهم فى مواضع كنا من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم فى أوّل المجال وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين بحيث لم ينج منهم الا القليل وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وحصل فى أيدى المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤس قتلاهم ما لا يحد كثرة ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الافرنج ومسلمى جبل عاملة المضافين اليهم ووصلت الاسرى ورؤس القتلى والعدد الى دمشق وطيف بهم وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق وكان يوما مشهودا وأنفذ نور الدين الى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم صبرا قال وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير اليه من شجعان التركمان وانه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت فى معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت وتخطف التركمان منهم من ظفروا به قال ووصل أسد الدين الى بعلبك فى العسكر من مقدمى التركمان وابطالهم للجهاد وهم فى العدد الكثير والجم الغفير واجتمعوا بنور الدين وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق فى اخراج آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه وأمر بالنداء بدمشق فى الغزاة والمجاهدين فتبعه من الاحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الاوّل وفى سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابة الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين فى التركمان والعرب بأنّ الافرنج خذلهم الله تعالى انهضوا سريّة من أعيان مقدّميهم وابطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم فى قل ولم يعلموا انهم فى ألوف فلما دنوا منهم وثبوا اليهم كالليوث الى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والاسر والسلب ولم يبق منهم الا اليسير ووصلت الاسرى ورؤس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات الى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالى اليوم المذكور قال وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من العسكر المحروس ببانياس فى يوم الثلاثاء تلو المذكور يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضى أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهى النقب واطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرجال فيه وبذل السيف فى قتل من فيه ونهب ما حواه وانهزام من سلم الى القلعة وانحصارهم بها وان أخذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطئ والله يسهله ويعجله قال واتفق بعد ذلك ان الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفرى صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا بالغوا فى السؤال لنور الدين الامان ويسلمون ما فى أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين فلم يجبهم الى ما سألوه ورغبوا فيه فلما وصل

ملك الافرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها والنازل على الطريق لمنع الواصل اليها اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا اليها واستخلصوا من كان فيها وحين شاهدوا ما عم بانياس من اخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها قال وفي تاسع جمادى الاولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأن الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف ان معسكر الكفرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الاتراك والعرب وجد في السير فلما شارفهم وهم غيار ون وشاهدوا راياته قد أظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الابطال وارهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام ودهمهم البوار والحمام فأنزل الله نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا واستأصلت السيوف الرجالة وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة نفر وقيل ان ملكهم لعنه الله فيهم وقيل انه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الابطال المذكورين وقتل عند حضور أجله الى رحمة الله والآخر غريب لا يعرف وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله وقتل أربعة من شجعان الكفرة وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم واثاث سوادهم وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهوره وكان فتحا مبينا ونصرا عزيزا ووصلت الاسرى ورؤس القتلى الى دمشق يوم الاحد تالي يوم الفتح وقد رتبوا على كل جمل فارسين من ابطالهم ومعهما راية من راياتهم منشوره وفيها من جلود رؤسهم بشعرها عدة والمقدمون منهم وولاة المعاقل والاعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان لما يشاهدونه مما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي عنهم المرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى

ما رأينا فيما تقدم يوما ❊ كامل الحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ❊ ذلة الاسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زفوا ❊ بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر ❊ في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الاعادي ❊ عند شن الاغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار كان وبالا ❊ عمهم في صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل ❊ بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان منهم ❊ من فساد بجهلهم واعتداء
لا حمى الله شملهم من شتات ❊ بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر ❊ وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر ❊ دائم مع تواصل النعماء

قال وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها والله المعين والموفق وقال ابن أبي طي في سنة اثنتين وخمسين اغارت الفرنج على بلد حمص وحماه وأفسدوا وأكثروا العيث واتصل ذلك بنور الدين فانهض اليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم الى أرض بانياس وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشد حصار حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الاول وأخذ جميع ما كان للافرنج فيها وأنفذ الغنيمة والاسارى مع أسد الدين الى دمشق وأنفذ معه مقدار ألف رأس واتصل ذلك بالفرنج فأنهضت الى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لامته وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر وغنم منهم غنيمة حسنة وعاد الى

اصحابه ظافرا وتوجه فى وجهته مؤيدا

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى وفى العشر الثانى من جمادى الآخرة تواصلت الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود فى خلق كثير للنزول على انطاكية وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الافرنج وتكررت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الامر ولم يستقر على مصلحة ووصل نور الدين الى مقر عزه فى بعض عسكره وأقر باقيه ومقدميه مع العرب بازاء أعمال المشركين قال وفى ثالث رجب توجه نور الدين الى ناحية حلب واعمالها لتجديد مشاهدتها وامعان النظر فى حمايتها عندما عاث المشركون فيها وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها قال بعد ذلك وقد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه فى عساكره من دمشق الى بلاد الشأم عند انتهاء الخبر اليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل فى اعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفرطاب وحماه وغيرها بحيث اجتمع اليهم العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والاعمال والتركمان وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من انطاكية وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الاقدام على الفساد فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتد به وخاف منه على نفسه استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الامراء والمقدمين وأوصى اليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه وقرر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم فى منصبه من بعده والسادلثلمة فقده لاشتهاره بالشهامة وشدة البأس يكون مقيما بحلب ويكون أسد الدين فى دمشق فى نيابة نصرة الدين واستحلف الجماعة على هذه القاعدة فلما تقررت اشتد به المرض فتوجه فى محفة الى حلب وحصل فى قلعتها وتوجه أسد الدين الى دمشق لحفظ اعمالها من فساد الافرنج وتواصلت الاراجيف بنور الدين فقلقت النفوس وانزعجت القلوب فتفرقت جموع المسلمين واضطربت الاعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا ونهبوا وتجمع من عدة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلية وغيرهم وظهروا عليهم فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر واتفق وصول نصرة الدين الى حلب فأغلق والى القلعة مجد الدين فى وجهه الابواب وعصى عليه فثارت احداث حلب وقالوا هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه فزحفوا فى السلاح الى باب البلد وكسروا اغلاقه ودخل نصرة الدين فى أصحابه وحصل فى البلد وقامت الاحداث على والى القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها اعادة رسمهم فى التأذين بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر فأجابهم الى مارغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد ونزل فى داره وأنفذ والى القلعة اليه والى الحلبيين يقول مولانا نور الدين حى فى نفسه وما كان الى ما فعل حاجة فقيل الذنب فى ذلك للوالى وصعد الى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له فأنكر ما جرى وقال أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل وما طلبوا الا صلاح حال أخى وولى عهدى من بعدى وشاعت الاخبار وانتشرت البشائر فى الاقطار بعافيته فأنست القلوب بعد الاستيحاش وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج وتزايدت العافية وصرفت الهمم الى مكاتبات المقدمين بالعود الى جهاد الملاعين وكان نصرة الدين قد ولى مدينة حران وما أضيف اليها وتوجه نحوها ولما تناصرت الاخبار بالبشائر الى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق الى حلب ووصل اليها فى خيله فاجتمع بنور الدين فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا فى حماية الاعمال من شر عصب الكفر والضلال قال ونظمت هذه الابيات فى هذا المعنى

لقد حسنت صفاتك يازمانى * وفزت بما رجوت من الامانى
فكم أصبحت مرتاعا لخوف * فبدلت المخافة بالامان
وجاءتنا أراجيف بملك * عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا * وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تخشى أذاها * على الاسلام فى قاص ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق * بعافية المليك مع التهانى

فولى الخوف منهدم المبانى ❁ وعاد الامن معمور المغانى

قال ابن أبى طى وفى هذه السنة كانت الزلزلة التى هدمت شيزر فخرج نور الدين وأخذها من بنى منقذ وسلمها الى مجد الدين بن الداية وسار الى سرمين لانه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هنالك مرض أشفى منه فاحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وان يكون الامر بعده لاخيه نصرة الدين أمير أميران فسار أسد الدين الى دمشق وأقام ببرج الصفر خوفا ان يتحرك الفرنج الى جهة دمشق أو غيرها ولم يزل هنالك حتى تعافى نور الدين فعاد الى خدمته مهنئا له بالعافية وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب فى مدة مرض نور الدين فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره الى حران وجعل ولى عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل قال وكان مجد الدين طمع فى الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب الى الناس وجعل له أصحاب أخبار وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين اليها قلت ولابن منير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرض غير هذا

يا شمس لا كسف ولا تكدار ❁ ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل ❁ لك السرايا وله السرار
برؤك للاسلام من ادوائه ❁ بر وفى اعدائه بوار
ما أنت الا السيف صد صدأ ❁ عن متنه مضربه البتار
لو كان مجمولا أذى عن منفس ❁ لجلته دونك الابصار
ولو فدت أرض سماء ساقت الـ ❁ ملوك فى فدائك الامصار
أنت غياث محلهم ان أجدبوا ❁ وخيرهم ان ذكر الخيار
وفى سرير الملك منها ملك ❁ لله فى سرائه اسرار
خير ملوك الارض جدا وابا ❁ ان هز عطفى ماجد نجار
مد على الدين رواق دولة ❁ تنازعت أسمارها السمار
علت بناه وحلت فى يده ❁ فهى عليه السور والسوار
محمود المحمود عصر ملكه ❁ فللحيا من مزنه اعتصار
يا نور دين أظلمت آفاقه ❁ لولم تبلج هذه الاثار
لله أيامك ما تخطه ❁ بالمسك من اسفارها الاسفار
سلمت للاسلام ترعى سرحه ❁ اذا دنا رعاته وجاروا
شكوت فالدنيا على سكانها ❁ قرارة جانبها القرار
كادت تموت الارض من اشفاقها ❁ لولا شفاء ردها تمار
زرت عليك الترك حبيب نسب ❁ يحسدها برنه نزار
لا عدمت منك الامانى ريها ❁ معطى من الاقبال ما يختار
ما سمح الدهر بان تبقى لنا ❁ فكل جرح مسنا جبار

وله من قصيدة أخرى

لا نؤدى لانعم الله شكرا ❁ بك يا أعظم البرية قدرا
روز عشر وافى لاقلاع ذا ❁ جعلا المنة المناة عشرا
أم مغناك ضامنا ان أيا ❁ مك تفنى الاحقاب عصرا فعصرا
فى محل له السما كان سمك ❁ وجدودها المجرة مجرى
أيها العادل المظفر لاقصت شبا الدهر من شباتك ظفرا
جعل الله ما استهل من الاشهر ينهل فى مغازيك نصرا
أبدا ينشر التهانى على سا ❁ حتك الزهر فى المواسم نشرا

أنت أسرى الملوك نفسا وفلسا ❊ والى اسرهم من الطيف اسرى
ملك عنده المشارب تستمرى واخلاف الجود تمرى فتفرى
فلك الله من مثمر بذر ❊ يصطفى صالحا ويحصد أجرا
عش لملك اصبحت فى الدست منه ❊ فوق كسرى عدلا وشعبا وكسرا
تفطر الطيبات للفطر فطرا ❊ وتم الاعداء فى النحر نحرا
يقتنى من كساك أنفس ملبو ❊ س ويقنيك منه أطول عمرا
أنت تملى ونحن ننظم ماتنـ ـثره الغرمن مساعيك نثرا
صرف الله عنك عين زمان ❊ بك صارت بعد الاصابة عبرى
وتوالت لك الفتوح الى ان ❊ تملأ الخافقين نهيا وأمرا
كلما انهجت ملابس نعمى ❊ وتمليتهن جددت أخرى

وقال القيسرانى من قصيدة

أشرق البدر يا جبين الهلال ❊ فلاه لوجهك المتلالى
عن ليال حجبن عنا سناها ❊ انما غيبة الهلال ليالى
لم يكن ماألم يا نجم شكوى ❊ فتهنى لوافد الاقبال
لا ولا كان زائرا من سقام ❊ انما كان طائفا من خيال
وعكة أقلعت وأنت صحيح ❊ ويصح النسيم بالاعتلال
أوما هذه السماء سرار الـ ـبدر فيها على طريق الكمال
نعمة الله لا يخص بها الخا ❊ لق الا من كان منه ببال
ولباس من المثوبة والغفـ ـران ألبست صافى الاذيال
فهنيئا لك البقاء وان كا ❊ ن هناء يخص فيه المعالى
والتقى والندى ومعربة الخيـ ـل وبيض الظبى وسمر العوالى
والخلال التى اذا ما تحلت ❊ صدرت منك عن كريم الخلال
ان وقتك النفوس ماتتوقى ❊ فحقيق فدى الموالى الموالى
أو تحصنت فى شعار من التقـ ـوى فما زلت منه فى سربال
فشفى الله من أجل دوائـ ـيه صريح الدعاء والابتهال
ملكا أبدل المخافة بالامـ ـن وأضحى يعد فى الابدال
وهو تاج الملوك فالملك العا ❊ طل حال به على كل حال
واذا النيران غا با فنور الديـ ـن شمس بجرية الاصال
قد أرت وجهك العلى ما ريها ❊ وهى مرآة صالح الاعمال
وقضى الله ان نجمك فى الانجـ ـم سام وان جدك عال
كل يوم هذا المحيا محيى ❊ بالتهانى على يد الاقبال

(فصل) فى ذكر حصن شيزر وولاية بنى منقذ قال ابن الاثير وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال له طريق منقور فى طرف الجبل وقد قطع الطريق فى وسطه وجعل عليه جسر من خشب فاذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح ابن مرداس الى ان انتهى الامر الى الامير أبى المرهف نصر بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبى الحسن على فبقى به مدة طويلة الى ان مات بشيزر سنة احدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما صواما قواما فلما حضره الموت استخلف أخاه الامير ابا سلامة مرشد بن على وهو والد أسامة فقال والله لا وليته ولاخرجن

من الدنيا كما دخلها وكان عالما بالقرآن والادب كثير الصلاح فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا ومنهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه أولاد فحسد أخاه على ذلك فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه فكتب الامير سلطان الى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بأبيات جيدة في معناها وكلهم كان أديبا شاعرا فقال

ظلوم أبت في الظلم الا تماديا ❋ وفي الصدّ والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها ❋ فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما ❋ عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلا ❋ وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها ❋ وان هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر ❋ جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه ❋ تولى برغمي حين ولى شبابيا
وأين من الستين لفظ مفوق ❋ اذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بنيّ واسرتي ❋ ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم مالم أكلفه فعله ❋ لنفسي فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما ان حنى الدهر صعدتي ❋ وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة ❋ وقربك مني جفوة وتنائيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته ❋ كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على انني ماحلت عما عهدته ❋ ولا غيرت هذي السنون ودادیا
فلا غرو عند الحادثات فانني ❋ أراك يميني والانام شماليا
تهن بها عذراء لو قرنت بها ❋ نجوم سماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها ❋ كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش بانيا للجود ما كان واهنا ❋ مشيدا من الاحسان ما كان واهيا

قال وكان الامر فيه في حياة الامير بعض الستر فلما مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب اخوه لاولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم وتمادت الايام بينهم الى ان قوي عليهم فاخرجهم من شيزر وكان أعظم الاسباب في اخراجهم ما حدّثت به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد قال كنت من الشجاعة والاقدام على ما علمه الناس فبينا أنا بشيزر واذا قد أتاني انسان اخبرني ان بدجلة يغار بها أسد ضاريا فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت اليه لاقتله ولم أعلم أحدا من الناس لئلا امنع من ذلك فلما قربت من الاسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه فلما رآني قصدني ووثب فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ثم اجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت الى شيزر ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال فقالت يابني تجهز للخروج من شيزر فوالله لايمكنك عمك من المقام ولا أحدا من اخوتك وأنتم على هذه الحال من الاقدام والجرأة فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده والزمنا به الزاما لا مهلة فيه فتفرقنا في البلاد فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا اليه ما لقوا من عمهم فلم يمكنه قصده ولا الاخذ بثارهم واعادتهم الى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه من ان تسلم شيزر الى الفرنج وبقي في نفسه وتوفي الامير سلطان وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن فبادر اليها وملكها واضافها الى بلاده وعمرها واسوارها واعادها كأن لم تخرب وكذلك أيضا فعل بمدينة حماه وكل

ماخرب

ماخرب بالشام بهذه الزلزلة فعادت البلاد كاحسن ما كانت قلت وسيأتى ذكر اسامة بن مرشد فى أخبار سنة اثنتين وسبعين وهى السنة التى قدم فيها دمشق من بلاد الشرق وذلك انه لما خرج من شيزر استوطن دمشق ثم فارقها الى الديار المصرية وكتب الى معين الدين انر اتابك صاحب دمشق يعاتبه فى أسباب المفارقة قصيدة أولها

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا ❊ فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوما بفكرى ما يريبهم ❊ ولا سعت بى الى ما ساءهم قدم
ولا اضعت لهم عهدا ولا أطلعت ❊ على ودائعهم فى صدرى التهم
فليت شعرى بم استوجبت هجرهم ❊ ملوا فصدّهم عن وصلى السأم
حفظت ما ضيعوا اغضيت حين جنوا ❊ وفيت اذ غدروا واصلت اذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم ❊ ما الرزق الا الذى تجرى به القسم
وبعد لو قيل لى ماذا تحب وما ❊ تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتىّ ومن ❊ قلبى محل المنى جاروا أو احترموا
تبدّلوا بى ولا ابغى بهم بدلا ❊ حسبى هم انصفوا فى الحكم أو ظلموا
بلغ أميرى معين الدين مالكة ❊ من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ ❊ حياء والدين والاقدام والكرم
هل لائق حياء أو محافظة ❊ من فعل ما انكرته العرب والعجم
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ❊ ولم يرو سنان السمهرى دم
وكنت احسب من والاك فى حرم ❊ لا يعتريه به شيب ولا هرم
وما طمان بأولى من اسامة بالـ ❊ وفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها ❊ عذر فما ذا جنى الاطفال والحرم
القيتهم فى رضى الافرنج متبعا ❊ رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
جرّبهم مثل تجريبى لتخبرهم ❊ فللرجال اذا ما جربوا قيم

وهى طويلة وطمان المذكور خادم تركى كان لاتابك ملك الامراء زنكى بن اق سنقر هرب من خدمته الى دمشق فطلبه ولج فيه فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه فلما لج فيه سيره للعرب وقام له بما يحتاج الى ان ردّه لخدمته بدمشق وبقى اسامة بمصر الى ان خرج منها مع عباس كما سبق ذكره وأسر الفرنج اخاه نجم الدولة محمد بن مرشد وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانة فى فكاكه فلم يفعل قال وادّخر الله سبحانه اجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله فوهبه فارسا من مقدمى الداوية يقال له المشطوب قد بذل للافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه من الاسر وبلغ اسامة ان القاضى كمال الدين بن الشهرزورى أنشد نور الدين

ملك بنى منقذ تولى ❊ وكان فوق السماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا ❊ سبحان من لا يزول ملكه

والمعروف ملك بنى برمك فغيره المنشد لما تمثل به فى غرضه فاجازهما اسامة بهذه الابيات

وكل ملك الى زوال ❊ لا يعترى ذا اليقين شكه
ان لم يزل بانتقال حال ❊ ازال ذا الملك عنه هلكه
والله رب العباد باق ❊ وهالك نده وشركه
فقل لمن يظلم البرايا ❊ غرك امهاله وتركه
تنسى ذنوبا عليك تحصى ❊ يحصرها نقده وحكه
كم ناسك نسكه رياء ❊ أوبقه فى المعاد نسكه

فاحذر فما يخفى عليه ✽ من عبده صدقه وافكه

وما أحسن ما قال اسامة فى كبره

مع الثمانين عاث الضعف فى جلدى ✽ وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
اذا كتبت فخطى خط مضطرب ✽ كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلما ✽ من بعد حطم القنا فى لبة الاسد
وان مشيت وفى كفى العصى ثقلت ✽ رجلى كانى أخوض الوحل فى الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته ✽ هذى عواقب طول العمر والمدد

(فصل) فى بواقى حوادث سنة اثنتين وخمسين قال الرئيس ابو يعلى تناصرت الاخبار بظهور امير المؤمنين المقتفى على عسكر السلطان المخالف لامره ومن انضم اليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل منهم العدد الكثير ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهى فى المحاصرة والمصابرة قال و وردت الاخبار فى أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين ابى الحارث سنجر بن ابى الفتح بن الب ارسلان سلطان خراسان عقيب خلاصه من الشدة التى وقع فيها والاسر الذى حصل فيه وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة جميل الفعل وقد علت سنه وطال عمره وكان قد ورد كتابه فى اواخر صفر من هذه السنة الى نور الدين بالتشوق اليه والاحماد لخلاله وما ينتهى اليه من جميل افعاله واعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التى وقع فيها والاسر الذى بلى به فى ايدى الاعداء الكفرة من ملوك التركمان بحيلة دبرها وسياسة احكمها وقررها بحيث عاد الى منصبه من السلطنة المشهوره واجتماع العساكر المتفرقة عنه اليه قال وفيها فى شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين ابى البركات عبد القاهر بن ابى جرادة الحلبى وهو الأمين على خزائن مال نور الدين وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الاصول القديمة المستظرفة مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء وقال وفيها رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بان واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من اعيان خاصته وكان فيه افراط فى التحرز واستعمال التيقظ ولكن القضاء لا يغالب ولا يدافع قال وفيها فى اوائل ذى القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الامير الملقب بصلاح الدين وكان فى ايام شبيبته قد حظى فى خدمة عماد الدين زنكى وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير وحسن السفارة وصواب الرأى ولما علت سنه ضعف عن ركوب الخيل والجأته الضرورة الى الحمل فى المحفة لتقرير الاحوال والنظر فى الاعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه الى حين وفاته وخلفه من بعده أولاده فى منصبه وولايته قال وورد الى دمشق امام من أئمة فقهاء بلخ فى عنفوان شبابه وغضارة عوده ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية والاسراع فى جوابه ببراعته ولا اطيش منه قلما فى كتابته ابو الحياة محمد بن أبى القاسم بن عمر السلمى و وعظ فى جامع دمشق عدة ايام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسه قال ابن الاثير وفيها فى ذى الحجه توفى الامير عز الدين ابى بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر وكان من اكابر الامراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك وكان عاقلا حازما ذا رأى وكيد ومكر وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل اخو نور الدين

✽ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ✽ قال الرئيس ابو يعلى فى أوائل المحرم تناصرت الاخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام خذلهم الله تعالى بمضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق الى أن ضعف وملك بالسيف وتزايد طمعهم فى شن الغارات فى الاعمال الشامية واطلاق الايدى فى العيث والفساد فى معاقلها وضياعها بحكم تفرق العساكر الاسلامية والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له ولله المشيئة التى لا تدافع والاقضية التى لا تمانع وقال وفى صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه الى دمشق واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع فى شن الغارات على اعمال حوران والاقليم واطلاق ايدى الفساد والعيث والاحراق والاخراب فى الضياع والنهب والسبى والاسر وقصد داريا والنزول عليها فى انسلاخ صفر واحراق منازلها

وجوامعها والتناهى فى اخرابها وظهر اليهم العسكرية والاحداث وهموا بقصدهم والاسراع الى لقائهم وكفهم فمنعوا من ذلك بعد ان قربوا منهم وحين شاهد الكفار خذلهم الله تعالى كثرة العدد الظاهر اليهم رحلوا فى آخر النهار المذكور الى ناحية الاقليم ووصل نور الدين الى دمشق وحصل فى قلعته سادس ربيع الاول سالما فى نفسه وجملته ولقى بأحسن زى وترتيب وتجمل واستبشر العالم بقدومه المسعود وابتهجوا وبالغوا فى شكر الله تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه وشرع فى تدبير أمر الاجناد والتأهب للجهاد قال وفى اوائل ربيع الاول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها الى غزة وعسقلان واغاروا على اعمالها وخرج اليهم من كان بها من الفرنج الملاعين فاظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلا واسرا بحيث لم يفلت منهم الا اليسير وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين وقيل ان مقدم الغزاة فى البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهى مشحونة بالفرنج فقتل واسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم واثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافرا غانما قلت وارسل الى مؤيد الدولة اسامه بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزاة ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين ويذكره بما منّ الله تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها وكان كثيرا ما يكاتبه طالبا منه اعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها واول هذه القصيدة

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم * وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعداء من طول عزهم * وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها * ويوطى حماها والانوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم * وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش فى صفر فما انـ * ـثنى نصفه حتى اتثنى وهو غانم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعا * مفاوز خد العيش فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى * عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور فى قعر وكره * ويسرى الى الاعداء والليل نائم
يبارى خيولا ما تزال كأنها * اذا ما هى انقضت نسور قشاعم
يسير بها ضرغام فى كل مارق * وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ورفقته عين الزمان وحاتم * ويحيى وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بجملة * يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الاسنة وانطووا * عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
ومازالت الحرب العوان أشدّها * اذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
يشبههم من لاح جمعهم له * بلجة بحر موجها متلاطم
وعادوا الى حز السيوف فقطعت * رؤس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر * ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
نقتلهم بالرأى طورا وتارة * تدوسهم منا المذاكى الصلادم
فقولوا لنور الدين لا فل جدّه * ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز الى أرض العدوّ ولا تهن * وتظهر فتورا ان مضت منك حازم
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا * يعض عليها الملوك الاباهم
فعندك من ألطاف ربك ما به * علمنا يقينا انه بك راحم
أعادك حيا بعد ان زعم الورى * بانك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها * وحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر فى أرض شيزر * فسيقت سبايا واستحلت محارم

وقد كان تاريخ الشآم وهلكه ❋ ومن يحتويه انه لك عادم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة ❋ اليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ماقد عهدت نروعهم ❋ ونحلف جهدا اننا لانسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم ❋ وليس ينجى القوم منا الهزائم
فاسطولنا أضعاف ما كان سائرا ❋ اليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بان يجتاح باقيهم به ❋ وتحوى الاسارى منهم والغنائم

وكتب اليه أيضا

ياسيدا يسمو بهمته الى الرتب العليه
فينال منها حين يحرم غيره أوفى مزيه
أنت الصديق وان بعدت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيك ان جيوشنا ❋ فعلت فعال الجاهليه
سارت الى الاعداء من ❋ ابطالها مائتا سريه
فتغير هذى بكرة ❋ وتعاود الاخرى عشيه
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البليه
جاءت رؤسهم تلوح على رؤس السمهريه
وقلائع قد قسمت ❋ بين الجنود على السويه
وخلائق كثرت من الاسرى تقاد الى المنيه
فانهض فقد أثبيت مجد الدين بالحال الجليه
والمم بنور الدين واعلمه بهاتيك القضيه
فهو الذى مازال يخلص منه افعالا ونيه
ويبيد جمع الكفر بالبيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة ❋ يفنى بها تلك البقيه
اما لنصرة دينه ❋ أوملكه أو للحميه

وكتب اليه أيضا يقول

أيها المقتدى لانت على البعد صديق لنا ونعم الصديق
ليس فيما تأتيه من بر افعا ❋ لك للطالب الحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتب تباعا اليك مما يليق
ونناجيك بالمهمات اذانست بالقائها اليك خليق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فاشجا ❋ هم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم فاباد القوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا بزحفنا برء نور الدين علما منا بان سيفيق
وهو الآن فى أمان من الله ومايعتريه امرء يعوق
ما لهذا المهم مثلك مجد الدين فانهض به فانت حقيق
قل له لاعداه رأى ولازا ❋ ل لديه لكل خير طريق
أنت فى حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهاد أجرك كى تلقى رفيقا له ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بقصيدة منها

يا أمير الجيوش مازال للاسـ ❊ ـلام والدين منك ركن وثيق
أسمعت دعوة الجهاد فلبا ❊ ها مليك بالمكرمات خليق
ملك عادل أنار به الديـ ❊ ـن فم الاسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد ❊ ل وفعل الخيرات شغل يعوق
هو مثل الحسام صدر صقيل ❊ لين مسه وحد زليق
ذو اناة تخالها الغر اهما ❊ لا وفيها حتف الاعادى المحيق
فاسلما للاسلام كهفين ماطـ ❊ ـرز ثوب الظلام برق خفوق

وكتب اليه أيضا

قل لابن منقذ الذى ❊ قد حاز فى الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الانا ❊ م على مكارمه عيالا
كم قد بعثنا نحوك الا ❊ شعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين را ❊ مت من محاسنك الوصالا
هلا بذلت لنا مقا ❊ لا حين لم تبذل فعالا
مع اننا نوليك صبـ ❊ ـرا فى المودة واحتمالا
ونبثك الاخبار ان ❊ أضحت قصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصـ ❊ ـد الشام تعتسف الرمالا
تزجى الى الاعداء جر ❊ د الخيل اتباعا توالا
تمضى خفافا للمغا ❊ ربها وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الاعا ❊ دى من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر ❊ لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عمن يحـ ❊ ـف بها يمينا أو شمالا
نهضت اليها خيلنا ❊ من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة وبيـ ❊ ـض الهند والاسل النهالا
فغدت كأن لم يعهدوا ❊ فى أرضها حيا حلالا
هذا وفى تل العجا ❊ ل ملأن بالقتلى التلالا
اذ مر مرى ليس يلـ ❊ ـوى نحو رفقته اشتغالا
واستاق عسكرنا له ❊ أهلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فرنج الطا ❊ ئى طال بهو صالا
سارت الى أرض الخليـ ❊ ـل فلم تدع فيها خلالا
فلو ان نور الدين يجـ ❊ ـعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الاجناد جهـ ❊ ـرا كى ينازلهم نزالا
ووفى لنا ولاهل دو ❊ لته بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طـ ❊ ـرا فى معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ ❊ ـو الغرب أو قصدوا الشمالا
واذا أبى الا اطـ ❊ ـراح النصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الامو ❊ ر لحكم خالقنا تعالى

فاجاب ابن منقذ بقصيدة منها

يا أشرف الوزراء اخـــلاقا وأكرمهم فعالا
نبهت عبـــدا طالما ❊ نبهته قـــدرا وحالا
وعتبته فانلتـــه ❊ فخرا ومجدا لن ينالا
لكن ذاك العتب يشـــعل فى جوانبه اشتعالا
أسفا لجـــد حال عنـــه الى مساءته ومالا
أما السرايا حـــين تر ❊ جع بعد خفتها ثقالا
فكذاك عاد وفود با ❊ بك مثقلين ثنا ومالا
ومسيرها فى كل أر ❊ ض تبتغى فيها المجالا
فكذاك فضلك مثل عد ❊ لك فى الدنى سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى ❊ لك فى بنى الدنيا مثالا
واشدد يديك بودنو ❊ ر الدين والق به الرجالا
فهو المحامى عن بلا ❊ د الشام جمعا ان يذالا
ومبيد امـــلاك الفرنـــج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيـــه الدهـــر والدنـــيا بدولتـــه اختيالا
جمع الخـــلال الصالحا ❊ ت فلم يدع منها خلالا
فاذا بدا للناظـــريـــن رأت عيونهم الكمالا
فبقيتمـــا للمسلمـــين حما وللـــدنيا جمالا

وكتب اليه الصالح من قصيدة تقدم ذكرها فى الزلازل

ولعمرى ان المناصح فى الديـــن على الله أجره محسوب
وجهاد العـــدو بالفعل والقو ❊ ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية فى الامـــرين مذ كنت اذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك فى الطعـــن ولا فى الضراب يوما ضريب
واذا ما قرضت فالشاعـــر المفـــلق فيما يقـــوله والخطيب
واذا ما أشرت فالحـــزم لا ينـــكر ان التدبير منك نصيب
لك رأى يقظان ان ضعف الرأ ❊ ى على حاملى الصليب صليب
فانهض الآن مسرعا فبامثا ❊ لك ما زال يدرك المطلوب
ألق منا رسالة عنـــد نور الديـــن ما فى القائها ما يريب
قـــل له دام ملكه وعليـــه ❊ من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العـــادل الذى هو للـــديـــن شباب وللحروب شبيب
والذى لم يزل قديما عن الاســـلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغـــدا منـــه للفرنج اذالا ❊ قوه يوم من الزمان عصيب
ان يرم نزف حقدهم فلاشطا ❊ ن قناه فى كل قلب قليب
غيرنا من يقول ماليس يمضيـــه بفعل وغيرك المكذوب
قـــد كتبنا اليك ما وضح الآ ❊ ن بما ذا عن الكتاب تجيب
قصـــدنا ان يكون منا ومنكم ❊ أجـــل فى مسيرنا مضروب
فلـــدينا من العساكر ماضا ❊ ق بادناهم الفضاء الرحيب

وعلينا ان يستهل على الشا ❊ م مكان الغيوث مال صبيب
أو تراها مثل العروس ثراها ❊ كله من دم العدا مخضوب
لطنين السيوف فى فلق الصبح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن ❊ سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الاله ذاك ومن غا ❊ لب ربى فانه مغلوب

وكتب اليه أيضا

أيها السائر المجد الى الشا ❊ م تبارى ركابه والخيول
خذ على بلدة بهادار مجد الدين لاريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقره منا سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق اليوم لكنك الصديق الملول
ماظننا بأن حالك فى القر ❊ ب ولا البعد بالملال تحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو ❊ ل به لليقين منا حصول
غير انا نواصل الكتب اذ قصر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذى فتح الله علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه فى كتب أتاكم بهن منا رسول
ان بعض الاسطول نال من الافرنج مالا يناله التأميل
سار فى قلة ومازال بالله وصدق النيات يحمى القليل
وبقايا الاسطول ليس له بعد الى جانب الشآم وصول
فحوى من عكا وانطرسوس ❊ عدة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الافرنج تسطو على الورى وتصول
قيد فى وسطهم مقدمهم يد ❊ دى اليناوجيده مغلول
بعد مثوى جماعة هلكوا بالسيف منها الغريق والمفلول
هذه نعمة الاله وتعديد أيادى الاله شئ يطول
بلغوا قولنا الى الملك العا ❊ دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطل الدين فى الكفار فاحذر ان يغضب المطول
سر الى القدس واحتسب ذاك فى الله فبالسير منك يشفى الغليل
واذا ما أبطا مسيرك فالله اذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها

يا أمير الجيوش يا أعدل الحكام فى فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل الـ ❊ عصر حتى تعرف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطرين فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد فى النيابة والتحريض وهو المفوه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا ❊ دت له الارض والجبال تميل
واذا عاقت المقادير فالله اذا حسبنا ونعم الوكيل

وكتب الصالح اليه جوابا قصيدته الطائية التى أولها

هى البدر لكن الثريا لها قرط ❊ ومن أنجم الجوزاء فى نحرها سمط
ذخرناسطاها للفرنج لانها ❊ بهم دون أهل الارض أجدران تسطو

وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم * بحضرتنا ما تكتب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم * لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
اذا أرسلت فرعا من النقع فاحما * أثيثا فاسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وانما * يثبته في سرجه الشد والربط
فقولوا لنور الدين ليس لخائف الـ * ـجراحات الا الكي في الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى بعاقل * لبيب اذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة * بها أبدا يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم * قديما وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فانا قد أعنا بكل ما * سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا

قال العماد في كتاب الخريدة الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمان الفائز وأول زمان العاضد ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق في زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ورحل اليه ذوو الرجاء وأفاض على الداني والقاصي العطاء وله قصائد كثيرة مستحسنة انفذها الى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الاسلام وما يصدق أحدا ان ذلك شعره لجودته وأحكام معاني حكمته واقسام معاني بلاغته فيقال ان المهذب ابن الزبير كان ينظم له والجليس بن الحباب كان يعينه وله ديوان كبير واحسان كثير ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الابيات بديها

انظر الى ذي الدار كم * قد حل ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا * وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما * يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا اليـ * ـه من الفناء غدا نصير

(فصل) قال أبو يعلى ورد الخبر في خامس عشر ربيع الاول من ناحية حلب بحدوث زلزلة هائلة روعت أهلها وأزعجتهم وزعزعت مواضع من مساكنها ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الاول وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق الى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جعله من فرسان التركمان أغار بهم على اعمال صيدا وما قرب منها فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنموهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون وفيهم ولد المقدم المتولي حصن حارم وعادوا سالمين بالاسرى ورؤس القتلى والغنيمة ولم يصب منهم غير فارس واحد قال وفي أوائل شهر تموز الموافق لاول جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء ووصل الى بردا ووصل الى دمشق وكثر التعجب من آثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت قال وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة وورد الخبر من العسكر المنصور بان الفرنج تجمعوا وزحفوا الى العسكر وان المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان واتفق ان عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع وبقي نور الدين ثابتا مكانه في عدة يسيرة من شجعان غلمانه وابطال خواصه في وجوه الفرنج وأطلقوا فيهم السهام فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام ونجى الله وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى وشدة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته وعاد الى مخيمه سالما في جماعته ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج وتفرق جمع الفرنج الى اعمالهم وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة وحرض على ذلك وترددت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال وعاد نور الدين الى دمشق سالما قلت وذكر أبو الفتح بن أبي الحسن بن الاشتري المعيد كان بالمدرسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور

الدين

الدين وقد تقدم شئ منها رحمهما الله قال وبلغنا ان نور الدين خرج الى الجهاد فى سنة ست وخمسين وخمسمائة فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين وبقى الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم موليا وجهه الى قبلة الدعاء حاضرا بجميع قلبه مناجيا ربه يقول يارب العباد أنا العبد الضعيف ملكتنى هذه الولاية وأعطيتنى هذه النيابة عمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتنى به ونهيتهم عما نهيتنى عنه فرفعت المنكرات من بينهم وأظهرت شعار دينك فى بلادهم وقد انهزم المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ولا أملك الا نفسى هذه وقد سلمتها اليهم ذابا عن دينك وناصرا لنبيك فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع فى قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه وظنوا ان الملك العادل عمل عليهم الحيلة وان عسكر المسلمين فى الكمين فان أقدموا عليه يخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه قال ولولا ان ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج اليهما فخرج وجال بينهما ساعة وحمل على واحد منهما فقتله ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع الى قريب صف الكفار وحمل على الآخر فقتله ورجع الى الصف قال وحدثنا الشيخ داود المقدسى خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال كان أعطانى ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها يعنى فى ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل فلما وصل الكفار وقربوا منا شمت بغلتى رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم فسمعوا صهيل بغلتى فقالوا هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة فتحقق ذلك فى قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الاقدام عليه قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا اليه وباسوا الارض بين يديه وقالوا أيها الملك أنت بجميع المسلمين فى هذا الموضع وفى هذا الاقليم فان جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذى يقدر على تداركه قال وحلف هذا الشيخ داود انهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع وما كان فى عزم الملك العادل ان يرحل من ذلك الموضع فلما عرف الكفار ذلك وانه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة قال وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم خلقا كثيرا على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حمص انه قال قد جاز التركمان علينا فحصل فى الجريدة ألف أسير مع التركمان هذا ما جاز على بلد حمص وحده وكان قد انفلت ملك القدس ودخل الى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى

﴿فصل﴾ قال أبو يعلى وفى رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والانهار وصانهم من اعنات شرار الضمان وحوالة الاجناد وكرروا السخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وشرعوا فى فرضها على أرباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا فاهتدوا الى صواب ولا نجح لهم قصد فى خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر فى هذا الامر فنحت له السعادة وايثار العدل فى الرعية الاعادة الى ما كان عليه فأمر فى عاشر رمضان باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت عليه من اماتتها وتعفية أثر ضمانها وأضاف الى ذلك تبرعا من نفسه ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها فبالغ العالم عند ذلك فى مواصلة الادعية والثناء عليه والنشر لمحاسنه قال وفى الحادى والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشدى من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولى أمرها ومعه رسول من مقدمى أمرائها ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النوريه وأنواع الثياب المصريه والجياد العربيه وكانت فرقة من الفرنج خذلهم الله قد ضربوا الهم فى المعابر فاظفر الله بهم فلم يفلت منهم الا القليل النزر ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصرى بظفره بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس وتزيد على ذلك

فى ناحية العريش من الجفار بحيث استولى عليهم القتل والاسر والسلب قال وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية فى ذى الحجة بتبريز ملك الروم منها فى العدد الكثير لقصد الاعمال والمعاقل الاسلامية ووصوله الى مروج الديباج وتخييمه فيها وبث سراياه للاغارة على اعمال انطاكية وما والاها وان قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم هذا بعد ان افتتح من اعمال لاون ملك الارمن عدة من حصونه ومعاقله ولما عرف نور الدين هذا شرع فى مكاتبة الولاة بالاعمال والمعاقل باعلامهم ما حدث من الروم وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم قال ابن الاثير وفى سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد وبها الخليفة المقتفى لامر الله ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة فكاتب أصحاب الاطراف فتحركوا ووصل الخبر الى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همدان ودخلها فى عسكر كبير ونهب وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد محمد نحو همدان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين وشعثوا دار السلطان قلت وفى هذه السنة توفى أبو الوقت عبد الاول المحدث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخارى رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة أربع وخمسين﴾ قال أبو يعلى فى أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره وتلاها ثنتان دونها وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث اضعف قوته ووقع الارجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته وارتاعت الرعايا واعيان الاجناد وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد خوفا عليه واشفاقا من سوء يصل اليه لاسيما مع أخبار الروم والفرنج ولما أحس من نفسه بالضعف تقدم الى خواص أصحابه وقال لهم انى قد عزمت على وصية اليكم بما وقع فى نفسى فكونوا لها سامعين مطيعين وبشروطها عاملين انى مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدى من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين وان أخى نصرة الدين اعرف من اخلاقه وسوء افعاله ما لا ارتضى معه بتوليته أمرا من أمور المسلمين وقد وقع اختيارى على أخى قطب الدين مودود متولى الموصل لما يرجع اليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد فخلفوا له وأنفذ رسله الى أخيه باعلامه صورة الحال ليكون لها مستعدا ثم تفضل الله تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوة فى النفس والحس وجلس للدخول اليه والسلام عليه وكان الامير مجد الدين النائب فى حلب قد رتب فى الطرقات من يحفظ السالكين فيها فظفر المقيم فى منبج برجل جمال من أهل دمشق ومعه كتب فأنفذها الى مجد الدين متولى حلب فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها وأنفذها فى الحال الى نور الدين فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبى القاسم متولى ديوانه ومن عز الدين والى القلعة مملوكه ومن محمد بن جفرى احد حجابه الى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران باعلامه بوقوع اليأس من أخيه ويحضونه على المبادرة والاسراع الى دمشق لتسلم اليه فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على اربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم وكان رابعهم سعد الدين عثمان وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين وورد فى الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة الدين الفراة مجدا الى دمشق فانهض أسد الدين فى العسكر المنصور لرده ومنعه من الوصول فاتصل به خبر عوده الى مقره عند معرفته بعافية أخيه فعاد أسد الدين الى دمشق ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه الى أخيه قطب الدين وفارقوه وقد برز فى عسكره متوجها الى ناحية دمشق فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته فأقام بحيث هو وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد بن على لكشف الحال فوصل الى دمشق يوم السبت الثامن من صفر فى أحسن زى وابهى تجمل وخرج الى لقائه الخلق الكثير قال وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الافعال وحميد الخلال وكرم النفس وانفاق أمواله فى أبواب البر والصدقات والصلات ومستحسن الاثار فى مدينة الرسول عليه السلام ومكة ذات الحرم والبيت المعظم شرفه الله تعالى ما قد شاع ذكره وتضاعف عليه حمده وشكره واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى الى عوده الى جهته بعد الاكرام له وتوفيته حقه من الاحترام وأصحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة وتوجه معه الامير أسد الدين وقال ابن أبى طى لما وصل الوزير جمال الدين الى حلب تلقاه موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة وانزل فى دار ابن الصوفى واكرم غاية الاكرام وأعيد الى صاحبه شاكرا عن نور الدين

وسير معه الامير أسد الدين شيركوه رسولا الى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه وأنفذت معه هدايا سنية فسار وعاد الى حلب مكرما فوجد نور الدين عازما على الخروج الى دمشق لما بلغه من افساد الفرنج فى بلد حوران فسار فى صحابته ووصل نور الدين الى دمشق فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج ثم انهض أسد الدين فى قطعة من العسكر للاغارة على بلد صيدا فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ولم يشعر الفرنج الا وهو قد عاث فى بلد صيدا وقتل واسر عالما عظيما وغنم غنيمة جليلة وعلا فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب قلت وهذا هو ما تقدم ذكره بعد المرضة الاولى وكأن ابن أبى طى جعل المرضتين واحدة بحلب وأبو يعلى ذكر ان الاولى بحلب والثانية بدمشق وهو أصح والله أعلم

﴿فصل﴾ قال أبو يعلى وكان قد وصل من ملك الروم رسول من معسكره ومعه هدية اتحف بها الملك العادل ديباج وغير ذلك وجميل خطاب وفعال وقوبل بمثل ذلك وحكى عن ملك الفرنج خذله الله ان المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت والله يرد بأس كل واحد منهما الى نحره ويذيقه عاقبة غدره ومكره قال وو ردت أخبار من ناحية ملك الروم باعتزامه على انطاكية وقصد المعاقل الاسلامية فبادر نور الدين بالتوجه الى البلاد الشاميه لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الروم والافرنج خذلهم الله تعالى فسار فى العسكر صوب حمص وحماه وشيزر قال وفى ثالث ربيع الاول وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النيام وازعجت اليقظى وخاف كل ذى مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه قال وفى تاسع جمادى الاولى هبت ريح عاصفة شديدة اقامت يومها وليلتها فاتلفت أكثر الثمار صيفيها وشتويها وافسدت بعض الاشجار ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين ازعجت واقلقت قال وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات واجيب ملك الروم الى ما التمسه من اطلاق مقدمى الافرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنفذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الاجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة وما استحسن من الخيول الجبليه ثم رحل عقيب ذلك فى عساكره من منزله عائدا الى بلاده مشكورا محمودا ولم يؤذ أحدا من المسلمين فى العشر الاوسط من جمادى الاولى فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها قال وورد بعد ذلك الخبر بان نور الدين صنع لاخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدمين والولاة وأصحابهم الواردين لجهاد الروم والافرنج سماطا عظيما هائلا تناهى فيه وفرق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره والتخوت الذهب الشئ الكثير الزائد على الكثرة وكان يوما مشهودا فى الحسن والتجمل واتفق ان جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه فغاروا على العرب من بنى اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك انهض نور الدين فى أثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم ثم انهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه واعيد الى أربابه قال وتقرر الرأى النورى على التوجه الى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه فى ذلك من الصلاح فرحل فى عسكره أول جمادى الآخرة فلما نازلها وأحاط بها وقعت المراسلات الى أن تقرر الحال على امان من بها وسلمت فى يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقررت احوالها وأحسن النظر فى أحوال أهلها وسلمها للامير زين الدين على سبيل الاقطاع وفوض اليه تدبير أمورها

﴿ثم دخلت سنة خمس وخمسين﴾ قال الرئيس أبو يعلى فى صفر توفى الامير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمى امراء الاكراد وهو من ذوى الوجاهة فى الدولة موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات فى المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان فى كل عصر ينقضى وأوان جميل المحيا حسن البشر فى اللقاء وحمل من داره بباب الفراديس الى الجامع للصلاة عليه ثم الى المدرسة المشهورة باسمه فدفن فيها فى اليوم ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل افعاله وحميد خلاله قلت وله أوقاف على أبواب البر منها المدرستان المنسوبتان اليه احداهما التى دفن فيها وهى لزيق باب الفراديس المجدد والاخرى قبالة باب دار سيف

الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك وقد مدحه العرقلة وغيره قال أبو يعلى وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي قاضي دمشق الى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الاعفاء من القضاء والاستبدال به فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري وهو المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الاحكام وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم واستقام له الامر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على ان القضاء من بعض أدواته واستقر ان يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده قلت ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء كل جمعة واليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب وهو الذي حكمت فيه القضاة مدة ويصلون فيه الجمعة في زماننا والى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي فانه آخر كتابه وفي هذه السنة توفي رحمه الله قال ابن الاثير وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لامر الله بن المستظهر بأمر الله ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين وبويع ولده أبو المظفر يوسف ولقب بالمستنجد بالله فأقر ابن هبيرة على وزارته قال وفيها حج زين الدين علي واحسن الى الناس في طريق مكة وأكثر الصدقات فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا فدّيده الى كمراته واخرج ماشدّ به وسطه وقصر الجبة فنظر المستنجد اليه واستحسن ذلك منه وقال لمن عنده مثل هذا يكون الامير والجندي لا مثلكم قلت وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ وهو آخر خلفاء مصر ووصل من الصالح بن رزيك كتاب الى ابن منقذ اسامة بذلك فكتب اليه

هناء بنعمى قل عن قدرها الشكر ❊ وصبرا لرزء لا يقوم به الصبر

مضى الفائز الطهر الامام وقام بالامامة فينا بعده العاضد الطهر

اماما هدى الله في نقل ذا الى ❊ كرامته وفي اقامة ذا سر

فعش أبدا واسلم لهم يا كفيلهم ❊ تدافع عنهم كل حادثة تعرو

❊﴿ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة﴾❊ قال ابن أبي طي في هذه السنة حج أسد الدين من الشام وخرج في تجمل عظيم وشارة رائقة واستصحب معه من الازواد والكسى أشياء عظيمة ويقال انه كان معه ألف نفس يجرى عليهم الطعام والشراب وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير واستغنى بسببهم أهل الحجاز وعاد أسد الدين سالما وخرج نور الدين الى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما وقال أيضا وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر وكان سبب قتله ان عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الاموال الى الامراء فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الاموال واحتاط على عمة العاضد قال وانما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الامور والدولة وحفظه للاموال وقتل الصالح بسببها جماعة من الامراء ونكبهم وتمكن من الدولة تمكنا حسنا ثم ان عمة العاضد عادت واحكمت الحيلة عليه وبذلت لقوم من السودان مالا جزيلا حتى أوقعوا به الفعل جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب الى القصر ودخله وسلم على العاضد وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة ووقعت الصيحة فعثر الصالح باذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودى الرقبة وحمل الى باب القصر وأصيب ولده رزيك في كتفه ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم قال العماد وانكسفت شمس الفضائل ورخص سعر الشعر وانخفض علم العلم وضاق فضاء الفضل وعم رزء ابن رزيك وملك صرف الدهر ذلك المليك فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ محوسة الجد منكوسة الراية معكوسة الآية الى ان ملكها يوسفها الثاني وجعلها معان المعاني وانشر رميمها وعطر نسيمها وتسلم قصرها والتزم حصرها قال زين الدين الواعظ عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها فعمل هذه الابيات وسلمها الى

انست بكم دهرا فلما ظعنتم استقرت بقلبى وحشة للتفرق
وأعجب شئ أنني يوم بينكم ❊ بقيت وقلبى بين جنبي ما بقى
أرى البعد ما بيني وبين أحبتى ❊ كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
الا جددى يا نفس وجدا وحسرة ❊ فهذا فراق بعده ليس نلتقى

قال فلم يبق بعدها لهم اجتماع فى مسرة وقتل فى شهر رمضان قلت ولعمارة اليمنى ولغيره مدائح فى الصالح ومراث جليلة وقد أثنى عليه كثيرا فى كتاب الوزراء المصرية ولم يكن مجلس انسه ينقطع الا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والادبية وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته قال وكان من تاضا قد شم أطراف المعارف وتميز عن اجلاف الملوك وكان شاعرا يحب الادب وأهله يكرم جليسه ويبسط أنيسه ولكنه كان مفرط العصبية فى مذهب الامامية وكان من تاضا حصيفا قد لقى فى ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم قال ودخلت عليه قبل ان يموت بثلاث ليال وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعه

نحن فى غفلة ونوم وللمو ❊ ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا ❊ ليت شعرى متى يكون الحمام

قال ومن عجيب الاتفاق انى أنشدت ابنه مجد الاسلام فى دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان أو السابع عشر قصيدة أقول فيها

أبوك الذى تسطو الليالى بجده ❊ وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره ❊ اليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها ❊ حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال فانتقل الملك بعد ثلاث اليه قال ومما رثيته به قولى

أفى أهل ذا النادى عليم أسائله ❊ فانى لما بى ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده ❊ ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابنى من شاهد الحال اننى ❊ أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وانى أرى فوق الوجوه كآبة ❊ تدل على ان الوجوه ثواكله
دعونى فما هذا بوقت بكائه ❊ سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه ونندب فقده ❊ وأولادنا أيتامه وأرامله
فيا ليت شعرى بعد حسن فعاله ❊ وقد غاب عنا ما بنا الدهر فاعله
أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم ❊ فيسكن أم تطوى ببين مراحله

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه

طمع المرء فى الحياة غرور ❊ وطويل الآمال فيها قصير
ولكم قدر الفتى فاتته ❊ نوب لم يحط بها التقدير
فض ختم الحياة عنك حمام ❊ لا يراعى اذنا ولا يستشير
لا يخطى اجلالك اليوم الا ❊ قدر أمره علينا قدير
يا أمير الجيوش هل لك علم ❊ ان حر الاسى علينا أمير
ان قبرا حللته لغنى ❊ ان دهرا فارقته لفقير
انطوى ذلك البساط وعهدى ❊ وهو بالعلم والندى معمور
لا تظن الايام انك ميت ❊ لم يمت من ثناؤه منشور
ان مضى كافل فهذا كفيل ❊ أو وزير يغيب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها ❊ دولة عادلية لا تجور

ماشكونا كسر النوائب حتى ❊ قيل فى الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العلى بالعوالى ❊ ولنعم المولى ونعم النصير

وقال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه ويصف نقل تابوته الى مشهده بالقرافة قصيدة طويلة منها

قد كنت أشرق من ثماد مدامعى ❊ أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصنى ❊ خطب بانف الدهر منه صغار
ماأوحش الدنيا غدية فارقت ❊ قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد ❊ عمرت به الاجداث وهى قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع ❊ عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يود بنات نعش لو غدت ❊ ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الانام اليه تحت جنازة ❊ خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام امامها فعلمت ان ❊ قد شيعتها الجسة الابرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما ❊ حفت ملائكة بها أطهار
فكانها تابوت موسى أودعت ❊ فى جانبيه سكينة ووقار
لكنه ماضم غير بقية الاسلام وهو الصالح المختار
اقطنته دار الوزارة ريثما ❊ بنيت لنقلته الكريمة دار
وتغاير الهرمان والحرمان فى ❊ تابوته وعلى الكريم يغار
أثرت مصر امنه بالشرف الذى ❊ حسدت قرافتها له الامصار
وجعلتها امنا به ومثابة ❊ ترجو مثابة قصدها الزوار
قد قلت ان نقلوه نقلة ظاعن ❊ نزحت به دار وشط مزار
ما كان الا السيف جدد غمده ❊ بسواه وهو الصارم البتار
والبدر فارق برجه متبدلا ❊ برحابه تتشعشع الانوار
والغيث روى بلدة ثم انتحى ❊ أخرى فنوء سحابه مدرار
يامسبل الاستار دون جلاله ❊ ماذا الذى رفعت له الاستار
مالى أرى الزوار بعد مهابة ❊ فوضى ولا اذن ولا استئذار
غضب الاله على رجال أقدموا ❊ جهلا عليك وآخرين أشاروا
لا تعجبا القدار ناقة صالح ❊ فلكل دهر ناقة وقدار
واخجلتا للبيض كيف تطاولت ❊ سفها بايدى السود وهى قصار
واحسرتا كيف انفردت لاعبد ❊ وعبيدك السادات والاحرار
وصدوك فى ضيق المجال بحيث لا الخطى متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها ❊ لو كنت متروكا وماتختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على ❊ خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة ❊ لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضى ❊ أبدا وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم ❊ من بعدها ورأت الى ماصاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا ❊ يرضى وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما ❊ نام العدو ولا ينام الثار
وتوهموا ان الفرار مطية ❊ تنجى وأين من القضاء فرار

طاروا فقد أبو الشجاع لصيدهم ❋ شرك الردى فكأنهم ماطاروا
فتهنّ بالاجر الجزيل وميتة ❋ درجت عليها قبلك الاخيار
مات الوصى بها وحمزة عمه ❋ وابن البتول وجعفر الطيار
نلت السعادة والشهادة والعلى ❋ حيا وميتا ان ذا لفخار
ولقد أقر العين بعدك أروع ❋ لولاه لم يك للعلى استقرار
الناصر الهادى الذى حسناته ❋ عن سيئات زماننا أعذار
ولما استقام لحفظ أمة أحمد ❋ عمرت به الاوطان والاوطار

❋ (ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة) ❋ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين العساكر وسار الى قلعة حارم وحصرها وجد فى قتالها فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه الى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه فعاد الى بلاده وممن كان معه فى هذه الغزاة الامير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وكان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد سيرين وكان قد دخله فى العام الماضى سائرا الى الحج فلما دخله حينئذ كتب على حائطه

لك الحمد يامولاى كم لك منة ❋ على وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا ❋ من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى ❋ مضى نحو بيت الله ذى الركن والحجر
فأديت مفروضى وأسقطت ثقل ما ❋ تحملت من وزر الشبيبة عن ظهرى

قلت أذكرنى هذا ما كتبه اسامة ايضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبى عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات

احذر من الدنيا ولا ❋ تغتر بالعمر القصير
وانظر الى آثار من ❋ صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا ❋ ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكـ ❋ ـانها الى سكنى القبور

قلت ابن أبى عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبى عقيل صاحب صور ويلقب عين الدولة مات سنة خمس وستين وأربعمائة واستولى على صور ابنه النفيس والله أعلم

❋ (ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة) ❋ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس فى بعض الايام فى خيامهم فى وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والاسر وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج عن ظهر خيمته مجلا بغير قباء فركب فرسا هناك للنوبة ولسرعته ركبه وفى رجليه شبحة فنزل انسان من الاكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فسأل نور الدين عن مخلفى ذلك الكردى فأحسن اليهم جزاء لفعله وكان أكثر القتل فى السوقة والغلمان وسار نور الدين الى مدينة حمص فأقام بظاهرها واحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس على فرسخ من حمص وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ وكان الناس يظنون انه لا يقف دون حلب وكان رحمه الله أشجع من ذلك واقوى عزما ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع اليه كل من نجا من المعركة فقال له بعض أصحابه ليس من الرأى أن تقيم ها هنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء الينا ونحن على هذه الحال فوبخه واسكته وقال اذا كان معى ألف فارس فلا أبالى بهم قلوا أو كثروا والله لا أستظل بجدار حتى أخذ بثار الاسلام وثارى ثم انه أرسل الى حلب ودمشق وأحضر الاموال والدواب والاسلحة والخيام

وسائر ما يحتاج اليه الجند فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم وأما من قتل فانه اقر اقطاعه على أولاده فان لم يكن له ولد فعلى بعض أهله فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد وأما الفرنج فكأنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ان يمنعنا وكان نور الدين رحمه الله قد أكثر الخرج الى ان قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك وتقدم الى ديوانه ان يحضر والجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذى أخذ منه فكل من ذكر شيئا اعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحالهم فأرسلوا الى نور الدين ينهون اليه القضية ويستأذنونه فى تحليف الجندى على ما ادعاه فأعاد الجواب لا تكدروا عطانا فانى أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره وقال له أصحابه ان لك فى بلادك ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها الآن لكان امثل فغضب من هذا وقال والله انى لا ارجو أولئك النصر فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطى وأصرفها الى من يقاتل عنى اذا رآنى بسهام قد تخطى وتصيب ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال اصرفه اليهم كيف اعطيه غيرهم فسكتوا ثم ان الفرنج أرسلوا الى نور الدين فى المهادنة فلم يجبهم اليها فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا الى بلادهم وتفرقوا قلت وفى هذه الحادثة تحت حصن الاكراد يقول أبو الفرج عبيد الله بن سعد الموصلى نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله أولها

ظبى المواضى واطراف القنا الذبل ❊ ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله ❊ عزو عزم و بأس غير منتحل
ومايعيبك ماحازوه من سلب ❊ بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وانما أخلدوا جبنا الى خدع ❊ اذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم ❊ لينفذ القدر المحتوم فى الازل
حتى أتوكم ولا الماذى من أمم ❊ ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا القنا وقسى غير موترة ❊ والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لاناب ولا ظفر ❊ بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الاسد الصقور وقد ❊ سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وانما هم أضاعوا حزمهم ثقة ❊ بجمعهم ولكم من واثق خجل
بنى الاصافر ما نلتم بمكركم ❊ والمكر فى كل انسان أخو الفشل
ومارجعتم باسرى خاب سعيكم ❊ غير الاراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم ❊ والسمر مركوزة والبيض فى الخلل
هل آخذ الخيل قد اردى فوارسها ❊ مثال آخذها فى الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه ❊ والحرب دائرة من كف معتقل
جيش اصابتهم عين الكمال وما ❊ يخلو من العين الا غير مكتمل
لهم بيوم حنين اسوة وهم ❊ خير الانام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عنده اهونه ❊ البيض كالبيض والادراع كالحلل
ملك بعيد من الادناس ذو كلف ❊ بالصدق فى القول والاخلاص فى العمل
فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت ❊ والسيف ما فل والاطواد لم تزل
وكم تجلى بنور الدين من ظلم ❊ وانجاب ما كان للاضلال من ظلل
وكم لعمرى كفوا الطرف من جبن ❊ عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو ❊ لذتم بملككم لذتم الى الجبل

اسلموه

اسلمتموه ووليتم فأسلمكم * بثبتة لو بغاها الطود لم ينل
فقام فردا وقد ولت جحافله * فكان من نفسه فى جحفل زجل
فى مشهد لو ليوث الغيل تشهده * خرّت لاذقانها من شدّة الوهل
وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد * طارت قلوب على بعد من الوجل
يعود عنهم رويدا غير مكترث * بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل
يزداد قدما اليهم من تيقنه * ان التأخر لا يحمى من الاجل
ما كان اقربهم من اسر ابعدكم * لوانهم لم يكونوا منه فى شغل
ثباته فى صدور الخيل انقذكم * لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل
ما كل حين تصاب الاسد غافلة * ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل
والله عونك فيما أنت من معه * كما أعانك فى أيامك الاول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض * وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالى من طلىً ملك * وكم قرنت العوافى من قرا بطل
لا نكبت سهمك الاقدار عن غرض * ولا ثنت يدك الايام عن أمل

قلت حاول ابن اسعد فى هذه القصيدة ما حاوله المتنبى فى قوله (غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة فان كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون وقد احسنا معا عفى الله عنهما وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق كان مدرسا بحمص يعرف بابن الدهان وله ترجمة فى تاريخ دمشق وقد ذكره العماد الكاتب فى خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره وسيأتى ذكره أيضا فى هذا الكتاب فى أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين ان شاء الله تعالى وفى هذه السنة اعنى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفى عبد المؤمن بن على خليفة المهدى محمد بن تومرت صاحب المغرب وولى بعده ابنه يوسف

﴿ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة﴾ ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى مصر المرة الاولى وهو من أكابر الامراء الذين فى الخدمة النورية عازما على ملك الديار المصرية واستضافتها الى المملكة النورية وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب وهوا كبرا بناء شاذى من بلد دوين وهى بلدة من آخر بلاد اذربيجان مما يلى الروم وأصلهما من الاكراد الرّوادية وهذا القبيل هو أشرف الاكراد وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم وهو شحنة العراق فرأى فى نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدارا بتكريت وهى بلده فسار اليها ومعه أخوه أسد الدين فلما انهزم أتابك زنكى الشهيد والد نور الدين بالعراق ومعه الخواجه الساقى وهو أتابك داود بن السلطان محمود وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل الى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فارسل مجاهد الدين اليه والى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت وقيل ان أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله فخشى على نفسه فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكى وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصرانى وكان عزيزا عند بهروز هرب الى الموصل والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية ان شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب فى أخبار سنة ثمان وستين ثم ان أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا وصارا من جملة جنده فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين فأرسل الى سيف الدين غازى وقد قام بالملك بعد والده ينهى الحال اليه فلم تفرغ لبعلبك وضاق الامر على من بها وخاف نجم الدين ان تؤخذ عنوة ويناله أذى فأرسل فى تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد وكان يخدمه فى أيام والده فقرّبه نور الدين واقطعه ورأى منه فى حروبه ومشاهده آثارا يعجز عنها غيره لشجاعته وجراءته فزاده اقطاعا

وقرباحتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدّم عسكره فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها فى ذلك فطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب الى ما يراد منه وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والاملاك ببلد دمشق وغيرها فبذل لهما ما طلبا منه وحلف لهما عليه فوفى لهما ملكهما وصارا عنده فى اعلى المنازل لاسيما نجم الدين فان جميع الامراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم او احدهم بذلك الا نجم الدين فانه كان اذا دخل اليه قعد من غير ان يؤمر بذلك فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ولم ير لهذا الامر الكبير اقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره وكان سبب ذلك ان شاور بن مجير ابا شجاع السعدى وهو الملقب أمير الجيوش الذى يقول فيه عمارة من قصيدة

ضجر الحديد من الحديد وشاور ❊ فى نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ❊ حنثت يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر كان قد وصل الى دمشق فى سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الاوّل الى نور الدين مستنجدا به على من أخذ منه منصبه قهرا وكانت عادة المصريين انه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة واغراضهم مستقيمة وقواعدهم مستقرة من أوّل زمانهم على هذا المثال وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بنى رزيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزيك الذى وزر بعد أبيه واسمه رزيك ويلقب بالناصر أيضا وهو الذى استحضر القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على من الاسكندرية واستخدمه بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمنى فى كتاب الوزراء المصرية وقال غرس منه للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النما أصلها ثابت وفرعها فى السما ثم خرج على شاور نائب الباب وهو أمير يقال له ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيا واستولى على الوزارة فرحل شاور الى الشام قاصدا خدمة نور الدين مستصرخا به ومستنصرا فأحسن لقاه وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ويتصرف على امره ونهيه واختياره ونور الدين يقدّم فى ذلك رجلا ويؤخر أخرى تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه الا ان يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضا ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وجسا للبلاد وتطلعا على أحوالها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور فى جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين هكذا ذكر ابن الاثير والعماد الكاتب وقال القاضى ابن شداد كان ذلك سنة ثمان وخمسين والقول فى ذلك قولهما فقد بينا ان قدوم شاور الى الشام كان فى سنة ثمان وخمسين وارسال نور الدين العسكر كان فى جمادى سنة تسع وخمسين قالوا وأمر نور الدين أسد الدين باعادة شاور الى منصبه والانتقام ممن نازعه فى الوزارة وسارا جميعا وسار معهم نور الدين الى اطراف بلاد الاسلام مما يلى الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين سالما الى مصر هو ومن معه فهرب المنازع لشاور فى الوزارة وقتل وطيف برأسه وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها

وأحق من وزر الخلافة من نشا ❊ فى حضرة الاكرام والاجلال

واختص بالخلفاء وانكشفت له ❊ أسرارها بقرائن الاحوال

وتصرف الوزراء عن افعاله ❊ كتصرف الاسماء بالافعال

قال عمارة ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا

أرى حنك الوزارة صار سيفا ❊ يجذ بحدّه صيد الرقاب

كأنك رائد البلوى والا ❊ بشير بالمنية والمصاب

والعمارة اليمنى من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله

فنصرت فى الأولى بضرب زلزل الـ ... اقدام وهى شديدة الاقدام
ونصرت فى الاخرى بضرب صادق ❊ أضحى بطير به غراب الهام
أدركت ثارا وارتجعت وزارة ❊ نزعا بسيفك من يدى ضرغام

وكان ضرغام أوّلا من أصحاب شاور واتباعه وقد أشار الى ذلك عمارة فى قوله من قصيدة له

كانت وزارتك القديمة مشرعا ❊ صفوا ولكن كدّرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره ❊ من بعدما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى فى شاور

وزير تمنته الوزارة أوّلا ❊ وثانية عفوا بغير طلاب
فخانته فى الاولى بطانة ودّه ❊ ورب حبيب فى قميص حباب
وجاءته تبغى الصلح ثانى مرة ❊ فلم يرض الا بعد ضرب رقاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور وكان مدّة أخذ الوزارة منه الى ان عادت اليه تسعة أشهر سواء وهى مدّة الحمل نص عمارة على ذلك وقال قتل ولده طى يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء يولولن بالصراخ وكان فيهن واحدة تحفظ قولى فى الصالح

اينسى وفى العينين صورة وجهه الـ ❊ ـكريم وعهد الانتقال قريب

فمازالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام قال وأدرك شاور ثاره فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الاخرة فيكون بينهما تسعة أشهر قال وقلت فى ذلك

ونزعت ملكك من رجال نازعوا ❊ فيه وكنت به أحق واقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل ❊ حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة ❊ أمرت نسيم الليل ان لايبردا
تاريخ هذا نلته فى مثله ❊ يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الايام تسعة أشهر ❊ حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا

لله درك ميتورا اقض به ❊ دست وسرج واجفان ومضطجع
ماغبت الا يسيرا ثم جئت لنا ❊ والثار منتدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذى يزن ❊ الا كما نلت والاثار تتبع

قال ابن الاثير وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة وغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا فارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانف أسد الدين من هذه الحال وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فهم خائفون فلما أرسل شاور اليهم يستنجدهم ويطلب منهم ان يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته وطمعوا فى ملك ديار مصر وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره فى أطراف بلاده مما يلى الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كبير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا يتحصن به فاجتمعت

العساكر المصرية والفرنجية ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّا وليس له خندق ولا جبيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره الى بانياس فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العود الى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها فلم يدركوها الا وقد ملكها على ما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى وراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل قال ابن الاثير فحدّثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون قال فاتاه فرنجى من الفرنج الغرباء فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى ابطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم ووالله لو أطاعنى هؤلاء يعنى أصحابه لخرجت اليكم أوّل يوم لكنهم امتنعوا فصلب الفرنجى على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالما وقال العماد الكاتب وصل شاور الى نور الدين ملتجئا فالقاه على عدوّه معديا مشكيا وسير معه أسد الدين على قرار عينه وأمر بدينه وبغية يدركها وخطة يملكها ومحجة واضحة فى الملك يسلكها فمضى معه ونصره وأصفى له مشرعه واسترد له موضعه وأظهره بعلوه وأظفره بعدوّه فلما باد خصمه بداوصمه وغدر بعهده وأخلف فى وعده وكان قد راسل الفرنج وهاداهم فى حرب الاسلام فوصلوا فحصروا شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس فحاصره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر من مستهل رمضان الى ذى الحجة فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم وعاد الى الشام وفى قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن قلت وقد أشار الى ذلك عمارة فى قوله فى مدح شاور وذكر الافرنج فقال

وأنقذت من مصر عدوا ابثه له ❋ فلله من ظفر فللت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة ❋ أقت بها القوم سوق ضراب
وقد جردت أجناد مصر عزائما ❋ مضاربها فى الصخر غير نوابى
تولوا عن الافرنج فادح ثقلها ❋ ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة ❋ ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح ❋ وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضى بن شداد سار أسد الدين الى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره وصاحب رايه وكان لا يفصل أمرا ولا يقرّر حالا الا بمشورته ورايه لما لاح له منه من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فسار واحتى وصلوا مصر وشاور معهم وكان لوصولهم الى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاورا على خصمه وأعاده الى منصبه ومرتبته وقرر قواعده وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعلم انها بلاد بغير رجال تمشى الامور فيها بمجرد الايهام والمحال وكان ابتداء رحيله عنها متوجها الى الشام فى السابع من ذى الحجة فاقام بالشام مدبر الامر ومفكرا فى كيفية رجوعه الى البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا لقواعد ذلك مع نور الدين الى سنة اثنتين وستين قلت ولفعل شاور ما فعل مع اسد الدين وصفه الشعراء بالغدر ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره وبقى متخوفا من أسد الدين فقال عرقلة الكلبى من جملة قصيدة له

وهل هم يوما شيركوه بجلق ❋ الى الصيد الا ارتاع فى مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذى ❋ شذاذكره فى الشرق والغرب سائر

وفيها فى ذى الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين الى دمشق فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك

جار صرف الردى على جيرون ❋ وسقى أهلها كؤس المنون

أصبحت جنة وامست جحيما ❊ تتلظى بكل قلب حزين
كيف لا تذرف الدموع عليها ❊ وهى فى الشام نزهة العيون
حبذا حصنها الحصين لقد كا ❊ ن جمالا لكل حصن حصين
أى سيف سطا على دار سيف ❊ وزبون أتى بحرب زبون
خلت نيرانها وكل ظلام ❊ نار ليلى تلوح للمجنون
كم غنى اليمين امسى فقيرا ❊ وفقير امسى غنى اليمين
كل حين لها حريق جديد ❊ ليت شعرى ماذا لها بعد حين
كل هذا البلاء عاقبة الفسق وشرب الخمور والتلحين
ولقد ردها بعزم وحزم ❊ أسد الدين غاية المسكين
وحمى الجامع المقدس والمشهد من جرها بماء معين
ملك فعله بدجلة والبا ❊ ب فعال الامام فى صفين

❊(فصل)❊ فى فتح حارم قال العماد الكاتب وفى تلك السنة يعنى سنة تسع وخمسين اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج وقصدهم واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم فأسرهم وقتلهم ووقع فى الاسار ابرنس انطاكية وقومص طرابلس وابن جوسلين ودوك الروم وذلك فى رمضان وقال فى الخريدة كانت نوبة البقيعة نوبة عظيمة على المسلمين وافلت نور الدين فى أقل من عشرة من عسكره ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم وقتل فى معركة واحدة منهم عشرين ألفا واسر من نجا وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم وكان منحا عظيما وفتحا مبينا قال ابن الاثير والسبب فى هذا الفتح ان نور الدين لما عاد منهزما على ماسبق من غزوة ناحية حصن الاكراد اقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والاخذ بثاره وغزو العدو فى عقر داره وليرتق ذلك الفتق ويمحو اسمه الوهن ويعيد رونق الملك فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين البى بماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف أما قطب الدين أتابك فانه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه وأما فخر الدين قرا ارسلان فانه بلغنى عنه انه قال له خواصه على أى شئ عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقى نفسه والناس معه فى المهالك وكلهم وافقه على ذلك فلما كان الغد أمر بالنداء فى العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا مما بدا فارقناك بالامس على حال ونرى الآن ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معى طريقا ان لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى واخرجوا البلاد عن يدى فانه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنونى ويدعون على فلابد من أجابة دعوته ثم تجهز أيضا وسار الى نور الدين بنفسه وأما نجم الدين البى فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقى من الفرنج بالساحل انه لم يسر الى مصر فحشدوا وجاؤا ومقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وابطالها والدوك وهو رئيس الروم ومقدمها وجمعوا معهم من الراجل ما لا يقع عليه الاحصاء قد ملا وا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء فحرض نور الدين أصحابه وفرق نفائس الاموال على شجعان الرجال فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى ارتاح وهو الى لقائهم مرتاح وانما رحل طمعا ان يتبعوه ويتمكن منهم اذا لقوه فساروا حتى نزلوا على عم وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم ثم تيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا الى حارم وقد حرمتهم كل خير وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين فبددوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الادبار وتبعهم الفرنج وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ومكر بالعدو مكروه وهو ان يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم

لا نوف فاذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون اليه ويعود المنهزمون فى آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم فكان الامر على مادبر وافان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين فى عسكر الموصل على راجلهم فافناهم قتلا وأسرا وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم من العطب فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين وبدمائهم مضرجين فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا وخضعت رقابهم وذلوا فلما رجعوا عطف المنهزمون اعنتهم وعادوا فبقى العدو فى الوسط وقد احدق بهم المسلمون من كل جانب فحينئذ حمى الوطيس وباشر الحرب المرؤس والرئيس وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة وحاربوا حرب من ايس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور فمزقوهم بددا وجعلوهم قددا فألقى الفرنج بأيديهم الى الاسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار واكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف وأما الاسرى فلم يحصوا كثرة ويكفيك دليلا على كثرتهم ان ملوكهم أسروا وهم الذين من قبل ذكروا وسار نور الدين بعد الكسرة الى حارم فلكها فى الحادى والعشرين من شهر رمضان واشار اصحابه عليه بالمسير الى انطاكية ليملكها لخلوّها ممن يحميها ويدفع عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ الا بعد طول حصار واذا ضيقنا عليهم ارسلوا الى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ومجاورة بيمند احب الىّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه فى تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وغير ذلك وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بيمند صاحب انطاكية بمال جزيل أخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم وقال الحافظ أبو القاسم كسر نور الدين الروم والارمن والفرنج على حارم وكان عدتهم ثلاثين ألفا قال ووقع بيمند فى أسره فى نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم انفقه فى الجهاد قلت وبلغنى ان نور الدين رحمه الله لما التقى الجمعان أوقبيله انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرّغ وجهه وتضرّع وقال يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم اعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك ايش فضول محمود فى الوسط يشير الى انك يارب ان نصرت المسلمين فدينك نصرت فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ان كان غير مستحق للنصر وبلغنى انه قال اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره فى أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين مع ان جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق وهذا من عجيب ما وقع واتفق

(فصل) فى ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته فى هذه السنة رحمه الله وقد ذكره العماد الكاتب فى مواضع من مصنفاته واثنى عليه ثناء عظيما حسنا فما ذكر له فى كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة فى أخبار الوزراء السلجوقية ان قال ذكر جمال الدين أبى جعفر محمد بن على بن أبى منصور كان والده من اصفهان يدعى الكامل على وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك وكان أبوه أبو منصور رفهادا فى عهد السلطان ملكشاه ابن الب ارسلان وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه فى السمو وايامنه فى النمو حتى تنافس فى استخدامه الملوك والوزراء واستضاءت برائه فى الحوادث الاراء وقد كان زوج بنتاله ببعض أولاد أخوال العزيز يعنى عم العماد الكاتب قال فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبى جعفر محمد وخرجه فى الادب ودرّجه فى الرتب فأوّل مارتبه فى ديوان العرض السلطانى المحمودى وغلب فى تحليته ذكر الابلج فنعته الاتراك بالابلج واستقام فى نجابته على المنهج واتفق انه لما تولى زنكى بن اق سنقر الشام تزوّج بامرأة الامير كيدغدى وولدها نياص بك ابن كيدغدى من امراء الدولة وابناء المملكة وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا فسار فى الصحبة وكان مقبل الوجاهة مقبول الفكاهة شهى المشاشة بهى البشاشة فتوفرت منى زنكى على منادمته وقصر صباحه ومساءه على مساهمته وعوّل عليه آخر عمره فى اشراق ديوانه وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه فلم يظهر لجمال الدين فى زمان زنكى جود ولا عرف له موجود فانه كان يقتنع باقواته وتزجية أوقاته ويرفع جميع ما يحصل له الى خزانة زنكى استبقاء لجاهه واستعلاء به على أشباهه فكنه زنكى من أصحاب ديوانه فنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع باحسانه ولما قتل زنكى صار للدولة الاتابكية ملاذا وللبيت الاقسنقرى معاذا واستوزره الامير غازى بن

زنكى وازره على كوجك على وزارته وحلف له على مظاهرته ومظافرته وجرى بين جمال الدين الوزير وبين زين الدين على كوجك وبين سيف الدين غازى التعاقد على التعاضد والتعاهد على التساعد وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولاد فعاش بنداه الجود وعشا الى ناديه الوفود وعادت به الموصل قبلة الاقبال وكعبة الآمال فأنارت مطالع سعوده وسارت فى الآفاق صنائع جوده وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلهما وجمع بالامن شملهما واجرى بحر السماح ونادى حى على الفلاح فصاحت بافضاله الفاظ الفصاح وأتوا اليه من كل فج عميق وقصد من كل بلد سحيق فقصده العظماء ومدحه الشعراء وممن وفد اليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفى المعروف بحيص بيص قال وأنشدنى لنفسه فيه قصيدة أوّلها

يا للصوارم والرماح الذبل ❊ نصرا ومن أنجدتما لم يخذل
لوشئتما ومشيئة بمشيئة ❊ جاد الزمان وبالعلى لم يبخل
فاقنى فخارك يا مجاشع واعلمى ❊ انى لكم من همتى فى جحفل
انا فارس اليومين يوم مقالة ❊ ووغى أصول بصارمى وبمقولى
ظلمت فضائلى المقاول مثل ما ❊ ظلمت جمال الدين ماوى العيل
مدحوه كى يحووا مناقب نفسه ❊ فطمت فسالت بالمدائح من عل
فاتيت ابذل مااستطعت ومن يرد ❊ نقل الخضم الى المزادة يخجل
شمس من الاحسان عم ضياؤها ❊ بل اية جاءت بحجة مرسل
يعطى الجزيل لسائلى معروفه ❊ ويجود بالنعمى اذا لم يسأل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة ❊ فيكون أبسم ما يرى فى المعضل
ثقلت به الاعناق من منن الندى ❊ فالهام مطرقة لذاك المثقل
فاذا تلاقى الناس كان حديثهم ❊ عن كل جفن بالجهالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم ❊ عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند الى تهامة شاهد ❊ فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده ❊ يسرى ودار مقامه بالموصل
وتقر عين محمد بمحمد ❊ محيى دريسى علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه ❊ ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا أهلا ❊ نشوان يمرح بالنعيم المخضل
فكأنها بالخصب من قرباته ❊ بلد على شط الفرات السلسل
فلوانه فى عصره نزلت له ❊ فى مدحه سور الكتاب المنزل
عبد داخ فى ضيفه ووداده ❊ لا يستحيل وسيد فى المحفل
خرق نياط قميصه ورداؤه ❊ بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد وكنت أنا فى ذلك العهد متفقها ببغداد واتفق حضورى بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فحضرت عند جمال الدين بالجامع فى جمعتين وتكلمت عنده مع الفقهاء فى مسألتين ومما مدحته به قصيدة أوّلها

أظنهم وقد عزموا ارتحالا ❊ ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشى ❊ فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملال فكيف ملوا ❊ وصالهم وما ملوا الملالا
احادى عيسهم بالله رفقا ❊ فان السير اوريها الكلالا
وعج نحو الاراك بها فانى ❊ اراه لاجتماع الشمل فالا
سقى صوب الحيا تلعات نجد ❊ وحيا بالحمى تلك التلالا

اخلائى وهل فى الناس خل ❀ به اخلو من الاحزان بالا
لئن لم أشف صدرى من حسودى ❀ ولم أذق العدى داء عضالا
فلا ادركت من أدبى مرادا ❀ ولا صادفت من حسبى منالا
ولا وخدت اليك بى جمال ❀ ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغنى اذا ما المرء اقوى ❀ هو المنجى اذا ما الخطب هالا
وقائلة الى الدنيا كريم ❀ سواه فقلت لا وأبى العلالا
اطلت على الورى كرما وفخرا ❀ كذلك من حوى هذين طالا
وحزت المجد عن كسب وارث ❀ فيا صدر الورى حزت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل ❀ تعالى من حباك به تعالى

قلت وقد أكثر الشعراء فى مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها

يهوى تجنبه والصدود كما ❀ يهوى المعالى محمد بن على
جمال دين الاله خير فتى ❀ للرزق اقلامه وللاجل
معطى القرى والقرى لقاصده ❀ من غير من والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله ❀ شرقا وغربا فى السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا ❀ أصبح مما يقول فى خجل
محمد خاتم الكرام كما ❀ سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة

كسى الحرمين لبسة عبد شمس ❀ وهاشم غرتى نسل الخليل
وللبلد الامين اجد امنا ❀ تكنف مثله جدث الرسول
عشيتم يا ولاة الامر عما ❀ اتيح له من الاثر الجميل
وطارلها وأشفقتم فشد السيدين على عرى المجد الاثيل
بيوت بالحجازة قدسات ❀ رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان اذا الهم فصاب صونا ❀ لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يجنى الـمقال ويجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما ❀ تنيل يداه من ريف ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشى ❀ مهيب البطش فراس الدخول

ولأبى المجد قسيم الحموى فيه من قصيدة

اغر يبصر منه الناس فى رجل ❀ والليث فى بشر والبدر فى غصن
سما بهمته فى المكرمات الى ❀ علياء يقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر راجح نيـل الكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضى العزيمة ميمون النقيبة ريبال الكتيبة عين القائل اللسن
اذا تكلم واستجليت غرته ❀ فى محفل رحت حالى العين والاذن
كأن فى الدست منه حين تنظره ❀ شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الاثير وفيها فى شعبان من هذه السنة وهى سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفى الوزير جمال الدين محمد ابن على بن أبى منصور الاصفهانى كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين وظهرت كفايته فأضاف اليه الرحبة فابان عن كفاية وعفة وكان من خواصه فجعله مشرف مملكته كلها وحكمه تحكما لا مزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم فى بلاده ضياء الدين ابن الكفر توثى يحكى عن جمال الدين قال كان يدخل الى اتابك قبلى ويخرج بعدى

ولم

ولم يزل كذلك الى أن قتل الشهيد ثم وزر لولدى الشهيد سيف الدين ثم قطب الدين وكان بينه وبين زين الدين على كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم وكانت الموصل فى أيامه ملجأ لكل ملهوف ومأمنا لكل خائف فسعى به الحساد الى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له انه يأخذ أموالك فيتصدق بها فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة الموصل ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لان خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين فلما قبض تبسطوا فى الامر والنهى على خلاف غرض زين الدين فبقى جمال الدين فى الحبس نحوا من سنة ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر كريم الورد والصدر عديم النظير فى سعة نفس لم ير و فى كتب الاولين ان أحدا من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروة قال ابن الاثير حكى لى جماعة عن الشيخ أبى القاسم الصوفى وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين فى محبسه قال لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخرته مدة حبسه وكان يقول كنت أخشى ان أنقل من الدست الى القبر قال فلما مرض قال لى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى فقلت فى نفسى قد اختلط الرجل فلما كان الغداة اكثر السؤال عن ذلك الطائر واذا طائر أبيض لم ير مثله قد سقط فقلت له قد جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفى فلما توفى طار ذلك الطائر قال فعلمت انه رأى شيئا فى معناه ودفن بالموصل نحو سنة وكان قد قال للشيخ أبى القاسم ان بينى وبين أسد الدين شيركوه عهدا من مات منا قبل صاحبه حمله الحى الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها فى التربة التى عملها فان انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار الشيخ أبو القاسم الى أسد الدين فى هذا المعنى فأعطاه مالا صالحا يحمله به الى مكة والمدينة وأمر ان يحج معه جماعة من الصوفية ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون فى الطريق وينادون فى البلاد بالصلاة على فلان ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه فى كل مدينة خلق كثير فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه فاذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ❊ سرى بره فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله ❊ عليه وفى النادى فتبكى اراملة

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ثم وصلوا به الى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم وحملوه الى المدينة فصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذى أنشأه بها وبينه وبين قبر النبى صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعا قلت كذا قال ابن الاثير ولقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقى من مسجد النبى صلى الله عليه وسلم لا نفس القبر الشريف زاده الله شرفا وصلى على ساكنه ثم قال كان جمال الدين رحمه الله اسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال رحيما بالناس متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا عظيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه ثم غير وبنى غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة فكل ما فيها من ذلك فهو عمله الى سنة تسع وستمائة ولما أراد ذلك أرسل الى الامام المقتفى لامر الله هدية جليلة حتى أذن فيه وأرسل الى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج الذى يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم وعمل بعرفات مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان فى طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس فغرم على ذلك مالا كثيرا وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجرى الى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات فكان الناس يجدون به راحة عظيمة قال ومن أعظم الاعمال التى عملها انفعها انه بنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فانها كانت بغير سور ينهبها الاعراب وكان أهلها فى ضنك وضر معهم رأيت بالمدينة انسانا يصلى الجمعة فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له فسألناه عن سبب ذلك فقال يجب على كل من بالمدينة ان يدعو له لاننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب لا يتركون لاحدنا ما يواريه ويشبع جوعته فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء فاستغنينا

فكيف لا ندعو له قال وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن على ابن ابى منصور قال فلو لم يكن له الا هذه المكرمة لكفاه فخرا فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها وسمعت عن متولى ديوان صدقاته التى يخرجها على باب داره للفقراء سوى الادرارات والتعهدات قال كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره قال ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس الا انه لم يفرغ لانه قبض قبل فراغه وبنى أيضا جسرا على نهر الاريادعند الجزيرة أيضا وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان صدر الدين الجندى رئيس اصحاب الشافعى رضى الله عنه باصبهان وابن الكافى قاضى قضاة همدان قصداه فاخرج عليهما مالا جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية وصارت الموصل فى أيامه مقصدا وملجأ وكان أحب الاشياء اليه اخراج المال فى الصدقات وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق حكى لى والدى قال كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ايلبسه بخمسة دنانير فقال هذا الثمن كثير اشتروا لى قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير قال فراجعناه غير مرة فلم يفعل قال وحكى لى من اثق اليه من العدول بالموصل ان الاقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الاسعار وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملا فاحضره جمال الدين وسلم اليه مالا وقال له تخرج هذا على مستحقيه وكلما فرغ ارسل الى لانفذ غيره فلم يمض الا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين فأنفذ له شيئا آخر ففنى ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول والله ما عندى شئ ولكن خذوا هذه المحافر التى فى دارى بيعوها وتصدقوا بثمنها الى ان يأتينى شئ آخر فترسله الى الشيخ عمر فبيعت المحافر وتصدقوا بثمنها وعرفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاء ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى كانت على رأسه وأرسل الجميع قال للرسول قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة فلما وصلت الثياب الى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بثمنها وقال وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل قال احضرنى الشيخ فقال لى انطلق الى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك فاذا أتاك شئ فاحفظه الى ان أحضر عندك ففعلت واذا قد أقبل جمع من الحمالين يحملون أحمالا من النصافى والخام واذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لى تأخذ هذه الاحمال وتسير الى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب الى متوليها فلان فاذا احضر لك فلانا العربى فتوصل اليه هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه فاذا أوصلك الى فلان العربى فتوصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا الى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام توصل الى وكيلى فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ثم يأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة ويسير اليها فيتصدق به وكيلى بها بموجب الجريدة الاخرى قال فسرنا كذلك الى وادى القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام الى المدينة وقد منعهم خوف الطريق فلما رأونا ساروا معنا اليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصرى والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادى فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار فانقلبت المدينة بالدعاء له ثم سرنا الى مكة ففعلنا ما أمرنا قال وحكى لى والدى قال رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل ان يصير وزيرا فطلب منه شيئا وتردد اليه عدة أيام ثم انقطع فسأل عنه فقيل انه سافر فشق ذلك عليه ثم قال هكذا تنصرف الاحرار عن دور الكلاب ورد ذلك غير مرة ثم سأل عنه فقيل انه سار نحو ماردين فأرسل اليه خلعة ونفقة الى ماردين قال ولو رمت شرح مفردات أعماله لاطلت واضجرت وهى ظاهرة لا تحتاج الى بيان فلهذا تركنا أكثرها وقد ذكره الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار فقال اجتمعت بجمال الدين الموصلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وانا متوجه الى الحج وكانت بينى وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة فعرض على الدخول الى داره فى الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتى على الشط فكان مدة مقامى كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى وأتابك قد ركب الى الميدان وينفذ الى يقول اركب فأنا واقف أنتظرك فاركب فأسير أنا وهو فنتحدث فوجدت يوما منه خلوة من أصحابى فقلت له فى نفسى شئ يتردد من حيث اجتمعنا اشتهى ان أقوله لك وما يتفق لى خلوة وقد خلونا الساعة قال قل قلت أقول ما قاله الشريف الرضى

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد * ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتى لك تأبى ان تسامحنى * بان أراك على شئ من الزلل

وقد بسطت يدك فى انفاق المال فى الصدقات ووجوه البرّ والمعروف والسلاطين ما يحتملون اخراج المال ولا تصبر نفوسهم عليه ولو ان الانسان يخرجه من ميراثه وهذا الذى أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه فاطرق ساعة وقال جزاك الله خيرا لكن الامر قد عبر عما تخافه ففارقته وسرت الى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام ونكب جمال الدين ومات فى الحبس قلت ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى فى هذا الوزير الجواد لما نكب

ماحط قدرك من أوج العلى القدر * كلا ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذى عم أهل الارض نائله * ولم ينل شأوه فى سودد بشر
سارت صفاتك فى الآفاق واتضحت * وصدّق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به * فاخر الصبر يا طود النهى الظفر
فما ترى أحدا فى الخلق يسلم من * صروف دهر له فى أهله غير
سعوا بقصدك سرا واستبت لهم * ولو سعوا نحوه جهر الما قدروا
لولا الامانى التى تحيى النفوس بها * لمت من لوعة فى القلب تستعر
وأصدق الناس فى حفظ العهود اذا * ميزت بالفكر أحوال الورى عمر
الزاهد العابد البرّ التقى ومن * يزوره ويقوّى أزره الخضر

وقال العرقلة يرثى جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك

لا خير فى الدنيا ولا أهلها * بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما * ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الاثير قال والدى كنت أرى من الوزير جمال الدين فى الايام الشهيدية من الكفاية والنظر فى صغير الامور وكبيرها والمحاققة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية فلما وصل الامر الى الملك قطب الدين مودود بن اتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ وقد تمكن زين الدين على بن بكتكين فى الدولة تمكنا عظيما وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الامور قال فقلت له يوما أين تلك الكفاية التى كنا نراها منك فى الايام الشهيدية ما أرى الآن منها شيئا فقال لى والآن ما عندى كفاية فقلت ما هذا العمل من ذلك بشئ فقال أنت صبى غرّ ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد فى كل زمان انما الكفاية ان يسلك الانسان فى كل زمان ما يناسبه ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلوّن باقوال أصحابه فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه فهذا الذى أفعله هو الكفايه

(ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة) قال ابن الاثير فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج وكان قد سار اليها بعد عوده من فتح حارم وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم وأظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها فسار نور الدين مجدا الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير اميران فأصابه سهم أذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذى أعدّ لك لتمنيت ان تذهب الاخرى وجدّ فى حصارها وسمع الفرنج بذلك فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة وعاد نور الدين الى دمشق وفى يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده فى شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به فاعاد بعض

أصحابه فى طلبه ودلهم على مكانه وقال أظنه هنالك ضاع فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت

ان يمتر الشكاك فيك فانك الـ ـمهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى أظلاته * بالامس بين عناطل وجبال
مستر جعالك بالسعادة آية * ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها الاسليمان وقد * نلت الرقاء بوشك الاعجال
زجرى لسر بر ملكك انه * كسريره عن كل جدر عال
فلو البحار السبعة استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

قلت هذه الابيات لابن منير بلاشك ولكن فى غير هذه الغزاة فان ابن منير قد سبق انه توفى سنة ثمان وأربعين وفتح بانياس كما تراه فى سنة ستين وقد قرأت فى ديوان ابن منير وقال يمدحه يعنى نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد شراه ألف ومائة دينار وفى نسخة ووجدان خاتم ضاع منه فى الصيد قيمته ألف ومائة دينار وأنشده اياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أولها (يومالك يوم ندى ويوم نزال) يقول فيها

أخرست شقشقة الضلال وقدته * قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم * الحت فيها الحرب بعد حيال
وسعرت بين تريبهم وترابهم * ذعرا يشيب نواصى الاطفال
فوق الخطيم وقد خطمت زعيمهم * ضرباسوابقه بغير توالى
ضرب الملائت فرنجة من حره * رهبا به سيف الصقالب صالى
وبفج حارم أحرمت لقراعهم * هيم أحلن النوم غير حلال
عجموا على جسر الحديد حديدها * نبعا يعاذمه أديرد صال
زلزلت أرضهم بوقع صواعق * أعطيننا امنا من الزلزال
فى مازق شمرت ذيلك تحته * والنصر فوقك مسبل الاذيال
فى دولة غراء محمودية * سحبت رداء الجد غير مذال
تنسى الفتوح بها الفتوح وتجتنى * زهر المقال بباهر الا فعال
لبست بنور الدين نور حدائق * ثمراتهن غرائب الافضال
ملك تحجب فى السرير بزأرة * زرت حواشيها على رئبال
تجاب عن ذى لبدتين شذاته * فى بردتى بدل من الابدال
رفع الرواق بروق انطاكية * فرمى الخليج بمرهق البلبال
بدر لاربع عشرة اقتبس السنا * من خمس عشرة سورة الانفال
فوز المآل أخاضه ماء الطلى * وسواه يقعده احتياز المال
متقسم بين القسيمين العلى * عن عم عم أومخايل خال
لازلت تطلع من ثنايا جحفل * يقفو لواءك كاللوى المنهال
لك ان تطل على الكواكب راقيا * ولحاسديك بكا على الاطلال

ومما يناسب هذه السعادة فى وجدان الخاتم بعد وقوعه فى مظنة الهلاك والضياع ما بلغنى ان موسى الهادى لما ولى الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لابيه المهدى فبلغه ان أخاه الرشيد أخذه فطلبه منه فامتنع فالح عليه فيه فحنق الرشيد ومر على جسر بغداد فرماه فى دجلة فلما مات الهادى وولى الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثم أمر الغطاسين ان يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الاول فعد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه قال ابن الاثير ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين انر الذى سلم بانياس الى الافرنج قائما على

رأسه فالتفت اليه وقال له للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذلك قال لان الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم وقد تقدّم انه كان صانع بهاعن دمشق لمنازل الفرنج عليها وفيها توفى وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيبانى من بنى ذهل بن شيبان ابن ثعلبة بن الحصن وكان عالما دينا مدبرا حنبلى المذهب وزر للمقتفى ثم للمستنجد بعده وله عدّة مصنفات منها الافصاح فى شرح الاحاديث الصحاح وكان يجمع فى مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الاربعة والنحاة وغيرهم ويجرى بحضرتهم فوائد كثيرة ثم توفى وهو ساجد فى صلاة الصبح من يوم الاحد ثالث عشر جمادى الاوّل سنة ستين وخمسمائة ورؤيت له منامات حسنة ومدحه جماعة من الفضلاء ومولده فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور وهو الذى محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف اجتهد ان تستر العصاة فان ظهور معاصيهم عيب فى الاسلام وأولى الامور ستر العيوب

﴿ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة﴾ ففيها توفى فتح الدين بن أسد الدين شيركوه أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية الى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب فى قبة فيها أربع قبور هما الاوسطان منها وفى هذين الاخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان

لله شبلا أسد خادر ❊ ما فيهما جبن ولا شح
ما أقبلا الا وقال الورى ❊ قد جاء نصر الله والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا الى حصن المنيطرة وهو للفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره انما سار اليه على غرة من الفرنج وعلم انه ان جمع العساكر حذروا وجمعوا فانتهز الفرصة وسار الى المنيطرة وحصرها وجدّ فى قتالها وأخذها عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يقدر الفرنج على ان يجتمعوا لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة لاسرعوا وانما ظنوا ان نور الدين فى جمع كثير فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه هذا قول ابن الاثير وذكر القاضى ابن شدّاد ان ذلك كان فى سنة اثنتين وستين كما سيأتى والله أعلم وفيها توفى الجليس بن الحباب بمصر قال العماد فى الخريدة القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلبى السعدى التميمى جليس صاحب مصر فضله مشهور وشعره مأثور وكان أوحد عصره فى مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا ومات بها فى سنة احدى وستين وقد أناف على السبعين أنشدنى له الامير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها

ومن عجب ان السيوف لديهم ❊ تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا انها فى أكفهم ❊ تأجج نارا والاكف بحور

قال وأنشدنى له الشريف ادريس الادريسى قصيدة سيرها الى الصالح بن رزيك قبل وزارته يحرّضه على ادراك ثار الظافر وكان عباس وزيرهم قتله وقتل اخوته يوسف وجبريل يقول فيها

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا ❊ نحوهم على عمد بفعل أعادى
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم ❊ وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ❊ ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فرق جموع المارقين فانها ❊ بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى فى هذه الحادثه

ولما ترامى البربرى بجهله ❊ الى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت اليه متن عزمتك التى ❊ بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت اليهم ملكهم بعد ما لوى ❊ به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ اليه فى المعنى يقول

أعدت الى جسم الوزارة روحها ❊ وما كان يرجى بعثها ونشورها

أقامت زمانا عند غيرك طامثا * فهذا الاوان قرؤها وظهورها
من العدل ان يحظى بها مستحقها * ويخلعها مردودة مستعيرها
اذا ملك الحسناء من ليس كفؤها * أشار عليه بالطلاق مشيرها

وله يشكو طبيبا

واصل بليتي من قد غزاني * من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين * يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت * فردّ لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف * حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم * فصيرها بحذق نوبتين

قلت الابيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديوانه وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده الى الوزارة وأوّلها

لحاجة قلب ما يفيق غرورها * وحاجة نفس ليس يقضى يسيرها
وقفنا صفوفا في الديار كأنها * صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح * أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتما لي ليس في الارض جنة * أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأى وسيلة * وصلت الى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم * أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر انا عصابة * اذا ظفرت في الحب عف ضميرها
فقل لليالي كيف شئت تقلبي * ففي يد عبد الساعدين أمورها
أماني في نفس الوزارة بلغت * به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة * الى خاطب حل عليه سفورها
اذا مثل الاقوام دون عرينه * تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة * ترف على تلك الرؤس طيورها

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة) ففيها عاد أسد الدين الى مصر تاسع ربيع الآخر وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها حريصا على الدخول اليها يتحدّث به مع كل من يثق اليه وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه فلما كان هذه السنة تجهز وسار اليها وسير نور الدين معه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقله

أقول والاتراك قد أزمعت * مصر الى حرب الاعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ * صدّيق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الـ * صادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى * حقا وضراب العراقيب

ثم ان أسد الدين جدّ في السير على البر وترك بلاد الافرنج عن يمينه فوصل الى الديار المصرية وقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف في البلاد الغربيه وأقام بها أربعا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فأتوه على الصعب والذلول فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا الى الصعيد فبلغوا مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم

به فى الخامس والعشرين من جمادى الاولى وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم ولقائهم وان تحكم السيوف بينه وبينهم الا أنه خاف من أصحابه ان تضعف نفوسهم عن الثبات فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم أشار عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فالى أين نلتجى وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدوّلنا ويودون لو شربوا دماءنا وحق لعسكر عدّتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات ألوف مع ان كل أهل البلاد عدوّلهم فلما قالوا ذلك قام انسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان من الشجاعة بالمكان المشهور وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحا أومع النساء فى بيته والله لئن عدتم الى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن اقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار قال أسد الدين هذا رأيى وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وقد جعل الاثقال فى القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب وقال له ولمن معه ان الفرنج والمصريين يظنون انى فى القلب فهم يجعلون جرتهم بازائه وحملتهم عليه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار من شجعان أصحابه جماعة يثق اليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم فى الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ماذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم انه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا فى القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاليس بها منهم ديار فانهزموا أيضا وكان هذا من أعجب مايؤرخ ان ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل ثم سار أسد الدين الى ثغر الاسكندرية وجبى مافى طريقها من القرايا والسواد من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها اليه أهلها فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام بها حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فانهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين فى عسكر يمنعونها منهم وقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج فاشتدّ الحصار وقل الطعام بالبلد فصبر أهله على ذلك ثم ان أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد أفسد بعض من معه من التركمان ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابهم الى ذلك وشرط ان الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة وان الاسكندرية تعاد الى المصريين فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعاد الى الشام فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية فى النصف من شوال وأما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من انفاذ عسكر اليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنه مائة ألف دينار هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد صاحب مصر فليس اليه من الامر شئ ولا يعلم بشئ من ذلك قد حكم عليه شاور وحجبه وعاد الفرنج الى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة ثم ان الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمى وهو من أكابر أمراء الملك العادل وهو خال صلاح الدين يوسف ينهى محبته وولاءه ويسأله ان يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ويذل ما يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك وحملوا الى نور الدين مالا جزيلا فبقى الامر على ذلك الى أن قصد الفرنج مصر لتملكها فكان مانذكره ان شاء الله تعالى فى اخبار سنة اربع وستين قال القاضى أبو المحاسن ذكر عود أسد الدين الى مصر فى المرة الثانية وهى المعروفة

بوقعة البابين لم يزل أسد الدين يتحدّث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الاتراك وعلم ان أسد الدين قد طمع فى البلاد وانه لا بد له من قصدها فكاتب الفرنج وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قدمه فيها وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتد خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العسكر وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهة منه لذلك وذلك فى أثناء ربيع الاول وكان وصولهم الى البلاد المصرية مقارنا لوصول الفرنج اليها واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الفرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين وكان سبب عود الفرنج ان نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر الى بلاد الفرنج وأخذ المنيطرة وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الاهوال وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر وعاد الى الشام فى بقية السنة وقد انضم الى قوة الطمع فى البلاد شدّة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذى عرفها فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره الى شئ قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك قال وفى اثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين فى رجب وخرّب قلعة اكاف بالبرية وفى رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخربوا هونين فى شوال منها وفى ذى القعدة منها كان عود أسد الدين الى مصر وفيه مات قرا ارسلان بديار بكر

﴿فصل﴾ وفى شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الاصفهانى مصنف كتابى الفتح والبرق فانزله قاضى القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزورى بالمدرسة النورية الشافعية عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الآن الى العماد وانما نسبت اليه لان نور الدين رحمه الله ولاه اياها فى رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ الفقيه بن عبد وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ابنى شاذى من تكريت بسبب ان عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ونجم الدين أيوب اذذاك واليها فانتسجت المودة بينهم من هناك فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر الى منزله لتبجيله وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب * ولا الفراق الى عيشى بمنسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى * كرها بما ليس يا محبوب محبوبى
ارجوا ابابى اليكم ظافرا عجلا * فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأى ماضى العزم مرتفع * على الاعاجم مجدا والاعاريب
احيك الله اذ لازمت نجدته * على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك أصدقا منهما اعتصما * بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان فى يومى وغى وقرى * تعود اضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى * بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا * تحظى النفوس بتانيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف وبه * تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها باخوته * والله يجمعهم من غير تثريب

وكان انشاده هذه القصيدة فى آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة وتم ملكهم مصر بعد سنتين قال فنظمت ما فى الغيب تقديره قال وكان أسد الدين قد جمع وسار الى مصر فى الرمل فى النصف من ربيع الاوّل ووصل فى سادس ربيع الآخر الى اطفيح وعبر منها الى الجانب الغربى وأناخ بالجيزة محاذاة مصر فاقام عليها نيفا وخمسين يوما واستعان شاور بالفرنج ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة وعبروا بهم من البلاد الشرقية الى الغرب وعلم أسد الدين فسار امامهم فالتقوا

بموضع

بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين الوفا وحصل منهم فى الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا الى الاسكندرية فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها ثم قال أسد الدين أنا لا يمكننى ان احصر نفسى فأخذ العسكر وسار به الى بلاد الصعيد فاستولى عليها وجبى خراجها وأقام صلاح الدين بالاسكندرية فسار اليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين وقوى أسد الدين بقوص واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص فسمع الفرنج انه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب فلما راسلوه فى المهادنة أجاب وطلب منهم عوض ما غرمه فبذلوا له خمسين ألف دينار فخرجوا من الاسكندرية فى النصف من شوال ووصلوا الى دمشق ثامن عشر ذى القعدة وعادوا الى الخدمة النورية فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ❁ ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له ❁ ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الارض قد طويت ❁ فأنت اسكندر فى السير ام خضر
أوردت خيلا باقصى الصين صادرة ❁ عن الفرات يقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها ❁ الا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الايام سيرته ❁ وزاد فوق الذى جاءت به السير
لو فى زمان رسول الله كنت أتت ❁ فى هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والاقدام منفردا ❁ فقل لنا أعلى أنت أم عمر
اسكندر ذكروا أخبار حكمته ❁ ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته ❁ وصار فيك عيانا ذلك الخبر
أنخر فان ملوك الارض أذهلهم ❁ ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذ رقدوا بل هجت اذ سكنوا ❁ وصلت اذ جبنوا بل طلت اذ قصروا
يستعظمون الذى ادركته عجبا ❁ وذاك فى جنب ما ترجوه محتقر
قضى القضاء بما ترجوه عن كثب ❁ حتما ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك ادمان السرى وشكت ❁ من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها ❁ لغير رأيك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت ❁ مارب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا ❁ فى أمره كيف لا يقوى له المرر
يرى براءتك ما فى الملك يبرمه ❁ فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الافرنج فانتصفت ❁ منها باقدامك الهندية البتر
غرست فى أرض مصر من جسومهم ❁ اشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع فى مقام وغى ❁ به الحديد غمام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى ❁ منها الى النيل فى واديهم نهر
رأوا اليك عبور النيل اذ عدموا ❁ نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما ❁ تحت الصوالج يوما خفت الاكر
افنت سيوفك من لاقت فان تركت ❁ قوما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج الا الذى عاقته من خبث ❁ وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرية قد ❁ نادى القصور عليهم انهم قهروا
وشاور شاوروه فى مكايدهم ❁ فكاده الكيد لما خانه الحذر

كانوا من الرعب موتى فى جلودهم ❊ وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وان من شيركوه الشرك منخزل ❊ والكفر منخذل والدين منتصر
عوّل على فئة عند اللقاء وفت ❊ وعدّ عن تركمان قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكه ❊ والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك اله الخلق دعوة من ❊ يطيب بالليل من انفاسه السحر

وقال العماد واتصلت بينى وبين صلاح الدين يوسف بن أخيه مودة تمت لى بها على الزمان عدة ولم يزل يستهدينى نظمى ونثرى ويشعرنى انه يميل الى شعرى فأول ماخدمته به هذه الكلمه

كيف قلتم بمقلتيه فتور ❊ وأراها بلا فتور تجور
مستجير جورى وانى منه ❊ بابن أيوب يوسف مستجير
فضله فى يد الزمان سوار ❊ مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم ❊ وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحنّ اليه ❊ وهو فى المهد سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالاد ❊ س صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم ❊ امل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاور مثل فرعو ❊ ن فذل اللاجى وعز العبور
شارك المشركين نعيا وقدما ❊ شاركتها قريظة والنضير
والذى يدعى الامامة بالقا ❊ هرة ارتاع انه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم ❊ ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهفرى هانوا ففروا ❊ ومن الاسد كل كلب فرور
انما كان للكلاب عواء ❊ حيث ما كان للاسود زئير
وفليب عند الفرار سليب ❊ فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الاصاغر للسبـ ❊ ـى فودّوا وان الكبير صغير
وحميت الاسكندرية عنهم ❊ ورحى من بهم عليهم تدور
حاصروها وما الذى بان من ذبـ ❊ ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الاحزاب طيبة قدما ❊ ونبى الهدى بها منصور
فاشكر الله حيث اولاك نصرا ❊ فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم ارجف الاعادى فقلنا ❊ ما لما تذكرونه تأثير
ورقبنا كالعيد عودك فاليو ❊ م به للانام عيد كبير
عاد من مصر يوسف والى يعـ ❊ ـقوب بالتهنيات جاء البشير
فلايوب من اياب صلاح الـ ❊ ـدين يوم به توفى النذور
ولكم عودة الى مصر بالنـ ❊ ـصر على ذكرها تمر العصور
فاستردوا حق الامامة ممن ❊ خان فيها فانه مستعير
وافترعها بكر الهابدى الده ❊ ر رواح فى مدحكم وبكور
أنا سيرت طالع العزم منى ❊ والى قصدك انتهى التسيير
وأرى خاطرى لمدحك الفا ❊ انما يألف الخطير الخطير

وهى والتى قبلها طويلتان جدا فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين وكان له مساعدا عند نور الدين وقرأت فى ديوان العرقلة وقال يمدح أسد الدين شيركوه وقد أخذ الشقيف ورحل طالبا حصنا يقال له العراق

رحلت من الشقيف الى العراق ✻ بعزم كالمهندة الرقاق
ونكست الاعادى منه قهرا ✻ ومجدك فى ذرى الجوزاء باقى
بجاشك لا بجيشك نلت هذا ✻ وبالتوفيق لا بالاتفاق
فدا أولك من مضى بالحصن قبلى ✻ الى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الاسلام بؤسا ✻ اذا هلك الجميع وأنت باقى
اشاوركم تشاور كل خب ✻ وتنفق عند مثلك بالنفاق
اتصبر ان أتتك بحار خيل ✻ وقدما ما صبرت على السواقى
متى رفعت لك السودان رأسا ✻ وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد ✻ ومن عندى ثلاثا بالطلاق
هو الاسد الذى مازال حتى ✻ بنا مجدا على السبع الطباق

✻(فصل)✻ قال ابن الاثير وفى هذه السنة أرسل نور الدين الى أخيه قطب الدين يطلب ان يعبر الفرات اليه بعساكره فتجهز وسار هو وزين الدين فى العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص فدخل بالعساكر الاسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الاكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها وتوجهت عساكر المسلمين يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتح العريمة وصافيثا وعاد الى حمص فصام بها شهر رمضان ثم سار الى بانياس وقصد قلعة هونين وهى للفرنج أيضا من قلاعهم المنيعة فانهزم الفرنج عنها واحرقوها فقصدها نور الدين فوصلها من الغد وخرب سورها جميعه وأراد الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلل أوجب التفرق فعاد وسار قطب الدين الى الموصل واقطعه مدينة الرقة فأخذها فى طريقه قال وفى هذه السنة عصى الامير غازى بن حسان المنبجى صاحب منبج على نور الدين وهو كان اقطعه اياها فأرسل اليه نور الدين عسكرا حصره بها وأخذها منه واقطعها أخاه قطب الدين ينال ابن حسان وكان عاقلا خيرا حسن السيرة فبقى بها الى ان أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتى وفيها توفى القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير صاحب كتاب الجنان قال العماد فى الخريدة كان ذا علم غزير وفضل كثير قتله شاور صبرا فى سنة اثنتين وستين ونسب اليه انه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده وأخوه المهذب أبو على الحسن بن على بن الزبير أشعر منه وتوفى قبله بسنة لم يكن فى زمانه أشعر منه وله شعر كثير منه قصيدة غراء فى مدح الصالح بن رزيك وذكر فيها نور الدين أولها

أعلمت حين تجاور الحيان ✻ ان القلوب مواقد النيران
يا كاسر الاصنام قم فانهض بنا ✻ حتى تصير مكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده ✻ عن قومك الماضين من غسان
واذا شككت بأنها أوطانهم ✻ فلتسأل عن حارث الجولان
أو رمت ان تتلو محاسن ذكرهم ✻ فاستنذر وايتها الى حسان
مازلزلت أرض العدى بل ذاك ما ✻ بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول ان حصونهم سجدت لما ✻ أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت الى الفرنج كتائبا ✻ كالاسد حين تصول فى خفان
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم ✻ ان البحار تجل فى غدران
نجلت فى تل العجول قراهم ✻ وهم لك الضيفان بالذيفان
وثللت فى يوم العريش عروشهم ✻ يشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما ان جرى ✻ منه ومن دمهم معا بحران
ولقد أتى الاسطول حين غزا بما ✻ لم يأت فى حين من الاحيان
وأعدت رسل ابن القسيم اليه فى ✻ شعبان كى يتلاءم الشعبان

والفال يشهد فى اسمه ان سوف يغـــدوا الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعـد الشهيـد أباله ❁ وجعلته من أقرب الاخوان
وهوالذى مازال يفعل فى العدى ❁ مالم يكن ليعـدّ فى الامكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه ❁ لمـا غسا فى البغى والعـدوان
وأرى البرية حين عاد برأسـه ❁ مرّ الجنى يبدو على المرّان
وتعجبوا من زرقـة فى طرفـه ❁ وكانّ فوق الرمح نصـلا ثانى
عجبـا لجود يديه اذ يبنى العـلا ❁ والسيل يهدم ثابت الاركان
قلدت أعنـاق الـبرية كلهـا ❁ مننـا تحمل ثقلهـا الثقـلان
حتى تساوى الناس فيك واصبح الـــقاصى بمنزلة القريب الدانى

وفى هذه السنة ذكر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى للسلطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب وعرّفه به وعرض عليه قصيدة له فى مدحه مطلعها

محمد محمـــد عيش بلدة ❁ مالكهـا بعدله محمودهـا
مؤ يد أموره بعـــزمة ❁ من السموات العلى تأييدها
لوحفظت يوم النوى عهودها ❁ ما مطلت بوصلكم وعودها
آثا ره حميـــدة وانمـا ❁ للمـرء من آثاره حميـدهـا
ان الورى بحبـه و بغضـه ❁ يعرف من شقيها سعيدهـا
قـد جاءكم نور من الله فمن ❁ به اهتدى فانه رشيدهـا
جلا ظلام الظلم نور الدين عن ❁ أرض الشام فله تمجيدهـا
انّ الرعايا منـــه فى رعاية ❁ ونعمة مستوجب مزيدهـا
لنومهـا يسهـر بل لأمنهـا ❁ يخاف بل يخصبهـا بجودهـا
بالدين والملك له قيـامـه ❁ وللملوك عنهما قعودهـا
ودأبه ثلم ثغور الكفر لا ❁ لثم ثغور نافـع برودهـا
قد أسبغ الله لنا بعـدله ❁ ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم فى دولتـه ❁ وهـم على رغمهم عبيدهـا
لمـا أبت هاماتهم سجودهـا ❁ لله أضحى للظبى سجودهـا
ان فارقت سيوفه غمودهـا ❁ فانّ هـاماتهـم غمودهـا
كم مغلقات من حصون عزمه ❁ مفتاحها وسيفه أقليدهـا
قد ودّت الفرنج لو فرّت نجت ❁ منك ولكن روعها مبيدها
قهرتهـا حـتى لودّ حيهـا ❁ من ذلة لو أنه فقيـدهـا
أماتهـا رعبـك فى حصونهـا ❁ كانمـا حصونهـا لحودهـا
وان مصر الك تعنو بعدما ❁ لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغـراء خال بالهـا ❁ عال سناها بك حال جيدهـا
مفـترّة ثغورها ممنوعـة ❁ ثغورها محفوظة حدودهـا
وان بغى جالوتهـا ضـلالة ❁ فانت فى اهلاكه داودهـا
يا ابن قسيم الدولة الملك الذى ❁ خرّت له من الملوك صيدها
دع العـدى بغيظهـا فانمـا ❁ يذيب أكباد العدى حقودها
يا دولة نورية أمن الورى ❁ وخصبها وجودها وجودها

ما مثل الدنيا لمن يجمعها ❋ بالحرص الا قزة ودودها
اين الذى يرفضها عن قدرة ❋ فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاؤه ❋ فى كل عام للبرايا عيدها
فى نعمة جديدة سعودها ❋ ودولة سعيدة جدودها

وهى طويلة فرتبه نور الدين فى ديوانه منشئا الاستقبال سنة ثلاث وستين قال ووجدت على الايام منه الاعزاز والتمكين قلت وذلك بعد ان استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الانشا وقعد فى بيته كذا ذكر العماد فى الخريدة وقال تولى ديوان الانشا بالشام سنين كثيرة وله مقاصد حسنة فى الكتب وهو حميد السيرة جميل السريرة وفيها توفى الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعانى المروزى رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة﴾ فذكر العماد ان نور الدين رحل الى حمص ثم مضى الى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الاسد والصلاح ونزل العماد بمدرسة ابن العجمى وكتب الى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه فى الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى

لا تنكرن لسابح عثرت به ❋ قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه ❋ فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكفك ❋ عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه اذ تذكر انه ❋ فى السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا ❋ أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره ❋ فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له ❋ ان الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرها ❋ لا كان ناظرها بسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى ❋ فى الحادثات معاضدا ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لاهله ❋ لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الامام شرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون مكاتبات كتب اليه العماد

أيا شرف الدين ان الشتا ❋ بكافاته كف آفاته
وكفك من كرم كافها ❋ لقد كفلت لى بكافاته
وانك من عرفه شكرنا ❋ غدا عاجزا عن مكافاته

قال فكتب الى شرف الدين فى جوابها

اذا ما الشتاء وأمطاره ❋ عن الخير حابسة رادعه
فكافاته الست أعطيتها ❋ وحوشيت من كافه السابعه
وكف المهابة والاحتشا ❋ م لكنى عن بره مانعه
وهمة كل كريم الخا ❋ ر بميسور أحبابه قانعه
ونفسى فى بسط عذرى اليه ❋ جعلت الفداء له طامعه
وشوقى الى قربه زائد ❋ ومعذرتى ان جفا واسعه

قال فكتبت اليه جوابها

أيا من له همة فى العلى ❋ لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ماترا ❋ ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل فى سوق افضاله ❋ بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عصرون فى عصرنا ❋ امام أدلته قاطعه

خبر فوائده جمة * وبحر موارده واسعه
أيا شرف الدين شرفتنى * باهداء رائقة رائعه
أطعت أوامرك الساميا * ت ومابرحت همتى طائعه
أرى كل جارحة لى تو * د لو أنها أذن سامعه
وأما الشتاء وكافاته * وكفك عن كافه الرابعه
فنفسى منزهة بالعفا * ف عنها وفى غيرها طامعه
وماذا تطيق اذا لم تكن * بميسور سيدنا قانعه

وهى أكثر من هذا قال وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت افعاله فبعث اليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه ثم توجه نور الدين اليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول

بشرى الممالك فتح قلعة منبج * فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به * فى الملك يفتح كل باب مرتج
وافى يبشر بالفتوح وراءه * فانهض اليها بالجيوش وعرج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجا * ولمنبج لسواه كالانموذج
ما أعجزتك الشهب فى أبراجها * طلبا فكيف خوارج فى أبرج
ولقد من تعصيك أحقر أن يرى * أثر العبوس بوجهك المتبلج
لكن تهذب من عصاك سياسة * فى ضمنها تقويم كل معوج
فانهض الى البيت المقدس غازيا * وعلى طرابلس ونابلس عج
قد سرت فى الاسلام أحسن سيرة * مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سنن الهدى * جددت منه كل رسم مبهج

قال العماد وسار نور الدين من منبج الى قلعة نجم وعبر الفرات الى الرها وكان بها نائل صاحب منبج وهو سديد الرأى رشيد المنهج فنقله اليها مقطعا وواليا وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة فدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين فى عرضها وهى

أدركت من أمر الزمان المشتهى * وبلغت من نيل الامانى المنتهى
وبقيت فى كنف السلامة آمنا * متكرما بالطبع لا متكرها
لازلت نور الدين فى فلك الهدى * ذا غرة للعالمين بها البها
يا محيى العدل الذى فى ظله * من عدله رعت الاسود مع المها
محمود المحمود من أيامه * لبهائها ضحك الزمان وقهقها
مولى الورى مولى الندى معلى الهدى * مردى العدى مسدى الجدى معطى اللها
آراؤه بصوابها مقرونة * وبمقتضاها دائر فلك النهى
متلبس بعفافه وحصانه * متقدس عن شوب مكر اودها
يا من أطاع الله فى خلواته * متاوبا من خوفه متأوها
أبدا تقدم فى المعاش لوجهه * عملا يبيض فى المعاد الاوجها
كل الامور وهى وامرك مبرم * مستحكم لا نقض فيه ولا وها
ماصين عنك الصين لو حاولتها * والمشرقان فكيف منبج والرها
ما للملوك لدى ظهورك رونق * واذا بدت شمس الضحى خفى السها
ان الملوك لهوا وانك من غدا * وبماله والملك منه ماالها
شرهت نفوسهم الى دنياهم * وأبى لنفسك زهدها ان تشرها

مانعمت عن خير ولم يك نائما ❊ من لا يزال على الجميل منبها
أخملت ذكر الجاهلين ولم تزل ❊ ملكا بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا ❊ تغني فقيرا أو تجبر مدلها
لرضاهم متحفظا ولحالهم ❊ متفقدا ولدينهم متفقها
وبما به أمر الاله أمرتهم ❊ من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل ❊ عن رأفة لكبيرهم لن تشدها
باليأس عندك أمل لم يمتحن ❊ بالرد دونك سائل لن يجبها
أتعبت نفسك كي تنال رفاهة ❊ من ليس يتعب لا يعيش مرفها
فقت الملوك سماحة وحماسة ❊ حتى عدمنا فيهم لك مشبها
ولك الفخار على الجميع فدونهم ❊ أصبحت عن كل العيوب منزها
وأراك تحلم حين تصبح ساخطا ❊ ويكاد غيرك ساخطا أن يسفها

قلت رحمه الله العماد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه وهذا البيت الاخير مؤكد لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله في وصف نور الدين رحمه الله انه لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره وقل من الملوك من له حظ من هذه الاوصاف الفاضله والنعوت الكامله قال العماد ثم عاد نور الدين الى حلب في شهر رجب وضربت خيمته في رأس الميدان الاخضر قال وكان مولعا بضرب الكرة وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفره وبركب صلاح الدين مبكرا كل بكره وهو عارف بآدابها في الخدمة وشروطها المعتبره قال وأقطعه في تلك السنة ضيعتين احداهما من ضياع حلب والاخرى من ضياع كفرطاب قال وكتب اليه في طلب كنبوش

أصبحت بغلتي تشكى من العر ❊ ي وأسراجها بلا كنبوش
قلت كفي خير يوميك عندي ❊ ان تنوزى بالتبن أو بالحشيش
وافرحي ليلة الشعير كما يفر ❊ ح قوم بليلة المأشوش
لو تبصرت حالتي لتصبر ❊ ت فما لك عندها ان تطيشي
أوما مات في الشتاء من البر ❊ د ومن فرط جوعه أكديشي
فثقي واسكني بجود صلاح الـ ❊ ـدين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يجلوك للعيون بكنبو ❊ ش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه في عثار ❊ وولي بجوده منعوش
والموالي على الاسرة والاعـ ❊ ـداء تحت الهوان فوق النعوش

قال وأقطع أسد الدين حمص واعمالها فسار اليها فسد ثغورها وضبط أمورها وحمى جمهورها وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها وبلي الفرنج منه بالمغادر المراوغ ذي البأس الدامغ وسأله نور الدين في السلو عن حب مصر وقال قد تعبت مرتين واجتهدت ولم يحصل لك ما طلبت. وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا السؤال بالشفاعه وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعه قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنه

دمت في الملك آمرا ذا نفاذ ❊ أسد الدين شيركوه بن شاذي
يا كريم عن كل شر بطيئا ❊ والى الخير دائم الاغذاذ
ان كهف الاسلام أنت فلا زلـ ❊ ـت لاهل الاسلام خير ملاذ
وبقلب الكفار رعبك قد حل ❊ بصدع الاكباد والافلاذ
لم تدع بالظبى رؤسا وأصلا ❊ ما من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ ❊ ـر لنصر الامام في بغداذ

وبلاد الاسلام أنقذتها أنت من الشرك أيما انقاذ

﴿فصل﴾ فى وفاة زين الدين قال ابن الاثير وغيره فى سنة ثلاث وستين سار زين الدين على بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل الى أربل وسلم جميع ما كان بيلاده من البلاد والقلاع الى قطب الدين ماعدا أربل فانها كانت له من أتابك زنكى رحمه الله تعالى فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميديه وقلاع الهكارية جميعها وكان نائبه بتكريت الامير تبر فأرسل اليه ليسلمها فقال ان المولى أتابك لا يقيم بتكريت ولا بدله من نائب فيها وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلى فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد وأما شهر زور فكان بها الامير بوزان فقال مثله أيضا فأقرت بيده فكان فى طاعة قطب الدين وسبب فراق زين الدين انه أصابه عمى وصمم وأقام بأربل الى أن توفى بها فى ذى الحجة من هذه السنة وكان قد استولى عليه الهرم وضعفت قوته وكان خيرا عادلا حسن السيرة جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة قليل العذر بل عديمه وكان اذا وعد بشئ لا بدله من أن يفعله وان كان فعله خطيرا وكان حاله من أعجب الاحوال بينما يبدو منه مايدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه مايدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء بلغنى انه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر انه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الاجناد فأحضره وذكر انه نفق له دابة فأمر له بفرس وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا فلما أحضره آخرهم قال لهم أما تستحيون منى كما أستحيى أنا منكم قد أحضر هذا عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحد كم أتظنون اننى لا أعرفه بلى والله وانما أردت أن يصلكم عطائى بغير منّ ولا تكدير فلم تتركونى ليس الغبى بسيد فى قومه ❊ لكن سيد قومه المتغابى

قال وكان يعطى كثيرا ويخلع عظيما وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيأ بل أنفذه جميعه فى العطايا والانعام على الناس وكان يلبس الغليظ ويشدّ على وسطه كل مايحتاج اليه من سكين ودوفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم ينهزم له رايه وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيرا جدّا وبنى مدارس وربطا بالموصل وغيرها وبلغنى انه مدحه الحيص بيص فلما أراد الانشاد قال له أنا لا أدرى ما تقول لكن اعلم انك تريد شيأ فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا وخلعة وثيابا يكون مجموع ذلك ألف دينار قال ومكارمه كثيرة ولما توفى بأربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولى لامورها وولى بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبرى مدّة ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز وجرت أمور يطول ذكرها ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح فسلك غير طريق زين الدين فكرهه الناس وذموه فلم تطل أيامه وسيجئ ذكر عزله فى أخبار سنة ست وستين ان شاء الله تعالى

❊(ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة)❊ ففى أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين بلك بن على بن بلك العقيلى من آل عقيل من بنى المسيب وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدّم ذكر ذلك وهى من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لا يطمع فيها بحصار وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه وقتل عليها عماد الدين زنكى والد نور الدين ثم اتفق ان خرج صاحبها منها يوما يتصيد فصاده بنو كلب فأخذوه أسيرا وأوثقوه وحملوه الى نور الدين فتقرب بابه اليه وذلك فى رجب من سنة ثلاث وستين فحبسه بحلب وأحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل به نور الدين الى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضا فسير اليها عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفرانى فحصرها مدّة فلم يظفر منها بشئ فأمدّهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه والى معاقله فأقام عليها وطاف حواليها فلم يرله فى فتحها مجالا ورأى أخذها بالحصر متعذرا محالا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التى فى عمل حلب والباب وبزاعة وعشرين ألف دينار معجلة فأخذ جميع ماشرطه مكرها فى صورة مختار قال ابن الاثير وهذا اقطاع عظيم جدّا لكنه لاحظ فيه وتسلم مجد الدين قلعة جعبر

وصعد

وصعد اليها منتصف المحرم ووصل كتابه الى نور الدين بحلب فسار اليها وصعد القلعة فى العشرين من المحرم ثم سلمها نور الدين الى مجد الدين بن الداية فولاها أخاه شمس الدين على وكان هذا آخر امر بنى مالك ولكل أمر حد ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء قال ابن الاثير بلغنى انه قيل لشهاب الدين أيما أحب اليك وأحسن مقاما السروج والشام أم القلعة فقال هذا أكثر مالا والعز بالقلعة فارقناه قال العماد وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها

أسلم لبكر الفتوح مفترعا ❊ ودم لملك البلاد منتزعا
فان أولى الورى بها ملك ❊ غدا بعبء الخطوب مضطلعا
ان ضاق أمر فغير همته ❊ لكشف ضيق الامور لن يسعا
يا محيى العدل بعد ميتته ❊ ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذى قمع الـ ❊ شرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان فى العفاف وفى الـ ❊ ملك وتحكى بزهدك اليسعا
حزت البقا والحياء والكرم المحـ ❊ ض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطما وجدت من المكـ ❊ س بعدل والقاسطار تدعا
ولم تدع فى ابتغاء مصلحة الـ ❊ دين لنا باقيا ولن تدعا
وكل ما فى الملوك مفترق ❊ من المعانى لملكك اجتمعا
هتك الربط والمدارس تبنيـ ❊ ـها ثوابا وتهدم البيعا
ما زلت ذا فطنة مؤيدة ❊ على غيوب الاسرار مطلعا
بيأسك البيض والطلى اصطحبت ❊ بعدلك الذئب والطلا رتعا
كم صائد لم يقع له قنص ❊ فى شركك وهو فيه قد وقعا
ومالك حين رمت قلعته ❊ غدا مطيعا للأمر متبعا
عنا خشوعا لرب مملكة ❊ لغير رب السماء ما خشعا
كان مقيما منها على الفلك الـ ❊ ـعلى شهابا بنوره سطعا
لكنما الشهب ما تنير اذا ❊ لاح عمود الصباح فانصدعا
يدفعها طائعا اليك وكم ❊ عنها اباء بجهده دفعا
هى التى فى علوها زحل ❊ كر على وردها وما كرعا
وهى التى قاربت عطارد فى الـ ❊ ـأفق فلاحا والفرقدين معا
كان منها اذا استرق السمـ ❊ ـع أتاها فى خفية ودعا
هضبة عز لولاك ما ارتقيت ❊ وطود ملك لولاك ما فرعا
ما قبلت فى ارتقاء ذروتها ❊ من ملك لارقى ولا جذعا
عزت على المالك الشهيد واعـ ❊ ـطتك قيادا ما زال ممتنعا
للاب لو حل خطبها الغد ❊ محرما الابنه وما شرعا
لازلت محمود فى أمورك محمو ❊ دا بثوب الاقبال مدرعا

(وفيها) فى سابع عشر صفر من هذه السنة توفى بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية وفيه وفى أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة

أنتم لمحمود كآل محمد ❊ متصادق الافعال والاسماء
يتلو أبابكر على حسناته ❊ عمر الممدح فى سنا وسناء
ويليه عثمان المرجى للعلا ❊ وعلى المأمول فى اللأواء

وتقبل الحسن المجد مجدهم ❊ فهم ذووا الاحسان والنعماء
فرعت لمجد الدين اخوته الذرى ❊ دون الورى فى المجد والعلياء
من سابق كرما وشمس ساده ❊ شرفا وبدر دجنـــة وبهاء
سرج الهدى سحب الندى شهب النهى ❊ أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان وشمس الدين علي وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ومجد الدين هو الاكبر فهم خمسة رحمهم الله

(فصل) وفى هذه السنة فتحت الديار المصرية سار اليها أسد الدين مرة ثالثة فهزم العدوّ وقتل شاور وولى الوزارة مكانه ثم مات فوليها صلاح الدين وسبب ذلك ان الفرنج كانوا فى النوبتين الاوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها فطمعوا فيها ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد فجمعوا وحشدوا وقالوا ما بمصر من يصدنا واذا اردناها فمن يردنا ثم قالوا نور الدين فى البلاد الشمالية والجهة الفراتية وعسكر الشام متفرق كل منهم فى بلده حافظا لما فى يده ونحن ننهض الى مصر ولا نطيل بها الحصر فانه ليس لها معقل ولا لاهلها منا موئل والى ان تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الاسلام فتوجهوا اليها سائرين ونحوها ثائرين واظهروا انهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من اعداء شاور وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة واسكنوا فرسانهم ابواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره وتحكموا تحكما كبيرا فطمعوا فى البلاد وارسلوا الى ملكهم مرى ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه لتملك البلاد واعلموه خلوها من ممانع عنها وسهلوا امرها عليه فلم يجبهم الى المسير واجتمع فرسان الفرنج وذووا الرأى والتقدم وأشاروا عليه بالمسير اليها والاستيلاء عليها فقال لهم الرأى عندى ان لا نقصدها فانها طعمة لنا واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة اهل بلاده وفلاحيه لا يسلمونها الينا ويقاتلونا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين وان أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا الى قوله وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ والى ان يصل الخبر الى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها فاجابهم الى ذلك على كره شديد وتجهزوا وأظهروا انهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص وتوجهوا من عسقلان فى النصف من المحرم ووصلوا أوّل يوم من صفر الى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا اهلها وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم مثل فعلهم باهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه ولو ان الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى الله أمرا كان مفعولا وكان شاور أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوما الى خامس ربيع الآخر ثم ضاق الحصار وخيف البوار وعرف شاور انه يضعف عن الحماية فشرع فى تمحل الحيل وأرسل الى ملك الافرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وان هواه معه وتخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد الى نور الدين فاجابه الى الصلح على أخذ الف الف دينار مصرية يعجل البعض ويؤخر البعض واستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال نتقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود الى البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ولا غيره ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر ارسل الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فقام نور الدين لذلك وقعد وشرع فى تجهيز

العساكر الى مصر ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين واعلامه بما لقى المسلمون من الفرنج و بذل له ثلث البلاد من مصر وان يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر واقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين هذا قول ابن الاثير وقال العماد عجل شاور للملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعا وارغاما له واطماعا وواصل بكتبه الى نور الدين مستصرخا مستنفرا وبما ناب الاسلام من الكفر مخبرا ويقول ان لم تبادر ذهبت البلاد وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها وفى طيها ذوائب مجزوزة وعصائب محزوزة أظن انها شعور أهل القصر للاشعار بما عراهم من بلية الحصر وارسلها اتباعا وأردف بها نجابين سراعا وأقام منتظرا ودام متحيرا وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم فى كل حين مالا ويطالب منهم امهالا وما زال يعطيهم ويستميلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله

﴿فصل﴾ فيما فعله نور الدين كان نور الدين لما أتاه الرسل اولا من العاضد قد أرسل الى أسد الدين ليستدعيه من حمص وهى اقطاعه فلما خرج القاصد من حلب لقى أسد الدين قد وصلها وكان سبب وصوله ان كتب المصريين أيضا وصلته فى هذا الامر فبقى مسلوب القرار مغلوب الاصطبار لانه كان قد طمع فى بلاد مصر فخاف خروجها من يده وان يستولى عليها الكفر فساق فى ليلة واحدة من حمص الى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله فتعجب نور الدين من ذلك وتفأل به وشكره وأمره بالتجهز الى مصر والسرعة فى ذلك وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والاسلحة وحكمه فى العساكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس واخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس فكان فى مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسليم قلعة جعبر ثم سار هو ونور الدين الى دمشق ورحلا فى جميع العساكر الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين دينارا معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذى له وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليك منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قليج وشرف الدين برغش وناصح الدين خمارتكين وعين الدولة ابن اليا روق وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وغيرهم ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر وذلك منتصف ربيع الاول وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء وأقام ينتظر ورود المبشرات فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين الى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر وامر نور الدين بضرب البشائر فى سائر بلاده وبث رسله الى الآفاق بذلك وقال القاضى أبو المحاسن لقد قال لى السلطان يعنى صلاح الدين كنت أكره الناس للخروج فى هذه الدفعة وما خرجت مع عمى باختيارى قال وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وقال ابن الاثير احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه حكى لى عنه انه قال لما وردت الكتب من مصر الى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه مستصرخين ومستحضرين احضرنى واعلمنى الحال وقال تمضى الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولى اليه يامره بالحضور وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير قال ففعلت فلما فارقنا حلب على ميل منها القيناه قادما فى هذا المعنى فقال له نور الدين تجهز للمسير فامتنع خوفا من غدرهم اولا وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانيا فأعطاه نور الدين الاموال والرجال وقال له ان تأخرت أنت عن المسير الى مصر فالمصلحة تقتضى ان أسير انا بنفسى اليها فاننا ان أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال فالتفت الىّ عمى أسد الدين وقال تجهز يا يوسف قال فكأنما ضرب قلبى بسكين فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا انساه ابدا فقال عمى لنور الدين لا بد من مسيره معى فترسم له فامرنى نور الدين وانا استقيله ثم انقضى المجلس ثم جمع اسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير فقال لى نور الدين لا بدّ من مسيرك مع عمك فشكوت اليه المضايقة وقلة الدواب وما احتاج اليه فاعطانى ما تجهزت به وكأنما أساق الى الموت وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته فسرت معه فلما استقر أمره وتوفى اعطانى الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه قلت وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال

وهل أخشى من الانواء بخلا ❊ اذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحا * وللاعداء لم يبرح فسادا
لئن اعطاه نور الدين حصنا * فان الله يعطيه البلادا
الى كم ذا التوانى فى دمشق * وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها اسد هزبر * يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يامعشر الاجناد سيروا * وراء لوائه تلقوا رشادا
فكل امرء صلى مع الناس مأموما كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة على داره فوجدها مغلقة فقال

عبرت على دار الصلاح وقد خلت * من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه * لغرقها طرفى وأحرقها قلبى

ودار صلاح الدين هى التى وقفها رباطا للصوفية بحارة قطامش جوار قيسارية القصاع واليها يجرى الماء من حمام نور الدين رحمه الله فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج وتملك صلاح الدين على ما سيأتى وللامير الفاضل أسامة بن منقذ فى صلاح الدين من قصيدة أولها (سلم على مصر لاربع بذى سلم) يقول فيها

الناصر الملك الموفى بذمته * ومن ندى كفه يغنى عن الديم
ومن اذا جرد البيض الصوارم فى الهيجاء اغمدها فى البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة فى انتزاعه بشبا الهندية الخذم
ورد طاغية الافرنج يحسب ما * رجاه من ملك مصر كان فى الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت * بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصعدون على مافاتهم نفسا * لولا فم البحر أضحى الموج كالحمم
وفى السلامة لولا جهلهم ظفر * لمن أراد نزال الاسد فى الاجم
وهم اسود الشرى لكن أذلهم * ملك لديه الاسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى

اقمت عمود الدين حين أماله * لطاغى الفرنج الغتم طاغى بنى سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم * خزايا عليهم خيبة الذل والرد
أفدت بما قدمت ملكا مخلدا * وذكرا مدى الايام يقرن بالحمد
وذكرك فى الآفاق يسرى كانه الصباح له نشر الالوة والند

ولابى الحسن بن الذروى فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرى

ولكم أشمت الروم أشأم بارق * أضحت مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مده * ومضى وقد حكمت ظباك بجزره
ولقيت مرى يا وطعم حياته * حلو فبدد له القتال بمره
فاعقد اليه الرأى فى عذب القنا * واحلل بها عجلا معاقد مكره
واطرده من وكر الشآم فانه * قد طار منك بخافق من ذعره

(فصل) فى القبض على شاور وقتله وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاورا المنع من ذلك لرأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على اظهار ما فى نفسه فكتمه وهو يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة لاسد الدين ومن معه من الامراء ويقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن

أسد الدين فقال له أبوه والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعا فقال صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من ان نقتل وقد ملكها الفرنج فليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لومشى العاضد الى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه فلما رأى العسكر النورى المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم فقالوا انا ليس لنا في البلاد شئ مهما هذا على حاله فأنكر ذلك واتفق ان أسد الدين سار بعض الايام الى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به فلاقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه ان أسد الدين في الزيارة فقال نمضي اليه فساروا وهما معه قليلا ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه وأخذ أسيرا ولم يمكنهم قتله بغير اذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه الاتمام ما عملوه وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك فقتل شاور في يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر وحمل رأسه الى القصر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور فقصدها الناس ينهبونها فتفرّقوا عنه هذا قول ابن الاثير وقال ابن شدّاد أقام أسد الدين بها يتردّد اليه شاور في الاحيان وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئا وعلقت مخاليب الاسد في البلاد وعلم ان الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وان تردّدهم اليها في كل وقت لا يفيد وان شاور ايلعب بهم تارة وبالافرنج أخرى وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم وعلموا انه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فاجمعوا أمرهم على قبضه اذا خرج اليهم وكانوا هم يتردّدون الى خدمته دون أسد الدين وهو يخرج في الاحيان الى أسد الدين يجتمع به وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر على قبضه منهم الا السلطان نفسه يعني صلاح الدين وذلك انه لما سار اليهم راكبا وسار الى جانبه أخذ بتلابيبه وأمر العسكر ان خذوا على أصحابه ففرّوا ونهبهم العسكر وقبض شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه فحزت رقبته وأنفذوا رأسه اليهم قال العماد ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الايوان وخلع عليه ولقى الاحسان وتردّد شاور الى أسد الدين وتودّد وتجدّد بينهما من الوداد ما تأكد وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والاطعمة الواسعة والحلاوات والميره فقال صلاح الدين هذا امر يطول ومسألة فرضها يعول ومعناه هذا العسكر الثقيل واقامته بالاقامة يقصر عنها الامد الطويل ولا أمر لنا مع استيلاء شاور لاسيما اذا راوغ وغادر فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى الى شاور يشير عليه بالاحتراس وقال له أخشى عليك من عندى من الناس فلم يكترث بمقاله وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صلاح الدين في الامراء النوريه وهو راكب على عادته في هيئته الوزيريه فبغته وشحته وقبضه وأثبته ووكل به في خيمة ضربها له وحاول أمهاله فجاء من القصر من يطلب راسه ويعجل من العمر ياسه وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا ان يرجعوا الا بنجح السول فحم حمامه وحمل الى القصر هامه قلت وبلغني ان الذى حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد افراده عن العسكر فالتمس منه المسابقة بفرسيهما فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك وكان ذلك عن أمر قد تقرر فحركوا خيلهم فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة

لقد فاز بالملك العقيم خليفة ❋ له شيركوه العاضدي وزير
كانّ ابن شاذى والصلاح وسيفه ❋ علىّ لديه شبر وشبير
هو الاسد الضارى الذى جل خطبه ❋ وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل ❋ على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ❋ ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضا

ان امير المؤمنين الذى ❊ مصر حماه وعلىّ أبوه
نص على شاور فرعونها ❊ ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمنى فى كتاب الوزراء المصرية الذى صنفه حال شاور فى وزارته الاولى ثم قال وزارة شاور الثانية فيها انكشفت صفحاته وأحرقت لفحاته وأغرقت جرحاته وغضه الدهر وعضه وأوجعه الشكل وأمضه وبان غمره وثماده وجمره ورماده ولم يجف من الانكاد لبده ولا صفا من الاقذاء ورده وماهو الاان تسلمها بالراحه وسلمت له الهموم عوضا عن الراحه وفى أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالبا بلبيس فأقام بها ثم عاد الى القاهرة فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه وتعقب ذلك نقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة ثم تبع هذا مجىء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالبا للوزارة ثم تلا ذلك نفاق لواتة ومن ضامها من قبس وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل فى بقية العسكر وفى أثناء هذه المدة قبضه على الاثير بن جلب راغب وقتله وأسر معالى بن فريج ثم قتله واتصل اليه الخبر من قدوم أسد الدين الى اطفيح بأم النوائب الكبر ووافق مجىء الغز قدوم الفرنج ناصرين للدولة وتوجهوا من مصر فى البر الشرقى تابعين للغز ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا الى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الامال وخيموا على ساحل المقسم وأظهروا رجوعهم الى الشام فتجهز الكامل للمسير صحبة الافرنج حدثنى القاضى الاجل الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى قال أنا أذكر وقد خلونا فى خيمة وليس معنا أحد انما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج وعزم نجم على التغريب الى سليم وماوراءها وقال شاور لكن لا أبرح أقاتل بن صفا معى حتى أموت فنحن فى ذلك حتى وصل الينا الداعى ابن عبد القوى وصنيعة الملك جوهر وعز وقد التزموا المال وتفرع على هذا الاصل مقام الغز بالجيزة ونوبة البابين وحصار الاسكندرية وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم فما هو الاان توهم شاور ان الدهر قد نام وغفا وصفح عن عادته وعفا واذا الايام لا تخطب الازواله وفوته ولا تريد الاانتقاله وموته فكان من قدوم الفرنج الى بلبيس وقتل من فيها وأسر هم بأسرهم ما أوجب حريق مصر ومكاتبة الاجل نور الدين بن القسيم وانجاده كلمة الاسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم

أخذتم على الافرنج كل ثنية ❊ وقلتم لايدى الخيل مرّى على مرّى
لئن نصبوا فى البر جسرا فانكم ❊ عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت وهذان البيتان من قصيدة ستأتى ومرّى هو اسم ملك الافرنج قال عمارة فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور ان مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوما وهذه السنوات التى وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له قال ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ماربا هم الصالح بن رزيك ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين ولا أتلف أموالهم مثل شاور وشاور هو الذى أطمع الغز والافرنج فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى الى خارج الدار وقال الحافظ أبو القاسم لما خيف من شر شاور ومكره لما عرف من غدره وختره واتضح الامر فى ذلك واستبان تمارض الاسد ليقتنص الثعلبان فجاءه قاصدا لعيادته جاريا فى خدمته على عادته فوثب جرديك وبرغش موليا نور الدين فقتلا شاورا وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاورا وكان ذلك برأى صلاح الدين فانه أول من تولى القبض عليه ومدّ يده الكريمة بالمكروه اليه وصفا الامر لاسد الدين وملك وخلع عليه الخلع وحنك واستولى أصحابه على البلاد وجرت أموره على السداد وظهر منه جميل السيرة وظهرت كلمة السنة

﴿فصل﴾ فى وزارة أسد الدين وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه الى القصر أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيرا ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش وقصد دار الوزارة فنزلها وهى التى كان

بها شاور فمن قبله من الوزراء فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر فى الامر ولم يبق له فيه منازع ولا منا و وولى الاعمال من يثق اليه واستبدّ بالولاية فاقطع البلاد العساكر التى قدمت معه وصلاح الدين مباشر للامور مقرّر لها وزمام الامر والنهى مفوّض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته. قال العماد وكتب لاسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطى والنشر كتب العاضد فى طرّته بخطه ولا شك انه باملاء كاتبه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى نبوة النبوّة واتخذه للفوز سبيلا ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) نسخة المنشور (من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة مجير الامة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله ان يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والائمة المهديين وسلم تسليما) ثم ذكر باقى المنشور وهو مشتمل على كلام طويل وحشو غير قليل على عادة الكتّاب المتأخرين الذين تراهم بالالفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين والبلاغة عكس ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم (بعثت بجوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا)

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشا فارسل اليه بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن البيسانى وكان أبوه من أهل بيسان الشام ثم ولى قضاء عسقلان وخرج الفاضل الى الديار المصرية فولى كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة ثم انه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزاحم به كتّاب القصر فثقل عليهم أمره فلما طلب أسد الدين كاتبا أرسل اليه وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات ان هذا أمر لا يتم وان أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله فأرسلوا بالفاضل اليه وقالوا لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا فكان من أمره ما كان واستقر فى الدولة ولم يزدد فى كل يوم الا تقدّما بصدقه ودينه وحسن رأيه رحمه الله وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لاسد الدين أولها

بالجد أدركت ما ادركت لا اللعب ❊ كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة من ❊ نادى فعرّف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم ❊ من المدى فى العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت ❊ عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر وأرجو ان تصيرها ❊ ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من ❊ فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذى هو فرد من بسالته ❊ والدين من عزمه فى جحفل لجب
فى حلق ذى الشرك من عدوى سطاك شجا ❊ والقلب فى شجن والنفس فى شجب
زارت بنى الاصفر البيض التى لقيت ❊ حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
وانها نقد من خلفها أسد ❊ ارى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعنا الى الرحمن أيدينا ❊ فى شكرنا ما به الاسلام منك حبى
شكا اليك بنو الاسلام يتمهم ❊ فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الافرنج نادبة ❊ بما دهاهم فقد باتوا على ندب
من شر شاور انقذت العباد فكم ❊ وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى أطمع الافرنج فى بلد الـ ❊ اسلام حتى سعوا للقصد والطلب
وان ذلك عند الله محتسب ❊ فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا ❊ لما دعا الشرك هذا قد تعزز بى
وما غضبت لدين الله منتقما ❊ الا لنيل رضى الرحمن بالغضب

وأنت من وقعت فى الكفر هيبته ❋ وفى ذويه وقوع النار فى الحطب
وحين سرت الى الكفار فانهزموا ❋ نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محيي الامة الهادى بدعوته ❋ للرشد كل غوى منهم وغبي
لما سعيت لوجه الله مرتقبا ❋ ثوابه نلت عفوا كل مرتقب
أعدت نقمة مصر نعمة فغدت ❋ تقول كم نكت لله فى النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها ❋ عدلا وكنت لوزر غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسية ودع الـــــدعى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ❋ فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

وقال العماد فى الخريدة أنشدنى الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب اليه يهنيه

لما سمحت لاهل الشام بالخشب ❋ عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا ❋ للاجر جوزيت أجرا غير محتسب
والاجر فى ذاك عند الله مرتقب ❋ فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ❋ خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر فى ترك الجهاد وقد ❋ أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثلا ❋ لما تريد فبادر فجأة النوب
فاحزم الناس من قوى عزيمته ❋ حتى ينال بها العالى من الرتب
فالجدّ والجد مقرونان فى قرن ❋ والحزم فى العزم والادراك بالطلب
فطهر المسجد الاقصى وحوزته ❋ من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر فى الدنيا بحسن ثنا ❋ وفى القيامة تلقى خير منقلب

﴿فصل﴾ فى وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه توفى أسد الدين فجأة يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام قال ابن شدّاد كان أسد الدين كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدّة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله وفوّض الامر بعده الى صلاح الدين واستقرت القواعد واستتبت الاحوال على أحسن نظام وبذل الاموال وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فلكها وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الا جدّا الى أن توفاه الله تعالى الى رحمته ولقد سمعت منه رحمه الله يقول لما يسر الله لى الديار المصرية علمت انه أراد فتح الساحل لانه أوقع ذلك فى نفسى وحين استتب له الامر ما زال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وبلادهما وغشى الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير متابع للقوم لكنه مقوّم مذهب السنة غارس فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوّف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويغدون اليه من كل جانب وهو رحمه الله لا يخيب قاصدا ولا يعدم وافدا ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك فى رجب من هذه السنة وقال ابن الاثير أما كيفية ولاية صلاح الدين فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر وولاية الوزارة منهم الامير عين الدولة اليارو فى وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخى أبى الهيجاء الهذبانى الذى كان صاحب أربل ومنهم سيف الدين على بن أحمد الهكارى وجدّه كان صاحب قلاع الهكارية ومنهم شهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين وكل من هؤلاء قد خطبها وقد جمع ليغالب عليها فأرسل الخليفة العاضد الى صلاح الدين فأمره بالحضور فى قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعد عمه وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين فانه ظن

انه

انه اذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان فى ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة وانه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم اليه فاذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد اليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزم به وأخذ كارها ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل فلما حضر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما ولقب بالملك الناصر وعاد الى دار أسد الدين فأقام بها ولم يلتفت اليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى معه فسعى عند سيف الدين على بن أحمد حتى أماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل فال الى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين الحارمى وقال له ان هذا صلاح الدين هو ابن اختك وملكه لك وقد استقام الامر له فلا تكن أول من يسعى فى اخراجه عنه فلا يصل اليك ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له ثم عدل الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير اليار وقى وعلى كل حال فالجمع بينك وبين صلاح الدين ان أصله من الاكراد فلا يخرج الامر عنه الى الاتراك ووعده وزاد فى اقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا وعدل الى عين الدولة اليار وقى وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره وقال أنا لا أخدم يوسف أبدا وعاد الى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وقد فات الامر ليقضى الله أمرا كان مفعولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها ولا يتصرفون الا عن أمره وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته فى الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ولا يفرده فى كتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيأ يخرجه فلم يمكنه منعه فمال الناس اليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الامر والثبات فيه وضعف أمر العاضد وكان كالباحث عن حتفه بظلفه وارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل اليه اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد ثم ان الفرنج اجتمعوا ليسيروا الى مصر فسير الى مصر نور الدين العساكر وفيهم اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو اكبر من صلاح الدين فلما أراد أن يسير قال له ان كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك انه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فانك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر اليه واشدد أزره وساعده على ماهو بصدده قال افعل معه من الخدمة والطاعة مايصل اليك ان شاء الله تعالى فكان كما قال وقال العماد لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت اراؤهم واختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم فاجتمع الامراء النورية على كلمة واحده وأيد متساعده وعقدوا لصلاح الدين الرأى والرايه وأخلصوا له الولاء والولايه وقالوا هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه وألزموا صاحب القصر بتوليته ونادت السعادة بتلبيته وشرع فى ترتيب الملك وتربيته وفض ختوم الخزائن وأبض رسوم المزائن وسلط الجود على الموجود وبسط الوفور للوفود وفرق ما جمعه أسد الدين فى حياته وأنارت على منار العلى اناة آياته ورأى أولياءه تحت الويته وراياته وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته .وما زاده الملك ترفعا وما أفاده الا تأصلا فى السماح وتفرعا وضم من أمر المملكة ما كان منثورا وكتب له العاضد صاحب القصر منشورا وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال والعذب الزلال ثم أورده العماد وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه وجرى القلم فيه بما خط له القلم فى الازل من وصف جهاده وسلبه ففى ذلك المنشور (والجهاد أنت رضيع دره وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر عن ساق من القنا وخض فيه بحرا من الظبا وأحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا واسل الوهاد بدم العدى وأرفع برؤسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لايامك وشهود الك يوم مقامك) وفى طرته بالخط العاضدى ولم يذكره العماد فى كتابه (هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير

المؤمنين بيمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن اسوه ولمن تبقى ممن تبعته بنا أعظم سلوه تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) يعنى بمن مضى أسد الدين وبمن بقى صلاح الدين ثم قال العماد وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبددت عقودها وما انتظمت ووصلت كتب صلاح الدين الينا الى الشام بما تسنى له من المرام ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء وترددت الكتب الصلاحية بذكر الاشواق وشكوى الفراق وشرح الاستيحاش وبرح القلوب العطاش فان أصحابنا وان ملكوا ونالوا مقاصدهم وادركوا حصلوا بين أمة لا يعرفونها بل ينكرونها ولا يألفونها ورأوا وجوها هنالك بهم عابسه وأعين المكائد متيقظة وعن الودّ ناعسه فان أجناد مصر كانوا فى الدين مخالفين وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين وكتب صلاح الدين الى بعض أصدقائه كتابا أوّله

أيها الغائبون عنى وان كنـ ✽ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
انى مذ فقدتكم لا اراكم ✽ بعيون الضمير عندى عيانا

فسألنى المكتوب اليه ان اكتب جوابه فقلت

أيها الظاعنون عنى وقلبى ✽ معهم لا يفارق الاظعانا
ملكوا مصر مثل قلبى وفى هـ ✽ ـذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوا فيهما فانكم اليو ✽ م ملكتم عليهما سلطانا
لا تروعوا بالهجر قلب محب ✽ أورثته روعاته الخفقانا
حبذا معهد قضينا به العيـ ✽ ـش فكنا بربعه جيرانا
اذ وجدنا من الحوادث أمنا ✽ وأخذنا من الخطوب أمانا
ورتعنا من المنى فى رياض ✽ وسكنا من المغانى جنانا

وبعد فان وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء صادرة عن محض الولاء الى عالى جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس فليهنه الظفران بالملك وبالعدوّ وفرع هضاب المجد والغلو وكيف لا يكون النصر مساوقا الدين هو صلاحه والتأييد من افقا العزم هو نجاحه وفلاحه

فالشام يغبط مصر امذ حللت بها ✽ كالفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفوا ما الملوك به ✽ عنوا قديما وراموه فما نيلا

قال العماد ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه نجم الدين منها

تضعضع فى هذا المصاب المباغت ✽ من الدين لولا نوره كل ثابت
فايام نور الدين دامت منيرة ✽ لنا خلفا من كل مود وفائت
فيا بالنائبـ ✽ ـدى التصامم غفلة ✽ وداعى المنايا ناطق غير صامت
نؤمـ ✽ ـل فى دار الفناء بقاءنا ✽ ونرجو من الدنيا صداقة ماقت
وما الناس الا كالغصون بد الردى ✽ تقرّب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رسل المنايا واسمعت ✽ ولكنها لم تحظ منا بناصت
فلهفى على تلك الشمائل انها ✽ لقد كرمت فى الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمدا يقول

ما بعد يومك للمعنى المدنف ✽ غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرأ الحدثان كيف سطا على الـ ✽ ـأسد المخوف سطا ولم يتخوّف
من ذا رأى الاسد الهصور فريسة ✽ أم أبصر الصبح المنير وقد خفى
من ثابت دون الكماة سواه ان ✽ زلت بهم أقدامهم فى الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر ✽ ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف

أيام عمرك لم تزل مقسومة ❋ لله بين تعبد وتعرف
متهجدا لعبادة أوتاليا ❋ من آية أوناظرا فى مصحف
فجمع الندى والبأس منك بحاتم ❋ وبحيدر والحلم منك باحنف
بالملك فزت وحزته عن قدرة ❋ ومضيت عنه بسيرة المتعفف
ووصفت بأسد الدين محمد ❋ مدحا بما ملك به لم يوصف
وقفوت آثار الشريعة كلها ❋ وقد اهتدى من للشريعة يقتفى
أأنفت من دنياك حين عرفتها ❋ فلويت وجه العارف المتنكف
ياناصر الدين استعذ بتصبر ❋ مدن الى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهنأ ❋ أبد الزمان بملك مصر ويوسف
لانستطيع سوى الدعاء فكلنا ❋ الابما فى الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمنى فى صلاح الدين مدائح منها قوله

لك الحسب الباقى على عقب الدهر ❋ بل الشرف الراقى الى قنة النسر
كذا فليكن سعى الملوك اذا سعت ❋ بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة ❋ اقلتم بها الاقدام من زلة العثر
كشفتم عن الاقليم غمته كما ❋ كسفتم بانوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الافرنج سرب خلافة ❋ جريتم لها مجرى الامان من الذعر
ولما استغاث ابن النبى بنصركم ❋ ودائرة الانصار أضيق من شبر
جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجا ❋ وما اشتقت الانصار الا من النصر
كتائب فى جيرون منها أواخر ❋ وأولها بالنيل من شاطئى مصر
طلعتم فاطلعتم كواكب نصرة ❋ أضاءت وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة ❋ تراسلكم فى كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية ❋ فككتم بها الاسلام من ربقة الاسر
أخذتم على الافرنج كل ثنية ❋ وقلتم لايدى الخيل مرّى على مرّى
لئن نصبوا فى البر جسرا فانكم ❋ عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى ❋ ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه ❋ كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها ❋ بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى ❋ ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذى أضحى ذخيرة مجدكم ❋ وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفا له فاستفزه ❋ بمثلك تيه فهو فى أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده الـ ❋ كنور البدر من سنه البدر
توقره وسط الندىّ كرامة ❋ وتحمل عنه مايؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسلما خلافة ❋ تؤلف أضدادا من الماء والجمر
وكم هقت فى بأس وجود ورتبة ❋ بما سره فى الخطب والدست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم ❋ لنعمتكم بالمستحق من الشكر
بدلا يقوم المسلمون بشكرها ❋ لكم آل أيوب الى آخر الدهر
بكم أمن الرحمن أعظم يثرب ❋ وأمن أركان الثنية والحجر

ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى ❋ بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة ❋ غدا لفظها يشتق من شدة الازر
فهنيتم فتحا تقدم جبله ❋ وبشر أن الكل يتلو على الاثر
وما بقيت في الشرك الا بقية ❋ تتمها في ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك أتى مهنئا ❋ وملتمسا أجر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادي ان مدحك قربة ❋ أرجى بها نيل المثوبة والاجر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري ❋ ولي سنوات منذ تبت عن الشعر
فاوص بي الايام خيرا فانها ❋ مصرفة بالنهي منك وبالامر
وجائزتي تسهيل اذني عليكم ❋ وملقاكم لي بالطلاقة والبشر

وقال أيضا من قصيدة

يا شبيه الصديق عدلا وحسنا ❋ وسميا حكاه معنى ومغنى
هذه مصر يوسف حل فيها ❋ يوسف مالكا وما حل سجنا
أنت حرمت ان يثلث فيها ❋ بسوى الله وحده أو يثنى
انما الملك والوزارة جسم ❋ أنت روح فيه وفي اللفظ معنى

وقال أيضا من قصيدة

ملك صلاح الدين لاقوضت ❋ أطنابه ملك البقا والصلاح
سيرة عدل حسنت عندنا ❋ ما كان من وجه الليالي القباح
سافر في الدنيا واقطارها ❋ ذكر غدا عنه جميلا وراح
قل لابن أيوب وكم ناصح ❋ أنفع ممن هو شاكي السلاح
جارت على مثل نجوم السماء ❋ فلك مصر ما عليه اصطلاح
قولا لمن في عزمه فترة ❋ ارجع الى الجد وخل المزاح
فالقدس قد أذن اغلاقه ❋ على يدي يوسف بالانفتاح

وقال أيضا من قصيدة

وتبت بمصر عن سميك يوسف ❋ كما تاب عن سكب الحياء واكف سكب
حذوت على سجلي نداه وهديه ❋ وان كنت لا سجن حواك ولا جب
ووافقته في الصفح عن كل مذنب ❋ فما منك تثريب وان عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجلياني من قصيدة طويلة

أبو المظفر مأوى كل مضطهد ❋ بحكمه ونداه يضرب المثل
مهما يمل جائر او عاث عمه ❋ فعند عدل صلاح الدين يعتدل
احيا به الله مصرا فهي ناشزة ❋ وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرنج بها وردا ومنتجعا ❋ ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم ❋ وادبروا بقلوب شفها وجل
ملك تقلد سلك الملك منتظما ❋ وقال للمال هذا منك لي بدل
ففرق المال جمعا للقلوب به ❋ وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
ان الملوك الذين امتد أمرهم ❋ لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة فالاجناد لو علموا ❋ بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

❋(فصل)❋ وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية الى ان تمت وزارة صلاح الدين

قد وجدته مبسوطا مشتملا على زيادات وفوائد فى كتاب ليحيى بن أبى طى الحلبى فى السيرة الصلاحية فأحببت ذكره مختصرا ذكر ان الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل فى رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له لا تزله من ولايته فانه أسلم لك ويقال انه أنشد ابياتا منها

فاذا تبدّد شمل عقدكما ❋ لا تأمنا من شاور السعدى

وكان شاور متولى قوص والصعيد الاعلى فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل ولما استقرت أحواله أرسل الى عمة العاضد فخنقها واجتمع الى رزيك أولاد عمته ومن جملتهم عز الدين حسام وأشاروا عليه بعزل شاور فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب وبلغ شاور الخبر فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وزحفوا الى القاهرة وخرج اليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه فخرج رزيك نصف الليل فضلّ الطريق وتاه فوقع عند اطفيح وثم بيوت عرب فقبضوا عليه وحمل الى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها وأخرجت اليه خلع الوزارة وتم أمره ولما حصل رزيك عند شاور اكرمه وصلب الذى أتى به ونادى عليه هذا جزاء من لا يرعى الجميل وكان للصالح اليه احسان وتفرق آل رزيك فى البلاد ونجا حسام الذى كان سبب هلاك بنى رزيك بأموال وصار الى حماه فأقام بها واشترى القرى ولم يزل بها الى أن مات وكان فى خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردّوها عليه ثم أراد تقى الدين أخذها منه فقال من العجب ان الفرنجى يفى لى بردّها وتأخذها أنت منى فكف عنه قال وتمكن شاور وكان له ثلاثة أولاد طى والكامل وسليمان فتبسطوا على الناس وتعاظموا فمجتهم الانفس وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا فى مراسلة رزيك بن الصالح وهو فى السجن والعمل له فى اعادته الى الوزارة واتصل ذلك بطى بن شاور فدخل على أبيه وقال له أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك وقد شرعا فى أمر رزيك واستحلفا له جماعة من الامراء ولا يمكن تلافى حالك الا بقتل رزيك فقال له شاور ان الصالح أولانى جميلا وبسببه حللت هذا المحل فتركه ولده طى ودخل على رزيك فقتله فى سجنه وسمع شاور بذلك فقامت قيامته ونمى الخبر الى ضرغام وأخيه ملهم فثاروا وأثاروا من استحلفاه من الامراء وزحفا بالعساكر الى شاور فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب الى الشام وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهما وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده وأراد ضرغام قتله فنعه منه ملهم وحفظ له جميلا كان قد فعله معه واستقر امر ضرغام فى الوزارة وخلع عليه ولقب بالملك المنصور ولما استقر به الامر بلغه ان جماعة من الامراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاورا وكان صار الى الشام فأخذ فى إعمال الحيلة عليهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لاموالهم ولا لمنازلهم وقيل انه قتل منهم سبعين أميرا ويقال انه جعلهم فى توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه فكان ذلك أكبر الاسباب فى هلاكه وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لانه أضعف عسكر مصر بقتل الامراء وأما شاور فانه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل الى دمشق بعد تحققه قتل ولديه ولما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة الى تلقيه وانزله فى جوسق الميدان الاخضر واحسن ضيافته واكرامه ثم بعد سبعة أيام من مقدمه احضر نور الدين ابن الصوفى وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم اخرجوا الى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه اعذارنا فى التقصير فى حقه وسلوه فيما قدم وما حاجته فان كان ورد علينا مختارا للاقامة افردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأربه واوده ونكون عونا له على زمانه وان كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته فخرج الجماعة اليه بالرسالة فشكر احسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك فسأله القوم الجواب فقال اذا لم يبيت الرأى جاء فطيرا فعاد القوم الى نور الدين وعرفوه ما دار بينهم وبينه فأمرهم بالعود اليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت ايضا واطال ثم قال ان رأى نور الدين اطال الله بقاءه الاجتماع بى فله علو الرأى فعرّفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الاخضر وركب نور الدين من الغد فى وجوه دولته وخواص مملكته فى أحسن زى وأكمل شاره فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا فى وسط الميدان بالتحية فقط ولم يترجل أحدهما لصاحبه ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين الى قلعة دمشق وأخذ من وقته ذلك فى جمع العساكر وأما ضرغام فانه حين استقر به

الامراء انشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس يظهر فيه الطاعة ويعرّض بخذلان شاور فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول فى الظاهر وهو مع شاور فى الباطن وأجاب عن الكتاب وانفصل علم الملك عن دمشق فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرفيق الفرنجي وحصل على جميع ما كان معه وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار الى مصر وفى هذه الايام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيبته لانه لم يرسله فى أمر إلا انجح ولم يولجه فى مضيق الا انفتح ولما حضر أسد الدين الى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء فى أمر مصر وأمره بالاستعداد وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذى يريد تسييره الى مصر فخرج من يومه وكان شاور قد اطمع نور الدين فى أموال مصر ورغبه فى ملكها وانه اذا ملكها كان من قبله فيها ولما بلغ شاور استتباب أمر العسكر سأل عن المقدم عليه فقيل له أسد الدين شيركوه فلم يطب له ذلك لانه ظن ان التقدمة تكون له فلما زوحم بهذا القود سقط فى يده وفت فى عضده ولم يجد بدا من المسير فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصريه ونزلوا على تل فى الحوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسطة وضربوا خيامهم هناك ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهو على يومين من القاهرة فانهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء ولكان قلة الماء عليهم لان المسافر الى مصر يحمل الماء من ايلة مسيرة ثلاثة أيام فلم يروا ذلك واختاروا ان يلقوهم على بلبيس فأمر ضرغام الامراء بالخروج فخرجوا فى أحسن زى وأكمل عدة والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام وجاؤا حتى احاطوا بالتل الذى كان أسد الدين نازلا عليه ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وانهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات قال لشاور يا هذا لقد أرهقتنا وغررتنا وقلت انه ليس بمصر عساكر فجئتنا فى هذه الشرذمة فقال له شاور لا يهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا فاظنك بهم اذا حمى الوطيس وكلبت الحرب وأما الامراء فان كتبهم عندى وعهودهم معى وسترى ذلك اذا لقيناهم ثم قال أريد ان تأمر العساكر بالاستعداد والركوب ففعل ونهاهم شاور عن القتال ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب الى ان حمى النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا فى الظل فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور فى أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياما وراسل شاور العاضد فى اصلاح الحال وان يأذن له فى الدخول الى القاهرة فاذن له وكان ضرغام صار الى تحت القصر وقال اريد أمير المؤمنين يكلمنى لاسأله عما افعل فلم يجبه أحد فذهب على وجهه منهزما وخرج من باب زويلة والعامة تلعنه وتصيح عليه فالحقه رجل من اهل الشام ليقتله فقال له ضرغام اوصلنى الى أسد الدين ولك مناك فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه فارداه ونزل اليه واحتز رأسه وحمله الى أسد الدين واعلمه بما جرى بينهما فصعب على اسد الدين واوجعه ضربا واراد قتله فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما اخا ضرغام عند بركة الفيل وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها وخرج معه القاضى الفاضل وكان ايضا معتقلا فيها معه واستقام امر شاور فى الوزارة واقام اسد الدين على المقسم ينتظر امر شاور فيما ضمن لنور الدين وارسل اليه يقول له قد طال مقامنا فى الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار فارسل اليه شاور ثلاثين الف دينار وقال ترحل الآن فى امن الله وفى دعته فلما سمع اسد الدين ذلك ارسل اليه ان نور الدين اوصانى عند انفصالى عنه اذا ملك شاور تكون مقيما عنده ويكون لك ثلث مغل البلاد والثلث الثانى لشاور والعسكر والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه فى مصالحه فقال شاور انا ما قررت شيئا مما تقول انا طلبت نجدة من نور الدين فاذا انقضى شغلى عادوا الى الشام وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وانا انفصل مع نور الدين فقال اسد الدين انا لا يمكننى مخالفة نور الدين ولا اقدر على الانصراف الا بامضاء امره فامر شاور باغلاق باب القاهرة وأخذ فى الاستعداد للحصار واستعد اسد الدين أيضا

وسير صلاح الدين فى قطعة من الجيش الى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والاحطاب وما تدعو الحاجة اليه ويكون جميع ذلك فى بلبيس ذخيرة واخذ فى قتال القاهرة وكاتب شاور ملك الفرنج مرّى يستنجده ويقول له ان شيركوه طلع معى نجدة على ضرغام فلما حصلوا فى البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار وضمن له فى كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار وقرر شيأ لقضيم دوابهم وشيأ لاسبتاريته فخرج مرّى من عسقلان فى جموعه الى فاقوس فى سبع وعشرين مرحلة وقبض عنها سبعة وعشرين الف دينار ولما تحقق اسد الدين قرب الفرنج من القاهرة اجفل عنها الى بلبيس وانضاف اليه من أهلها الكنانية وخرج شاور فى عساكر مصر واجتمع بالفرنج وجاء حتى خيم على بلبيس واحاط بها محاصرا لاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج الى ديار مصر وغدر شاور فكاتب الاطراف بقدوم العساكر فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا بارض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الدايه وكان نائب نور الدين بحلب الى جهة حارم ونزل على ارتاح وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل وقتل وأسر عالما عظيما ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الاكراد فلما حصل بارضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة ونزل فى مرجه فخرج اليه الفرنج الاخوة من حصن الاكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم وسار نور الدين الى ان اجتمع بعساكره على ارتاح وكان اخوه نصر الدين مع الفرنج فلما عاين اعلام نور الدين لم يتماسك ان حمل بجميع اصحابه قاصدا اخاه نور الدين فلما قرب منه نزل وقبل الارض بين يديه فلم يلتفت اليه فتم على وجهه واصطف الناس للحرب فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخيل قد اطبقت عليهم فنزلوا عن الخيول وألقوا اسلحتهم واذعنوا بالامان فأخذوا جميعا قبضا بالايدى وسار الى حارم ففتحها واراد النزول على انطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن فى مصر من المسلمين فانحرف قاصدا لدمشق ونزل على بانياس فافتتحها واغار على بلد طبرية وجمع اعلام الفرنج وشعافهم وجعلها فى عيبة وسلمها الى نجاب وقال له اريد ان تعمل الحيلة فى الدخول الى بلبيس وتخبر اسد الدين بما فتح الله على المسلمين وتعطيه هذه الاعلام والشعاف وتأمره بنشرها على اسوار بلبيس فان ذلك مما يفت فى أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم ففعل ذلك فلما رأى الفرنج الاعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم وسألوا شاور الاذن والانفصال فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الامر وسألهم التمهل اياما وجمع امراءه للمشورة فاشاروا عليه بمصالحة اسد الدين وتكفل له اتمام الصلح الامير شمس الخلافه فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على ان يحمل شاور الى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى وحكى ان شاورا ارسل الى أسد الدين وهو محصور ببلبيس يقول له اعلم اننى ابقيت عليك ولم امكن الفرنج منك لانهم كانوا قادرين عليك وانما فعلت ذلك لامرين أحدهما انى ما اختار ان أكسر جاه المسلمين وأقوى الفرنج عليهم والثانى انى خفت ان الفرنج اذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا هذه لنا لانا فتحناها بسيوفنا ومن يوم كان يمضى الاوأنا أنفذ الى كبار الفرنج الجملة من المال وأسألهم ان يكسروا همة الملك عن الزحف قال وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام ورحلت الفرنج الى جهة الساحل وسار أسد الدين قاصدا الشام وجعل مسيره على البرية واتفق ان البرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك تأوّل ليمينه التى حلفها لاسد الدين وقال أنا حلفت انى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره فى البر وأنا أريد أن الحقه فى البحر وصار فى يوم واحد الى عسقلان وخرج منها الى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك وقعد مرتقبا خروج أسد الدين من البرية ليوقع به وعلم أسد الدين بمكيدة ارناط بالحدس والتخمين فسلك طريقا من خلف المكان الذى كان فيه ارناط شق الى الغور وخرج من البلقاء وسلمه الله تعالى منه ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالاحوال وأعلمه بضعف ديار مصر ورغبه فيها وشوّقه الى ملكها فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الاجناد واستخدام الرجال وأما شاور فانه بعد رحيل أسد الدين والفرنج الى بلادهم عاد الى القاهرة ولم يكن له همة الا تتبع من علم ان بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة كان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردى وأقطعه شطنوف وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرّد آخرين ثم توجه أسد الدين فى ربيع الاوّل سنة اثنتين وستين قاصدا الديار المصرية وكتم أخباره فما راع

شاورا الاور ودكتاب مرى ملك الفرنج يعرفه فيه ان أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصدا ديار مصر فطلب شاور منه اعادة النجدة والمقرر من المال يصل اليه على ما كان يصل اليه فى العام الماضى فسار مرى فى عساكر الفرنج الى مصر على جانب البحر وكان أسد الدين سائرا فى البر فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك وقعدوا جميعا فى انتظار أسد الدين وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس فتنكب عن طريقهم وأم الجبل وخرج على اطفيح وهى فى الجنوب من مصر وشن الغارة هنالك واتصل بشاور خبره فسار فى عساكره والفرنج فى صحبته يقفوا أثره واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر وتحيل فى مراكب ركبها وعدى الى البر الغربى ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعى عسكريته فاوقع بهم وأحضر شاور أيضا مراكب وقطع النيل فى أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج وسار أسد الدين الى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما واستمال قوما يقال لهم الاشراف الجعفريين والطلحيين والقرشيين فانفذ أسد الدين الى شاور يقول له أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه انى لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود اليها أبدا ولا أمكن أحدا من التعرض اليها ومن عارضك فيها كنت معك إلبا عليه وما أؤمل منك الا نصر الاسلام فقط وهو ان العدو قد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر وأريد منك ان نجتمع أنا وأنت عليه ونتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كثبت فنستأصل شأفته ونخمد نائرته وما أظن انه يعود يتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبدا فلما صار الرسول الى شاور وأدى الرسالة أمر به فقتل وقال ماهؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج ثم أعلم الفرنج بما أرسل اليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه وجدد لهم ايمانا وثقوا بها وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفا على مخالفة شاور له فى هذا الرأى وقال لعنه الله لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج ونزل شاور فى اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم ان يخوا من خلف عسكر أسد الدين ولما رأى أسد الدين ذلك كتب الى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لاجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال وهو ابن أحد وزراء المصريين وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا فظهر فى هذه الفتنة

حدثنى الشريف الادريسى نزيل حلب قال كنت بالاسكندرية يومئذ فكتب معى ابن مصال كتابا الى أسد الدين وقال لى قل له انى أخبرك ان السلاح واصل وكان أنفذ لاسد الدين خزانة من السلاح قال فسبقتها بيومين وحضرت بين يدى أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته برسالة ابن مصال فى معنى السلاح والالات ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف قال وبقينا على الجيزة يومين فوصل الينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقدت المشاعل ليلا وسرنا فاذا الجاووش ينادى فى الناس بالرجوع وعاد أسد الدين الى دلجة فنزل عليها ونزل شاور على الاشمونين وأمر أسد الدين الناس ان يقفوا على تعبية فاصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليأتى من خلف عسكر شاور فدخل الضعف من هذا الطريق ثم ان أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا انه لا منجأ لهم الا الصبر فتحالفوا على الموت وحملوا وطلع صلاح الدين من ورائهم فلم تزل الحرب قائمة الى الليل فولت عساكر الافرنج والمصريين الادبار وكاد مرى ملك الافرنج يؤسر وصار شاور ومن سلم معه الى منية ابن خصيب وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكندرية فدخلها ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم وكان فيها ابن الزبير متوليا دواوينها فحمل الى أسد الدين الاموال وقواه بالسلاح وخاف أسد الدين ان يقصده شاور والفرنج فيحصروه فربما تأذى بالحصار فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جراح أو ضعف واستحلف له وجوه الاسكندرية وأوصاهم به ورحل فى أقوياء عسكره قاصدا الى الصعيد ونزل الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر باشد القتال وبذل أهلها فى نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم وقتل منهم جماعة عظيمة ولما

صار

صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة ولم يزل هنالك حتى صام شهر رمضان واتصل به اشتداد الامر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح وضجرت الفرنج أيضا فتوسط ملك الفرنج فى ذلك فتقرر أمر الصلح على ان شاورا يحمل الى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه السفرة ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم الى بلاده وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فانفذ له عدة مراكب قال الادريسى كنت فى جملة من خرج فى المراكب فلما وصلنا الى ميناء عكا أخذنا واعتقلنا فى معصرة القصب الى أن وصل الملك مرى فأطلقنا فخرجنا الى دمشق وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد ان استحلف شاورا لاهلها بان لا يتعرض لهم بسوء واجتمع بعمه أسد الدين ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع اهل الاسكندرية واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له ان شاورا نقض الايمان قال وكيف ذلك قال لانه قبض على من لجأ الينا فقال ليس له ذلك وأنفذ الى شاور وقال له ان الايمان جرت على أن لا تتعرض لاحد من أهل مصر ولا الاسكندرية وألزمه يمينا أخرى فى أن لا يتعرض لاحد ممن لجأ الى اسد الدين أو صلاح الدين ولما شاهد من التجأ الى الاسد والصلاح فساد تلك الاحوال خافوا من شاور فأخذوا فى الرحيل الى الشام واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة الى الشام وحلف لهم على الاحسان اليهم وحماية أنفسهم وأموالهم فمنهم من سكن الى ايمانه ومنهم من لم يسكن ورحل والهم الله تعالى أسد الدين ان الفرنج ربما خطر لهم فى مصر خاطر فقصدتها فراسل الملك مرى وقال له قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل اليهم ولا يتعرض لهم فامتنع الملك ثم أجاب خوفا أن يتحقق أسد الدين وشاور انه ربما قصد ديار مصر فربما اجتمعا عليه فلم يجد بدا من اليمين فحلف وحلف أصحابه وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها لانه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمرا عظيما فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى غير واحد ان شاورا كاتب نور الدين فى ذلك وضمن له أن يحمل فى كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة ولما بلغ شاور ان نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولا بهدية سنية وأصحبه كتابا حسنا أوله (ورد كتاب استدعى شكرى وحمدى واستخلص من الصفاء ما عندى واستفرغ فى الثناء على مرسله جهدى فكانما استملت معانيه مما عندى واشتملت على حقائق قصدى وسررت للاسلام وأهله والدين الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله بأن يكون مثله ملكا من ملوكه يرجع اليه فى عقده وحله وتشير الاصابع وتعقد الخناصر على علو محله والله يزيده بمكانه تثبيتا وقوة ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوه فأسعد رأسادل على نصرة الكلمه ودعا الى سبيل الفئة المسلمه ووفر على مصالح الامة قلوب رعاياها المنقسمه وأنا متمم من هذا الامر ما صدر منى وباق منه على ما نقل عنى لا أتغير عن المصلحة فيه ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه ولا استكثر كبيرا أصل اليه وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ونصرة كانت فى هجير الخطوب بردا وظلا وأنعم لا تزال أياتها بالسن الحمد تتلى وتملى ولعمرى لقد علا بناؤها فخرا وارتفع على الاملاك قدرا وذكرا ووجب أن يستتمها فلا يصل الى مواردها الكدر ويحوطها فلا تطرق الى جوانبها الغير ووراء هذه المكاتبة من اهتمامى ما لا يعوقه عائق الا انتظام العقد على الامور المألوفه وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفه مع ان قوله كيمينه وكتابه كصفحة يمينه والثقة به واقعة على كل حال والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال)

قال وفى سنة أربع وستين طمع مرى ملك الفرنج فى مصر وعول على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقى فيها فجمع اليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاسبتارية وتشاوروا وجرت بينهم فى ذلك خطوب ثم أجابوه الى الخروج معه الى الديار المصرية فاحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته وفرق قراها على أجناده وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها ثم سار حتى نزل الداروم فتمامت قيامة شاور لما بلغه الخبر وانتخب أميرا من أمرائه يقال له بدران وسيره الى لقاء مرى يسأله عن السبب فى قصده فاجتمع به وسأله فتلكا عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على ان

يورّى عنهم ولا يكشف لشاور حالهم ويقال ان الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتم على المصريين الحيلة ويعلم شاور انه انما قصد مصر للخدمة ففعل ذلك بدران ولما سمع ذلك شاور أشفق منه وأحضر الامير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له كأنّ بدران قد غشني ولم ينصحني وأنا فما أثق بك فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج فسار شمس الخلافة الى مرّى وكان بينهما مؤالفة فلما دخل على الملك قال له مرحبا بشمس الخلافة فقال مرحبا بالملك الغدّار والا ما الذى أقدمك الينا قال اتصل بى ان الفقيه عيسى زوج اخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين فقلنا هذا عمل علينا فقال له شمس الخلافة ليس لهذا صحة ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد فقال له الملك الصحيح ان قوما من وراء البحر انتهوا الينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين فى بلادكم فخفنا من ذلك فخرجنا لنتوسط الامر بينكم وبينهم فقال شمس الخلافة فأى شئ قد طلبوا قال ألفى ألف دينار فقال مكانكم حتى أصل الى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب فقال له ملك الفرنج فنحن ننزل على بلبيس الى أن تعود قال وحكى ان ملك الفرنج لما وصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له انى قد قصدت الخدمة على ما قررته لى من العطا فى كل عام فأجابه شاور ان الذى قررته لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم على عدوّ فأما مع خلو بالى من الاعداء فلا حاجة لى اليك ولا لك عندى مقرر فاجابه مرى أن لا بد من حضورى وأخذى المقرر فعلم شاور انه قد غدر بالعهد ونقض الايمان وانه قد طمع فى البلاد فأخذ فى تجنيد الاجناد وحشد العساكر الى القاهرة وأنفذ الى بلبيس قطعة من الجيش وميزه وعدّه ثم ان ملك الفرنج سار خلف رسول شاور ولا يلوى على قول حتى خيم على بلبيس فى صفر وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن النحاس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة وأرسل الى طى بن شاور وكان ببلبيس وقال له أين ننزل قال على أسنة الرماح وقال له أتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها فأرسل اليه مرّى نعم هي جبنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا عظيما وخرب أكثرها وأحرق حلل أدرها ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشر وا فى مكان واحد وحمل فى وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التى كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التى كانت عن يساره لعسكره وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله تعالى على ما أولانى من فتح بلاد مصر فانى قد ملكتها بلا شك ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل الى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى فاقتسموهم وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج وهلك أكثرهم فى أيديهم وأفلت منهم اليسير لان الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الاسرى منهم وسامح أهل بلبيس بخراجهم الى آخر أيامه ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والاسر وان الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهرا أشفق من ذلك وطلب الاذن على العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت علينا ولم يبق الا أن تكتب الى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته فكتب جميع ذلك وأرسل شاور طى تلك الكتب كتبا وسخم أعاليها بالمداد قال وحدثنى شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال انما كتب هذا الكتاب برأى أبى شمس الخلافة لانه لما رجع من عند مرى لعنه الله بعد أخذ بلبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندى أمر لا يمكننى ان أفضى به اليك الا بعد ان تحلف لى انك لا تطلع أباك عليه فلما حلف له قال له ان أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى العاضد وألزمه ان يكتب الى نور الدين فليس لهذا الامر غيره فقصده الكامل وكتب الكتاب فلما وصل الى نور الدين انزعج انزعاجا عظيما وأنفذ أسد الدين وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكارى الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه ان العساكر واصلة برسالة سرّية الى العاضد وأمره ان يستحلفه على أشياء عينها وان يكتم ذلك من شاور وأما الفرنج فساروا الى جهة مصر وأمر شاور باحراق مصر وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا فى بلاد مصر وبلغ أجرة الجمل الى القاهرة ثلاثين دينارا وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر فى تاسع صفر وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوما ثم ان الفرنج لعنهم الله نزلوا فى بركة الحبش وانبثت أخبارهم فى الاطراف وتخطفوا من ظفروا به فأنفذ شاور شمس الخلافة الى مرى لعنه الله فلما دخل عليه سأله

ان يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخانا فى السماء قال نعم قال هذا دخان مصر ما آتيت الا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرّقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه فخل الآن عنك مداقتى ومخاتلتى وكن كلما قلت لك انزل فى مكان تقدّمت الى غيره وما بقى لك الا أن تنزل بالقاهرة فقال هو كما تقول ولا بدّ من نزول القاهرة ومعى فرنج من وراء البحر قد طمعوا فى اخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلى باب البرقية نزولا قاربه البلد حتى صارت سهام البرج تقع فى خيمته فقاتلوا البلد أياما فلما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فأنفذ شمس الخلافة الى مرى لعنه الله تعالى برسالة طويلة فبلغها فى نعار به ودار من حواليه وفى ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة والرأى ان تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى وتحصل شيئا أدفعه لك يحصل لك عفوا) فاستقرّت المصانعة على أربعمائة ألف دينار وقيل ألفى ألف دينار يحصل له منها مائة ألف دينار فأجاب مرى الى ذلك وانعقدت الهدنة وحلف مرى ورحل الى بركة الحبش وحمل شاور اليه مائة ألف دينار فى عدّة دفعات سوّف فيها الاوقات ثم أخذ يمطله بالباقى انتظارا لقدوم العساكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال فلم يشعر الفرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم فلما رأوهم رحلوا الى بلبيس ونزل أسد الدين بالمقسم ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس وأتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين الى صدر أنفذ شمس الخلافة الى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قلّ علينا المال فقال ملك الفرنج اطلب منه شيئا قال اشتهى ان تهب لى النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة ما بلغنى ان ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم فى مثل حالنا فقال ملك الفرنج أنا أعلم انك رجل عاقل وان شاورا ملك وانكما ما سألتمانى ان أهبكما هذا المال العظيم الا لامر قد حدث فقال له صدقت هذا أسد الدين قد وصل الى صدر نصرة لنا وما بقى لك مقام وشاور يقول لك أرى ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك ولنا واذا حصل هذا الرجل عندنا ارضيناه من هذا المال بشئ وحملنا الباقى اليك متى قدرنا وان نحن أخرجنا فى رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار فقال ملك الفرنج أنا راض بذلك وان بقى على شئ حملته اليكم وعوّل على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طى ابن شاور وجميع من فى عسكرك من الاسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئا فأجابه الى جميع ذلك ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل اسد الدين بأرض يقال لها اللوق وأخرج اليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة ولما اجتمعا قال شاور لاسد الدين قد رايت من الرأى ان أخرج أنا وأنت وان ندرك الفرنج ونوقع بهم فقال أسد الدين هذا كان رأيى والفرنج على البرّ الغربى وليس لهم وزر وأما الآن فلا لانهم على البرّ المتصل ببلادهم ونحن فقد خرجنا من البرّ فى أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن الى الراحة والاستجمام أحوج ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة وأخرج الى خدمته أكابر أصحابه ثم انه خرج اليه فى الليل سرا متنكرا واجتمع به فى خيمته وأفضى اليه بأمور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سريرملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم وأخذوا فى اصلاح ماشعثه الفرنج وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن اليهم وأما شاور فانه أخذ فى التودّد الى أسد الدين والتقرب الى قلبه بجميع ما وجد السبيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته فى ملكه وصفا له قلبه حتى أنفذ اليه سرا أحرس نفسك وعساكر الشام وأما عسكر الشام فانهم لما رأوا أطيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة أموالها تاقت أنفسهم الى الاقامة بها واختاروا سكناها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوى طمع أسد فى الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فأخذ فى اعمال الحيلة عليه وكان العاضد قد تقدّم اليه بقتله فجمع أصحا

وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتي في هذه البلاد ومحبتي لها وحرصي عليها لاسيما وقد تحققت ان عند الفرنج منها ما عندي وعلمت انهم كشفوا عورتها وعلموا مسالك رقعتها وتيقنت انى متى خرجت منها عادوا اليها واحتووا عليها وهي معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم وقد قوى عندي ان أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل تملكهم وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويغرنا ويغرهم ويضرب بيننا وبينهم وقد ضيع أموال هذه البلاد في غير وجهها وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم الى هذه البلاد التي قد قل رجالها وهلكت أبطالها فتحلت الاراء بين الامراء انه لا يتم لهم أمر الا بعد القبض على شاور وتفرقوا على ايقاع القبض به وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والجلالة الجسيمة والعدة الحسنة والالة الجميلة على عادتهم الاولى وكان من جملة قواعدهم ان الوزير اذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فجعل الامراء يترصدونه ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاور ادخل اليه الى داره وناوله سيفه وعمامته فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه ثم ان شاور اركب يوما في أبهته وجلالته فلما عاينه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوما عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في موكبه ثم سايره ثم مد يده الى تلابيبه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاور راجلا الى خيمة لطيفة واراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فأنفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب الى القصر وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة وأنفذ اليه طبق فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤس أولاد اخوته ولما خرج منشور الوزارة الى أسد الدين أمر بقراءته على رؤس الاشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانا لمعانيه واستظرافا لما أودع من بديع الكلام فيه قال ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحا شديدا وواصل الحمد والثناء على الله تعالى اذ كان في زمنه وعلى يده وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده وجلس للهناء بذلك وأنشده الشعراء في فتحها عدة أشعار غير انه لما اتصل به ان اسد الدين وزر للعاضد واستبد بالامر في ذلك الصقع امضه ذلك وأقلقه وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة وأخذ في الفكرة في أمره وسهره لياليا وافضى بسره الى مجد الدين بن الداية حدثني جماعة عن شمس الدين على بن الداية أخي مجد الدين وحدثني الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي وقد جرى ذكر فتح مصر وان نور الدين ابتهج به فقال والله ما ابتهج به لقد كان وده أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين الى ما صارا اليه ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر فانه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد ان يراه واهتم لذلك حتى افضى عليه الهم ولولم يكن الفتح اليه منسوبا وعليه فضله محسوبا لما صبر على ما جرى ولا اغضى الملك العادل على القذى ولقد كتب العاضد عدة دفعات في أمر الاسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح وكثيرا ما يوجد في كتب نور الدين الى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال فمن بعض مكاتباته (ولقد افتقر العبد الى بعثته وأعوز عسكره من نقيبته واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته لانه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب ويصمى مقل الشرك بسهمه النافذ الصائب) قلت لعل نور الدين رحمه الله انما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد فخاف من ميله الى القوم والى مذهبهم وان يفسد جنده عليه بذلك السبب هذا ان صح ما نقله ابن أبي طي والله أعلم قال وكان أسد الدين لما ولى الوزارة لم يغير على أحد شيئا وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم الى ان انقضت أيامه وفنيت أعوامه وكان قرما يحب اكل اللحم ويواظب عليه ليلا ونهارا فتواترت عليه التخم واتصلت به مرضاته الى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه ويقال انه أكل في ذلك اليوم مضيرة ودخل الحمام فلما خرج منها أصابه الخناق قال وكان شجاعا بارعا قويا جلدا في ذاته شديدا على الكفار وطأته عظيمة في ذات الله صولته عفيفا دينا كثير الخير وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الايثار حدبا على أهله وأقاربه وكان فيه امساك وخلف

مالا كثيرا وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الاسدية وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار وتنقل الى ان ملك الديار المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة ايام قلت واليه تنسب المدرسة الاسدية بالشرق القبلي ظاهر دمشق وهى المطلة على الميدان الاخضر وهى على الطائفتين الحنفية والشافعية والخانقاة الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين قال ابن أبي طي وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامى ومالت الاسدية الى صلاح الدين وفى تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة فأرشد من جماعة من الامراء الى شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين فأنفذ اليه وأحضره وخاطبه فى تولى الوزارة فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر وكان الحارمى أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن باروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فيفوته وربما فاتت صلاح الدين فاشار به لانها الـ ا كانت فى ابن أخته كانت فى بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وأقدامه على شاور فى موكبه وانه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف فسارع الى تقليده الوزارة وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد الا وخلع الوزارة قد سبقت الى الملك الناصر وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسى بطرز ذهب وثوب دبيقى بطرازى ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب وطيلسان دبيقى بطراز دقيق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة ألف دينار وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة ألف دينار وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية ألف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء وفى رأسها ما ثتا حبة جوهر وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة وفى رأسها مشدة بيضاء باعلام ذهب ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء آخر ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وقرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية وكان يوما عظيما وخلع السلطان على جماعة الامراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات ولما استقرت قدمه فى الوزارة والرياسة قام فى الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسه ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها وجرى فى مناهج العدل على جددها وحيعل الى جوده وفضله ونادى الى رفده وبذله وكاتب الاطراف بما صار اليه من السلطان وسر قلوب الاصدقاء والاحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان واستدعى الى حوزته الاصحاب والاهل وزوى بفسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل وتاب من الخمر وعدل عن اللهو وتيقظ للتدبير وسها عن السهو وتقمص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين وشمر عن ساق الجد والاجتهاد وافاض على الناس من كرمه وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد وورد عليه القصاد والزوار وأمر بنفائس الخطب وجواهر الاشعار حدثنى بعض الامراء قال أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة وبلغ من محبته له انه كان يدخل اليه الى القصر راكبا فاذا حصل عنده قام معه فى قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره قال ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال اليه العاضد وحكمه فى ماله وبلاده وحسده من كان معه بالديار المصرية من الامراء الشامية كابن باروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين ثم انهم فارقوه وصاروا الى الشام وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى جماعة من أصحاب نور الدين ان نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين و وزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة فى قلوب الرعايا أعظم ذلك وا كبره وتأفف منه وأنكره وقال كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا بغير أمرى وكتب فى ذلك عدة كتب فلم يلتفت الملك الناصر الى قوله الا انه لم يخرج عن طاعته وامره دوانه ما فارق قبول رأيه واشارته وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج اليه وطلب منه حساب مصر وما صار اليه وكان كثيرا ما يقول ملك ابن أيوب قلت هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الادمية وقد اجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك الا من عصم الله ومن انصف عذر ومن عرف صبر والذى انكره نور الدين هو افراط صلاح الدين فى تفرقة الاموال

واستبداده بذلك من غير مشاورته هذا مع ان ابن أبى طى متهم فيما ينسبه الى نور الدين مما لا يليق به فان نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل مشاعرهم وقوى أهل السنة وكان والد ابن ابى طى من رؤس الشيعة فنفاه من حلب وقد ذكر ذلك كله ابن أبى طى فى كتابه مفرقا فى مواضع فلهذا هو فى الكتاب الذى له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله فلا يقبل منه ما ينسبه اليه مما لا يليق به والله أعلم قال ولما ملك الملك الناصر مصر أنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين وفرق عماله واعطاه تل باشر ثم أخذها منه ولقد كان يتألم الملك الناصر ويقال انه لما مرض قال ما أخطأت الا فى انفاذى أسد الدين الى مصر بعد علمى برغبته فيها وما يحزننى شئ كعلمى بما ينال أهلى من يوسف بن أيوب ثم التفت الى أصحابه فقال اذا انا مت فصيروا بابنى اسماعيل الى حلب فانه لا يبقى عليه غيرها قال ابن أبى طى ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين واقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب حدثنى أبى عن ابن قاضى الدهليز وكان من خواص الملك الناصر قال جرى يوما بين يدى السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه ثم قال والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر وما قدر أحد من أصحابه ان يجد على ما يعتده ذنبا ولقد اجتهد هو بنفسه أيضا ان يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الاشياء التى لا يصبر على مثلها العلى الا تضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له الى منابذتى فما أبلغته اربه يوما قط قلت قد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله وذلك ضد ما قاله ابن أبى طى كتب نور الدين ذلك الكتاب الى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته (حسبى الله وكفى وفق الله الشيخ الامام شرف الدين لطاعته وختم له بخير غير خاف على الشيخ ما أنا عليه وفيه وكل غرضى ومقصودى فى مصالح المسلمين وما يقربنى الى الله والله ولى التوفيق والمطلع على نيتى وانت تعلم نيتى كما قال عز من قائل (ومن عنده علم الكتاب) أنت تعلم ان مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها فهى من الفتوحات الكبار التى جعلها الله تعالى دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد الا ان المقدم على كل شئ أمور الدين التى هى الاصل وبها النجاة وأنت تعلم ان مصر واقليمها ما هى قليلة وهى خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع الا للشدائد وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهى مفارقتك والآن فقد تعين عليك وعلى أيضا ان ننظر الى مصالحها ومالنا أحد اليوم لها الا أنت ولا أقدر أولى أمورها ولا أقلدها الا لك حتى تبرأ ذمتى عند الله فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل ما تعلم انه يقربك الى الله وقد برئت ذمتى وأنت تجاوب الله فاذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالى وفقه الله فيطيب قلبى وتبرأ ذمتى وقد كتبت هذا الخطى حتى لا يبقى على حجة تصل أنت وولدك عندى حتى أسيركم الى مصر والسلام بموافقة صاحبى واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله فأنا منه شاكر كثير كثير جزاه الله خيرا وأبقاه ففى بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام الله تعالى يكثر من الاخيار وأعوان الخير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما) قال ابن أبى طى وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار وما يستخرج بالاعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار فسامح بجميع ذلك وأمر بكتابة سجل به من ديوان الانشا وأنفذ الى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين فى جهات المستخدمين والعاملين لعدة سنين متقدمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفى ألف أردب غلة فسامح فى جميع ذلك وأبطله من الدواوين واسقطه عن المعاملين وانهى اليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره وعوض عنه بعدة ضياع فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها قلت وسيأتى كل ذلك فى موضعه ونسخة منشور اسقاط المكوس فى أخبار سنة سبع وستين وذلك باشارة نور الدين رحمه الله وفى أيامه

(فصل) ذكر العماد فى ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر ولم يذكرها فى كتاب البرق منها

بملك مصر اهنى مالك الامم ❊ فاسعد وابشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما ❊ وهل بعدلك شئ غير ملتئم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف ❊ ومولى العرف عن خلق بلا سأم

ووامقاتلم ثغر الكفر تجمه * لاثم ثغر شنيب واضح شبم
لله درك نور الدين من ملك * بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
أثار عزمك فى الاسلام واضحة * وسر ملك باد غير مكتتم
بما من العدل والاحسان تنشره * تخاف ربك خوف المذنب الاثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة * ثنى الاعنه اقداما على اللجم
فأقبلت فى سحاب من ذوابلها * وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب فى قلب العدو بها * تمكن النار بالاحراق فى الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب * واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق فى طلب العلياء مقتحمات اصعب القحم
وعاجلات من الافرنج غلهم * والقيد فى موضع الاطواق والحزم
لقد شفت غلة الاسلام وانتقمت * من العدو بحد الصارم الخذم
أعانها الله فى اطفاء جمر اذى * من شر شاور فى الاسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها * للامن والعز والاقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة انمحقت * وعاودت دولة الاحسان والكرم
ملوكها الك صاروا اعبدا وغدا * بها عبيدك املاكا كاذوى حرم
انبت عنبك بها قرما ينوب بها * فى البأس عن عنتر فى الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك * عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها * بكشف دولتها لحما على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل * جارا لبحر نوال منك ملتطم
أغزا الفرنج فهذا وقت غزوهم * واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب * على البغات وثوب الاجدل القطم
فلك مصر وملك الشام قد نظما * فى عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازى يسوسهما * بالفضل والعدل والافضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا * محمود الملك محمود بكل فم
فاشلك مصر واظهر عزستها * كم تعتفى والى كم تشتكى وكم

وللعلم الدين الشاتانى فى نور الدين رحمه الله

مانال شأوك فى المعالى سنجر * كلا ولا كسرى ولا الاسكندر
ياخير من ركب الجياد وخاض فى * لجج المنايا والاسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من * اتباعه من جده المستنصر
والمستضى بالله معتمد به * وبجده وبجده مستظهر
أوسد بالشأم الثغور محاميا * للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكى فيروى الارض بحر دموعه * والجو من انفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرها * والاسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الارض بأس كماتها * فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ماضره طى المنية ذاته * وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية * لوقائع مشهورة لا تنكر
واذا عددنا للانام مناقبا * فعليك قبل الكل يثنى الخنصر

في الرأي قيس في السماحة حاتم * في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها * وسواك في آماله يتعثر
من ذا يسوس الصين عنك وأنت من * أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الاعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة فكتب اليه قصائد في هذا المعنى منها

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا * سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر الى الشا * م نوالا أم سال نيل ثانى
وعلى نيلها لكفيك فضل * فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياتك الغر غزرا * فتلقت آمالنا بالتهانى
خلع راقت العيون ورقت * وعلا وصفها عن الامكان
مذهبات كأنها خلع الرضـ * ـوان قد أهديت لاهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيا * ت الحسان الرفيعة الاثمان
فالعمامات كالغمامات والطر * ز بروق كثيرة اللمعان
والموالى بها من التيه والفخـ * ـر على الدهر ساحبو الاردان
كيف خص العماد بالادون الخـ * ـلق من دون عصبة الديوان
اخليق من نسجه لك في المد * ح جديد بامهن الخلقان
وكذا عادة الليالى تخص الـ * ـفاضل المستحق بالحرمان
لم تزل سائرات جودك بالشـ * ـام لديه غزيرة التهتان
فاذا لم تزده مصر كمالا * في المنى فاحمه من النقصان

وكتب الى فخر الدين أخى صلاح الدين قصيدة منها

عبدك شمس الدولة المرتجا * منتظر تشريفك المذهبا
فاعتب صلاح الدين لى حالتى * عساه بالاصلاح ان يعتبا
عرّفه ما تم فانى أرى * من فضله للفضل ان يغضبا
وكيف يرضى ذاك بعض الرضى * ومجده يأباه كل الابا
وقل له جاءته ملبوسة * تخلفت من تبع فى سبا
عمامة رقت ورثت فما * نشرتها الاوطارت هبا

قال فوصل الى من نور الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التى قبلها وكتب الى سعد الدين كمشتكين كتابا يقول فيه استعير لسانه في الاعتذار الى العماد فانى استقل لمرامه ارم ذات العماد فكتب العماد

أما العماد فقد تضاعف شكره * نعماك شكر الروض نعمى الصيب
لعمامة ذهبية كغمامة * يبدو بها برق الطراز المغربى
ما كان أحسن حاله لو أنه * شفعت عمامته بثوب مذهب

قال وكتب اليه

أهنى الملك الناصر بالملك وبالنصر * وما مهد من بنيا * ن دين الحق فى مصر
وما أسداه من بر * بلا عد ولا حصر * وما أحياه من عدل * وما خفف من اصر
واعلاء سنا السنـ * ـة فى بحبوحة القصر * قد استولى على مصر * بحق يوسف العصر
واحيا سنة الاحسا * ن فى البدو وفى الحضر

وكتب اليه الامير اسامة بن منقذ من قصيدة أولها يقول

ديار الهوى حيا معالمك القطر * وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت فى عنفوان شبابها * ونضرتها من بعدما هرمت مصر
وكم خاطب ردته لم يك كفؤها * الى ان اتاها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين وصانها * كما صان عينا من مسلم القذى شفر
وكان بها بحر اجاج فأصبحت * ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى

فما أنت الا الشمس لولاك لم تزل * على مصر ظلماء الظلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل * كما كان لما ان طغى وتمردا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى * وأرشدتهم تحت الضلال الى الهدى

وله فيه من أخرى

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة الـ * ـعلياء للملك الهمام الناصر
يعطى الالوف ويلتقيها باسما * طلق المحيا فى القنا المتشاجر

وقرأت فى ديوان العرقلة وقال فى المولى الملك الناصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما

صلاح الدين قد أصبحت دنيا * شقى لم يبت الا حريصا
وأرسلت السلام لنا عموما * وجودك جاءنى وحدى خصوصا
فكنت كيوسف الصديق لما * تلقى منه يعقوب القميصا

وكان العرقلة من جملة المترددين الى صلاح الدين أيام كونه بدمشق فلما صار الى مصر وعده انه متى ملكها اعطاه ألف دينار فلما تم أمره بمصر كتب اليه العرقلة قصيدة منها

اليك صلاح الدين مولاى أشتكى * زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الالف التى كنت واعدى * بها فى يدى قبل الممات تصير
وهيهات والافرنج بينى وبينكم * سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى * بمصر ومثلى بالشأم فقير

وقال أيضا

قل للصلاح معينى عند اعسارى * ياألف مولاى أين الالف دينار
أخشى من الاسران حاولت أرضكم * وماتفى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات مسطرة * من بعض ماخلف الطاغى أبو الطارى
حمرا كأسيافكم غبرا كخيلكم * عيفا ثقالا كأعدائى واطمارى

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار فقال

ياما لكا ما برحت كفه * تجود بالمال على كفى
أفلح بالعشرين من لم يزل فى * رأس عشرين من الكهف
ياألف مولاى ولكنها * محسوبة من جملة الالف

وذكر العماد فى الخريدة ان العرقلة قصد صلاح الدين الى مصر فأعطاه ذلك وأخذله من اخوته مثله فعاد الى دمشق وهو مسرور مجبور وكان ذلك ختام حياته ودنا أجل وفاته فمات بدمشق فى سنة ست أوسبع وستين وخمسمائة قلت وفى ديوانه مايدل على قدومه مصر فانه فيه وقال وكتبها على حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسه

ياداخل الحمام هنيتها * دائرة كالفلك الدائر
تأمل الجنة قد زخرفت * وعمرت للملك الناصر
كأنما فيض أنابيبها * ندا للوارد والصادر

(فصل) فى قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعة السودان بين القصرين وغير ذلك قال العماد وشرع صلاح الدين فى نقض اقطاع المصريين فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر وكان بالقصر خصى يدعى بمؤتمن الخلافه متحكم فى القصر فاجمع هو ومن معه على ان يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الاسدية والصلاحية لان صلاح الدين يخرج الى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقى من أصحابه بالقاهرة ويتبع من وراءهم فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج واتفق ان رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع انسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى فأنكرهما فأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر فأخذ الكتاب وقال دلونى على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودى من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه ودخل فى عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وشيده من الامر وبناه وان الآمر به مؤتمن الخلافه وانه برىء من هذه الآفه فحسن لدى السلطان اسلامه وثبت اعتصامه وعرف استسلامه ورؤى اخفاء هذا السر واكتتامه واستشعر الخصى العصى وخشى ان تسبقه على شق العصا العصى فصار يخرج من القصر مخافه واذا خرج لم يبعد مسافه وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض لا يأمر فيه بسط ولا قبض الى ان استرسل واستبسل فظن ان ما نسله من الشر العقيم نصل وكان له قصر فى قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته ولم يدر انه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته فانهض اليه صلاح الدين من أخذ راسه ونزع من جاء به لباسه وذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة أربع فورد موارده من رداه على ادون مشرع قال ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفا وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه واذلوه واستباحوه واستحلوه فحسبوا ان كل بيضاء شحمه وان كل سوداء فحمه فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجا ومقدمهم الامير أبو الهيجا واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين ودام الشر يومين حتى حس الاساحم بالجبن وكلما لجؤوا الى محلة احرقوها عليهم وحووا ما حوا اليهم واخرجوا الى الجيزة واذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزه وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى القعده فما خلص السودان بعدها من الشدّه ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصوره وكانت بهم المعمورة المعموره فأخلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاويه ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا فهى الآن جنة لها ساقيه قال وكان قد وصل الى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الاكبر فخر الدين شمس الدولة توران شاه بن أيوب أنفذه اليه نور الدين من دمشق يشد ازره بمصر لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر فوصل القاهرة فى ثالث ذى القعدة قال وباشر بنفسه وقعة السودان هذه وكان له فيها أثر عظيم ومن عجيب ما اتفق ان العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين فقيل انه أمر من بالقصر ان يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا وقيل ان ذلك كان عن غير اختياره فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد فهم أحد الزراقين بذلك واذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم العبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم وكانت العبيد مشتدّة الانفس بان العاضد راض بفعالهم فلما سمعوا ذلك فت فى أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وادبروا ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها

بالملك الناصر استنارت ❊ فى عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض ❊ شكر الماجاد من نوافل
يوسف مصر الذى اليه ❊ تشدّ آمالنا الرواحل
اجريت نيلين فى ثراها ❊ نيل نجيع ونيل نائل
ومانفيت السودان حتى ❊ احكمت البيض فى المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقا ❊ عليهم كفه بحائل
وكل راى منهم كراء ❊ وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغانى * واقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا الابطـــل * فكيف لوامطروابوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا * فهى نواز لهم نوازل
مؤتمن القوم خان حتى * غالته من شره غوائل
عاملكم بالخنا فاضحى * ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالايادى * قد آن ان تفتح السواحل
فقدّس القدس من خباث * ارجاس كفر غثم أراذل

قال العماد ومما مدحت به صلاح الدين فى ذلك التاريخ تهنئة له بالملك وتعزية بعمه

أيا يوسف الاحسان والحسن خير من * حوى الفضل والافضال والنهى والامرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه * تجلى وثغر النصر من عزمه افترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه * من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى الا المعالى وعمه * بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله * وماشاركوه فى العلا فحوى الفخرا
بنو الاصفر الافرنج لاقوا ببيضه * وسمر عواليه منا ياهم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه * من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرا
رأى النصر فى تقوى الاله وكل من * تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة * اغذ من الاولى مسيرا الى الاخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا * وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر الى عصر يوسف * أعاد اليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجوده * بحارا قسماها الورى اتملا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم * فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم * بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وآمنتم فيها الرعايا بعدلكم * وأطفأتم من شرشا ورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة * وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوى الاسلام حتى تغادروا * لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الافرنج سوط عذابها * بأن يقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدّس واعزموا * على فتحه غازين واقترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم * وما الملك الآن تديموا لكم ذكرا
وان الذى أثرى من المال مقتر * وان تغنه فى كسب محمدة أثرى

قال وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت

ما كنت بالمنظور أقنع منكم * ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت فى جوابه أبياتا منها هذه

ياهل لسالف عيشتى بفنائكم * من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظرى ما أذنت * للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع فى المطالب عندكم * فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى * وبقربكم كم بت غير قنوع

قال ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت

وانثردر الدمع من قبل أبيضا ❊ وقد حال مذبنتم فأصبح ياقوتا

فنظمت فى جوابه أبياتا منها

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها ❊ بأمر من الرحمن قد كان موقوتا

وما كان فيها قتل يوسف شاورا ❊ يماثل الاقتل داود جالوتا

وقلت لقلبى ابشر اليوم بالمنى ❊ فقد نلت ما أملت بل حزت ما شيتا

قال وفى هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور الكامل وأخاه يعنى الطارى يوم الاثنين الرابع من جمادى الآخرة وذلك انه لما قتل شاور عادوا فى القصر فكانما نزلوا فى القبر فلوانهم جاؤا الى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا فانه ساءه قتل شاور وان كان أمن بقتله ما حاذر قلت الكامل هو شجاع بن شاور وكان له اخوان طى تقدم ذكر قتل ضرغام له والآخر الطارى قال الفقيه أبو الحسن على بن محمد بن أبى السرور الروحى فى تاريخه أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطارى الملقب بالمعظم وأخوه الملقب بفارس المسلمين فقتلوا ودير برؤسهم قال ولما ولى صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل مالم يعلموه فاجتمع أهل البلاد وكرهوه فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة اخراجا عنيفا وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا قال ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها جليلها وحقيرها وغزا بلاد الشام غزوتين قال ابن شداد وفى المحرم من هذه السنة توفى ياروق الذى تنسب اليه الياروقية يعنى المحلة التى بظاهر حلب قال غيره وفيها احترق جامع حلب وأسواق البز وأخذ نور الدين فى عمارته آخر السنه

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة ﴾ ففى أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية قال ابن الاثير كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم انهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر وتابع رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وانه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان سار اليها خلفه المصريون فى مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء وخرجوا من طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من امامه فجهز نور الدين اليه العساكر ارسالا كلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت اليه يتلو بعضها بعضا ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات الى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع فلما رأى الافرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها رجعوا خائبين ولم يظفروا بشئ وهذا موضع المثل ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين فوصلوا الى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى حكى عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها قال القاضى ابن شداد لما علم الفرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم وماتم من استقامة الامر فى الديار المصرية علموا ان صلاح الدين يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا انفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم انها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار وذلك فى ربيع الآخر منها وفى رجب منها توفى العمادى صاحب نور الدين وأمير حاجبه وكان صاحب بعلبك وتدمر ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها فى شعبان من هذه السنة فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية

بحلب فى رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التى خربت كثيرا من البلاد وكانت فى ثانى عشر شوال من السنة المذكورة وهو بعشترا فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل وكانت وفاته فى الثانى والعشرين من ذى الحجة وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم ان نزل عليهم وبالغ فى العطايا والهبات وكان وزيرا متحكما لا يرد أمره فى شئ ثم نزل الفرنج عليها فى التاريخ المذكور واشتد زحفهم اليها وقتالهم لها وهو رحمه الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله المسلمين بتأييدهم وحسن قصده فى نصرة دين الله يسعدهم ويجدهم حتى بان لهم الخسران وظهر على الكفر الايمان ورأوا انهم ينجون برؤسهم ويسلمون بنفوسهم فرحلوا خائبين خاسرين فحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم وسلم البلد بحمد الله ومنه وقال العماد أقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكه ومدار فلكه ينهض اليها المدد بعد المدد ويرسل اليها العدد بعد العدد يسهر ليله ولا يقيل نهاره وقد أخلص لله سره وجهاره ولا ينام ولا ينيم وعنده من ذلك المقعد المقيم وسبق تقى الدين ابن أخى السلطان الى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها واتصل الحصار وتواصل الانصار ودب فى الفرنج الفنا وهب عليهم البلا فرحلوا عنها فى الحادى والعشرين من ربيع الاول بالذل الاكمل والصغار الاشمل وكان لما وصل الخبر الى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم واستعصب الملم وأنهض من عنده عسكرا ثقيلا مقدمه الامير قطب الدين خسرو الهذبانى وكان مقداما مقداما وهماما معلما وأمره ان يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الاكدر فوصل فى النصف من ربيع الاول قبل رحيل الفرنج باسبوع فوقع روعه من الكفر فى كل روع قلت وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء فى جملة تلك الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث ان تبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال انى لاستحيى من الله تعالى أن يرانى متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج وبلغنى ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له اعلم نور الدين ان الفرنج قد رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة فقال يارسول الله ربما لا يصدقنى فاذكر لى علامة يعرفها فقال قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت يارب انصر دينك ولا تنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر قال فانتبهت ونزلت الى المسجد وكان من عادة نور الدين انه كان ينزل اليه بغلس ولا يزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح قال فتعرضت له فسألنى عن أمرى فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة الا أننى لم أذكر لفظة الكلب فقال نور الدين اذكر العلامة كلها وألح على فى ذلك فقلتها فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة

﴿فصل﴾ أرسل نور الدين كتابا الى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك فى مصر خوفا منهم والاقتصار على صلاح الدين والزامه وخواصه فكتب اليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك فان الفرنج لا يرهبون الا منهم ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصريه وتحصلوا منها على الامنيه فلعل الله ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التى لا تحصى قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة

من شاكر والله أعظم شاكر ✽ ما كان من نعمى بنى أيوب

طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا ✽ حسبى فأنتم غاية المطلوب

جلبوا الى دمياط عند حصارها ✽ عز القوى وذلة المغلوب

وجلوا عن الاسلام فيها كربة ✽ لولم يجلوها أتت بكروب

فالناس فى اعمال مصر كلها ✽ عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا ❁ وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة يقول

ولا غرو ان عاد الفرنج هزيمة ❁ ولولم تعدلم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت اعداؤه ان حظهم ❁ لديه رماح اشرعت أوسلاسل
ولما أتوادمياط كالبحر طاميا ❁ وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم ❁ ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسدا بأيديهم القنا ❁ وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل
ودار وابها فى البحر من كل جانب ❁ ومن دونها سدّ من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها ❁ نخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الاعقاب منها هزيمة ❁ كأنهم ذلا نعام جوافل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم ❁ لتعصمهم مما رأوه المعاقل

قال العماد وسألنى كريم الملك ان أعمل له أبياتا فى صلاح الدين تهنئة بالنصر فى دمياط فعملت قصيدة منها

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا ❁ بجده صاعدا أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء فى شرف ❁ ومركز الشمس من افلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التى اجتمعت ❁ لها الفرنج فما حلوا ولاربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرقة ❁ وكل أمرلها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها ❁ فللمصالح من أيامه نمط

قال العماد ومما سيرته الى صلاح الدين قصيدة منها

كأن قلبى وحب مالكه ❁ مصر وفيها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمنى ❁ وهو بقتل الاعداء ينصفها
الملك الناصر الذى أبدا ❁ بعز سلطانه يشرّفها
قام باحوالها يدبرها ❁ حسنا واثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها ❁ وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها ❁ ومن خباث العدى ينظفها
وان مصرا بملك يوسفها ❁ جنة خلد يروق زخرفها
وانه فى السماح حاتمها ❁ وانه فى الوقار أحنفها
يوسف مصر الذى ملاحها ❁ جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لا يزينها ❁ الا بأيامه مصنفها
وحطت دمياط اذ احاط بها ❁ من رجوم البلاء يقذفها
لاقت غواة الفرنج خيبتها ❁ فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قلب القلوب ارشية ❁ من القنا للدماء تنزفها
وليتها سفكها فعاملها ❁ عاملها والسنان مشرفها
يمضى لك الله فى قتالهم ❁ عزيمة للجهاد زهفها

وله فيه من أخرى

قد استقرت أمورى ❁ فيه بحسب اقتراحى
كما استقر صلاح الدنيا بملك الصلاح
تنير شمس أياديه فى سماء السماح
وأمره مستفاد ❁ من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين الى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال فلما كنت بماردين كتبت

الى بعض المعارف

قد نزلنا فى جوارك ❊ وطلبنا قرب دارك ❊ وسرينا فى الدياجى ❊ فهدانا ضوء نارك
فتدارك أمرنا اليو ❊ م بطول متدارك ❊ وتفرد باغتنام الشكر من غير مشارك

قال العماد وفى هذه السنة خرج نور الدين الى داريا فأعاد عمارة جامعها وعمر مشهد أبى سليمان الدارانى وشتى بدمشق

❊(فصل)❊ فى مسير نجم الدين أيوب الى مصر بباقى أولاده وأهله وقد وصف ذلك عمارة فى قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدم بعضها يقول فيها

صحت به مصر وكانت قبله ❊ تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا لمعجزة أتت فى عصره ❊ والدهر ولاد لكل عجيب
ردّ الاله به قضية يوسف ❊ نسقا على ضرب من التقريب
جاءته اخوته ووالده الى ❊ مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة ❊ قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الامير نجم الدين أيوب نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق الى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده وخيم بظاهر البلد الى ان بان وضوح جدده وسار فى حفظ فوصل الى مصر فى السابع والعشرين من رجب وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب لاستقباله وزاد اقبال البلاد باقباله ولما عزم على الرحيل الى مصر شرع فى تفريق املاكه وتوفير ماله فى شركه على اشراكه وما استصحب شيأ من موجوده وجعله نهبة لجوده قلت ووقف رباطا داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد ثم قال العماد ولما انصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه وسحب للعلى على روض الرضى سحائبه خرج نور الدين الى رأس الماء بعسكره وخيامه وأرهف للجد فى الجهاد حد اعتزامه ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه الى ان اجتمعت اليه عساكره وحضر باديه جنده وحاضره وعب بحره وماج زاخره ثم توجهنا الى بلاد الكرك مستهل شعبان ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر ان الفرنج قد تجمعوا ووصلوا الى ماعين فقال نور الدين نرى ان نعطف أعنتنا وبالله نستعين فانا اذا كسرناهم وقسرناهم وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد وملكنا البلاد فرحلنا اليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا وقالوا رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين الى حوران فخيم بعشترا وصام رمضان وقال ابن الاثير كان سبب حصر نور الدين الكرك ان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق الى مصر فسير نور الدين معه عسكرا فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لا يعد فخاف نور الدين عليهم فسار الى الكرك فنزل عليه وحصره وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر ان الفرنج قد جمعوا وساروا اليه وان ابن الهنفرى وفليب بن الرفيق وهما فارسا الفرنج فى وقتهما فى المقدمة اليه فرحل نور الدين رحمه الله تعالى نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقى الفرنج وكانا فى مائتى فارس وألف تركبلى ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقرا الى من وراءهم من الفرنج وقصد نور الدين وسط بلادهم ونهب ما كان على طريقه ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه وقال ابن شداد أنفذ صلاح الدين فى طلب والده ليكمل له السرور ويجمع القصة مشاكلة ما جرى للنبى يوسف الصديق عليه السلام فوصل والده نجم الدين اليه وسلك معه من الادب ما كان عادته والبسه الامر كله فأبى ان يلبسه وقال يا ولدى ما اختارك الله لهذا الامر الا وأنت كفؤ له فما ينبغى ان نغير موقع السعادة فحكمه فى الخزائن بأسرها وكان رحمه الله كريما يطلق ولا يرد ولم يزل صلاح الدين وزيرا محكما الى ان مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين وقال ابن أبى طىّ الحلبى أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد الى نور الدين يعاتبه من تأخير اقامة الدعوة له بمصر فأحضر الامير نجم الدين أيوب والزمه الخروج الى ولده بمصر بذلك وحمله رسالة منها (وهذا أمر يجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لا سيما وامام الوقت

متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته) وسار نجم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر وخرج العاضد لتلقيه الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الاهليلج ولم يجر بذلك عادة لهم وكان من أعجب يوم شهده الناس خلع العاضد عليه ولقبه الملك الافضل وحمل اليه من القصر الالطاف والتحف والهدايا وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والاجر وافرد له دارا الى جانب داره واقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة واقطع شمس الدولة أخاه قوص واسوان وعيذاب وكانت عبرتها فى هذه السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار وسار شمس الدولة الى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغمش لجباية خراجها فخرج عليه عباس بن شاذى فى جماعة من الاعراب والعبيد فى مرج بنى هميم فغنمه رسلان وعاد الى القاهرة وفى هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الافضل نور الدين على وفرح به فرحا عظيما وخلع واعطى وتصدّق بما بهر به العقول ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها

فى مشرق المجد نجم الدين مطلعه ❊ وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاؤا كيعقوب والاسباط اذ وردوا ❊ على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء اخوته ❊ ولم يكن بينهم نزغ ولا زلل
وملكوا أرض مصر فى شماخته ❊ ومثلها لرجال مثلهم نزل

❊(فصل)❊ فى ذكر الزلزلة الكبرى قال ابن الاثير وفى ثانى عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها الا ان أشدّها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها وتهدّمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء فلما أتى نور الدين خبرها والى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها وكان لم يبلغه خبر غيرها فلما وصلها أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماه ثم الى بارين وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شئ البتة فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير ووكل بالعمارة من يحث عليها الليل والنهار ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ فكانوا لا يقدرون يأوون الى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة فانها عاودتهم غير مرة وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الاموال ما لا يقدر قدره وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فانها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر قال العماد وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين ولحصن الاكراد وصافيثا والعريمة وعرقا فى بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الاكراد فانه لم يبق له سور وقد تم عليه فيه دحور وثبور فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه وتواصلت الاخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام قال وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الا بما دهم الكفار من أمرها وعراهم من ضرّها فلقد خصتهم بالامض الاشق وأخذتهم الرجفة بالحق فانها وافقت يوم عيدهم وهم فى الكنائس فأصبحوا للردى فرائس شاخصة أبصارهم ينظرون فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم ذكر العماد قصيدة فى مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها

هل لعانى الهوى من الاسر فادى ❊ ولسارى ليل الصبابة هادى
جنبونى خطب البعاد فسهل ❊ كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت فى غفلة من البين حتى ❊ صاح يوم الاثيل بالبين حادى
قد حللتم من مهجتى فى السويدا ❊ ء ومن مقلتى محل السواد
وبخلتم من الوصال باسعا ❊ فى أما كنتم من الاجواد

وبعثتم نسيمكم يتلافا * نى فعاد النسيم من عوّادى
سمتمونى تجلدا واشتياقا * ومحال تجمع الاضداد
ابقاء بعد الاحبة ياقلبى ماهذه شروط الوداد
ذاب قلبى وسال فى الدمع لما * دام من نار وجده فى اتقاد
ما الدموع التى تحدّرها الاشواق الا فتائت الاكباد
حبذا ساكنو فؤادى وعهدى * بهم يسكنون سفح الوادى
أتمنى بالشام أهلى ببغدا * دوأين الشام من بغداد
ما اعتياضى من حبهم يعلم الله * تعالى الا بحب الجهاد
واشتغالى بخدمة الملك العا * دل محمود الكريم الجواد
انا منه على سرير سرورى * راتع العيش فى مراد مرادى
قيدتنى بالشام منه الايادى * والايادى للحركالاقياد
قد وردت البحر الخضم وخلفت ملوك الدنيا به كالثماد
هو نعم الملاذ من نائب الدهر ونعم المعاذ عند المعاد
جعل زرء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد
فرّق الرعب منه فى أنفس الكفار بين الارواح والاجساد
سطوة زلزلت بسكانها الار * ض وهدت قواعد الاطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس * تركتهم صرعى صروف الغوادى
خفضت من قلاعها كل عال * وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض * مظهر سر غيبه فهو بادى
أية أثرت ذوى الشرك بالهلك وأهل التوحيد بالارشاد
والاعادى جرى عليهم من التد * ميرما قد جرى على قوم عاد
أشركت فى الهلاك بين الفريقين دعاة الاشراك والالحاد
ولقد حار بو القضاء فامضى * حكمه فيهم بغير جلاد
والاله الرؤوف فى الشام عنا * دافع لطفه بلاء البلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر ابتدعته فى الزلزلة وهو
وبحق اصيبت الارض لما * اشتكت من مقام أهل الفساد

قال العماد فى هذه السنة عند وصولنا الى حلب فى الخدمة النورية كنت مقرظا للفضائل الشهرزورية وكان الحاكم بها القاضى محيي الدين ابو حامد محمد ابن قاضى قضاة الشام كمال الدين ابى الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الاحكام واليه امور الديوان وهو ذو المكانة والامكان فى بسط العدل والاحسان ومحيي الدين ولده ينوب عنه فى القضاء بحلب وبلدانها وينظر ايضا فى امور ديوانها وبحماه وحمص من بنى الشهرزورى قاضيان وهما حاكمان متحكمان وكان هذا محيي الدين من اهل الفضل وله نظم ونثر وخطب وشعر وكانت معرفتى به فى ايام التفقه ببغداد فى المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين والمدرس شيخنا معين الدين سعيد ابن الرزاز وكان مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه بعلمه معلما مذهب الطراز وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره وغلبت اصطباره وحلبت افكاره فكتبت اليه قصيدة مطلعها

لو كان من شكوى الصبابة مشكيا * لعدا على عدوى الصبابة معديا
مات الرجاء فان اردت حياته * ونشوره فارج الامام المحييا
أقضى القضاة محمد بن محمد * من لست منه للفضائل محصيا

قاض به قضت المظالم نحبها * وغدا على آثارهن معقبا
يا كاشف الحق فى أيامه * غررا يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها * لولم تجدك لطود حلمك مرسيا
رجفت لسطوتك التى أرسلتها * نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتملت * بمحل اجازتها عليها مبقيا
انفت من الثقلاء فيها اذ رمت * أثقالها ورأتك منها ملجيا
تحلب لها حلب المدامع مسبل * ان لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود افقها * من بعد غيم الغم جوامضحيا
أضحى لبهجتها معيدا بعدما * ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لامورها متدبرا لشتاتها * متألفا لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا * والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا * مما جناه مطرقا مستحييا

﴿فصل﴾ فى غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل قال ابن الاثير كان شهاب الدين محمد بن الياس بن ايلغازى بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار فى عسكره وهم ما تتا فارس الى الخدمة النورية وهو بعشترا فلما وصل الى اللبوة وهى من اعمال بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا وصبر الفريقان لاسيما المسلمون لان ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلثمائة فارس من الفرنج وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله امرا كان مفعولا وسار شهاب الدين بالاسرى ورؤس القتلى الى نور الدين فركب هو وعسكره الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الاكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم ولانه شجى فى حلوق المسلمين وكذلك أيضا رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج فازداد سرورا ولله الحمد قال وفيها فى شوال توفى الملك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل وكان لما اشتد مرضه اوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى بن مودود وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه واحبهم اليه وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بامر دولته فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين زنكى لانه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى وخدمه وتزوج ابنته وكان عزيزه وحبيبه وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم اخاه قطب الدين على توليته لاموره فخاف عبد المسيح ان يتصرف عماد الدين فى اموره عن امر عمه فيعزله ويبعده فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش زوجة قطب الدين فردوه عن هذا الرأى فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازى وتوفى وقد جاوز عمره أربعين سنة وكان تام القامه كبير الوجه أسمر اللون واسع الجبهة جهورى الصوت وكانت ولايته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ولما توفى استقر سيف الدين غازى فى الملك ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا ومستنصرا وكان عبد المسيح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم فى مملكته وليس لسيف الدين من الامر الا اسمه لانه فى عنفوان شبابه وعزة حداثته قال وهذه حادثة تحث على العدل كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقى يفصل بينهما دجلة لها بساتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التى قد زرعت شئ معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه وبعضها مطلق منهما فالممسوح منها لا يحصل لاصحابه منه الا القدر القريب وكان لنا بها عدة بساتين فحكى لى والدى قال جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح الى الجزيرة وأنا حينئذ أتولى ديوانها يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة فشق ذلك على لاجل أصحابها ففيها ناس صالحون ولى بهم أنس وهم فقراء فراجعته وقلت له لا تظن انى أقول هذا لاجل ملكى لا والله وانما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكى جميعه قال فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول تمسح ولا ملكك

يقتدى بك غيرك ونحن نذلّ لك ما يكون عليه فشرع النواب بمسحون وكان بالعقيمة رجلان صالحان بيني وبينهما مودّة اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة فحضرا عندى وتضررا من هذه الحال وسألاني المكاتبة في المعنى فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جوابا عن كتابي فشكراني وقالا وأيضا تعود تراجعه فعاودت القول فأصرّ على المساحة فعرّفتهما الحال فلما مضى عدّة أيام عدت يوما الى داري واذا هما قد صادفاني على الباب فقلت لنفسي عجبا لهذين الشيخين قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه فقلت لهما والله اني لاستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى وقد رأيتما الحال كيف هو فقالا صدقت ولم نحضر الا لنعرفك ان حاجتنا قضيت فظننت انهما قد أرسلا الى الموصل من يشفع لهما فدخلت الى داري وأدخلتهما معي وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذى سعى لهما فقالا ان رجلا من الصالحين الابدال شكونا اليه حالنا فقال قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهم قال فوقع عندى من هذا ولكن تارة أصدّقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما وتارة أعجب من سلامة صدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه باطلاق مساحة العقيمة واطلاق كل مسحون وبالصدقة فسألت القاصد عن السبب فأخبرنا ان قطب الدين شديد المرض قال فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا قال ورأيت والدى اذا رأى أحد الرجلين يبالغ في اكرامه ويحترمه ويقضى اشغاله واتخذهما صديقين قال وكان قطب الدين من أحسن الملوك وأعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير حدّثني والدى قال استدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها فلامني في بعض الامر فقلت أخاف من الاستقصا والدعى على بعض هؤلاء الملوك وأومأت الى أولاده لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت لتحصل منها أضعاف هذا فقال جزاك الله خيرا لقد نصحت وأدّيت الامانة فأشرع في عمارة هذه الاماكن ففعلت وكبرت منزلتي عنده ولم يزل يثني عليّ قال وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين كثير المساعدة والانجاد له بنفسه وعسكره وأمواله حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف وكان احسانه الى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولا تعريض وكان يبغض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله قال وبالله أقسم اذا فكرت في الملوك أولاد زنكى سيف الدين ونور الدين وقطب الدين وما جمع الله فيهم من مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية الى غير ذلك من الاسباب التي يحتاج الملك اليها اذكر قول الشاعر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ❊ مثل النجوم التي يسرى بها السارى

قلت وقرأت بخط الشيخ عمر الملا رحمه الله في كتاب كتبه الى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه (يا أخي لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت غير اني أذكر لك ما خصه الله به من الاخلاق الصالحة هو من اكثر الناس رحمة وأشدّهم حياء وأعظمهم تواضعا وأقلهم طمعا وأزهدهم في الظلم وأكثرهم صبرا وأبعدهم غضبا وأسرعهم رضا وهو من هذه الاخلاق على حدّ أحبه أنا محبة لا أقدر أصفها وبيني وبينه اخاء ومن اورة يزورني وأزوره)

❊(فصل)❊ قال ابن الاثير ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر لديه وشق عليه وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في اقامة السياسة وكان نور الدين رحمه الله لينا رفيقا عادلا فقال أنا أولى بتدبير بنى أخي وملكهم ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم

❊(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)❊ وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ثم سلمها على شئ اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار الى الخابور فملكه جميعه ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر فانه كان قد سار جريدة فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وديار بكر واجتمعت عليه العساكر

وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق وكان بها عسكر كبير من الموصل فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة اليهم ليسلموا البلد اليه وأشار وا بترك سنجار فلم يقبل منهم وقام حتى ملك سنجار وسلمها الى ابن أخيه الاكبر عماد الدين زنكى ثم سار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة فى مخاضة عندها الى الجانب الشرقى وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل قال ومن العجب انه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى أتابك ايلدكز صاحب بلاد الجبل واذربيجان واران وغيرها يستنجده فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك اليها فلم يلتفت نور الدين الى رسالته وكان بسنجار فسار الى الموصل وقال للرسول قل لصاحبك أنا أرفق ببنى أخى منك فلا تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان فانك قد ملكت النصف من بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وازالة الظلم عن المسلمين فعاد الرسول بهذا الجواب وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال وكان هوى كل من بالموصل من جندى وعامى معه لحسن سيرته وعدله وكاتبه الامراء يعلمونه على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد اليه فلما علم عبد المسيح ذلك راسله فى تسليم البلد اليه وتقريره على سيف الدين ويطلب الامان واقطاعا يكون له فأجابه الى ذلك وقال لا سبيل الى ابقائه بالموصل بل يكون عندى بالشام فانى لم آت لاخذ البلاد من أولادى انما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادى فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل اليه فدخلها ثالث عشر جمادى الاولى وسكن القلعة وأقر سيف الدين غازى على الموصل وولى بقلعتها خادما يقال له سعد الدين كمشتكين وجعل له ذردارا فيها وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد وأمر ببناء الجامع النورى بالموصل فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار الى الشام فقيل له انك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود فقال قد تغير قلبى فيها فان لم أفارقها ظلمت ويمنعنى أيضا انني ههنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد ثم اقطع نصيبين والخابور العساكر وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل وعاد الى الشام ومعه عبد المسيح فغير اسمه وسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كثيرا وقال العماد استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال لى قد آنست بك وأمنت اليك وأنا غير مختار للفرقة لكن المهم الذى عرض لا يبلغ فيه غيرك الغرض فتمضى الى الديوان العزيز جريدة وتؤدى عنى رسالة سديدة سعيدة وتنهى انى قصدت بيتى وبيت والدى ومغنى طريفى وتالدى وأنا كبيره ووارثه والذى له حديثه وحادثه فامض وخذ لى اذنا فانى أعد كل جارحة لما أخاطب به اذنا وامثل ما يصلنى من المنال لدفع كل مكروه ركنا وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه ان يسيرنى الى الرحبة فى رجال مأمونى الصحبة وسرت منها على البرية غربى الفرات بخفير من بنى خفاجه فذكر انه وصل وقضى الحاجه ثم رجع من عند الخليفة المستنجد الى نور الدين وهو يحاصر سنجار فاخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قال ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد واستوضح فيها الجدد ودل هنالك فى دجلة على مخاضه وكان ذا اخلاق وهمم مرتاضه فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظن مستصعبا وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمرا عجبا وجاء دليل تركمانى قدامنا وهو يقطع دجلة تارة طولا وتارة عرضا أمامنا ونحن وراءه نخيط واحد لا نميل يمينا ولا يسارا ولا نجد لنا فى سوى ذلك المجاز اختيارا حتى عبرنا من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى برحالنا واثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا وأقنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبه وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب فعرفوا انهم محصورون مقهورون محسورون وانقطعت عنهم السبل من الشرق وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق وبسط العطا

وكشف الغطا وتكلم فى المصلحة والمصالحة الوسطا ومدّ الجسر وقضى الامر وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه وألبسه التشريف الذى وصله من أمير المؤمنين المستضيء ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوما وجدّد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشا بذلك منشورا يقرأ على الناس فنه (قد قنعنا من كنز الاموال باليسير من الحلال فسحقا للسحت ومحقا للحرام الحقيق بالمقت وبعدا لما يبعد من رضى الرب ويقصى من محل القرب وقد استخرنا الله وتقربنا اليه وتوكلنا فى جميع الاحوال عليه وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبه فى كل ولاية لنا بعيدة أوقريبة وازالة كل جهة مشتبهة مشوبه ومحو كل سنة سيئة شنيعه ونفى كل مظلمة مظلمة فظيعه واحياء كل سنة حسنه وانتهاز كل فرصة فى الخير ممكنه واطلاق كل ماجرت العادة بأخذه من الاموال المحظوره خوفا من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى فى جميع ولايتنا جور جائر جاريا ولا عمل لا يكون به الله راضيا ايثارا للثواب الآجل على الحطام العاجل وهذا حق لله قضيناه وواجب علينا أدّيناه بل هى سنة حسنة سنناها ومحجة واضحة بيناها وقاعدة محكمة مهدناها وفائدة مغتنمة أفدناها)

﴿فصل﴾ قال العماد وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملا سمى بذلك لانه كان يملا تنانير الجص بأجرة يتقوّت بها وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره فلا يملك ثوبه ولا أزاره وكان له شئ فوهبه لاحد مريديه وهو يتجر لنفسه فيه فاذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد وكان ذا معرفة باحكام القرآن والاحاديث النبويه وكان العلماء والفقهاء والملوك والامراء يزورونه فى زاويته ويتبركون بهمته ويتيمنون ببركته وله كل سنة دعوة يحتفل بها فى أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك المحفل وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره فى حضوره ويكاتبه فى مصالح أموره وكانت بالموصل خربة واسعة فى وسط البلد أشيع عنها انه ماشرع فى عمارتها الا من ذهب عمره ولم يتم على مراده فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنائها جامعا تقام فيه الجمع والجماعات ففعل وانفق فيه أموالا كثيرة ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ورتب فيه خطيبا ومدرّسا وكان قد وصل فى تلك السنة وافدا الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقانى الشافعى من أصحاب الامام محمد بن يحيى فسأله ان يكون مدرّسا فى ذلك الجامع وكتب له به منشورا قال وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب اربل الى الخدمة النورية بالموصل وكان دخولهم اياها فى بحبوحة الشتاء فكتب العماد الى بعض كبراء الموصل قصيدة منها

ما يمنع الخادم من قصده الـ ـخدمة غير الطرق والوحل
كانما موصلكم مقطع * ما يهتدى فيه الى موصل
وكل معروف بها منكر * كما تراه ضيق السبل
وكل من حل بها لايرى * فى زمن الخصب سوى المحل
ومذ دخلناها حصلنا بها * كرها على خرج بلا دخل
أصعب ما نلقاه من أهلها * قول بلا اهل ولا سهل
وكنت أهواها ولكننى * لقيت منها كل ما يسلى
وأنت من أصبح احسانه * حلية هذا الزمن العطل

قال وعاد نور الدين الى سنجار فأعاد عمارة أسوارها ثم أتى حرّان وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هى ونصيبين والخابور والمجدل ووصل حلب فى خامس رجب قال ابن شدّاد دخل حلب فى شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته قال العماد وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور الى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه وقال القاضى ابن شدّاد لما صارت الموصل الى سيف الدين بن أخى نور الدين كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانيا فاسلم وقيل انه كان باقيا على نصرانيته وله بيعة فى داره وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم وأذى المسلمين فبلغ نور الدين ذلك وكتب له قصص فى ذلك فسار ونزل

على الموصل من جانب الشط والشط بينه وبينها وقال لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدى وراسل سيف الدين وقال له أنا ليس مقصودى البلد وانما مقصودى حفظ البلد لك فانه قد كتب الى فى عبد المسيح كذا كذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين وأنا مقصودى أزيل هذا النصرانى عن ولاية المسلمين قال وعبد المسيح يدبر البلد ويدور فيه والامر اليه وبذل الصلح لنور الدين فقال نور الدين أنا قد جئت ولا بدّ لى من دخول البلد فقال نعم لا يدخل الا من باب السرّ فقال نور الدين ما أدخل الا من باب السرّ فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات الى ان علم ان نيته صالحة فصالحه فى السرور كب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين فجاء بعض أصحابه وقال له أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل فقال ما الخبر فقال سيف الدين قد صالح عمه وأنت فى مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين والقى شربوشه بين يديه وقال له أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت فى حفظ بلدك ومالى طاقة بمقابلة نور الدين فالله الله فى دمى فقال له مالى طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملا فقال والله لو مضيت اليه لم يفتح لى لعلمه بما جرى منه فى حق المسلمين ولكن تشير أنت اليه فأنفذ سيف الدين اليه واستحضره وكان معتكفا فقال له ما الخبر فقال سيف الدين لعبد المسيح منك اليه فوقف بين يديه يبكى فالتفت اليه الشيخ عمر وقال من يعادى الرجال يبكى مثل النساء فقال له قد تمسكت بك واطلب منك حقن دمى فقال أنت أمن على دمك فقال وعلى مالى فقال وعلى مالك فقال وعلى اهلى فقال وعلى أهلك وكان شرف الدين بن أبى عصرون مع نور الدين حينئذ فقال سيف الدين لعمر الملا ولما تحلف نور الدين فاحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح فأخذهما عمر وخرج الى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه فقال له عمر الناس يعلمون حسن عقيدتك فىّ وقد خرجت فى كذا وكذا وناوله النسخة التى تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها الابن أبى عصرون فقال نسخة جيدة فقال له الشيخ عمر الملا أى شئ تقول فى هذه النسخة فقال جيده فقال اذا حلف بها على هذا الوجه أليس انها تقع لازمه فقال بلى فقال للحاضرين اشهدوا على الشيخ بذلك يشير الى ان نور الدين كان يجرى منه ايمان فى وقائع وكان ابن أبى عصرون يفتيه بالخروج منها فقيد عليه القول فأجاب نور الدين الى ذلك فقال له قد علم الناس حسن عقيدتك فىّ وان قولى مسموع عندك وقد خرجت اليك ولا بدلى من ضيافة فقال كيف لى بذلك وأنت لا تأكل طعامى ولا تقبل منى شيئا فقال تحلف لى بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه وقال أنا ما جئت الا فى هذا لا خلص المسلمين منه فقال الشيخ عمر فانا طلب منك ان توليه على المسلمين فقال قد أمنته على نفسه فقال وعلى اهله فقال ومن أهله فقال نصارى فقال امنتهم فقال وعلى ماله فقال ومن أين لهذا الكلب مال هذا مماليك لنا فقال قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل قال قد أمنته على ماله فحلف له على ذلك جميعه واستقر الصلح وخرج سيف الدين الى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين وكان وصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه فدخل الى الموصل بها وانتقل الى جانب الشط الآخر ولم يدخل الى الموصل الى ان جاء مطر شديد جدا فدخل من باب السر اليها وأقام بها مدة ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين فرأى النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له جئت الى بلدك وطاب لك المقام به وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذلك اليوم ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله

﴿فصل﴾ وصل الخبر بموت الامام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى بالله ونور الدين مخيم بشرقى الموصل بتل توبه وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضىء بأمر الله أبو محمد الحسن وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام وهو الثانى والثلاثون من خلفاء بنى العباس وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والبا وفيه يقول بعض الادبا

أصبحت لب بنى العباس كلهم ❊ ان عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان اسمر تام القامة طويل اللحية وكان من احسن الخلفا سيرة مع الرعيه كان عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قال ابن الاثير بلغنى انه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبذل

عنه عشرة ألف دينار فقال له انا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله احبسه لاكف شره عن الناس وفى أيامه توفى شيخ الشيوخ اسماعيل ابن أبى سعد وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ وذلك سنة احدى وأربعين وفى سنة ثمان وأربعين توفى محمد بن نصر القيسرانى وأحمد بن منير الشاعران وقد تقدم ذلك وفى سنة تسع وأربعين توفى الحكيم أبو الحكم الشاعر الاندلسى وفى سنة احدى وخمسين توفى الواوا الشاعر الحلبى وفى سنة ثلاث وستين توفى الشيخ أبو النجيب الصوفى الفقيه الواعظ قال العماد وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضىء واتفق ذلك يوم عبور دجلة وركب يوم النزول على تل توبة فى الاهبة السوداء واليد البيضاء وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الى بغداد نائبا عنه فى خدمة الامام ومما نظمه العماد فيه

قد أضاء الزمان بالمستضىء ❊ وارث البرد وابن عم النبىّ
جاء بالحق والشريعة والعد ❊ ل فيا مرحبا بهذا المجىّ
فهنيئا لاهل بغداد فازوا ❊ بعد بؤس بكل عيش هنىّ
ومضىّ ان كان فى الزمن المظـ ❊ ـلم فالعود فى الزمان المضىّ

وله من قصيدة أخرى

لهفى على زمن الشباب فاننى ❊ بسوى التأسف عنه لم اتعوض
نقضت عهود الغانيات وانها ❊ لولا نقاء شيبتى لم تنقض
ياحسن أيام الصبا وكأنها ❊ أيام مولانا الامام المستضى
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها ❊ والطلعة الغراء والوجه الوضى
قسم السعادة والشقاوة بيننا ❊ فى الخلق بين محبه والمبغض
فضل الخلائف والخلائق بالتقى ❊ والفضل والافضال والخلق الرضى
فانعم أمير المؤمنين بدولة ❊ ماتنتهى وسعادة ماتنقضى

قال ووصل نور الدين رحمه الله تعالى الى دمشق وأدّى فرض الصيام وخرج بعد العيد الى الخيام وأخرج سرادقه الى جسر الخشب وسرنا الى عشترا ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الارتقى باللبوة وقد مضت فى أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير

❊(فصل)❊ فيما جرى بمصر فى هذه السنة قال العماد كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية فى أول سنة ست وستين وعمل فى النصف من المحرم دار الغزل مدرسة للمالكية وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ثم خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان وهجم ربض غزة ثم رجع الى القاهرة ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فاشفق عليها وأحب ان يجتمع بها شمله فخرج فى النصف من ربيع الاوّل وكانت بايلة قلعة فى البحر قد حصنها أهل الكفر فعمر لها مراكب وحملها الى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هنالك وشحنها بالرجال وفتح القلعة فى العشر الاوّل من ربيع الآخر واستباح لها واستباح بالقتل والاسر اهلها وملأها بالعدد والعدد وحصنها باهل الجلاد والجلد واجتمع بأهله عليها وسار بهم على سمت القاهرة ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الاولى اليها وسار الى الاسكندرية فى الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها وهى أوّل دفعة سار اليها فى أيام سلطانه وعمّ أهلها باحسانه وأمر بعمارة أسوارها وابراجها وابدانها وفى النصف من شعبان اشترى تقى الدين عمر بن شاهنشاه وهو ابن أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الاملاك ووقفها عليها وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان ثم دخل القاهرة فى عاشر شهر رمضان وفى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفى القاضى الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال وكان من الاماثل الافاضل ولم يزل صاحب ديوان الانشاء الى ان كبر وكان الاجل الفاضل يوصل اليه كل ما كان له وقام به مدة حياته بكرم عهده ويكفله وقال فى الخريدة هو ناظر ديوان

مصر وانسان ناظره وجاه مع مفاخره وكان اليه الانشا وله قوّة على الترسل يكتب مايشاء عاش كثيرا وعطل فى آخر عمره واضرّ ولزم بيته الى ان تعوّض منه القبر ومن شعره

يا أخا الغرّة حسب الدهر من ❊ عظة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا فهل نلت بها ❊ لحظة تخلص من هم وكد

قلت وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الاثير الجزرى فى أوّل كتابه المسمى بالوشى المرقوم فى حل المنظوم قال حدّثنى عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله بمدينة دمشق فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غضا طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا وكان من العادة انّ كلا من أرباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الادب احضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال فأرسلنى والدى وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية فى أيام الحافظ وهو أحد خلفائها وأمرنى بالمصير الى ديوان المكاتبات وكان الذى يرأس به فى تلك الايام رجلا يقال له ابن الخلال فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى رحب بى وسهل ثم قال ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات فقلت ليس عندى شئ سوى انى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة فقال وفى هذا بلاغ ثم أمرنى بملازمته فتردّدت اليه وتدرّبت بين يديه ثم أمرنى بعد ذلك ان احل شعر الحماسة فحللته من أوّله الى آخره ثم أمرنى ان أحله مرّة ثانية فحللته

وقال ابن أبى طى فى هذه السنة شرع السلطان يعنى صلاح الدين فى عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدّم اكثره وسار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا وولاه لقراقوش الخادم وقبض على القصور وسلمها اليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيليه وقطع من الاذان حى على خير العمل وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة وازداد على اقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها قلت وقد وقفت على كتاب فاضلى وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله فى زمان وزارته وكان الكتاب الى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هى التى أشار اليها العماد فى اثناء كلامه السابق أوّل الكتاب (وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وفيه (توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الاوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه والهمم على السهل والصعب مزدحمه وجنود الله فى الارض المعلمه قد أيدتها جنود السماء المسومه وصابحنا الدير يوم الاربعاء بقتال جعل كل من فى حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال بشهاب القذف ضاربا فلما تعالى النهار ملكنا ربضه وأطلقنا فيه النيران ورملنا الرجال بالدم وارملنا النسوان وزحفنا الى ابراجه وهى ابراج قد استعدت للبلا جلبابا فجعلنا الكل واحد جورة مفردة وبابا وسرحنا اليهم رسل المنايا من النشاب وقصدنا أحد الابراج والبيوت تؤتى فى الحرب من غير الابواب وتقدمت اليها نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بالسنة المعاول وتشاوره واسفر الصبح وقد أمكن تعليقه وتيسر تحريقه فأودعنا تلك العقود آلات الوقود فلم يكن الا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا وعفر بين أيدينا سامعا مطيعا وانتظمت الرجال على أحجاره وتواثبت الى أمثاله من الابراج وأنظاره فحصلت فى القبضه وعجز من كان فيها عن النهضه واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق هذا والسلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر وطهر الارض منهم بالدم المائر فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الاخبار بأن الملك قد زحف من غزة فى فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره فركبنا مستبشرين بزحفه موقنين بحتفه ولقيناه فاحطنا من بين يديه ومن خلفه وناوشته الخيل الطراد واحدقت به احداق الاغلال بالاجياد وانتظرت حملته التى كانت لها قبل ذلك اليوم موقع وصدمته التى لها من رجال الحرب موضع فملأ الله قلبه رعبا وثنى صدقه كذبا ولم يزل يخاتل ولا يقاتل ويواصل المسير ولا يطاول والقتل فى أعقابه وأيدى السيوف وسواعد الرماح لا تنى فى عقابه حتى تحصل فى الدير هو وخيله ورجله ولم يبق له من ملك الشام الا ما وطئته رجله

فناصبناه

فناصبناه الحصار فى ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب اليه والوقوف عليه لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه فتركناه وراء ظهورنا وجعلنا بلاده امام صدورنا ذكر فى توليته مرضين لله سبحانه لا مغضبين وفى تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين وواجهنا غزة بعساكرنا المنصوره وأطفنا بها فى أحسن صوره وهى على ماعلم من كونها بكرا لم تفترعها الحوادث وحصانا لم يطمثها أمل طامث هى معقل الداوية الذين هم جمرة الشرك وداهية الافك وأبى الله بنيانها من القواعد وأنجز فيهما من النصر صادق المواعد ووردناها بأيمن الموارد وفتحناها من عدة جوانب ووطئناها واذا هى كامس الذاهب فألقت الينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها فمن بين مواش يخراب البلاد التى منها اخرجت وخيول مسومة كأنها الركوب أسرجت وألجمت وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرجت وميرة كثيرة تمكنت منها يد الاجناد وأفرجت وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد فأما الرؤس المقطوعه وأسارى الفرنج الذين أيديهم الى أعناقهم مجموعه فان الفضاء الفضى تعصفر من دمائهم وتذهب وجرى منها ماء به اضطرم وقد الجحيم وتلهب وفى الحال أمرنا بالنار ان تشتغل بها وتشتعل وبالهدم ان ينقل عنها معاوله وينتقل فهل ترى لهم من باقيه أو تنظر الاطلالا على عروشها خاويه وعراصا من سكانها خاليه قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر ثم عدنا بقية يوم السبت الى الملك خذله الله راجين ان يحمله الشكل على الاقدام ويخرجه حر النار الى مقام الانتقام فاذا شيطانه قد نصحه وقتل أصحابه قد جرحه فتبنا عليه والالسنة بفراره تعيره واستتاره يقرعه ويقرره وأصبحنا يوم الاحد ثانى شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتله ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصله ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله والعدو قد غزى فى عقره وعقر وأذل فى دار ملكه وأحتقر ووصلنا الى مستقر سلطاننا فى يوم الاثنين الحادى عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه وتشريفه واستقبال ركابه ومشافهتنا بقبول دعائه الشريف ومجابه ماعظمت به النعم وجلت وزالت به وعثاء الطريق وتجلت وجادتها سماء انعامه التى لم تزل تجود نا واستهلت قلت ومن قصيدة لعمارة فى مدح صلاح الدين أولها (فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها

لعل بنى أيوب ان علموا بما * تظلمت منه ان يرقوا ويشفقوا
غزوا عقر دار المشركين بغزة * جهارا وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعن * يفيض اناء البر منه ويفهق
وكانت على ماشاهد الناس قبلهم * طرائق من شوك القنا ليس تطرق
وماعصمتهم منك الامعاقل * تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى * بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر * يمر به طيف الخيال فيفرق
أضفت الى أجر الجهاد زيارة الـ * ـخليل فأبشر انت غاز موفق
وهيجت للبيت المقدس لوعة * يطول بها منه اليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة * تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه * قريبا والارائد ومطرق
هو البيت ان تفتحه والله فاعل * فما بعده باب من الشام مغلق

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة) فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله باقامة الخطبة فى الجمعة الاولى منها بمصر لبنى العباس وفى الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة وانقطع ذكر خلفاء مصر وتوفى العاضد يوم عاشوراء بالقصر وانقضت تلك الدولة بانتهاء مادام لها من العصر وذكر العماد أيضا فى أخبار سنة اثنتين وسبعين كما سيأتى ان الذى خطب بمصر لبنى العباس أولا هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبى المضا البعلبكى وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثى فى تاريخه وقد أشار اليه القاضى الفاضل فى كتاب له الى وزير بغداد سيأتى ذكره قال ابن الاثير كان السبب فى ذلك ان

صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه فى مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضديه واقامة الخطبة العباسيه فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه واتفق ان العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة واشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمى يعرف بالامير العالم وقد رأيناه بالموصل كثيرا فلما رأى ماهم فيه من الاحجام قال انا ابتدى بها فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء بامر الله فلم ينكر ذلك أحد عليه فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضىء بامر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى ان ننغص عليه هذه الايام التى قد بقيت من أجله فتوفى فى يوم عاشوراء ولم يعلم قال ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قرقوش وهو خصى لحفظه وجعله كاستباذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى الايوان فى القصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء فاعتق البعض ووهب البعض واباع البعض واخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الايام وتعاقب الدهور قال ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين فظن ان ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه قلت أخبرنى الامير أبو الفتوح بن العاضد وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر ان أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر قال وأحضرنا يعنى اولاده وهم جماعة صغار فاوصاه بنا فالتزم أكرامنا واحترامنا رحمه الله وأما ندم صلاح الدين فبلغنى انه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض وقال لو علمت انه يموت من هذا المرض ما قطعتها الى ان يموت قال العماد وجلس السلطان للعزاء واغرب فى الحزن والبكاء وبلغ الغاية فى اجمال أمره والتوديع له الى قبره ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه وكان مذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه واقامه فما دخل الى القصر شئ ولا خرج الا برأى منه ومسمع ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع فلما توفى العاضد بطلت تلك القواعد ووهت المعاقد وأمر السلطان بالاحتياط على أهله واولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والاقوات والازواد قلت اخبرنى أبو الفتوح انه جعلهم فى دار برجوان فى الحارة المنسوبه اليه بالقاهرة وهى دار كبيرة واسعة كان عيشهم فيها طيبا ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وابعدوا عنها قال العماد وهم الى اليوم فى حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه فى ليله ونهاره وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر فى ايوان واحترز عليهم فى ذلك المكان بكل امكان وابعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا وهم الى الآن محصورون محسورون لم يظهروا وقد نقص عددهم وقلص مددهم ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد فوجد أكثرهن حرائر فاطلقهن وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن واخلى دوره واغلق قصوره وسلط جوده على الموجود وابطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود وأخذ كل ما صلح له ولاهله وأمرائه وخواص مماليكه واوليائه من أخاير الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمه والياقوتة العاليه الغالية القيمه والمصوغات التبريه والمصنوعات العنبريه والاوانى الفضيه والصوانى الصينيه والمنسوجات المغربيه والممزوجات الذهبيه والمحوكات النضاريه والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشى والعبير والحبير والوثير والنثير والعينى واللجينى والبسط والفرش وما لا يعد احصاء ولا يحد استقصاء فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء وأطلق البيع

بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال واسمال ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين وتنقلت الى البلاد بايدى المسافرين الواردين والصادرين ونقلت من ديوان العماد بخطه قال ولما وصل خبر موت العاضد الذى كان بمصر فى القصر موسوما بالامر فى ليلة عاشوراء سنة سبع وستين بعد الخطبة بها للمستضئ بالله أمير المؤمنين عملت هذه الابيات فذكر قصيدة منها

توفى العاضد الدعىّ فما ❊ يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ❊ يوسفها فى الامور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ❊ باخ من الشرك كلما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما ❊ بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بنى الـ ❊ ـعباس حقا والباطل اكتتما
وبات داعى التوحيد منتصرا ❊ ومن دعاة الاشراك منتقما
وظل أهل الضلال فى ظلل ❊ داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون فى ظلم ❊ لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضئ ممتهدا ❊ بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التى اضطهدت ❊ وانتصر الدين بعد ما اهتضما
واهتز عطف الاسلام من جذل ❊ وافتر ثغر الايمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا ❊ فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الاعداء منتهك الـ ❊ ـحمى وفئ الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور اخربها ❊ عامر بيت من الكمال سما
ازعج بعد السكون ساكنها ❊ ومات ذلا وانفه رغما

ومن كتاب فاضلى عن السلطان صلاح الدين الى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبى المضا فى بعض السنين (كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع وعلم الجهاد مرفوع وسودد السواد متبوع وحكم السداد بين الامة موضوع وسبب الفساد مقطوع ممنوع وقد توالت الفتوح عربا وعجما وشاما وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما فاضحى الدين واحدا بعدما كان اديانا والخلافة اذا ذكر بها اهل الخلاف لم يخروا عليها الا صما وعميانا والبدعة خاشعه والجمعة جامعه والمذلة فى شيع الضلال شائعه ذلك بانهم اتخذوا عباد الله من دونه اولياء وسموا اعداء الله اصفياء وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ونثرت اقلام الظبا حروف رؤسهم نثر الاقلام للحروف ومزقوا كل ممزق واخذ منهم كل مخنق وقطع دابرهم ووعظ ايهم غابرهم ورغمت انوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ولا الليل عن سير اليهم بنائم ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافه وحل عقد خلاف وقام بدولة وقعد باخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر الى أن يشكر ما نصح ويقلد ما فتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطارح ويقرب مكانه وان نزح وتاتيه التشريفات الشريفه وتتواصل اليه امداد التقويات الجليلة اللطيفه وتلبى دعوته بما أقام من دعوه وتوصل غزوته بما وصل من غزوه وترفع دونه الحجب المعترضه وترسل اليه السحب المروضه فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التى كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها وقد أتى البيوت من ابوابها وطلب النجعة من سحابها ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها وانهض لايصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر وقام بالامر قيام من بر واستفتح بلباس السواد الاعظم الذى جمع الله عليه السواد الاعظم املا انه يعود اليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ويخلد الشرف فى عقبه)

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الاربلى من قصيدة فى مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى

مليك من للقوم الذين رماحهم ❊ دعائم هذا الدين فى كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا ❊ به عز فى الآفاق كل موحد
وهم قهروا اغلب الفرنج بأسهم ❊ فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد
وردوا الى البيت المقدس نوره ❊ وقد كان فى ليل من الشرك اسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا ❊ بها الركب خوفا الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر ايلة ❊ يخوضون فى بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصرا الى دعوة الهدى ❊ بعزم ورأى فى العظائم محصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذى ❊ اعادوه من حق طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها ❊ وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز الممالك واكتفوا ❊ بسمر العوالى والعلاء المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم قضت ❊ بمرماد الله فى كل أصيد
وضعف حديث العدل والباس والندى ❊ اذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن ابى طى الحلبى قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين والحاحه على صلاح الدين فى اقامة الخطبة بمصر للعباسيين وانه أنفذ اليه اباه الامير نجم الدين أيوب لاجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد الى نور الدين فى ذلك ولما ولى ابنه المستضىء اقبل ايضا على مكاتبة نور الدين فيه والح نور الدين على صلاح الدين فى طلبه وافضى به الامر الى انه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه وأكثر القول فى ذلك ولما قدم الامير نجم الدين حداه على فعل ذلك فاعتذر اليه بان احواله لم تستقر بعد وأموره مضطربة واعداؤه كثيرون وان المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة فى بلاد مصر من السودان وغيرهم وان هذا الامر ان لم يؤخذ على التدريج والا فسدت احواله فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والارمن ونكب امر المصريين وقطع أخبارهم وترك أجناده فى دورهم ثم قطع اقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد واستولى على القصور ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ ثم شرع وأبطل من الاذان حى على خير العمل وانكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب اليهم فلما رأى اموره مواتيه واعداؤه قليلون شرع حينئذ فى الخطبة لبنى العباس ولما عول على ذلك امر والده الامير نجم الدين بالنزول الى الجامع فى جماعة من اصحابه وامراء دولته وذلك فى اول جمعة من السنة وامره ان يحضر الخطيب اليه ويأمره بما يختاره وانما فعل الملك الناصر ذلك ووكل الامر الى غيره استظهارا وخوفا من فادحة ربما طرأت اوعدو ربما ثار فيكون هو معتذرا من ذلك ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال له ان ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك فقال فلمن أخطب قال للمستضىء العباسى فلما صعد المنبر وخطب ووصل الى ذكر العاضد لم يذكر احدا لكنه دعا للائمة المهديين وللسلطان الملك الناصر ونزل فقيل له فى ذلك فقال ما علمت اسم المستضىء ولا نعوته ولا تقرر معى فى ذلك شئ قبل الجمعة وفى الجمعة الثانية افعل ان شاء الله ما يجب فعله فى تحرير الاسم والالقاب على جارى العادة فى مثل ذلك قال وقيل ان العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خطب قيل له لم يخطب لاحد مسمى قال فى الجمعة الاخرى يخطبون لرجل مسمى واتفق انه مات قبل الجمعة الثانية قيل انه افكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات وقيل انه لما سمع انه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل الى داره فعثر وسقط فاقام متعللا خمسة ايام ومات وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات ولما اتصل موته بالملك الناصر قال لو علمنا انه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة فحكى ان القاضى الفاضل قال للسلطان لو علم انكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار الى ان العاضد قتل نفسه وكان موته يوم عاشوراء قال وحكى ابن المارستانى فى سيرة ابن هبيرة الوزير قال ان من عجيب ما جرى فى امر المصريين ان رأى انسان من أهل بغداد فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قرين أحدهما أنور من الآخر والانور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول ويهب أدنى نسيم فيحركها وأثر حركتها وظلها فى الارض وكأن الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤن بالحان وأصوات لم يسمع

قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال ماهذا فقالوا قد استبدل الناس بامامهم قال وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله ان يجعله امامابرّاتقيا واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير اذ ذاك ببغداد فعبر المنام بأن الامام الذى بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللحية السوداء وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين الى مصر فى أوّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبنى العباس بها على يده وقيلت فى ذلك الزمان اشعار فى هذا منها قصيدة شمس المعالى أبى الفضائل الحسين بن محمد بن تركان وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام

لتهنك يامولى الانام بشارة ❁ بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادى بهمة ❁ تقاصر عنها السمهرى المثقف
بعثت الى شرق البلاد وغربها ❁ بعوثا من الاراء تحصى وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر ❁ ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلا ❁ الى كل قلب من عداتك يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة ❁ وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يامولاى فتحا تتابعت ❁ اليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها ❁ من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ❁ يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة ❁ أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم امامنا ❁ تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غروان دانت ليوسف مصره ❁ وكانت الى عليائه تتشوّف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ❁ وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبى طى يريد بيوسف الاوّل يوسف الصديق النبى صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ وقاله على سبيل الفال ألا تراه قال بعد هذا البيت

فشابهته خلقا وخلقا وعفة ❁ وكل عن الرحمن فى الارض يخلف

وجرى الفال فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لان المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس وهذا من عجيب الاتفاق قلت وذكر ابن المارستانى فى السيرة المذكورة وكان هذا المنام سببا الى ان كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكى يحثه على التعرّض لمصر والبعث اليها واتفق فى أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هاربا منه الى نور الدين فحرّك ذلك ما كان تخمر فى نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة فاستطلع من شاور الاسباب التى يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها فسير اليها أسد الدين كما سبق ذكره قال ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم واذا وجد أحد من الاتراك مصريا أخذ ثيابه وعظمت الاذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها الى البلاد وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به الى الاقطار وتحدّث به السمار ولما وصل خبر ذلك الى نور الدين ندب للبشارة الى بغداد شهاب الدين أبا المعالى المطهر بن أبى عصرون وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها (اصدرناهذه المكاتبة الى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه وأوضح لنا منهاجه وهو ما اعتمدناه من اقامة الدعوة الهادية العباسيه بجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصريه والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الاطراف الدانية والقاصيه والبادية والحاضره وانتهت الى القريب والبعيد والى قوص وأسوان بأقصى الصعيد وهذا اشرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الازمنة التى مضت من قبله ومابرحت هممنا الى مصر مصروفه وعلى افتتاحها موقوفه وعزائمنا فى اقامة الدعوة الهادية بها ماضيه والاقدار فى الازل بقضاء أرائنا وتنجيز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها وطالما مرت عليها الحقب

الخوالى وآبت دونها الايام والليالى وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوة بدعوة المبطلين مملوة بحزب الشياطين سابغة ظلالها للضلال مقفرة المحل الامن المحال مفتقرة الى نصرة من الله يملكها ونظرة تستدركها رافعة يدها فى أشكائها متظلمة اليه ليكفل باعدائها على أعدائها حتى أذن الله أنجمتها بالانفراج ولعلتها بالعلاج وسبب قصد الفرنج لها وتوجههم اليها طمعا فى الاستيلاء عليها واجتمعا أن الكفر والبدعه وكلاهما شديد الروعه فلكنا الله تلك البلاد ومكن لنا فى الارض اوقدرنا على ماكنا نؤمله فى ازالة الالحاد والرفض من اقامة الفرض وتقدمنا الى من استنباه ان يستفتح باب السعاده ويستنجح باب مالنا من الاراده ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ويورد الادعيا ودعاة الالحاد بها المهالك) وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا قال وسار شهاب الدين بن أبى عصرون الى جهة بغداد ولم يترك مدينة الا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل الى بغداد فخرج الموكب الى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل موروده ونثرت عليه دنانير الانعام وحبى بكل احسان واكرام وأرسلت التشريفات الى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتى ذكره وقال العماد كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوى الامين ويرجع فى جميع مصالحه الى رأيه المتين وقد كان كاتبه نور الدين فى شوال سنة ست وستين بتغيير الخطبه وتذليل أمورها الصعبه وافتراع بكر هذه القضية وفرع الرتبه وأيقن ان أمره متبوع وقوله مسموع وحكمه مشروع ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالى المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون بهذه البشارة واشاعة ماتقدم له بها من الاشاعه وأمرنى بانشاء بشارة عامة تقرأ فى سائر بلاد الاسلام وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام فى مدينة السلام ثم ذكر نسخة الكتابين ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها

قد خطبنا للمستضىء بمصر * نائب المصطفى امام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العاضد والقاصر الذى بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء قال العماد فى كتاب الخريدة قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال

وأشعنا بها شعار بنى العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبورا * وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمى فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مصر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الاغر
وبنو الاصفر القوامص منه * بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا * قبله بين منكر ومقر
قل لداعى الدعى حسبك فالله أقر الحقوق خير مقر
هو فتح بكر ودون البرايا * خصنا الله باقتراع البكر
وحصلنا بالحمد والاجر والنصر وطيب الثنا وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا * للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من ادعياء حقوقا * يدعى بينهم لزيد وعمر
والذى يدعى الامامة بالقاهرة انحط فى حضيض القهر
خانه الدهر فى مناه ولا يطمع ذو اللب فى وفاء الدهر
مايقام الامام الا بحق * ماتحاز الحسناء الا بمهر
خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهل الطهر

بهــــم الدين ظافر مستقيم * ظاهــر قوّة قـــوى الظهر
لشموس الضحى كمثـل بدور الـــــتم كالسحب كالنجوم الزهر
قد بلغنــا بالصــــبر كل مراد * وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثرى الرجال من ملك المـا * ل ولــكنما أخو اللب مثرى
ولهذا لم ينتفع صاحب القصــــــر وقد شارف الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العبـــــاس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد في ديوانه ونقلته من خطه قال ووصل الخبر بان الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الامام المستضئ بأمر الله أمير المؤمنين واقامة شعار بني العباس بها فقلت ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق في عاشر شوال وكتبت بها الى بغداد فذكر هذه القصيدة وقال في البرق ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين بن صندل وهو من اكابر الخدم المقتفوية من ذوي الروية والهمة التمويه وتولى استاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين عضد الدين عنها فأكرم نور الدين بارسال مثله اليه وعوّل في هذا الامر المهم عليه وهو أكرم رسول وصل فانجح الامل وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكملا معظما مجملا باهبته السوداء العراقيه وحلله الموشيه وطوقه الثقيل ولوائه الجليل وعين يوم يحضر فيه الرسول ونصوا على من يحضر في مجلس نور الدين واغفلوا ذكر العماد فطلبه نور الدين لما حضر واوقام لقيام الرسل له لما حضر وقصد ان يعرفهم منزلته عنده وناوله الكتاب ليقرأه قال فتناوله مني الموفق بن القيسراني خالد وكان عنده في مقام الوزير وله انبساط زائد فداريته وماماريته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليه وأرشده في التلاوة الى ما لا يهتدى اليه حتى انهاه وأنا على افتياته على لأنهاه فأعجب نور الدين صمتي وسمتي وأحمدني فضل التأني والتأتي واجتاب الاهبة ولبس الفرجية فوقها وتقلد مع تقلد السيفين طوقها وخرج وركب من داخل القلعة وهو حال بما عليه من الخلعه واللواء منشور والنضار منثور والمركبان الشريفان أحدهما مركوبه والآخر بحليته مجنوبه قال وسألت عن معنى تقليده السيفين فقيل لي هما الشام ومصر والجمع له بين البلادين وخرج الى ظاهر دمشق حتى انتهى الى منتهى الميدان الاخضر ثم عاد شريف المخبر جميل المنظر جليل المحضر حميد المخبر سعيد المورد والمصدر لبيقا بالاعظمين السرير والمنبر وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الاحمر وحملوا لصلاح الدين تشريفا فاضلا فائقا رائعا رائقا لجماله وكماله لائقا لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجل وأكمل فسير تشريفه برمته اليه بمصر ليحظى به وسير أيضا بخلع من عنده يكرم بها أصحابه وصلت تلك الخلعة اليه ولبسها وأنس من السعادة ادائمة بقبسها وطاف بها في الحادى والعشرين من رجب وهي أول أهبة عباسيه دخلت الديار المصريه يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها قال وكانت وصلت مع الرسل اعلام وبنود ورايات سود واهب عباسيه للخطباء في الديار المصريه فسيرت الى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى قال ابن أبي طي ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك فلم يوجد من المال كبير أمر لان شاور كان قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجواهر ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر هو قطعة واحدة وكان سمك جسمه مقدار الابهام ووجد فيه طبل للقولنج ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المانع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر فأما قضيب الزمرد فان السلطان أخذه وأحضر صانعا ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع وفرقه السلطان على نسائه وأما طبل القولنج فانه وقع الى بعض الاكراد فلم يدر ما هو فكسره لانه ضرب به فخبق وأما الابريق فانفذه السلطان الى بغداد واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع في خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقرر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع الى انقراضهم واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد فأطلق من كان منهم حرا وأعتق من رأى اعتاقه ووهب من أراد هبته وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيأ كثيرا

وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق فأقام البيع بالقصر مدة عشر سنين قال ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا الا انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر ومن عجائبها انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ويقال انها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة شئ كثير وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها وذلك انه دخل اليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومة ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الامير شمس الخلافة موسى بن محمد واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر وأعطى السلطان القصر الشمالي للامراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه وأخذ باقي الامراء مكان دور من كان ينتمي اليهم وزاد الامر حتى صار كل من استحسن دارا اخرج منها صاحبها وسكنها وانقضت تلك الدولة برمتها وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا قال وحكى ان الشريف الجليس وهو رجل كان قريبا من العاضد يجلس معه ويحدثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الامراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم قال نعم طلبني العاضد يوما وجماعة من الندماء فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم اقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم فقلنا له يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط فقال هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرنا قال العماد وأخذت ذخائر القصر فقصها كما سبق ثم قال ومن جملتها الكتب فاني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبده من العهد القديم مخلده وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الايدي واقتطعه التعدي وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ونقلت منها ثمانية احمال الى الشام وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره وشرع كل من سكن في تخريب معموره وانتقل اليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه واستمرت سكناه فيه وخطب لامامنا المستضيء في قوص واسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد وشاعت البشائر وذاعت المفاخر وسار بها البادي والحاضر وتملك السلطان أملاك أشياعهم وضرب الالواح على دورهم ورباعهم ثم ملكها امراءه وخص بها أولياءه وباع أماكن ووهب مساكن وعفى الآثار القديمه واستأنف السنن الكريمه وقال ابن الاثير لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين ومر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قبضة ونصف والجبل الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد

﴿فصل﴾ ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد انقرضت تلك الدوله وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذله واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله هم أمراؤه وخدمه وأصحابه وفيهم يقول العرقله

أصبح الملك بعد آل علي ❋ مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو ❋ م ومصر تزهو على بغداذ
ما حووها الا بحزم وعزم ❋ وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا ❋ ن بها كالخصيب والاستاذ

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها أظهروا للناس انهم شرفاء فاطميون

فاطميون فملكوا البلاد وقهروا العباد وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء انهم لم يكونوا لذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا بل المعروف انهم بنو عبيد وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى وقيل كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام وكان حدادا وعبيد هذا كان اسمه سعيدا فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى وادعى نسبا ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفى الانساب العلوية بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه وهو ما قدمناه ذكره ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى وبنى المهدية بالمغرب ونسبت اليه وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة وكان قصده اعدامهم من الوجود لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم وضلالتهم والله متم نوره ولو كره الكافرون ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه والدعاة لهم منبثون فى البلاد يضلون من أمكنهم اضلاله من العباد وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى سنة سبع وستين وخمسمائة وفى أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم ووضعت المكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم وتمكن رعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم مالم يتمكنوا من غيرهم وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة عن ارقاب العباد وكانوا أربعة عشر مستخلفا ثلاثة منهم بافريقية وهم الملقبون بالمهدى والقائم والمنصور واحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد يدعون الشرف ونسبتهم الى مجوسى أو يهودى حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية وانما هى الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة ومن قبائحهم انهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها وخطب عبدهم جوهر الذى أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها (اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية معد أبى تميم الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتخبين الائمة الراشدين) كذب عدو الله اللعين فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ولا فى ذريته الباقين والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الاول وقد بين نسبهم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلف من الائمة والعلماء وكل متورع منهم لا يسميهم الا بنى عبيد الادعياء أى يدعون من النسب بما ليس لهم ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب فانه كشف فى أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء الى على رضى الله عنه وان القداح الذى انتسبوا اليه دعى من الادعياء ممخرق كذاب وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله وأما القاضى عبد الجبار البصرى فانه استقصى الكلام فى أصولها وبينها بيانا شافيا فى آخر كتاب تثبيت النبوة له وقد نقلت كلامهما فى ذلك وكلام غيرهما فى مختصر تاريخ دمشق فى ترجمة عبد الرحيم بن الياس وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس وهذان امامان كبيران من أئمة أصول دين الاسلام وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التى يقف الشعر عند استماعها ولكن لابد من ذكر شئ من ذلك تنفيرا لمن لعله يعتقد امامتهم ويخفى عنه محالهم ولم يعلم قبائحهم ومكابرتهم وليعذر من ازال دولتهم وأمات بدعتهم وقلل عدتهم وأفنى أمتهم وأطفأ جمرتهم ذكر عبد الجبار ان الملقب بالمهدى لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل وكان يرسل الى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم وأرسل الى الروم وسلطهم على المسلمين وأكثر من الجور واستصفاء الاموال وقتل الرجال وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم (هو المهدى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه) ويقولون لآخرين (هو رسول الله وحجة الله) ويقولون لآخرى (هو الله الخالق الرازق) لا اله الا الله وحده لا شريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر أبيه اضعافا

مضاعفة وجاهر بشتم الانبياء فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها (ألعنوا عائشة و بعلها ألعنوا الغار وما حوى) اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ومن جرى على يديه تفريق جمعهم وأصلهم سعيرا ولقهم ثبورا واسكنهم النار جمعا واجعلهم ممن تلت فيهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (رجعنا الى الاصل) و بعث الى أبى طاهر القرمطى المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين واحراق المساجد والمصاحف وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور فقتل أبا يزيد مخلدا الذى خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره وسلخه وصلبه واشتغل بأهل الجبال يقتلهم و يشردهم خوفا من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد وقام بعده ابنه الملقب بالمعز فبث دعاته فكانوا يقولون هو المهدى الذى يملك الارض وهو الشمس التى تطلع من مغربها وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم واحتجب عن الناس أياما ثم ظهر وأوهم ان الله رفعه اليه وانه كان غائبا فى السماء وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها اليه جواسيس له فامتلأت قلوب العامة والجهال منه وهذا أول خلف خلفائهم بمصر وهو الذى تنسب اليه القاهرة المعزية واستدعى بفقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملى و يعرف بابن النابلسى فحمل اليه فى قفص خشب فأمر بسلخه فسلخ حيا وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى قال أبوذر الهروى سمعت أبا الحسن الدارقطنى يذكره و يبكى و يقول كان يقول وهو يسلخ كان ذلك فى الكتاب مسطورا قلت وفى أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات وكتب السجلات الى سائر الاعمال بالسب ثم أمر بقلع ذلك وأنا رأيته مقلوعا فى بعض أبواب دمشق فى الامكنة العليا منقورا فى الحجر ودانى اول الكلام وآخره على ذلك ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر وفى أيامه طوف بدمشق برجل مغربى ونودى عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ثم ضربت عنقه وكان يجرى فى أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى أحد الصالحين وكان أذن ببيت المقدس وقال فى أذانه حى على الفلاح فأخذ وقطع لسانه ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظ أبو القاسم فى تاريخه وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين الا محنة من الله تعالى ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدتهم فان عدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة وهؤلاء بقوا مائتى سنة وثمانيا وستين سنة فالحمد لله على ما يسر من هلكهم وابادة ملكهم ورضى الله عمن سعى فى ذلك وازالهم ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم وقد كشف أيضا حالهم الامام أبو القسم عبد الرحمن بن على بن نصر الشاسى فى كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نزار وما بعده ووصل الامر الى ان وصف بعضهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها الايضاح عن دعوة القداح أوّلها

حى على مصر الى خلع الرسن ❊ قثم تعطيل فروض وسنن

وقال لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل الى مصر لغزو الباطنية الملاعين فانهم من شر اعداء دين الاسلام وقد خرجت من حدّ المنافقين الى حد المجاهرين لما ظهر فى ممالك الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضررهؤلاء أشدّ على الاسلام وأهله من ضرر الكفار اذا لم يقم بجهادها أحد الى هذه الغاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الارض قلت ثم انى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم فأفردت كتابا لذلك سميته كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فانى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الائمة المصنفون وغيرهم ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمى رحمه الله وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر فبين فيه أصولهم اتم بيان وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والمخرقة فنقلت منه الى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بنى أيوب بقصيدة منها

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى ❊ عبيد بمصر ان هذا هو الفضل

زنادقة شيعية باطنية ❊ مجوس وما فى الصالحين لهم أصل

يسرون كفرا يظهرون تشيعا ❊ ليستتروا شيئا وعمهم الجهل

امافعله هؤلاء من الانتساب الى على رضوان الله عليه والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة وصاحب الزنج والخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين فى الارض على ماعرف من سيرهم من وقف على اخبار الناس وكلهم كذبة فى ذلك وانما غرضهم التقرب الى العوام والجهال واستتباعهم لهم واستجلابهم الى دعوتهم بذلك البلاء ويفعل الله مايشاء ولا يغتر بابيات الشريف الرضى فى ذلك فقد حصل الجواب عنه فى كتاب الكشف بوجوه حسنة وبالله التوفيق وقد صنف الشريف العابد الدمشقى رحمه الله كتابا فى ابطال نسبهم الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب فى ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى

(فصل) فى ذكر غزو الفرنج فى هذه السنة قال ابن شداد واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك انهبها ولا يبقى لنفسه شيئا وشرع فى التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الامر لذلك وتقرير قواعده وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته وكانت غزوة عرقا فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه فى المحرم سنة سبع وستين وقال ابن أبى طى جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرقة ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها واحتوى على جميع مافيها وغنم الناس غنيمة عظيمة قال ابن الاثير خرجت مراكب من مصر الى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية مركبين منها مملوءتين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج فى ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها ان المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء وكانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وكان رضى الله عنه لا يهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا فى بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة واخرب ربضه وارسل طائفة من العسكر الى حصنى صافيثا وعريمة فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا فى ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين ويجدد معهم الهدنة فأجابهم وكانوا فى ذلك كما يقال اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها قال وكان لوالدى فى المركبين تجارة مع شخصين فلما أعادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه وكان فى الناس من يأخذ ماليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته فذهب من ماله ومالنا شئ كثير بهذا السبب وكان الذى حصل من مالنا أكثر من الذى حصل له فلما عاد النصرانى الذى لنا الى والدى فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فانك أحوج اليه وأنا فى غنى عنه فلم يفعل فقال خذ النصف وأنا النصف واجتهد به والدى فلم يفعل فلما كان بعض الايام واذا قد جاء الغلام ومعه عدة من الاثواب السوسية وغيرها وقال هذا من قماشنا قد حضر اليوم وسبب حضوره ان انسانا فقاعيا من أهل تبريز كان معنا فى المركب وقد أعادوا عليه ماله فرأى هذه الاثواب وأسمى عليها فلم يسهل عليه ان يردها يعنى عليهم وسأل عنى وقد قصدنى وهى معى وحضر عندى الساعة وسلمها الى وقال قد تركت طريقى لتبرأ ذمتى فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد وطلب والدى الرجل وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل وعاد الى بلده قال وهذان الرجلان نادران فى هذا الزمان

(فصل) فى عزم نور الدين على الدخول الى مصر قال العماد وكان صلاح الدين واعده نور الدين ان يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة فى الثانى والعشرين من المحرم بالعزم الاجزم والرأى الاحزم فاتفق للاجتماع عائق ولم يقدر للاتفاق قدر موافق فلقى فى تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة وعاد الى القاهرة فى النصف من ربيع الاول قال ابن الاثير وفى سنة سبع وستين أيضا جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضا عساكره ويسير اليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج

والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرّم وكتب الى نور الدين يعرّفه ان رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد وانه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها فلم يقبل نور الدين عذره وكان سبب تقاعده انّ أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشئ فقام ابن أخيه تقى الدين عمر وقال اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى ومكر وكيد وعقل وقال لتقى الدين اقعد وسبه وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال لا فقال نجم الدين والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لا يمكننا الا ان نترجل اليه ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها فان أراد عزلك فاى حاجة به الى المجئ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد وقال للجماعة كلهم قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده ويفعل بنا ما يريده فتفرّقوا على هذا وكتب أكثرهم الى نور الدين بالخبر ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما فى نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون اليه ويعرّفونه قولى وتكتب أنت اليه وترسل فى هذا المعنى وتقول أى حاجة الى قصدى يجئ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والايام تندرج والله كل وقت فى شان ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين رحمه الله الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله وكان هذا من أحسن الاراء وأجودها

(فصل) فى الحمام قال ابن الاثير وفى سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها فاتخذت فى سائر بلاده وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حدّ النوبة الى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فالى ان يصل له الخبر ويسير اليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض فحينئذ أمر بذلك وكتب به الى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة كانت الاخبار تأتيه لوقتها لانه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التى هو منها فى ساعته فتنقل الرقعة من طائر الى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه فانحفظت الثغور بذلك حتى انّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغرا له فأتاه الخبر ليومه فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدوّ ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد آمنوا لبعد نور الدين عنهم فرحم الله نور الدين ورضى عنه فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد وقال العماد وكان نور الدين لا يقيم فى المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغور وصونا من الحيف ليحمى البلاد من العدوّ بالسيف وهو متشوّف الى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتحقيق اعتلالها فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل اليه الكتب بأخبار البلدان وتقدم الىّ بكتب منشور لاربابها واعزاز أصحابها وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادى اللوان ونحن مستظهرون فى ذلك الاوان عادون على أهل العدوان وذلك فى سابع عشر ذى القعدة من السنة ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال (هى رائد الانبياء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء وهى فيوج الرسائل

المأمونة الابطاء والسابقات الهوج فى الاهتداء والحاملات ملطفات الاسرار فى أقرب مدة الى أبعد غايه والموصلات مهمات الاخبار فى وقتها من أقاصى الامصار بأكمل هدايه والقاطعات فى ساعتها الى البلاد أجواز القفار والموامى والنافذات بنجح المرام بعود السهام الى المرامى وهى تطوى الفراسخ البعيدة والاشواط فى ساعه وتنتهى الى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه وقد عم بها نفع المرابطين والغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فى اهداء أخبار الكفرة اليهم من أماكنها دالة على مكايدها ومكامنها طائرة بكتبهم الى من وراءهم من الطلائع والسرايا مظهرة لهم من أحوالها خبايا الامور الخفايا وانها الميمونة المطار مأمونة العثار سالمة على الاخطار مهدية فى الاسفار امينة على الاسرار سابقة الى الاوكار صادرة بالاوطار من الاقطار سائرة الى المؤمنين بنبأ الكفار قلت وكل هذه اوصاف حسنه وعبارات مستحسنه وقد بلغنى عن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى انه وصفها بالطف من هذه الاوصاف واخصر فقال (الطيور ملائكة الملوك) يشير الى ان نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الانبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الامانة لا يتوهم من جهتها خيانة فلقد أحسن فيما وصف وأبدع فيما استنبط وأنصف وهو بذلك أولى وأعرف رحم الله الجميع

﴿فصل﴾ وفى باقى حوادث هذه السنة قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر فى أيام نور الدين رحمه الله فهو كان الآمر وذاك المباشر يقول فيه (أما بعد فانا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا فى الارض وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ونصبنا له من ازالة النصب عن عباده واختارنا له من الجهاد فى الله حق جهاده وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل وأولانا من شجاعة السماحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين ويوما نقطع ما سقاه النيل فالبشائر فى أيامنا تترى شفعا ووترا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع واسخطت الخية والصنايع وأرضت المنبر والجامع ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من ان تكون لنا فى الدنيا الى ان تكون لنا فى الآخره وان نتجرد ومنها النلبس أثواب الاجر الفاخره ونطهر منها مكاسبنا ونصون عنها مطالبنا ونكفى الرعية ضرهم الذى يتوجه اليهم ونضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ونعبدها اليوم كامس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب فاستخرنا الله ونجانا اليه ليرضى ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الابصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليهما والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهرا سرا وجهرا لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده وأصدره ولا يستوقف فى طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمه والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ولا يتخونها تحويل ولا يعتريها زوال ولا يعتورها انتقال دائمة بدوام الكلمه قائمة ما قام دين القيمه من عارضها ردت أحكامه ومن ناقضها انقض ذمامه ومن ازالها زلت قدمه ومن أحالها حل دمه ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفى عقبه ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذى هو من حطبه فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاة الامر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل من الامر ولمضه على ممر الدهر مرضيا لربه ممضيا لما أمر به وفيها توفى الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبى المقرى النحوى وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين والمنصور ومحمد بن تقى الدين وفيها فى ثالث شوال توفى أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندرى المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فيكون عمره نحوا من خمس وثلاثين سنة

﴿ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة﴾ ففيها توفى ملك النحاة الحسن بن صافى وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفا بديوان نور الدين مضافا الى كتابة الانشاء قال وكان نور الدين ذكيا ألمعيا فطنا لوذعيا لا يشتبه عليه

الاحوال ولا يتبهرج عليه الرجال ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الافضال قال ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه واستخرج دفائنه سير منها عدّة من الامتعة المستحسنه والآلات الثمنه وقطع البلور واليشم والاوانى التى لا يتصور وجودها فى الوهم ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالا والثانية ثمانية عشر والاخرى دونها وقرن بها من اللآلى مصونها ومكنونها وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله فى اعصار واعمار ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار فشكر نور الدين همته وذكر بالكرم شيمته ووصف فضيلته وفضل صفته وقال ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسدّ به خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جدنا به قدر وتمثل بقول أبى تمام

لم ينفق الذهب المربى بكثرته * على الحصا وبه فقر الى الذهب

لكنه يعلم ان ثغور الشام مفتقرة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد وقد عم بالفرنج بلاء البلاد فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول فى جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره قال ابن أبى طى لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع وجرد الموفق بن القيسرانى وزيرا الى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها فاذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها فى كل سنة وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد وأكثر فى مراسلته فى حمل الاموال حدثنى أبى قال لم يخف حال نور الدين فى كراهية الملك الناصر ولقد علم ذلك جميع الاجناد والامراء وتحدث به العوام ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية واشتدّ بعد ذلك فى مراسلته وأنفذ ابن القيسرانى لكشف الاحوال ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر قال العماد وكان نور الدين مذ ملكت مصر وتوجه له فيها النصر يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل والايام تماطله والاعوام تطاوله وهو ينتظر ان صلاح الدين يبتدى من نفسه بما يريده وهو لا يستدعى منه ولا يستزيده فلما حمل من أخاير الذخائر والمال الحاضر ما حمله وعرف مجمله ومفصله تقدّم الى الموفق خالد بن القيسرانى أن يمضى ويطلب ويقتضى ويعمل أيضا بالاعمال المصرية جزازه ولا يبقى فى نفوس دوانه من أمرها حزازه وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا وأقام العماد مقامه فى ديوان الاستيفاء فجمع بين الاشراف والاستيفاء ومنصب الانشاء ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره قال العماد وخرج صلاح الدين فى النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية والذخائر النفيسة التى كان انتخبها من خزائن القصر وهى معدودة من محاسن العصر قد سبق ذكر تسييرها الى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين ووصلت الحماره وكثرت لها النظاره وأما الفيل فانه وصل الينا فى سنة تسع وستين ونحن بحلب فى الميدان الاخضر وأهداه نور الدين الى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل مع شئ من تحفة الثياب والعود والعنبر ثم سيره سيف الدين الى بغداد هدية للخليفه مع ما سيره معه من التحف اللطيفه وسير نور الدين الحمارة العتابية الى بغداد مع هدايا وتحف سنايا

﴿فصل﴾ فى جهاد السلطانين للفرنج فى هذه السنة قال العماد ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون فبرح بها وفرق عنها عربها وخرب عماراتها وشنت على أعمالها سراياه بغاراته ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلى (سبب هذه الخدمة الى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومدّ أبدا احسانه ومكن بالنصر امكانه وشيد بالتأييد مكانه ونصر أنصاره وأعان أعوانه علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويغلل أسلحتهم ويقطع موادّهم ويخرب بلادهم وأكبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى فى بلادهم أحد من العربان وان ينتقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم والحرص فى تبديل دارهم الى أن صار العدوّ اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا) ثم ذكر باقى الكتاب قال ابن شداد وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب اليه وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدوّ فأراد توسيع الطريق

وتسهيله ليتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصدا لها فى أثناء سنة ثمان وستين فحاصرها وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشئ فى تلك الدفعة وحصل ثواب القصد وأما نور الدين فانه فتح مرعش فى ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنى فى ذى الحجة منها وقال العماد حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق فى العشرين من صفر ووجهه بنور البشر قد سفر والحديث يجرى فى طيب دمشق وحسن الاثها ورقة هوائها وبهجة بهائها وازهار أرضها كزهر سمائها وكل منا يمدحها ويحبه يمنحها وكل منا يطريها فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها فارتجلت هذا المعنى فى الحال فقلت

ليس فى الدنيا جميعا * بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها * فى سبيل الله عشق
والنقى الاصل ومن * يتركها يشقى ويشقى
كرشيق شاغل عنه * بسهم الغزو رشق
وامتشاق البيض يغنى * عنه بالاقلام مشق

قال وسألنى نور الدين أن أعمل دوبيتيات فى معنى الجهاد على لسانه فقلت

للغزو نشاطى واليه طربى * مالى فى العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب * والراحة مستودعة فى التعب

وقلت أيضا

لاراحة فى العيش سوى ان * أغزو وسيفى طربا الى الطلى يهتز
فى ذل ذوى الكفر يكون العز * والقدرة فى غير جهاد عجز

وقلت أيضا

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب * والراحة فى سواه عندى تعب
الا بالجد لا ينال الطلب * والعيش بلا جد جهاد لعب

قال واتفق خروج كلب الروم اللعين فى جنود الشياطين بقصد الغارة على رواد من ناحية حوران وهم فى جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ونزلوا فى قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة اليهم وأقدم بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين فى عشترا وقد سره ماجرى فأنفذ سرية الى أعمال طبرية واغتنم خلوها فأدلجت تلك الليلة وجدت فى شن الغارة غدوها فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة فوقف الشجعان وثبت من ثبته الايمان حتى عبرت السريه وانفصلت تلك القضيه ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زرا قال العماد وكنت راكبا فى لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لى كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان * وبدت لعصرك آية الاحسان
ياغالب الغلب الملوك وصائد الـ * صيد الليوث وفارس الفرسان
ياسالب التيجان من أربابها * حزت الفخار على ذوى التيجان
محمودا المحمود ما بين الورى * فى كل اقليم بكل لسان
ياواحدا فى الفضل غير مشارك * أقسمت مالك فى البسيطة ثانى
أحلى أمانيك الجهاد وانه * لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم بكر فتح اولدته ظباك من * حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها * قد سار فى الآفاق والبلدان
قصمت قومصهم رداء من ردى * وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم * بالذل فى الاقياد والاشجان

وجعلت فى أعناقهم أغلالهم ❊ وسحبتهم هونا على الاذقان
اذفى السوابغ تحطم السمر القنا ❊ والبيض تخضب بالنجيع القانى
وعلى غناء المشرفية فى الطلى ❊ والهام رقص عوالى المرّان
وكان بين النقع لمع حديدها ❊ نار تالق من خلال دخان
فى مازق ورد الوريد مكفل ❊ فيه برىّ الصارم الظمآن
غطى العجاج به نجوم سمائه ❊ لتنوب عنها أنجم الخرصان
أوما كفاهم ذاك حتى عاودوا ❊ طرق الضلال ومركب الطغيان
ياخيبة الافرنج حين تجمعوا ❊ فى حيرة وأتوا الى حوران
وجلوت نورالدين ظلمة كفرهم ❊ لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأى قبل لقائهم ❊ والرأى قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركنا ثابتا ❊ والكفر منك مضعضع الاركان
قوضت أساس الضلال بعزمك الماضى وشدت مبانى الايمان
قل أين مثلك فى الملوك مجاهد ❊ لله فى سرّ وفى اعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة ❊ لكن وثقت بنصرة الرحمان
مازال عزمك مستقلا بالذى ❊ لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ ❊ ما كان فى وسع ولا امكان
دانت لك الدنيا فقاصيها اذا ❊ حققته لنفاذ أمرك دانى
فمن العراق الى الشام الى ذرا ❊ مصر الى قوص الى أسوان
لم تله عن باقى البلاد وانما ❊ الهاك فرض الغزو عن همذان
للروم والافرنج منك مصائب ❊ بالترك والاكراد والعربان
اذعنت لله المهيمن اذعنت ❊ لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذى دون الملوك وجدته ❊ ملآن من عرف ومن عرفان
فى بأس عمرو فى بسالة حيدر ❊ فى نطق قس فى تقى سلمان
سيرلوان الوحى ينزل أنزلت ❊ فى شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتد المدى ❊ صافى الحياة مخلد السلطان

وهى قصيدة طويلة وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه ومدحهم

❊(فصل) فى فتح بلاد النوبة قال العماد وفى جمادى الاولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المرهوبة وفتح حصنا لهم يعرف بابريم والآن لا بريم وهى بلاد عديمة الجدوى عظيمة البلوى ثم رجع بالسبى وعاد به الى أسوان وفرق على أصحابه فى الغنائم السودان وقال ابن أبى طى الحلبى وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا الى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الامير كنز الدولة فأنفذ يعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى فلما وصل الى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد ان أخربوا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ورجع الشجاع الى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة وأمرها بلحاقه الى بلاد النوبة وسار اليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة وخلص جماعة من الاسرى

الاسرى وأسر من وجده فيها وهرب صاحبها وكتب الى السلطان بذلك فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروى يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها

فقدم العزم فذا مبتداه ❊ يقصر عن ملك الارض منتهاه
واسحب ذيول الجيش حتى ترى ❊ أنجمه طالعة عن دجاه
سوالك من ألقى عصاه بها ❊ قناعة لما استقرت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا ❊ ج اذا شئت وثور انشاه
فقد غدت ابريم فى ملكه ❊ تبرم أمرا فيه كبت العداه
لابدّ للنوبة من نوبة ❊ ترضى لسخط الكفر دين الاله
تظل من نوبة منسوبة ❊ لعزمة كامنة فى اناه
تكسو الغزاة القاطنى أرضها ❊ ما نسجت للحرب أيدى الغزاه
سود وتحمر الظبا حولها ❊ كاعين الرمد بدت للاساه
أولا فسر يحميها القنا ❊ مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لاينثنى ❊ الا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها ❊ خيل وفرسان كشمل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم ❊ أساود الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الانهار واستلأموا الـ ❊ ـغدران فالنيران تجرى مياه

قال ثم رجع شمس الدولة الى أسوان ثم الى قوص وكان فى صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردى فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وأنفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بهم واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذبدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقى منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين فعاد النوبة اليها وملكوها وأنفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجى نشاب وقال مالك عندى جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل دنقلة وهى مدينة الملك قال مسعود فوجدت بلادا ضيقة ليس لهم زرع الا الذرة وعندهم نخل صغار منه ادامهم ووصف ملكهم بأوصاف منها ان قال خرج علينا يوما وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التف فى ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر قال فأتيت فسلمت عليه فضحك وتغاشى وأمر بى ان تكوى يدى فكوى عليها هيئة صليب وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ثم صرفنى قال وأما دنقلة فليس فيها عمارة الا دار الملك فقط وباقيها اخصاص

❊(**فصل**)❊ فى وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره قال العماد وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجه وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام ثم توفى فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى الحجه وكان كريما رحيما عطوفا حليما وبابه مزدحم الوفود وهو متلف الموجود ببذل الجود وكان ولده صلاح الدين عنه غائبا وفى بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا فدفن الى جانب قبر أخيه أسد الدين فى بيت بالدار السلطانيه ثم نقلا بعد سنتين الى المدينة الشريفة النبويه على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام والاجلال والاعظام وعلى آله وصحبه وسلم قلت وقبرهما فى تربة الوزير جمال الدين الاصفهانى وزير الموصل المقدم ذكره رحمهم الله وقال القاضى ابن شداد ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله وكان شديد الركض ولعابا بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر

الفرس ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه (صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه ما عظمت به اللوعه واشتدت الروعه وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسره فاستنجدنا بالصبر فابى وانحدرت العبره فيا له فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء وانتثر شمل البركة بفقده فهى بعد الاجتماع اجزاء

هبنى حضرت فكنت ماذا اصنع * وتخطفته يد الردى فى غيبتى

قال ابن أبي طى الحلبي هو الامير نجم الدين أيوب بن شاذى ولا يعرف فى نسبه أكثر من والده شاذى وحدثنى أبي رحمه الله قال كان تقي الدين عمر يزيد فيقول شاذى بن مروان قلت وسمعت أنا من يقول شاذى بن مروان بن يعقوب قال ابن أبي طى وقد ادّعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن انهم من بني مروان بن محمد الجعدى المعروف بالحمار يعني آخر خلفاء بني أمية قال وقد نقبت عن ذلك فاجمع الجماعة من آل أيوب ان هذا كذب وان جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شاذى وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله قلت ودليل صحة ذلك انى وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذى العادلى وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى بن أخي السلطان صلاح الدين ملك اليمن بعد أبيه وتعاظم الى ان ولى نفسه الخلافة وادّعى انه من بني أمية وعزم على اعادة الخلافة من بني هاشم الى بني أمية وله فى ذلك اشعار كثيرة وتلقب بالامام الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين ومدحه كثير من الشعراء بذلك وزينوا له فعله وما هو فيه فمن شعره

وانى أنا الهادى الخليفة والذى * أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد اطوى ربوعها * وانشرها نشر السماسر للبرد
وانصب اعلامى على شرفاتها * وأحيى بها ما كان أسسه جدّى
ويخطب لى فيها على كل منبر * وأظهر دين الله فى الغور والنجد

قال ابن أبي طى وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضيا كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ويميل الى الفضلاء وكان ممن امتدحه العماد الكاتب بجملة قصائد قال وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شهختان كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ وحدثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور وربى فى بلد الموصل ونشأ شجاعا باسلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلا وسدادا وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها أكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وامنت سبلها فلما ولى السلطان مسعود الملك اقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق وكان هذا بهروز اميرا ينفذ أمره فى جميع العراق الى البصرة الى الموصل الى أصفهان وكانت خيله خمسة ألف فارس فاقر الامير نجم الدين فى ولاية تكريت وأضاف اليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له وقرر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطا بالامير نجم الدين ومعذوقا بهمته وكان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسه وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليله وكان لا يسمع باحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه وقد ذكر العماد الكاتب فى سيرة السلجوقية الامير نجم الدين وقرظه وأثنى عليه وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنه وحكى قضية عمه العز برحين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزينى وأمره بقتله فابى نجم الدين الى ان قتله بهروز بنفسه بامر الدركزينى ثم ان السلطان مسعودا حشد وخرج فى أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكى ابن آق سنقر فى بغداد وجردا عسكرا ضخما وسارا الى تكريت طامعين فى بغداد دونة ايلا وتلاقيا مع قراجه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد ألف فارس عليهم ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكى وقتل جماعة من أصحابه وجمله ممن كان فى عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير نجم الدين وأخوه شيركوه فحملاه الى القلعة بحبال وداوياجراحاته وخدماه احسن خدمة وتقربا اليه فاقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما ثم سار الى الموصل وأعوزه الظهر فاعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى انهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من

امتعته فكان زنكى يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه فى تكريت فلما انفصل عنها على ماسنذكره تلقاه زنكى بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما واقطعه عدة قطائع وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة وكان شجاعا باسلا ينزل من القلعة ويصعد اليها فى اسبابه وحاجاته وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولا ينزل منها فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوما لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلا نصرانيا فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيبا فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى وأخذ النصرانى برجله فالقى من القلعة وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ماجرى وحضر عنده من خوّفه جراءة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل وقيل ان أسد الدين كان خرج الى الموصل قبل نجم الدين وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم ولم يبق أحد الا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والاسف على مفارقته ولما اتصل باتابك زنكى قدومهما فرح بذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما اكراما عظيما واقطعهما فى بلد شهرزور اقطاعا سنيا وقيل انه اقطع أسد الدين بالموزر وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر انه يقوم بامره فى حياته وبعد وفاته وتجرد جمال الدين فى أمر اسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة وخرجا معه الى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج لعنهم الله وكان لاسد الدين فى تلك الوقايع اليد البيضاء والفعلة الغراء وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى سعد الدولة ابو اليمامن المؤملى وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب قال وحدثنى أيضا بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح قال حدثنى حسام الدين سنقر غلام الامير نجم الدين أبى طالب وكان سنقر هذا يخدم مع الامير نجم الدين أيوب بن شاذى قال كنت فى صحابة الامير نجم الدين لما انفذه نور الدين بن زنكى الى ابنه السلطان الملك الناصر الى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وأقامة دعوة بنى العباس فى أول سنة سبع وستين وخمسمائة واتفق انى كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الامير نجم الدين فى دار الوزارة وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين وعند الناس من الفرح والسرور ما قد اذهل العقول فبينا الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدى السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين فقال له يامولاى هذا تأويل مقالتى لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة وذلك انى ليلة رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصرانى وكنت قد ألفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل على الخروج منها والتحوّل عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفى ذلك الوقت جائنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ولم افرح به ولم أستبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتى به لا أكاد أذكره ولا أسميه وكان هذا النصرانى معى كاتبا فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل والتشأم به استدعى منى ان أذن له فى الكلام فأذنت له فقال لى يامولاى قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبى وأى شئ له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئا وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله سبحانه وتدر ثم مايدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فعطفنى كلامه عليه وها هو قد اوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه قلت ولعمارة فى نجم الدين مدائح ومراث منها قوله

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم ❋ ووجهه بدوام العز متسم

اضحى بك النيل محجوجا ومعتمرا * كانما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر * فقارعوا عنه فهو اليوم منتظم
وما درى أحد من قبل رؤيتهم * ان الحظوظ بلثم الارض تقتسم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم * كان يقظتنا فى عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة * اذا الحوادث لم يكشف لها غمم
اعز بالبأس والاحسان حوزتنا * فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك * تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال فى مرثيته

هى الصدمة الاولى فمن بان صبره * على هول ملقاها تضاعف أجره
اذم صباح الاربعاء فانه * تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى فى نجمه بمصيبة * تداعى سماك الجو منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى * على فقد أيوب فقد بان عذره
اقام باعمال الفرات وخيله * يراع بها نيل العزيز ومصره
الى ان رماها من أخيه بضيغم * فرى نابه أهل الصليب وظفره
فلما قضى نحبى حياة ودولة * بأمرك فى ادراكها تم أمره
تعاقبتما مصرا تعاقب وابل * يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها حلالتها * فغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيته فى البر حيا وميتا * فقبرك فى دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع اليكما * والافسكان الحجون وحجره
هنيا لملك مات والعز عزه * وقدرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده * وما طال الا فى رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما * رأى فى بنى ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم * فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره * لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده * ثمانية من أجلهم عز نصره
فكيف لحى من آل أيوب أسده * لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس انه * أبوها ونور البدر منها وزهره
وابقى المقام الناصرى فانه * لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضا

صفو الحياة وان طال المدى كدر * وحادث الموت لا يبقى ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا * لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا * فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس اذا ما الردى حيا الحياة بها * لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها * ما أضعف القدر ان الوى به القدر
فى كل جيل وعصر من وقائعها * شعواء يقطر منها الناب والظفر
اودى على وعثمان بمخلبها * ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى فى مصيبته * فللورى برسول الله معتبر

نجم هوى من سماء الدين منكدرا * والنجم من افقه يهوى وينكدر
منظومة أبحر الجوزاء من جزع * له وعقد الثريا منه منتثر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن * نعماه فى كل عيش صالح أثر
جدّدت من أسد الدين الشهيد لنا * خزنا به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما * ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
ان فاح نشر كلام تمدحان به * مسكا فعترة أيوب اهى العطر
تخسفى ذبال مصابيح اذا طلعوا * صبحا وتنسى ملوك الارض ان ذكروا
كانما صور الله الكمال بهم * شخصا ويوسف منه السمع والبصر
لاشوبك منه معصوم ولا كرك * ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلا الا وساكنها * اما مباح حماه أودم هدر
ما مات أيوب الا بعد معجزة * فى المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له * فى رتبة أرب باق ولا وطر
وطوّل الله منه باع أربعة * منها الندى والتقى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته * فى صحة اخواها العقل والكبر
ومن سعادته ان مات لا سأم * يشكوه منه معانيه ولا ضجر

﴿فصل﴾ قال العماد وسار نور الدين قاصدا جانب الشمال لتسديد ما اختل هنالك من الاحوال فسار الى بعلبك ومنها الى حمص ثم حلب وفعل فى كل منها من المصالح ما وجب وقصد بلاد قليج ارسلان ملك الروم ففتح مرعش فى العشرين من ذى القعدة ثم فتح بهسنى واتبع فى كل منهما الطريقة الحسنى وكتب العماد الى صديق له بدمشق وكان سافر عنها مع نور الدين فى أطيب فصولها وهو زمن المشمش

كتابى فديتك من مرعش * وخوف نوائبها مرعشى
وما من فى طرقها مبصر * صحيح النواظر الا غشى
وما حل فى أرضها آمن * من الضيم والضر الا خشى
ترنحنى نشوات الغرا * م كأنى من كأسه منتشى
أسرّ واعلن برح الجوى * فقلبى يسر ودمعى يشى
بذلت لكم مهجتى رشوة * فها كم حبكم مرتشى
وكيف يلذ الكرى مغرم * بنار الغرام حشاه حشى
بمرعش ابغى وبلوطها * مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد فى الخريدة فسارت هذه القطعة ونمى حديثها الى نور الدين قال فاستنشدنيها فأنشدته اياها ونحن سائرون فى واد كبير مع بيتين بدهت بهما فى الحال وهما

وبالملك العادل استأنست * نجاحا منى كل مستوحش
وما فى الانام كريم سوا * ه فان كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الاثير وفى سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بن سليمان السلجوقى وهى ملطية وسيواس وقونية واقصرا عازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فسار الى نور الدين مستجيرا وملتجئا الى ظله فأكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعى فى ردّ ملكه اليه وكانت عادة نور الدين انه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة أما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر

وغيرها فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان وشفع اليه فى اعادة ما غلبه عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فلكها وما بينها من الحصون وسير طائفة من عسكره الى سيواس فلكوها وكان قليج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التى تلى الشام الى وسطها خوفا وفرقا وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان ينصلح الامر بغير حرب فاتاه من الفرنج ما أزعجه فاجابه الى الصلح وكان فى جملة رسالة نور الدين اليه (انى أريد منك أمورا وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولى حتى يحل لى اقرارك على بلاد الاسلام فانى لا اعتقدك مؤمنا وكان قليج ارسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة والثانى اذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم فاما أن تكون تنجدنى بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازى ولد أخى وذكر أمورا غيرها فلما سمع قليج ارسلان الرسالة قال ما قصد نور الدين الا الشناعة على بالزندقة وقد أجبته الى ما طلب أنا أجدد اسلامى على يد رسوله واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدين عبد المسيح فى خدمة ذى النون فبقى العسكر بها الى أن مات نور الدين فرحل العسكر عنها وعاد قليج ارسلان ملكها قال العماد (وفيها) وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابورى وهو فقيه عصره ونسيج وحده فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ثم أطلعه الى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسى رحمه الله ونزل بمدرسة الجاروق وشرع نور الدين فى انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله وأدركه الاجل دون ادراك عملها الاجله قلت هى المدرسة العادلية الآن التى بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذى لا نظير له فى بنيان المدارس وهى المأوى وبها المثوى وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى وبقى قطب الدين الى أن توفى فى الايام الناصرية فى سنة ثمان وسبعين وقد وقف كتبه على طلبة العلم ونقلت بعد بناء هذه المدرسة اليها فاقام اثمرته اذ فاتها مباشرته رحمه الله قال العماد وكان وفد فى سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن على بن محمد بن حمويه فأقبل عليه نور الدين وأمرنى بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية ورغبه فى المقام بالاحسان اليه بالشام ومن جملة ما أتحفه به عمامة باعمدة ذهبية كان قد انفذها صلاح الدين من مصر فبذل فيها ألف دينار بزنتة ذهبها فلم يجب من سامها الى طلبها قلت وقد سبق ذكر هذه العمامة فى أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى اياها وهو والشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه (فلينظر فى رباط السميساطى وقبة الطواويس ورباط الطاحونة وغيرها من الرباط الذى للصوفية بدمشق المعمورة وبعلبك) ثم ذكر العماد انه فى آخر شعبان من هذه السنة قبيل الرحيل من دمشق كان أهدى الى صديقه الفاضل الاديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى قطائف وكتب اليه

ما راقدات فى صحون مستوطنات فى سكون ❊ أو كالعقائل فى الخدو ر قد اعتقلن على ديون
أو كالتمائم للصحا ف ومانسبن الى جنون ❊ صرعى ومادامت لها يومار حى الحرب الزبون
يحيين بالشغريق بل يسمن فى ضيق السجون ❊ نضدن بالترصيع فى السبحات كالدر المصون
وقد اشتملن من اللطا ئف والصفات على فنون ❊ يجلين أمثال العرا ئس بين أبكار وعون
هن اللذيذات اللوا تذ بالسهول من الحزون ❊ السكريات الغريـ قات الغلائل والشؤون
لفففن فى أكفانهن على المنى لا للمنون ❊ المستطابات الظهو ر المستلذات البطون
المستقيمات الصفو ف وقفن كالخيل الصفون ❊ اسمع حديثى فى انسا طى فالحديث أخو شجون

وهى أكثر من هذا

﴿فصل﴾ قال العماد قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدم بلاد الارمن والتجائه الى نور الدين وتطاوله بقوته على الروم والارمن وكانت الدروب تحت اذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيرا فأرسل نور الدين القاضى كمال الدين الشهرزورى بالاسرى والهدايا الى الخليفة المستضىء بامر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه (وقسطنطينية والقدس يجريان الى أمد الفتوح فى مضمار المنافسه وكلاهما فى وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسه والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفتحين لاهل الاسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضى الامام) وفى آخره (ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تيسر فى هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول الى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلاميه فى العصور الخاليه وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها وتحكموا فى محكم معاقلها ومصونها حتى بلغوا الى حدود المغرب فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب) قلت اتفق فى هذه السنة وصول قراقوش غلام تقى الدين من الديار المصرية مع طائفة من الترك فانضم اليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وفى آخر ذلك الكتاب (ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصى المنى واقصاء عبدة الصليب الانجاس من المسجد الاقصى وان يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ومقتدح زناده ومقترحه فى جهاده وان يملكه الساحل بجميع بلاده) وسير العماد معه قصيدة منها

بالمستضىء أبى محمد الحسن ❁ رجعت أمور المسلمين الى السنن
فى أرض مصر دعا له خطباؤها ❁ وأنت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الاقصى بذلك مشرق ❁ وبنصر مصر محقق يمن اليمن
ورأى الاله المستضىء لشرعه ❁ وعباده نعم الامين المؤتمن
سر النبوّة كامن فيه ومن ❁ قطر الامامة مشرق نور الفطن
تقوى أبى بكر ومن عمر الهدى ❁ وحياء عثمان وعلم أبى الحسن
وبجده عرفت مقالة حيدر ❁ لا من دد أنى ولا منى الددن

ومنها فى مدح نور الدين رحمه الله

هل مثل محمود بن زنكى مخلص ❁ متوحد يبغى رضاك بكل فن
ورع لذى المحراب أروع محرب ❁ فى حالتيه ان أقام وان ظعن
يمسى ويصبح فى الجهاد وغيره ❁ يضحى رضيع سلافه وضجيع دن
وبعزة الاسلام منتصر آخر ❁ وبذلة الاشراك منتقما قمن

قال ابن أبى طى وفيها وصل شهاب الدين بن أبى عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنانير النثار التى نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر وزن كل دينار عشرة دنانير قال العماد وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكى والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين فسأل نور الدين احياء ذلك الرسم فى حقه فأنعم بهما الخليفة عليه ووجه بهما مثالة الشريف اليه وكان من مراده ان يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين طلبا للاجر والذكر الباقى على عمر الدهر فقيل له ما ثم موضع يصلح لهذا الادرار المثمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الامر

﴿ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة﴾ ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها ومليح بن لاون متملك الارمن فى خدمته ووصل الى خدمته ايضا ضياء الدين مسعود بن قلجاق صاحب ملطية وكان فى خدمته أيضا الامراء من الجندل فسرحهم بالعطاء الاجزل والسمت الاجمل وأظهر انه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الارض بالبراة وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار وعاد الى حلب وقد نجح

فى كل ماطلب وأراد ان يسرع الى دمشق فالتأت سريرته لالتئات سريته وحظى بمرض القلب لمرض جسم محظيته وجرت شكايته شكاية جاريته فتصدق عنها بألوف والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف ثم سيرها فى محفة تحمل على أيدى الرجال فى خفة وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر فما تقرّب اليه بمثل حملها والمشى معها وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه المماحصين فى ولايته وتقدّم الى ان أسائره فى طريقه وأحاوره وأحاضره فى منازله وأسامره وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلميه فجاءه الخبر ان الفرنج قد أغارت على حوران فثنى الى الجهاد العنان وسمع الفرنج به فتفرّقوا وتلقوا بعد ما كانوا أقلقوا ودخلنا دمشق قلت وفى جمادى الاولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الاتبان ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه (الحمد لله) يقول فيه (وبعد فان من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهره وعوائد دولتنا القاهره أشاعة المعروف وأغاثة الملهوف وانصاف المظلوم واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم ومانزال نجدّد للرعية رسما من الاحسان يرتعون فى رياضه ويرتوون من حياضه ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب ونلحق مايعثر عليه من بواقى رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرّبا الى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الاتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنين وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية فى الاملاك وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الاتبان على الضياع الخواص والمقطعة وسائر الاعمال المذكورة ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه وهربا من انتقامه وأليم عقابه وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره والاستعفاء من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره وأبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين)

(فصل) فى فتح اليمن قال العماد وفى رجب توجه تورانشاه أكبر اخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها وكان يحثه على المسير اليها عمارة اليمنى شاعر القصر وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار الى مكة ثم الى زبيد فملكها وقبض على الخارجى بها وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى الى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى وفتح حصن تعز وغيره من القلاع ففتح اقليما ومنح ملكا عظيما وافترع بكرا وشيع ذكرا وقال ابن شداد ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوّة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوّة بأسهم وكان بلغه ان باليمن انسانا استولى عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبى بن مهدى ويزعم انه ينشر ملكه الى الارض كلها واستتب أمره فرأى ان يسير اليها أخاه الاكبر الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريحيا حسن الاخلاق سمعت منه يعنى من صلاح الدين رحمه الله الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه اياه على نفسه فمضى اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجى الذى كان بها قلت وكان أخو هذا الخارجى قد خرج باليمن قبله ذكر عمارة اليمنى فى أول كتابه فى وزراء مصر فى أثناء كلام له قال وكان جماعة من أماثل الناس مثل بركات المقرئ وعلى بن محمد النيلى والفقيه أبى الحسن على بن مهدى القائم الذى قام باليمن وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقونى يعنى الى صاحب عدن فذكر كلاما يتعلق به وقال العماد فى الخريدة على بن مهدى ملك اليمن فى زماننا هذا وسفك الدماء وسبى المسلمين وأقبل على شرب الخمر وادّعى الملك والامامة ودعا الى نفسه وكان يحدّث نفسه بالمسير الى مكة فمات سنة ستين وتولى بعده أخوه وله شعر حسن يدل على علوّ همته قال ابن أبى طى كان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوّادا وكان اقطاعه بمصر لايقوم بفتوّته ولاينهض بمروّته وكان قد انتظم فى سلكه عمارة الشاعر وكان من أهل اليمن وكان ورد الى مصر ومدح أصحابه ونفق عليهم فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها وانها قريبة المأخذ لمن طلبها قلت فمن جملة شعره فى ذلك قوله من قصيدة أوّلها

العلم مذ كان محتاج الى العلم ❋ وشفرة السيف تستغنى عن القلم

كم تترك البيض فى الاجفان ظامية ❋ الى الموارد فى الاعناق والقمم

امامك

أمامك الفتح من شام ومن يمن * فلا تردّ رؤس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سوّمها * من الفرات الى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به * الى سواك وأور النار فى العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته * كما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى الى ان امسكت يده * من الكواكب بالانفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأى أتاك وقل * نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى

أفاتح أرض النيل وهى عظيمة * على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التى أنت قادح * بغمدان مشبوبا سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين واتئن * وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرف وجعفر * نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكا لا يحيل بفخره * على أحد الا على عزمك العلى

وله من أخرى

قالوا الى اليمن الميمون رحلته * فقلت ما دونه شئ سوى السفر
سير يسر بنى الدنيا وطيب ثنا * وطول عمر كذا يحكى عن الخضر
لا توقدن لها النار التى خمدت * خفض عليك تنل ما شئت بالشرر
المال مل، يدو القوم ملك يد * ولا أطيل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبى طى ووافق ذلك انه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم واطمعه فى المعاونة لان صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدّى على هذا الشريف هاشم فاعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فاجابوه فتجهز ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن فاذن له وأطلق له مغل قوص سنة وزوّده فوق ما كان فى نفسه وأصحبه جماعة من الامراء ومقدار ألف فارس خارجا عن سيره من حلقته وسار فى البر والبحر فى البر العساكر وفى البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات فوصل الى مكة شرفها الله تعالى فدخلها زائرا ثم خرج متوجها منها الى اليمن فوصل زبيد فى أوائل شوّال فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى وجميع الاشراف بنو سليمان فى جمع جم وعدد كبير فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على ما فيها وقبض على صاحب اليمن عبد النبى أخى على بن مهدى ثم رحل الى عدن وفى صحبته ابن مهدى ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلى ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى كتعز وغيرها وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها فاحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها الا شيخا وامرأة عجوزا فاقام بها ثمانية أيام ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبى بن مهدى وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك ابن منقذ وأمره بحمله فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة فى قتله فقتله ابن منقذ بزبيد فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه ولما حصل شمس الدولة فى زبيد انفذ اليه صاحب ظهار وصالحه هو وباقى الملوك على اداء المال ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى أخيه الملك الناصر فارسل الى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الاحسان وخوّله من ملك الديار والبلدان فارسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك الى بغداد

(فصل) ذكر العماد ههنا الامير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزبيد ووصفه بانه من الكفاة والكرماء والدهاة ذوى الاراء وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العماد من شعره

لما نزلت الدير قلت لصاحبى * قم فاخطب الصهباء من شماسه
فاتى وفى يمناه كأس خلتها * مقبوسة فى الليل من نبراسه

وكان مافى كأسه من خده * وكان مافى خده من كاسه
وكان لذة طعمها من ريقه * وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه * اذ بات يجلوها على جلاسه
اذ قام يسقينا المدام وكلما * عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت ومدحه أبو الحسن بن الذروى المصرى بقصيدة غراء ذالية ما أظن انه نظم على قافية الذال أرق منها لفظا وأدق معنى أوّلها

لك الخير عرج بى على ربعهم فذى * ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى

يقول فيها

مبارك عيش الوفد باب مبارك * وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد ثم سير نور الدين الى بغداد بشارة باسرين أحدهما فتح اليمن والاخر كسر الروم مرة ثانية ومقدّمهم الدوقس كلمان وكان قديما أسيرا عند نور الدين من نوبة حارم وفداء بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوبا أطلسا وسير معه أسرى من الروم وذلك فى شعبان هذه السنة ومما تضمنه كتاب البشارة (ولم ينج من عشرة ألف غير عشرة بحر مستنفره فرّت من قسوره) وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد فى جمادى الآخرة على لسان نور الدين الى بغداد أوّلها

أطاع دمعى وصبرى فى الغرام عصى * والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وان صفو حياتى ما يكدره * الا اشتياقى الى أحبابى الخلصا
ما أطيب العيش بالاحباب لو وصلوا * وأسعد القلب من بلواه لو خلصا
من ذا الذى سار سيرى فى ولائكم * غداة قال العدى لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفرا * ما زال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته ان العدوّ اذا * أم الثغور على أعقابه نكصا

وكلف نور الدين فى هذه السنة بافادة الالطاف والزيادة فى الاوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة والايامى فى أيامها واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد اعدامها وصون الايتام والارامل ببذله وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله ثم ذكر ما قدّمنا ذكره فى أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وافعاله الكريمه قال العماد وفى يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة وجلسنا نحن فى ديوانه حافلين فى ايوانه لبسط عدله واحسانه وتنفيذ أوامر سلطانه فجاءنى من أخبرنى ان نور الدين نزل الى المدرسة التى اتولاها وبسط سجادته فى قبلتها لسنة الضحى وصلاها فقمت فى الحال ومضيت على الاستعجال فلقيته فى الدهليز خارجا فى أجر العبادة ناجحا ولنهج العادة ناهجا فلما رآنى توقف ولقولى تشوّف فقلت له ان الموضع قد تشرف أما ترى انه من أيام الزلزلة قد تشعث فلما رأى حاله تلبث وقال نعيده الى العماره ونكسوه حلل النضاره ثم حملت له وجوه سكر وشيئا من ثياب وطيب وعنبر وكتبت معها هذه الابيات

عند سليمان على قدره * هدية النملة مقبوله
ويصغر المملوك عن غلة * عندك والرحمة مأموله
رقى لمولانا وملكى له * وذمتى بالشكر مشغوله
وكيف يقضى الحق ذو منة * ضعيفة بالعجز معلوله
وانما شيمة مولى الورى * طاهرة بالخير مجبوله

قال وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصه وبالترخيم والتذهيب والتهذيب غير مخصصه فانفذلى لعمارتها فصوصا مذهبة وذهبا ثم حم مقدور حمامه وعاق القدر عن اتمامه ودفعت الى الموصل فرأيته فى المنام وهو يجارينى فى الكلام ويقول ما يعود الى المدرسة معناه وقال الصلاة الصلاه فعرفت انه أشار الى المحراب وانه للآن على هيئة

الخراب فكتبت الى الفقيه الذى كان عنده الذهب ان يشرع فى عمارته ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه

(فصل) قال ابن أبى طى وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسرانى الى الديار المصرية واجتمع بالسلطان الملك الناصر وأنهى اليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حصل له وارتفع اليه من المغل فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصى لولا ما ثاب اليه من السكينة والعقل فامر بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسرانى وأراه جرائد الاجناد بمبالغ اقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى قال ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرانى وهى خمس ختمات احداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة باطلس أزرق مضببة بصفائح ذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقى عشرة أجزاء وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادى * ثلاثة أحجار بلخش حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف * ست قصبات زمرد قصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس وقصبة وزنها مثقالان وثلث * وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل * وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس * مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا * خمسون قارورة دهن بلسان * عشرون قطعة بلور * أربعة عشر قطعة جزع وذكر تفصيلها * ابريق يشم * طشت يشم * سقرق مينا مذهب * صحون صينى وزبادى وسكارج * أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار * كرتان وزن احداهما ثلاثون رطلا بالمصرى والاخرى احد وعشرون رطلا * مائة ثوب أطلس * أربعة وعشرون بيقارا مذهبة * أربعة وعشرون ثوبا حريرى * أربعة وعشرون ثوبا من الوشى حريرية بيض * حلة فلفلى مذهبه * حلة مرايش صفرا مذهبه وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصريه وعدة من الخيل والغلمان والجوارى وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه قال وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانهم اتصل بهم وفاته فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا باكثرها وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فانفذ من ردها قال وحدثنى من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره وقال العماد لما وصل الى صلاح الدين رسول نور الدين وهو الموفق خالد اطلعه على كل ما هو فيه وأحصى له الطريف والتالد وقال هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم وما ينضبط مثل هذا الاقليم الا بالمال العظيم ثم أنت تعرف اكابر الدولة وعظماءها وانهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها وقد تصرفوا فى مواضع لا يمكن انتزاعها ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها فالموارد مشفوهه والشدائد مكروهه والمقاصد بردعها مجبوهه والهمم بها مشدوهه وشرع فى جمع مال يسيره وبحمله بجهد يبذله وبخطر يحتمله وحصل لخالد منه ما لم يكن فى خلده وجاء مطرف غناه أضعاف متلده

(فصل) فى طلب عمارة الشاعر اليمنى وأصحابه قال العماد واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتشددة المتصلبه وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه واعتقدوا وأمنية عادت بالعقبى عليهم منيه وعينوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأى والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل وستروا عليه بذيل وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ودعا الدعوة قريبهم وبعيدهم وكانوا قد أودعوا اسرارهم عند من أذاعه واستحفظوا من أضاعه وأدخلوا عدة من أنصار الدولة الناصرية فى جملتهم وعرفوهم بجملتهم وكان الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم ويداخلهم فى عزم خروجهم مطلعا على أحوالهم وتقاسموا الدور والاملاك وكادت آمالهم تدنو من الادراك فجاء زين الدين الواعظ واطلع صلاح الدين على فسادهم وما سولوه من مرادهم وطلب ما لابن كامل الداعى من العقار والدور وكل ماله من الموجود والمذخور فبذل له السلطان كل ما طلبه وأمره بمخالطتهم ورغبه ثم أمر السلطان باحضار مقدميهم واعتقالهم لاقامة السياسة فيهم وصلب يوم السبت ثانى شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة وأفنى بعد ذلك من بقى منهم ومات بموتهم الخبر عنهم وكان منهم داعى الدعاة ابن عبد القوى وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه فباد ولم يسمح بابدائها وبقيت تلك الخزائن

مدفونه وتلك الدفائن مخزونه قد دفن دافنها وخزن تحت الثرى خازنها الى أن يأذن الله فى الوصول اليها والاطلاع عليها وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل الى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام قال ابن أبى طى وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا وتجمعوا اهم وجاعة عينوهم من الامراء وغيرهم وان يكاتبوا الفرنج وان يثبوا بالملك الناصر وأدخلوا معهم فى هذا الامر ابن مصال وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول اليهم فى ذلك الزمان المقرر فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث فى اليمين وكفر عنها وصار الى الملك الناصر وعرفه بجلية ما جرى قال فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم فى أمرهم فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم فأمر بصلبهم وقيل ان الذى أذاع سرهم زين الدين على الواعظ وطلب جميع مال ابن الداعى من العقار والمال فأعطاه جميع ذلك وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضى وابن عبد القوى الداعى والعوريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك وشبرما كاتب السر وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحامى ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم وعمارة اليمنى الشاعر قلت وبلغنى ان عمارة انما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير الى اليمن ليتم هذا الامر لان فيه تقليلا لعسكر صلاح الدين وابعادا لاخيه وناصريه عنه قال العماد فى الخريدة ووقعت اتفاقات عجيبة من جملتها انه نسب اليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له يعنى فى القصيدة التى حرض فيها شمس الدولة على المسير الى اليمن أولها (العلم مذ كان محتاج الى العلم)
وقد تقدم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أول هذا الدين من رجل * سعى الى أن دعوه سيد الامم

قال العماد ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه فأفتى فقهاء مصر بقتله وحرضوا السلطان على المثلة بمثله قال ولعمارة فى مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح وصلبه وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهى

أراد علو مرتبة وقدر * فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منه * يمينا لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب * دعاه الى الغواية والضلال

قال العماد فكأنه وصف حاله وما آل اليه أمره وقال فى البرق ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين الى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش يعنى المرتضى وقال ابن أبى طى وقد كتب القاضى الفاضل الى نور الدين كتابا شرح فيه قضية المصلبين فقال بعد مطلع الكتاب (قصر هذه الخدمة على متجدد سار للاسلام وأهله وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى اظهاره على الدين كله بعد ان كانت لها مقدمات عظيمة الا أنها اسفرت عن النجح وأوائل كالليلة البهيمة الا أنها انفرجت عن الصبح فالاسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد ان كان غريبا وضرب فى البلاد بجرانه بعد ان كان الكفر يتم عليه تخيلا عجيبا الا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله وأظهر على سرها من مستقبله والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الاثر لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم ونقض من عرى دولتهم وخفض من مرفوع كلمتهم انهم أعداء وان تعدت بهم الايام واضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا وعيونه لمقاصدهم موكله وخطراته فى التحرز منهم مستعمله لا تخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون اليه وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواتره والمراسلات المتقاطره الى الفرنج خذلهم الله التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ويزينون لهم الاقدام والقدوم ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم ويد الفرنج بحمد الله

قصيرة عن اجابتهم الا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار فى مراسلتهم والتحيل فى مفاوضتهم سير جرج كاتبه رسولا الينا ظاهرا واليهم باطنا عارضا علينا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسنا وعاقدا معهم القبيح الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا ولا اهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب الى الفرنج تتجدد) ثم قال (والمولى عالم ان عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقابا مؤلما ولا يعذبوا عذابا محكما واذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم فلا يزيدهم العفو الا ضراوه ولا الرقة عليهم الا قساوه وعند وصول جرج فى هذه الدفعة الاخيرة رسولا الينا بزعمه ورد الينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون انه رسول مخاتل لا رسول مجامله وحامل بليه لا حامل هديه فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه واليه فتوصل مرة بالخروج ليلا ومرة بالركوب الى الكنيسة وغيرها نهارا الى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه وبامراء المصريين وأسبابهم وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم فدسسنا اليهم من طائفتهم من داخلهم فصار ينقل الينا أخبارهم ويرفع الينا أحوالهم ولما تكاثرت الاقوال وكاد يشتهر علمنا بهذه الاحوال استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسده وطائفة من هذا الجنس متمرده قد اشتملت على الاعتقادات المارقه والسرائر المنافقه فكلا أخذ الله بذنبه فنهم من أقر طائعا عند احضاره ومنهم من أقر بعد ضرب به فانكشفت أمور أخر كانت مكتومه ونوب غير التى كانت عندنا معلومه وتقريرات مختلفة فى المراد متفقة فى الفساد) ثم ذكر تفصيلا حاصله انهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك فنهم من طلب اقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وان كان صغيرا واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفه ثم قال وكانوا فيما تقدم والملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم انه بعيد والفرصة قد أمكنت فاذا وصل الملك الفرنجى الى صدر أو الى ايلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الارمن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة ثم قال ولما وصل جرج كتبوا الى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحى اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق فى القاهرة الا بعضهم واذا بعثت اسطولا الى بعض الثغور انهض فلانا من عنده وبقى فى البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة ثم قال وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بان الدعوة واحده والكلمة جامعه وان ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفترق به كلمه ولا يجب به قعود عن نصره واستدعوا منه من يتم على الملوك غيله أو يبيت له مكيدة وحيله والله من ورائهم محيط وكان الرسول اليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما اخذ به وأدب الله امضى فيمن خرج عن أدبه وتناصرت من أهل العلم الفتاوى وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة الى النار الحاملين لاثقالهم واثقال من أضلوه من الفجار وشنقوا على أبواب قصورهم وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ووقع التتبع لاتباعهم وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا ونودى بأن يرحل كافة الاجناد وحاشية القصر وراجل السودان الى أقصى بلاد الصعيد فأما من فى القصر فقد وقعت الحوطة عليهم الى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم ولا رأى فوق رأى المولى والله سبحانه المستخار وهو المستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وتمضى الحدود بتحديده ورأى المملوك اخراجهم من القصر فانهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تحسم الاطماع عنها فانه حبالة للضلال منصوبه وبيعة للبدع محجوجه قال المؤلف لعلها محجوبه ومما يطرف به المولى ان ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث ان فيه داعية خبيثا أمره مختقرا شخصه عظيما كفره يسمى قديد القفاص وان المذكور مع خموله فى الديار المصرية قد فشت فى الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته وان أرباب المعايش فيه يحملون اليه جزءا من كسبهم والنسوان يبعثن اليه شطرا وافيا من أموالهن ووجدت فى منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتبا مجردة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود وبالجملة فقد كفى الاسلام امره وحاق به مكره

وصرعه كفره قلت وفي قضية عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله ونقلته من خطه

عمارة في الاسلام ابدى جناية * وبايع فيها بيعة وصليبا
وامسى شريك الشرك في بغض احمد * فاصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى ان عجمته * تجد منه عودا في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجله * ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت الصليب الاول النصارى والثاني بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام وقيل هو الصديد أي يسقى ما يسيل من أهل النار نعوذ بالله منها وكان عمارة مستشعرا من الغز وهم أيضا منه لانه كان من اتباع الدولة المصرية وممن انتفع بها واختل أمره بعدها فلم تصف القلوب بعضها البعض وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وابعاده وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادا في نيته وان مدحهم تكلف ذلك وصرح وعرض فيه بما في ضميره وقد قال في كتاب الوزراء المصرية ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه ولا يطوى بساطه فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب

وكان لي في ملوك النيل قبلكم * مكانة عرفتها العرب والعجم
وكان بيني وبين القوم ملحمة * في حربها السن الاديان تختصم
وما تزال الى داري عوارفهم * يسعى الي بها الانعام والكرم
تركت قصدك لما قيل انك لا * تجود الاعلى من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه * ولا النزر من الاحسان أغتنم
ولا الى صدقات المال أطلبها * ولا عمى نال اعضائي ولا صمم
وانما أنا ضيف للملوك ولي * دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله

قررت لي ابناء رزيك رزقا * كان في عصرهم مسناه مهنا
وأتت بعدهم ملوك فسنوا * في ما كان صالح القوم سنا
ورعوني أما اقتداء بماض * أو لمعنى فكلهم بي يعنى

وله فيه من أخرى

فقد صارت الدنيا اليكم بأسرها * فلا تشبعوا منها ونحن جياع
اذا لم تريدونا فكونوا كمن مضى * ففي الناس أخبارلهم وسماع
وليس على مر الفطام اقامة * فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين

هل تأذنون لمن أراد عتابكم * أم ليس في اعتابكم من مطمع
ضيعتم من حق ضيفكم الذى * مازال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عني حين لم * اكشف قناع مذلة وتضرع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده * فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
واذا نطاق الرزق ضاق مجاله * امسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضا

تيممت مصرا أطلب الجاه والغنى * فنلتهما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم * فاحمد مرتادي واخصب مربعي
وفزت بألف من عطية فائز * مواهبه للصنع لا للتصنع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى * بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي

وأوحى الى سمعى ودائع شعره * فخبرته منى بأكرم مودع
وليست أيادى شاور بذميمة * ولا عهدها عندى بعهد مضيع
ملوك رعوا لى حرمة صار نبتها * هشيما رعته النائبات ومارعى
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة * وان خالفونى باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه * من الحاكم المصغى الى فأدعى
أقمت لكم ضيفا ثلاثة أشهر * أقول لصدرى كلما ضاق وسع
وكم فى ضيوف الباب ممن لسانه * اذا قطعوه لا يقوم بأصبعى
فيا راعى الاسلام كيف تركتنا * فريقى ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب و بعد فهب لنا * جوابك فالبارى يجيب اذا دعى

وقال أيضا

اسفى على زمن الامام العاضد * اسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من * أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفى على حجرات قصرك اذ خلت * يا ابن النبى من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذى * كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم * فكبا وقصر عن صلاح الفاسد
فعسى الليالى أن تردّ اليكم * ما عوّدتكم من جميل عوائد

وقال أيضا

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف * علىّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة * كلام العدى فيها علىّ كلوم
وسامحه فى قطع رزق بفضله * وصلت اليه والزمان ذميم
الا هل له عطف علىّ فاننى * فقير الى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضى الفاضل رحمه الله وبلغنى ان عمارة لما امر وابه ليصلب عبروابه على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به فقيل ليس اليه طريق فقال عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب
قال وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض فى فساد الدولة بل الملة . وتوضح عذر السلطان فى قتله وقتل من شاركه فى ذلك وهى

رميت يا دهر كف المجد بالشلل * وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فان * قدرت من عثرات البغى فاستقل
جدعت مارنك الاقنى فانفك لا * ينفك ما بين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل * سقيت مهلا اما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة * على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فاولتنى خلائفها * من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * كمالها انها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حيث سما * رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكرمة * وخلة حرست من عارض الخلل
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما والله ما التحمت * فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة * فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الامر شئ غير قسمة ما * ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم * محمد وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد * من الاعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعي غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم * حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت انس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم ان أصغت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست * ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم * يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز فى عيد الغدير بما * تهتز ما بين قصريكم من الاسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية * مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ * ـاطباق الا على الاعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الاقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ * ـف المقيم وللطارى من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم * لمن تصدر فى علم وفى عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها * منكم وأضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد فى الخريدة أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعى الدعاة بمصر للادعيا وقاضى القضاة لاولئك الاشقيا يلقبونه بفخر الامنا وهو عندهم فى المحلة العليا والمرتبة الشما والمنزلة التى فى السما حتى انكدرت نجومهم وتغيرت رسومهم وأقيم قاعدهم وعضد عاضدهم وأخليت منهم مصرهم وأجلى عنهم قصرهم فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشد منهم فامال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد وسولوه من المكايد فاثمرت بجثثهم الجذوع واقفرت من جسومهم الربوع وأحكمت فى حلومهم النسوع وهذا أول من ضمه حبل الصاب وأمه فاقره الصلب وهذا صنع الله فيمن الحد وكفر النعمة وجحد وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره وقد ذكروه عنده بالفضل والادب ونسبوا اليه هذين البيتين فى غلام رفا وأنشدهما الملك الناصر وذكر انه كان يشكرهما

يارا فيا خرق كل ثوب * ويارشا حبه اعتقادى
عسى بكف الوصال ترفو * ما مزق الهجر من فؤادى

(فصل) فى التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره قال العماد وقد أوردت شعر عمارة ابن أبى الحسن اليمنى فى كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ونقلت الى هذا الكتاب يعنى كتاب البرق الشامى لمعا من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمد بن مصال

لو ان قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكظمت غيظ الادمع

قال العماد انما أنشدنى فيض الادمع فرأيت غيظ الادمع اليق بالكظم

قلب كفاك من الصبابة انه * لبي نداء الظاعنين ومادعى
ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى أضلعى
ما القلب أول غادر فألومه * هى شيمة الايام مذ خلقت معى

قال

قال وأنشدنى لعمارة أيضا

ملك اذا قابلت بشر جبينه ❊ فارقته والبشر فوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخرجت من ❊ أبوابه لثم الملوك يمينى

قال وأنشدنى له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ يقول

لى فى هوى الرشاء العذرى أعذار ❊ لم يبق لى مذ اقر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى ❊ ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق ان رضيت به ❊ أولا فدعنى وما أهوى واختار
لمى جزافا وسامحنى مصارفة ❊ فالناس فى درجات الحب أطوار
وخل عذلى ففى دارى ودائرتى ❊ من المها درة قلبى لها دار

قلت ويروى (وغر غيرى ففى أسرى ودائرتى) والابيات العينية من قصيدة فى مدح تقى الدين والنونية فى مدح نجم الدين أيوب والرائية فى مدح شمس الدولة بن أيوب وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديبا وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر فذكر انه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعى رضى الله عنه قال ولى فى الفرائض مصنف يقرأ باليمن وفى سنة تسع وثلاثين زارنى والدى وخمسة من اخوتى الى زبيد فانشدته شيئا من شعرى فاستحسنه ثم قال تعلم والله ان الادب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس واستحلفنى ان لا أهجو مسلما ببيت شعر فحلفت له على ذلك ولطف الله بى فلم أهج أحدا ماعدى انسانا هجانى بحضرة الملك الصالح يعنى ابن رزيك ببيتى شعر فاقسم الصالح على ان أجيبه ففعلت متأولا قول الله عز وجل ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم قال ولم يكن شئ غير هذا وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد وكانت تقوم لامير الحرمين بجميع مايتناوله من حاج اليمن براو بحرا وبجميع خفارات الطريق فذكر انه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه ثم طرأت أمور اقتضت ان هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة قال وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين هاشم بن فليتة وولى الحرمين ولده قاسم بن هاشم فالزمنى السفارة عنه والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها فى شهر ربيع الاول سنة خمسين والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر والوزير له الملك الصالح طلايع ابن رزيك فلما حضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ❊ حمدا يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق عندى للركاب يد ❊ تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظرى ❊ حتى رأيت امام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ❊ وفدا الى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت انى بعد زورته ❊ ماسرت من حرم الا الى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ❊ بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة ❊ تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا ❊ على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم اعلام تعلمنا ❊ مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تثنى محامدها ❊ على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها ❊ يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا ❊ فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ❊ وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ❊ الا يد الصنعتين السيف والقلم

وجوده أوجد الايام مااقترحت ❋ وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالى رق مملكة ❋ تعير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاما عظيم الشان أوهمنى ❋ فى يقظتى انها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل ❋ ولا ترقت اليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لى فانظمها ❋ عقود مدح فما أرضى لكم كلمى
ترى الوزارة فيه وهى باذلة ❋ عند الخلافة نصحا غير متهم
عواطف أعلمتنا ان بينهما ❋ قرابة من جميل الرأى لا الرحم
خليفة ووزير مد عدلهما ❋ ظلا على مفرق الاسلام والامم
زيادة النيل نقص عند فيضهما ❋ فما عسى يتعاطى منة الديم

قال وعهدى بالصالح وهو يستعيدها فى حال النشيد مرارا والاستاذون والامراء والكبراء يذهبون فى الاستحسان كل مذهب ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة مذهبة ودفع الى الصالح خمسمائة دينار واذا بعض الاستاذين قد خرج لى من عند السيدة بنت الامام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معى الى منزلى واطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لاحد قبلى وتهادتنى أمراء الدولة الى منازلهم للولائم واستحضرنى الصالح لمجالسه ونظمنى فى سلك أهل المؤانسه وانثالت على صلاته وغمرنى بره ووجدت بحضرته من أعيان أهل الادب الشيخ الجليس أبا المعالى ابن الحباب والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وغيرهم وما من هذه الحلبة أحد الا وتضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الانسانية بأوفر نصيب ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظمونى فى سلك فرائدهم فقلت

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر ❋ سقى عهدك الماضى عهاد من القطر
ليال هى العمر السعيد وكل ما ❋ مضى فى سواها لا يعد من العمر
أفادتنى الاقدار فيها مواليا ❋ صفت بهم الايام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد ارادتى ❋ ولو سمتهم نثر الكواكب فى مجرى

وله فى الصالح من قصيدة

ولو لم يكن أدرى بما جهل الورى ❋ من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا ❋ فراسخ من اجلاله ومراحل

قال وأنشدت الصالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها

دعوا كل برق شمتم غير بارق ❋ يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحى فكل من ❋ على الارض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى ❋ فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها ❋ فكل امرىء يرجى على قدر قدره

قال ولما جلس شاور فى دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولفيف الناس الا الاقل ينالون من بنى رزيك وضرغام نائب الباب ويحيى بن الخياط الاسفهسلار فأنشدته

صحت بدولتك الايام من سقم ❋ وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالى بنى رزيك وانصرمت ❋ والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعادلهم ❋ فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة ❋ بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم ❋ من كان مجتمعا فى ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوا ذل جانبه ❋ وانما غرقوا فى سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمى عدا الشوى * تعظيم شأنك فاعذرنى ولا تلم
ولو شكوت ليالیهم محافظة * لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فى يوما بذمهم * لم يرض فضلك الا أن يسد فى
والله يأمر بالاحسان عارفة * منه وينهى عن الفحشاء فى الكلم

قال فشكرنى شاور وأبناؤه على الوفاء لبنى رزيك قلت وشعر عمارة كثير حسن وعندى فى قوله الحمد للعيس وان كانت القصيدة فائقة نفرة عظيمة فانه أقام ذلك مقام قولنا الحمد لله ولا ينبغى أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل فله الحمد وله الشكر فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدسة وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضى الله عنهم

﴿فصل فى وفاة نور الدين رحمه الله تعالى﴾ قال العماد وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الامر وغدونا أياما قال ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها

عيدان فطر وطهر * فتح قريب ونصر * كلاهما لك فيه * حقا هناء وأجر
وفيهما بالتهانى * رسم لنا مستمر * طهارة طاب منها * أصل وفرع وذكر
تجل على الطهر نام * زكا له منك تجر * محمود الملك العاد * ل الكريم الاغر
وبابنه الملك الصا * لح العيون تقر * مولى به اشتد للدين والشريعة ازر
نور تجلى عيانا * ما دونه اليوم ستر * أضحت مساعيك غرا * كما أياديك غزر
وكل قصدك رشد * وكل فعلك بر * وان حبك دين * وان بغضك كفر
لنا بيمناك يمن * كما بيسراك يسر * وللموالين نفع * وللمعادين ضر
وللسماء سحاب * وسحب كفيك عشر * ناديك بالرفد رحب * نداك للوفد بحر
للبحر مد وجزر * وما لجودك جزر * عدل عميم وجود * غمر ويسر وبشر
وفى العطية حلو * وفى الحمية مر * قد استوى منك تقوى الا له سر وجهر
تقاك والملك عند الـ * قياس عقد ونحر * يا أعظم الناس قدرا * وهل لغيرك قدر
وساهرا حين ناموا * وقائما حين قروا * ما اعتدت الا وفاء * وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو * للمشركين وقهر * وفعل غيرك ظلم * للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر * الى ابتسامك ثغر * روم به وفرنج * فى شفعهم لك وتر
حرب عوان وفتح * على مرادك بكر * بنو الاصافر من خشية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر * لا كان للكفر ظفر * وما دجى ليل خطب * الا وعزمك فجر
أصبحت بالغزو صبا * وعنه مالك صبر * لكسر كل يتيم * اسعاف برك جبر
فى كل قلب حسود * من حر بأسك جمر * تطهير ملك * له الملوك تخر
يزهى سرير وتاج * به ودست وصدر * وكيف يعمل للطا * هر المطهر طهر
هذا الطهور ظهور * على الزمان وأمر * وذا الختان ختام * بمسكه طاب نشر
رزقت عمرا طويلا * ما طال للدهر عمر

قال وفى يوم العيد يوم الاحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد محفوفا من الله بالاسعاد مكنوفا من السماء والارض بالاجناد والقدر يقول له هذا آخر الاعياد ووقف فى الميدان الاخضر الشمالى لطعن الحلق ورمى القبق وكان مسجد صلاته فى الميدان القبلى الاخضر وأمر بوضع المنبر وخطب له القاضى شمس الدين محمد بن المقدم قاضى العسكر بعد ان صلى به وذكر وعاد الى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة وأنهب العطايا والانعام على رسم الاتراك وأكابر الاملاك ثم حضرنا على خوانه الخاص وله عقد كال مصون من الانتقاض والانتقاص وما أوضح بشره وأضوع نشره وأضحك سنه وأبرك يمنه وفى يوم الاثنين ثانى العيد بكر وركب وجمل الموكب وكان الفلك

بنير مجار والطود الثابت بمرور السحاب فى وقار وكأنه القمر فى هالته والقدر فى جلالته والبدر فى دائرته سائر بين سيارته ودخل الميدان والعظماء يسايرونه والفهماء يحاورونه وفيهم همام الدين مودود وهو فى الأكابر معدود وكان قديما فى أول دولته والى حلب وقد جرب الدهر بحنكته ولاشطره حلب فقال لنور الدين فى كلامه عظة لمن يغتر بأيامه هل نكون هاهنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق فان نور الدين لم يصل الى الشهر والهمام لم يصل الى العام ثم شرع نور الدين فى اللعب بالكرة مع خواصه البررة فاعترضه فى حاله أمير آخر اسمه برتقش وقال له باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم وخلقه الحليم فزجره وزبره ونهاه ونهره وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقى اسبوعا فى منزله مشغولا بنازله مغلوبا عن عاجله بحديث أجله والناس من الختان لاهون بأوطارهم فى الاوطان فهذا يروح بجوده وذاك يجود بروحه فانتهت تلك الافراح الا بالاتراح وماصلح الملك بعده الا بملك الصلاح قال واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الاطباء بالفصد فامتنع وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادى عشر شوال يوم الاربعاء من مربع الفناء الى مرتع البقاء ولقد كان من اولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين وصار الى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة فى الدار التى على النهر الداخل الى القلعة من الشمال وكان جلوسه عليها فى جميع الاحوال فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الاخشاب مأمون الاضطراب فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح فدفن فى ذلك البيت الذى اتخذه حمى من الحمام وأذن بناؤه لبانيه بالاهدام قال العماد وقلت فى ذلك

عجبت من الموت كيف أتى ❊ الى ملك فى سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير فى الارض والارض وسط الفلك

وله فيه رحمهما الله تعالى

ياملكا أيامه لم تزل ❊ لفضله فاضلة فاخره
غاضت بحار الجود مذ غيبت ❊ أنملك الفائضة الزاخره
ملكت دنياك وخلفتها ❊ وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شداد وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الاطباء عن علاجها ولقد حكى لى صلاح الدين قال كان يبلغنا عن نور الدين انه ربما قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يرده اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شئ من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضى عنه قال ابن الاثير وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الدين لانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين فانه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريق الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم وكان نور الدين لا يرى الا الجد فى غزوهم بجهده وطاقته فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير اليه فأتاه أمر الله الذى لا يرد قلت ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه فانه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها رحمهما الله تعالى قال وحكى لى طبيب بدمشق يعرف بالرحبى وهو من حذاق الاطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الاطباء فدخلنا عليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت كان ينبغى ان لا يؤخر احضارنا الى ان يشتد بك المرض الى هذا الحد فالآن ينبغى ان تنتقل الى مكان فسيح فله أثر فى هذا المرض وشرعنا فى علاجه فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء ومات عن قريب رضى الله عنه قال ابن الاثير وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية

الا فى حنكه وكان واسع الجبهه حسن الصوره حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا فملك الموصل وديار الجزيرة وأطاعه أصحاب ديار بكر وملك الشام والديار المصرية واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة وطبق الارض ذكره لحسن سيرته وعدله ولم يكن مثله الا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة فى هذا الكتاب هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأى الثاقب الرصين والاقتداء بسيرة السلف الماضين والتشبه بالعلماء والصالحين والاقتفاء لسيرة من سلف منهم فى حسن سمتهم والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم واسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالاداء والتحديث ورجاء ان يكون ممن حفظ على الامة أربعين حديثا كما جاء فى الحديث فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهره فاذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره يحب الصالحين ويواخيهم ويزورهم فى مساكنهم لحسن ظنه فيهم واذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوج ذكرانهم باناثهم ورزقهم ومتى تكررت الشكاية اليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته فمن لم يرجع منهم الى العدل قابله باسقاط المنزلة والعزل فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع مايقصده من الاعمال وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ومكن له فى البلدان والبقاع ثم قال بعد كلام كثير ومناقبه خطيره ومما دحه كثيره ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة فى تواضعه لعلو القدر ومولده على ما ذكر لى كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله وقت طلوع الشمس من يوم الاحد سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة وتوفى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التى بناها لاصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه جوار الخواصين فى الشارع الغربى رحمه الله قلت وفى هذه المدرسة يقول العرقله

ومدرسة سيدرس كل شئ ❊ وتبقى فى حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقا وغربا ❊ بنور الدين محمود بن زنكى
يقول وقوله حق وصدق ❊ بغير كناية وبغير شك
دمشق فى المدائن بيت ملكى ❊ وهذى فى المدارس بيت ملكى

ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء وهى طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بن محمد الوهرانى فى مقامة له وقد سئل فى بغداد عن نور الدين (هو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد وأمير زاهد وملك مجاهد تساعده الافلاك وتعضده الجيوش والاملاك غير انه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى) واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ❊ له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ❊ من المعاصى وفيها الجوع والعطش

قلت رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين الا فى الجهاد وما يعود نفعه على العباد وكان كما قيل فى حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ حدثنا ضمرة عن الشيبانى قال كان ابن الديلمى من أنصر الناس لاخوانه فذكر ابن محيريز فى مجلسه فقال رجل كان بخيلا فغضب ابن الديلمى وقال كان جوادا حيث يحب الله بخيلا حيث تحبون وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل فى ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله

فى كل عام للبرية ليلة ❊ فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ❊ ناران نار قرى ونار جهاد
أبدا يصر فهاتداه وبأسه ❊ فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له فى كل جيد منة ❊ أبهى من الاطواق فى الاجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى ❊ وأمدهم كفا ببذل تلاد

يعطي الجزيل من النوال تبرعا * من غير مسألة ولا ميعاد
لازال في سعد وملك دائم * ما دامت الدنيا بغير نفاد

وقد تقدم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يرد قول الوهراني وابن منقذ على ان ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه وانما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون وما كل وقت ينفق العطاء ويفعل الله ما يشاء

﴿فصل﴾ قال ابن الاثير لما توفي نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك وحلف له ولم يبلغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها واطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن المقدم قال العماد واخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل وقد أبدى الحزن والعويل وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجيب حاسر حاف مما فجأه وفجعه من الريب واجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش فوقف الناس يضطرمون ويضطربون ويتلهفون ويلتهبون ولما كفن بحلة الكرامه ودفن في روضة بابها الى باب رضوان من دار المقامه وقضوا الجزع وقوضوا الفزع وغيبوا الدمعه واحضروا الربعه حضر القاضي كمال الدين وشمس الدين بن المقدم وجمال الدولة ريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الاعمال والشيخ اسماعيل خازن بيت المال وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحده وعزائمهم متعاقده وان ابن المقدم مقدم العسكر واليه المرجع والمصدر قال وانشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح الى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته (اسماعيل بن محمود) وفيه (اطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ندب الشام بل الاسلام حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدام الجهاد مقتني فضيلته ومؤدي فريضته ومحيي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على انه يعز أن يرى الزمان نظيره وما ههنا ما يشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم الله وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه اليه الا لمثل هذا الحادث الجلل والصرف الكارث المذهل فقد ادخره لكفايات النوائب واعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب وأمله ليومه ولغده ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده فما فقد رحمه الله الا صورة والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق وهل غيره دام سموه من مؤازر وهل سوى السيد الاجل الناصر من ناصر وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الامر ما جمح والاهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد وتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا) قلت وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثال الفاضلي فيه (ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه ونور بعافيته القلوب والوجوه فاشتد به الامر وضاق به الصدر وانقصم بحادثه الظهر وعز فيه التثبت وأعوز الصبر فان كان والعياذ بالله قد تم وخصه الحكم الذي عم فالحوادث تدخر النصال والايام تصطنع الرجال ومارتب الملوك ممالكها الا لاولادها ولا استودعت الارض الكريمة البذر الا لتؤدي حقها يوم حصادها فالله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها وتعدم الاراء رشادها وتنتقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكونوا يدا واحده واعضادا متساعده وقلوبا يجمعها ود وسيوفا يضمها غمد ولا تختلفوا فتنكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا وقوموا على امشاط الارجل ولا تأخذوا الامر باطراف الانمل فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا تحققت بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت والا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاه فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب) قال العماد وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره (وأما العدو خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره وسيل لقراره الى ان يزعجه من مجاثمه ويستوقفه عن مواقف مغانمه وذلك من أقل فروض البيت الكريم

وايسر لوازمه اصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعده وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبه بالاسم الكريم وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمه ووفى ما لزمه من حقوق النعمه وجمع كلمة الاسلام عالما ان الجماعة رحمه والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ويجعل للاسلام واقية باقية عليه ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ومضاعفة ملكه ومزيده وييسر منال كل أمر صالح وتقريب بعيده ان شاء الله) ومن كتاب آخر (الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لاوامرها والتعرض لمراسمها والرفع لكلمتها والايالة لعسكرها والتحقق بخدمتها فى بواطن الاحوال وظواهرها والترقب لان يؤمر فيمتثل ويكلف فيحتمل وان يرمى به فى نحر العدو فيتسدد بجهده ويوفى أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده) قال العماد ولما توفى نور الدين اختل أمرى واعتل سرى وعلت حسادى وبلغ مرادهم اضدادى وكان الملك الصالح صغيرا فصار العدل ابن العجمى له وزيرا وتصرف المتحالفون فى الخزانة والدولة كما أرادوا وولوا وصرفوا ونقصوا وزادوا واقتصروا لى على الكتابه محروم الدعوة من الاجابه — ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة منها

لفقد الملك العا * دل يبكى الملك والعدل ❋ وقد أظلمت الافا * ق لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الديـ * ـن عنا أظلم الحفل ❋ وزال الخصب والخيـ * ـر وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجو * د وعاش اليأس والبخل ❋ وعز النقص لما ها * ن اهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلـ * ـم اذا ما نفق الجهل ❋ وما كان لنور الديـ * ـن لولا نجله مثل

❋(**فصل**)❋ قال العماد واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس ورجوا ان يتم لهم الامر ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس وذلك ان شمس الدين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وانه قد عزم على جهادهم وتكلموا فى الهدنه وقطع مواد الحرب والفتنه وحصلوا بقطيعة استعجلوها وعدة من اساراهم استطلقوها وتمت المصالحة وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتبا دالة على التوبيخ والملام ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلى الى الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون يخبره فيه انه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذى تغمد له السيوف وتجرد وقام فى سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدى وتمرد وفى آخره وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قد هم ان يشق ثوب الصباح لولا ان الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجه بلغه الله فيه امله وقبل عمله بالغ اسنى المراد وأفضله وقال ابن الاثير لما توفى نور الدين قال الامراء منهم شمس الدين ابن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الامراء قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة ان نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لان له مثل مصر وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح فلم يوافق اغراضهم هذا القول وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا قال فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه وأرسل دنانير مصرية وعليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده فلما سار سيف الدين غازى بن عمه قطب الدين وملك البلاد الجزرية ولم يرسل من مع الملك الصالح من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه الحال كتب الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر فى خدمته ويمنعه وكتب الى الامراء يقول ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سوائى وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده فأقام الصالح بدمشق ومعه جماعة من الامراء لم يمكنوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين على بن الداية فانه كان أكبر الامراء النورية وانما تأخر عن خدمة الملك

الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعسكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه وأرسل الى الامراء يقول لهم ان سيف الدين قد ملك الى الفرات ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه والا عبر سيف الدين الفرات الى حلب ولا تقوى على منعه فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب قال وكان نور الدين من قبل ان يمرض قد أرسل عساكره فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين فعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليها وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج واستكمل ملك سائر بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فقال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين ظنا منه ان سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه فى أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الامراء ليس بالشام من يمنعك فاعبر الفرات وأملك البلاد فاشار أمير آخر معه وهو أكبر أمرائه قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة ان تعود فرجع الى الموصل

(فصل) قال ابن الاثير قد سبق ان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراله وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان فلما سار سيف الدين الى الشام كان فى مقدمته على مرحلة فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين فى أثره فلم يدركه فنهب بركه ودوابه وسار الى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية واخوته واستقر بينهم وبينه ان يسير الى دمشق ويحضر الملك الصالح فسار الى دمشق فاخرج ابن المقدم عسكرا لينهبه فعاد منهزما الى حلب فاخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه وجهزه وسيره الى دمشق وعلى نفسها تجنى براقش فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والامراء واعلمهم ما فى قصد الملك الصالح الى حلب من المصالح فاجابوا الى تسييره فسار اليها فلما وصلها وصعد الى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين ابن الداية واخوته وعلى ابن الخشاب رئيس حلب قال ابن الاثير ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شئ وكان أمر الله قدرا مقدورا فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وكاتبوا سيف الدين ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذه بيده وبقى الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره وتمكن منه تمكنا عظيما يقارب الحجر عليه قال العماد كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فاخفاه واستأذن فى الوصول الى الشام فطلب سيف الدين غازى رضاه وخرج وسار مرحلتين وسمع البغى فاغذ السير والسعى ونجا بماله وبحاله وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله وكانت عنده بوفاة عمه بشاره وظهرت على صفحاته منها اماره فانه لم يزل من كمشتكين متشكيا فانه كان لجر الامر عليه مذكيا وكان المرحوم قد أمر باراقة الخمور وازالة المحظور واسقاط المكوس واعدام اقساط البوس فنودى فى الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة فى الشرب جهارا ليلا ونهارا وزال العرف وعاد النكر وأنشد قول ابن هانى (ولا تسقنى سرا فقد أمكن الجهر) وقيل أخذ المنادى على يده دنا وعليه قدح وزمر وزعم انه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغنى ويشرب وعادت الضرائب وضربت العوائد فاما كمشتكين فانه وصل الى حلب بعد ان جرى ما جرى وتمثل عند الصباح يحمد القوم السرى واجتمع هناك بالامير شمس الدين على ابن الداية واخوته أخوه مجد الدين وأظهر انه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين وقد تربى معه ولزمه وتبعه الى ان ملك الشام بعد والده ففوض الى مجد الدين جميع مقاصده من طريفه وتالده وحكمه فى الملك ونظمه فى السلك فلا يحل ولا يعقد الا برأيه وكانت حصونه محصنة وهو يسكن عنده فى قلعة حلب والحاضر عنده صباحا ومساء اذا طلب وشيزر مع أخيه شمس الدين على وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان وحارم مع بدر الدين حسن وعين تاب وعزاز وغيرهما نوابه فيها وهو يصونها ويحميها ولما توفى جرت اخوته فى القرب والانبساط على عادته وهم أعيان الدولة وأعضادها وابدال أرضها وأوتادها وامجادها واجوادها فلما توفى نور الدين لم يشكوا فى انهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لاجل سابقتهم ويحبونه فاقام شمس الدين على وهو أكبرهم وأوجههم ودخل قلعة

حلب

حلب وبها واليا شاذبخت وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها وعرف ماجرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوى الاطماع فكاتبهم وأمرهم بالوصول اليه فى خدمة الملك الصالح وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيدا من الدهاء فاستقر الامر على ان يحملوا الملك الصالح اليه ويقدموا به عليه وهو يتسلم ممالكه ويكون أتابكه ووصل كمشتكين الى دمشق فى تلك الايام فوافقهم على مادبروه من المرام وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمى واسماعيل الخازن فبعثوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدم الشيعة فسفكوا دمه وأقام شمس الدين ابن المقدم بدمشق على عساكرها مقدما وفى مصالحها محكما وجمال الدين ريحان والى القلعة والشحن من قبله والامر اليه بتفصيله وجمله والقاضى كمال الدين الشهرزورى الحاكم النافذ حكمه الصائب سهمه الثاقب نجمه وكان مسير الملك الصالح من دمشق فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وغاظ صلاح الدين مافعل بأخوة مجد الدين وقال ابن أبى طى الحلبى لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على ان يكونوا فى خدمة الملك الصالح بن نور الدين وكان يومئذ صبيا وأجمعوا على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه الذين بالشام وصالحة الفرنج على يد ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر وتم ذلك واستقر وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له وكانت الفرنج قد تحركت الى قصد دمشق فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس فى عساكر نور الدين وراسل الفرنج فى الهدنة فأجابوه بعد ان قطعوا قطيعة على المسلمين فعجل حملها وتم أمر الصلح وعادت الفرنج الى بلادها وابن المقدم الى دمشق واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر وكان قد خرج من مصر أربع مراحل فأعظم أمرها وأكبره واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم فراسل ابن المقدم وغيره من الامراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه وقال فى كتابه الى ابن أبى عصرون (ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين وبقية بلاد المسلمين مادخلت فى العقد ولا انتظمت فى سلك هذا القصد والعدو لهما واحد وصرف مال الله الذى أعد لمغنم الطاعه ومصلحة الجماعه فى هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الامه وكان مذخور الكشف الغمه فصار عونا وان أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده دفعوا فى القطيعه وجعلوا الى السلم السبب والذريعه فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورود والصدر وان أئمتنا ظن بنا غير مانريد وان قعدنا فالعدو من بقية الثغور التى لم تدخل فى الهدنة غير بعيد وان فرقنا العساكر لديناً فاجتماعها بعد افتراقها شديد فرأينا ان سيرنا الى حضرة الامير شمس الدين أبى الحسن على واخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك وانه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك وان العدو طالب لايغفل وجاد لاينكل وليث لايضيع الفرصه مجد لايميل الى الرخصه فان كانت الجماعة ساخطين فيظهر امارات السخط والتغيير ولا يمسك فى الاول فيعجز عن الاخير لاسيما ونحن نغار لله ونغير ونقصد للمسلمين ما يجمع به صلاح الرأى وصواب التدبير وقد منعنا عساكرنا ان تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذى قويت به قوته وثرت به ثروته وانبسطت به خطوته فانه مادام يعلم انا مجتمعون وعلى طلبه مجمعون لايمكنه أن يزايل مراكزه ولا يبادر مناهزه) قال وكان متولى قلعة حلب شاذبخت الخادم النورى وكان شمس الدين على أخو مجد الدين بن الداية اليه أمور الجيش والديوان والى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية وكان بيده وبيد اخوته جميع المعاقل التى حول حلب فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد الى القلعة وكان مقعدا واضطرب البلد ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود اليهم وترددت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب اهل السنة مع بنى الدايه والشيعة مع ابن الخشاب وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا الى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب واتصلت هذه الاخبار بمن فى دمشق وأخذوا الملك الصالح وساروا الى حلب فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن وسابق الدين عثمان بن الداية وقد وكلت الجماعة به وهو لايعلم وساروا الى حلب وخرج الناس الى لقائهم وكان حسن قد رتب فى تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصيح ويصلبهم فلما خرج الى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه فتقدم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفا وقبض سابق الدين أخوه فى الحال وتخطفت أصحابهم جميعهم واحتيط عليهم وساروا مجدين حتى سبقوا الخبر الى القلعة وصعدوا اليها وقبضوا على شمس الدين

على ابن الداية من فراشه وحمل الى بين يدى الملك الصالح فاستقبله أحدهما اليك نور الدين المعروف بالجفنية فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه فانشقت جبهته ثم صفدوا جميعا وحبسوا فى جب القلعة وقبضوا على جميع الاجناد الذين حلفوا لاولاد الداية وأخرجوا جميعا من القلعه قلت وفى آخر هذه السنة توفى مرى الفرنجى الملك الذى كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الديار المصرية وفى كتاب فاضلى (ورد كتاب من الداروم يذكر انه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة هلك مرى ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على نار تلظى لا يصلاها الا الاشقى)

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة) قال ابن أبى طى ففى أولها ضمن القطب ابن العجمى أبو صالح وابن أمين الدولة لجرديك ان قتل ابن الخشاب ردّوا عليه جميع مانهب له فى دار ابن أمين الدولة فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أمانا لابن الخشاب ونودى عليه فحضر وركب الى القلعة فقتل وعلق رأسه على أحد ابراج القلعة وبقى الملك الصالح فى قلعة حلب ومضى العماد الكاتب الى الموصل قال وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة الى حدّ الفرات ومضى اليه ابن العجمى للاصلاح فأصلح بين ابن العجمى وعلق رهن أخوة مجد الدين فى الاعتقال وضيقوا عليهم فى القيود والاغلال وألزموهم بتسليم الحصون وتقديم الرهون الى أن غصبوا دورهم وخربوا معمورهم قال وكان الموفق خالد ابن القيسرانى قد وصل ونحن بدمشق من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم فأما صلاح الدين فانه اعتقد ان ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين فلما جرى ماجرى ساءه ذلك وقال أنا أحق برعى العهود والسعى المحمود فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه وضاقت المناهج المتسعه وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر فى بلاد الاسلام وكتب الى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترءوا على اعضاد الدولة وأركانها بل أهلها واخوانها وانه يلزمه أمرهم وأمرها ويضره ضرهم وضرها فكتب ابن المقدّم اليه يردعه عن هذه العزيمه ويقبح له استحسان هذه الشيمه ويقول له (لا يقال عنك انك طمعت فى بيت من غرسك ورباك وأسسك وأصفى مشربك وأضفى ملبسك وأجلى سكونك لملك مصر وفى دسته أجلسك فما يليق بحالك ومحاسن اخلاقك وخلالك غير فضلك وافضالك) فكتب اليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلى (انا لا نؤثر للاسلام وأهله الاماجمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الاتابكى أعلاه الله الاما حفظ أصله وفرعه ودفع ضره وجلب نفعه فالوفاء انما يكون بعد الوفاه والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع العداه وبالجملة انا فى واد والظانون بنا ظن السوء فى واد ولنا من الصلاح مراد ولمن يبعدنا عنه مراد ولا يقال لمن طلب الصلاح انك قادح ولمن ألقى السلاح انك جارح)

(فصل) قال العماد ثم عزم السلطان على أن يسارع الى تلافى الامر فاعترضه امران أحدهما وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية وادراكه والثانى نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه أما وصول الاسطول فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين ثم ذكر كتابا وصل من صلاح الدين الى بعض الامراء بالشام يشرح الحال وحاصله ان أول الاسطول وصل وقت الظهر ولم يزل متواصلا متكاملا الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر فأمر ذلك الاسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربيه وهدّد به فى الجزائر الروميه صاحب قسطنطينيه فشوهد فى الثغر من وفور عدّته وكثرة عدّته وعظيم الهمة به وفرط الاستكثار منه ماملأ البحر واشتدّ به الامر فحمى أهل الثغر عليهم البر ثم اشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الاسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل وكانت عدّة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وكان معهم مائتا شينى فى كل شينى مائة وخمسون راجلا وكانت عدّة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكانت عدّة المراكب الحمالة برسم الازواد والرجال أربعين مركبا وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وابراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتمم خمسين ألف رجل ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل

الثغر فى وقت الجملة ما يناهز سبعة أنفس واستشهد محمود بن البصار و بسهم جرح وحذفت مراكب الفرنج داخلة الى المينا وكان به مراكب مقاتله ومراكب مسافره فسبقهم أصحابنا اليها فخسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها واتصل القتال الى المساء فضربوا خيامهم بالبر وكان عدتهم ثلثمائة خيمة فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها وأما الدبابات فانها تشبه الابراج فى جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتلتها واتساعها وزحفوا بها الى ان قاربت السور ولجوا فى القتال عامة النهار المذكور وورد الخبر الى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر فاستنهضنا العساكر الى الثغرين اسكندرية ودمياط احترازا عليها واحتياطا فى أمرها وخوفا من مخالفة العدو اليها واستمر القتال وقدمت الدبابات وضربت المجنيقات وزاحمت السور الى ان صارت منه بمقدار اماج البحر واهاج الدور فاتفق اصحابنا على ان يفتحوا ابوابا قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور ثم فتحوا الابواب وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات فاحرقوا الدبابات المنصوبه وصدقوا عندها من القتال وأنزل الله على المسلمين النصر وعلى الكفار الخذلان والقهر واتصل القتال الى العصر من يوم الاربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم وقصرت عزائمهم وفترحربهم وأحرقت آلات قتالهم واستحر القتل والجراح فى رجالهم ودخل المسلمون الى الثغر لاجل قضاء فريضة الصلاه وأخلدوا به قيام الحياه وهم على نية المباكره والعدو على نية الهرب والمبادره ثم كر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام فهاجوهم فى الخيام فتسلموها بما فيها وفتكوا فى الرجالة أعظم فتك وتسلموا الخيالة ولم يسلم منهم الا من نزع لبسه ورمى فى البحر نفسه وتقحم أصحابنا فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربه وجاءتها أحكام الله الغالبه وبقى العدو بين قتل وغرق وأسر وفرق واحتمى ثلثمائة فارس منهم فى رأس تل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا وأخذ من المتاع والآلات والاسلحة مالا يملك مثله واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس وذكر ابن شداد ان نزول هذا العدو كان فى شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفا فى ستمائة قطعة مابين شينى وطراده وبسطه وغير ذلك

﴿فصل﴾ وأما نوبة الكنز فقال ابن شداد الكنز انسان مقدم من المصريين كان قد انتزح الى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم انه يملك البلاد ويعيد الدولة مصريه وكان فى قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان وقصد قوص وأعمالها فانتهى خبره الى صلاح الدين فجرد له عسكرا عظيما شاكين فى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شافتهم وأخمد نائرتهم وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك قال العماد وفى أول سنة سبعين مستهلها اقام المعروف بالكنز فى الصعيد وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد وعاد وعا القريب والبعيد وكان عنده من الامراء أخ لحسام الدين ابى الهيجاء السمين ففتك به وبمن هنالك من المنقطعين فغارت حمية أخيه وثارت للثار وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك بن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاؤا الى مدينة طود فاحتمت عليهم وامتنعت فأسرعت البلية اليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه وسوءه وسودانه فسفك دمه وظهر بعد ظهور وجوده عدمه وارتقب دماء سوده وهجم غابه على اسوده ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز وارتدع المارقون فبارقوا بعده سلم نفاق والله لناصرى دينه ناصر وواق وقال ابن أبى طى واتفق أيضا ان خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذى وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وكان السلطان قد استنابه بمصر فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله وفض جموعه وقتله ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله

﴿فصل﴾ فى توجه صلاح الدين الى دمشق ودخوله اليها فى يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول قال العماد لما خلا

بالله مما تقدّم ذكره تجهز لقصد الشام فخرج الى البركة مستهل صفر واقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بلبيس ثالث عشر ربيع الاوّل وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جادلى وشمس الدين بن المقدّم عنده تستورى فى الحث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار على صدر واثلة ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى فاستقبله صاحب بصرى وشدّ ازره وسدّد أمره واستضاف الى بصرى صرخد وتفرد بالسبق الى الخدمة وتوحد وسار فى الخدمة معه الى الكسوة وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر وسار فى موكب قوى بالعدد والعدد وحسب ان يمتنع عليه البلد وان الاطراف توثق والابواب تغلق فاقبل وهو يسوق واقباله يشوق حتى دخل دمشق وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها ودخل الى دار العقيقى مسكن أبيه وبقى جمال الدين ريحان الخادم فى القلعة على تأبيه فراسله حتى استماله وأغزرله نواله وتملك المدينة والقلعه ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين وملك ابن المقدّم داره وكل ما حواليها وبذل له طلبته التى أشار اليها ونص عليها وأظهر انه قد جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله من المصالح وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتمع به أعيانها وخلص لولاية اسرارها واعلانها وأصبح وهو سلطانها وزاره القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى فوفاه حقه من الاحترام واوفرله حظ التبجيل والاعظام ونفذت الكتب بالامثلة الفاضلية الى مصر بهذا الفتح والنصر وفى بعضها (يوم وصولنا الى بصرى وقبله وفدت وهاجرت وتزاحمت وتكاثرت وتوافت الامراء والاجناد الاتراك والاكراد والعربان وراجل الاعمال وأعيان الرجال وورد كتاب من دمشق بعد كتاب وكل مخبر وذاكر وهو غائب بكتابه حاضر يذكر ان البلاد ممكنة القياد مذعنة الى المراد وأما الفرنج خذلهم الله فانا فى هذه السفرة المباركة نزلنا فى بلادهم نزول المتحكم واقنا بها اقامة الحاضر المتخيم وعيونهم متناومة وجزنا وأنوفهم راغمة ووطئنا ورقابهم صعر ومررنا وعيشهم مر والله يزيدهم ذلا ويجعل عداوة الاسلام فى صدورهم غلا وفى أعناقهم غلا) وفى كتاب آخر (وكان رحيلنا من بصرى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاوّل وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائما بشروط الخدمة ولوازمها ثم لقينا الاجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته والامير سعد الدين ابن أنر فى يوم السبت السابع والعشرين ونزلنا يوم الاحد بجسر الخشب والاجناد الدمشقية الينا متوافيه والوجوه على أبوابنا متراميه ولم يتأخر الا من أبقى وجهه وراقب صاحبه ومن اعتقد بالقعود انه قد نظر لنفسه فى العاقبه ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قريرة عيوننا مستقرا سكون الرعية وسكوننا واذعنا فى ارجاء البلد النداء باطابة النفوس وازالة المكوس وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت واليد المتعدّية قد امتدّت الى أحوالهم وأجحفت فشرعنا فى امتثال أمر الشرع برفعها واعفاء الامة منها بوضعها قال ابن الاثير لما خاف من بدمشق من الامراء ان يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بنى الداية راسلوا سيف الدين غازى ليسلموها اليه فلم يجبهم فحملهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين ابن المقدّم ومن أشبه أباه فما ظلم فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار الى الشام فلما وصل دمشق سلمها اليه من بها من الامراء ودخلها واستقر بها ولم يقطع خطبة الملك الصالح وانما أظهر انى انما جئت لاخدمه واسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه وجرت أمور آخرها انه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده وقال القاضى ابن شداد لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلا لا ينهض باعباء الملك ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام تجهز بجمع كثير من العساكر وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض وقبض البعض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك وسببا لتنفير قلوب الناس عن الصبى فاقتضى الحال ان كاتب ابن المقدّم صلاح الدين فوصل الى البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره وتربيته حاله فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر وكان أوّل دخوله الى دار أبيه واجتمع

الناس اليه وفرحوا به وانفق فى ذلك اليوم فى الناس مالا طائلا واظهر الفرح والسرور بالدمشقيين واظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه فى ملكها فلم يلبث ان سار فى طلب حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها فى جمادى الاولى ولم يشتغل بقلعتها وسار حتى أتى حلب ونازلها سلخ جمادى المذكور وهى الدفعة الاولى وقال ابن أبى طى بلغ السلطان ان ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح وهو كان السبب فى خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه وقيل انّ ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه الى الخروج وقيل انما خرج الى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض وبجواب ممض ورد من ابن المقدّم ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان الى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه وتذلل له ووعده تسليم دمشق اليه قال ولما حصل على دمشق وقلعتها واستوطن بقعتها نشر علم العدل والاحسان وعفى آثار الظلم والعدوان وابطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات قلت وكان قد كتب اليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها

تهنّ يا أطول الملوك يدا ❊ فى بسط عدل وسطوة وندى
أجرا وذكرا من ذلك الشكر فى الـ ❊ ـدنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذى صنعت فقد ❊ قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنيت من ❊ أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـ ❊ ـملوك فى عقر دارهم أحدا
فسر الى الشام فالملائكة الـ ❊ ـأبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير اليك يأمل أن ❊ تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة الـ ❊ ـنصر كما فى كتابه وعدا
فاحباك الورى والهمك الـ ❊ ـعدل وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الاسدى صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ❊ فكن لاضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ❊ أدنى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق ثغر الانظير له ❊ جنّبتها عامرا منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها ❊ وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ❊ أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذى نصر الاسلام فاتضحت ❊ سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت ❊ جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد ❊ فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى فى مكارمه ❊ زهدا ويستصغر الدنيا اذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد ❊ أصارهم مثلا فى الارض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست ❊ آثاره وعفت آياته حقبا

❊(فصل)❊ فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب قال ابن أبى طى لما اتصل بمن فى حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس اليه وانعكافهم عليه خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعد وافيها وأبرقوا وقالوا والله هذه السيوف التى ملكتك مصر بايدينا والرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا والرجال التى ردّت عنك تلك العساكر هى تردّك وعما تصدّيت له تصدّك وأنت فقد تعدّيت طورك وتجاوزت حدّك وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه فى ولده قال ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه ثم أحضره بعد ثالثة لسماع

الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطله وقعقع بتلك التمويهات العاطله لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا وترك جوابه احسانا وتجافيا وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له ياهذا اعلم انني وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحياطة الجمهور وسدّ الثغور وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين فقال له ابن حسان انك انما وردت لاخذ الملك لنفسك ونحن لانطاوعك على ذلك ودون ما تروم خرط القتاد وفت الاكباد وإيتام الاولاد فـإ يلتفت السلطان لمقاله وتزايد في احتماله وأوحى الى رجاله باقامته من بين يديه بعدان كاد يسطو عليه ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الاسفل ورحل متوجها الى حمص فتسلم البلد وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حماه فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوما وليله وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب فأجابه السلطان الى مراده وسار الى حلب وبقي أخو جرديك بقلعة حماه قال وسار جرديك الى حلب وهو ظان انه قد فعل شيئا وحصل عند من بحلب بدا فاجتمع بالامراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر فاتهمه الامراء بالمخامرة وردّوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح وج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فقبض وثقل بالحديد وأخذ بالعذاب الشديد وحمل الى الجب الذي فيه أولاد الدايه قال ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي الى الجب وأحس به أولاد الداية قام اليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم وسبه الأم سب وحلف بالله ان أنزل اليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته فاعلم سعد الدين كمشتكين فحضر الى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده فسكن حسن وامسك وانزل جرديك الجب فكان عند أولاد الدايه واسمعه حسن كل مكروه قال وكتب أبي الى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها

بنوا فلانة اعوان الضلالة قد ❊ قضى بذلهم الافلاك والقدر
واصبحوا بعد عز الملك في صفد ❊ وقعر مظلمة يغشى لها البصر
وجرد الدهر في جرديك عزمته ❊ والدهر لاملجأ منه ولا وزر

قال ولم يزل السلطان مقيما على الرستن ثم طال عليه الامر فسار الى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك واخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر فرحل السلطان من ساعته عائدا الى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وصعد السلطان الى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولاها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهل جمادى الآخر وسار السلطان الى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر وامتدّت عساكره الى الخناقية والى السعدى وكان من بحلب يظنون ان السلطان لايقدّم عليهم فلم يرعهم الا وعساكره قد نازلت حلب وخيمه تضرب على جبل جوشن واعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق فأرادوا تطييب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه انهم الوزر والملجأ فأمر أن ينادى باجتماع الناس الى ميدان باب العراق فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم ياأهل حلب أنا ربيبكم وتربيكم واللاجي اليكم كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم عندي بمنزلة الاخ وصغيركم عندي يحل محل الولد قال وخنقته العبره وسبقته الدمعه وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحده ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك واقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح انه يعيد اليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمه وأن يجهر بحي على خير العمل والاذان والتذكير في الاسواق وقدّام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر وان يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات وان يكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني وان تكون العصبية مرتفعة والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله فأجيبوا الى ذلك قال ابن أبي طيّ

فأذن المؤذنون فى منارة الجامع وغيره بحى على خير العمل وصلى أبى فى الشرقية مسبلا وصلى وجوه الحلبيين خلفه وذكروا فى الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة وصلوا على الاموات خمس تكبيرات وأذن للشريف فى ان يكون عقود الحلبيين من الامامية اليه وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه

﴿فصل﴾ قال ابن أبى طى وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الامطار هائجة الاهوية وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج الى الشام وقصد الملك الصالح ويقول أنا انما أتيت لاستخلاص أولاد الداية واصلاح شأنهم وأرسل السلطان الى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلح فامتنع كمشتكين فاشتدّ حينئذ السلطان فى قتال البلد وكانت ليالى الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضى الا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة فى مخاتلته وارسال المكروه اليه فاجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية فى ارصاد المتالف للسلطان وارسال من يفتك به وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان فجاؤوا الى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر فعرفهم صاحب بوقبيس لانه كان مثاغرا لهم فقال لهم يا ويلكم كيف تجاسرتم على الوصول الى هذا العسكر ومثلى فيه فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه فى موضعه وجاء قوم للدفع عنه فجرّحوا بعضهم وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقون فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة قال ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا القمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب وكان لعنه الله فى أسر نور الدين منذ كسرة حارم وكان قد بذل فى نفسه الاموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفرانى حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير واتفق فى أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم فعظم شأنه وزاد خطره فأرسل الى السلطان فى أمر الحلبيين وأخبره الرسول ان الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحده فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج وها أنا سائر اليهم ثم انهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب اليها فسمع الملعون فنكص راجعا الى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل الى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله قال وفى فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتى

إياب ابن أيوب نحو الشآ ❊ م على كل ما يرتجيه ظهور

بيوسف مصر وأيامه ❊ قرّ العيون وتشفى الصدور

رأت منك حمص لها كافيا ❊ فوا تاك منها القوى العسير

ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى زين الدين بن نجا الواعظ يقول فى وصف قلعة حمص (والشيخ الفقيه قد شاهد مايشهد به من كونها تجافى سحاب وعقابا فى عقاب وهامة لها الغمامة عمامه وانملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال منها قلامه عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص فى العقارب وضربت بحجارة بها الجاره فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الاقارب فلم يكن غير ثالثة من الحد الا وقد أثرت فيها جدريا يضربها ولم تصل السابع الا والبحران منذر بنقبها واتسع الخرق على الراقع وسقط سعدها عن الطالع الى مولدها واليها الطالع وفتحت الابراج فكانت أبوابا وسيرت الجبال بها فكانت سرابا فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ماوراءها وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع اضاءها) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى أخيه العادل (قد اجتمع عندنا الى هذه الغاية مايزاحم سبعة ألف فارس وتكاثفت الجموع الى الحد الذى يخرج عن العد وبعد أن نرتب احوال حمص حرسها الله نتوجه الى حماه والله المعين على ما ننويه من الرشاد وننظفه من طرق الجهاد) وقال العماد لما سمع المدبرون للملك الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم سقط فى أيديهم وراسلوا المواصلة وكاتبوهم وارسلوا الى صلاح الدين

بالاغلاظ والاحفاظ وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان وقال له هذه السيوف التى ملكتك مصر وأشار الى سيفه اليها تردك وعما تصديت له تصدك فحلم عنه السلطان واحتمله وتغافل كرما واغفله وخاطبه بما أبى أن يقبله وذكرانه وصل لترتيب الامور وتهذيب الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين واستنقاذ اخوة مجد الدين فقال له أنت تريد الملك لنفسك ونحن لا ننزع فى قوسك ولا نأنس بأنسك ولا نرتاع لجرسك ولا نبنى على اسك فارجع حيث جئت اواجهد واصنع ماشئت ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال وابلى البال وابدى له التبسم واخفى الاحتمال ثم انه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الاولى وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها ورحل الى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر فلما اشتد على الحلبيين الحصار واعوزهم الانتصار استغاثوا بالاسماعيلية وغنوا لهم ضياعا وبذلوا لهم من البذول أنواعا فجاء منهم فى يوم باردشات من فتاكهم كل عات فعرفهم الامير ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقبيس وكان مثاغر اللاسماعيلية فقال لهم لاى شئ جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم فقتلوه وجاء من يدفع عنه فأثخنوه وعدا أحدهم ليهجم على السلطان فى مقامه وقد شهر سكين انتقامه وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت حتى وصل اليه فشمل بالسيف رأسه وما قتل الباقون حتى قتلوا عده ولاقى من لاقاهم شده وعصم الله حشاشته فى تلك النوبة من سكاكين الحشيشيه فأقام الى مستهل رجب ثم رحل الى حمص بسبب ان الحلبيين كاتبوا قمص طرابلس وقد كان فى أسر نور الدين مذ كسرة حارم وبقى فى الاسر أكثر من عشر سنين ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير فتوجه فى الافرنجية الى حمص فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه خوفا مما يقع فيه ويتم عليه ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى العادل (قد أعلمنا المجلس أن العدو خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم واستصلوا على الاسلام بعدوانهم وانه خرج الى بلد حمص فوردناحماه وأخذنا فى ترتيب الاطلاب لطلبه ولقاه فسار الى حصن الاكراد متعلقا بحبله متحصنا بحيله وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب وظفروان كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب فان العدو قد سقطت حشمته وانحطت فيه همته وولى ظهرا كان صدره يصونه ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه)

وقال العماد فى الخريدة لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن اسعد بقصيدة أولها

مانام بعد البين يستحلى الكرى ❊ الا ليطرقه الخيال اذا سرى
كلف بقربكم فلما عاقه ❊ بعد المدى سلك الطريق الاخصرا
ومودع أمر التفرق دمعه ❊ ونهته رقبة كاشح فتحيرا
تردى الكتائب كتبه فاذا غدت ❊ لم يدر أنفذ اسطرا أم عسكرا
لم يحسن الاتراب فوق سطورها ❊ الا لان الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضى الفاضل لصلاح الدين هذا الذى يقول (والشعر مازال عند الترك متروكا)
فجعل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه فشرفه وجمع له بين الخلعة والضيعة وعنى الفاضل ما قاله فى قصيدة فى مدح الصالح بن رزيك التى أولها (أما كفاك تلافى فى تلافيكا)
يقول فيها

ياكعبة الجود ان الفقر اقعدنى ❊ ورقة الحال عن مفروض حجيكا
من ارتجى ياكريم الدهر ينعشنى ❊ جدواه ان خاب سعيى فى رجائيكا
أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم ❊ والشعر مازال عند الترك متروكا
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم ❊ واضيعتا ان تخطتنى أياديكا
لا تتركنى وما أملت فى سفرى ❊ سواك اقفل نحو الاهل صعلوكا

قلت وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا فى اخبار سنة ثمان وخمسين وسيأتى من شعره أيضا فى أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل الى مدح ابن رزيك فى قوله من قصيدة أولها

اذا

اذا لاح برق من جنابك لامع * أضاء لواش ماتجن الاضالع

يقول فيها

تمادى بنا فى جاهلية محلها * وقد قام بالمعروف فى الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتد بعدما * بدا طالع العا شمس السخاء طالع

(فصل) ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبى المضا الى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضى الفاضل كتابا طويلا رائقا فائقا يشتمل على تعداد ما للسلطان من الايادى من جهاد الافرنج فى حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب وأقامه الخطبة العباسية بها يقول فى أوّله للرسول (فاذا قضى التسليم حق اللقاء واستدعى الاخلاص جهد الدعاء فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثا يفترى وجوارى أمور ان قال فيها كثيرا فاكثر منه ما قد جرى وليشرح صدرا منها لعله يشرح مناصدرا وليوضح الاحوال المستسرة فان الله لا يعبد سرا

ومن الغرائب ان تسير غرائب * فى الارض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى * والماء فوق ظهورها محمول

فانا كنا نقتبس النار باكفنا وغيرنا يستنير ونستنبط الماء بايدينا وسوانا يستمير ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ولابدان تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى ترد به الغصوب وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الالسن كما أخذنا بحظ القلوب وما كان العائق الا انا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهى ابتداءنا بالخدمه وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق كان أوّل أمرنا انا كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بانفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا نحن ووالدنا وعمنا فاى مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدوّ كسر او مصاف للاسلام معه ضرب فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد عدوّنا انا نصطلى الجمره ونملك الكره ونتقدّم الجماعه ونرتب المقاتله وندبر التعبيه الى ان ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الاحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير وان النظام بها قد فسد والاسلام بها قد ضعف عن اقامة كل من قام وقعد والفرنج قد احتاج من يدبرها الى ان يقاطعهم باموال كثيره لها مقادير خطيره وان كلمه السنة بها وان كانت مجموعه فانها مقموعه وأحكام الشريعة وان كانت مسماه فانها متحاماه وتلك البدع بها على ما يعلم وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم فتعالى الله عن شبه العباد وويل لمن غرّه تقلب الذين كفروا فى البلاد فسمت هممنا دون همم أهل الارض الى ان نستفتح مقفلها ونسترجع للاسلام شاردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا اليها فى عساكر ضخمه وجموع جمه وبأموال انتهكت الموجود وبلغت منا المجهود أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا وثمن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا فعرضت عوارض منعت وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ولكل أجل كتاب ولكل أمل باب وكان فى تقدير الله انا نملكها على الوجه الاحسن ونأخذها بالحكم الاقوى الامكن فغدر الفرنج بالمصريين غدرة فى هدنة عظم خطبها وخبطها وعلم ان استئصال كلمة الاسلام محطها فكاتبنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان كما كاتبنا المسلمون من الشام فى هذا الاوان بانا ان لم ندرك الامر والا خرج عن اليدوان لم ندفع غريم اليوم لم نمهل الى الغد فسرنا بالعساكر المجموعة والامراء والاهل المعروفة الى بلاد قد تمهد لنا بها أمر ان وتقرر لنا فى القلوب ودان الاوّل ما علموه من ايثارنا للمذهب الاقوم واحياء الحق الاقدم والآخر ما يرجونه من فك اسارهم واقالة عثارهم ففعل الله ما هو أهله وجاء الخبر الى العدوّ فانقطع حبله وضاقت به سبله وأفرج عن الديار بعد ان كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها واقاليمها قد نفذت فيها أوامره وخفقت عليها صلبانه ونصبت بها أوثانه وايس من ان يسترجع ما كان بايديهم حاصلا وأن يستنقذ ما صار فى ملكهم داخلا ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير واموالهم واسعه وكلمتهم جامعه وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغتام أعجام ان هم الا كالانعام لا يعرفون ربا الا ساكن قصره ولا قبلة الا

ما يتوجهون اليه من ركنه وامتثال أمره وبها عسكر من الارمن باقون على النصرانيه موضوعة عنهم الجزيه كانت لهم شوكة وشكه وحمة وحميه ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف فى الضلال مداخله وتصيب القلوب مخاتله ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الاسل وخدام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النحل ودولة قد كبر عليها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ومهابة تمنع ما يكنه الضمير فكيف بخطوات التدبير هذا الى استباحة للمحارم ظاهره وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره وتحريف للشريعة بالتأويل وعدول الى غير مراد الله بالتنزيل وكفر سمى بغير اسمه وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه فازلنا سحتهم بحت المبارد للشفار وتحيفهم تحيف الليل والنهار بعجائب تدبير لا تحملها المساطير وغرائب تقدير لا تحملها الاساطير ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا اعانة المقادير وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة الى بلبيس ودفعة الى دمياط وفى كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر والحشد الاوفر وخصوصا فى نوبة دمياط فانهم نازلوها بحرا فى ألف مركب مقاتل وحامل وبرا فى مائتى الف فارس وراجل وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها ويصابحونها القتال الذى يصليه الصليب والقراع الذى ينادى به الموت من مكان قريب ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا فى تلك الطوائف من الارمن والسودان والاجناد فأخرجناهم من القاهرة تارة بالاوامر المرهقة لهم وتارة بالامور الفاضحة منهم وطورا بالسيوف المجرده وبالنار المحرقه حتى بقى القصر ومن به من خدم ومن ذرّية قد تفرّقت شيعه وتمزقت بدعه وخفتت دعوته وخفيت ضلالته فهنالك تم لنا اقامة الكلمه والجهر بالخطبه والرفع للواء الاسود الاعظم وعاجل الله الطاغية الاكبر بهلاكه وفنائه وبرأنا من عهدة يمين كان اثم حنثها أيسر من اثم ابقائه لانه عوجل لفرط روعته ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا نظرنا فى الغزوات الى بلاد الكفار فلم تخرج سنة الا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا مركبا وظهرا الى ان أوسعناهم قتلا وأسرا وملكنا رقابهم قهرا وقسرا وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها مذ أخذت من أيديهم ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ومنها قلعة بشغر ايلة كان العدوّ قد بناها فى بحر الهند وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسامه خلقا وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا فكادت القبلة ان يستولى على أصلها ومشاعر الله ان يسكنها غير أهلها ومقام الخليل عليه السلام ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يتطرّقه من لا يدين بما جاء به من الاسلام فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد) ثم قال (وكان باليمن ما علم من امر ابن مهدى الضال الملحد المبدع المتمرد وله آثار فى الاسلام وثار طالبه النبى صلى الله عليه وسلم لانه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس ودان ببدعه ودعا الى قبر أبيه وسماه كعبة وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها واحل الفروج المحرمة وأباحها فانهضنا اليه أخانا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له نفقات واسعه واسلحة رائعه وسار فأخذناه ولله الحمد وأنجز الله فيه القصد والكلمة هنالك بمشيئة الله الى الهند ساميه والى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه ولنا فى الغرب أثر أغرب وفى اعماله اعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهالك دون المطلب وذلك ان بنى عبد المؤمن قد اشتهر ان أمرهم قد أمر وملكهم قد عمر وجيوشهم لا تطاق وأمرهم لا يشاق ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر وسيرنا اليها عسكرا بعد عسكر فرجع بنصر بعد نصر ومن البلاد المشاهير والاقاليم الجماهير برقه قفصه قسطيليه توزر كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه ولا عهد للاسلام باقامتها وينفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الامصار ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكبا كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها والقيت الينا مقاليدها وسيرنا الخلع والمناشير والالويه بما فيها من الاوامر والاقضيه فاما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد فمنهم صاحب قسطنطينيه وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر وصاحب

المملكة التى أكلت على الدهر وشربت وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت جرت لنا معه غزوات بحريه ومناقلات ظاهرة وسريه ولم نخرج من مصر الى ان وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداه ومن مفاضحة الى مناصحه حتى انه انذر بصاحب صقلية واساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخف أمرها ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بان صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا أراد ان يظهر قوته المستقلة فعمر اسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه فله الآن خمس سنين تكثر عدته وتنتخب عدته الى ان وصل منها فى السنة الخالية الى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله وما هو الا اقليم بل أقاليم نقله وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا ان الله خذله ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبه وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه وما منهم الامن هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده وكلهم قد قررت معهم المواصله وانتظمت معهم المسالمه على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية وكنا فى تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برزت ونزل الفرنج على بانياس واشرفوا على احتيازها ورأوها فرصة مدوا ايدى انتهازها استصرخنا صاحبها فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ثم عدنا الى البلاد وتوافت الينا الاخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الاراء وتوزعها وتشتت الامور وتقطعها وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمح اليه طالب والفرنج قد بنوا قلاعا يتخوفون بها الاطراف الاسلاميه ويضايقون بها البلاد الشاميه وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا والمماليك الاعداد الذين خلقوا للاطراف لا للصدور وجعلوا للقيام لا للقعود فى المجلس المحضور قد مدوا الايدى والاعين والسيوف وسارت سيرتهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ويجعلهم لظهره سندا وعلمنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وأمر الكفر ان لم يتجرد العزم فى قلعه والا نبتت عروقه واتسعت على أهل الدين خروقه وكانت الحجة لله قائمه وهم القادرين بالقعود آثمه وانا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافه وانقطاع العماره وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوه واذا جاورناه كانت المصلحة باديه والمنفعة جامعه واليد قادره والبلاد قريبه والغزوة ممكنه والميرة متسعه والخيل مستريحه والعساكر كثيرة الجموع والاوقات مساعده وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتله وأمور مختله وآراء فاسده وأمراء متحاسده واطماع غالبه وعقول غائبه وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فانا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء فى خدمته وهم عاملون بظلمه والمراد الآن هو كل ما يقوى الدوله ويؤكد الدعوه ويجمع الامه ويحفظ الالفه ويضمن الرأفه ويفتح بقية البلاد وان يطبق بالاسم العباسى كل ما تطبقه العهاد وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النوريه وكل ما يفتحه الله للدولة العباسيه بسيوفنا وسيوف عساكرنا ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليدا يضمن للنعمة تخليدا وللدعوة تجديدا مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا واذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده واستنقذنا أسيرا من المسجد الذى أسرى الله اليه بعبده) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى الديوان فى تعداد ماله من الايادى (والذى أجراه الله على يد المملوك من الممالك التى دوخها وسنن الضلال التى نسخها وعقود الالحاد التى فسخها ومنابر الباطل التى رحضها وحجج الزندقة التى دحضها فلله عليه المنة فيه اذ أهله لشرف مشهده وما فعله الا لوجهه ويد الله كانت عون يده والا فقد قضت الليالى والايام على تلك الامور وما تحركت للفلك فى قلعها نابضه وغيرت الاحوال على تلك البدعة وما ثارت لا فراسها رابضه فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده

منها ان يجتهد فى اخرى مثلها فى الكفار وقد عاد الاسلام الى وطنه وصوّحت من الكفر خضراء دمنه) ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه (حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فقضى من الامر ما قضى وأسخط من الله فى سخطه رضا وجعل وجه لابسى السواد مبيضا فأدرك لهم بثار نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الامم وشفى الصدور وجاء بالحق الى من غرّه بالله الغرور واستبضع الى الله تعالى تجارة لن تبور) ومن كتاب آخر (قد بورك للخادم فى الطاعة التى لبس الاولياء شعارها وأمضى فى الاعداء شفارها وجمع عليها الدين وكان أديانا واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا) ومن كتاب آخر (لم يكن سبب خروج المملوك من بيته الا وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله فى ان يتجاذبا طرفى الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكرى بره وبحره ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الامور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور وتحكمت الآراء الفاسده وفورقت المحاج القاصده وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكفار محمولة اليها جزى المسلمين والامراء الذين كانوا للاسلام قواعد وكانت سيوفهم للنصر موارد يشكون ضيق حلقات الاسار وتطرّق الكفار بالبناء فى الحدود الاسلاميه ولا خفاء ان الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا واستنجدوا علينا أنصار النصرانية فى الاقطار وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بتمامه وهددوا طاغية كفرهم باشراط القيامه وانفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صورمن يصوّرونه ممن يسمونهم القديسين وقالوا ان الغفلة ان وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه وان كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ماوراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحريه والاساطيل القويه وللاسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا)

(فصل) قال العماد وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية فى نور الدين فنظمت بعد عودى الى دمشق فى رجب

الدين فى ظلم لغيبة نوره ❋ والدهر فى غمّ لفقد أميره
فليندب الاسلام حامى أهله ❋ والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار فى اخطاره ❋ اذ كان هذا الخطب فى مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ❋ قرّت نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوص الانسان فى نسيانه ❋ أوما كفاه الموت فى تذكيره
من للمساجد والمدارس بانيا ❋ لله طوعا عن خلوص ضميره
من ينصر الاسلام فى غزواته ❋ فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لاسر ملوكها ❋ من للهدى يبغى فكاك أسيره
من للخطوب مذللا لجماحها ❋ من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه ❋ من مشرق فى الداجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عثاره ❋ من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ❋ من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولا أبكارها ❋ برواحه فى غزوه وبكوره
من للعلى وعهودها من للندى ❋ ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نور دين محمد ❋ يخبو وليل الشرك فى ديجوره
اعزز علىّ بليث غاب للهدى ❋ يخلو الشرا من زوره وزئيره
اعزز علىّ بأن أراه مغيبا ❋ عن محفل متشرف بحضوره
لهفى على تلك الانامل انها ❋ مذ غيبت غاض الندى ببحوره
ولقد أتى من كنت تجرى رسمه ❋ فضع العلامة منك فى منشوره

ولقد أتى من كنت تكشف كربه ❋ فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه ❋ وقع له بالامن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه ❋ فأدم له التقريب فى تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه ❋ فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذى أحييت شرع محمد ❋ وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلما ❋ هو منذ غبت معرّض لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق معقل ❋ حتى سكنت اللحد فى محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره ❋ ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقـر بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت فى دار الفناء وأهلها ❋ ورغبت فى الخلد المقيم وحوره
أوما وعدت القدس انك منجز ❋ ميعاده فى فتحه وظهوره
فتى تجير القدس من دنس العدى ❋ وتقدّس الرحمن فى تطهيره
ياحاملين سريره مهلا فمن ❋ عجب نهوضكم بحمل ثبيره
ياعابرين بنعشه انشقتم ❋ من صالح الاعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه ❋ مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامى بعده ❋ هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه ❋ وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا ❋ أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين فى فردوسه ❋ حلف المسرة ظافرا باجوره

قال العماد وجاء نجاب الى الموصل وذكر انه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوه وهو الآن يستكمل من هلاك دمشق الحظوه فهاجنى الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه فقدمت دمشق على طريق البرية والسلطان على حلب وكان العماد فى عقابيل ألم فلما شفى وعاد السلطان الى حمص قصده فيها وقد تسلم قلعتها فى شعبان فى الحادى والعشرين منه قال وكنت نظمت قصيدة فى الشوق الى دمشق والتأسف عليها ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهى طويلة أوّلها

أجيران جيرون مالى مجير ❋ سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر ❋ فلا تمنعوه اذا لم تزوروا
يعز على بأن الفـؤاد ❋ لديكم أسير وعنكم أسير
وما كنت أعلم انى أعيـش بعد الاحبة انى صبور
وفت أدمعى غير ان الكرى ❋ وقلبى وصبرى كل غدور
الى ناس بنياس لى صبوة ❋ لها الوجد داع وذكرى مثير
يزيدا شتيا فى وينمو كما ❋ يزيد يزيد وثورا يثور
ومن برد أبرد قلبى المشوق ❋ فها أنا من حره مستجير
وبالمرج مرجو عيشى الذى ❋ على ذكره العذب عيشى مرير
فقدتكم ففقدت الحياة ❋ ويوم اللقاء يكون النشور
تطاول لسؤلى عند القصير ❋ فعن نيله اليوم باعى قصير
وكن لى بريدا بباب البريد ❋ فأنت بأخبار شوقى خبير

متى تجدّ الرى بالقريتين * خوامص أثرفيها الهجير
ونحو الجليل أزجى المطى * لقد جل هذا المرام الخطير
تراني أنيخ بأدنى ضمير * مطايا براها الوجا والضمور
وعند القطيفة والمشتهاة * قطوف بها للاماني سفور
ومنها بكوري نحو القصير * ومنية عمري ذاك البكور
و ياطيب بشراى من جلق * اذا جاء نى بالنجاح البشير
و يستبشر الاصدقاء الكرام * هنالك بي وتوفى النذور
ترى بالسلامة يوما يكون * بباب السلامة مني عبور
وان جوازى بباب الصغير * لعمرى من العمر حظ كبير
وما جنة الخلد الادمشق * وفى القلب شوق اليها سعير
ميادينها الخضر فيح الرحاب * وسلسالها العذب صاف نمير
وجامعها الرحب والقبة المنيفه والفلك المستدير
وفى قبة النسر لى سادة * بهم للمكارم أفق منير
وباب الفراديس فردوسها * وسكانها أحسن الناس حور
والارزه فالسهم فالنيربان * بجنات مزتها فالكفور
كأن الجواسق مأهولة * بروج تطلع منها البدور
بنسير بها تستبير الهموم * بربوتها يتربى السرور
وماغر في الربوة العاشقين بالحسن الا الربيب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس * أغار على القلب مني مغير
وعند المنيبع عين الحياة * مدى الدهر نابغة ماتغور
بجسر ابن شواش ثم السكون * لنفسي بنفسي تلك الجسور
ومانس لانس انس العبور * على جسر جسرين انى جسور
وكم بت الهو بقرب الحبيب فى بيت لهيا ونام الغيور
فاين اغتباطى بالغوطتين * وتلك الليالى وتلك العصور
وأشجار سطرا بدت كالسطو * رغقهن البليغ البصير
وأين تأملت فلك يدور * وعين تفور وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرق وزهر يروق وروض نضير
الام القساوة ياقاسيون * وبين السنا يتجلى سنير
ومنذ ثوى نورالدين الاله لم يبق للدين والشام نور
وللناس بالملك الناصر الصلاح صلاح ونصر وخير
هو الشمس أفلاكه فى البلاد * ومطلعه سرجه والسرير
اذا ماسطا أو حبي واحتبي * فما الليث ماحاتم ماثبير
بيوسف مصر وأيامه * تقر العيون وتشفى الصدور
ملكت فاسجح فما للبلاد * سواك مجير ومولى نصير
وفى معصم الملك للعز منك سوار ومنك على الدين سور
لك الله فى كل ماتبتغيه بحق ظهير ونعم الظهير
اما المفسدون بمصر عصوك * وهذى ديارهم اليوم قور

اما الادعياء بها اذ نشطت * لابعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج اذا ما القوك * عبوس برغمهم قطرير
نهوضا الى القدس يشفى العليل * بفتح الفتوح وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطوب * فهو على كل شئ قدير
اليك هجرت ملوك الزمان * فمالك والله فيهم نظير
وفخرك فيه القرى والقرآن * جميعا وفخر الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج * وعندهم لا تراق الخمور

(فصل) فى فتح بعلبك قال العماد ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار الى بعلبك فتسلمها فى رابع شهر رمضان قال ابن أبى طى وكان بها خادم يقال له يمن فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب فى أمره وراسل من بحلب على جناح طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعلبك الى السلطان قال العماد وهنأته بابيات منها

بفتوح عصرك يفخر الاسلام * وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبت * هذى الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود دما وثغر الثغر من * فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كأننا * شكرا لما منح الاله صيام
من ذا رأى فى الصوم عيد سعادة * حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يدا * بنوالها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذى * بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها * واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال ولزمت خدمته ارحل برحيله وأنزل بنزوله وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك على بن منقذ وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف والى استحسانه مصروف وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لاقرا بفضلها وان خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على ان الشعراء المحدثين ما منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعرى وابن أبى حصينة والارجانى والصالح ابن رزيك وقد أوردت جميعها فى كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعرى

(لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا)

فنظمت فى السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط * قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم * خيانتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم * محطا فعنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فانكرتم قديم مودتى * كأن لم يكن فى البين معرفة قط
فديت مهجتى من لا يذم لمهجتى * اذا ما كتمته وهو فى الحكم مشتط
وما كنت أدرى قبل سطوة طرفه * بان ضعيفا فاترا مثله يسطو
واهيف للاشفاق من ضعف خصره * يحل نطاقا للقلوب به ربط
يلازم قلبى فى الهوى القبض مثلما * يلازم كف الناصر الملك البسط
مليك حوى الملك العقيم بضبطه * كريم وما للمال فى يده ضبط
اذا لثمت أيدى الملوك فعنده * مدى الدهر اجلالا له تلثم البسط
عنا لك طوعا نيل مصر ودجلة العراق ودان الغرب والعجم والقبط

والنيل شــــط ينتهي سـيبه به ❊ ونيلك للراجين نيـل ولا شـط
عـدوّك مثـل الشمـع فى نار حقده ❊ له عنق اصلاح فاسـده القـط

وهى ثمانيـة وثمانون بيتا ولسعادة الاعمى قصيدة طائية فى السلطان سيأتى ذكرها قال العماد ولما وصلت الى السلطان ورغبت منه فى الاحسان وجدته لامرى مغفلا ولشغلى مهملا ثم عرفت ان حسادى قالوا له متى أعدت ديوان الكتابة الى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد وهذا منصب الاجل الفاضل وهو عنده فى أجل المنازل ربما ضاق صدره وتشعث سره فلما عرفت هـذا المعنى لجأت الى الفضل الفاضلى لانه به يعنى فقام بامرى ونوّه بقدرى وأراح سرى وشدّ أزرى

❊(فصل)❊ فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان فى هذه السنة قال ابن شدّاد ولما احس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم ان الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف انه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه فى الملك وتعدّى الامر اليه فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد فوصل الى حلب والسلطان بحمص وانضم اليه من كان بحلب من العسكر وخرجوا فى جمع عظيم ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد ان يصالحهم فاصالحوه ورأوا ان المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر والمقصود الاوفر والقضاء يجر الى أمور وهم بها لا يشعرون وقام المصاف بين العسكرين فقضى الله تعالى ان انكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومنّ عليهم وأطلقهم وذلك عند قرون حماه فى تاسع عشر شهر رمضان ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهى الدفعة الثانية وصالحوه على ان أخذ المعرة وكفرطاب وبارين قال العماد لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد الى حمص وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل الى حلب نجدة ولما عرفوا ان السلطان مشغول بالحصون جاؤا الى حماه فحصروها وراسلوا فى الصلح فقدم السلطان فى خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمى وغيرهما وأجابهم السلطان الى ما طلبوا وان يردّ عليهم الحصون وان يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصالح وله خاطبا وعلى الانتماء اليه مواظبا وان يردّ كل ما أخذه من الخزانه وان يسلك فيه سبيل الامانه فلما رأوه مجيبا لكل ما يلتمس منه وهو فى عسكر خفيف قالوا ما خبره صحيح فشرعوا فى الاشتطاط فطلبوا الرحبة واعمالها فقال هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن شيركوه وكيف الحق به فى رضا كم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل الى جانب العاصى قريبا من شيزر وجمعوا العسكر وأظهروا انهم على المصاف وعزم الانتصاف فعبر السلطان الى سفح قرون حماه خيامه وركز على مقابلتهم اعلامه ووصـل العسكر المصرى فى عشرة من المقدّمين منهم فرخشاه واخوه تقى الدين والتقوا فهزمهم السلطان ونزل فى منزلتهم قال العماد ومما نظمت فى هذه الوقعة فى مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة فقد كان له فيها عناء وبلاء حسن منها

ولقـد ألفت نفارها وهويتها ❊ اذ ليس ينكر للظباء نفار
ياجارة للقلب جائرة دعى ❊ ظلمى والا قلت جار الجار
قلبى كطرفى ما يفيـق افاقـة ❊ سكران ما دارت عليه عقـار
صب بصب الدمع محترق الحشا ❊ خطرت ببال بلائه الاخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حمى ❊ ذاك القوام شبيهـه الخطار
يذرى الدموع كانهن عوارف ❊ لابن الملك شـيركوه غـزار
من آل شاذى الشائدين بنا العلى ❊ اركانهـن لهادم وشـفار
حسنت بهـم للدولة الايام والـ ❊ ـاعمال والاحوال والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذى ❊ فى مصر تغبط عصره الاعصار
نصر الهدى فتوطد الاسلام فى ❊ أيامـه وتضعضع الكفـار
لما لقيت جموعهـم منظـومة ❊ صيرت ذاك النظم وهو نثار
فى حالتى جود وبأس لم يزل ❊ للتبر والاعـداء منـك تبار

تهب

تهب الالوف ولاتهاب ألوفهم ❊ هبان العدوّ عليك والدينار
لما جرى العاصى هنالك طائعا ❊ بدمائهم جرت به الانهار
وتحطمت عند القرون قرونهم ❊ بل كلت الانياب والاظفار
عبروا المعرة مالكين معرة ❊ والعار يملك تارة ويعار
أوما كفاهم يوم حمص وكفهم ❊ فى بعلبك بمثلها الانذار

قال وهنأت الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها

لاتفن من فرق الفراق الادمعا ❊ فهى الشهود على الغرام المدّعى
واستبق صبرك ما استطعت فانه ❊ عون لقلبك ان هما ثبتا معا
قلب أصابته العيون ولم يزل ❊ من مسها بالهاجسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم ❊ عنى ولما ودّعونى ودّعا
ومن التحير اننى أبصرته ❊ فى ظعنهم وسألت عنه الاضلعا
أصحبت اذ شيعتهم لثلاثة ❊ صبرى وغمضى والفؤاد مشيعا
أوما اتقيتم حين رعتم سربه ❊ فيسه تقى الدين ذاك الاروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر ❊ أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذل بعد تعزز ❊ لكم وحق عدوّكم ان يخضعا
من معشر غر يرون جميع مالم ❊ يبذلوه فى السماح مضيعا
فى مصر واليمن اجتلينا منهم ❊ فى عصرنا تبعا اليوسف تبعا
الحاويان بملك مصر ومكة ❊ والشام واليمن الخطايا الاربعا
لما عصى الاعداء بالعاصى جرى ❊ بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبى طى لما تسلم السلطان بعلبك وأزاح عللها عاد الى حمص ونزل بها فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخى سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح وكان سبب وروده ان جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين والزموه نجدة ابن عمه وأخبروه ان السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد الا الموصل وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشما خطيب حلب وقطب الدين ينال بن حسان وغرس الدين قليج وكان سيف الدين منازلا لسنجار وفيها أخوه عماد الدين بن زنكى وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء الى السلطان فانجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره فلما وصلت رسالة الحلبيين الى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ بجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها الى بعلبك فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعا حتى خيموا على حماه وأخذوا فى حصارها واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك الى حمص وبلغ عز الدين فعاد عن حماه ونزل قريبا من جباب التركمان الى جهة العاصى الى قريب من شيزر وراسل النائب بحماه على بن أبى الفوارس يقول له انما وصلت فى اصلاح الحال ووضع أوزار القتال وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمه ويلم شعب الفرقه فكتب ابن أبى الفوارس بذلك الى السلطان وحسن له الصلح وتلطف فى ذلك غاية التلطف وقدم أبو صالح ابن العجمى وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح فاجابهما السلطان الى ما أرادوا وتقرر الامر على انه يردّ اليهم جميع الحصون والبلاد ويقنع بدمشق وحدها ويكون نائبا للملك الصالح فلما عاين سعد الدين أجابة السلطان الى الصلح والنزول عن جميع الحصون التى أخذها حمص وحماه وبعلبك طمع فى جانب السلطان وتجاوز الحدّ فى الاقتراح وطلب الرحبة واعمالها فقال هى لابن عمى ولا سبيل الى أخذها فقام سعد الدين من بين يديه نافرا وكان ذلك برأى أبى صالح ابن العجمى لانه كان معه فاجتهد السلطان به ان يرجع فلم يفعل وخرج الى عز الدين مسعود وكان بعد نازلا على حماه وحدّثه ما دار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلة من معه وكان السلطان لما كوتب فى أمر الصلح سار فى خف من أصحابه

فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه وعوّلوا على لقائه واتنهاز الفرصة في أمره فكاتب باقي أصحابه واستعدّ لحربهم وسار الى ان نزل على قرون حماه وأخذ في مدافعة الايام حتى يقدم عليه باقي عسكره وراسلهم في التلطف للاحوال فلم ينجع فيهم حال وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها تسويفا للاوقات وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض قال وفي يوم الاحد تاسع عشر رمضان التقوا ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحدا وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الاوقات رجاء ان يتصل بهم بعض العسكر وضرى عسكر حلب والعسكر الموصلي على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم وكاد أصحاب السلطان يولون الادبار فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة اليه لتمام السعادة للسلطان فانه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الامراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس في الكر والضرب الهبر حملوا جميعا بعد ان افترقوا في الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم وكان السلطان في هذه المدّة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم اليه وحمل اليهم الاموال وهذا هو الذي ابطأ بهم الى ان وصلت عساكره والا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة فلما اشتدّ القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرب منهم ثم انهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم وأمر السلطان أصحابه ان لا يوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يدففوا على جريح ورحل حتى نزل في منزلتهم ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قراحصار ولم يزل هنالك حتى عيد عيد الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماه فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرّة وكفرطاب فرضي بذلك وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه قال وكان في جملة اليمين انه متى قصد الملك الصالح عدوّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه وان لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه وان تكون السكة باسمه ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه عاد السلطان قاصدا دمشق فلما وصل الى حماه وصلت اليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي

يا أيها الملك العزيز بفضله ❋ لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا ❋ انك أصبحت له وليا
طارحك الودّ على شحط النوى ❋ فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة ❋ لم يولها قبلك أدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة ❋ حتى حكته رونقا وريا

قال ورحل السلطان من حماه الى بعرين وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان خرج الى السلطان لما وصل الى الشام وتطارح عليه وخدمه وظنّ ان السلطان يقدّمه على عساكره فلم يلتفت اليه فترك السلطان وعاد الى حصن بعرين فاغضب السلطان ذلك وسار اليه وحاصره حتى تسلم حصنه وقال العماد نزل السلطان قراحصار بنية الحصار فجاءت رسلهم بالانقياد وأجابوا الى المراد وقالوا اقنعوا بما أخذتموه الى حماه ولا تسموا بنا العداه فاستزدنا عليهم كفرطاب والمعرّه واستوفينا عليهم الأيمان المستقرّه وسألهم في المعتقلين اخوة مجد الدين فأجابوا وأفرجوا عنهم وتم الصلح وعم النجح ورحلنا ظاهرين ظافرين ونزلنا حماه يوم الاثنين ثاني عشر شوّال وبها وصلت اليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات والتقليد بما أراد من الولايات وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين رحمه الله ثم تسلم السلطان حصن بعرين وكان بيد الامير فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وهو من أكابر أمراء نور الدين وذلك في أواخر شوّال واقطع مدينة حماه لابن خاله وصهره الامير شهاب الدين محمود وانعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين قال العماد واذكر انا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس وادلهم النهار وغلب على القلوب الاستشعار

وطاحت الانوار وخفيت الرسوم وظهرت النجوم وجئنا حمص ثم بعلبك ثم البقاع ووصلنا دمشق فى ذى القعده

﴿فصل﴾ قال العماد قد سبق ذكر ما قرره حسادى فى خاطر السلطان وقالوا شغله المكاتبة وهى منصب الاجل الفاضل وهو يستنيب فيه من رآه من الافاضل وهذا تصرفه برفد جزيل ووجه جميل والسلطان مع شدة رغبته متوقف والى ظهور وجه النجاح فى أمرى متشوف وكنت قد أنست مدة مقامى بالعسكر بذى المجد والمفخر ومورد الكرم والمصدر الامير نجم الدين بن مصال وهو ذو فضل وافضال وقبول واقبال وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره اجلال وقد مال الى فضله ونباهته ونبله وكان أبوه قد وزر للحافظ فى آخر عهده منفردا بسودده ومجده وكان من أهل السنة والجماعه والتقى والورع والعفاف والطاعه وله يد عند السلطان فى النوب التى قصدوا فيها مصر وأجزل عنده الاحسان والبر لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصورا وكان احسانه مشكورا واعتناؤه لحفظه مشهورا فلما ملك أحبه واختار قربه فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بينى وبين الاجل الفاضل واتخذته من انجح الوسائل ووقفت خاطرى على تقاضيه نظما ونثرا ورسالة وشعرا فمن ذلك ما كتبته اليه

لعل نجم الدين ذا الفضل ❊ يذكر الفاضل فى شغلى
ان أجل الناس قدرا فتى ❊ بفضله يتعب من أجلى
ومثله من يعتنى بالعلى ❊ ويستديم الحمد من مثلى

قال وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص فى شعبان منها

عاينت طود سكينة ورأيت شمس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا ❊ ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قسا فى الفصاحة معجزا ❊ فعرفت انى فى فهاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما ❊ حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه ❊ طامى العباب وماله من ساحل
وجميع ما فى الارض سبعة أبحر ❊ وبحوره تسمى بعشر أنامل
فى كفه قلم يعجل جريه ❊ ما كان من أجل ورزق آجل
يجرى ولا جرى الحسام اذا جرى ❊ حداه بل جرى القضاء النازل
نابت كتابته مناب كتيبة ❊ كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوه فى عدوه ووليه ❊ فى عدله اكرم بعاد عادل
ريان من ماء التقى صادالى ❊ كسب المحامد وهى خير مناهل
ياواحد العصر الذى بذ الورى ❊ فضلا بغير مشابه ومشاكل
مالى وجاه الجاهلين فاغننى ❊ عنهم كفيتهم وجدبا لجاه لى
أرجوك معتنيا لدى السلطان بى ❊ كرما فمثلك يعتنى بأماثلى
قررلى الشغل المجل مخليا ❊ بالى من الهم المقيم الشاغل

قال فدخل الفاضل الى السلطان وعرفه انه فى راغب وقال انا لايمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفرة وغد يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغنى فى الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم والعماد يفى بذلك ولك اختاره وقد عرف فى الدولة النورية مقداره وأخذلى خط السلطان بما قرره لى من شغلى وقد عرف ان الأجل الفاضل قد أجل فضلى قال وخدمت أمير المؤمنين المستضىء بالله فى ذى القعدة مع الرسل بهذه القصيدة

أصح عقود الغانيات مريضها ❊ وافتك الحاظ الحسان غضيضها
ومن عجب صلت لقبلة بأسهم ❊ رؤس أعاد من ظباهم محيضها

قال ابن ابى طى وظهر فى مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادعى النبوة وكان من أهل المغرب وأظهر من التخاييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق ثم هرب من

مشغرا في الليل وصار الى بلد حلب وعاد الى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة قال وفيها توفى شهاب الدين الياس الارتقى صاحب البيرة وأوصى الى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين) قال العماد والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد ان اشترط عليهم أمورا فالتزموها وكان الشام ذلك العام جديا فاذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل الى بلادهم واذا استغلوها خرجوا اليه وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها

سواك لسهم العلى لن يريشا * فنسأل رب العلى ان تعيشا
من الناس بالبرصدت الكرا * م وبالبأس في البرصدت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريـ * ـش فهدّمت للمشركين العروشا
سرايك تبعث قدامها * من الرعب نحو الاعادى جيوشا
ويوم حماة تركت العدا * ة كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال ومدحت مستهل ربيع الاوّل تقى الدين بقصيدة موسومه وكان قد فوّض اليه ولاية دمشق ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أسبق اليهما وهما

يفيد العاقل اليقظ التغابى * ليدرك في الغنى حظ الغبىّ
ولم تصب السهام على اعتدال * بها لولا اعوجاج في القسىّ
فقل للدهر يقصر عن عنادى * أماهو يتقى بأس التقىّ
حلفت برب مكة والمصلى * وثاوى ترب طيبه والغرىّ
لانتم يا بنى أيوب خير الـ * ـورى بعد الامام المستضىّ

قال وفي اوّل هذه السنة وصل الى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين قايماز فاخذوا لانفسهم بالالتجاء الى السلطان والاحتراز وكان قايماز هذا محكما في الدولة الامامية من أوّل الايام المستنجديه وقوى في الايام المستضيئيه على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وسامه أنواع البلاء وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به ثم ان قايماز خالف الخليفة وشق العصى وعنّ له حصار الدار فأمر الخليفة بالقبض عليه فلم ينج لما احيط بداره الا بفتح باب في جداره وانهزم فوصل الى الحله في أوائل ذى القعده سنة سبعين وهو في موسم الحج فجمع رجاله وتوجه الى الموصل وخانه اخوانه وخذله أصحابه فتوفى في بعض قرى الموصل وتفرّق أصحابه في البلاد فمنهم من رجع الى بغداد ومنهم من أتى الشام منهم حسام الدين تمريك وعز الدين اقبورى بن ازغش وكان صهر السلطان قديما وعنده كريما فاقطعه في الديار المصرية وكتب في حقه الى الديوان شفاعة في تخليص ماله واستقامة حاله وكان ذا خزائن مملوّه وخيل مسوّمه فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصفح وكان اقبورى زوج أخت السلطان والسلطان خال بنته وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخى السلطان قلت وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان الى وزير بغداد بالمثال الفاضلى (ومانحسب أنا مع الموالاة المتناصرة المستظهره والمساعى التي كانت لثارات هذه الدولة بالغة غير متقاصره ولمنازعيهم الامر قاصمه ولمجاذبيهم الحق واقمه وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه وكوننا ما اعنا منها بنجدة من رجال ولا بمادة من مال ولا باعانة بحال من الاحوال يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذى قربى لا نستطيع دفعه ولا يقبل اسباب النفع اذا أردنا نفعه فالاجبار عندنا واسعه والاعواض لدينا غير متعذره والولايات التي نفوّضها اليه عن كفايته غير مستغنيه ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكانا ولا آثر غير سلطانه سلطانا وله اعذار لا بأس ان نعيره فيها لسانا وبيانا) ثم ذكر هاثم قال (وهذا الامير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبالسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق الى الطاعه وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة فنحن في أنفسنا نشفع وعن جاهنا ندفع ومن مكاننا نسأل ويحظنا

الذی لا نسمح به للاسلام نبخل وأنت أيها الامير السائر ثالث رسول ندب فی أمر هذا الامير والله ولی التدبير) وقال العماد فی الخريدة كنت جالسا بين يدی الملك الناصر صلاح الدين بدمشق فی دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل فحضر سعادة الاعمی من أهل حمص وكان مملوكا لبعض الدمشقيين مولدا ويكتب علی قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة فی عاشر شعبان سنة احدی وسبعين

حييتك أعطاف القدود ببانها ❋ لما انثنت تيها على كثبانها

ثم ذكر القصيدة وغزلها فی وصف دمشق ثم قال

سلطانها الملك ابن أيوب الذی ❋ كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحا لما ❋ نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح الی الندی براحة ❋ قد اعشب المعروف بين بنانها
وفتی اذا زخرت بحار نواله ❋ غرقت بحار الارض فی خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه ❋ امضی علی الايام من حدثانها
ملك اذا جليت عرائس ملكه ❋ رصعت فريد العدل فی تيجانها
فأسلم صلاح الدين وابق لدولة ❋ ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض الی فتح السواحل نهضة ❋ قادت لك الاعداء بعد حرانها

وهی طويلة قال وقام اليوم الذی يليه وقد جلس السلطان للعدل فأنشده قصيدة منها

هل بعد جلق الا أن تری حلبا ❋ وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعة ❋ وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال وكان سعادة سافر الی مصر فی أول مملكة الملك الناصر فمدحه بقصيدة طائية فأعطاه ألف دينار فيها يصف غارته علی غزه وعوده من ذلك الغزو بالعزه

فتی مذ غزی بالخيل والرجل غزة ❋ نأی عن نواحيها الرضی ودنا السخط
رماها بأسد مالهن مرابض ❋ ولا أجم الا الذی تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحی بكتائب ❋ من الترك لا نوب طغام ولا قبط

وله فی السلطان قصائد اخر قال وقام البهاء السنجاری وأنشد الملك الناصر قصيدة فی دار العدل بدمشق سنة احدی وسبعين فی شعبان منها

يا ظبية الحرمين من مصر علی الـ ❋ ـربع السلام اذا تقوض أو عفا
اصبو الی عصر تقادم عهده ❋ فأزيد من وله عليه تلهفا
أحبابنا بالقصر لو قصرتم الـ ❋ ـهجران ماشمت الحسود ولا اشتفی
اشكو الی الوادی فيحنو انه ❋ من رقة الشكوی علی تعطفا
وجری بی الامل الطموح فأمنی ❋ سلطان أرض الله طرا يوسفا
الناهب الارواح فی طلب العلی ❋ والواهب الآجال فی حسن الوفا

❋(فصل)❋ فيما تجدد للمواصلة والحلبيين قد سبق ذكر الصلح الذی جری بين السلطان والحلبيين فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم الی العجلة فی ذلك وسلوك غير طريق الحزم فحملوهم علی النقض والنكث وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق وتوجه ذلك الرسول منهم الی دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده ويكشف أيضا ما عنده فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة الرأی فغلط واخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها اياه فتأملها واخفی سره وما أبداه واطلع علی ما اتفقوا عليه وردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط ولم يمكنه تلافی ما فرط وقال السلطان كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون أمر الا بمراجعتهم لنا واستئذانهم وعرف من ذلك اليوم ان العهد منقوض والوفاء مرفوض وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج فی الربيع

فكتب السلطان الى أخيه العادل وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان قلت وفى كتاب طويل فاضلى جليل الى بغداد عن السلطان (يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد ان كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين فى البيكارات الى الكفر وعرضنا عليهم الامانة فحملوها والايمان فبذلوها وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما وضيق فى نكثها المجال على من كان حنيفا مسلما وعاد رسوله ليسمع منا اليمين فلما حضر واحضر نسختها أومى بيده ليخرجها فاخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حربنا والتداعى الى حربنا والتساعد على ازالة خطبنا والاستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الاولى فرددنا اليمين الى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الايمان خارجه وأردت عمرا وأراد الله خارجه وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله ان يكون اسمه معرضا للحنث العظيم والنكث الذميم وعلمنا ان الناقد بصير والآخذ قدير والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الاوامر الى الموصلى امابكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه واما ان تكون الفسحة واقعة لنا فى تضييق خناقه) ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال (والملوك بين عدو اسلام يشاركونه فى هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظا وعدو كفر فما يجاورهم الا بلاده ولا يقارعهم الا أجناده ثم طلب خروج الامر بخطاب جميع ملوك الاطراف ان يكونوا للملوك على المشركين اعوانا وان يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ولا يقعدوا عن المعاضدة فى فتح البيت المقدس الذى طابت النفوس عن ثاره وطأطأت الرؤس تحت عاره وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته والعزائم قاصية عن تطهير اقصاه من رجس الشرك ومعرته فان قعدت بهم العزائم وأخذتهم فى الله لومة لائم فلا أقل من ان لا يكونوا أعوانا عليه يلقنونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه) قال ابن شداد لما وقعت الوقعة الاولى مع الحلبيين والمواصلة كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته وكان أخوه قد أظهر الانتماء الى السلطان صلاح الدين واعتصم بذلك واشتد سيف الدين فى حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الاخذ فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف ان يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره ويقوى جاشه فراسله فى الصلح فصالحه ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامى وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم فوصل كمشتكين اليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسعوا به وسار ووصل حلب وخرج الصالح الى لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود الى القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج الى خدمته فى كل يوم وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزا ونزل وسار راحلا الى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار بكر والسلطان رحمه الله قد أنفذ فى طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها وهؤلاء يتأخرون فى أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون ان التأخير تدمير حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك ووجهوا من كشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة الى جباب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه فى تلك الساعة لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك بكرة الخميس العاشر من شوال فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين فانه كان فى ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الامراء منهم الامير فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب فأخذ منها خزانته وسار حتى عبر الفرات وعاد الى بلاده وامسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل فى بقية ذلك اليوم فى خيم القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه وقال العماد رحلنا فى شهر رمضان من دمشق مستأنفين فعبرنا العاصى لله طائعين والى المسار مسارعين فاعرجنا على بلد ولا انتظرنا

ماوراءنا من مدد ونزلنا الغسولة وجزنا حماة وخيمنا فى مرج بوقبيس وجاء الخبر انهم فى عشرين الف فارس سوى سوادهم وما وراءهم من امدادهم وانهم موعودون من الفرنج بالنجده وانهم يزيدون فى كل يوم قوّة وشدّه وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس فرتب السلطان عسكره وقوّى بقوّة قلبه قلبه وأمدّالله بحزب ملائكته حزبه ولما وصل المواصلة الى حلب أطلقوا من كان فى الاسر من ملوك الفرنج منهم ارناط ابرنس الكرك وجوسلين خال الملك وقرّروا معهم ان يدخلوا من مساعدتهم فى الارك فلما عيدنا وصل الى السلطان الخبر بوصولهم الى تل السلطان فعبرنا العاصى عند شيزر ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال الى حماه ثم وصف الوقعة الى ان قال وركب السلطان أكتافهم فشل مثيهم والافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم ووكل بسرادق سيف الدين غازى ومضاربه ابن أخيه فرخشاه وركض وراءه حتى علم انه تعدّاه ووقع فى الاسر جماعة من الامراء المقدّمين ثم منّ عليهم بالخلع بعد ان نقلهم الى حماه وأطلقهم ثم نزل فى السرادق السيفى فتسلمه بخزائنه ومحاسنه واصطبلاته ومطابخه ورواسى عزه ورواسخه فبسط فى جميع ذلك أيدى الجود وفرقها على الحضور والشهود وأبقى منها نصيبا للرسل والوفود ورأى فى بيت الشراب بل فى السرادق الخاص طيورا من القمارى والبلابل والهزار والببغا فى الاقفاص فاستدعى أحد الندماء مظفر الاقرع فآنسه وقال خذ هذه الاقفاص واطلب بها الخلاص واذهب بها الى سيف الدين فأوصلها اليه وسلم منا عليه وقل له عد الى اللعب بهذه الطيور فهى سليمة لا توقعك فى مثل هذا المحذور قال ولما كسر القوم ولوا مدبرين الى حلب فلم يقف بعضهم على بعض وظنوا ان العساكر وراءهم ركضا وراء ركض فتبجحت خيولهم وتموّجت سيولهم وما صدّقوا كيف يصلون الى حلب ويغلقون أبوابها ويسكنون اضطرابها وأما سيف الدين فانه ركض فى يومه من تل السلطان الى براعه وجاوز فى سوقه الاستطاعه وفرق وفارق الجماعه وفى كتاب ابن أبى طى ان ميسرة سيف الدين انكسرت فتحرك الى جانبها ليكون ردا لها ومددا فظنّ باقى العسكر انه قد انهزم فانهزموا فحقق ما كان وهما فسار على وجهه لا يلوى على شئ وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلا وغرقا وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أونهب وفرق ما وجد فى خزائن سيف الدين وسير جواريه وحظاياه الى حلب وأرسل اليه بالاقفاص وقال له عد الى اللعب بهذه الطيور فانها الذ من مقاساة الحرب ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات قال واشتهر انه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية وان السلطان أرى ذلك لعسا كره واستعاذ من هذه البلية وكان أنفذ الامراء الذين أسرهم الى حماه ثم ردّهم وخلع عليهم وأرسلهم الى حلب وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها

فالحمد لله الذى افضاله ❊ حلوا الجنى عالى السنا وضاحه
عاد العدوّ بظلمة من ظلمه ❊ فى ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه ❊ فى قبضة البازى فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال ومادرى ❊ ان الذى يجنى عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده ❊ وغدا يجيد رثاءه مداحه
ان أفسد الدين الغلاة بجنثهم ❊ فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للاله مصمما ❊ فيهم فلاح كما رأيت فلاحه
وكانني بالساحل الاقصى وقد ❊ ساحت بحر دم الفرنجة ساحه
فاعبر الى القوم الفرات ليشربوا الموت الاجاج فقد طمى طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها ❊ عجلا ويدرك ليلها اصباحه
وابغوا لحران الخلاص فكم بها ❊ حرّان قلب نحوكم ملتاحه
نجوا البلاد من البلاء بعدلكم ❊ فالظلم باد فى الجميع صراحه
واستفتحوا ما كان من مستغلق ❊ فيها فربكم لكم فتاحه

أنتم رجال الدهر بل فرسانه ❊ ولدى الحلوم الطائشات رجاحه
فتاكه نساكه ضراره ❊ نفاعه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه ❊ مطعانه مقدامه جحجاحه
واذا انتدى فى محفل فخبيه ❊ واذا غدى فى جحفل فوقاحه

قال وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة يد بيضاء وهو محب للفضل وأهله باعث للخواطر على مدحه ببذله فنظمت فيه قصيدة منها

نصر أنار الملك كم برهانه ❊ وعلا لذلة شانئيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر ❊ وأبو المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره ❊ والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتى بغير مرادكم ❊ فهل القضاء لاجلكم جريانه
وكأنما الله فى أحكامه ❊ فلك على ايثاركم دورانه
فخرا بنى أيوب ان فخاركم ❊ بذ الملوك السابقين رهانه
يكفى حسودكم اعتقالاهمه ❊ فكأنما أشجانه أسجانه
الدين عز الدين عز بنصركم ❊ والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشكم كبحر زاخر ❊ واللابسون جواشنا حيتانه
فطما الهلكهم عليهم بحركم ❊ بأسا وغرق فلككم طوفانه
فضل الملوك الاكرمين بفضله ❊ فعلا زمانهم البهيج زمانه
فى فضله فى عدله فى حلمه ❊ صديقه فاروقه عثمانه
هو فى السماح وفى اللقاء عليه ❊ هو فى العفاف وفى التقى سلمانه
من آل شاذى الشائدين لمجده ❊ بنيه بيتا عاليا بنيانه
بيت من العلياء سام شاهق ❊ يبنى على كيوانها ايوانه
يا سالب التيجان من أربابها ❊ ومن الثناء مصوغة تيجانه
والحمد مال أنتم بذ اله ❊ والمال حمد أنتم خزانه

قال ثم ان صاحب الموصل أسرع عودته وواصل لذاته والحلبيون أوثقوا الاسباب وغلقوا الابواب وسقط فى أيديهم حين أفرطوا فى تعديهم وتهيئوا للحصار وخافوا من البوار وتبلدوا وتلددوا وتجادلوا ثم تجلدوا وقال ابن سعدان الحلبى من جملة قصيدة يهنى بها السلطان بهذه الكسره

وما شك قوم حين قمت عليهم ❊ غداة التقى الجمعان انك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى ❊ لنفسك فى نفس العدو مقانب

قال ابن أبى طى وأما سيف الدين فانه امتدت به الهزيمة الى بزاعة فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار الى الموصل وصار باقى عسكر حلب الى حلب فى سابع شوال فى أقبح حال وأسوئه عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الايمان والعهود وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فاخذوا فى الاستعداد للحصار وجاء السلطان وخيم عليها أياما ثم قال الرأى ان نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها فانا اذا فعلنا ذلك ضعفت حلب وهان أمرها فصوب رأيه فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالامان وولاها عز الدين خشترين الكردى

❊(فصل)❊ فى فتح جملة من البلاد حوالى حلب قال العماد ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه فى الثانى والعشرين من شوال ثم فتح منبج فى التاسع والعشرين منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال بن حسان والسلطان لا ينال به احسان بل كان فى جر عسكر الموصل اليه أقوى سبب ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب ويواجهه بما يكره

يكره فسلم القلعة بما فيها وقوّم ما كان سلمه بثلثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات وسامه على ان يخدم فابى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره وذهب ما جمعه ومضى الى صاحب الموصل فاقطعه الرقة فبقى فيها الى ان أخذها السلطان منه مرة ثانية فى سنة ثمان وسبعين قال العماد

نزولك فى منبج * على الظفر المبهج ❋ ونجحك فى المرتجى * وفتحك للمرتج
دليل على نجح ما * تحاول أو ترتجى ❋ أمورك فيما ترو * م واضحة المنهج
وشأنيك دامى الشؤ * ن منك شقى شجى ❋ ومن كان فى حصنه * ومن قبل لم يخرج
يقال له ليس ذا * بعشك قم فادرج ❋ قرأيك يستنزل النــجوم من الابرج
فجل عبور الفرا * ت وأسر وسر وادلج ❋ وعج نحو تلك البلا * د وعن غيرها عرج
حران والرقتا * ن تاليتا منبج ❋ وجل عن المسلمــين ليلهم المدجى

قال ابن أبى طى لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد اليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره فكان فى جملة أمواله ثلثمائة ألف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار فخان من السلطان التفاتة فرأى على الاكياس والآنية مكتوبا يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الاموال له فقال السلطان أنا يوسف وقد أخذت ما خبئ لى فتعجب الناس من ذلك قال ولما فرغ من منبج نزل على عزاز ونصب عليها عدة مجانيق وجد فى القتال وبذل الاموال قال العماد ثم نزل السلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوما وكان السلطان قد اشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فان الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج واطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله فى أسرهم فرأى السلطان ان يحتاط على المعاقل ويصونها صون العقائل فتسلمها حادى عشر ذى الحجة بعد مدة حصارها المذكورة وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة ❋ عزة أهل الدين فى اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده ❋ وهو احق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزا فنى الــملوك فى الجدّ على اكتنازها
مهالك أهل الشرك طرا رومها ❋ ارمنها افرنجها ابخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه ❋ تفاخر الفرس بابراوازها
تهن من فتح عزاز نصرة ❋ أوقعت العداة فى اهتزازها
واليوم ذلت حلب فانها ❋ كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفى كشتكينها ❋ كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت فى نصر الهدى بهجة ❋ وضوح نهج الحق فى ابرازها
كم حامل للرمح عاد مبديا ❋ عجز عجوز الحى عن عكازها
ارفع حظوظى من حضيض نقصها ❋ وعد عن همازها لمازها
والشعر لابدّ له من باعث ❋ كحاجة الخيل الى مهمازها

قال وأغار عسكر حلب على عسكرنا فى مدة مقامنا على عزاز فاخذوا على غرة وغفلة ما تجاوه وعادوا فركب أصحابنا فى طلبهم فادركوا الا فارسا واحدا فامر السلطان بقطع يده بحكم جرده فقلت للأمور وذلك بمسمع من السلطان تمهل ساعة لعله يقبل منى شفاعة ثم قلت هذا الاجل وقدرك بل دينك عن هذا بجل وما زلت اكرر عليه الحديث حتى تبسم وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه وسرنى سلامة نفسه ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال ما هذا الفشل والونا وان سكتم أنتم فما أسكت أنا ودمدم وزمجر وغضب وزأر وقال لم لا يقتل هذا الرجل ولماذا اعتقل فوعظه السلطان واستعطفه وسكن غضبه وتعطفه وتلا عليه ولا تزر وازرة وزر أخرى وأطلق سراحه وتم فى نجاته نجاحه

(فصل) في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الاولى على حلب قال العماد وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الاحد وهو نازل على عزاز وكان للامير جاولي الاسدي خيمة قريبة من المجنيقات وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال وهو بارز بث أياديه قار على الدهر بكف عواديه والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف اذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه فعاقته صفائح الحديد المدفونه في لمته عن تمكينه ولفحت المدية خده فخدشته فقوى السلطان قلبه وحاش رأس الحشيشي اليه وجذبه ووقع عليه وركبه وأدركه سيف الدين بازكوج فاخذ حشاشة الحشيشي ببضعه وقطعه وجاء آخر فاعترضه الامير داود بن منكلان فنعه وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام وجاء آخر فعانقه الامير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضرب ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى اقتلوني معه فقد قتلني واذهب قوتي وأذهلني فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه وخرج آخر من الخيمة منهزما وعلى الفتك بن يعارضه مقدما فثار عليه أهل السوق فقطعوه وأما السلطان فانه ركب وجاء الى سرادقه وقد خرعه الحادث وفزعه الكارث وصوته جهوري وزئيره قسوري ودم خده سائل وعطف روعه مائل وطوق كراغنده بتلك الضربة مفكوك ونهج سلامته مسلوك وكان سلاس لامته وأقام القوم قيامته ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تأزرا ووقفه تحجيرا وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب وما صرف الامن عرفه ومن لم يعرفه صرفه واذا ركب وأبصر من لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه فان كان مستشعفا أو مستسعدا أسعفه وأسعده ومن كتاب فاضلي الى العادل (السلامة شامله والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله ولم ينله من الحشيشي الملعون الاخدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها والركوب على رسمه والحصار لعزاز على حكمه وليس في الامر بحمد الله ما يضيق صدرا ولا ما يشغل سرا) وقال ابن أبي طي لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع فعادوا الى عادتهم في نصب الحبائل للسلطان فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالاموال والمواعيد وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاؤا بزي الاجناد ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وابلوا فيها أحسن البلاء وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها فبينما السلطان يوما جالسا في خيمة جاولي والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر الى القتال اذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه وكان رحمه الله محترزا خائفا من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة الى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الارض وركبه لينحره وكان من حول السلطان قد ادركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين بازكوج وقيل انه كان حاضرا فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان فاعترضه الامير منكلان الكردي وضربه بالسيف وسبق الحشيشي الى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الامير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه على تحت ابطه وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح على اقتلوه واقتلوني معه فجاء ناصر الدين محمد ابن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه ومازال يخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس وخرج آخر من الحشيشية منهزما فلقيه الامير شهاب الدين محمود خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف وأما السلطان فانه ركب من وقته الى سرادقه ودمه على خده سائل وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز وضرب حول سرادقه برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام ولا يدخل عليه الا من يعرفه وبطلت الحرب في ذلك اليوم وخاف الناس على السلطان واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض فألجأت

الحال الى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر وعاد الى خيمته وأخذ فى قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوما حتى عجز من كان فيها وسألوا الامان فتسلمها حادى عشر ذى الحجة وصعد اليها واصلح ما تهدم منها ثم أقطعها لابن أخيه تقى الدين عمر وكانت عزاز أولا للجفنية غلام نور الدين فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعلة يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذى الحجة وضربت خيمته على رأس البارونية فوق جبل جوشن وجبى أموالها واقطع ضياعها وضيق على أهلها ولم يفسح لعسكره فى مقاتلتها بل كان يمنع أن يدخل اليها شئ أو يخرج منها أحد وكان سعد الدين كمشتكين فى حارم وكانت اقطاعه فى يد نوابه وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد ان عصى نائبها وكان سبب خروجه اليها ان السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها الى حارم فخرج اليها فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجا فى حارم وخاف أن يجرى بين السلطان وبين الامراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول لو فسح لى فى الدخول الى حلب لسارعت فى الخدمة وأصلحت الامر على ما يرومه السلطان وراسل أيضا الملك الصالح والامراء بحلب يقول لهم قد حصلت خارجا وقد بلغتنى امور ولا بدّ من طلبى من الملك الناصر ليأذن لى فى الصيرورة اليكم فان الذى قد حصل عندى لا يمكننى الكلام فيه فراسل الملك الصالح السلطان فى الاذن له فى الدخول الى حلب فأذن له وطلبوا الرهائن منه فانفذ السلطان اليهم رهينة شمس الدين ابن أبى المضا الخطيب والعماد كاتب الانشا وأنفذوا من حلب الى السلطان رهينة نصرة الدين ابن زنكى وحكى العماد الكاتب قال لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمى وجعلنا فى بيت ومنع منا غلماننا ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح وبتنا فى انكد عيش وفى تلك الليلة دخل كمشتكين الى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبى المضا الى مجلس الملك الصالح وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمى فأخذ يتحدّث بلثغته ويترجم بلكنته ويضرب صفحا عنى ويوهم الجماعة انى وانى

وما درى الغمر بأنى امرؤ ❊ أميز التبر من الترب
قد عارك الاهوال حتى غدا ❊ بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر فلو أمه ❊ بخطبه ما ريع للخطب

قال وعرضت سحنة اليمين علينا وصرفنا ولم يلتفت الينا فلما صارا الى السلطان واخبراه بما جرى فى حقهما من الهوان علم ان ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين الى حلب فأطلق نصرة الدين وقاتل أهل حلب ولم يزل منازلا لحلب الى انسلاخ سنة احدى وسبعين وخمسمائة ثم كان ما سيأتى ذكره

(فصل) فى بواقى حوادث هذه السنة ودخول قراقوش الى المغرب قال العماد وفى سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن الى دمشق وذكر ابن شداد انه قدم فى ذى الحجة قلت ولما سمع السلطان بقدومه أرسل اليه بالمثال الفاضلى كتابا أوّله (أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا) وقال فى آخره (ولقد أحسن عدنان المبشر اذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه وغرس فى القلوب ما يسرّنا ويسرّه جنى غرسه) قال ابن ابى طى كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق الى أخيه الملك الناصر وان يرى ملوك الشام وغيرها وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والاموال قال وحكى انه لما تحدّث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس وكان صهر ياسر بن بلال الحبشى صاحب عدن وكان بين عباس وياسر عداوة فافتعل عباس كتابا على لسان ياسر وزوّر عليه علامته الى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه ان شمس الدولة سائر الى أخيه الملك الناصر الى الشام وسبب خروجه ضعفه عن اليمن فامسكوا ما كنتم تحملون اليه من الاتاوة والرشوة يبق لكم واحتال حتى وصل الكتاب الى شمس الدولة وكان نازلا على حصن يعرف بالخضرا يحاصره فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرا وقال له هذا خطك وعلامتك قال كأنه هو وقال بأى شئ استحققت منك هذا وقد قرّبت منزلتك وأبقيت عليك بلادك ورفعت بضبعك على أهل اقليمك وأراه الكتاب فلما وقف عليه ياسر حلف انه

ما كتبه ولا يعرفه ولا املاه لاحد ولم يعلم خبره فلم يصدقه شمس الدولة وأمر به فقتل بين يديه صبرا فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا اليه الاموال وحلفوا له على الطاعة ثم ان شمس الدولة خرج الى تهامة وتوجه الى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ وعثمان بن على الزنجيلي على عدن وتوجه الى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام واستمر الكردي بها مدة ثم ان صاحب حضرموت تحرك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت وجعل اليه أمر الجند وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز قال وكان وصول شمس الدولة الى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم وكان شمس الدولة هو سبب الظفر واعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والاثاث والآلات وولاه دمشق واعمالها والشام وأمره ان يكون في وجه الفرنج لان السلطان خاف من الحلبيين ان يكاتبوا الفرنج كعادتهم قال وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهورا فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على ما يريده من اقطاع واقترح شمس الدولة ان يكتب هو ما يريده ليحلف عليه فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضى بصرى وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج اليه تأول عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه ثم اقطعه عشرين ضيعة ثم أخذها منه بعد ان قتله قال وفيها عصى الامير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين فانفذ اليه من حلب عسكرا فحاصروه أياما وسلم الحصن وصلحت حاله قال ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقى الدين الى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوى عليه فأخبر ان قلعة ازبرى هى فم درب المغرب وكانت خرابا فأشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها اجناد اقوياء شجعان ملكت برقة واذا ملكت برقة ملك ما وراءها فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش وقدمه على جماعة من اجناده ومماليكه فصاروا الى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد الجريد وفزان وذكر له كثرة خيرها وغزارة أموالها وضعف أهلها ورغبه في الدخول اليها فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادى عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة فلقيه صاحبها واكرمه واحترمه وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفا وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها الازراقية فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فصاروا اليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه ورغبوه في المصير اليهم على انهم يملكونه عليهم فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلد ثم ان أصحابه رغبوا في الرجوع الى مصر وخشى قراقوش ان يقيم وحده فرجع معهم فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود وزوجه تقى الدين باحدى جواريه وكان استناب بأوجلة وقال لاهلها أنا أمضى الى مصر لتجديد رجال وأعود اليكم

قال ابن الاثير وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى وقد مكنه في ولايته فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الامور والاطلاع على دقائق الحسبانات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والانشاء حيرت العقول ووضع في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه وكان عمره حين ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن بلسان وزير صاحب أمد وكان قد زوجه بنته فاطلق وسار اليه وبقى بامد يسيرا مريضا ثم فارقها وتوفى بدنيسر سنة أربع وسبعين وحمل الى الموصل فدفن بها ثم حمل منها في موسم الحج الى المدينة ودفن عند والده وكان من أحسن الناس صورة ومعنى رحمه الله تعالى

قال ثم ان سيف الدين استناب دزدارا بقلعة الموصل الامير مجاهد الدين قايماز في ذى الحجة سنة احدى وسبعين وورد

اليه أزمة الامور فى الحل والعقد والرفع والخفض وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة أربل واعمالها ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على لقبه أيضا زين الدين فكان البلد لولد زين الدين اسما لا معنى تحته وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى قلت وفيها فى حادى عشر رجب توفى حافظ الشام أبو القاسم على بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدمشقى رحمه الله تعالى وحضر السلطان صلاح الدين جنازته ودفن فى مقابر باب الصغير وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام ابن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقى الاصل البغدادى المولد التنوخى الجاهرى الصوفى ابن الصوفى ذكره العماد فى الخريدة وقال كان صديقى وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدين وأحسن اليه وعاد الى بغداد وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها فى الحقائق وأنشدها فى مجلسه

يا مالكا مهجتى يامنتهى أملى ❊ ياحاضرا شاهدا فى القلب والفكر
خلقتنى من تراب أنت خالقه ❊ حتى اذا صرت تمثالا من الصور
أجريت فى قالبى روحا منوّرة ❊ تمر فيه كجرى الماء فى الشجر
جمعت بين صفا روح منوّرة ❊ وهيكل صغته من معدن كدر
ان غبت فيك فيا فخرى ويا شرفى ❊ وان حضرت فيا سمعى ويا بصرى
أو احتجبت فسرى منك فى وله ❊ وان خطرت فقلبى منك فى خطر
تبدو فتمحو رسومى ثم تثبتها ❊ وان تغيبت عنى عشت بالاثر

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة﴾ قال العماد والسلطان مقيم بظاهر حلب فعرف أهلها ان العقوبة أليمة والعاقبة وخيمة فدخلوا من باب التذلل ولاذوا بالتوسل وخاطبوا فى التفضل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفا وعف وكفى وكف وأبقى للملك الصالح حلب واعمالها واستقرى كل عثرة لهم وأقالها وارادله الاعزاز فردّ عليه عزاز وقال ابن شدّاد أخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة سألت منه عزاز فوهبها اياها قال ابن أبى طى لما تم الصلح وانعقدت الايمان عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان وطلب عزاز منه فاشار الامراء عليه بانفاذ أخته وكانت صغيرة فاخرجت اليه فاكرمها السلطان اكراما عظيما وقدّم لها أشياء كثيرة وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك وقال غيره بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح الدين فى الليل فدخلت عليه فقام قائما وقبل الارض وبكى على نور الدين فسألت ان يردّ عليهم عزاز فقال سمعا وطاعة فاعطاها اياها وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا واتفق مع الملك الصالح ان له من حماه وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية قال العماد وحلفوا له على كل ما شرطه واعتذروا عن كل ما اسخطه وكان الصلح عاما لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت فى نسخة اليمين انه اذا غدر منهم واحد وخالف ولم يف بما عليه حالف كان الباقون عليه يدا واحده وعزيمة متعاقده حتى يفىء الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عن الاسماعيليه وكيف قصدوه بتلك البليه فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصياث ونصب عليه المجانيق الكبار وأوسعهم قتلا وأسرا وساق ابقارهم وخرب ديارهم وهدم اعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه وكانوا قد راسلوه فى ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم قال وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم وهو متولى بعلبك ومقطع اعمالها ومدبر أحوالها والمتحكم فى أموالها فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث فجدّد منه الى غزو الفرنج والانبعاث قال ابن أبى طى وهذا أكبر الدواعى فى مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الاسماعيليه لان السلطان خاف أن تهيج الفرنج فى الشام الاعلى وهو بعيد عنه فربما ظفروا من البلاد بطائل فصالح سنانا وعاد الى دمشق قال العماد وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع ان الفرنج على الخروج وباسطهم عند عين الجر فى تلك المروج ووقع من أصحابه عدّة فى الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار ووصل السلطان الى حماه وقد استكمل الظفر واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثانى صفر وهو أول لقائه بعد ما أزمع عنه الى

اليمن السفر وتعانق الاخوان في المخيم بالميدان وتحدثا في الحدثان وروعات الفراق ولوعات الاشواق وكان قد وصل الى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتا التطها من شعر ابن المنجم المصري أولها

الشوق أولع بالقلوب وأوجع ❊ فعلام أدفع منه مالا يدفع
وحملت من وجد الاحبة مفردا ❊ ماليس تحمله الاحبة أجمع
لا يستقر بي النوى في موضع ❊ الا تقاضاني الترحل موضع
فالى صلاح الدين أشكو انني ❊ من بعده مضنى الجوانح موجع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن ❊ لولا هواه لبعد دار أجزع
فلاركبن اليه متن عزائمي ❊ ويخب بي ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة ❊ من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها فقلت قصيدة منها

مولاي شمس الدولة الملك الذي ❊ شمس السيادة من سناه تطلع
مالي سواك من الحوادث ملجأ ❊ مالي سواك من النوائب مفزع
ولانت فخر الدين فخري في العلى ❊ وملاذ آمالي وركني الارفع
الا بخدمتك المجللة موقعي ❊ والله ما للملك عندي موقع
وبغير قربك كلما أرجوه من ❊ درك المنى متعذر متمنع
للنصر ان أقبلت نحوي مقبل ❊ واليمن ان أسرعت نحوي مسرع

قال ثم سرنا الى دمشق ووصلنا اليها سابع عشر صفر وفوض ملك دمشق الى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم الى مصر السفر

❊(فصل) في ذكر جماعة من الاعيان تجدد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة قال العماد في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري وعمره ثمانون سنة لان مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين اذ ذاك يتولى الشحنكية بدمشق وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية وربما كسر أغراضه وأبدى عن قبوله اعراضه ويتصدى في كل ما يعرض له اعتراضه وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه الى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية الى الملك وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك وكان في قلبه مما فرط فيه وما فرط منه ما فات وقت تلافيه فلما ملك دمشق يجراه على حكمه ولم يؤاخذه بجرمه واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه ولم يزل استفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزوري قد هاجر الى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه وأذنت هجرته في درك ارادته بادارة فلكه وأنعم عليه هنالك بجزيرة الذهب ومن دار الملك بمصر بدار الذهب ووفر حظه من الذهب وملكه دارا بالقاهرة نفيسة جميلة حلية جليلة ورتب له وظائف وخصه بلطائف ووصل مع صلاح الدين الى الشام وأمر دجار على النظام ولما اشتد بكمال الدين المرض وكاد يفارق جوهره العرض أراد أن يبقي القضاء في ذويه فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علما منه بأن السلطان يمضي حكمه لاجل سوالفه ويجعله عنده من عوائد عوارفه ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله بارا بالابرار مختار الاخيار مكرما للكرام ماضيا في الاحكام وقد قواه نور الدين رحمه الله وولده في أيامه وسدد مرامي مرامه وهو الذي بنى دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشنآن وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان وتوفي ونحن بحلب محاصرون وذكر العماد في الخريدة لابنه محيي الدين قصيدة في مرثيته منها

ألموا بسفحي قاسيون فسلموا ❊ على جدث بادي السنا وترحموا
وبالرغم مني أن أناجيه بالمنى ❊ وأسأل مع بعد المدى من يسلم

لقد عدمت منك البرية والدا ❊ أحن من الام الرؤف وأرحم
ولاسيما اخوان صدق بجلق ❊ هم فى سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤسهم ❊ فما كان فيهم من يضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفوا ورحمة ❊ كما كنت تعفو ما حييت وترحم

قال العماد وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه وأحسن احسانه وابقى نواب عمه وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن ابى عصرون قدها جر من حلب الى السلطان وقد أنزله عنده بدمشق فى ظل الاحسان وهو شيخ مذهب الشافعى رضى الله عنه والاقوم بالفتيا وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا والسلطان يؤثر ان يفوض اليه منصب القضا ولا يرى عزل الضيا فافضى بسر مراده الى الاجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفا ففعل فاعفى وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه فى بيع الاملاك قال العماد وأول ما اشتريت منه بوكالة السلطان الارض التى ببستان بقر الوحش التى بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان وكنت قد احتكرتها فى الايام النوريه فلكتها فى الايام الصلاحيه قلت قد خربت هذه الاماكن فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار واستمر خرابها وعفت آثارها وصارت طريقا على حافة بردا وأنت خارج من جسر الصفى خارج باب الفرج مارا الى ناحية الميدان قال فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزورى من القضاء لم يبق فى منصب القضاء الا فقيه يعرف بالاوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعى وكان ينوب عن كمال الدين فأمره السلطان ان يجرى على رسمه ويتصرف فى حكمه وكان السلطان لاحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثرا ولذكر مناقبه مكثرا وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبى عصرون وهو راج وبطلب نجاز عدته مناج ففوض اليه القضا والحكم والانفاذ والامضا على ان يتولى محيى الدين أبو المعالى محمد بن زكى الدين والاوحد قاضيين فى دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون متوليا للقضا منفردا بالحكم والامضا سنة اثنتين وثلاث وسبعين فى ولاية أخى السلطان الملك المعظم فخر الدين فلما عدنا الى الشام تكلم الناس فى ذهاب نور بصره وانه لا يقوم فى القضاء بورده وصدره ففوض السلطان القضاء بالاشارة الفاضلية الى ابنه محيى الدين أبى حامد محمد كأنه نائب أبيه ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه واستمر القضاء له الى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين ثم صرف واستقل به ابن زكى الدين فأقام فى مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد الى أخيه مجد الدين ابن الزكى فتولاه الى ان انتقل من أعمال الوقوف الى موقف اعتبار الاعمال وتولاها بعده أخوه محيى الدين على الاستقلال الى آخر عهد السلطان وبعده قلت وفيها فى صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج اليه الفقيه والحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسى رحمه الله وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع من أصحاب الامام الشافعى رضى الله عنه وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى رحمه الله ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمه الله (الحمد لله وبه توفيقى) قال العماد وفيها فى ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر ونحن فى طريق الوصول الى دمشق توفى شمس الدين ابن الوزير أبى المضا بدمشق وهو أول خطيب بالديار المصريه للدولة العباسيه وكان يتولى الرسالة الى الديوان العزيز ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم ويبعث على مدحه غرائزهم فحمل السلطان همه وقرب ولده وجبر بتربيته يتمه ثم تعين ضياء الدين ابن الشهرزورى بعده للرسالة الى الديوان وصارت منصبا له ينافس عليه واستتبت له هذه السفارة الى آخر العهد السلطانى وذلك بعد المضى الى مصر والعود الى الشام فانه بعد ذلك خاطب فى هذا المرام فأما فى هذه السنة فانه كان فى مسيرنا الى مصر فى الصحبه وهو متودد الى بصفاء المحبه وفيها فى آخر صفر تزوج السلطان بالخاتون المنعوته عصمة الدين بنت الامير معين الدين انر وكانت فى عصمة نور الدين رحمه الله فلما توفى اقامت فى منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بامرها كثيرة الصدقات والاعمال الصالحات فأراد السلطان حفظ حرمتها وصيانتها

وعصمتها فأحضر شرف الدين ابن أبي عصرون وعدوله وزوّجها اياها بحضرتهم أخوها الابيها الامير سعد الدين مسعود بن انر باذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها وخرج بعد يومين الى مصر وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضا الامير مؤيد الدولة أبا الحارث اسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ وعوده الى الشام عند علمه بوصول السلطان فقال هذا مؤيد الدولة من الامراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمجد ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد ان يكون معه فيه سواه فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد وكلهم من الاجواد الامجاد ومافيهم الاذو فضل وبذل واحسان وعدل ومامنهم الامن له نظم مطبوع وشعر مصنوع ومن له قصيدة وله مقطوع وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب وأعرفهم بالادب وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر الى مصر وأقام هنالك سنين في أيام المصريين فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس وزيرها اخوته واقامة المنعوت بالفائز ومااردف ذلك من الهزاهز فعاد مؤيد الدولة الى الشام وسار الى حصن كيفا وتوطن بها ولما سمع بالملك الصلاحي جاء الى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال

حمدت على طول عمري المشيبا ❊ وان كنت أكثرت فيه الذنوبا
لاني حييت الى ان لقيت بعد العدوّ صديقا حبيبا

قال وكنت أسمع بفضله وأنا باصبهان في أيام الشبيبة وأنشدني له مجد العرب العامري باصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين وهما من مبتكرات معانيه في سنّ قلعها

وصاحب لاأمل الدهر صحبته ❊ يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا ❊ لناظريّ افترقنا فرقة الابد

قال فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه مع كثير من شعره المبتكر من جنسه قلت ومن عجيب ما اتفق اني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قرأت في ديوانه وقال في الضرس

وصاحب لاأمل الدهر صحبته ❊ يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى الى القلب من سمعي ومن بصري ❊ ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بيشي من خال بوجنته ❊ مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال (لم ألقه مذ تصاحبنا البيت) فالاشبه ان ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غير فيهما كلمات وقد وجدت هذا البيت الاوّل على صورة أخرى حسنة (وصاحب ناصح لي في معاملتي) ويجوز ان يكون أسامة أنشدهما متمثلا فنسبا اليه لما كان مظنة ذلك ويجوز ان يكون اتفاقا والله اعلم قال العماد وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفا وهو جليس صلاح الدين وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين ولم يزل هذا الامير العضد مرهف مصاحباله بمصر والشام والى آخر عصره وتوطن بمصر فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله ارحب منزل وأورده أعذب منهل وملكه من اعمال المعرة ضيعة زعم انها كانت قديما تجرى في املاكه وأعطاه بدمشق دارا وادرارا واذا كان بدمشق جالسه وآنسه وذاكره في الادب ودارسه وكان ذا رأي وتجربه وحنكة مهذبه فهو يستشيره في نوائبه ويستنير برأيه في غياهبه واذا غاب عنه في غزواته كاتبه واعلمه بواقعاته ووقعاته واستخرج رأيه في كشف مهماته وحل مشكلاته وبلغ عمره ستا وتسعين سنة فان مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وتوفي سنة اربع وثمانين وخمسمائة قلت وقد تقدم من أخباره في قتل الاسد في شبيبته أيام كونه بشيزر وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق

(فصل) في رجوع السلطان الى مصر خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الاوّل قال العماد لما استتمت

للسلطان

للسلطان بالشام أمور ممالكه وأمن على مناهج أمره ومسالكه أزمع الى مصر الاياب وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب وتقدّمه الامراء والملوك وخرج بكرة الجمعة ونزل ببرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر الى قريب الصنمين وخرجت معه وقلبى مروع الى أهلى فانزلت منزلا الا انظمت أبياتا فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره

أقول لركب بالخيارة نزل ❊ أثيروا فمالى فى المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وبادروا ❊ بانهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه ❊ وفى القلب من نار الغرام أوار
أجيروا من البلوى فؤادى فعندكم ❊ ذمام له ياسادتى وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتنى بالفقيع منفردا أضيـ ❊ ـع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر ❊ منى فيا غبن صفقة البائع
صبرى والقلب عاصيان وما ❊ غير همومى وأدمعى طائعى

وقلت بالفوار

تحدّر بالفوار دمعى على الفور ❊ فقلت لجيرانى أجيروا من الجور
وأصعب مالاقيت انى قانع ❊ من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقا

ولم انس بالزرقاء يوم وداعنا ❊ أنامل تدمى حيرة للتندّم
أعدّتك يازرقاء حمراء اننى ❊ بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبى عندهم متخلفا ❊ وخالفتهم فى عزمتى والتقدّم
فياليت شعرى هل أعود اليهم ❊ وهل ليت شعرى نافع للمتيم

قال وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك وفيها تختطف الافرنج القاصدين الى مصر

طريق مصر ضيق المسلك ❊ سالكه لاشك فى مهلك
وحب مصر صار حبا لمن ❊ أوقعه فى شبك الشوبك
لكنما من دونها كعبة ❊ محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكى الذى ❊ اليه من أيامه يشتكى

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب وايراد البعيد منها والقريب واتفق ان السلطان سير الى مصر الملك المظفر تقى الدين وكان لا يستدعى من شاديه الا انشادها فى ناديه ويطرب لسماعها ويعجب بابداعها وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقت بها أهلى وجمع الله بهم بعد ذلك شملى وهى هذه

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر ❊ ولكن لمقدور أتيح من الامر
واعلم انى مخطئ فى فراقكم ❊ وعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى
أرى نوب الدهر تحصى ولا أرى ❊ أشدّ من الهجران فى نوب الدهر
بعينى الى لقياكم غشاوة ❊ وسمعى عن نجوى سواكم لذو وقر
وقلبى وصبرى فارقانى لبعدكم ❊ فلا صبر فى قلبى ولا قلب فى صدرى
وانى على العهد الذى تعهدونه ❊ وسرى لكم سرى وجهرى لكم جهرى
تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم ❊ وها أنا فى صحوى تريف من السكر
وان زمانا ليس يعمر موطنى ❊ بسكناكم فيه فليس من العمر
واقسم لولم يقسم البين بيننا ❊ جوى الهم ما أمسيت مقتسم الفكر
أسير الى مصر وقلبى أسيركم ❊ ومن عجب أسرى وقلبى فى أسر

أخلاى قد شط المزار فأرسلوا الـ * ـخيال وزوروا فى الكرى وابحوا جرى
تذكرت أحبابى بجلق بعدما * ترحلت والمشتاق يأنس بالذكر
وناديت صبرى مستغيثا فلم يجب * فأسبلت دمعى للبكاء على صبرى
ولما قصدنا من دمشق غباغبا * وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا * موارد من ماء الدموع التى تجرى
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت * فواقع من فيض المدامع فى الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعى * ففاضت وباحت بالمكتم من سرى
سرينا الى الزرقاء منها ومن يصب * أواما يسر حتى يرى الورد أو يسرى
تذكرت حمام القصير وأهله * وقد جزت بالحمام فى البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من * مغانى الغوانى منزل الادم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وايلة * ولم نسترح حتى صدرنا الى صدر
غشينا الغواشى وهى يابسة الثرى * بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى * ومن يرتجى ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحى بالخمس صدر امطيتى * بصدر والاجادك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة اننا * الى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عينى على فيض عبرة * أكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا الى أرض السدير وجنة * هنالك من طلح نضيد ومن سدر
وجبنا الفلاحتى أصبنا مباركا * على بركة الجب المبشر بالقصر
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتى * بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلى * فيا خجلتى من أم عمرو ومن عمرو
تقول الى مصر تصير تعجبا * وماذا الذى تبغى ومن لك فى مصر
فقلت ملاذى الناصر الملك الذى * حصلت بجدواه على الملك والنصر
فقالت أقم لا تعدم الخير عندنا * فقلت وهل تغنى السواقى عن البحر
ثقى برجوع يضمن الله نجحه * ولا يقتضى ان نبدل العسر باليسر
عطيته قد ضاعفت منة الرجا * ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال وكان الدخول الى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الاول بالزى الاجمل والعز الاكمل وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين الى صدر وعبر الينا عند بحر القلزم الجسر وتلقانا خير مصر ووصلت الينا ثمراتها وجليت علينا زهراتها فطهر بنا نشاطها وزاد اغتباطها ودخل السلطان داره ووفق الله فى جميع الامور ايراده واصداره وكانت قد صعبت على مفارقة دمشق وأهلها لقلة وثوقى بانى احصل بمثلها فنظمت يوم خروجى منها أبياتا الى ناصر الدين محمد بن شيركوه منها

بمهجتى خنث العطـ * ـف مستلذ الدلال * يقول لى بانكسار * ورقة واعتلال
معاتبا بحديث * أصفى من السلسال * ما مصر مثل دمشق * بعت الهدى بالضلال
فقلت عنت أمور * عجيبة الاشكال * أسير فى طلب الـ * ـعز مثل سير الهلال
لم يبلغ البدر لولا الـ * ـمسير أوج الكمال * وكيف أترك شغلى * وانه رأس مالى
صلاح حالى صلاح الـ * ـدين الغزير النوال * مالى أفارق ملكا * ملكته آمالى
يا ناصر الدين قلبى * عليه فى بلبال

ثم ذكر العماد المحسنين اليه بالقاهرة وسيدهم المولى الاجل الفاضل وقد مدحه بقصيدة منها

كيف لا يغتدى لى الدهر عبدا ❊ وأنا عبد عبد عبد الرحيم
بدوام الاجل سيدنا الفا ❊ ضل يا دولة الافاضل دومى
اذ أراه ينوب عنى لدى المـ ❊ ـلك مناب الارواح عند الجسوم
مالك الحل فى الممالك والعقـ ❊ ـد وحكم التحليل والتحريم
معمل للنفاذ فى كل قطر ❊ قلما حاكما على اقليم
يتلقى الملوك فى كل أرض ❊ كتبه القادمات بالتعظيم
ناحل الجسم ذو خطاب به يصـ ❊ ـغر للدهر كل خطب جسيم

ثم ذكر الاخوين تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه وهما ابنا أخى السلطان وهو شاهنشاه بن أيوب وهمام الدين برغش الشنباشى والى القاهرة ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها

شادن كالقضيب لدن المهزه ❊ سلبت مقلتاه قلبى بغمزه
كلما رمت وصله رام هجرى ❊ واذا زدت ذلة زاد عزه
للصبا من عذاره نسج حسن ❊ رقم المسك فى الشقائق طرزه
وعزيز علىّ أن اصطبارى ❊ فيه قد عزه الغرام وبزه
ما رأى ما رأيت مجنون ليلى ❊ فى هواه ولا كثير عزه
ما ذكرنا الفسطاط الا نسينا ❊ ما رأينا بالنيربين والارزه
فهما الجيزة الجوازى لها المـ ❊ ـيزة حسنا على ظباء المزه
ونصيرى عليه نائل عز الديـ ❊ ـن ذى الفضل خلد الله عزه
فرّغ الكنز من ذخائر مال ❊ ماله من نفائس الحمد كنزه
همة مستهامة بالمعالى ❊ للدنايا أبيه مشمئزه

قال العماد وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الاغانى والتنزه فى الجزيرة والجيزه والاماكن العزيزه ومنازل العز والروضة ودار الملك والنيل والمقياس ومرامى السفن ومجارى الفلك والقصور بالقرافه وربوع الضيافه ورواية الاحاديث النبويه والمباحثة فى المسائل الفقهيه والمعانى الادبيه قال واقترحنا على القاضى ضياء الدين ابن الشهرزورى أن يفرجنا فى الاهرام فقد شغفنا بأخبارها فى الشام فخرج بنا اليها ودارنا حواليها ودرنا تلك البرابى والبرارى والرمال والصحارى وأجمدنا المقار والمقارى وهالنا أبو الهول وضاق فى وصفه مجال القول ورأينا العجائب ورويناالغرائب واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه فكل يأتى فى وصفهما بما نقله لا بما عقله واجتهدوا فى الصعود اليه فلم يوجد من توقله وحارت العقول فى عقوده وطارت الافكار عن توهم حدوده فياله من مولود للدهر قبل الطوفان انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده وسمار الاخبار بذكر حديث احداث عاد وثموده وبدل احكامه وعلوه على همة بانيه فى بأسه وجوده وان فى الارض الهرمين كما ان فى السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين وكالجبلين الشامخين قد فنيت الدهور وهما باقيان وتقاصرت القصور وهما راقيان وكأنهما الام الارض ثديان وعلى ترائب التراب نهدان وللسلطان العالم علمان والى مراقى الاملاك سلمان وهما الليل والنهار رقيبان ولرضوى وشمام نسيبان ومن زحل والمريخ قريبان ولعوادى الخطوب خطيبان ولثور الفلك روقان ولشخص الكرة الترابية ساقان قلت ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والاعيان فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان وله دار مشرفة على النيل وذكر منهم اللسان الصوفى البلخى وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان وله دار أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافة من نزل به قال ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين الى النعيم وخلده

﴿فصل﴾ في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان قال العماد وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر والحال والعاقد للأمر هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى سمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها واخراجها من بيوت الخزانة الى أرضها وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولا دراية له بأسفار الأدب وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها وغربت من مساكنها وخربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها وبت حبلها واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزأ مجلدا اذا فقد منها جزؤ لا يخلف أبدا فاختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مبترة فتسام بالدون وتباع بالهون والدلال يعرف كل شده وما فيها من عده ويعلم ان عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره في ابتياعها حتى اذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة قال فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا ومريت الأطباء كما مروا واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الأنواع ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بثمن أنعم علي بها وأبرأ ذمتي من ذهبها ثم وهب لي أيضا من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها ويبسط يدي لقبضها قال وكنت طلبت كتبا عينتها فقال وهل في هذه شيء منها فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال وكان هذا منه بالاضافة الى سماحه أقل نوال

قال وكان السلطان لما تملك مصر رأى ان مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها فقال ان أفردت كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفرد يحميها واني أرى أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطئ الى الشاطئ وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به الى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم ووجدت في عهد السلطان بيتا رفعه النواب وتكلل فيه الحساب ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفا وثلثمائة وذراعان من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ومن القلعة بالمقسم الى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعا ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاث آلاف ومائتان وعشر أذرع وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النيل الى النيل على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع القاسمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي وبنى القلعة على الجبل وأعطاها حقها من إحكام العمل وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة وحفر في رأس الجبل بئرا ينزل فيها بالدرج المنحرتة من الجبل الى الماء المعين ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة ووظائف نفقاتها مستدرة قال وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية ورتب قواعدها بفرط الألمعية وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي قال وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى وأستغفر الله بذلك وأسترضى ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفا وقد أبطل منكرا وأشاع معروفا وأضرب عن ضرائب فحاها وهب الى مواهب فأسداها واهتم بفرائض ونوافل فأداها

﴿فصل﴾ في خروج السلطان الى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة قال العماد ثم خرج من القاهرة يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان واستصحب ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان وجعل طريقه على دمياط ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط وكان له بها سبي كثير جلبه الاسطول فامتد بظاهر البلد يومين ووهب لي منه جارية ثم وصلنا الى ثغر الاسكندرية وتردد نامع السلطان الى الشيخ الحافظ أبي طاهر

أحمد بن محمد السلفى وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان فتلك الايام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول قال ابن أبى طى ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى انه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد الى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته فأمر بتعمير الاسطول وجمع له من الاخشاب والصناع أشياء كثيرة ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا وكتب الى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الاسطول وان لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه وأمر صاحب الاسطول ان لا يبارح البحر ويغزى الى جزائر البحر قال العماد وقلت فى معنى تنقلى فى البلاد

يوما بحى ويوما فى دمشق وبالفسطاط يوما ويوما بالعراقين
كأن جسمى وقلبى الصب ما خلقا * الا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهره

يا باخلا عند الوداع بوقفة * لو سامنى روحى بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل * ترك الفؤاد بدائه فى المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته * مقدار اطفاء الحريق المشعل
ان أسر مرتحلا ففى أسر الهوى * قلبى لديك مقيد لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادى المبتلى * اذ كنت أنت معذبى والمبتلى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود

نزلت بأرض المنيتين ومنيتى * لقاؤكم الشافى ووصلكم المجدى
سابلى ولا تبلى سريرة ودكم * وتؤنسنى ان مت فى وحشة اللحد

قال وعدنا من الاسكندرية فى شهر رمضان فصمنا بقية الشهر بالقاهرة والسلطان متوفر فى ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره وافاضة الجود واغزاره وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره وأشاعه العلم والاعلان باسراره وأبدا شعار الشرع واظهاره وابقاء المعروف على قراره وافناء اعلام الباطل وانكاره وقال ومن مدائحى فى السلطان ما أنشدته اياه سادس شوال

فديتك من ظالم منصف * وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهرى قصدى وقد * قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى * وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به * دماء متى تجرها ينظف
واهد الى الاسبتار البتا * ر هد السقوف على الاسقف
وخلص من الكفر تلك البلا * د يخلصك الله فى الموقف

وفيها وصل رسل المواصلة وصاحب الحصن وماردين الى دمشق فاستوثقوا بتحليف أخى السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ثم قصد وا مصر ووقع رسول صاحب حصن كيفا فى الاسر قال ابن أبى طى وصل رسول الموصل القاضى عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزورى بهدية وقود فخرج الموكب الى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب ماردين بهدايا واجتمعوا فى دمشق وخرجوا الى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج فاسر رسول صاحب الحصن ولم يزل فى الاسر حتى فتح السلطان بيت الاحزان فأطلقه وأحسن اليه قال وفيها رجع قراقوش الى أوجلة وتلك البلاد فجمع أموالا ورجع الى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه

فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزان باسرها قال العماد ثم خرج السلطان الى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص والتطلع الى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص واقترح على ان أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء فعملت ذلك فى أواخر ذى الحجة فقلت

مولاى عز الدين فرخشه ❋ الدهر من رجلك لا يخشه
تلقاه سمح الكف دفاقها ❋ طلق المحيا كرما بشه
ان شئت فوتا بالردى فالقه ❋ أو شئت فوزا بالعلى فاغشه
يديم بالايدى وبالايد فى ❋ حزى لهاه والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت ❋ الا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك فلا قصه ❋ أمنتم يوما ولا فتشه
أورثك السودد يا ابن العلى ❋ والدك السيد شاهنشه

وقال فى الخريدة كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة الى غزة وقد وصلت أساطيل ثغرى دمياط والاسكندرية بسبى الكفار وقد أوقفت على ألف رأس عدة من وصل فى قيد الاسار فحضر ابن رواحة منشدا مهنئا بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضا بما وهبه الملك الناصر من الاماء والعبيد قصيدة منها

لقد خبر التجارب منه حزم ❋ وقلب دهره ظهرا لبطن
فساق الى الفرنج الخيل برا ❋ وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجوارى بالجوارى ❋ يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤسا ❋ فريان يبوح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا ❋ ودمياط الى المينا بغبن
يرون خياله كالطيف يسرى ❋ فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فامسى ❋ مناهم لو تبيتهم يأمن
تملك حولهم شرقا وغربا ❋ فصاروا الاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطا ❋ رأت منه الفرنجة ضيق سجن
ربا أقصى الملوك السلم منهم ❋ ولم يرجهده فى البأس يغنى

وفيها أبطل السلطان المكس الذى كان بمكة على الحاج وسيأتى ذكره فى أخبار سنة أربع وسبعين قال ابن الاثير وفى سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين يعنى قايماز دزدار قلعة الموصل فى عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر وهو من أحسن الجوامع ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلاهما متجاوران قال وتوفى فى شهر ربيع الاول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها والحاكم فى الدولة الاتابكية النورية وكان ابتداء ولايته القلعة فى ذى الحجة سنة احدى وسبعين ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وأعيد الى ولايتها بعد الافراج عنه وبقى الى الآن وكان أصله من أعمال شيختان وأخذ منها وهو طفل وكان عاقلا خيرا دينا فاضلا تعلم الفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وكان يحفظ من الاشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا الى غير ذلك من المعارف الحسنة وكان يكثر الصوم وله ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة وبنى عدة جوامع منها الذى بظاهر الموصل وبنى عدة خانقاهات منها التى بالموصل ومدارس وقناطر على الانهار الى غير ذلك من المصالح ومناقبه كثيرة قال العماد فى الخريدة نزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد وعرض الاجناد فكتب الاسعد بن مماتى الى قصيدة فى الملك الناصر ويعرض بالشطرنج فانه كان يشتغل به وذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين

يا كريم الخيم فى الخيم * أهيف كالريم ذو شمم ❋ يحيى للشمس اذا طلعت * منه فى داج من الظلم
كيف لا تصمى لواحظه * ورماة الطرف فى العجم ❋ لا تصد قلب المحب لكم * لا يحل الصيد فى الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا * مذ براه الله للامم ❋ أضحت الكفار فى نقم * وغدا الاسلام فى نعم

ان يك الشطرنج مشغلة * لعزّ القدر والهمم ❋ فهى فى ناديك تذكرة * لامور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدتها * بالعطاء الجم لا القلم ❋ ونصبت الحرب نصبتها * فانثنت كفاك بالقمم
فابق للاقدار ترفعها ❋ وأمر الاقدار كالخدم

وفيها توفى بالاسكندرية القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ويعرف بابن أبى اليابس من بيت القضاء والعلم وكان واسع الباع فى علم الاحاديث كثير الرواية قيما بالادب متصرفا فى النظم والنثر الا انه مقل من النظم أوحد عصره فى علم الشروط وقوله المقبول على كل العدول ذكر ذلك العماد رحمه الله فى الخريده

❋(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة)❋ والسلطان مخيم ببرج فاقوس فنظم العماد فى الاجل الفاضل قصيدة ميمية فى منتصف المحرم وخدمه بها هنالك فى المخيم أوّلها

ريم هضيم يروم هضمى ❋ من سقم عينيه عين سقمى
ان رمت ياعاذلى صلاحى ❋ خلنى والهوى وزعمى
لومك يذكى الغرام قل لى ❋ أنت نصيحى أم أنت خصمى
ايا زمانى الغشوم اقصر ❋ انك لا تستطيع غشمى
عبد الرحيم الرحيم أضحى ❋ عونى على خطبك الملم
الفاضل الافضل الاجل المفضل الاشرف الاشم
غيث غياث وجود جود ❋ وبحر علم وطود حلم
يراعه فى اليمين منه ❋ تستخرج الدر من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة فى المحرم علم الدين الشاتانى وهو من أدباء الموصل وشعرائها وفصحائها وظرفائها وفد سنة اثنتين وسبعين الى مصر وأهدى النظم والنثر واصطنعه عز الدين فرخشاه وأنزله فى جواره وجمع له من رفده ومن الامراء الف دينار فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا ❋ فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

قلت لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت وانه لقائم مقام قصائد كثيرة والشاتانى هو أبو على الحسن بن سعيد له ترجمة فى تاريخ دمشق وذكره العماد فى الخريده وذكر فيها من هذه القصيده

يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى ❋ فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

قال العماد وكانت الاعلام السلطانية صفرا لا يفارق نشرها نصرا قلت وفيها يقول بعض الفضلاء

واسود خطب دونه الموت أحمر ❋ أتت بالايادى البيض أعلامه الصفر
وقد ظهرت منصوبة جزمت بها ❋ ظهور العدى من رفعها الخفض والجر
واضحت تجوز الارض شرقا ومغربا ❋ ولله فى اعلاء رتبته سر

وقال العماد عاد السلطان الى القاهرة وأقام بها ثم اهتمت بالغزاة همته الى غزة وعسقلان فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الاولى بعد الصلاة وخيم بظاهر بلبيس فى خامسه بخميسه ثم تقدمنا منه الى السدير وخيمنا بالمبرز ثم نودى خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار ولاعواز ذلك عند توسط ديار الكفار قال العماد فركبت الى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر فى الارتفاع فقلت لغلامى قد بدا لى وقد خطر الرجوع من الخطر ببالى فاعرض للبيع احمالى وأثقالى وانتهز فرصة هذا السعر الغالى وأنا صاحب قلم لا صاحب علم وقد استشعرت نفسى فى هذه الغزوة من عاقبة ندم والمدى بعيد والخطب شديد وهذه نوبة السيوف لا نوبة الاقلام وفى سلامتنا سلامة الاسلام والواجب على كل منا ان يلزم شغله ولا يتعدى حدّه ولا يتجاوز محله لاسيما ونواب الديوان قد استأذنوا فى العوده وأظهروا قلة العدّه وأظهرت سرى للمولى الاجل الفاضل فسره ذلك اشفاقا على واحسانا الى وكان السلطان أيضا يؤثر ايثارى ويختار اختيارى فقال لى أنت معنا أو عزمت ان تدعنا ولا تتبعنا فقلت الامر للمولى وما يختاره لى فهو أولى فقال تعود

وتدعو لنا وتسأل الله ان يبلغنا من النصر سؤلنا وكنت قد كتبت أبياتا الى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز فى العشرين من الشهر

قيل فى مصر نائل عدد الرمل ووفر كنيلها الموفور
فاغتررنا بها وسرنا اليها ❋ ووقعنا كما ترى فى الغرور
وحظينا بالرمل والسير فيه ❋ ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا الى المبرز نشكو ❋ سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لى سر الى الجهاد وما ذا ❋ بالغ فى الجهاد جهد مسيرى
ليس يقوى فى الجيش جاشى ولا قو ❋ سى يرى موتورا الى موتور
انا للكتب لا الكتائب اقدا ❋ مى وللمصحف لا الصفاح حضورى
كاد فضلى يضيع لولا اهتمام الـ ❋ فاضل الفائض الندى بأمورى
فانا منه فى ملابس جاه ❋ رافلا منه فى حبير حبورى
فهو رقى من الحضيض حظوظى ❋ وسما بى الى سرير السرور

وقال وما انقطعت عن السلطان فى غزواته الا فى هذه الغزوه وقد عظم الله فيها من النبوه وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيده والسعادات فيها مجدده وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت وتشوقت الى اصدقائى وتشوشت وكتبت من المخيم ببلبيس الى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وقد أقام بالقاهرة وكان صاحبا لى من الايام النورية واستشرته فى التأخر عن السلطان فكتب فى الجواب رافقه ولا تفارقه فكرهت رأيه فكتبت اليه

اذا رضيتم بمكروهى فذاك رضا ❋ لا أبتغى غير ما تبغون لى غرضا
وان رأيتم شفاء القلب فى مرضى ❋ فاننى مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبى فصرت له ❋ مستعذبا استلذ الهم والمضضا
أصبحت متعظا بى فى محبتكم ❋ حاش لله ان أبغى بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى ❋ وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم ❋ والقلب محترق منى بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا ❋ حسبت ان ودادى عندكم رفضا
قد أظلم الافق فى عينى لغيبتكم ❋ فان أذنتم لشخصى فى الحضور اضا
ولست أول صب من أحبته ❋ لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة واذى ❋ فقد رأيت امتثال الامر مفترضا
طوبى لكم مصر والدار التى قضيت ❋ فيها المآرب والعيش الذى خفضا
بعيشكم ان خلوتم بانبساطكم ❋ تذكروا ضجرا بالعيش منقبضا
رضيتم سفرى عنكم واعهدكم ❋ بسفرتى عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتم قولا أسر به ❋ هيهات جوهركم قد عاد لى عرضا
تفضلوا واشرحوا صدرى بقربكم ❋ أو فاشرحوا الى ذا المعنى الذى غمضا

فكتب الى فى جوابها أبياتا منها

لا تنسبونى الى ايثار بعدكم ❋ فلست أرضى اذا فارقتكم عوضا
ولى وداد تولى الصدق عقدته ❋ فما تراه على الايام منتقضا
يلقاك قلبى على سبل العتاب له ❋ بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
وصرت كالدهر يجنى أهله أسفا ❋ ويلتقى من عتاب المذنب المضضا

قال

قال ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

(فصل) فى نوبة كسرة الرملة وكانت على المسلمين بالجملة وذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الاربعاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى فسبى وسلب وغنم وغلب وأسر وقسر وكسب وكسر وجمع هنالك من كان معه من الاسارى فضرب أعناقهم وتفرق عسكره فى الاعمال مغيرين ومبيدين فلما رأوا ان الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة ترحلا لالقصد بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافيه فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه فماشعروا الا بالفرنج طالبة باطلابها حازبة باحزابها ذابة بذئابها عاوية بكلابها وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم وسرايا المسلمين فى الضياع مغيره ورحى الحرب عليهم فى دورهم مديره فوقف الملك المظفر تقى الدين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام انتقلوا الى نعيم دار المقام وهلك من الفرنج اضعافها وكان لتقى الدين ولد يقال له أحمد أول ما طر شاربه فاستشهد بعد ما أردى فارسا قال وكان لتقى الدين أيضا ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع فى أسر الفرنج وذلك ان بعض مستأمنى الفرنج بدمشق خدعه وقال له تجىء الى الملك وهو يعطيك الملك وزور له كتابا فسكن الى صدقه وخرج معه فلما تفرد به شد وثاقه وغله وقيده وحمله الى الداوية وأخذ به مالا وجدد عندهم حالا وجمالا وبقى فى الاسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير فغلظ القلب القوى على ذلك الولد جرهلاك أخيه ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه قال ولولا ان لتقى الدين رداء لاردى القوم لكن الناس تفرقوا وراء أثقالهم ثم نجوا برحالهم وصوب العدو بجملتهم حملتهم على السلطان فثبت ووقف على تقدمه من تخلف وسمعته يوما يصف تلك النوبه ويشكر من جماعته الصحبه ويقول رأيت فارسا يحث نحوى حصانه وقد صوب الى نحرى سنانه فكاد يبلغنى طعانه ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه فرأيت ثلاثة من أصحابى خرج كل واحد الى واحد منهم فبادروه وطعنوه وقد تمكن من قربى فما مكنوه وهم ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضى وسويد بن غشم المصرى وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر واتفق السعادة السلطان ان هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه وقارعوا العدو دونه وضايقوه فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن انه يتخلف ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل وتعسفوا السلوك فى تلك الرمال والاوعاث والاوعار وبقوا أياما وليالى بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الاصحاب وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان فى صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين الى وراء فأصبحوا بقرب الاعداء فاكنوا فى مغاره وانتظروا من يدلهم من بلد الاسلام على عماره فدل عليهم الفرنج من زعم انه يدل بهم وسعى فى أسرهم وعطبهم فاسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه الا بعد سنين بستين او سبعين ألف دينار وفكاك جماعة من الكفار قال وما اشتدت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره فان النكاية فى العدو وبلاده بلغت منتهاها وادركت كل نفس مؤمنة مشتهاها لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل وأوعر السهل وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامه والهداية الى الاستقامه ان الاجل الفاضل استظهر فى دخول بلاد الاعداء باستصحاب الكتابية والادلا وانهم ما كانوا يفارقونه فى الغداء والعشا فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وأدلائه وأثقاله وبث أصحابه فى تلك الرمال والوهاد والتلال حتى أخذ خبر السلطان وقصده وأوضح بأدلائه جدده وفرق ما كان معه من الازواد على المنقطعين وجمعهم فى خدمة السلطان أجمعين فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر وجبر الكسر وكان الناس فى مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخول الاجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف كان أولى به فان الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة والنجاة كانت فى استصحابه وجاء الخبر الى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله وان الفرنج كسروا وغلبوا فركبت لاسمع حديث النجابين وكيف نصر الله المسلمين واذا هم يقولون ابشروا فان السلطان وأهله سالمون وانهم واصلون غانمون فقلت لرفيقى ما بشر بسلامة السلطان الا وقد تمت كسره وما تم

سوى سلامته نصره ولما قرب خرجنا التاقيه وشكرنا الله على ما يسره من ترقيه وتوقيه ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ونابت سلامته مناب الدهر وسيرنا بها البشائر وأنهضنا بطاقاتها الطائر لاخراس السنة الاراجيف وابدال التأمين من التخويف فقد كانت نوبتها هائله ووقعتها غائله قال القاضى ابن شداد خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك فى أوائل جمادى الاولى وكان مقدم الفرنج البرنس ارناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين رحمه الله وجرى خلل فى ذلك اليوم على المسلمين ولقد حكى السلطان قدس الله روحه صورة الكسرة فى ذلك اليوم وذلك ان المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية الحرب فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة القلب ليكون حال اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج وقدر الله كسرهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا فى الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان وهنا عظيما جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهوره ولله الحمد قلت وذلك بعد عشر سنين فكسرة الرملة هذه كانت فى سنة ثلاث وسبعين وكسرة حطين كانت فى سنة ثلاث وثمانين قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقى الدين فى هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها

سقى الله العراق وساكنيه ❊ وحياه حيا الغيث الهتون
وجيرانا امنت الجور منهم ❊ وما فيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدما ❊ وفوا بالعهد فى الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم ❊ بحلية سودد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا ❊ لخير رعية فى خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم ❊ معنعنة مصححة المتون
بنو ايوب مثل قريش مجدا ❊ وأنت لها كانزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم ❊ يرى قبل الولادة فى الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا ❊ تركت الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا ❊ اوى منه الى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما ❊ رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمى ❊ حماه أوان ولى كل دين

قال واهتم السلطان بعد ذلك بافاضة الجود وتفرق الموجود وافتقاد الناس بالنقود والسنا بالصادقة الوعود وجبر الكسير وفك الاسير وتوفير العدد وتكثير المدد وتعويض ما نفق من الدواب فسلوا اما ناتهم ولم يأسوا على ما أصابهم قال ابن أبى طى وقال ابن سعدان الحلبى يمدح السلطان ويذكر ما فعله على عسقلان ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة

قربت من عسقلان كل نائبة ❊ باتت تقل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهى ممحلة ❊ فأصبحت مرتعا للخيل والابل
قل للفرنجية الخذلى رويدكم ❊ بالثار أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوارط العة ❊ خوارق الارض تمحور ونق الاصل
كأنني بنواصيهن يقدمها ❊ كاس من الجود عريان من البخل
حسب العدا ياصلاح الدين حسبهم ❊ أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس ❊ مرت على أصبعيه لذة العسل

(فصل) فى وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج قال العماد وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبرى الملك الصالح واستولى على أمره العدل ابن العجمى وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر

وامير المعشر وهو صاحب حصن حارم وقد حسده امثاله من الامراء والخدّام فسلموا لابن العجمى الاستبداد بتدبير الدولة فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة فى جامع حلب فقتلوه واستقل كمشتكين بالامر فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمى الا كمشتكين فهو الذى حسن ذلك للاسماعيلية وقالوا له أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أوامر فازالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم وأوقعوا بها الاجلة العظائم فكتب الى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعه وخوفوه بالصرعه فلما طال أمره قصر عمره واستبد الصغار بعده بالامور الكبار وامتنعت عليه قلعة حارم وجرد اليها العزائم ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكا لابيه يقال له سرخك وقال ابن الاثير سار الملك الصالح من حلب الى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب الى ماطلب منه فعلق منكوسا ودخن تحت أنفه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ثم انه أخذها بعد ذلك قال ابن شدّاد أما الملك الصالح فانه تخبط أمره وقبض كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم اليه فلم يفعل فقتله ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك فى جمادى الآخرة وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلموها الى الملك الصالح فى العشر الاواخر من شهر رمضان ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم الى جانب السلطان قدّس الله روحه قال العماد ووصل فى هذه السنة الى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر واعتقد خلو الشام من ناصرى الاسلام ومن جملة شروط هدنة الفرنج انهم اذا وصل لهم ملك أو كبير مالهم فى دفعه تدبير انهم يعاونونه ولا يباينونه ويحالفونه ولا يخالفونه فاذا عاد عادت الهدنة كما كانت وهانت الشدّة ولانت وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود وجندوا الجنود ونزلوا على حماه فى العشرين من جمادى الاولى وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمى مريض ونائب السلطان بدمشق يومئذ أخوه الاكبر تورانشاه وهو والامراء مشغولون بذاتهم وكان سيف الدين على بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها وخرج للحرب واجتمع اليها رجال الطعن والضرب وجرت ضروب من الحروب وكادت الفرنج تهجم البلد فاخرجوهم من الدروب ونصر الله اهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام فانهزم الملاعين ونزلوا على حصن حارم كما تقدّم ذكره فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار أربعة أشهر ومن كتاب فاضلى الى بغداد (خرج الكفار الى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكما غادرين غدرا صريحا مقدّرين ان يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحا ونزلوا على ظاهر حماه يوم الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الاولى وزحفوا اليها فى ثانيه فخرج اليهم أصحابنا وتضمن كتاب سيف الدين (يعنى المشطوب) ان القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل مابين فارس وراجل شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم النصر والظهور ثم انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الاصلاب مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الاحزاب) قال العماد وتسامع الحلبيون بيوم رحيلنا من مصر لقصد الشام لنصرة الاسلام وقالوا أوّل ما يصل صلاح الدين نسلم حارم فراسلوا الفرنج وقاربوهم وأرغبوهم وأرهبوهم وقالوا لهم صلاح الدين واصل ومالكم بعد حصوله عندكم حاصل فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها وعدّة من الاسارى خلصوها ثم توفى خال السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى فى جمادى الآخرة وتوفى ولده تكش بن خال السلطان قبله بثلاثة أيام وذلك أوان وقعة الرملة ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره ووصل ايلة فى عاشر الشهر واستناب بمصر أخاه العادل وأقام بها أيضا القاضى الفاضل بنية الحج فى السنة القابلة ووصل السلطان الى دمشق فى الرابع والعشرين من شوّال ومما نظمه العماد فى التشوق الى مصر قوله

ساكنى مصر هنا كم طيبها ❊ ان عيشى بعدكم لم يطب
لا عدمتم راحة من قربها ❊ فانا من بعدها فى تعب
بعد العهد باخباركم ❊ فابعثوا أخباركم فى الكتب
ليت مصرا عرفت انى وان ❊ غبت عنها فالهوى لم يغب

ومن ذلك قوله

تذكرت في جلق داركم ❊ بمصر ويا بعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم ❊ وذلك والله كل المنى
لكم بالجنان وطيب المقا ❊ م وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا

ياساكني مصر قد فقتم بفضلكم ❊ ذوى الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصبة كرمت ❊ ودر مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا

ياحبذا مصر وبر ❊ كتها وصدر والعريش
فهناك أملاكي الذيـ ❊ ـن سمت بعزهم العروش

قال ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه ان العدو خذله الله نهض و وصل الى صدر وقاتل القلعة ولم يتم له أمر فصرف الله شره وكفى أمره ووصل من الفرنج مستأمن وذكر انهم يريدون الغارة على فاقوس فاستقلوا أنفسهم وعرجوا وذكرانهم مضوا بنية تجديد الحشد ومعاودة القصد قال وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها وعلى الكفار باطنها ولزمنا ما نسي من اسمها ولزمهم ما بقي من عزمها ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها الى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكبيرة والحريم المستور والمال العظيم الموفور قال العماد ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العطار وهو من ذوى الاخطار وله التحكم في الايراد والاصدار وقد توفر على محبة السلطان وتربية رجائه وتلبية دعائه ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونور البصائر

❊(فصل)❊ في ذكر أولاد السلطان قال العماد في هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود وكتب الفاضل الى السلطان يهنئه به ويقول (انه ولد لسبع بقين من ذى القعدة وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولدا بل لاثني عشر نجما متوقدا فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجما ورآهم المولى يقظة ورأى تلك الانجم حلما ورآهم ساجدين له ورأينا الخلق له سجودا وهو قادر سبحانه ان يزيد جدود المولى الى ان يراهم آباء وجدودا) قال العماد وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده وجرى ذكر أولاده واعتضاده بهم واعتداده فقلت له لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لانشأت رسالة على نظامها فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم

❊(ما صورته)❊

الملك الافضل نور الدين أبو الحسن علي ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمس وستين وخمسمائة
العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ولد بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين
الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين وهو أخو الافضل لابويه
الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين
المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبعين
المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين ولد بدمشق في ربيع الاول سنة احدى وسبعين وهو أخو العزيز لابويه
الاعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وهو أخو العزيز لامه
الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين ولد بمصر في ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الظاهر لامه
المفضل أبو موسى قطب الدين ثم نعت بالمظفر ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الافضل لامه
الاشرف أبو عبد الله محمد عز الدين ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة
المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبع وسبعين وهو لام الاشرف
المعظم أبو منصور توران شاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبع وسبعين

قلت ومات سنة ثمان وخمسين وهى السنة التى أخرب العدوّ من التتار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين ولد فى ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وهو لام المعز

الغالب أبو الفتح ملكشاه نصير الدين مولده بالشام فى رجب سنة ثمان وسبعين وهو لام المعظم

المنصور أبو بكر وهو أيضا أخو المعظم لابويه ولد بحران بعد وفاة السلطان

قلت فهذه خمسة عشر ولدا ذكرهم العماد فى هذا الموضع وقال فى آخر كتاب الفتح القدسى على ماسنذكره فى آخر هذا الكتاب ان السلطان لما توفى خلف سبعة عشر ولدا وابنة صغيرة فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شاذى لام ولد ونصرة الدين مروان لام ولد وأما البنت فهى مؤنسة خاتون تزوّجها الملك الكامل محمد على ماسنذكره وهو ابن عمها الملك العادل أبى بكر بن أيوب وللسلطان غير هؤلاء الاولاد من درج فى حياته كالملك المنصور حسن وسيأتى ذكر وفاته والامير أحمد وهو الذى رثاه العرقلة بقوله

أى هلال كسفا * وأى غصن قصفا ❊ كان سراجا قدطفى * على الورى ثم انطفا
لم يركب الخيل ولم * يقلد ومرهفا ❊ قل للنجاة ويحكم * أحمد لم قدصرفا
صبرا صلاح الدين يا ❊ رب السماح والوفا

قال العماد وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين يذكر فيه فصولا متعددة منها للمولى أولاد وقد صاروا رجالا ويجب ان تستجد للقلاع رجالا كما فعل السابقون أعمارا وأعمالا وقيل القلاع أنوف من حلها اشمخ بها (مافى الرجال على النساء امين) ومنها أبيات فى ذكر السلام

مملوك مولانا ومملوك ابنه ❊ وأخيه وابن أخيه والجيران
طى الكتاب اليه منه أجابة ❊ لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وانه ❊ يجزى باحسن منه فى القرآن
وغريبة قد جئت فيها أوّلا ❊ ومن اقتفاها كان بعدى الثانى
فرسولى السلطان فى أرسالها ❊ والناس رسلهم الى السلطان

قلت وقد وصف الفاضل الملك المؤيد فى كتاب آخر فقال (وقد تمطت به السنّ وامتدّت وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدّت) وفى بعض كتب الفاضل عن السلطان الى ولده الافضل (إعزازه لاهل الفضل دليل على فضله وان الاولى ان تكون كتب الادب عند أهله وما أبهجنا اذ جال فى قضاء الفضائل وخطب من أبكار المعالى كرائم العقائل وأخى بين السيف والقلم وصار فى موكبه العلم والعلم) ومن كتاب آخر فى المعنى (فلقد زادت هذه المنقبة فى مناقبه ونظمت عقود سودد فى ترائبه

فاترجم الانسان عن سر فضله ❊ بأفضل من تقريبه لاولى الفضل

قال العماد وخرج السلطان للصيد فى ذى الحجة نحو قارا فشكوت ضرسى وعدمت أنسى فرجعت مع عزالدين فرخشاه لحى عرته فشكا منها لاتزور الانهارا جهارا ولا تفارق بعرق بالضد من الحمى التى وصفها أبو الطيب المتنبى فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها

يمينك دأبها بذل اليسار ❊ وكفك صوبها بدر النضار
وأنك من ملوك الارض طرا ❊ بمنزلة اليمين من اليسار
وأنت البحر فى بث العطايا ❊ وأنت الطود فى بادى الوقار

ومنها فى وصف الحمى

وزائرة وليس بها حياة ❊ فليس تزور الا فى النهار
ولو رهبت لدى الاقدام جورى ❊ لما رغبت جهارا فى جوارى
أتت والقلب فى وهج اشتياق ❊ ليظهر ما أوارى من أوارى

ولو عرفت لظى سطوات عزمى * لكانت من سطاى على حذار
تقيم خفين تبصر من أناتى * ثبات الطود تسرع فى الفرار
تفارقنى على غير اغتسال * فلم أحلل لزورتها إزارى
أيا شمس الملوك بقيت شمسا * تنير على الممالك والديار
أجاك استعارت لفح نار * لعزمك لم تزل ذات استعار

(فصل) قال العماد وفى العشر الاول من ذى القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدى الملاحدة وكان قد توجه الى الحج فوقف له فى مضيق وطفشاغربى دجلة كهل فى يده قصة يزعم انه يريد رفعها الى الوزير من يده الى يده فأومأ ليوصل قصته فانتهز فيه فرصته فقتله وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه وكان مع ذلك الجاهل المحدر فيقال ان له فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات وجرح آخر ولد قاضى القضاة وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة وكان للسلطان خدنا مصافيا قلت وابن العطار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتى ذكره فى آخر حوادث سنة خمس وسبعين قال ابن الاثير وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحج فعبر عضد الدين دجله فى شبارة فلما ركب دابته والناس معه مابين راكب وراجل تقدم اليه بعض العامة ليدعوا له فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم ان لا يمنعوا أحدا عنه فتقدم اليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربى فتوفى بها قال العماد ووردت مطالعة الفاضل الى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها (وماربك بظلام للعبيد فقد كان عفا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى (من ذا يسر بذنبه * والدهر لا يغتر به) وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق فى القتل وجده هو المقتول بيد البساسيرى فى وقت اخراج الخليفة القائم فى أيام الملقب بالمستنصر بمصر فهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتوله ومازالت السيوف عليها ومنها مسلوله فهم فى هذه الحادثة المسمعة المصمه كما قال دريد (أبى الموت الا آل صمه) والابيات المولى يحفظها وهى فى الحماسة وقد ختمت له السعاده بما ختمت به له الشهاده لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله قال الله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله

ان المساءة قد تسر وربما * كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا فى أبى سلمة الخلال أوّل وزير لبنى العباس قلت وبلغنى ان الفاضل قال فى ذلك

وأحسن من نيل الوزارة للفتى * حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد وكان ضياء الدين بن الشهرزورى قد سار فى الرسالة الى بغداد وتوقف فى الموصل لحادثة الوزير ووافق وصوله الى الموصل وفاة ابن عمه القاضى عماد الدين احمد بن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى وكان شابا وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه (يدلى ابن عشرين فى لحده والتسعون صاحبها راتع اغتبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل وعمر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل ليعلم ان الشيب ليس بمسلم وان الشباب الغض ليس بمانع وليكون العبد حذرا من بغتات الآجال فى كل الاحوال والله يطيل للمولى العمر كما أطال له فى القدر ونسمع منه ولا نسمع فيه ويبقيه سندا للدين الحنيفى فان بقاءه يكفيه

وهذا آخر الجزء الاول من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين يتلوه ان شاء الله تعالى فى الجزء الثانى ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة قال العماد وكان شمس الدين ابن المقدم من أكابر الامرا الى آخره قال ناسخ نسخة الاصل التى حصل عليها تمثيل هذا الطبع ووافق الفراغ من نسخه يوم الاربعا ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على يد أضعف الخلق وأحوجهم الى عفو الله أحمد بن العلم بن عبد الله غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وازواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما

وعلى نسخة الاصل المذكوره أيضا نص هذه العبارة المسطوره شاهدت على نسخة الاصل المنقول منها هذه النسخة وهى جميعها بخط قاضى القضاة نجم الدين المصرى الشافعى رحمه الله ماصورته يقول شاهدت على آخر الجزء الاول من الاصل المنقول منه هذه النسخة بخط المؤلف فى آخر المجلدة الاولى من كتاب الروضتين فرغ منها مصنفها نسخا فى حادى عشر شهر رمضان المبارك سنة احدى وخمسين وستمائة واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيره فاتت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة وكل ماتنقل من هذه النسخة هو الاصل الذى يعتمد عليه ويركن اليه كتبه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى مصنفه عفا الله عنه

وشاهدت عليه ماصورته مختصرا سمع جميع هذا المجلد على مؤلفه الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى ولده محيى الدين ابو الهدى أحمد وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الاشبيلى وزين الدين على بن أحمد بن يوسف القرطبى وشمس الدين اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المالكى وابنه محمد وعفيف الدين محمد بن ابى بكر ابن ابراهيم المؤذن الشاغورى ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنجى وسمع آخرون بفوات عينوا فى الاصل وصح ذلك بقراءة يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى فى مجالس آخرها ثامن محرم سنة أربع وستين وستمائة بدار الحديث الاشرفيه كتبه قارئه يوسف بن محمد حامدا الله مصليا على نبيه محمد ومسلما نقل ذلك كله مختصرا احمد بن صصرى التغلبى الشافعى غفر الله له

وشاهدت عليه أيضا بخطه ماصورته مختصرا قرأ على هذه المجلدة جميعها الامام الفاضل مجد الدين محمد بن أحمد ابن عمر الاربلى فسمعه بقراءته شهاب الدين أحمد الامام زين الدين أبى زكريا يحيى الحضرمى وآخرون بفوات ذكروا فى الاصل وفرغ من ذلك يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وستمائة فى أربعة عشر مجلسا كتبه مصنفه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى عفا الله عنه

يقول العبد الفقير المعروف بابى السعود أفندى محرر صحيفة وادى النيل قد تم بحمد الله وحسن توفيقه بمطبعة وادى النيل فى اواخر سنة ١٢٨٧ طبع هذا الجزء الاول من كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين الذى هو كما لا يخفى على كل ذى فضل فضيل كتاب جليل وسفر جميل ولقد اعتنى هذا العبد الضئيل باحياء مواته وتصحيحه واستيفاء رفاته وتصليحه على قدر الطاقه حتى جاء بعون الله كالروضة الغنا وقد صاح فيها البلابل وغنى يحيى من اطلال الاسلام بعض دوارسها ويعيد من آثار السلف الصالح شيأ من مغارسها والمرجو من المولى سبحانه ان يتم احسانه ويعين على انجاز الجزء الثانى كما أعان على تمام طبع هذا الجزء الاول وصلى الله على سيدنا محمد وسلم وشرف وعظم وكرم وبجل

﴿فهرست الجزء الثانى من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين﴾

صحيفه | مـــــواد

صحيفه مــــــواد

صحيفه　　　　مـــــــــواد

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل
الاوحد فريد عصره وحيد دهره مجموع الفضائل
شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسمعيل
ابن ابراهيم المقدسى الشافعى
تغمده الله تعالى
برحمته
آمين

م

رواية الشيخ الامام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى سماعا عنه

(الجزء الثانى)

(طبعة جديده)
بمطبعة وادى النيل بمصر القاهره
سنة ١٢٨٨

(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)
(النوريه والصلاحيه)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة) قال العماد وكان شمس الدين ابن المقدم من أكابر الامراء وهو السابق الى مكاتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول الى الشام وتدارك امر الاسلام وكان السلطان عند تسلم بعلبك انعم بها عليه وردّ أمورها اليه فاقام بها مستقرا ولاخلاف اعماله مستدرا ولما وصل السلطان في هذه النوبة الى الشام لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام فانه كان نمى اليه ان الملك المعظم مجد الدين شمس الدولة تورانشاه ابن أيوب طلبها من أخيه وانه لا يمكنه الردّ فخاف من الحضور ان تتم الامور وروجع في ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له ان يعوّض عنها ماهو أوفى منها فابى الا الابا وشارف السلطان منه ومن اخيه الحيا وشمس الدولة لا يقبل عذرا ولا يرى عما طلبه صبرا ثم استأذن أخاه في التوجه اليها فأذن له وتوجه عز الدين فرخشاه الى حوران لحفظ الثغور وسار السلطان الى حمص ونزل على العاصي عازما على الجهاد ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها (وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه وظهر العمل وطلع البنا وسلكت به الطريق المؤدية الى الساحل بالمقسم والله يعمر المولى الى ان يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الاسلام محلى اليدين محلا الضدين والامير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله قليل التثقيل مع حمله لاعباء التدبير واثقاله) ومنها في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون لما ذهب بصره الى ولده (لن يخلو الامر من قسمين والله يختار للمولى خيرة الاقسام ولا ينسى له هذا التحرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام اما ابقاء الامر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لاول زله وترك الاقالة لاول عثره فطالما بعث حب المنافسة الراجحه على اكتساب الاخلاق الصالحه واما ان يفوض الامر الى الامام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الاصحاب ولا يجوز ان يتقدم عليه في بلد الا من هو أرفع طبقة في العلم منه) ومنها في اقامة عذر التأخر عن الجهاد (وأما تأسف المولى على أوقات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لاجلها ويجدد العوائق التي لا يوصل الى آخر حبلها فالمولى نية رشده وأليس الله العالم بعبده وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لانه غير مقدور له ولكن عن النية لانها محل تكليف

الطاعه وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعه واذا كان المولى آخذا فى أسباب الجهاد وتنظيف الطرق الى المراد فهو فى طاعة قد امتن الله عليه بطول امدها وهو منه على أمل فى نجح موعدها والثواب على قدر مشقته وانما أعظم الحج لاجل جهده وبعد شقته ولوان المولى فتح الفتوح العظام فى أقل الايام وفصل القضية بين أهل الاسلام واعداء الاسلام لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت) ومنها فى ذكر أولاد السلطان (وقبل الاجابة عن الفصول فتبشر بما جرت العادة به لا قطع الله تلك العاده من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده الساده أطاب الله الخبر اليهم عن المولى والى المولى عنهم وعجل لقاءه لهم ولقاءهم له فانهم من يلتى منهم بل كل منهم ملك دسته برجه وفارس مهده سرجه فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها وريحانة الحياة وزهرتها وان فؤادا وسع فراقهم لواسع وان قلبا قنع باخبارهم لقانع وان طرفا نام على البعد عنهم لهاجع وان ملكا مالك تصبره عنهم لحازم وان نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم اما يشتاق جيد المولى ان يتطوق بدررهم أما تظامى عينه الى أن تتروى بنظرهم أما يحن قلبه على قلبه أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه وللمولى أبقاه الله تعالى ان يقول

وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة ❋ ولكن قلبى فى الهوى متقلب

وفى أخرى (والملوك الاولاد فى كفالة العافية لا رفعت عنهم كفالتها وعليهم جلالة السلطنة لا فارقتهم جلالتها وكل من الموالى الساده الامراء الاولاد والقاده كلهم جوهر وكلهم المقدم وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عوّد الله من صحة وسلامه وكفاية ووقايه ولزوم المستقل منهم لمشهد الكتاب ولموقف الآماج ومخائل الخفر فيهم من تحت ليل الصبا انور دلالة من ضوء السراج والله تعالى يمد فى عمر المولى الى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدهم رحمه الله فى أهل بيته من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعه وملوك الاسلام التى منهم للاسلام اكاسرة وتبابعه وكافيهم عند العلا صغير وصغير ابنا الكبار كبير نجوم الارض وذرية بعضها من بعض والخلف الصالح المحض وهم فى الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى فى يوم الحرب ويوم العرض) ومنها فى ذم ماء دمشق ووخمها (عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الامير عثمان والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد فى قلوب الاولياء الاثر العظيم وقليل قذاة العين غير قليل وماذا يقول فى بلد لو صحت الحمية من مائه لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه فانه ماء يوكل وبقية المياه تشرب ويجدو خامته من ينصف ولا يتعصب) ومنها (وأما المأمور به فى معنى المنكرات الظاهرة وازالة أسبابها واغلاق أبوابها وتحصين كل مبتوتة من عصمه وتطهير كل موسومة بوصمه فالله يثيب المولى ثواب من غضب لمن يرضيه بغضبه وحمل الخلق على منهاج شرعه وادبه) ثم أورد العماد فصولا كثيره وقال انما أوردت الفصول الفاضلية لان فى كل فصل منها ذكر سيره وفوائد كثيره .

(فصل) قال العماد ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج وتعويض أميرها بجلاب غلة تحمل اليه فى كل سنة وتعيين ضياع موقوفة عليها بالاعمال المصرية كان الرسم بمكة ان يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤس ما ينسب الى الضرائب والمكوس فاذا دخل حاج حبس حتى يؤدى مكسه ويفك بما يطلبونه منه نفسه واذا كان فقيرا لا يملك فهو يحبس ولا يترك ويفوته الوقفة بعرفة ولا يدرك فقال السلطان نريد ان نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ونغنيه عنه بنوال وان أعطيناه ضياعا استوعبها ارتفاعا وانتفاعا فلا يكون لاهل مكة فيها نصيب فقرر معه ان يحمل اليه فى كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح الى ساحل جده فان الامير بها يحتاج الى بيعها للانتفاع باثمانها ويثق أهل الحرمين من الدولة بدوام احسانها وقرر أيضا حمل الغلات الى المجاورين بالحرمين والفقرا ومن هنالك من الشرفا ووقف لها وقوفا وخلد بها الى قيام الساعة معروفا فسقطت المكوس واغتبطت النفوس وزاد البشر وزال العبوس واستمرت النعمى وزال البوس وذلك فى سنة اثنتين وسبعين ومن كلام الفاضل فى ذلك فى بعض كتبه (من البشائر التى لا عهد لحاج بارمصر بمثلها ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على نخرها واجرها انقطاع المكاسين عن جدة وعن بقية السواحل ويكفى ان تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله فى الحج فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل وما

أكثر ما اجرى الله للخلائق على يد المولى من الارزاق التى تفضل عن الاستحقاق وما أولاه بان يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من اسعاف أهل الاقتدار والمحروم من قدر فيهما على خير فاضاع فرصته بترك البدار وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس براوبحرا ومن كاوظهرا وسلما وحربا وبعدا وقربا وتوافيهم على حماسه وهو أنف فى وجه الاسلام ومسارعتهم الى نصرة أهليه بالارواح والاموال على مر الايام ومعاذ الله ان يستبصروا فى الضلال ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا فى التوسعة على أهله سعة المجال والمملوك فى مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر الى الحجاز القضاء الفريضة قولا وفعلا والسائرون فى هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى والمولى شريك فى أجرهم فليهنه ان الملوك عمرت بيوتها بالخربت وان المولى عمر بيت الله فمن كرمه سبحانه ان يعمر بيت المولى وما أشد خجل الملوك من النبى صلى الله عليه وسلم فى التقصير فى قوت جيرانه فى هذه السنة وما هكذا أوصى للمطيع ولكن للغائب حجته قلت وفى هذه المكرمة التى فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسى من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتى فيما بعد أخبرنى بها ثقة نقلها من خطه

رفعت مغارم مكس الحجا ❊ زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا ❊ دفهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة ❊ على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد ❊ وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا ❊ م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة فى فلا ❊ ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الاله ويسطو بهم سطوة الجابر
ويكشف عما بأيديهم ❊ وناهيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعد ما كشفوا ❊ كأنهم فى يد الآسر
و يلزمهم حلفا باطلا ❊ وعقبى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة ❊ فليس لها عنه من ساتر
أليس يخاف غدا عرضه ❊ على الملك القادر القاهر
أليس على حرم المسلمين بتلك المشاهد من غابر
الاحاضر نافع زجره ❊ فياذلة الشاهد الحاضر
الاناصح مبلغ نصحه ❊ الى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمن مال الزكا ❊ ة لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة فى باطن ❊ ويبدى النصيحة فى الظاهر
فاوقع به حادثا انه ❊ يقبح أحدوثة الذاكر
فما للمناكير من زاجر ❊ سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك ان لم تزل رسمها ❊ فمالك فى الناس من غادر
ورفعك أمثالها موسع ❊ رداء فخارك للناشر
وآثارك الغر تبقى لها ❊ وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة فى حقكم ❊ وحق الوفاء على الناذر
وحبك أنطقنى بالقريض وما ابتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبى ❊ وبئس البضاعة للتاجر
اذا الشعر صار شعار الفتى ❊ فناهيك من لقب شاهر

وان كان نظمى له نادرا * فقد قيل لا حكم للنادر
ولكنما خطرات الهوى * تعنّ فتلعب بالخاطر
وأما وقد زان تلك العلى * فقد فاز بالشرف الباهر
وان كان منك قبول له * فتلك الكرامة للزائر
ويكفيه سمعك من سامع * ويكفيه لحظك من ناظر
ويزهى على الروض غب الحيا * بما حازمن ذكرك العاطر

قال العماد وفى المحرم من هذه السنة توفى الحكيم مهذب الدين أبو الحسن على بن عيسى المعروف بابن النقاش البغدادى بدمشق وكان كنعته مهذبا ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا وهو مبرز فى فنه حتى ان من شدى أشياء من الطب تبجح بانه قرأ عليه وتردد لاستفادته اليه وقد راضته العلوم الرياضيه وأحكمت أخلاقه المعارف الحكميه وفى الثانى عشر من جمادى الاولى توفى الامير نجم الدين بن مصال بمصر وجأنا نعيه ونحن بحمص فجاوز اغتمام السلطان برزئه حدّه وجلس فى بيت الخشب مستوحشا وحده وقال لا يخلف الدهر لى صديقا مثله بعده وأجرى ما كان له جميعه لولده وحفظ عهده وكان لجماعة من الاعيان والشعراء والاماثل والادباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق ابقاه عليهم كأنه عليه مستحق وفى العشر الاول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماه فخرج اليها متولى عسكر حماه الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب حصن بوقبيس فأسر المقدمين وسفك بسيفه دم الباقين وجاء الى الخدمة السلطانية بظاهر حمص وساق معه الاسارى فأمر السلطان بضرب أعناقهم وان يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين فتقدم امامه الضياء الطبرى وضرب عنق بعضهم وتلاه الشيخ سليمان المغربى ثم الامير أيطغان بن يار وق واستدعى العماد وأمر بذلك فلم يفعل وطلب ان يملكه السلطان منهم صغيرا فعوّض عنه ثم رحل السلطان على طريق الزراعة الى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها ودخل فصل الشتاء فرحل السلطان عنها الى دمشق ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال وهم جماعة مع طغرل الجاندار ودخل الى دمشق فى العشر الاواخر من رجب وتمادى الامر الى ان رضى ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله وببلد كفرطاب وأعيان نواحى وقرى من بلد المعره وسلم بتسليم بعلبك من المضرة والمعرّه وكان الذى أخذه أكثر وأنفع مما خلاه وما خطر بباله ما حصل له ولا ترجاه ولا تمناه

﴿فصل﴾ كالذى قبله فى حوادث متفرقه قال العماد كتب النواب بدمشق الى السلطان ان الاموال ضائعه وان الاطماع فيها رائعه وان فى أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها وما لهم رقبة من الله يتقونها وان أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها وان المصلحة تقتضى افراد جهات لما سنح من مهمات وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار فقال لى اكتب عليها جميعها بالامضاء ولا تكدّر على ذوى الآمال موارد العطاء فقلت أما أتلو عليك الاسماء فقال لا بل نزهنى عن هذه الاشياء فبقيت تلك الرسوم دارّه والآمال بها سارّه قال وفى شعبان من هذه السنة توفى متولى المقياس بمصر ففوّض السلطان منصبه الى أخيه قال وهذا المقياس موضع مبنى من عهد خلفاء بنى العباس ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس وهناك عمود فى الماء مقسوم بالاذرع والاذرع مقسومة بالاصابع فى مسجد ينوب فى الجزيرة عن الجامع تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبى الرداد ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد وله راتب دارّ ورسم وقرار قلت بلغنى ان أبا الرداد هذا كان معلما من أهل الصدق والصلاح رتبه جعفر المتوكل على الله فى ولاية المقياس وبقى من بعده على ولده وقرأت فى تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر لابى سعيد بن يونس قال (عبد الله بن عبد السلام بن الرداد المعى بصرى قدم مصر وحدّث بها وكان قد جعل على قياسة النيل توفى بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين وذكره أبو سعيد فى أهل مصر أيضا وقال فيه ولده هو وأبوه بمصر) قال ابن الاثير وفى سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتدّ الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودام الى ان انقضى سنة خمس وسبعين وخرج الناس فى البلاد يستسقون فلم يسقوا ثم ان الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث وأرخص الاسعار ومن

عجيب مارأيت تلك السنة انني كنت في الجزيرة فأقبل انسان تركماني قد أثر فيه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكا الجوع فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكي ويتمرغ على الارض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة وضج الناس ثم جاء الخبز فأكل التركماني وأخذ الباقي معه ومشى واشتد المطر ودام من تلك الساعة فرخصت الاسعار ووجدت الاقوات بعد ان كانت معدومة ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو سرسام فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ثم ان الله تعالى رفعه في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم

﴿فصل﴾ في عمارة حصن بيت الاحزان ووقعة الهنفري قال العماد وفي مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على مخاضة بيت الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن تحكم من الثغر الاسلامي الوهن وغلق الرهن فتقول اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس وجعلناه من الرسوم الادراس فكان الامر بعد سنه على ما جرى لفظه من عدة حسنه فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه وقصد حصاره من عزمه وكان العام مجدبا والجدب عاما وقيل للسلطان ليس هذه سنة جهاد فان استحوك السلامة فامنح وان جنحوا للسلم فاجنح فقال السلطان ان الله أمر بالجهاد وكفل بالرزق فأمره واجب الامتثال ووعده ضامن الصدق فنأتي بما كلفنا النفوز بما كفله ومن أغفل أمره أغفله قال ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة وهو الخادم فاضل وكان من أفضل الخدم ندب بأفضل الخدم وفرح السلطان به واستصحبه معه الى الغزاة ووقف به على الحصن الذي استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبي وتخطف من حوله من الفرنج جماعه وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعه وعاد وقد عرف ما يعزم عليه من أمر فتحه قال وفي مستهل ذي القعدة كانت وقعة هنفري ومقتله وذلك ان الاخبار تواترت بان الفرنج قد تجمعوا في جمع عظيم وانهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة فقدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق وأمره ان يخرج الى الثغر ففعل وأمره ان علم بخروجهم ان ينفذ الى السلطان يعلمه بذلك ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد فلم يشعر طلائع فرخشاه الا وقد خالطوهم على غرة فوقعت الوقعة فقتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدميهم وطلب الملك فطرح حصانه وجرح فرسانه وجاء الهنفري ليحميه فوقعت فيه جراحات أحدها نشابة وقعت في مارنه في ذعته ونفذت الى فيه ومرت بضرسه فقلعته وخرجت من تحت فكه ووقعت أخرى في مشط رجله فنفذت الى أخمصه وأخرى في ركبته وضرب ثلاثا في جنبه فكسر له ضلعين وقتلت عدة من الرجالة والخيالة ورجعت الفرنج بخزي عظيم ليس فيهم الا مجروح وكل يوم ترد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم الى دمشق فخرج السلطان فما وصل الى الكسوة الا ورؤسهم وأسراؤهم قد جيء بها فرجع مظفرا منصورا وذلت الفرنج بعدها وانكسرت بموت الهنفري ثم سار السلطان الى الحصن الذي بنوه فأزعجهم وذعرهم وعاد على عزم العود اليه قال ثم وجه السلطان أخاه الاكبر تورانشاه من الشام الى مصر بمن ضعف من الاجناد لاجل محل البلاد فرتب في بعلبك نوابه وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذي القعدة ومر على بصرى ومنها الى الازرق ومنه الى الجفر الى ايلة الى صدر ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والاطفال

﴿فصل﴾ قال العماد وسافر الفاضل الى الحج في هذه السنة وركب البحر فكتبت اليه كتابا فيه (طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى منيل الجدا ومنير الدجى ولندى الكعبة من كعب الندى وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم ومن حاطم فقار الفقر للحطيم ومتى رئي هرم في الحرم وحاتم ماتح زمزم ومتى ركب البحر البحر وسلك البر البر لقد عاد قس الى عكاظه وعاد قيس بحفاظه ويا عجبا للكعبة يقصدها كعبة الفضل والافضال والقبلة يستقبلها قبلة القبول والاقبال) قلت ومدحه أبو الحسن بن الذروي عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها

علم الجرائل الخلق وافا ❊ فامسى حشاه يخفق رعبا

وغدا درّه لديه حقـــيرا ❊ اذ رأى الدرّ منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطرة منك يابحـــر لاضحى أجاجه الملح عـذبا
ها أيح لم يزل دعاؤك حتى ❊ هوّن الله منــه ما كان صعبا
ولقد نام اذ ركبت وللريح هبوب وجئت أرسيت هبا
حبذا ما صنعتــه من أياد ❊ عاد جدب الحجاز منهنّ خصبا
رمت كتمانها فذاعت وهل يقـــدر غيث يخفى عن الارض سكبا
فدرأت منك كعبـة الله لما ❊ جئتها حاتما وان شئت كعبا
بل رأى منك بيتـه بيت مجد ❊ أحرم الجود حوله ثم لبى
ورأى الركن من يمينك ركنا ❊ جاء للثم أبيض اللون رطبا
وزهت زمزم بشربك منها ❊ وعجيب ان يظهر الماء عجبا
وتوجهت للمـــدينة عن مكة لما تشاء وكافيك حسـبا
وأتيت الشأم تتـــلو فتوح ❊ سار شرقا به الهناء وغـربا
ان تكن غبت عنه والله يبقيـــك لا مثاله فما غبت قلبا
سرت والرأى فيه منك مقيم ❊ وبعثت الدعاء فى الليل كتبا

وقد وقفت على الرقعة التى كتبها القاضى الفاضل رحمه الله بخطه الى السلطان يلتمس منه الاذن له فى سفر الحج فأحببت نقلها هنا وما كتب السلطان رحمه الله عليها وما كتب بسببها الى بعض نوابه نقلت من خط الفاضل رحمه الله (بسم الله الرحمن الرحيم) (كتب المملوك هذه الرقعة بعد ان استخار الله سبحانه من مستهل رجب فى اكثر لياليه والى آخر هـذه الساعة وهو ينهى انه قد شارف الاربعـين وما يدرى لعلها عقبة اللقاء وفرض الله فى الحج قد تعين ووعد المولى به قد سبق عند ايلة ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ ما يحتاج اليه فى السفر والحضر والثقة به حاصلة فى المرادين من الكاتب وهما الكتمان والمعرفة وحظ المولى فى حجه ولله أضعاف حظه فى مقامه لانه ان كان ينفع بها فى الدنيا فهو ينفع هنالك فى الآخرة وان لم يكن أهلا لان يستجاب منه فالله أهل لان يجيب فى المولى والمملوك فما ثقل قط فى سؤال وليس لان المولى لا يقضيها ولكن لانه يغنيه عن السؤال فيها وهـذه حاجـة الدنيا والآخره وبعدها ينشد

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ❊ لنفسى الا قد قضيت قضاها

وما أراد المملوك ان يستشفع بمن يشارك المولى فى الاجر وما يريد الا دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولا يريد خـلاف الغرض فما بقى له بقضاء المفترض والله المغير برحمته
الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة فى سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله ما صورته (على خيرة الله تعالى ياليتنى كنت معكم فافوز فوزا عظيما) نقلتـه من خطـه ونقلت من خط بعض الكتاب ما نقله من خط السلطان رحمه الله الى بعض النواب فصـل من كتاب لهم بالخط العالى الناصرى أعلاه (ورد بتاريخ السابـع والعشرين من جمادى الاولى سـنة اربـع وسبعين وخمسمائة) (وصلنى كتاب القاضى الفاضل وهو يذكر انه مصمم على الحج الله يجعله مبارك ميمون ولكن لا أفسح له فيـه الا بعد ثنتين واحـدة انه لا يركب بحر يسير من العسكر الى ايلة ومنها يتوجه ويقيم العسكر على ايلة ليلة وعلى ارم ليلة ودون ارم ليلة وقاطع ارم ليلة فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف ان شاء الله تعالى وثانية تأخذ يده وتحلفه برأسى انه لا يجاور وثالثـة تعطيه من مال الجوالى ثلاثة ألف دينار وتقول له لا بد ان يخرج هذا عنى لا عنك فى المجاورين بمكة والمدينة وفى أهلها هـذا أمر لا بد منه فان الناس لا بد لهم من الطلب ولا بد لك من العطا وان قال ان الشئ قليل فانت تقرضنى مثل هذا المبلغ من مالك وتعطيه اياه فلا بد والا فلا اذن له فى الرواح الى الحج الا على هذه الشروط التى قد شرطتها وأما مجيئه فيجئ الى الشام فانا ما بقى لى دار الا هى حتى يقضى الله بيننا وبين الفرنج وهو خير

الحاكين) وكتب الفاضل الى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه (سقى الله الحجاز وحيا كعبته وياطول ما رشقني سهام الشوق الذى أصبح الذكر جعبته أها على تلك المواقف وتبا لمن رضى ان يكون مع الخوالف فرعيا ونعمى وحسنة وحسنى لمجاورى ذاك الحرم ولعامرى ايامه التى هى الايام لا أيام ذى سلم فيالهف الصدور وطول ظمأها الى ورود ماء زمزمه وطوبى لمن استضاء فى مضال الظلم بعلمه ومهما نسيت فلا أنسى برد الكبد بحر صيفها وموسم الانس بثلاث مناها وخيفها

أها عليها ليال ما تركن لنا ❊ الا الاسى وعلالات من الحلم

عسى الرياح اذا سارت مبلغة ❊ توفى فقد غدر الاحباب بالذمم

ثم قال فاما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون وأحاديث كلها شجون وكانت العقبى الى سلامة ولما قاربنا الكرك نهض العدو فلم تمكن الرجعة ولا التعريج جانبا ثم من الله تعالى بانجلاء النوبة ووصلنا الى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجه فلا عدمنا بشره وذلك الفضل فلا فارقت أعيننا فجره ووجدناه فى الغزاة جاهدا وللعدو مجاهدا وأوقاته مستغرقه وعزماته محققه

﴿فصل﴾ فيما فعل مع الفرنج فى باقى هذه السنة وأوّل الاخرى ووقعة مرج عيون قال ابن أبى طى كانت الفرنج قد عمرت بيت الاحزان وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فراسل السلطان الفرنج فى هدمه فاجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما غرمنا عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم الى ان بلغ مائة ألف دينار وكان هذا الحصن للداوية وكانوا يقوون من فيه بالاموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين فاشار تقى الدين على السلطان بيذل هذا المال لاجناد المسلمين ويخرج بهم الى الحصن ويهدمه ففعل ذلك كما سنذكره قال العماد ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار فى طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذى بنوه ورجع بالاسراء والغنائم وخيم السلطان بمروج الشعراء ثم انتقل الى بانياس وبلغت الخيم الى حدود بلاد الكفره وأضرم عليهم لهب النيران المستعره وكان كل يوم يركب بجهة الصيد وينزل على النهر ويجرد فرسان الجلاد والقهر ويسير قبائل العرب الى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم واحمالها موثقة باثقالها حتى جف زرع الكفار قال وفى هذه السنة اقتضى رأى الفرنج ان يرعبوا المسلمين فى كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة فغدر ابرنس انطاكية وأغار على شيزر وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الامان فرتب السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر فى ثغر حماه ومعه شمس الدين ابن المقدّم وسيف الدين على المشطوب ورتب ابن عمه ناصر الدين فى ثغر حمص فى مقابلة القمص وكتب السلطان الى أخيه العادل وهو نائبه بمصر ان ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يتقوّى بهم مع عسكر الشام على العدوّ

﴿ثم دخلت سنة خمس وسبعين﴾ والسلطان نازل على تل القاضى ببانياس فاجتمع رأيه مع بقية المسلمين على ان يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ثم يرجعوا فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهى ليلة الاحد ثانى المحرم فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بان الفرنج قد خرجت فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم وانهزمت رجالتهم فى أوّل اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدّم الداوية ومقدّم الاسبتارية وصاحب طبرية وأخو صاحب جبيل وابن القمصية وابن بارزان صاحب الرملة وصاحب جينين وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدّمين الاكابر ما زاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم ثم قدمت الاسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى قال العماد وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلبى ومن ألطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين والاسراء قد أنافوا على سبعين وقد أنزل الله علينا السكينه وخصهم بالذلة المستكينه وطلع الصباح ورفع المصباح وقمنا وصلينا بالوضوء الذى صلينا به العشا ثم عرض الباقون من الاسرا ثم نقلوا الى دمشق فاما ابن بارزان فانه بعد سنة بذل فى نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من المسلمين وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين فالتزم ادراكه وان يؤدّى من قطيعة المذكور القطيعة التى قرر بها فكاكه وأما ابن

القمصية

القمصيه فانه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصوريه وأما أودمقدم الداويه فانه انتقل من سجنه الى سجين فطلبت جيفته فأخذوها باطلاق أسير من مقدمى المؤمنين وطال أسر الباقين فنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان وهذه هى وقعة مرج عيون وكان العدو فى عشرة آلاف مقاتل وانهزم ملكهم مجروحا وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة بلاء حسن حكى حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين قال كنا فى أقل من ثلاثين فارسا قد تقدمنا العسكر فشاهدنا خيل الفرنج فى ستمائة فارس واقفين على جبل و بيننا و بينهم الماء فأشار عز الدين بان نعبر النهر اليهم ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم ومن أحسن ما اتفق انه فى اليوم الذى كسرت فيه الفرنج بمرج عيون ظفر الاسطول المصرى بطشة كبيرة فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستصحبا ألف رأس من السبى فأقرب مابين النصرين فى المصرين وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الامرين الامرين لقدعم النصر وتساوى فيه البر والبحر ومما مدح به السلطان فى هذا الفتح مدحة سيرها من مصر اليه فخر الكتاب أبو على الحسن بن على العراقى الجوينى أولها

لك رب السماء خير معين * وكفاه بما تحب ضمين
فله الحمد أى نصر عزيز * قد حبانا به وفتح مبين
أدرك الثارحين نازله المغـــوار حيف الكفار ليث العرين
الهمام الغضنفر الملك النا * صر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكا أضحى الزمان يناجيــــه بلفظ المذلل المسكين
قذفت أهلها الحصون الى بأ * سك حتى عوضتهم بالسجون
وأراهم رب السماء باسيا * فك مالم يجل لهم فى ظنون
لك قلب عند اللقاء مكين * وله من تقاه ألف كمين
يا مليكا يلقى الحروب بحول اللـــه مستعصما وصدق اليقين
ان هذا الفتح المبين شفاء * لصــد وروقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين * سهل الله نصره فى الحزون

قال العماد وكان تقى الدين غائبا عن هذه الوقعة واشتغل عنها بغيرها وذلك ان سلطان الروم قليج ارسلان طلب حصن رعبان وادعى انه من بلاده وانما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده وان الملك الصالح ولده قد انعم به عليه ورضى بعوده اليه فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم فارسل قليج ارسلان عسكرا مجمعا فى عشرين ألفا لحصار الحصن فلقيهم تقى الدين ومعه سيف الدين على المشطوب فى ألف مقاتل فهزمهم قال ولم يزل تقى الدين يدل بهذه النصرة فانه هزم بآحاد ألوفا وارغم باعداد من الاعداء أنوفا وقال ابن أبى طى واتصل بالسلطان ان قليج ارسلان قد طمع فى أخذ رعبان وكيسون فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه ويدعى ان نور الدين ابن زنكى اغتصبهما منه وان الملك الصالح قد أنعم عليه بهما فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه فعاد الرسول واخبر قليج ارسلان فغضب وسير عسكرا الى رعبان فحاصرها وسمع السلطان فندب تقى الدين عمر فى ثمانمائة فارس فسار فلما قارب رعبان أخذ معه جماعة من اصحابه مقدار مائتى فارس وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قليج ارسلان ليلا فرآهم قد سدوا الفضاء وهم قارون آمنون وادعون فقال تقى الدين لاصحابه هؤلاء على ما ترون من الطمأنينة والامن والغفلة وقد رأيت ان نحمل الساعة فيهم بعد ان تتفرق فى جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فانهم لا يثبتون لنا فاجابوه الى ذلك فانفذ واحدا من أصحابه الى باقى عسكره وامرهم ان يتفرقوا أطلابا وان يجعل فى كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات فاذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم وجدوا فى السير حتى يلحقوا به ففعلوا ما أمرهم ثم انه حمل فى عسكر قليج ارسلان وصرخ اصحابه فى جوانبه وكان عدة عسكر قليج ارسلان ثلاثة آلاف فارس فلما سمعوا الضجة وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك اجرام الحديد هالهم ذلك وظنوا ان قد فوجئوا بعالم عظيم فلم يكن لهم الا ان جالوا فى كواثب خيولهم

عرياوطلبوا النجاة وأخذتهم السيوف فتركوا خيامهم واثقالهم بحالها وأكثر تقي الدين فيهم القتل والاسر وحصل على جميع ما تركوه فلما أصبح جمع المأسورين ومنّ عليهم باموالهم وكراعهم وسرحهم الى بلادهم قال وقيل ان الخبر بهذه الكسرة وصل الى السلطان في اليوم الذى كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون فتوافقت البشارتان الى البلاد قال وقد مدح ابن التعاويذى السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها اليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها

كاد الاعادى ان يصيبك كيدها ❊ لولم تكدك برأيها المأفون
تخفى عداوتها وراء بشاشة ❊ فتشف عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فرددتها ❊ تدرى بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم ❊ أفضت اليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة ❊ فى الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم ❊ بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت هكذا أنشده وهو حسن وقد كشفته فى نسخة من ديوان ابن التعاويذى فوجدت آخر هذا البيت (طائر جدك الميمون) وأول هذه القصيده

ان كان دينك فى الصبابة دينى ❊ فقف المطىّ برملتى يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل

ليت الضنين على المحب بوصله ❊ لقن السماحة من صلاح الدين
ملك اذا علقت يد بذمامه ❊ علقت بحبل فى الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى ❊ بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد ❊ خلقت صوارمه بغير جفون
لوان لليث الهزبر سطاه لم ❊ يلجأ الى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوّها ❊ مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة فى قدرة وتواضع ❊ فى عزة وشراسة فى لين
وأريتنا بجميل صنعك ما روى الــرا ❊ وون عن أمم خلت وقرون
وضمنت ان تحيى لنا ايامهم ❊ بالمكرمات فكنت خير ضمين

قال ابن أبى طىّ نزل السلطان على تل القاضى ببانياس على المرج الذى يعرف بمرج عيون وأنفذ فى ثانى المحرّم قطعة من عسكره مع عز الدين فرخشاه لشن الغارة على بلاد الفرنج فلما أصبح ركب يستوقف اخبار فرخشاه فاهو الا ان خرج من الخيم حتى رأى اغنام بانياس قد أقبلت من المراعى هاجة على وجوهها من الغياض والاودية فقال هذه غارة فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب فوصل بعض الرعاة فأخبران الفرنج قد عبروا وصاروا قريبا منه على هيئة المتقفلة فسار حتى أشرف على الفرنج فاذا هم فى ألف رمح فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الارض منهم والقى جماعة منهم سلاحهم وسلموا أنفسهم اسارى ونجا ملك الفرنج هنفرى هاربا ويقال انه وقع به فرسه فحمله أحد خيالته على ظهره ثم رجع السلطان الى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الاسارى فذكر نحو ما سبق وفى كتاب الفاضل الى صاحب له بمكة وقد سبق بعضه قال (وجرت نوب منها قتل الهنفرى لعنه الله وتمام سبعين فارسا من كبار الخيالة وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته وتحاملا بآخر رمق مع بقية من نجا من خيالته ومنها نوبة وادى الحريق وقد جمع الله العدوّ فارسه وراجله ومنها نصر الله الذى ما كان قبله لملك من ملوك الارض فقتل ابن بارزان ومقدّم الداويه وابن صاحب طبريه وأخو اسقف صور وصاحب جبيل وأصحاب الحصون والقلاع ومقطعو الاقاليم والضياع وحصل تحت اليد الناصرية أعلاها الله مائة وستون كلهم تثنى عليهم الخناصر وتقطر بهم العساكر ومنها دخول العساكر الى عمل بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها وقطع كل شجرة مثمرة من أصلها قال

وكانت الاساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها الى أن بلغت ستين شينيا وعشرين طريدة فسارت الشوانى خاصة فدخلت البلاد الروميه ودوّخت السواحل الفرنجيه وأسرت ألف علج احضرتهم اسرى فى قيد الاسار وقتلت الرفاق الكبار وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار)

﴿فصل﴾ فى تخريب حصن بيت الاحزان وذلك فى شهر ربيع الاوّل قال العماد جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجالة فوصل الى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر والحصن مبنى دونها من الغرب فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المرج عن العسكر واحتاج الى نصب ستائر لاجل المنجنيقات فركب السلطان بكرة الاحد الى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداويه وهو عشر البليه وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر وزحفوا الى الحصن بعد العصر فما أمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم اليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يفتح الفرنج الابواب ويغيروا عليهم على غرة واذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا فاطمأن المسلمون وقالوا ما بقى الا النقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلى وأخذ السلطان الجانب الشمالى وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا وكذلك تقى الدين وكل كبير فى الدولة جعل له قسما وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشى بالحطب ليلة الاثنين وحرّق وكان النقب فى طول ثلاثين ذراعا فى عرض ثلاث أذرع وكان عرض السور تسع أذرع فما تأثر بذلك فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين الى اطفاء النيران ليتم نقبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار قال العماد فرأيت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفحوه وفتقوه وشقوا حجره وقلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والاربعاء ثم أحرقوه واشتدّ الحرص عليه لان الخبر أتاهم بان الفرنج قد اجتمعوا بطبرية فى جمع كثير فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الاوّل وتعالى النهار انتقض الجدار وتباشرت الابرار وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطبا فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الاسلحة وشيئا كثيرا من الاقوات وغيرها وجىء بالاسارى الى السلطان فمن كان مرتدا أو راميا ضربت عنقه وأكثر من أسر قتله فى الطريق الغزاة المطوّعة وكان عدّة الاسارى نحو سبعمائة وخلص من الاسر أكثر من مائة مسلم وسير باقى الاسارى الى دمشق وأقام السلطان فى منزلته حتى هدوا الحصن الى الاساس وطم جب ماء معين كانوا حفروه فى وسطه ورمى فيه القتلى وكان عند السلطان رسول القمص معافى وهو يشاهد بلية أهل ملته وقد كان السلطان بذل لهم فى هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا وكان مدّة المقام على الحصن فى أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما وبعد ذلك سار السلطان الى اعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله اليها ورجع السلطان الى دمشق يوم الاربعا ومرض جماعة من ذلك الوبا لان الحر كان شديدا وأنتنت جيف القتلى وطوّل السلطان المقام عليه بعد فتحه لاجل تتميم هدمه فتوفى أكثر من عشرة أمرا وعاد المشهد اليعقوبى كما كان مزورا وبتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نفادة الدمشقى من جملة مدائحه

هلاك الفرنج أتى عاجلا ❊ وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها ❊ لما عمرت بيت احزانها

ولابى الحسن على بن محمد بن رستم الساعاتى الخراسانى ثم الدمشقى من قصيدة أوّلها

بجدّك اعطاف القنا تتعطف ❊ وطرف الاعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب ❊ وسيف هدى فى طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وانه ❊ لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الارض بل حال دونه ❊ رجال كآساد الشرى وهى ترجف

وجرداء سلهوب ودرع مضاعف * وأبيض هنـــــدى ولدن مثقف
ومارجعت اعـلام الصفر ساعة * الى ان غدت اكبادها السود ترجف
كبا من أعاليـه صليب وبيعـة * وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومــنزل الــــنزال لقـد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى ايمانها وهى تحلف
نصحتكم والدين فى النصح واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ومن قصيدة لسعادة الضرير الحمصى

حللت فكنت الالمعى المسـدّدا * وسرت فكنت الشمرى المؤيدا
وقت باعباء الممالك ناهضا * فأقعدت اعداء ولم تخش مقعدا
تعوّدت ضرب السيف والطعن بالقنا * وكل امرء مغرى بما قـد تعوّدا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبه * فناداك حزب الله ياناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحه * فارضيت لما ان غضبت محمـدا
فيا يوسف الخـير الذى فى يمينه * من الخير ماقد غار فينا وأنجـدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغى * ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت الى الاعداء جيشا عرمرما * اذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبـق للطغيان شمــلا مجمعا * ولم تبـق للايمان شملا مبدّدا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه * فأقعدت لما ان نهضت به العدى
حملت ذبالا فى ذوابــــل سمره * فلما دجى ليـل العجاج توقدا
وزرت به الحصن الذى لو تحصنت * فوارسه بالنجم أوردته الردى
قدمت به صلب الصليب ورعته * وشهـدته لما غفا فتشهـدا
هببت اليـه هبــــة يوسفية * تعيد هباء كل ما كان جلمدا
وفض بما قد فضـــه من سهامه * نواجـــذ ثغر الهنفرى وقدّدا

قال ومنهم الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقى من أهل الحلة المزيدية وكان حاضرا فى نوبة ابن بارزان له من قصيدة أوّلها

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر * ونيل الامانى الغر والفتكة البكر
وماحزت فيها من فخار ومن علا * وحسن ثنا يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفيـــة والقنا * سموأبى لاينام عـــلى وتر
وصلت بها حبـل المفاخر مثلما * قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم * وخضت سواد الليل وهو دم يجرى
وقد عرف الافرنج بأسك فى الوغى * وجرعتهم منه أمرّ من الصـبر
وظنوا بناء الحصن صونا لملكهم * فأصبح بالشعواء منهتك الستر
فـاقبضت منهم يد الغدر قطعت * أناملها الاعلى صـفقة الخسر
هى الفتكة الغراء لازلت قائما * بامثالها فى الدين فى السر والجهر
وأصبح فى أقصى خراسان ذكرها * وفى كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة * فـاخلقوا الا على شيمة الغدر
فسر واملك الارض التى لو تركتها * لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا * باخمصها تعـلو على الانجم الزهر

اذا عـــد أرباب الفخار فانتم ❊ ذو والفعلات الغر والنائل الغمر
وأنت الذى أصبحت بالبأس والتقى ❊ وبذل اللهى عالى السنا عاطر الذكر

ومن كتاب فاضلى الى بغداد فى وصف الحصن (وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر فى مكانه ولا يستقل فى بنيانه الا بأربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس الذى اذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوثق وأصلب من جرمه وأوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه) ومنه فى وصف النار قال (وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنار به مطيفة وعليه مشتملة وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ومن خلفه مسبلة ونارهم قد اطفأها الله بتلك النار الواقده ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الابرجة الساجده وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا والشفق قد عم الليلة فلم يختص آصالا ولا اسحارا ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجاره والمنادى ينادى بلسان مصابها اياك أعنى فاسمعى ياجاره فولجت النار ولج يضيق منها الفكر ويعجز عنها الابر ونقلت النبأ من العين الى الاثر وقال الكفر انها لاحدى الكبر وخولف المثل ان السعادة لتلحظ الحجر وأغنى ضوءها لسان كل امعة ان يسأل هذا وهذا اما الخبر وقذفت بشرر كالجمالات الصفر وزفرت بغيظ تعفرله خدود الجبال الصعر وتلحقها بالكثب العفر وبات الليل والنهار يثله وكلما أخمده الخمود جعل الوقود يسله الى ان بدا الصباح كأنه منها امتار الانوار وانشق الشرق ومن عصفرها اصبغ الازار فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع بيده الاحجار من أسها ومحا حروف البنيان من طرسها وتبعه الجيش ورفاقه وكافة من اشتمل عليه نطاقه) وفى كتاب آخر (وكان مبنيا على تل وفيه صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل ودابة محرقة بالنار فما سدت عرضته ولا ملأت حفرته وكان فيه نحو الف زردية والمقاتلة ثمانون فارسا بغلمانهم وخمسة عشر مقدما للرجال مع كل مقدم خمسون رجلا هذا الى الصناع ما بين بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفى وصناع أنواع الاسلحة وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل نزعت القيود من أرجلهم وجعلت فى أرجل الفرنج وكانت فيه أقوات لعدة سنين وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع الى حين ولما قوتل أول يوم هجم حوشه وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم وأخذت دوابهم وفى الحال علقت النقوب على خمس جهات وحشيت بالنيران وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان ولم تزل النار توقد ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد الى ان تمكنت النقوب وحشيت بالاحطاب وأطلقت فيها النيران فى يوم الخميس فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت الابرجة فهى يومئذ واهيه وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه واشتعلت النيران فى أرجائه ونواحيه وكان الطاغية مقدم الحصن يشاهد ما حل ببنيانه وما نزل من البلاء باصحابه وأعوانه ولما وصلت النار الى جهته ألقى نفسه فى خندق نار صابرا على حرها ففى الحال نقلته هذه النار الى تلك النار ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على سبعمائة بعد المقتولين وما يقصر عدتهم عن مثلها توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعفية أثره وازالة ضرره فالحقت أعاليه بقواعده وصار أثرا بعد عين فى مشاهدة عين هذا والفرنج مجتمعون فى طبرية يشاهدون الامر عيانا وينظرون الى الحصن وقد ملئ نيرانا وارتفع دخانا وسارت العساكر الى اعمال صيدا وبيروت وصور فانثنت مغيرة قاستنارت كل غامضه ووصلت الى كل ذخيره وصارت بلاد الفرنج لا يسكن فيها الا قلعة أو مدينه ولا يقيم فيها الا من نفسه لشدة الخوف معتقلة فى نفسه أو مشحونه) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى وزير بغداد (تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى وكثرت بها الشكوى وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن وكان خادما المجلس السامى ابن أخيه تقى الدين وابن عمه ناصر الدين قد جهدا وأثخنا وبلغا حد اليأس وامتحنا وكادا يسقطان من ضمير المنى فمن الله تعالى بالشفا وهذه البشرى بفتح الحصن وان كانت شريفة مواقعها عامة منافعها فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة رائقه وجاءت فى مكان الرديف لاخرى لا فرق بينهما الا ان تلك سابقه وهذه لاحقه وذلك ان الاسطول المصرى غزا غزوة ثانية غير الاولى وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى وكانت عدته فى هذه السنة قد أضعفت وقويت واستفرغت فيها عزائم

الجهاد واستقصيت واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر ويفتكون في البر ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر فسارت على سوارهي كائن الا انها تمرق مروق السهام ورواكدهي مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب منها تسمى غربانا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جواري وكم بشر بجريها من النصر بغلام فطرقت في الاحد حادي عشر جمادى الاولى مينا عكا وهي قسطنطينية الفرنج ودار كفرهم أبدلها الله من الكفر اسلاما وخلع عنها الشرك البالي وخلع عليها من التوحيد اعلاما وكانت مفروسة فاصبحت مفترسه وباتت جميع الفرنج محترسه وغدت مترسه فهاهي الاان حذفت والجة على المينا وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيما وتكسيرا ونطاحا يقلقل ولوكان ثبيرا واخلت ساحل الفرنج بقتالها وباشرت مثل الماء بنزولها ونزالها وهذا مالم يعهد من الاسطول الاسلامي مثله في سالف الدهر لا في حالة قوة اسلام ولا ضعف كفر ومما سبيله ان تطرز السير الكريمة بفخره كما طرز الله الصحيفة الشريفة باجره وقتل على قلعة عكا ثلاثة نفر بأليم السهام أبعدما كانوا وقفوا عنها وآمن ما كانوا منها فصرعتهم الايدي والافواه وخروا سجدا على الجباه سجودا لا يرفعون منه الرؤس ولا ينتقلون منه الى حالة الجلوس ولا يرفع فيما يرفع لهم من عمل ولا لهم فيه من قبلة ولا لهم به من قبل وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتناضلها)

﴿فصل﴾ في باقي حوادث هذه السنة منها حجة الفاضل الثانيه ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك قال العماد وفي العشر الاخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق الى الحج ثم عاد الى مصر من مكة قلت وقفت على نسخة كتاب الفاضل الى الصفي بن القابض يصف له مالقي في طريقه الى مصر وركوب البحر وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة فقال (خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة وفي هذه الايام زاد تبسط المفسدين واسراف المسرفين وظهر من هوان أمير الحاج العراقي ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح ووصلنا الى جدة يوم الاحد السابع والعشرين من ذي الحجه وركبنا البحر في يوم الثلاثا التاسع والعشرين منه وبتنا فيه ليلتي الاربعاء والخميس ورمتنا الريح الى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمى دبادب وكانت احدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤس أصحابنا في تلك الليلة وايسوا من الانفس وتمنوا معاجلة الامر وتقصير العذاب وظنوا انهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالاقدار التي لا حيلة فيها وصبرنا الى ان فرج الله سبحانه ونزلنا البرية بحيث لا ماء يشرب ولا جمل يركب وانفذنا الى البجاة النازلين على ساحل البحر فاحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله فركبناها ووصلنا الى عيذاب بعد عشرة أيام وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا لان الخلق كانوا كثيرا والزاد يسيرا وركبنا البرية من عيذاب الى اسوان فكانت أشق من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها لانا وردنا الماء في احدى عشرة ليلة مرتين وكانت الهمة قاصرة في المزاد فكانت البلوى عظيمة في العطش فاما الحزون والوعور فهي تزيد على ما في برية الشام بكونها طريقا بين جبلين كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب وحر الشمس شديد وقريب الوعد بينهما بعيد ولطف الله الى ان وصلنا مصر في السابع عشر من صفر قلت وللوجيه بن الذروي في الفاضل

لك الله اما حجة أو وفادة ❊ فمن مشهد يرضى الاله وموسم

ترى تارة بين الصوارم والقنا ❊ وطورا ترى بين الحطيم وزمزم

وكم لك يا عبد الرحيم مآثر ❊ لها في سماء الفخر اشراق انجم

كانك لم تخلق لغير عبادة ❊ واظهار فضل في الورى وتكرم

قال العماد وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ابن السلطان وكان أحب أولاده اليه وهو الذي قام بتدبير الملك بعده وولد بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين وخمسمائة كما سبق ذكره وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه اليه فاستقدمه فقدم عليه عاشر رجب سنة احدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدومه قصيدة منها

يا أسد ايحمى عرين العلى ❊ هنئت جمع الشمل بالشبل
عثمان ذى النورين بين الورى ❊ من سود دسام ومن قضل
يحكيك اقداما وبأسا فما ❊ أشبه هذا الفرع بالاصل
مخائل الرشد على بشره ❊ شاهدة بالفضل والنبل
ملك قضى الله له انه ❊ على ملوك الارض يستعلى
بالملك الناصر سلطاننا ❊ طالت يد الاحسان والعدل

ثم لم يفارقه واستصحبه الى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ثم عاد به معه الى الشام فى شوّال سنة ثلاث وسبعين واتخذ له معلما من مصر وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور فحصل من صحبته رزقا واسعا لاسيما فى عام الطهور فانه عم فيه السرور والحبور وكان متولى الانفاق فى الطهور صفى الدين بن القابض لانه كان متولى الخزانة والديوان والاعمال بدمشق قال وحج يعنى ابن القابض سنة أربع وسبعين وفيها حج الفاضل من مصر يعنى حجته الاولى وعاد الى الشام ومعه ابن القابض قلت فلما رجعا معا فى حجة الفاضل الاولى الى الشام ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين وتم له فى رجوعه ما تم كاتبه بالكتاب الذى سبق ذكره يصف له مالقى فى رجوعه وكانت حجة الفاضل الاولى من مصر ورجع الى الشام وكانت الثانية من الشام ورجع الى مصر وفى هذه السنة توفى الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين وقبره القبر القبلى من القبور الاربعة بالقبة التى فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق قال العماد وفيها خرجوا الى بعلبك لتسليمها الى عز الدين فرخشاه فسلكوا طريق الرواديف وهى طريق شاقة وفيها أغار عز الدين على صفد ثامن عشر ذى القعدة وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها ورجع غانما سالما قال وفى مستهل ذى القعدة أو ثانيه توفى ببغداد الخليفة الامام المستضىء بالله أمير المؤمنين واستخلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد وكان رسول السلطان ضياء الدين الشهرزورى حاضر المحضر وبايع وأخبر بجلية الحال فبادر السلطان الى الخطبة له فى جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا الى بهلوان وألزمه حتى خطب بهمدان وأصفهان وعمت الدعوة الهادية فى جميع بلاد خراسان ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء الينا رسولا فى سنة ست وسبعين وأخذه السلطان معه الى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتى ذكره وللعماد فى مدح الامام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتى منها ابيات عند ذكر فتحه ومنها

الدهر ينصرنى مادام ينسبنى ❊ لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضىء أبى العباس أحمد للايام اصحاب

وقال محمد بن القادسى فى تذييل تاريخ أبى الفرج بن الجوزى مولد المستضىء ثالث عشرى شعبان من سنة ست وثلاثين وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار عادلا ظهر يوم مبايعته من ردّ المظالم والاملاك المقبوضة والافراج عن المسجونين واسقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشتهر قال وتقدم الى شيخ الشيوخ عبد الرحيم والى عبد الرحمن بن الجوزى فصليا عليه ثم بايع الناصر أخوه الامير أبو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم وكان والده المستضىء قد عهد اليه قبل وفاته بيوم واحد قلت كذا نقلته من خطه ولعله أراد باسبوع واحد فسبق به قلمه فان ابن الدبيثى ذكر انه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوّال ثم قال ابن القادسى وفى سابع ذى القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبى بكر بن العطار ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به وقتل النقيب مسعود الذى كان بين يديه وكان أحد الاعوان بباب النوى قد نزعت الرحمة من قلبه فقطع قطعا وشدّ فى رجله حبل وسحبته العامة فى الدروب ثم أحرقوه بعد ذلك قال وفى حادى عشره حمل ابن العطار ميتا وعلم به العامة فرجموا تابوته بالآجر فألقاه الحمالون وهربوا فأخذه العامة وشدّوا فى رجله شريطا وسحب فى جميع بغداد ودمنا فذهبوا ودروبها ومحالها

وقطع لحمه قطعا قال وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم الى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لاجل الخطبة فتوقف عن ذلك فهاجت العامة عليه ووثب أهل المذكور وخطبوا وجاء كتاب شيخ الشيوخ الى الديوان سطرها فلان والحال فى الجنوح كقصة نوح من قرأ السوره عرف الصوره قال وفى هذه السنة اشتدّ الغلاء وكثر الوباء ببغداد وغيرها من البلاد وذكر ان رجلا بواسط ذبح بنتاله وأكلها وآخر بقر بطن صبى وأخذ كبده وشواها وأكلها قال وفى رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الارض بعد العتمة فوق بلاد اربل فلما أصبح الناس عادت الزلزلة فى الجبال فتصادمت ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة وهلكت قرى بمن فيها وكان يكون بين الجبل والجبل عشرون ذراعا فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان الى مكانهما قال ابن أبى طى وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك وكانت احدى الجوائح التى أصابت حلب وأهلها قال وفيها خرج قراقوش التقوى الى طرابلس المغرب ففتح بلادا وصلى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذى دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقى الدين لان نفسه أطمعته ان يفعل فعل قراقوش فى تملك البلاد ثم أصلح بينهما

(ثم دخلت سنة ست وسبعين) ففيها توفى الحافظ أبو طاهر السلفى رحمه الله بالاسكندرية وقد زرت قبره بها داخل الباب الاخضر قال العماد وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج وتوجه الى بلد الروم فاصلح بين نور محمد بن قرا ارسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو وكثرت ثم الهدايا والدعوات والافراح والهبات وفيها دخل السلطان بلاد الارمن لقمع ملكهم ابن لاون لانه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا فى مراعى بلاده بالامان ثم صبحهم بغدره وحصلوا بامرهم فى أسره فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده ونصر الله المسلمين بالرعب فاحرق من الخوف قلعة شامخة تعرف بالمناقير وبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات فتقوّوا بها وتمموا هدمها الى الاساس قال ابن أبى طى ووجد المسلمون فى أرضها اصهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل قال وبذل للسلطان جملة من المال وانه يطلق من عنده من الاسارى فلم يرض السلطان بما بذله فزاد فى المال وانه يشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك قال العماد وأذعن الارمنى وذل وأطلق ما بيده من الاسارى ورجع السلطان مؤيدا منصورا ووصل الى حماه فى أواخر جمادى الآخرة وكان الجمال الواسطى أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرى شاهد هذه الغزاة فنظم قصيدة فى السلطان منها

لقد جل الله منك الورى ❊ بأوفى مليك وفى هجان
تهش الى نغمات السيو ❊ ف فى الهام لا نغمات القيان
أزرت ابن لاون لأواءه ❊ فاضحى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى ❊ حذارا من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده للثبا ❊ ت وليس له بسطا كم يدان
وأخلى اليكم مناقيره ❊ وغادر للهدم تلك المبانى
وأرسل بالاسراء العنا ❊ ة يسأل اطلاقه فهو عانى
رتقت بعزمك والمكرما ❊ ت فتوقا من الارتقى الهجان
ورعت ابن سلجوق فى ملكه ❊ فقعقع من رعبه بالشنان

قال ولما وصل السلطان الى حمص وخيم بالعاصى أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلى وأنشده وله فى السلطان مدائح منها قصيدة غرّاء مطلعها

أما وجفونك المرضى الصحاح ❊ وسكرة مقلتيك وأنت صاحى
لقد أصبحت فى العشاق فردا ❊ كما أصبحت فردا فى الملاح
يهز الغصن فوق نقى ويرنو ❊ بجد ظبى ويبسم عن اقاح
وقد غرس القضيب على كثيب ❊ فأثمر بالظلام وبالصباح

وما

ومال مع الوشاة ولا عجيب ❊ لغصن ان يميل مع الرياح
قطعنا الليل فى عتب وشكوى ❊ الى ان قيل حىّ على الفلاح
ولاح الصبح يحكى فى سناه ❊ صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه ❊ لقيناه بآمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى ❊ رعاء الشاء والنعم المراح
جوادبالبلاد وماحوته ❊ اذا جادوا بألبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه ❊ اذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم ❊ ومشغول بلهو أو مزاح
اذا ما جالت الابطال ولى ❊ ويقدم نحو حائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال ❊ ومالك رق املاك النواحى
هم جمعوا وقد فرّقت لكن ❊ جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج لديك حتى ❊ رأوا ما لا يطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ❊ ولكن خوف معلمة رداح
ملات بلادهم سهلا وحزنا ❊ أسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شدّاد لما عاد السلطان بعد الكسرة يعنى كسرة الرملة الى الديار المصريه وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم وعلم تخبط الشام عزم على العود اليه وكان عوده للغزاة فوصله رسل قلج ارسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فاحتمل نحو بلاد ابن لاون لنصرة قلج ارسلان عليه ونزل يقرا حصار وأخذ عسكر حلب فى خدمته لانه كان قد اشترط فى الصلح ذلك واجتمعوا على نهر الازرق بين بهسنى وحصن منصور وعبر منه الى النهر الاسود طرف فلاد ابن لاون فأخذ منهم حصنا وأخربه وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنهم ثم راسله قلج ارسلان فى صلح الشرقيين باسرهم واستقر الصلح فى عاشر جمادى الاولى سنة ست وسبعين ودخل فى الصلح قلج ارسلان والمواصلة واهل ديار بكر وكان ذلك على نهر شيخه وهو نهر يرمى الى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

﴿فصل﴾ فى وفاة صاحب الموصل قال العماد وفى أوائل هذه السنة توفى صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل والسلطان مخيم على كوك سو من حدود بلاد الروم وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود ابن مودود وجاء رسول مجاهد الدين قايماز وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع ابن الدهان البغدادى الى السلطان وطلب منه ان يكون معه كما كان مع أخيه من ابقاء سروج والرها والرقة وحرّان والخابور ونصيبين فى يده فلم يفعل السلطان وقد كانت له باطلاق الخليفة وانما جعلها فى يد سيف الدين غازى بالشفاعة على شرط انه يقوّى السلطان بالعساكر فلما مات سيف الدين كتب السلطان الى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وان هذه البلاد لم تزل تتقوّى بها ثغور الشام ففوّضت اليه على ما أراد وكان الكتاب الى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من انشاء العماد وفيه (قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبوديه للدار العزيزة النبويه بما لم يختص به أحد وامتدّت اليد منا فى اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتدّ اليه يد وأزلنا من الاقاليم الثلاثة أدعيا وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا ولا خفاء ان مصر اقليم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمه وعانت كل هضيمه وعاينت كل عظيمه حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بنى عبيد وأطلقها بمطلقات أعنتنا اليها من عناء كل قيد وفيها شيعة القوم وهم غير مأمونى الشر الى اليوم وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البرّ والبحر بها مطيفة فمن حقها ان يتوفر عسكرها فلو حصل والعياذ بالله بها فتق لاعضل رتقه واتسع على الراقع خرقه واحتجنا فى حفظ بلاد الشام وثغور الاسلام الى استصحاب العسكر المصرى اليها وله مدة خمس سنين فى بيكارها منتقما من كفارها مقتحما لمشاقها على غلاء اسعارها وانما أحوج الى ذلك ان بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه وعساكرها اخذت منه وكانت فى تولى نور الدين رحمه الله ثم ذكرها كما سبق ففوضت اليه كما سيأتى وقال ابن الاثير توفى

سيف الدين يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وكان مرضه السل وطال به قال ومن العجائب ان الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث فى البلاد خرج سيف الدين فى موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا ابوابها ونهبوها وأراقوا الخمور وكسروا الاوانى وعملوا مالا يحل فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن له فى الذى فعله الناس من النهب فعل انما هو أراق الخمور ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه فلما شكى احضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما اطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فارادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفى الدزدار المباشر لاذاه ثم تعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه الى ان توفى وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وشهورا وكان من أحسن الناس صورة تام القامة مليح الشمايل ابيض اللون مستدير اللحية متوسط البدن بين السمين والدقيق وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه شئ من الاسباب التى تنافى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه اذا كبروا انما يدخل عليهن الخدم الصغار وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال مع شح فيه قال ولما اشتد مرضه اراد ان يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن ايوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته وامتنع أخوه عز الدين من الاذعان والاجابة الى ذلك فأشار الامراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده فى اخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك وان يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عمهما عز الدين ليبقى لهما ذلك ففعل ذلك وحلف الناس لاخيه فلما توفى سيف الدين كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها والمرجع الى قوله ورأيه فركب الى الخدمة العزية وعزاه وركبه الى دار المملكة راجلا فدخلها وجلس للعزاء وكانت الرعية تخافه قبل ان يملك لاقدامه وجراءته وحدة كانت فيه وكان لا يلتفت الى أخيه سيف الدين اذا أراد أمرا فلما ولى تغيرت اخلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا اليهم قريبا منهم قال ابن شداد وفى عاشر المحرم سنة ست وسبعين بلغ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد فاخرج اليه العسكر ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر

﴿فصل﴾ فى وفاة شمس الدولة بن أيوب اخى السلطان الاكبر وقدوم رسل الديوان بالتفويض الى السلطان فيما طلبه قال ابن أبى طى كان السلطان قد أنفذ اخاه شمس الدولة الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما حصل بها لم توافقه وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية وكان أحد الاجواد الكرماء الافراد شجاعا باسلا عظيم الهيبة كبير النفس واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبى من قصيدة

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر ❁ فانهما فى الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله ❁ فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيرا فانه ❁ يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تحمل للسحائب منة ❁ اذا غطلت جودا سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما ❁ فللامن يمناه وللبسر يسراه

وقال العماد وفيها فى المحرم توفى بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين ووصل الخبر بذلك الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزنا شديدا وجعل يكثر انشاد أبيات المراثى وكان كتاب الحماسة من حفظه وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله الى اليمن فملكها ثم استناب فيها وقدم الشام سنة احدى وسبعين فلما وصل تيماء جاء منه كتاب وفيه أبيات لشاعر ابن المنجم منها

فهل لاخى بل مالكى علم اننى ❁ اليه وان طال التردد راجع
وانى بيوم واحد من لقائه ❁ لملكى على عظم المزية بائع
ولم يبق الا دون عشرين ليلة ❁ وتجنى المنى أبصارنا والمسامع

لدى ملك تعنو الملوك اذا بدا ❊ وتخشع أعظاما له وهو خاشع
كتبت واشواقى اليك ببعضها ❊ تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك الا راحة انت زندها ❊ تضم على الدنيا ونحن الاصابع

قلت وقبر توران شاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته اليها اخته ست الشام بنت أيوب وبنت القبر عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شيركوه وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاجين وسيأتى ذكره واليه تنسب التربة فهى ثلاثة قبور القبلى لتوران شاه والاوسط لابن شيركوه والشامى لست الشام وابنها رحمهم الله قال العماد وفيها فى رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصرى صدر الدين شيخ الشيوخ ابو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد نتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقى وعلى صفحاته بشائر الترقى فلما ترآى له الرسل الكرام ووجب لهم الاجلال والاعظام نزل وترجل وابدى الخضوع وتوجل ونزل الرسل اليه وسلوا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الفرض وقبل الارض ثم ركبوا ودخلوا المدينه قال ابن أبى طى وكانت هذه أول خلعة قدمت من الامام الناصر على الملك الناصر وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب وبيقار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب ومشدّة سوداء مذهبة وطوق وتخت وسرفسار وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج أسود وسلال أسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم أسود وعدة خيول وبقج وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق وكان يوما عظيما قال العماد وظفر السلطان من صدر الدين بصدق صدوق وكان قد عزم على قصد الديار المصريه وسلوك طريق ايلة والبريه فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه زيارة قبر الشافعى رضى الله عنه فقال قد عزمت فى هذه السنة على الحج فاصل معكم الى القاهرة بشرط اقامة يومين ولا أدخلها وانما أسكن بالتربة الشافعية واسير منها الى بحر عيذاب فلعلى ادرك صوم رمضان بمكة فالتزم له ذلك واعاد أصحابه ليأتوه من طريقها الى الحجاز ورجع شهاب الدين يسير فى جواب رسالته ومعه رسوله ضياء الدين ابن الشهرزورى وأنشأ العماد كتابا فى الجواب الى الديوان وفيه (وقد توجه الخادم الى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ثم يستخير الله فى الجواد اته ويعود الى مجاهدة اعدائه)

﴿فصل﴾ فى رجوع السلطان الى مصر مرة ثانية قال العماد ولما عزم السلطان على الرحيل استناب بالشام ابن اخيه عز الدين فرخشاه وكان عزيز المثل غزير الفضل وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها

اسأل الله ذا العلى ان تعيشا ❊ الف عام لنصره مستجيشا
لست أكدى شيأ سوى فروة منـ ❊ ـك وابغى لسفرتى اكديشا
كيف يخلو من دفء ظهر وظهر ❊ سالك طرق ايلة والعربشا

ووقفت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل الى الولاة باليمن يعلمهم ان ملوك الشرق قد دخلوا فى طاعة السلطان وانه عازم على القدوم الى مصر وصوم رمضان بها والحج الى بيت الله الحرام منها ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لاجله الى مكة من المال والازواد والخلع مما تشتمل عليه تلك الاعمال ووقفت على كتابين آخرين أحدهما الى أمير مكة والآخر الى أمير ينبع يعلمهما بذلك ليتأهبا لقدومه ووقفت على كتاب سادس للفاضل الى السلطان فى ذلك يقول فيه (جعل الله الملوك ذمة لسيفه وشرّد منام الاعداء منهم بطيفه وامن أهل الاسلام بعدله من جور الدهر وحيفه واشهده موقف الحج الاكبر وزان بحضره مشهد خيفه وجعل وفدة الانام وضيف بيته فى هذه السنة فى وفده وضيفه) ثم هناء بما فتح الله عليه من محبة الجهاد وما أثره فى بلاد الارمن وغيرها من البلاد وما تبع ذلك من نية الحج بلغه الله منه المراد ودخول السلطان بلاد الارمن كان فى هذه السنة كما سبق فلعله سنح له الحج مع شيخ الشيوخ ثم حصل له ما منعه منه قال العماد ورحل السلطان الى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ فاقام يومين كما ذكر وتوجه منها الى مكة على البحر فادرك الصوم قال العماد ووصلنا الى القاهرة على طريق ايلة ثالث عشر شعبان واستقبلنا اهلها ولقينا الاكابر والاعيان والملك العادل اخو السلطان حينئذ بها نائبه وتلقتنا

مواكبه ومواهبه وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق الى الوصول بالقاهرة منها

احبة قلبي طال ليلي بعدكم * اسى فتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتى مذ فقدت لقاءكم * فهل بحياتى منكم نشأة اخرى
اجيران جيرون المجبرون جارهم * من الجور حوزوا فى مشوقكم الاجرا
محبكم قد خانه الصبر فاطلبوا * محبا سواه عنكم يحسن الصبرا
ومذ غبت عن مقرى مقرى قد نبا * سقى ورعى ربى مقرى فى مقرى
احق الى عذرا وعذرى واضح * لان الهوى العذرى منى فى عذرا
اذا القدر المحتوم من جلق بنا * الى مصر اسرى فالقلوب بها أسرى
رحلنا فما باحت باسرارنا سوى * عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشقا والجنان وراءنا * وقد أمنا بالكسوة الرفقة السفرا
وجئنا الى المرج الذى طاب نشره * فلا زال من أحبابنا طيبا نشرا
رحلنا بمرج الصفر بالعيس غدوة * فسارت وحطت فى محجتها ظهرا
وقد قطعت تبنا الى الدير بعدها * وما عرست حتى اناخت على بصرى
نزلنا الدناح والجلاعب بعدها * وبعدهما غدر البشامية الغزرا
ورأس الجشا والقريتين وكلها * موارد فيها السحب قد غادرت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وايلة * وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
الى قلة الراعى الى نابع الى * جراول فالنخل الذى لم يزل قفرا
الى منزل فى روضة الجمل اغتدت * به عيسنا فى صدر شارحه صدرا
ودون حشالما احتثنا ركابنا * عيون لموسى لم يزل ماؤها هامرا
هنالك تلقانا الوفود ببرهم * فسروا بنا نفسا وزادوا بنا بشرا
قطعنا الى بحر الندى بحر قلزم * ومن قصده بحر الندى يقطع البحرا
عبرنا الى من كاثر الرمل جوده * وجزنا اليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الثماد بجرد * ولم يقتنع بالقل من يأمل الكثرا
وجبنا البويب والمصانع قبله * الى بركة الجب التى قربت مصرا
الى عزمة فى المجد غير قصيرة * وكان قصارى أمرنا ان نرى القصرا
ولما نزلنا مصر فى شهر رطوبة * وردنا بكف العادل النيل فى مسرى
غدا قاصرا عن قصره قصر قيصر * وايوان كسرى عند ايوانه كسرا

قال العماد وفى هذه السنة بمصر عربت كتاب كيمياء السعادة تصنيف الامام أبى حامد الغزالى فى مجلدين وفرغت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين وذلك بامر فاضلى لزمنى امتثاله وشملنى فى اتمامه اقباله قال وفيها فى خامس عشرى شوّال توفى صاحبى المعتمد ابراهيم بدمشق وأنا بمصر قلت وهذا غير والى دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى ويلقب أيضا بالمعتمد ورثى العماد صاحبه بقصيدة منها

أرى الحزن لا يجدى على من فقدته * ولو كان فى حزنى مزيد لزدته
تغيرت الاحوال بعدك كلها * فلست أرى الدنيا على ماعهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا * فحلت يد الاقدار ماقد عقدته
وكان اعتقادى انك الدهر مسعدى * فخانتنى الايام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن * سوى ما أراد الله لا ما أردته

وداع دعانى باسمه ذاكراله * فاطربنى ذكراسمه فاستعدته
فقدت أحب الناس عندى وخيرهم * فمن لا تمى فيه اذا ما نشدته

قال ورثيته ببيتين وذكرت العناصر الاربعة فى بيت واحد منهما

لهفى على من كان صبحى وجهه * فعدمت حين عدمته أنواره
سكن التراب وغاض ماء حياته * مذ اطفأت ريح المنية ناره

قال ابن أبى طى وفى هذه السنة سافر قراقوش الى قابس فذكر محاصرته لجلة من القلاع وقتله جماعة من البربر وما ذكره انه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم وفيهم صبى أمرد فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على ان لا يقتله فأبى فزادوه الى مائة ألف فأبى وقتله فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدّمها لقراقوش فسأله عن الخبر فقال هذا الصبى الذى قتلته ولدى ولم يكن لى سواه ولاجله كنت أحفظ هذه القلعة فلما قتلته علمت ان بقيت هذه القلعة فى يدى ومت صارت الى أولاد أخى وأنا أبغضهم فردّه الى القلعة وأخذ منه أموالا

﴿ثم دخلت سنة سبع وسبعين﴾ قال العماد والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الاحاديث النبوية بقراءة الامام تاج الدين البندهى المسعودى ميقاتا وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده اشتاتا وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر ما منّ الله به على الانام من الانعام بكثرة ولادة التوأم فى ذلك العام وجبر الله به ما كان قبله من الوباء وتفألوا بالخصب بعد الجدب والغلاء قال ودخلت الحمام الذى بناه زين الدين أبو الحسن على بن نجاء الواعظ فى داره خارج باب زويلة بالقاهرة فى ذى القعدة فقلت

مامنزل من يرى فيه غير عار فعار * به تماط الاذايا * وترحض الاوضار
والعيش فيه قرير * والطيش فيه وقار * والسبت فى كل يوم * لمن يرى مختار
نار تطيب الأعجب * لجنة هى نار

وله فيه

ومنزل يدخله * لشغله كل أحد * يوجد فيه السبت فى * كل خميس واحد

﴿فصل﴾ فى ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله وما تم فى بلاده بعده وذلك بحلب قال ابن شدّاد وكان مرضه بالقولنج وكان أوّل مرضه فى تاسع رجب وفى الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدّة مرضه واستدعى الامراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفى الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس وقال ابن أبى طى كان سبب موته ان علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما فى عنقود عنب وهو فى الصيد وقيل الذى سقاه ياقوت الاسدى فى شراب وقيل انه أطعمه خشكنانكه وهو فى الصيد قال ودفن بالمقام الكبير الذى فى القلعة وحزن الناس له حزنا عظيما وكان من أحسن الناس صورة والبقهم اعطافا قلت وبلغنى انه كان يقال ان موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله فانه سأل الله تعالى ان لا يعذب شيئا من أجزائه بالنار وولده جزؤه فمات قبل ان يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله قال ابن الاثير ولم يبلغ عشرين سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر تداويا بها فقال لا أفعل حتى استفتى الفقهاء وكان عنده علاء الدين الكاسانى الفقيه الحنفى بمنزلة كبيرة يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه فاستفتاه فافتاه بجواز شربها فقال له يا علاء الدين ان كان الله سبحانه وتعالى قد قرب أجلى أيؤخره شرب الخمر قال لا والله قال والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه على قلت يحتمل انه ذكر له ان من العلماء من ذهب الى جواز ذلك لانه كان يرى ذلك فان مذهبه بخلافه والله أعلم ثم قال ابن الاثير فلما ايس من نفسه أحضر الامراء كلهم وسائر الاجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين وأمرهم بتسليم مملكته جميعها اليه فقال له بعضهم ان ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان الى الفرات فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن ثم هو تربية والدك وزوج أختك وهو أيضا عديم المثل فى الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الاعراق وطهارة الاخلاق والخلال التى تفرد بها فقال ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على

عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومعى فان سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فان ملكها صلاح الدين فلا يبقى لاهلنا معه مقام واذا سلمتها الى عز الدين أمكنه ان يحفظها بكثرة عساكره وبلاده وأمواله فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ومن أشبه أباه فما ظلم فلما توفى أرسل دزدار حلب وهو شاذبخت وسائر الامراء الى أتابك عز الدين يدعونه الى حلب ليسلموها اليه فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار الى ماردين لمهم عرض فلقى القاصدين عندها فاخبروه الخبر فسار الى الفرات وأرسل الى أتابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة وأقام على الفرات ينتظره فسار أتابك مجدا فلما وصل الى المنزلة التى بها مجاهد الدين أقام معه وأرسل الى حلب يستحضر الامراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يوما مشهودا ولما عبر الفرات كان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى مدينة حماه وثار أهل حماه ونادوا بشعار أتابك وكان صلاح الدين بمصر فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد الشامية وأعلموه محبة أهلها للبيت الاتابكى فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار منها الى الرقة فاقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك ولج عماد الدين وقال ان سلمتم الىّ حلب والاسلمت انا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ الجماعة بتسليمها اليه وكان أكبرهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فانه لج فى تسليمها الى عماد الدين ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره وبلاده فوافقه وهو كاره فسلم حلب الى أخيه وتسلم سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر وقد ايس من العود الى الشام فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة الى الشام فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح الدين الى الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين فاتفق ان بعض الامراء الاكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده الى أحد من أمرائه اذ كان ذلك الامير اوثقهم فى نفسه فعاد الى الموصل وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها وعاد الى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين اليه وسبب ذلك ان عز الدين لما تسلم حلب لم يترك فى خزائنها من السلاح والاموال شيئا الا نقله الى الموصل وتسلمها عماد الدين وهى كما يقال بطن حمار فهو كان السبب فى تسليمها قال ابن شداد ولما توفى الملك الصالح سارعوا الى اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية اليه وتحليف الناس له فسارع سائرا الى حلب مبادرا خوفا من السلطان فكان أول قادم من أمرائه الى حلب مظفر الدين بن زين الدين وصاحب سروج ووصل معهما من حلف الامراء له وكان وصولهم فى ثالث شعبان وفى العشرين منه وصل عز الدين الى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح فى خامس شوال من السنة المذكورة ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الى سادس عشر شوال وعلم انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لاجل السلطان والح عليه الامراء فى طلب الزيادات ورأوا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام فرحل من حلب طالب الرقة وخلفه ولده ومظفر الدين ابن زين الدين بها فاتى الرقة ولقيه آخوه عماد الدين عن قرار بينهما واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لاخيه عماد الدين على ذلك فى حادى عشرى شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفى ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب قلت ووقفت على كتاب فاضلى عن السلطان الى عز الدين فرخشاه وهو نائبه بدمشق (وقفنا على كتابه وعلمنا ما تجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله وانقطاع الداخل عليه) ثم أشار بتنفيذ عسكر الى جهة أخيه تقى الدين على اظهار قاعدة النظر فى القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان والتوجه لفصلها قال (فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم وباطنها لهذا السبب المتأخر وقد كوتب الولد تقى الدين ان يتوجه الى منبج على الظاهر والباطن المذكورين وان يحفظ المغازى ويرابط الفرات ويمنع المعابر ولنا بالس وقلعة جعبر ومنبج وتل باشر وهى جمهور الطرق بل كلها وقد أوعدنا الى تقى الدين بأن يكون حمام حماه فى حلب وحمام دمشق فى حماه والى الاجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق فى حمص وحمام حمص فى حلب وولدنا

عز الدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى فى دمشق وقد بعثنا نجابين يكونون منيخين ببصرى فان تحققت الوفاة فنحن اسبق اليكم من الجواب قولا وفعلا ووعدا ونجحا فالعلة مزاحه والعساكر مستريحه والظهر قد استعد والمصلحة فى الحركة ظاهره وحجج انتقاد المنتقدين فى هذه القضية ساقطه) وقال العماد كان قصد السلطان اصلاح حال الملك الصالح وانه القائم مقام أبيه فصده عنه مماليكه فأخذت بلاده بلجاجهم ومرضت دولته لسوء علاجهم فاتتنع بحلب الى ان توفى ووصل ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل الى حلب فجمع ظاهره وباطنه واخذ خزائنه واستخرج دفائنه وأخلى كنائنه ثم عرف انه لا يستقر له بها أمر فرغب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار فى تعويضها له بحلب فمال الى بذله ورغب ولما سمع السلطان فى مصر بوفاة الملك الصالح تحرك عزمه وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام فكتب الى ابن أخيه تقى الدين وهو يتولى له المعره وحماه وأمره بالتأهب للنهوض وكذلك شحذ عزائم نوابه بالشام بتجديد المكاتبات لهم وبعثهم على الاستعداد وجملهم وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه قد نهض فى مقابلة الفرنج بالكرك فان الابرنس الكركى كان يحدث نفسه بقصد تيما فى البرية فمازال فرخشاه فى مقابلته حتى نكص اللعين على عقبيه ذليلا ولم يجد الى ما حدثته به نفسه سبيلا فعرف السلطان اشتغاله بهذا المهم فكتب كتابا يشرح الحال الى بغداد باللفظ العمادى يقول فيه (وشاع الخبر بغارة فرنج انطاكية على حارم وأنوا من السبى والنهب بالعظائم وشاع أيضا ان عسكر حلب أغار على الراوندان وهى فى عملنا ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم ويغريهم بنا وقد راسلوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم بالمعتاد منه كاف وابن أخى غائب فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية الحجاز فان طاغية منهم جمع خيله ورجله وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيما وهى دهليز المدينة على ساكنها السلام واغتنم كون البرية معشبة مخصبة فى هذا العام والعجب انا نحامى عن قبر النبى صلوات الله عليه وسلامه مشتغلين بهمه والمذكور (يعنى صاحب الموصل) ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل اليهم كرائم الاموال هذا مع ما نعد فى الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها أولا لأبى مسلم لانه أقدم ثم خامر ووالى ثم ولى ولا آخرا لطغرلبك فانه نصر ونصب ثم حجر وحجب وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما فى نصر الدولة وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها وتطهير المنابر من رجس الاعداء ولم نفعل ما فعلنا لاجل الدنيا غير ان التحدث بنعمة الله واجب والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب ولا غنى عن بروز الاوامر الشريفة الى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه فان دخول الايدى المختلفة عن الاعداء المتفقة شاغل ويحتاج الى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل فان الاعمار تمر مر السحاب والفرص تمض ومض السراب ويقاوئنا فى هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر ان تغنتمه فى مجاهدة العدو الكافر الذى صار به البيت المقدس محلا للارجاس ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره الا على الياس وان كان القوم قد بذلوا الدار العزيزة بذولا معارة فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار فانهم لو بذلوا بلادهم كلها ما اوفت بفتح مصر التى رحل عنها أسامى الادعياء الراكبة أعوادها وأعاد الى عينها بعد بياض عمائها من نور الشعار العباسى سوادها فان اقتضت الاوامر الشريفة ان يوعز للمذكور فى حلب بتقليد فالاولى ان يقلدا الجميع فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ولما لك الامر الحكم فى ممالك المماليك) وكان فى الكتاب أيضا ما معناه ان حلب من جملة البلاد التى اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضىء بأمر الله له وانما تركها فى يد ابن نور الدين لاجل أبيه والآن فليرجع كل الى حقه وليقنع برقه ومن كتاب فاضلى (فقد صرف وجهنا فى هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده وعن فرض لو وصلنا يومه بغده لكان الاسلام قد أعفى من شركة الشرك وانفك أهله من ربقة أهل الافك ولكانت الاسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها ولكان الدين الخالص قد خلص الى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباءها) وفى كتاب آخر له (وقد علم الله انا لهدنتهم كارهون وفى مصلحة أهل الاسلام وفى مصالحهم راغبون ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا وكالانعام أو أضل سبيلا ان بنى معهم فعلى غير أساس وان عدد الغدر منهم فهو اكثر من الانفاس) وفى كتاب آخر (والخادم والحمد لله يعدد سوابق فى الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية أبى مسلم لانه

والى ثم وارى ولا آخرية طغرلبك لانه بصر ثم حجر والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الغصة التى ذخر الله للاساغة فى سيفه ماءها فرحل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد ابراهيمى فكسر الاصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر وفعل وما فعل للدنيا ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه فى اليوم الآخر) ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها وكانت داخلة فى تقليد السلطان السابق فقال (دخل حلب مستوليا وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لا تحل والسيوف فى أوجه أوليائهم لا تسل وانه ان فتح باب المنازعة أدنى من ندامه وأبعد من سلامه وخرق مايعيي على الراقع وجذب الرداء فلم تغن فيه الاحيلة الخالع وليس الاستيلاء بحجة فى الولايات لطالبها ولا الدخول الى الدار بموجب ملك غاصبها الا ان تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله حيث الجمعة مستريبه والخلافة فى غير أهلها غريبه والعقائد لغير الحق مستجيبه فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها وكان سلطانها من أدخل فى كان شيطانها وأما حلب فان الكلمة فيها عاليه والمنابر فيها بالاسم الشريف حاليه فانما تكون لمن قلدها لا لمن توردها ولمن بالحق تسلمها لا لمن بالباطل تسنمها ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور ولولجها ولم يناظر ولكنه أتى البيوت من ابوابها واستمطر القطار من سحابها) ثم ذكر ان المراصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تقلع وضياع من فى المسلمين توضع وبدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع ويا للعجب من الخصم يهدم دولة حق وهى تبنيه ومن العبيديين ملكها بنفسه وماله وذويه وهى تراقب أعلاه فيه ودعواه فى رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لا يقوم شاهدها ولا هى بشناعة لا يهتدى قائدها بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم عند القمص ملك الفرنج وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سيرت ولاستيجاب الولاية طرق أما السبق الى التقليد فللخادم السبق وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق وأما الآثار بالطاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدى الخلق ومتى استمرت المشاركة فى الشام افضت الى ضعف التوحيد وقوة الاشراك وترامت الى اخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك واحوجت قابض الاعنة الى ان يعليها الجدد ويرسلها العراك وطريق الصلاح والمصالحات الايمان والمشار اليهم لا يلتزمون ربقتها ولا يوجبون صفقتها وكفى بالتجريب ناهيا عن الغره ولا يلدغ المؤمن الا مره واذا اجتمعت فى الشام أيد ثلاث يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة نهض الكفر بتثليثه وقصرت عن الاسلام يد مغيثه ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه وما يريد الخادم الا من تكون عليه يد الله وهى الجماعه ولا يؤثر الا ما يتقرب به اليه وهو الطاعه ولا يتوخى الا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعه) ومن كتاب آخر (قد أحاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله ان التقليد الشريف المستضيء لما وصله بالبلاد وكان قد فتح أكثرها قلاعا وأمصارا وحصونا وديارا ولم يبق الا قصبة حلب وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال الى النوال وعن النزال الى الاستنزال وقصد القصد الذى ما أوجبت المحافظة ان يتلقى بالرد فاقره على الولاية فرعا لا أصلا ونائبا لا مستقلا وسلم اليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبه وسيوفه السالبة لا المسلوبه ومشى الامر معه مستقيما ومائلا وجائرا وعادلا الى ان قضى نحبه ولقى ربه فبدأ من المواصلة نقض الايمان والابتداء بالعدوان والتعرض للبلاد والتصرف فيها بغير حجة يكون عليها الاعتماد فطالع الديوان بالقضيه واستشهد بدلالات قوانينه الجليه فى هذا التقليد الذى شهادته المحاضر وأشاعته المنابر وسيرت الى الشرق والغرب نسخه وغلت الايدى التى تحدث أنفسها انها ناسخه)

(فصل) قال العماد وتوجه السلطان بعد شهر رمضان الى الاسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السوارى وشاهد الاسوار التى جددها والعمارات التى مهدها وأمر بالاتمام والاهتمام وقال السلطان يغتنم حياة الشيخ الامام أبى طاهر بن عوف فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضى الله عنه بروايته عن الطرطوشى فى العشر الاخير من شوال وتم له ولاولاده ولنا به السماع والوالى يومئذ بها فخر الدين قراجا قلت ووجدت للقاضى الفاضل كتابا كتبه الى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه (أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيى دولة أمير المؤمنين وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها وأوصل ذخائر الخير اليه وأوصله اليها وأوزع الخلق شكرا

لنعمته

لنعمته فيه فانها نعمة لا توصل الى شكرها الا بإيزاعه وأودع قلبه نور اليقين فانه مستقر لا يودع فيه الا ما كان مستندا الى ابداعه ولله فى الله رحلتاه وفى سبيل الله يوماه ومامنهما الا أغر محجل والحمد لله الذى جعله ذا يومين يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ففى الاول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لا تستتر وفى الثانى يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثرا لا يظهر وقد استغرق الناس همم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه وصنفوا فى ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من اقدار أهله والتنويه فقالوا رحل فلان لسماع مسند فلان وسار زيد الى عمرو على بعد المكان هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ووقف عليه فكره فلا يتجاذب عنان همته الكبائر فما القول فى ملك خواطره كأبوابه مطروقه وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقه اذ هاجر الى بقية الخير فى أضيق أوقاته وترك للعلم أشد ضروراته ووهب له أياما مع انه فى الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب المملوك ان كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد هارون رحمة الله عليه على انه خلط زيارة نبوته بطلب ورحل بولديه الى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذى اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة فى سماعه والرحلة لانتجاعه وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله ان يجعل له ولولديه الامين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه فقال له ما معناه انها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم وغيرك من سترها ومثلك من نشرها فهذه رحلة ثانية فى الزمان وأولى فى الايمان يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والامين وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه فى خزانة الكتب المصريه فان كان قد حصل بالخزانة الناصريه فهو بركة عظيمه ومنقبة كريمه وذخيرة قديمه والا فليلتمس وكذلك خط موسى بن جعفر فى فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها وكلاهما يتبرك بمثله ويعلم به فضل العلم لا خلا المولى أبقاه الله من فضله وقف المملوك على ما بشر به من صنع المولى وتوفيقه وصحة مزاجه فى طريقه وانقطاع ما كان من دم واستراح القلب من كل هم وقد استفتحت هذه الطريق بكل فال مباركة البكر والفال مأثور عن سيد البشر فمن ذلك صحة جسمه فلتهنه الصحه وفسحة قلبه دامت له الفسحه وانقطاع الدم وطريقة الى الشام ينقطع بها الدم ويتصل النصر له وينتظم السلم وأخرى انه رحل الى الموطأ رحم الله مالكه ويرحل فيما يطلب من الشام الى الموطأ أسعد الله به ممالكه والله تعالى يحقق الخير ويصرف الضير ويبارك لمولانا فى المقام والسير ان شاء الله قلت هكذا يقع فى كتب الفاضل رحمه الله كثيرا وهو انه يختمها بالادعية متصلة بقوله ان شاء الله والتعليق بالمشيئة غير لائق بالادعية ففى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت اللهم ارحمنى ان شئت اللهم ارزقنى ان شئت ليعزم مسئلته فانه يفعل ما يشاء لا مكره له

﴿فصل﴾ فى أمور تتعلق بولاة اليمن فى هذه السنة قال العماد كان الامير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخى السلطان بزبيد وحصل له من أموالها الطريف والتليد ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد اليها وبقى أخوه حطان بزبيد واليا عليها فصنع دعوة عظيمة بها ذكر العماد انه حضرها هو وغيره من الفضلاء الاعيان فبينما هم عنده فى أسر حال اذ أحدق بهم الامير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة واعتقل بالقصر وكان سببه ان أقارب السلطان وخواصه اكثروا عليه عنده انه استوعب مال زبيد وان له كنوز الا تبيد وأشاروا عليه بقبضه وهو يدافع عنه الى ان أكثروا وقيل فيه ان لم تدركه فات فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصرى بثمانين ألف دينار لم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة من تجار وغرم لاخوى السلطان العادل وتاج الملوك ما حافظ به على نهج الكرم المسلوك وخرج مشرفا مكرما مصرفا محترما وزاد السلطان فى تكرمته وأنفذ اليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين فى ذمته ثم باعه املاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار وبذل له كل ما طلب عن ايثار واختيار وزاد فى اقطاعه وبارك الله له فى أشياعه وأشياعه قال العماد وكان هذا الامير من رجاحة عقله وحصافة فضله ما سمعت منه شكوى ولا حكاية فى بلوى وقتل أخوه حطان بزبيد وأخذ ماله فلم يظهر منه للسلطان كراهه وكل شيمته نزاهة ونباهه قال وكان لما توفى الملك المعظم شمس الدولة أشفق

السلطان من نوابه باليمن وذكر ما بين ولاتها من الاحن وصل الخبر بما يجرى بين الامير عثمان بن الزنجيلى والى عدن وبين الامير حطان والى زبيد من الفتن فندب الى زبيد عدة من الامراء لحفظ البلاد واصلاح الامور التى يخشى عليها من الفساد ومن جملتهم والى مصر صارم الدين خطلبا وبقيت الولاية له بها فى غيبته يقوم بها نوابه ويرجع الى رأى أهله أصحابه فشرعت زوجته فى عمارة دار عظيمة سنيه وذكر العماد انه حصل له ولغيره من الاعيان بها ضيافة جليلة اتفاقيه وقال ابن أبى طى كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخى السلطان تشرئب الى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ويشتهى ان يصير اليها فامر ابن سعدان الحلبى ان يعمل قصيدة يعرض فيها بانفاذ سيف الاسلام الى اليمن فعمل القصيدة التى يقول فيها

جرّد لها السيف الصقيل فتنة ❊ فالسيف لا يذخر الا للفتن
شدّ به أزر العلى فانه ❊ نعم فتى من شرع الجود وسن
القائل المسمع فى مقاله ❊ والصادق الندب الامين المؤتمن
بادى الفؤاد كيفما سيرته ❊ حن الى دار الوغى ثم ان

وفيها يقول

يا ابن الكرام النجباء والذى ❊ تلقف العلياء فيها ولقن
لا تعد عنك عن الملك فما ❊ يخاطب العلياء الامن ومن
قد فسد الملك وقد طال العدى ❊ واقتسموا بعدك أموال اليمن

قال فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام فى المسير الى اليمن وقال العماد وفى هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب ان يمضى الى بلاد اليمن وزبيد وعدن وان يقطع بها الفتن ويتولاها ويولى ويعزل ويحسن ويعدل فسار بعد مسيرنا الى الشام وجرت مملكته فيها على أحسن نظام وذلك فى سنة ثمان ووصل الى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه ثم أذن له فى الانفصال الى الشام فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد ومطرف ومتلد ولجين وعسجد وياقوت وزبرجد وآلات وعدد وحصن وخيول عراب ومال اعتقده من اليمن بغير حساب ثم أناخ جماله ورحل عليها احماله وقدم قدامه اثقاله وظن انه نجا وفاز وركب الاوفاز فرده اليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه فلما دخل عليه اعتقله وسير وراءه ماله من أثقاله والى خزانته نقله ثم أنفذه الى بعض معاقله فحبسه ثم قتله وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله الذاهب ما يعيى بحصر تفاصيل جمله أنمل الحاسب ان نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الاحمر المنقد وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار وأما صاحب عدن الامير عز الدين عثمان بن الزنجيلى فانه لما سمع بسيف الاسلام توجه الى الشام قلت ولهذا الامير أوقاف وصدقات بمكة واليمن ودمشق فاليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة والمدرسة التى خارج باب توما بدمشق رحمه الله ومن كتاب فاضلى عن السلطان اليه (البلاد لك فيها عدة سنين وأنت فيها مؤتمن على مال الله فاده الى من يجاهد به أعداء الله ويقيم به كلمة الله ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة ويقاتل به أعداء القبلة ويضرب بالاسداد بين الكفر والاسلام وينصب وجهه بين الهجير والزمهرير عاما فى أثر عام وما نطلب منك الباطل الذى لا يجوز لنا ان نطلبه ولا لك ان تدفعه ولا نريد الا الحق الذى لا يحل لنا ان نتركه ولا لك ان تمنعه)

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى هذه السنة وصل السلطان من دمشق العلم خطيب المزة وكان قد زوّر على السلطان مثالا يتضمن له منالا ورفعه الى عز الدين فرخشاه فاخفى تزويره عليه وهم بالايقاع به فقصد السلطان بمصر واطلعه على حاله فما أكترث به وقال تحقق ما زورت وأمر ان يكتب له توقيع بضعف ذلك الادرار قال وكان له امام يصلى به وهو يكتب مثل خطه فاطلق به اموالا وأصلح وأنجح بتزويره لاصدقائه أحوالا وما يشك صاحب ديوان ولا متولى خزانة فى انه صحيح فلما دام سنين انكشف وشارف التلف وجلس اخوه السلطان وأمراؤه عنده يغرونه به فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن فقال نعم فنفس من خناقه وأمر باطلاقه وأبقى عليه خيره حتى استبدل به غيره وصار بعده للعادل اماما وبقى شغله معه مستداما قال وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم واستولوا على تجار فى البحر

وغيرهم وسهل الله تعالى بطشة لهم عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلادهم يقال له بوليه تحتوى على الفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وابطالهم فالقتهم الريح الى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر وشمل الباقين الاسر فحصل فى الاسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا واتفق ذلك امام الاهتمام بالمسير الى الشام قال ابن أبى طى وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما وفيها سار قراقوش الى افريقية فاوغل فى بلادها وانتهب ما قدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم السلاح دار احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم قال ابن القادسى وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفى الامام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن ابى السعادات الانبارى النحوى وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا حسن العيش صبورا على الفقر وكان يسرد الصوم ولا يقبل من أحد شيئا وكان يحضر فى نوبة الصوفية بدار الخلافة المعظمة فى الوقت فينفذ اليه بالتشريف والذهب فيعيده ولا يقبله وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤسا ان يقبل لولده شيئا فما كان يفعل وكان يفطر على الخبز الخشكار ويبتاع برغيف أرزا وماشا وكان بابه مفتوحا لطالبى العلم يعلمهم لوجه الله تعالى وكان اذا أحضر أحدهم فى الصيف مروحة يتروح بها فاذا خرج يقول له خذ مروحتك معك فيجتهد به ذلك ان يجعلها عنده الى غد فما يفعل وصنف تصانيف كثيرة ودفن فى تربة أبى اسحاق الشيرازى رضى الله عنه قلت وفيها توفى بمصر الشاعر ابن الذروى وهو أبو الحسن على بن يحيى المصرى وسنه حول الاربعين وقد تقدم من شعره فى حج الفاضل وفى مدح ابن منقذ وغيرهما ومن ظريف شعره قوله فى أحدب

يا أخى كيف غيرتنا الليالى * كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش لله ان أصافى خلا * فيرانى فى وده ذا اختلال
زعموا اننى اتيت بهجو * فيك نقثته بسم حلال
كذبوا انما وصفت الذى خز * ت من النبل والسنا والكمال
لا تظنن حدبة الظهر عيبا * فهى للحسن من صفات الهلال
وكذاك القسى محدودبات * وهى انكى من الظبا والعوالى
ودنانى القضاة وهى كما تعـ * ـلم كانت موسومة بالجمال
واذا ماعلا السنام ففيه * لقروم الجمال أى جمال
وارى الانحناء فى منسر البا * زى ولم يعد مخلب الرئبال
وأبو الغصن أنت لا شك فيه * وهو رب القوام والاعتدال
قد تحليت بانحناء فانت الـ * ـراكع المستمر فى كل حال
وتحملت حمل وزرك فى الظهـ * ـر فامنا فى موقف الاهوال
ان حمل الذنوب اهون فى الدنـ * ـيا على انه من الاثقال
كون الله حدبة فيك ان شئـ * ـت من الفضل اومن الافضال
فأتت ربوة على طود حلم * منك اوموجة ببحر نوال
ما رأتها النساء الا تمنت * لو غدت حلية لكل الرجال
عد الى ودنا القديم ولا تصـ * ـغ لقيل من الوشاة وقال

﴿فصل﴾ فى عود السلطان من الديار المصرية الى الشام قال العماد وعدنا من الاسكندرية الى القاهرة فى ذى القعدة وشرع السلطان فى الاستعداد لسفر الشام فجمع العساكر والسلاح واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر وأمر قراقوش باتمام الاسوار الدائرة على مصر والقاهرة قال وكان السلطان عشية توديعه لاهل مصر جالسا فى سرادقه وكل ينشده بيتا فى الوداع فاخرج أحد مؤدبى اولاده رأسه وانشد مظهر الله فضله وراقعا به شكله.

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه وتبدل بالانقباض انبساطه ونحن ما بين مغضب ومغض ينظر بعضنا الى بعض ولا يقضي العجب من مؤدب ترك الادب فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب فانه ما عاد بعدها الى الديار المصريه حتى اتصل بنجح المنى الى المنيه قال ومن جملة تسمح المعلمين في القول ما حكاه لنا شيخنا ابو محمد بن الخشاب قال وصلت الى تبريز فاحضرني يوما رئيسها في داره وأجلس ولد دلية رأبعض ما تلقنه على فقلت فرخ البط سابح فقال معلمه وكان حاضرا نعم وجرو الكلب نابح فخجلت من خطاء خطابه واذابه على دابه في سوء آدابه ومقصوده ان يذكر قرينه ولا يبالي بعينه قريرة ام سخينه ودأب أدباء اولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الاجتراء على الاباء ويحتمل ما يصدر منهم لعزة الابناء وانما يصلح لمجالسة الملوك من يحفظ في كلامه ويتيقظ حتى في منامه

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين) قال العماد في المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا الى الشام ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام وأخذ على طريق صدر وايلة في المفاوز فبات بالبويب ثم كانت منازله على الجسر و وادي موسى وحشا وصدر وبعد خمس ليال وصل عقبة ايلة وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق فاحترز بحفظ الاطراف والجاز بحمى ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك الى الحسي وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس وأمرهم بان يسير بهم يمنة منه ثم اجتمعوا بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه قال العماد ويلقب أيضا معز الدين بما غنمه ايضا من بلاد العدو وذلك ان الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصه فيقتطفون من القافلة قطفه فخرج فرخشاه من دمشق واغتنم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبوريه وجاء الى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحه واسكنه المسلمين فبقي عينا على الكفار بعدما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم مظفرا منصورا ومعه ألف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر قال وفي العشر الاول من شهر ربيع الاول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب واستشهد جماعة من المسلمين ولكن كانت الدائرة على الكافرين ورجع السلطان بحمد الله ظافرا وكتب بالمثال الفاضلي الى الديوان (كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوما فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على ارجاف بالمصاف ولم يزل الخادم على مداومة الاعمال الى اوساط الاعمال فحل بها وشن الغاره فابعد واذكى النار فاوقد وطلب الماء المحمي أزرقه بازرقهم فاورد وسفك دم الخصب بالنار وأخذ وفيها عدل السيف الجار بالجار وعلم ان الفرنج قد تسللوا لواذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا وانهم لا يقاتلون الا في قرى محصنه ولا يقاتلون الا على نجاة متيقنه وسرح الخادم الى تلك الذرارى واستقر لها من كل فرقة منهم طائفه وساروا في طريق على العدو غير خافية ومنهم غير خائفه وركب هو وحمية الاسلام الحاميه التي تستنهض ارواح الكفر الى نار الله الحاميه وسلك البلاد المؤدية اوديتها الى سيول الشرك الطاميه وسيوف الضلال الداميه فخشموا خثوم الكسير وجذعوا أنوف الانف جذعا قصر فيه رأي قصير وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام واورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الاحلام ويسر الله الوصول ورقاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها ارقاقها وعيون الاعيان منهم قد قيدها الذل أطواقها وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الاول ونزل امام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الاول فجاءه الخبر بان الفرنج رحلوا في ليل ركبوه جملا ولبسوه سترا دون اللقاء مسبلا وأصبحت الاطلاب الاسلامية طالبة الاردن وأشرف عليهم المملوك فرخشاه وكان على ميرة الاسلام فاخرج منهم من أخرج كفا ولا تطرف منهم من اجال طرفا ولا ركض طرفا ولم يزل الخادم مقيما ينادي للخروج الصم الذين لا يسمعون الدعاء الى ان طوى النهار ملاءته ومد عليهم كلاءته فانه رعى ما بينه و بين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم وخبأهم في فؤاده وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنه وكل انة من قوسها تجاوبها الحين انه فاستخرجوا ضمائر كنائنهم

وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم فخرت كأن التوفيق يقودها الى حيث أمت فماتت وطارت جرادا ترعى زرع الحياة فبتت وما أبانت ولم يروا مضاجع ذوات حسك كمضاجع حسكها السهام ولا ليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها يقظه الحمام وأصابت خيولهم صوائبها وتعلقت نصالهم بدهمها فكأنهم فى ظلماتها كواكبها فلما انشق الصبح غيظا من شقاق كفرهم شوهدوا نازلين من حصنهم الذى كانوا اليه آوين وطالبى التباعد عنه الى حصن الطور الذى كانوا اليه ناوين فساقت اليهم اطلاب الميرة محبة الملوك فرخشاه وساق الملوك عمر من الميمنة طالبا حومة القتال فرأوا الخطة عليهم متضايقه وشهادات البلاء الى فتنتهم متناسقه وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعه فى أرضه ومنح نافلة الموهبة لمن قام فى الجهاد بفرضه وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم اليها الاضطرار لا الاختيار وثبت من دنا منهم من المسلمين من الاطلاب ولقوهم وهم الاعداء لقاء الاحباب وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أوشحه وطارت الى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحه وصرعت للفرنج أبطال وخياله وتمت الحملة الاسلامية على من كان وراءهم من الرجاله فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك وفرت روح الكافر من الجسد وعلمت النار أية سلك والجأهم البلا الى حصن يعرف بعفربلا وسع الخوف منه ما هو ضيق وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق ولم تتصرف صدور الخيل دون ان اعتقلتهم فى سجنه وألزمتهم به فصاروا قرطا فى أذنه وكان ذلك اليوم من الايام الذى اضطرمت فيها نيران الجحيم ارتياحا لمن قدمها من أرواح الكفار وكان قائم الظهيرة فى الغور قد منع من استتمام عودة المغار ومورد الماء بعيد من غريمه والرى ولو أنه من حميم أحب الى المرء من حميمه فمالت الجرد الى المناهل متفرقة عليها ومنصرفة اليها وحافة بها من حواليها وأذعن الكفار بالحصر والتغادى من الاصحار والاعتماد على المطاولة والاضجار والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الجرار وبات الخادم والمسلمون على الحصر المذكور الذى يأتونه نازلين قد حققوا من أحوال اللقاء ما كانوا به جاهلين وفعل الله سبحانه وتعالى فى هذه النوبة ما عواقبه مسفرة عن المراد ودلائله محققة لقوله تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد وان الكفر مذ قام قائمه والشام مذ حلت ظالمه لم يعبر أحد من ولاة الامر هذا الجدّ الا على حين غفلة من أهله ولم يواجه الكفر وهو مجتمع فى خيله فضلا عن رجله ولم يهدد العدو بضرب مصاف الا واستكانت العزائم لتهديده ولم يجمع أمره على اللقاء الا صرفه عنه الامر بصرف ذهبه لا بحديده فاما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه وتمرنوا بحربه

(فصل) فى مسير السلطان الى بلاد الشرق مرة ثانية قال العماد ثم ان السلطان عزم على المسير الى حلب وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى الخروج الى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم فتوجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع وكان قد واعد اسطول مصر ان يتجهز الى بلاد الساحل فبلغه الخبر انه وصل الى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل ان يفوت فلما وصل رأى ان أمر بيروت يطول وكان قد سبى الاسطول منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب فأغار السلطان على تلك البلاد ورجع وأعاد فرخشاه الى دمشق ورحل الى بعلبك ومنها الى حمص فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان وله فى السلطان مدائح منها قصيدة أولها

أعلمت بعدك وقفتى بالاجرع ❊ ورضى طلولك عن دموعى الهمع
مطرت غضا فى منزليك فداويا ❊ فى أربع ومؤججا فى أضلع
هل يعلم المتحملون لنجعة ❊ ان المنازل أخصبت من أدمعى
دعنى وما شاء التلذذ والاسى ❊ واقصد بلومك من يطيعك أودعى
لا قلب لى فاعى الملام فاننى ❊ أودعته بالامس عند مودعى
قل للبخيلة بالسلام تورعا ❊ كيف استبحت دمى ولم تتورعى
وبديعة الحسن التى فى وجهها ❊ دون الوجوه عناية للمبدع
ما بال معتمر بربعك زائبا ❊ يقضى زيارته بغير تمتع

ومنها

ووعدتنى ان عدت عود وصالنا ❊ هيهات ما أبقى الى ان ترجعى

هل تسمحين ببذل أيسر نائل ❊ ان اشتكى وجدى اليك وتسمعى
فتيقنى انى بحبك مغرم ❊ ثم اصنعى ماشئت بى أن تصنعى

ومنها

عفى الربيع الجون ربعا طالما ❊ أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى ❊ من كف يوسف بالادر الانفع
يبدى فتى لو ان جود يمينه ❊ للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فاذا تبسم قال ياجودا ندفق ❊ فيضا ويا سحب الندى لا تقلعى
واذا تنمر قال يا أرض ارجفى ❊ بالصاهلات ويا جبال تزعزعى
واذا علا فى المجد أعلى غاية ❊ قالت له الهمم الجسام ترفع
كم وقفة لك فى الوغى محمودة ❊ أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك فى المكارم والندى ❊ رجلان اما سارق أو مدّعى

قال ثم رحل السلطان الى حماه واستصحب معه ابن أخيه تقى الدين فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبرى بن على كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان وسار فى خدمته من جملة الاعوان وأشار عليه ان يعبر الفرات ويجوز ماوراءها ويترك حلب الى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات وقال القاضى ابن شدّاد نزل السلطان على حلب فى ثامن عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين فأقام ثلاثة أيام ورحل فى الحادى والعشرين منه يطلب الفرات واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ابن زين الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الى السلطان وعبر اليه قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده فعبر الفرات وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه وقال ابن أبى طى فى أوّل السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين وكان اليه شحنكية حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها فلم يتمكن وظهر أمره وبعد هذه الوقعة اجتمع الاخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها الى عز الدين وسلم عز الدين اليه حلب فسار اليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار الى الفرات فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار الى خدمته واجتمع به على جباب التركمان وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق وتأخير أمر حلب ففعل ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام وأقام على تل خالد ثلاثة أيام ثم رحل الى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الارتقى فنزل اليه وقبل الارض بين يديه وسأله الصعود الى قلعة البيرة فأجابه وقدّم له مفاتيح القلعة فردّها اليه ووعده باستخلاص ما كان صاحب ماردين ردّه عليه ورحل السلطان الى سروج فنزل اليه صاحبها ابن مالك مستأمنا فأعاده الى بلده وراسل صاحب ماردين فى ردّ ما كان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها الى ابن زين الدين والرقة الى صاحب الرها لانه سأل ان يكون فى خدمة السلطان ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفى آخره (ولتعجل بحمل ماهناك من الاموال فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطامع أفواهها واستوعبت الخزائن اخراجا وانفاقا واستنفدت الحواصل اعطاء واطلاقا وقدمنا على بحر لا يسده الابحر وعلى أيد ان كان بها الغنى ففى أنفسها الفقر) ومن كتاب آخر الى العادل (يعلم مقدار الحاجة الى الانفاق وكثرة الخرج الذى اشترك فيه أهل الآفاق وانه متى نصبت المواد وقعت الامور التى قد شارفت نهايتها وتفرقت الجموع التى تناذرت الاعداء نكايتها ومادون تملك البلاد الا الوصول اليها والنزول عليها) قال العماد وقال مظفر الدين للسلطان مازلت شوقا اليك فى حران حران والى الرى من ورد خدمتك ظمآن وهى لك مبذوله وبأوليائك من أهل الدين والدنيا ماءهوله والرها لا يعسر أمرها والرقة لرقك وبعض حقك والخابور فى انتظار خبرك ودارا دارك ونصيبين نصيبك وملك الموصل موصلك الى الملك وما هذا أوان الونا فادن الينا وكل بعيد قد دنا قال ووصل البحر الى الفرات وخيم عليها من غربى البيرة ومدّ الجسر وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى

على مواضع من أعمالها فلما سمع بالسلطان تخلى عنها فأعادها اليها صاحبها شهاب الدين محمد بن الياس الارتقى وكتب السلطان بالمثال الفاضلى الى الديوان عند عبور الفرات كتابا فاتقاطو يلا يقول فيه (خدم الخادم متوالية الى الابواب الشريفة خلد الله سلطانها اشارحا لاحواله ومعتدا بها من صالح أعماله ومتوقعا من الاجوبة عنها ما يهى الله من أمره رشدا ويفرق الاعداء اذ كادوا يكونون عليه لبدا فان الاراء الشريفة لو لم تفصح عنها الانشا آت وتتضمنها الاجابات والابتدا آت لافصحت عنها موالاة الخادم التى استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها وردت الاسماء الشريفة الى أوطانها من المنابر بعد طول غربتها فتلك الاعمال كالهجرة ولكل مهاجر ما هاجر اليه ونية المرء ثوبه فلا يلبس الا ما خلعته النية عليه وكتاب الخادم الآن من البيرة بعد ما قطع الفرات وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد ولا يلقى السمع وهو شهيد بظن ان ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده وانه ينسى عزيمة رأيه اذا ذكر طول مدته وهول مده وكيف ما كان هذا المحرج المخرج فقد أحسنت الى الخادم اساءته اليه وقربه من محل دار السلام بل الاسلام فما أكثر ما قال السلام عليه واستشرف حنانه من جنابه امنا وذعرا أوجبتهما الموالاة والمهابه وطالعت عينه أنواء وانوارا تنسب الى بركاتها كل سحابه وكاد ينزل عن السروج والاكوار ويقبل الثرى لاجل شرف الجوار ويستنفذ علته ماء الفرات لانه يمر بتلك الديار ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الاخطار ومن عذوبته عذوبة ذلك الانعام الذى هو أعم وأغزر للاقطار من القطار وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالى واسلفته ماله حوز الفوز بما قربه نجيا من قربه والآمال أمالى والله تعالى يشرف أرضا هو واطيها ويرعى سرحا هو كاليها ويسعد به امة هو بارها بطاعة من هو باريها ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها اكتمان السرائر وخصمتهم خطوط الايدى المتمسكة بعصم الكوافر وعقدوا معهم عقدا أشهدوا من هو حاضره ونقلها الى من سمعه من هو ناظره وكان عقدهم احدى عشرة سنة والمستقر لهم فى كل سنة عشرة آلاف دينار على ان تسلم ثغور المسلمين الى الكفار منها بانياس وشقيف تيرون وحبيس جلدك وأسارى الفرنج فى كل بلدة بأيديهم وفى كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج ولما تم لهم هذا العقد وحملوا الى الفرنج ذلك النقد ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيدحضه وان يد الكفر تنبسط الى الاسلام فتقبضه وان الخادم لا يمكنه أن يتوجه اليهم الا ان يكون للفرنج سلما ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بازاء الفرنج قسما وبازائهم قسما وعملوا على هذا الوهم وبنوا على هذا الحكم استنهضوا الفرنج على تثاقل الخطوه واستخرجوهم على ما بهم من كلوم الغزو بعد الغزوه فحاملت أرجل الكفار على ظلعها وخرجت على طمعها الى فزعها وانقبت فى رجالها ما لا حملوه اليهم بها وجرت الى الاسلام جيشا جهزه من يدعى الاسلام لفظا ويفارقه حكما وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب ونظروا فيما يوصل المشاة الى الخادم ولم ينظروا للاسلام فى العواقب فوصل المواصلة الى نصيبين مجدين محفلين وحركوا الفرنج للخروج الى الشام متطرفين ومتوغلين فلا جرم ان أمراء جانبهم وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين ولا الخروج عن امرة الموحدين فارضوا الله باسخاطهم واشفقوا على دينهم اشفاقا دل على تحرزهم له واحتياطهم فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله فاستعان الخادم عليهم بالله الذى استعانوا على دينه باعدائه ولما رأى انهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه فرتب الخادم فى رأس الماء بدمشق بازاء الفرنج الملوك فرخشاه ابن أخيه وابقى عسكر الشام وحاميه فيه واستنهض أخاه من مصر الى ما يليه من بلاد الكفر فنهض وقام الخادم بما أقامه له ولله عز وجل بما فرض وسار الخادم بالعسكر المصرى الى هذا الجانب الذى هو الآن فيه وكان أيسره يكفيه وتثاقل فى الطريق انتظارا لان يأتوا البيوت من أبوابها ويفرجوا عن الولاية أيدى اغتصابها ويعتذروا الى السيف بالسنة يشفق على رقابها فأبوا الا الاباء وراوا الملك ارثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفا بل الاباء ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران ابن زين الدين على كوجك ومقدم عسكرهم وابن أمير معشرهم وكذلك صاحب سروج وصاحب البيرة وكل بيده مفاتيح بلده وأمامه أمان الخادم له قد استقاده من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات ورغبا يأهم الذين يأخذون أموالهم جبايات

ومقاطعات ومكوساوعشوراواحتكارات يرغبون الى الخادم فى الانفاذ ويحثونه فى المسير على الاغذاذ ويشكون انهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سننها ولا يتقى فيهم شرأتعها وسننها ونمى الى الخادم من تفاصيل المغارم التى تلزم الفريقين ويعدل بها عن أقصد الطريقين ما يروع السامع ويسمع الرائع ويسجل عليهم بالخلاف ويشهد لهم بالانحراف لانهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا ونقضوا وما افترضوا ومشاوا بالحق وما امتثلوا وأمروا بكف الايدى وقد بسطوها وبأخذ الاموال من حلها وقد خلطوها وبرعاية امة النبى صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها وابن الدعوة العباسية ممن رعاها لا من ادعاها والعهود وصايا وما الاولى بها من سمعها بل من وعاها وأى عهد لمن لاعهد له بالطاعه وأى ولاية لمأمور بأن يجمع أهل الفرقه ففرق أهل الجماعه فالجندى توكل الارض باسمه ولا شئ بيده والعامى يرفع الى السماء استغاثته الا يمهل الله عليه ولقد تعجب الخادم من اشغاف الانفس الغنية الا انها فقيره والارتفاق بتلك الطعم الجليله وهى على الحقيقة الحقيره يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم الآية هذا الى طامة أخرى لا تقر عليها الجنوب ولا تدر عليها الحلوب ولا ينام على سهر بارقها وان كان الحلوب وهو ان الخادم بلغه انهم كاتبوا جهة من الجهات التى الدولة منحرفة عنها وبذلوا الطاعة لها وقد أمروا باباالامتناع منها وهذا نص فى الخلاف لا يدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل وكل صغيرة من هذه الكبائر وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولايه ويجرح العداله ويسلب الرشد ويثبت الضلاله ويمضى نية الولى فيما هو له ماض ويبعث عزمه فيقضى ما هو قاض ويسخطه وكيف لا يسخط والمولى غير راض ويغيظه بما لا عذر له لمغتاظ متغاض وما انهى الخادم مما اتصل به الا الاوائل والاطراف وما عوّل الا على ما صححته النفس دون ما خيله الارجاف واذ قد ساق الله الى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطله وانشأها سحاب احسان كان بعيدا عليها هطله فقد كفيت الخواطر الشريفة ما كانت به على اهتمامها كما يجب للامة على امامها واليه بتفويض الله يرجع أمرها وبيده يجلب نفعها ويجلى ضرها وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار وبسطة واقتدار وسيف به يناضل من يسئ الجوار ولسان يجادل به من يريد الدار وكان الخادم طالع بوصول الاسطول المصرى الى الشام الفرنجى وما فعله فى موانيه وسواحله وما غنمه من مراكبه وقوافله وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطشة فرنجيه خرج من فيها هاربا من القسطنطينيه لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها فقتل منهم خمسون ألف فرنجي وافلتت منهم بطش منها هذه البطشه وفيها رجال أكابر ومقدمون لهم ذكر سائر وغنم المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبى وذخائر وانقلبوا بنعمة من الله وفضل وحازت القبضة من الاسارى ما يزيد على أربعمائة بعد من درج بالقتل

﴿فصل﴾ قال العماد ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على ان يكون من اجناد السلطان واتباعه فى جهاد الكفار فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالاذعان وهو نور الدين محمد بن قرا ارسلان ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى فاذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له الى حران ثم وصل السلطان الى حران فرتبها وانفصل منها الى الرقة وفيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه فاصلحها السلطان ورحل منها الى مشهد الرمان ثم الى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور وما نشر من العدل فى البلاد التى فتحها فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانيه والغدين والمجدل والحصين قال وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنبنير الى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما وولاها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين وولى الخابور جمال الدين خوشترين ثم سرنا الى الموصل وقطعنا الاعمال بين النهرين ثم أعمال البقعه ثم سرنا الى بلد وأشرفنا على دجله وكنا أوردنا خيلنا فى أشهر من تلك السنه نيل مصر والفرات ودجله ثم صممنا على قصد الموصل فلما قربنا من الوصول كبرنا لكبير من ظفر بالسول وتقدم السلطان فى الامراء ذوى الاراء ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما فنزل هو وراء البلد وتقى الدين من شرقيه وأخوه تاج الملوك بورى عند باب العمادية فحصلت المحاصرة والمضايقه وتولى مجاهد الدين قايماز حفظ البلاد بأحسن تدبير وكاتب الديوان العزيز فى ان يشفع لهم الى

الى

الى السلطان فقدّم فى ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير فى الشفاعه فرحل السلطان عنها فى شعبان وقصد سنجار وقدّم أمامه تقى الدين وقال القاضى ابن شداد كان نزول السلطان على الموصل فى هذه الدفعة يوم الخميس حادى عشر رجب سنة ثمان وسبعين وكنت اذ ذاك بالموصل فسيرت رسولا الى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل فسرت مسرعا فى دجلة وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ وكان فى صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه وسير الى بهلوان رسول من الموصل يستنجده فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم انه بلد عظيم لا يتحصل منه شئ بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى ان طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنه ونزل على سنجار فى سادس عشر شعبان فأقام يحاصرها وفيها شرف الدين ابن قطب الدين وجماعة واشتدّ عليه الامر حتى كان ثانى شهر رمضان فأخذها عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى الموصل وأعطاها السلطان ابن أخيه تقى الدين ورحل عنها الى نصيبين وقال العماد لما قصد السلطان سنجار نزل بارنجان فوجد عسكرا من الموصل سائرا اليها فأحاط به وأخذ خيلهم وعددهم وردهم الى الموصل رجالة ووصل الى سنجار ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا وكان فى سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل فامتنع من تسليمها فحصر ورميت القلعة بالمجنيق فانهدم منها ثلمة من السور فوكل بها من يحفظها ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال ثم جاءه الخبر ليلة ان الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام فأرسل اليهم من أوثقهم وحملهم اليه وكان فيهم جماعة من المقدمين والاعيان فلما أصبح صاحب سنجار اذعن وسلم ورحل بأهله وماله ودخل السلطان القلعة ورتبها وأمر بعمارتها وولاها الامير سعد الدين مسعود بن انر وكان السلطان يعتمد عليه وأخته ابنة معين الدين كانت فى حبالة السلطان وكان رئيسا سنجار بنى يعقوب فترك الرياسة فيهم وولى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد بن يعقوب ثم رحل السلطان الى نصيبين فأقام بها الان الايام كانت باردة ومنها ودّع رسل دار الخلافة وشكا أهل نصيبين من أميرها أبى الهيجاء السمين فاستصحبه السلطان معه وسار الى دارا وأميرها صمصام الدين بهرام الارتقى فتلقى السلطان بأحسن ملتقى فأكرمه وسار الى حران وأقام بها للاستراحة وعاد كل الى بلده وسار تقى الدين الى حماه هذا والمواصلة فى جد من جمع الجموع وابتغاء الغوائل للسلطان

(فصل) فى وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب قال العماد وفى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه ووصل خبره الى السلطان عند عبوره الفرات فأقر السلطان ولده الملك الامجد بهرام شاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه وانفذ شمس الدين ابن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها قال ابن أبى طى كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم اخلاقا وأسدّهم رأيا وأشجعهم قلبا ومما يحكى من كرمه انه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان وكان يعرفه من أهل اليسار وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل الى لبسه وأمر له بغلام وبغلة مسرجة وبألف دينار وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله فى موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه واجعل هذا الغلام والبغلة له ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب وسأل الحامى عن ثيابه فقال انبدلت بهذه الثياب فتقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ما صنعه عز الدين وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا فى كل شهر فلبس الثياب وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس قال وكان فرخشاه ممدحا مدحه ابن سعدان بعدة قصائد من جملتها التى يقول فيها

تخذ السابرى لبدا وعود الـ ـزان نابا والهند وانى ظفرا
أعجمى الانساب قصرت الاعـ ـراب عنه سجعا ونظما ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا * وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازنى علما وكالاحـ ـنف حلما وكالفرزدق شعرا

قال وكان فرخشاه مضافا الى شجاعته كونه عالما متفننا كثير الادب مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله

أنا في أسر السقام * من هوى هذا الغلام * رشاء ترشق عينا * ه فؤادي بسهام
كلما أرشفني فا * ه على حر الاوام * ذقت منه الشهد في الثلج المصفى في المدام

قلت ونبغ ابنه الامجد أيضا شاعرا وكان السلطان كثير الاعتماد على فرخشاه وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان اليه (وصل كتابه يتضمن خروج الفرنج وبادره من الاحوال واعده من مكائد القتال ولسنا نستبعد ان يدنى الله به كل بعيد من المراد وان يقلل بتدبيره تقلب الذين كفروا في البلاد وان يجرى على يده أول النحل الذى توعد به اخرصاد وان يصب به على المشركين صوت عذاب ان ربك لبالمرصاد) وقال العماد كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل والتفضل على أهله يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله ومن أخص خواصه وذوى اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندى أوحد عصره ونسيج وحده وقريع دهره وعلامة زمانه وحسان احسانه ووزير دسته ومشيروقته وجليس أنسه ورفيق درسه وشعاع شمسه وحبيب نفسه ولى في هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها في أول سنة صحبت فيها السلطان الى مصر وهى سنة اثنتين وسبعين وعارضها تاج الدين أبو اليمن بكلمة بديعة في وزنها ورويها وحسن ريها فأما كلمتى فهى

بين أمرى حلاوة العيش الشهى * وهوى احال غضارة الزمن البهى
وصبابة لا استقل بشرحها * عن حصرها حصر البليغ المدره
أأحبتى ان غبت عنكم فالهوى * دان لقلب بالغرام موله
انهى اليكم ان صبرى منتئ * بل منته والشوق ليس بمنتهى
أما عقود مدامعى فقدوهت * وأبت عقود الود منى ان تهى
ولقد ذهبت بينكم فاشتقتكم * يامن لمشتاق ببينكم دهى
في شوقكم أبد الزمان تفكرى * وبذكركم عند الكرام تفكهى
لو قيل لى ما تشتهى من هذه الدنيا لقلت سواكم لا أشتهى
ما كان آرفه عيشتى والذها * من ذا الذى يبقى بعيش أرفه
ومن السفاهة اننى فارقتكم * من أين ذو الحلم الذى لم يسفه

ومنها

وعقاب ايله مايفارق حلقا * أحداليها غير غرابله
مالى ومصر والمطامع انما * ملكت قيادى حيث لم أتنزه
لا تنهنى يا عاذلى فأنا الذى * تبع الهوى وأتى بما عنه نهى
قد قلت للحادى وقد ناديته * في مهمه اقصر وصلت مهمه
حتام جذبك للزمام فأرخه * فلقد أنخت الى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره * شتان بين تكرم وتكره
احسان ذى مجد وهمة ماجد * مجد وتقوى عابد متأوه

وهى ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها

هل أنت راحم عبرة وتوله * ومجير صب عند مأمنه دهى
هيهات يرحم قاتل مقتوله * وسنانه في القلب غير مهنه
من بل من داء الغرام فاننى * مذحل بى مرض الهوى لم أنقه
انى بليت بحب أغيد ساحر * بلحاظه رخص البنان برهره
أبغى شفاء تدلهى من دله * ومتى يرق مدلل لمدله
يامفردا بالحسن انك منته * فيه كما أنا في الصبابة منتهى
قد لام فيك معاشر افانتهى * باللوم عن حب الحياة وانت هى

ابكى لديه فان أحس بلوعة ❊ ويشهقة أومايطرف مقهقه
انا من محاسنه وحالى عنده ❊ حيران بين تفكه وتفكه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد ❊ لى فى هواه بمعنيين موجه

قلت يقال تفكهت بالشئ أى تمتعت به وتفكهت تعجبت ويقال أيضا تفكهت تندمت ومنه قوله تعالى فظلتم تفكهون فهو فى تفكه أى تمتع بالمحاسن وفى تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال

أناعبد من شهد الزمان بعجزه ❊ عن ان يجىء له بند مشبه
عبد لعز الدين ذى الشرف الذى ❊ ذل الملوك لعز عبد فرخشه
طابت موارده فغص فيناؤه ❊ وشدا الحداة بذكره فى المهمه
يفد بلك كل ملك متتايه ❊ أبدا بالسنة الرعاع ممده
لا يفقه النجوى اذا حدثته ❊ واذا اتى بحديثه لم يفقه

قلت وذكر العماد فى ديوانه أبياتا حسنة فى مدح الشيخ تاج الدين أبى اليمن رحمهما الله قال

تذاكر من وراد مصر عصابة ❊ حديث فتى طاب الندى بذكره
وقالوا رأينا فاضلا ذا نباهة ❊ أديبا يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه ❊ ويحمده عبد الحميد لنثره
ولو عاش قس فى زمان بيانه ❊ لكان مشيدا فى البيان بشكره
فضائله كالشمس نورا ولم تزل ❊ مناقبه فى الدهر اعداد زهره
بيان هو السحر الحلال وانما ❊ نرى معجزا من فضله حل سحره
ذوو الفضل هم عند الحقيقة أبحر ❊ ولكنهم أضحوا جداول بحره
يضوع مهب الحمد من عرف عرفه ❊ وتأرج ارجاء الرجا بنشره
فقلت لهم هذا الذى تصفونه ❊ أبو اليمن تاج الدين أوجه عصره

قلت وبلغنى ان أول معرفة فرخشاه به انه كان فى مجلس القاضى الفاضل بالقاهرة فجاء فرخشاه الى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر أبى الطيب المتنبى فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به فأعجب فرخشاه وسأل القاضى الفاضل عنه فقال هذا فلان وعرفه بفضله فلما قام فرخشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه الى ان توفى رحمهم الله أجمعين

❊(**فصل**)❊ فى أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز قال العماد وفى شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه الى بحر القلزم والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز وذلك ان الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة ايلة وهى فى وسط البحر لا سبيل عليها لاهل الكفر أفكر فى أسباب احتياله وفتح أبواب اغتياله فبنى سفنا ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة فمنع أهلها من استقاء الماء ومضى الباقون فى مراكب نحو عيذاب فقطعوا طريق التجار وشرعوا فى القتل والنهب والاسار ثم توجهوا الى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر ووصل الخبر الى مصر وبها العادل أخو السلطان فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر فى بحر القلزم مراكب بالرجال البحريه ذوى التجربة من أهل النخوة للدين والحمية وسار الى ايلة فظفر بالمركب الفرنجى عندها فخرق السفينة وأخذ جندها ثم عدى الى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ودل على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها واوقعها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم ثم صعد الى البر فوجد اعرابا قد نزلوا منه شعابا فركب خيلهم وراء الهاربين وكانوا فى أرض تلك الطرق ضاربين فحصرهم فى شعب لا ماء فيه فأسرهم بأسرهم وكان ذلك فى أشهر الحج فساق منهم أسيرين الى منى كما يساق الهدى وعاد الى القاهرة ومعه الاسارى فكتب

السلطان اليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف

قلت ولأبى الحسن ابن الذروى فى الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة اشعار منها

مر يوم من الزمان عجيب * كاد يبدى فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى * قرنتهم فى طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال * وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى * هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادى * وسواه من اللآلى يصاد

ومنها

قلت وقد سافرت يا من غدا * جهاده يعضد من حجه
اذ قيل سار الحاجب المرتجى * فى البحر يارب السما نجه
البحر لا يعدو على لؤلؤ * لانه كوّن من ثبجه

ومنها

يا حاجب المجد الذى ماله * ليس عليه فى الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤا عندما * صحت من البحر له نسبه
لله ما تحمل من صالح * فيه وما تظهر من حسبه
كفيت أهل الحرمين العدا * وذدت عن أحمد والكعبه

ومنها

لئن كنت من ذا البحر يا لؤلؤ العلى * نجحت فان الجود فيك وفيه
وان لم تكن منه لاجل مذاقه * فانك من بحر السماح أخيه

ومنها

انما أنت لؤلؤ للمعالى * جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان الى العادل من كلام الفاضل (وصل كتابه المؤرخ بخامس ذى القعدة المسفر عن المسفر من الاخبار المتبسم عن المتبسم من الآثار وهى نعمة تضمنت نعما ونصرة جعلت الحرم حرما وكفاية ما كان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها وعجيبة من عجائب البحر التى يحدث عن تسييرها وتسخيرها وما كان الحاجب لؤلؤ فيها الا سهما أصاب وحد مسدده وسيفا قطع وشكر مجرده ورسولا عليه البلاغ وان لم يجهل ما أثرته يده وقد غبطناه بأجر جهاده ونجح اجتهاده ركب السبيلين براو بحرا وامتطى السابقين مركبا وظهرا وخطا فاوسع الخطو وغزا فانجح الغزو وحبذا العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق والمال الذى فى هذه الكرة أنفق وهؤلاء الاسارى فقد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ولو جرى فى ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار الى الله والخلق وانطلقت الالسن بالمذمة فى الغرب والشرق ولا بد من تطهير الارض من ارجاسهم والهواء من انفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين وان هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل وهذا مقام ان روعى فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر حدث الفتق الذى لا يمكن فى كل الاوقات سده ورتقه ولدغ المؤمن مرتين والاولى تكفى لمن له فى النظر تفقه) وفى كتاب آخر الى العادل أيضا (ونحن نهنى المجلس السامى بظفره ولم لا يكمله وبنصره ولم لا يجمله ويشكره وليس فى قتل هؤلاء الكفار مراجعه ولا للشرع فى ابقائهم فسحه ولا فى استبقاء واحد منهم مصلحه ولا فى التغاضى عنهم عند الله عذر مقبول ولا حكم الله فى أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا بمجهول فليمض العزم فى قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عظيمة ما طرق الاسلام بمثلها وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها) وفى كتاب آخر أيضا الى العادل (قد تكرر القول فى معنى أسارى بحر الحجاز فلا تدر

على الارض من الكافرين ديارا ولا تورد هم بعد ماء البحر الا نارا فاقلهم اذا بقى جنى الامر الاصعب ومتى لم تعجل الراحة منهم وعدت العاقبة بالاشق الاتعب) ومن كتاب آخر الى بغداد (وسارت المراكب الاسلامية طالبة شوكة المراكب الحربيه المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنيه وكانت مراكب العدوّ قد أوغلت فى البحر ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها فى الكفر فوصلت الى عيذاب فلم ينل منها مرادا غير ان ما وجدته فى طريقها أوفى فرضة عيذاب نالت منه وشعثت وافسدت فيه وعثت وتمادت فى الساحل الحجازى الى رابغ الى سواحل الحوراء وهناك وقع عليها أصحابنا وأوقعوا بها اشد ايقاع وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والاسراع ففر فرنجها الى الساحل فركب أصحابنا ورآهم خيول العربان التى وجدوها وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها وكفى المسلمون أشد فساد فى أرضهم وأقطع قاطع لفرضهم وانبسطت آمالهم بقبضهم وعميت على الكفار هذه الطريق التى لو كشف لهم غطاؤها قدما ولو أحاطوا بها علما لاشتطت نكايتهم واشتدت جنايتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الاقران ويطفئوا هذه النيران ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا غوالى المهج ويقتنصوا هذا الطائر من جوّه الذى لا يدرك لوحه ويدركوا هذا العدوّ الذى لا يدرك الا ان تستخدعليه ملائكة الله وروحه) وفى كتاب آخر الى بغداد (كان الفرنج قد ركبوا من الامر نكرا وافتضوا من البحر بكرا وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والاسلحة والازواد وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا فى البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة لما أومض اليهم من خلل العواقب وماظن المسلمون الا انها الساعة وقد نشر مطوى اشراطها والدنيا وقد طوى منشور بساطها وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ومقام خليله الأكرم وتراث أنبيائه الاقدم وضريح نبيه الاعظم صلى الله عليه وسلم ورجوا ان تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ قصده أصحاب الفيل ووكلوا الى الله الامر وكان حسبهم ونعم الوكيل وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة ايلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله والآخر الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من ساحله وانقسموا فريقين وسلكوا طريقين فاما الفريق الذى قصد قلعة ايلة فانه قدّر ان يمنع أهلها من مورد الماء الذى به قوام الحياه ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر ان يمنع طريق الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجه ويأخذ تجار اليمن واكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم وكان الاخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين وأمرها بان تطوى وراءهم الشقتين فاما السائرة الى قلعة ايلة فانها انقضت على مرابطى الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء وقذفتها قذف شهب السماء مسترقى سمع الظلماء فاخذت مراكب العدوّ برمتها وقتلت أكثر مقاتلتها الا من تعلق بهضبة وما كاد أو دخل فى شعب وما عاد فان العربان اقتصوا آثارهم والتزموا احضارهم فلم ينج منهم الا من ينهى عن المعاوده ومن قد علم ان أمر الساعة واحده وأما السائرة الى بحر الحجاز فتمادت فى الساحل الحجازى الى رابغ سواحل الحوراء فاخذت تجارا وأخافت رفاقا ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا وهناك وقع عليها أصحابنا وأخذت المراكب باسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب وسلكوا فى الجبال مهاوى المهالك ومعاطن المعاطب وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا نهارا وليلا حتى لم يتركوا عنهم خبرا ولم يبقوا لهم أثرا وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا وقيد منهم مائة وسبعون أسيرا) ومن كتاب آخر (ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا غانما غالبا بعد نكايته فى أهل الجزائر واخراب ما وجده فيها من الاعمال والعمائر ومن جملة ماظفر به فى طريقه بطشه من مراكب الفرنج تحمل أخشابا مجرورة الى عكا ومعها نجارون ليبنوا منها شوانى فاسر النجارون ومن معهم وهم نيف وسبعون وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنون وللخادم فى المغرب عسكر قد بلغت أقصى افريقية فتوجه وعاود به شخص الدين فى تلك البلاد روحه

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى هذه السنة وهى سنة ثمان وسبعين انعم السلطان على نور الدين

محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم وكانت جارية في عمل الموصل فلما تسلمها جعلها من نصيبه وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه الى الموصل في أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا ارسلان بقلعة الهيثم ثم سلمها اليه دون أعمالها تحلة ليمينه ووفاء بوعده الكريم ودينه ولما جاء لمساعدته في هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام ثم وهب له قلعته الجديده وهي قريبة من نصيبين ووعده بفتح آمد له فوفى بوعده كما سيأتي قال وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهير الدين سكمان وهو خال صاحب ماردين ايلغازي بن البي بن تمرتاش وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي فانفذ شاه أرمن يشفع الى السلطان في الموصل وسنجار وهو على سنجار وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم فجمع السلطان عساكره وجاءه تقي الدين من حماه الى حران في خمس ليال فساروا اليهم بعد العيد الاكبر فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا وعاد الخلاطي الى خلاطه باختلاطه ورجع الموصلي الى موصله لمواصلة احتياطه واعتصم الماردي بحصنه المارد وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد وهاب عسكر حلب العود اليها ونحن على طريقه فاذن جمعه بتفريقه ومضى معظمهم الى الموصل فعبر الفرات عند عانه ولم يجدوا اعانة ونسفتهم ريحنا وهم جبال وذهبوا بقلوب النساء وقد جاؤا وهم رجال ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه فاقام فيه تاج الملوك أخو السلطان قال ابن أبي طي وفي هذه السنة نزل قراقوش على بلد ألوت وقاتله الى ان انهزم منه أهله ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فاصبح يوما فاذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل فقام وافتقد أصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية وباقي الناس سكارى ورأى أحد البوقية فامره ان يضرب بالبوق وفتح الباب وخرج فظن العسكر ان قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا قال ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها وكان شيخها عبد المجيد ابن مطروح قد راسل قراقوش وطلب منه الامان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم فانفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم في دار أخلاها لهم وأمر لهم بجميع ما يحتاجون اليه فلما خلا لهم الليل أخذوا المخاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه فأخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته لم أحضرت لهؤلاء السادة مخاد مقطعه فقال ما أحضرت لهم الا مخادا جددا ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذي لا نعرفه في بلادنا فاستحيي القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء فقال من فعل فلم يرد واحد منهم جوابا فقال ابن مطروح ياقوم ما أدخلناكم الينا الا عازمين على تسليم البلد اليكم وان نكون لكم رعايا وقد شاهدنا منكم افعالا ما نرضاها فان قلتم ان هذا الفعلة من غلماننا وعبيدنا فما أقبح هذه الاحدوثة عن خيار أصحاب هذا الرجل وان كان عنده من هو خير منكم فلم يبعثكم الينا هذا طعن في عقله ثم أمر باخراجهم فأخرجوا من المدينة فلما صاروا الى قراقوش وعلم القصة عظم عليه الامر وأراد الفتك بهم وعلم انهم قد فتقوا عليه فتقا لا يمكنه رقعه أبدا وتيقن انه لا يملك البلد أبدا وأنفذ عبد المجيد الى قراقوش انك لست بقادر على أخذ هذا البلد لاجل ما نفر به أصحابك قلوب أهله فان رأيت ان نجعل لك جعالة نحملها اليك في كل سنة وترحل عنا فعلنا فأجاب الى ذلك ورحل عنهم بعد ان احتوى عليهم قال وتوافت اليه الفرسان من مصر حتى صار في ثمانمائة فارس من الاتراك وسار من جبل نفوسه الى قابس في يومين ثم الى قصر الروم وغيره من المواضع والقلاع فهجم ونهب وغنم وغلب وخافه أهل تلك النواحي

﴿فصل﴾ في فتح آمد قال العماد ثم سار السلطان الى آمد ونزل عليها يوم الاربعاء سابع عشر ذي الحجة بعد ان استأذن الخليفة في ذلك فأذن له فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي

﴿ثم دخلت سنة تسع وسبعين﴾ قال ابن أبى طى والسلطان منازل لآمد واشتدّ قتال العامة بها فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد ووعد وايعاد وان داموا على القتال لنستأصلن شأفتهم وان اعتزلوا وسلموا البلد لنحسنن اليهم ولنضعن ماعليهم من الكلف والضرائب وأمر أن تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد فرمى من ذلك شئ كثير فكفوا عن القتال وأشاروا على ابن نيسان بطلب الامان فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح وامهل ثلاثة أيام فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه فأرسل الى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب وضربت له خيمة بظاهر آمد وجعل ينقل مايقدر على نقله من المال والقماش وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة أيام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلثمائة انسان ولم ينقل عشر ما كان له وسرق من أمواله أكثر مما حصل له لانه ما أخرج أحد شيأ الا وأخذ نصفه أو أكثر وكان ابن نيسان قد حصل فى آمد أشياء كثيرة لايمكن وصفها من الاسلحة والاموال والغلال والكتب ولما انقضى الاجل أخذ ما حصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها ونصبت أعلامه على أسوارها وذلك فى رابع عشر المحرم ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والزوادات أشياء كثيرة لايمكن أن يوجد فى بلد مثلها ووجد فيها برج من ابراجها فيه مائة ألف شمعة وبرج مملوء بنصول النشاب وأشياء يطول شرحها وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهب السلطان الكتب للقاضى الفاضل فانتخب منها حمل سبعين جمازة ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لاحاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الارض من ذخائرها وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد ابن قرا ارسلان بما فيها وكتب له بها وبأعمالها توقيعا ووفى له بما وعده به وقيل للسلطان انك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الاموال والذخائر وفيها من الذخائر مايساوى ثلاثة آلاف ألف دينار فقال لا أضن عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا وأصحابنا قال وفى فتح آمد يقول سعيد الحلبى من قصيدة فى السلطان

رمى آمدا بالصافنات فأذعنت ❊ له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديها ولا اعتاص ثغرها ❊ ولا جاش طاميها ولارد سورها
وأنزلت بالكره ابن نيسان محرجا ❊ كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى اذا انقاد صعبها ❊ تقضى على طول الشماس نفورها
سمحت بها جودا لمن ظل برهة ❊ يغاورها طورا وطورا يغيرها
وملكت ماملكتها متحوّلا ❊ وكان قليلا فى نداك كثيرها
وان بلادا تجتدى تك ملوكها ❊ لاجدر ان يرجو نداك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبى يذكر فتح آمد

فيا سا كنى الرعناء من سفح آمد ❊ أرى عارضا ينهل بالموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها ❊ فهذا ابن أيوب وهذى معاقله
ولو رامها يوما سواه لقطعت ❊ أباهره من دونها وأباجله

قلت وقال آخر

لو عرفت آمد من جاءها ❊ يخطب فى الاسلام تسليمها
لصيرت أعلى شراريفها ❊ لمن على الارض سلاليمها

قال العماد وأما آمد فحصل فتحها يوم الاحد فى العشر الاول من المحرم وكان مدبر آمد ابن نيسان فهو رئيسها والقائم بأمرها وكان لآمد أمير قديم يقال له ايكلدى من أيام السلاطين القدما وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعى انه من غلمانه ومصطنعيه وانه يحفظ البلد له وانه لايغدر به ولا يؤثر بدله واذا جاء رسول يحضره عند أميره ويسند مايدبره الى تدبيره ويقول انه غلام وما معه كلام وحافظ على سر هذه السريره وآمن باحتياطه من جور الجيره بل ما منهم الامن يخاف مكره ويحفظ منه وكره وينكر عرفه ويعرف نكره ولم يزل الحصار عليهم الى أن

أذعنوا للانقياد وخرجت نساؤهم بحرا الى المخيم الفاضلي يطلبن الامان فأمنهم السلطان على انهم يخرجون بعد ثلاث ويحملون ما قدروا عليه من المال والاثاث وأعانهم السلطان على نقل الاموال بالدواب والرجال فلما انقضت مدّة الامان تسلمها السلطان وسلمها الى نور الدين بن قرا ارسلان بأعمالها وما فيها وكان السلطان وعده بها قبل ذلك فأنجزله الوعد وقد كان أبوه عاناها مدّة وتمناها فما قدر عليها ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد من الذخائر والاموال والحواصل والامتعة وان أصحابها لم يقدروا في تلك الايام الثلاثة الا على تحويل ما خف منها واستغنى المساعدون لهم في تحويلها اليهم وكتب الفاضل عن السلطان الى الديوان ببغداد (ورد الى الخادم التقليد الشريف بولاية آمد فلما رآه مستقرا عنده قال هذا مفتاحها وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد وقال هذا مصباحها وتناوله فما ظنه الا كتابا أنزل عليه من السماء في قرطاس وما تيقنه الا نورا يمشي به في الناس فسار به ولولا العادة ما استصحب جنديا وعوّل عليه ولولا الرتبة ما تقلد هنديا وطرق بابه باقليده ولولاه ما استطاع للاولياء أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل فلو كان ذا سمع أصغى ولو كان ذا لب لبى فلما انقضت ضيافة أيام النذاره واحتقر من بآمد نار الحرب جاهلا ان وقودها الناس والحجاره عمدها في اليوم الرابع فزلزل عمدها وقاتلها فأزال جلدها وزيل جلدها ثم رأى ان الشوكة ربما أصابت غير ذات الشوكة من جندها وان المسلم قد أمن عذاب الحريق ولا يأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها فعدل الى منجنيقه الذي أمل صاحبها منه منجا نيقه ورأى ان سوط سطوته يضرب الحجر ويضرب عن أن يباشر البشر وتلك الابرجة قد شمخت بأنفها ونأت بعطفها وتأهت على وامقها وغضت عين رامقها فهي في عقاب لوح الجو كالطائر الآن المنجنيق أغرى بها عقابيه وضغمها بمخلبيه وخصم اماماها بخاصمها وقام الى الغير يحاكمها ويضرب بعصاه الحجر فتنبجس من النقوب أعين لا ترسل الماء ولكن تروى العطاش الى منهل المدينة وتنهل الظماء كذلك أياما حتى محى من الشرفات شنب ثغرها وتناولها كأس فتك تبين بهزابراجها آثار شكرها وعلت الايدى الرامية لها وغلت الايدى المحامية عنها فلم يبق على سورها من يفتح جفنا وشن المنجنيق عليها غارته الى أن صارت شنا وفضت صناديق الحجارة المقفله وفصلت منها اعضاء السور المتصله ووجب القتال لئلا يظن بالخادم ان لا جند له الا جند له فأوعزنا التقدم اليها ودخول النقابين فيها فاتخذت جراحا بالنقوب وهتك الحجاب من أضالع البلد فكاد يتصل الى ما وراءها من القلوب وخشيت معرة الجيش في وقت هجمه وروسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه فاعاد الرسول مستنكفا تحجب النجاة بارسال ذوات الحجاب وابرازهن ومستكفا اليد القتل بمن لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن ولم يعارض في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله وهي ما هي ذخائر موفره ومكاسب من أرباح مخسره كانت الحقوق عنها مذوده والامال دونها مطروده وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه وصانه في مخيمه من الفقر صيانته في ذات سوره وخندقه واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه وهذه آمد فهى مدينة ذكرها بين العالم متعالم وطالما صادم جانبها من تقادم فرجع بجذوعا أنفه وان كان خلا وقرعها فريدا لهمة واستصحب جفلا ورأى حجرها فقدر انه لا يفلك له حجر وسوادها فحسب انه لا ينسخه فجر وحمية أنف أنفها فاعتقد انه لا يستجيب لزجر من ملوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها ووقف بها وقوف المحب المسائل فلم يفز بما أمل من جواب معهدها) ثم ذكر تسليمها الى ابن قرا ارسلان ثم قال (ولما رأى صاحب ميافارقين ان اخت صاحبته قد ابتنى بها خاف ان يجمع له بين الاختين فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها النور الدين ثاني اثنين) ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم على قصد الخادم ونزلوا تحت الجبل فلما صح عندهم قصده ظنوا انه واقع بهم فأخذوا عنه الفرار نقوة وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مخوّفة وعنده مرجوّة وسار كل فريق على طريق بنية عدوّ وفعل صديق والخادم يقول مهما أرادت فيه الاراء الشريفة أتاه ومهما نوت فيه من احسان قرب عليه ما نواه فهذه آمد لما أرسل اليه مفتاحها وهو التقليد فتحها وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها ولو أعين به لعظمت على الاسلام عائدته وظهرت في رفع مناره فائدته لان اليد كانت تكون به على عدوّ الحق واحده والهمة لآلات النصر واجده فان رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليائه وينظر أيهم أبرّ بأوليائه وأشدّ على أعدائه وأقوم بحقه وحق

آبائه

آبائه وأيهم أترك للفراش الممهد واهتك للطريق الممدّد واهجر فى سبيل الله لراحه واصبر فى جهاد عدوّ الله على مضض جراحه واسلى عن ريحانة فؤاد وأكثر ممارسة لحية واد فيختار لهذه الامة التى جعله الله لها اماما وأماما أسعد من اجرى فى طاعته ضامرا وملأ بولايته ضميرا فمن عدله أن يولى عليها العدل الذى يقرّ عينها ومن فضله ان لا ينسى الفضل بينها وقد ورد ذلك المنشور بآمد فاورد الميسور فان ورد المنشور المشار اليه بالجزيرة وما وسعت فانه نور على نور وما يحسب الخادم ان كيدا للعدوّ الكافر أكيد ولا جهدا لاهل الضلال اجهد ولا عائدة بغيظ رؤساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام والا فليتنظر هل يشق على الكفار مزيد أحد سواه من ولاة الاسلام فكل ذى سلطان هو الطاعم الكاسى المحمى بالمناصل لا الحامى المكفى لا الكافى يقضى عمره وهو لا يشهد الطعن الا فى الميدان ولا يتمثل الهام طائرا لولا الكرة فى الصولجان ولا يشق بسهمه الا قرطاسه ولا يحظى برفده الا كياسه فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدين الى معالم حقه الاولى وأطال يد سلطانه الطولى الى ان تأخذ الامور مآخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا فيعود الى الاسلام عوايد ارتياحه وأيام منصوره وسفاحه) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى وزير بغداد (أصدر هذه الوسيلة الى المجلس السامى معولا على كرمه فيما حملته من اللبانه مستغنيا بشهرة الحال المتجددة عن الابانه فان آمد قصر الامد فى الظفر بها وانقاذها من المظالم التى كانت تلبس نهارها بقية غيهبها وسار اليها بقية العساكر بعد الذين ساروا الى الشام وأقاموا قبالة الكفار بعدة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الديار المصرية على بعد تلك الديار ليظهر لمن نوى المناواه ويتبين لمن كان على منافاة الملاقاه ان رجالا من مصر فتحوا آمد بعد سنة من البيكار وبعد غزوتين قد طواهما فى توار بحهما الى الكفار ففى ذلك ما يغص الحاسد ويغض الحاقد ويعلم ان فى أولياء الدولة مارد كل مارد فلما حل بعقوتها أراد ان يجرى الامر على صوابه ويلج الامر من بابه وان ينذر المغتر ويوقظه ويعظه بالقول الذى رأى من الرفق ان لا يغلظه فبعث اليه ان يهب من كراه ويعتدّ لضيف التقليد قراه وينجو بنفسه منجأ الذئاب ولا يتعرض بان يكون منتجا للذباب فاذا عريكته لا تلين الا بالعراك وطريدته لا تصاد الا بالاشراك فهنالك رأى عاجلا ما هنالك وقوتل حق القتال فى يوم واحد عرف ما بعده من الايام ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدره الذى فطره وخطب امامها خطيب خطبه وأغمد الصارم اكتفايضر به وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه فصار فى أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيلا وعفرت الابرجة وجهاتربا ونظرت القلعة نظرا كليلا حتى اذا أمكنت النقوب ان تؤخذ وكبد السوران تفلذ رأى الذى لا يصبر على بعضه واعتذر اليه البناء الذى بناه ان لم ينقضه فلا بد من نقضه وسأل فأجيب الى الامان على نفسه وخرج منها وانما أخرجه الظلم وسلم وهو يرى السلامة امامن الحلم وامامن الحكم) ثم قال (ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذى قرعه ولا أنزل عليه النصر الذى أنزل معه ولا ساعد سيفا ساعد ولا نالت يد مدت من مصر فأخذت آمد ومن بآمد ولو قبلت مسألته فى تقليد الموصل لكان قد ولجها ولو بدلجة أدلجها وأخذها ولو بحصاة نبذها وهو يتوقع فى جواب هذا الفتح ان يمدّ بجيش هو الكلام ورماح هى الاقلام ونصر هو وافد الامر وترشيد هو فك الحجر وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها ولا لدعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها ولكن لان هذه الجزيرة الصغيره منها تنبعث الجزيرة الكبيره وهى دار الفرقه ومدار الشقه ولو انتظمت فى السلك لانتظم جميع عسكر الاسلام فى دار الشرك ولكان الكفر يلقى بيديه وينقلب على عقبيه ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه ويغزى من مصر برا وبحرا ومن الشام سرا وجهرا ومن الجزيرة مدا وجزرا ويكون خادمه قد وجب ان يتمثل بقوله تعالى ولقد مننا عليك مرة أخرى) ومن كتاب آخر (كتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها وعذقت بدولتنا أسبابها وتكلم لسان علمنا فى فم قلعتها وبعد ان لبستهاد ولتنا وفينا بموعد خلعتها فالحمد لله الذى تتم النعم بحمده وينجح الامل بقصده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) قال العماد ثم دخل السلطان مدينة آمد وجلس فى دار الامارة وحلف نور الدين بن قرا ارسلان على انه يظهر بها العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان من معاداة الاعداء ومصافاة الخلان فى كل وقت وزمان وانه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان

واليه عطشان قال وكان هذا نور الدين فى خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات ثم ان رسل ملوك الاطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الامان وان يتخذه من جملة الاعوان منهم صاحب ماردين وصاحب ميافارقين وهما قريبا ابن قرى أرسلان فردّ السلطان كل رسول بسوله وأجاب أتباله بقبوله ثم رحل السلطان من آمد وعبر الفرات لقصد حلب وولايتها فاقسلم فى طريقه تل خالد بالرعب ولم تكن منهم بالقرب فأقر أهلها فيها ثم نزل على عين تاب فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين الى خدمة السلطان فأعاده الى مكانه بالاحسان وقال ابن أبى طئ تسلم السلطان تل خالد فى رابع عشر المحرم وسلمها الى بدر الدين دلدرم ومن كتاب فاضلى (نزلنا تل خالد يوم الثلاثا ثانى عشر المحرم وكان قد تقدّمنا الاجل تاج الملوك اليها وأناخ عليها وقابلها وقاتلها وعاجلها ولوشاء لعاجلها ولما أطلت عليها راياتنا ألقى من فيها بيده وانجز النصر صادق موعده وأرسلتها حلب مقدّمة لفتحها وقد أنعم الله علينا بنعم لا نحصيها تعدادا ولا نستقصيها اعتدادا ولا نستوعيها ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها وسيوفنا قد صارت مفاتح الامصار تفتحها بنصر الله لا بحدها ولا بقطعها قلت وما أحسن ما قال البلغوى من قصيدة له فى السلطان

قل للملوك تنحوا عن ممالككم ❋ فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

❊(فصل)❊ فى فتح حلب قال القاضى ابن شداد لما عاد السلطان بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى ثانى عشر المحرّم سنة تسع وسبعين ثم سار الى حلب فنزل عليها فى سادس عشرى المحرّم وكان أوّل نزوله بالميدان الاخضر وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب بباناقوسا وباب الجنان غدوة وعشيه وفى يوم نزوله جرح اخوه تاج الملوك وكان عماد الدين زنكى قبل ذلك قد خرج وخرّب قلعة عزاز فى تاسع جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخرب حصن كفرلاثا وأخذها من بكمش فانه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها وجرت غارات من الفرنج فى البلاد بحكم اختلاف العساكر قال ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب فاجتمع خلق كثير وقاتلها قتالا شديدا وتحقق عماد الدين زنكى انه ليس له به قبل وكان قد ضرس من اقتراح الامراء عليه وجبههم اياه فأشار الى حسام الدين طمان ان يسفر له مع السلطان فى اعادة بلاده وتسليم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر ثم أعلمهم وأذن لهم فى تدبير أنفسهم فأنفذوا عنه عز الدين جرديك وزين الدين بلك فبقوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك فى سابع عشر صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدّموا حلب وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى اشغاله وينقل أقمشته وخزائنه الى يوم الخميس ثالث عشرى صفر وفيه توفى تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذى كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء قلت وكان أصغر أولاد أيوب ذكر ابن القادسى ان مولده سنة ست وخمسين فى ذى الحجة فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا وأنشد له شعرا وقال العماد الكاتب فى كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة وله نظم لطيف وفهم شريف ثم قال القاضى أبو المحاسن وفى ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الاخضر وتقررت بينهما قواعد وانزله عنده بالخيمة وقدّم له تقدمة سنية وخيلا جميلة وخلع على جماعة من أصحابه وسار عماد الدين من يومه الى قرا حصار سائرا الى سنجار وأقام السلطان بالخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولا مستعظم لشأنها الى يوم الاثنين سابع عشرى صفر ثم صعد فى ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنيه وكان قد تخلف لاخذ ما تخلف لعماد الدين من قماش وغيره وقال العماد وصل السلطان الى حلب وفيها عماد الدين زنكى بن مودود الذى كان صاحب سنجار وقد تحصن بكثرة الاجناد والعدد وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته وأراد السلطان ان يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال لكن الشباب وجهال الاصحاب راموا القتال وأحبوا النزال وتقدّموا وأقدموا والسلطان ينهاهم فلا ينتهون وكان فيهم تاج الملوك بورى أخو السلطان فطعن فى فخذه ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكى وكان السلطان أوّل ما نزل على حلب نزل فى صدر الميدان الاخضر وذلك فى زمن الربيع الانضر ثم رحل ونزل على جبل جوشن ونهى عن القتال وقال نحن هاهنا

نستغل البلاد وما علينا من الحصن الذى بلغ منه هذا العناد وانفذ رسل الترهيب اليهم ففكر عماد الدين زنكى فى أمره ورأى ان الصواب مصالحة السلطان فانفذ سرا اليه حسام الدين طمان وصالحه وحلفه على أن يسلم اليه حلب ويردّ عليه بلده سنجار ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج واشترط عليه ارسال العسكر فى الخدمة للغزاة ومن كتب فاضليه (تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها وبلغت بها الهمم أوطارها وعوّض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لانه مشترط عليه بالخدمة بنفسه وعسكره ومختلط بالجملة فهو أحد الاولياء فى مغيبه ومحضره وعوّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج فهو صرف بالحقيقة اخذنا فيه الدينار وأعطينا الدراهم ونزلنا عن المنيحات وأحرزنا العواصم وسرنا انها انجلت والكافر المحارب والمسلم هو المسالم واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهره والحضور فى مواقف الغزو والمصابره فانتظم الشمل الذى كان نثيرا وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا وزال الشغب وأخمد اللهب واتصل السبب وأخذت للغزاة الاهب ووصلت الى غاية همة الطلب والالفة واقعه والمصلحة جامعه واشعة أنوار الاتفاق شائعه) ومنها (فتحنا مدينة حلب بسلم ما كشفت بحرمتها قناعا وتسلمنا قلعتها التى ضمنت أن نتسلم بعدها بمشيئة الله قلاعا وعوّض صاحبها من بلاد الجزيره ما اشترط عليه به الخدمة فى الجهاد بالعدّة الموفوره فهى بيدنا بالحقيقة لان مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها وشوكتها لا زهرتها ومناظرتها للعدوّ لا نضرتها وان يعظم فى العدوّ الكافر نكايتها لا ان تعذق بالولى المسلم ولايتها والاوامر بحلب نافذه والرايات بأطراف قلعتها آخذه وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ما كانوا يؤملون وامنوا ما كانوا يحذرون وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على أن تكون العساكر مجتمعة على الاعداء مرصدة للاستدعاء فالبلاد بأيدينا التامغنمها ولغيرنا مغرمها وفى خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرنا وفى يده ما لا نضن به وهو درهمنا شرطنا على عماد الدين النجدة فى أوقاتها والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها فلم يخرج منا بلد الا الينا عاد عسكره وانما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره وتكون عساكره الى عساكرنا مضافه ونتمثل قوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافه) ومنها (نشعر الامير بما منّ الله به من فتح مدينة حلب التى هى مفتاح البلاد وتسلم قلعتها التى هى أحد ما رست به الارض من الاوتاد فلله الحمد واين يقع الحمد من هذه المنه ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهى الجنه وصدرت هذه البشرى والموارد قد أمضت الى مصادرها والاحكام فى مدينة حلب نافذة فى باديها وحاضرها وقلعتها قد أناف لواؤنا على أنفها وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه أمس برشقها ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا فى البلاد) قلت ولابى الحسن بن الساعاتى فى مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها

ما بعد لقياك للعافين من أمل ❋ ملك الملوك وهذى دولة الدول
فانهض الى حلب فى كل سابقة ❋ سروجها قلل تغنى عن القلل
ما فتحها غير اقليد الممالك والـ ❋ ـداعى اليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب ❋ علام أهملتها اهمال مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت ❋ ما باله فيصاصى غير محتفل

وللقاضى السعيد بن سناء الملك من قصيدة

بدولة الترك عزت دولة العرب ❋ وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
ان العواصم كانت أى عاصمة ❋ لنفسها بتعاليها عن الرتب
جليسة النجم فى أعلى مراتبه ❋ وطالما غاب عنها وهى لم تغب
ومانعته كمعشوق تمنعه ❋ أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب
فرعنها بلا غيظ ولا حنق ❋ وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوى البلاد وأهليها كتائبه ❋ طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها ❋ بمالك فطن أوسائس درب

ممالك لم يدبرها مـــدبرها ❋ الا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ❋ من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة ❋ فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب
ومذ رأت صدّه عن ربعها حلب ❋ ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر ❋ منها اليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فوافتها عواطفه ❋ وأكثب الصلح اذ نادته عن كثب
وحل منها بأفق غير منخفض ❋ للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه ❋ ملك الملوك ومولاها بلا كذب

وقال ابن أبى طىّ وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبى له من قصيدة

يا ابن أيوب لا برحت مدى الـــدهر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك وهى ❋ وله الصب ريع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبى من قصيدة

دونك والحسناء أم القرى ❋ ونارها الاشهب والطود الاشم
واركب الى العلياء كل صعبة ❋ أبيت لعنا وخلاك كل ذم
وارم فكل الصيد فى جوف الفرى ❋ لا صارم السهم ولا نابى الحكم
مــدالى أخت السهاء زورة ❋ لا فـــرق يعقبها ولا ندم
فيا لها شماء مشمخـــرة ❋ تطارح البرق وساحات الديم
ايه صلاح الدين شدّ ازرها ❋ واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبابها ❋ وبابها المغلق فى وجه الامم

قال وفى آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سحق السلطان الاصفر على سور قلعة حلب وضربت له البشائر وفى ذلك الوقت تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى المخيم وأخذ فى اخراج ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث وكان استناب الامير حسام الدين طمان فى القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور الى نوابه وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته فى أمر عماد الدين وكان السلطان شرط انه ما يريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين فى أخذ جميع ما فى القلعة وما يمكنه حمله فلم يترك عماد الدين فيها شيأ وباع فى السوق كل ما لم يتمكن من حمله وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل ما يحتاج الى حمله وعمل له يوم الاحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة فى الميدان الاخضر وأحضرها جميع الامراء ومقدمى حلب قال وبينما السلطان على لذته بالدعوة والاخذ والاعطا والانعام والحبا اذ حضر اليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوك بسبب الضربة التى أصابته على حلب فلم يتغير لذلك ولا اضطرب ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح وبذل الاحسان وأمر بستر ذلك وتوعد عليه ان ظهر وكظم حزنه وأخفى رزيته وصبر على مصيبته ولم يزل على طلاقته وبشاشته الى وقت العصر وفى ذلك الوقت انقضت الدعوة وتفرق الناس فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها قال وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الاعطاف عذب العبارة حلو الفكاهة مليح الرمى بالقوس والطعن بالرمح وكان شجاعا باسلا مقداما على الاهوال وكان قد جمع الى ذلك الكرم والتقدم فى الادب وله ديوان شعر حسن متوسط فمنه

يا هذه وأمانى النفس قربكم ❋ يا ليتها بلغت منكم أمانيها
ان كانت العين مذ فارقتكم نظرت ❋ الى سواكم فخانتها أماقيها

قال ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس فى اليوم الرابع وفرّق فى وجوه الحلبيين الاموال وفى

سادس عشرى صفر ورد أصحاب عماد الدين وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار ونصيبين والخابور ففى ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وانزل منها الامير طمان وأصحابه ولما سلمها الى نواب السلطان ركب عماد الدين فى وجوه أصحابه وأمرائه وخرج الى خدمه السلطان ظاهرا وركب السلطان الى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذى بظاهر حلب من جهة الشمال فتسالما ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه وعادا فركبا وسار هو وأبوه فى خدمة السلطان الى المخيم بالميدان الاخضر فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته وقدم له تقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابى والاطلس والمعتق والمرس وغير ذلك وعشرة جساو قندس وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده ومائة قباو مائة كمه وحجرتين عربيتين باداتهما وبغلتين مسروجتين وعشرة اكاديش وخمس قطر بغال وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب وخرج السلطان معه وركب لوداعه وسار معه الى قريب من بابلى وودعه وعاد وسار عماد الدين الى بلاده قال وفى يوم الاثنين سابع عشرى صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب وكان صعوده اليها من باب الجبل وسمع وهو صاعد الى قلعة حلب يقرأ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء الآية وقال والله ماسررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة والآن قد تبينت اننى أملك البلاد وعلمت ان ملكى قد استقر وثبت وقال صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى الى هذه القلعة فسمعته يقرأ قل اللهم مالك الملك الآية قال ولما بلغ السلطان الى باب عماد الدين قرأ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها ثم صار الى المقام فصلى ركعتين ثم سجد فأطال السجود ثم خرج ودار فى جميع القلعة ثم عاد الى المخيم وأطلق المكوس والضرائب وسامح بأموال عظيمة وجلس للهناء بفتح حلب وأنشده جماعة من الشعراء منهم يوسف البراعى له من قصيدة

شرفت بسامى مجدك الشهباء ❁ وتجللتها بهجة وضياء
ألقت اليك قيادها وبها على ❁ كل الملوك ترفع واباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريرى له من قصيدة وتقدم بعضها

وصحت شهباء العواصم مصلتا ❁ قواضب عزم لايفل شهيرها
فامطيت منها غاربا فيك راغبا ❁ وعاد يسيرا فى يديك عسيرها
وأوطأت منها الخصيك تنوفة ❁ يعز على الشعرى العبور عبورها
ورد اليها روح عدلك روحها ❁ وكانت رميما لا يرجى نشورها

قال وقال والدى أبو طى النجار من قصيدة

حلب شامة الشام وقد زيد ❁ ت جلالا بيوسف وجمالا
هى اس الفخار من نال أعلا ❁ ها تعالى فخامة وتعالا
ومحل العلاء من حل فيها ❁ تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها ملكا ملك الار ❁ ض اقتسارا سهولة وجبالا
فافترعها مهناء بمحل ❁ سمك الانجم الوضاء وطالا

قال وحدثنى جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهبل العدل قال كان الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعى الحلبى قد وقع اليه تفسير القرآن لابى الحكم المغربى فوجد فيه عند قوله تعالى الم غلبت الروم الآية ان أبا الحكم قال ان الروم يغلبون فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ويفتح البيت المقدس ويصير دار الاسلام الى آخر الابد واستدل على ذلك بأشياء ذكرها فى كتابه فلما فتح السلطان حلب كتب اليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه و يعين فيه الزمان الذى يفتحه فيه واعطى الورقة للفقيه عيسى فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان وحدث بما فى الورقة لمحيى الدين بن زكى الدين القاضى الدمشقى وكان

ابن زكى الدين واثقا بعقل ابن جهبل وانه لا يقدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب فى صفر وقال فيها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ❊ قضى لكم بافتتاح القدس فى رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته ثم حين فتح البيت المقدس خرج اليه المجد بن جهبل مهنئا له بفتحه وحدثه حديث الورقة فتعجب السلطان من قوله وقال قد سبق الى ذلك محيى الدين بن زكى الدين غير انى أجعل لك حظا لا يزاحمك فيه أحد ثم جمع له من فى العسكر من الفقهاء وأهل الدين ثم أدخله الى القدس بعد ما خرج الفرنج منه وأمره ان يذكر درسا من الفقه على الصخرة فدخل وذكر درسا هناك وحظى بما لم يحظ به غيره قلت وسيأتى فى فتح بيت المقدس فى فصل المنبر ذكر ما قاله أبو الحكم فى تفسيره وغيره مما يناسبه وبالله التوفيق وقال العماد ثم فتح حلب فى صفر من هذه السنة ومدح القاضى محيى الدين بن الزكى السلطان بأبيات منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ❊ مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره قال ويشبه هذا انى فى سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبى الاسطول المنصور فى ابيات وهى

يؤمل المملوك مملوكة ❊ تبدل الوحشة بالانس
تخرجه من ليل وسواسه ❊ بطلعة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت ❊ سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه ❊ ما أحكم التقوى من الاس
فوقع اليوم بما طلبه ❊ مما سبى الاسطول بالامس
لا زلت وهابا لما حازه ❊ سيفك من حور ومن لعس
وانني آمل من بعدها ❊ كرائم السبى من القدس

قال فجاء الامر على وفق الامل فوهب لى ما أملت عام القدس

❊(فصل)❊ فيما جرى بعد فتح حلب قال ابن أبى طى كاتب الوالى بحارم الفرنج واستدعاهم اليه مطمعا لهم فى الاستيلاء على حارم بشرط ان يعصموه من الملك الناصر وعلم الاجناد بقلعة حارم بما عزم عليه فتوامروا بينهم فى القبض عليه وكان هذا الوالى ينزل من القلعة ويصعد اليها فى أموره ولذاته فاتفق انه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها ونادوا بشعار السلطان وكان السلطان راسل والى حارم وبذل له فى تسليم حارم اليه فى أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة فى دمشق يملكه اياها ودار العقيقى التى كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها وحمام العقيقى بدمشق وثلاثون ألف دينار عينا ولاخيه عشرة آلاف دينار فاشتط فى السوم وتغالى فى العوض فأنفذ اليه السلطان وتوعده وتهدده فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم وقيل ان نقيب القلعة أراد ان تنفق سوقه عند السلطان ويحصل منه شيأ فكاتب السلطان بالعمل على الوالى فكتب اليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن اليها وجرى الامر على ما ذكرناه من اغلاق الباب فى وجه الوالى وقيل ان النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب فى وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج ولم يكن فعل ذلك اقامة لعذرهم وقذفوه بالحجارة ونادوا بشعار السلطان ولما اتصل بالسلطان هذه الاحوال أنفذ تقى الدين الى حارم ليتسلمها فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها اليه فرحل السلطان اليها بنفسه جريدة فلما أشرف عليها نزل اليه النقيب ووجوه القلعيين وسلموها اليه فى تاسع عشر صفر ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا فقال للسلطان يا مولانا لا تلتفت الى هؤلاء فانهم آذوا هذا الوالى وكذبوا عليه حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به وما قلت هذا الا عن تجربة فاننى لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى على من كذبهم فى حقى وتحريضهم على أمور كدت بها أهلك مع نور الدين وهم كانوا سبب خروجى من هذه القلعة وانا أرى ان السلطان يقرهم فى القلعة على هذه التجربة فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم وولى فى القلعة غيرهم وقال لابن الداية

ان بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ومتى لم نف بما نعد ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين وعاد الى حلب فى ثالث ربيع الاول فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها وقرر له فى كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كره وقباوما يحتاج اليه من الطعام وغيره وجعل معه واليا سيف الدين أزكش الاسدى وولى حسام الدين بيرك الخليفتى شحنة حلب وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقى ودار الضرب فضرب الدرهم الناصرى الذى سكته خاتم سليمان ونقل الخطابة من بنى العديم الى أبى البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضى الفاضل وولى القضاء محيى الدين ابن زكى الدين الدمشقى فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسى وولى الجامع والوقوف لابى على بن العجمى وقال العماد كان فى قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج وأرسلوا الى السلطان فتسلمها ودبر أمرها وأحكمها وقال ابن شداد انفذ الى حارم من يتسلمها ودافعهم الوالى فأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء ثامن عشرى صفر فحلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها تاسع عشرى صفر فتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه وعاد الى حلب فدخلها ثالث ربيع الاول ثم أعطى العساكر دستورا فسار كل منهم الى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها قال العماد ورجفت انطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين وانقاد وسارع الى أمان السلطان وولى السلطان القضاء بحلب محيى الدين بن الزكى فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى وكشف السلطان عن حلب المظالم وأزال المكوس وولى قلعتها سيف الدين يازكوج وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازى وكان استصحبه من مصر عند وصوله الى الشام وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر قلت وفى توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان (وانتهى الينا ان بمدينة حلب رسوما استمرت الايدى على تناولها والالسنة على تداولها وفيها بالرعاة ارفاق وبالرعايا اضرار ولها مقدار الاعند من كل شئ عنده بمقدار منها ما هو على الاثواب المجاوبه ومنها ما هو على الدواب المركوبه ومنها ما هو فى المعايش المطلوبه وقد رأينا بنعمة الله ان نبطلها ونضعها ونعطلها وندعها ونضرب عنها فى أيامنا ونضرب عليها بأقلامنا ونسلك ما هو أهدى سبيلا ونقول ما هو أقوم قيلا ونكره ما كره الله ونحظر ما حظره الله ونتأجره سبحانه فانه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله وأربح متجره فى الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها ولنا غدا بمشيئة الله ما يرفع من أجرها فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا ان لا يهووا اليها يدا ولا يردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا ولا يثقلوا بها ميزان المال فتخف ميزان الاعمال ولا يرغبوا فى كثير الحرام فان الله يغنى عنه بقليل الحلال وليعلم ان ذلك من الامر المحكم والقضاء المبرم والعزم المتمم) وفى منشور أهل الرقة بمثل ذلك (ان أشقى الامراء من سمن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق ومن ترك لله شيئا عوضه ومن أقرض الله قرضا حسنا وفاه ما أقرضه ولما انتهى أمرنا الى فتح الرقة أشرفنا منها على سحت يؤكل وظلم مما أمر الله به ان يقطع وأمر الظالمون ان يوصل فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا ان يضعوا هذه الرسوم بأسرها ويلقوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها ونعتق بلد الرقة من رقها وتثبت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها وقد أمرنا بأن تسد هذه الابواب وتعطل وتنسخ هذه الاسباب وتبطل وستمطر سحائب الخصب بالعدل وتستنزل ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين ويسامح بها جميعها جميع الاغنياء والمساكين مسامحة ماضية الاحكام مستمرة الايام دائمة الخلود خالدة الدوام تامة البلاغ بالغة التمام موصولة على الاحقاب مسنونة فى الاعقاب ملعونا من يطمح اليها ناظره وتتناولها يده او يمسك عنها اليوم على طمع لا يوصله اليه غده) قال العماد وورد على السلطان وهو نازل على حلب بشارتان احداهما ان الاسطول المصرى غزا فى خامس عشر المحرم ورجع بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطشة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا من خيالة وتجار والثانية ان فرنج الداروم نهضوا فنذر بهم والى الشرقية فخرج اليهم فالتقوا على ماء يعرف بالعسيله فاستولى عليهم المسلمون بعد ان كادوا يهلكون عطشا لان الفرنج كانوا قد ملكوا الماء فاروا هم الله بماء

السماء قلت وكتب الفاضل عن السلطان الى بغداد بهاتين البشارتين وبفتح حلب وحارم كتابا شافيا أوله (أدام الله أيام الديوان العزيز ولا زالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير والامة مجموعة الشمل بأمامته جمع السلامة لا جمع التكسير الخادم ينهى ان الذى يفتتحه من البلاد ويتسلمه اما بسكون التغمد أو بحركته فى الاغماد انما يعدّه طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ويحسبه جناحا يمكنه به المطار الى ما يلابسه الكفار من الاقطار وعلى هذه المقدّمة فهو يستفتح بذكر ظفرين للاسلام برى وبحرى شامى ومصرى أحدهما وهو البحرى عود أحد الاسطولين اللذين أغزاهما أخو الخادم أبو بكر بمصر وكانت مدّة غيبته من حين خروجه الى وقت عوده الى دمياط تسعة أيام فظفر ببطشة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شكة وازعه وتجار أولو ثروة واسعه والثانى وهو البرى نهوض فرنج الداروم الى أطراف بعيدة فنذر بهم والى الشرقية فركب اليهم الليل فرسا كما ركبوه جملا وسروا يقتلا وسروا زملا فتوافى الفريقان الى ما يعرف بالعسيلة سبق الفرنج الى موردته والسابق الى الماء محاصر للمسبوق ووردوا الرزقه فتعصب لارزقهم فظنّ المؤمن ان الكافر مرزوق واشتدّ بالمسلمين العطش ثم ثابوا الى الفرنج بقوّة انجاد السماء بالماء فلم ينج من الفرنج الا رجلان احدهما الدليل والثانى الذليل وعاد المسلمون برؤس عدوّهم فى رؤس القنا وقد اجتنوا ثمراتها وبارواحهم فى رؤس الظبا وقد أطفأوا بمائها جمراتها) ثم قال (و يثنى الخادم بذكر ما امتثله من الاوامر العليه فى اغماد سيف مجرّده من استدعى تجريده ومورده من عرّض له وريده) ثم (ذكر تسلمه حلب وانه لا يؤثر الا ان تكون كلمة الله هى العليا لا غير وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير ولا يختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوّها لا متحاسدة بعتوّها ولو ان أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه ان يكون كثير المشاركين ولا أساءه ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير الا الوحده فاذا صح التدبير لم يحتمل فى اللقاء الا العدّه فعوّض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقة وسروج على ان المظالم تموت فلا ينشر مقبورها والعساكر تنشر رأية غزوها فلا يطوى منشورها وأجاب الخادم عماد الدين الى ما سأل فيه من ان يصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدين لانه لم يثق بهم وان كان لهم أخا ولم يطمئن الى مجاورتهم الى ان يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا فليلح الآن عذر الاجنبى اذا لم يثق ولتكن هذه نصيحة من عوتب فى شكره بحسن الظنّ فلم يفق ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم فى غزواته والخروج من المظالم فما زاد على ان قال سالموا مسلما وحاربوا كافرا واسكنوا لتكون الرعية ساكنة وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا وهذه المقاصد الثلاثة الجهاد فى سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله هى مراد الخادم من البلاد اذا فتحها ومغنمه من الدنيا اذا منحها والله العالم انه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا لغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش ولا يريد الا هذه الامور التى قد توسم انها تلزم ولا ينوى الا هذه النية التى هى خير ما يسطر فى الصحيفة ويرقم وكتب الخادم هذه الخدمة بعد ان بات بحلب ليلة وخرج منها الى حارم وكانت استحفظت مملوكا لا يملكه دين ولا عقل غرّ ما هذبته نفس ولا أهل فاعتقد ان يسلمها الى صاحب انطاكية يسر الله فتحها اعتقادا اصرح بفعله وشهره بكتبه ورسله وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالسمية ولا يعرفون خالقا الا من عرفوه رازقا ولا يجدون الا لمن يرونه فى نهر النهار سابحا وفى بحر الظلام غارقا فشعر به من فيها من الاجناد المسلمين فشرّدوه ومن تابعه على فعله وظفر به المملوك عمر بن أخيه فى ضواحى البلد فأخذه وأرسله الى قلعة حلب وسار الخادم اليها فتسلمها ورتب بها حامية ورابطه ولم يعمل على انها للعمل طرف بل انها للعقد واسطه والخادم كما طالع بماضيه الذى حازه الامس المذكور يطالع بمستقبله الذى ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور فهو متأهب للخروج نحو الكفار لا تسأم رايته النصب ولا جهة سيره الرفع ولا جيشه الجرّ ولا يصغى الى قول خاطر الراحة المفند لا تنفروا فى الحرّ ولا يجيب دعوة الفراش المهد ولا يعرج على الظل الممدد ولا بدمية القصر المشيد ولا يعطف على ريحانة فؤاد يفارقه حولا ويلقاه يوما ولا يقيم على زهرة ولد استهل فتى ذكره الفطر على راحته قال انى نذرت للرحمن صوما) (ومن كتاب آخر أنفذه من نصيبين سنة ثمان وسبعين الى بغداد (سبيل الخادم ان يبنى ولا يهدم ويوفر جانبه ولا يثلم وان يفرّق بينه وبين من يمسكون أعنة الجياد المسوّمة ولا يطلقونها

ويكنزون

ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فقد علم ان الخادم بيوت أمواله فى بيوت رجاله وان مواطن نزوله فى مواقف نزاله ومضارب خيامه أكنة ظلاله وانه لا يذخر من الدنيا الا شكته ولا ينال من العيش الا مسكته وعدو الاسلام شديد على الاسلام كلبه مضطرم على أهله لهبه زجل اذا أصغت اسماع التأمل لجبه ولو ان أحدا من يدعى الملك ميراثا ويعد البلاد له تراثا دفع الى مدافعة هذا العدو الكافر والى منافرة هذا الفريق النافر لعرفته الايام ماهو جاهله ولقلدته الحرب ما هو قاتله ولجلته الاحوال ما تحوز تحته مخايله) وفى كتاب آخر (واذا أولاه أمير المؤمنين ثغرا لم يبت فى وسطه وأصبح فى طرفه واذا سوغه بلدا هجر فى ظل خيمه ولم يقم فى ظل غرفه واذا بات بات بسيف له ضجيعا واذا أصبح أصبح ومعترك القتال له ربيعا لا كالذين يغبون أبواب الخلافة اغباب الاستبداد ولا يؤامرونها فى تصرفاتهم مؤامرة الاستعباد وكأن الدنيا لهم اقطاع لا ايداع وكأن الامارة لهم تخليد لا تقليد وكأن السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه وكأن مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمانعه ولا لحابسه وكأنهم فى البيوت دمى مصورة فى لزوم جدرها لا فى مستحسنات صورها راضين من الدين بالعروة اللقبيه ومن اعلى كلمته بما يسعونه على الدرجات الخشبيه ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الاخبار المهلبيه ومن قتال الكفار بانه فرض كفاية تقوم به طائفة فيسقط عن الاخرى فى أخراها ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها فلا يقنعون بانهم لا يجاهدون الى ان يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر وبانهم لا يساعدون المسلمين الى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر فقد تولوا الشيطان تليدا وطريفا ووطئوا الاسلام وأهله وطاء عنيفا فاذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم فى زمرة الشيطان لفيفا) وقال فى هذا الكتاب (ان المواصلة ما فزعوا الى دار الخلافة الا بعد ان فرعوا والا فطالما طمعوا وهم كما طمعوا وقد يما دعوا الى طاعتها فما سمعوا وسمعوا فما اتبعوا حتى ان الاولين منهم علوا أولياء الدولة من الاتراك ضد ما جبلت اخلاقهم عليه من عقوقها وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها فاين كان التعلق بالذار العزيزة وهم يحاصرون دار السلام باحزابهم ويرامون التاج الشريف بنشابهم ويمدون محاصرتها بالاسلحة والمنجنيقات والازواد والاقامات ويصافون الخلفا مصافة المواقف ويكاشفونهم مكاشفة المخالف ويعززون دزدار تكريت وهى من أهون بلاد الله بجور الجوار ويجعلونها سجنا لمماليك الخلافة ذوى الاقدار ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كانه ولكانت بلادهم له خزانه ويرجوا الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحله وبلاد الكرج فلو ان لهم من الاسلام جار الاستباح الدار وبلاد أولاد عبد المؤمن فلو ان لهما ماء سيف لا طفاء ما فيهما من النار الى ان تعلو كلمة الله العليا وتملأ الولاية العباسية الدنيا وتعود الكنائس مساجد والمذابح المستعبدة معابد والصليب المرفوع حطبا فى المواقد والناقوس الصاهل أخرس اللهجة فى المشاهد ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه ويمد اطرافه مثل تكريت ودقوقا والبوازيج وخوزستان وكيش وعمان والذى وقع أعظم من الذى يتوقع والذى طلع أكثر من الذى يتطلع والذى رؤى أمس أكثر من الذى يسمع) قلت يعنى ان ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التى يرجوها وأشار بفعل المواصلة الى ما سبق من فعل زنكى فى حصار بغداد ومساعدته للسلجوقية على العادة فى ذلك الزمان والله أعلم وفى آخر كتاب فاضلى الى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان (فتح الله علينا ممالك وأضافها وبلادا آمنها بنا مما أخافها وبلغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها منها بلاد الشام باسرها ومملكة حلب بجملتها والمدينة بقلعتها وبلاد الجزيرة بدجلتها فمنها ما أعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره فى بيكارنا ومنها ما استقر فى اليد وولاته من أوليائنا وأنصارنا ولما لم يبق فى البلاد الاسلامية الا ما هو فى يدنا أو بيد مطيع لنا كان من شكر هذه النعمة ان نصرف القوه ونثنى العزمه ونحد الشوكه ونلبس الشكه للفرنج الملاعين فننازلهم ونقارعهم ونخاصمهم الى الله وننازعهم فنطهر الارض المقدسة من رجسهم بدمائهم الى ان ترق السيوف للصخرة الشريفة لما مر بهم بها من قسوة كفرهم واعتدائهم فنحن نرجوان نكون عين الطائفة من الامة التى أخبر نبينا صلوات الله عليه انها لا تزال على الحق ظاهره وبثواب الله وعدوه ظافره والله تعالى يعيننا على ما يعنينا ويلهمنا الاستجابة لدعوته الى ما يحيينا

(فصل) في رجوع السلطان الى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الاردن رحل السلطان من حلب فر على حماه ثم حمص ثم بعلبك ثم دمشق قال القاضي ابن شداد لم يقم السلطان في حلب الا الى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر وانشأ عزما على الغزاة فخرج في ذلك اليوم الى الوضيحي مبرزا نحو دمشق واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ثم رحل في الرابع والعشرين منه الى حماه فوصلها ثم رحل في بقية يومه ولم يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى فاقام بها متأهبا الى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى القوار وتعبى فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها فنهبها العسكر وغنموا وأحرقوا مالم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامره وعندها عين جاريه فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووس فوصل اليه في بقية يوم الكسرة الواقعه وهو العاشر من جمادي الآخره وفي حادي عشره وصل الخبر الى السلطان ان الفرنج قد اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضنا المصاف فلما سمع ذلك تعبى للقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين فنزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتال والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فانهم كانوا في كثرة عظيمة فرأى السلطان الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة فاصبح الفرنج راجعين وعلى اعقابهم ناكصين فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين الى بلادهم وعاد السلطان منصورا وقد نال منهم قتلا وأسرا وخرب كفربلا وبيسان وزرعين وقرى عديدة فنزل القوار وأعطى الناس دستورا فسار من آثر المسير وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخره قال فانظر الى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه رحمه الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد والله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا وقال العماد خرج السلطان الى الغزو ورابط العدو بعين الجالوت وعبر المخاضة الحسينية تاسع جمادى الاخرة فوصل الى بيسان وقد أخلاها أهلها فاطلق الناس فيها النيران ونهبوا ما فيها وكذلك فعلوا بابراج وقلاع غيرها وصادفت مقدمة العساكر خيلا ورجالا للفرنج عابرين من نابلس ومقدمهم ابن هنفري فقتل منهم وأسر وتوقل الباقون في الجبال ووصل الخبر بان الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسمائة رمح ومثله تركبلي وخمسة عشر آلاف راجل فاتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت فاخذهم الرعب وتحاموا عن الاقدام عليهم فخندقوا أحوالهم وأسندوا ظهورهم الى الجبل وأقاموا كذلك خمسة أيام فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم فتنفس خناقهم ونكصوا على اعقابهم الى الناصرة وعاد المسلمون بالغنائم والاسارى لم يخلص العدو منها شيأ وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الاخرة وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمون من كل جانب ويرمونهم بالنبل وينتظرون ان يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى بغداد (لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الاولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام الى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام وتعبت ميامنه ومياسره وأخذت أهبه وشحذت قضبه وباعوا الله ما اشتراه ومثل لاعينهم ثوابه فكأنها تراه وساروا وتحت ليل عجاج ستر السائر تحته سراه وأصبح الخادم واياهم بعين الله في سبيله على ماء الاردن وهو النهر الفاصل بين الاسلام والكفر والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر فخاض ذلك البحر وذلك النهر وامدته نطف الحديد فاذا الماء يرمي بالشرر ويقذف بالجمر وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشهر ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض وزلزلت أرضها فهي بالقوم ترض وللغنيمة

تراض وأخذت رجال الاسلام تنقص الارض من أطرافها وتقلع قلاع الجبال وتطير رؤسها من أكتافها فاذا البلاد قد انهزم أهلها فالحقهم المسلمون مساكنها فى الهزيمه وعوّلوا فيها على سيوف المعاول فاذا هى راحلة وكأنها مقيمه وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنيا وعمارات ما كان أمل اليها مفضيا بل طال ما كان عنها مغضيا مثل بيسان وكفر بلا وزرعين وجينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغله وبساتين مظله وأنهار مقله وقلاع مطله وأسوار قد ضربت على جهاتها وأحاطت بجنباتها واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون ما فيها من أقوات مختزنه وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنه وأحرقوا أوعية كفرها بالنار وعذبوها عذاب أهلها من الكفار وقتلوها وكأنّ الضرام كان لها دما وكتبوا عليها الخراب وكأن السيف كان فيها قلما فاجلوا عن جماجما وتساقطت جدرها فكأنما أسارت فيها النوى لما ولما كان يوم السبت الحادى عشر ورد الخبر بان عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه وزحف بلابسه ومدرّعه فركب الخادم وسوى المؤمنين فى مواقف القتال ومنازل النزال فمن متسرّع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف ومن متثبت يمشى الى الموت مشى العروس ساعة الزفاف وهنالك منظرودّ المؤمنون لوان أميرهم له ناظر كما هو به آمر ولا غرو ان يصفه الخادم ليسر المخدوم لاليوصف الخادم ومن وصف ضربة السيف فانما وصف الضارب ولم يصف الصارم ونزل العدوّ الى الارض منحطا عن سرجه ومنحازا عن فجه وسال كانه جاغير نهجه وأحدق به راجله وهو زهاء عشرين ألف راجل وركز صليب صلبوته فاستوى فى العجز المحمول والحامل ونزل محصورا وخندق فكانما أصبح الكافر فى حفر ذلك الخندق مقبورا وأقام بازائه خمسة أيام غماسيه الوقائع وتصابحه وتماشيه الروائع وتصافحه ويفزع فيها الى الحفير ويتكرر اليه فى اليوم الواحد النفير ويبعث اليه السهم وهو فى الحرب السفير فيقبل تحية الضرب متردّدة ولا يردّها وتتبسم اليه صفحة النصل متودّدة فلا يودّها ويجتهد فى استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها والمكارم ولم يرحل لبغيتها) ومن كتاب آخر الى وزير بغداد (آثار واعلى يوم الكفر ليلة عجاج جعلت ايل من وراءهم من الاسلام سكنا وصبروا وصابروا فكأنما كان السيف لهم أليفا وكان المعترك لهم وطنا وأخذت فى البلاد النار ماخذها ونفذت فيها الغير منافذها وثلت عروشها وتلت غروسها وجليت فى مصبغات النيران عروسها وأصبحت تناجى العيون ثوا كلها وتصف النوازل منازلها دمناعلى الاطلال مطلوله وصرعى بسيوف البلاء مقتوله وجاء العدوّ فأحدقت به الابطال وتحزت عادة حمله فطلت وما كان خلقها المطال فلما كثر الله المسلمين فى عيونهم ورأوا بهاما لم يكونوا يرونه قبلها بظنونهم واستمدّوا مغانى الشكوى لتبوح بها ألسنتهم اذا خلوا الى شياطينهم فأخلدوا الى الارض نازلين وقعدوا عن الجلة ناكلين واتقى فارسهم براجله وراعهم بنابله ولا ذسيفهم بجفنه ولا خير فى حامله ولاذ جفنه باطرافه خوفا من كل بسهم قاتله وأقاموا محصورين لا يستطيعون وردا ولا صدرا ولا يجدون متقدّما ولا متأخرا فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وعرف النصل فى لحن السيف ان الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله فى القلوب فلا يقل الناس كيف

(فصل) فى ولاية الملك العادل حلب وولاية تقى الدين مصر وغير ذلك قال العماد وقد كان العادل نائبا بمصر فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلبها منه مع أعمالها ويدع الديار المصرية فكتب السلطان اليه ان يوافيه الى الكرك فانه سائر الى نحوه فأشار القاضى الفاضل على السلطان ان يستنيب فى الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقى الدين فاستصحبه السلطان معه فى رجب الى الكرك هذه السنة وحاز فى طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الربة ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحا ومساء وتناوب عليه الامراء حتى خرج شهر رجب وما حصل منه الطلب لكن عظمت النكاية فى الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار ووصل الخبر ان الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان ان أمر حصره يطول فعوّل على الرحيل الى دمشق ووصل العادل الى السلطان وهو بعد على الكرك فجهز تقى الدين الى الديار المصرية واليا عليها وقوى عضده بصحبة القاضى الفاضل له وتولى العادل حلب وأعمالها ومنبج وجميع قلاعها فسار اليها فى رمضان ورجع منها الى دمشق الملك الظاهر ونوّاب السلطان قلت وكتب العادل الى الفاضل

يستشيره فى التعوّض عن مصر بحلب فكتب اليه الفاضل كتابا فيه

انما أنت كغيث ماطر ❁ حيثما صرفه الله انصرف

(والمولى أعلم وبسياسة الدنيا أقوم وقد تكرر الكتاب الناصرى اليه بما نص عليه وكشف له الغطاء وسنى له العطاء وقالت له المخطوبة هيت لك وأدّى اليه مالك الامر ما قد ملك فلا زالت سعادته أنور من شمس وأدور من فلك ولا زال رابحا على الدهر ان امرء خسر وباقيا ان امرء هلك) ومن كتاب آخر اليه (أدام الله دولة حامى الحمى وثبت الدولة الناصرية التى يقوم بها ملكان هما مان هما هذا صلاح يمنع فسادا وهذا سيف يحقن دما) قال ابن أبى طى كان السلطان يعظم الملك العادل ويعمل برأيه فى جميع أموره ويتيمن بمشورته ولا يعلم بانه أشار على السلطان بأمر فخالفه حدّثنى قاضى اليمن جمال الدين قال كان السلطان يجمع الامراء للمشورة فان كان العادل حاضرا سمع من رأيه وان لم يكن حاضرا لم يقطع أمرا فى المهمات حتى يكاتبه بجلية الاحوال ثم يسمع رأيه فيها قال وحدّثنى أبى قال حدّثنى جماعة قالوا كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولا عن رأيه فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صار السلطان يتكلف فى مكاتبته بالاخبار ويؤخر الامور الى ان يرد عليه جوابه فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد فلما حصر الكرك فى هذه السنة كاتبه بالحضور اليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه وولى مصر تقى الدين ولما حصل العادل عند السلطان وقع فى نفسه ان يعوّضه عن ولاية مصر ثم حار فى ولاية يوليه اياها قال وحدّثنى علم الدين قيصر الصلاحى قال انما أقدم السلطان العادل من مصر لاجل ولاية حلب وبذلك كاتبه ولهذا اخرج العادل بامواله وعياله وأثقاله قال وحدثنى غيره قال لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الاموال قد قلت على السلطان وقد حصلت عنده عساكر عظيمة فأحضر العادل ليلا وقال أريد ان تقرضنى مائة وخمسين ألف دينار الى الميسور فقال السمع والطاعة ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه يقول أموالى جميعها بين يديك وأنا مملوكك وأشتهى ان أجعل هذا المال الى خدمة السلطان ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها فأجابه السلطان انى والله ما أقدمتك الا وليك حلب واذ قد اقترحت ذلك فقد وافق ما عندى فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان ان يكتب له بمدينة حلب كتابا ويجعله ككتاب البيع والشراء فامتنع السلطان وقال انما تكون حلب اقطاعا والمال على له فاعتذر العادل الى السلطان ولما اجتمعا قال له السلطان أظننت ان البلاد تباع أو ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لاموالهم أو ما علمت ان السلطان ملك شاه السلجوقى لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها الى رعبان الى الفرات الى حماه وكتب له التوقيع وقرر عليه مالا يحمله برسم الزردخانات وخزانة الجهاد ورجالة من الحلبيين ورحل السلطان الى دمشق واستدعى ولده الظاهر من حلب فلما حضر أمره بالعود الى حلب وتسليمها الى عمه العادل ففعل وعاد الى دمشق وسار العادل الى حلب فالتقيا بالرستن وباتا فيه فكانت ولاية الظاهر بحلب فى هذه النوبة نحو ستة أشهر ولما وصل الظاهر الى دمشق أقبل على خدمة والده والتقرب اليه الا ان الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه وهو مع ذلك لا يظهر شيئا الا الطاعة لوالده والانقياد الى مرضاته حدّثنى أبى عن مجد الدين بن الخشاب قال حدّثنى الملك الظاهر قال لما بلغنى ان السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى على ما قدم وما حدث وأصابنى من الهم ما لم أقدر على النهوض به ووددت انى لم أكن رأيتها ولا دخلت اليها الان قلبى أحبها وقبلها وطاب لى هواؤها ولما فارقتها كنت أحنّ اليها وأشتاقها قال ودخل العادل حلب فى رمضان وخلع على المقدّمين والاعيان وكان قد قدّم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة لتسلم حلب وقلعتها من الملك الظاهر وولى القلعة صارم الدين بزغش وولى الديوان والاقطاعات شجاع الدين بن البيضاوى صباغ ذقنه وولى الانشاء وما يتعلق بأمور السر للصنيعة ابن النحال وكان نصرانيا ثم أسلم على يد العادل فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى وفى ذلك يقول الشاعر

فاق دين المسيح فى دولة العا ❁ دل حتى علا على الاديان

ذا أمير وذا وزير وذا وا ❁ ل وذا مشرف على الديوان

قال ولم يزل الملك العادل يهذب أمور حلب الى سادس عشرى ذى القعدة ثم خرج متوجها الى دمشق بسبب ان السلطان اجتمع عنده فى ذى القعدة عدة رسل منهم رسل الخليفة ورسل طغرل ابن البهلوان ورسل قزل أخى البهلوان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط ورسل المواصلة ورسل عماد الدين صاحب سنجار ورسل قليج ارسلان صاحب الشمال فاراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل ولحضور الاجوبة عنها ولتقرير أمور الفرنج ويوم وصل العادل الى دمشق أحضره السلطان لسماع الرسائل وسمع ما عنده فى الاجوبة ولما قضى أجوبة الرسل ودع السلطان وعاد الى حلب قال ولما بلغ سيف الاسلام ان السلطان كتب لتقى الدين عهدا بولاية مصر عتب لاجل ذلك فكتب السلطان له عهدا ببلاد اليمن جميعها قال وأقطع السلطان تقى الدين الاسكندرية ودمياط وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف دميسيس وذكر غير ذلك قال العماد أنعم السلطان على تقى الدين بالاعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها وزاده القبيبات وبوش وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماه وقلعتها وجميع أعمالها ولما وصل تقى الدين الى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلى وكان السلطان لا يؤثر مفارقته فلم يحسن توجيه تقى الدين الى مصر بدا وكانت فيه حدة لم تكن فى العادل احتاج فى تقويمه الى ندبه الاجل الفاضل قال القاضى ابن شداد وقتل على الكرك فى هذه الكرة شرف الدين برغش النورى شهيدا رحمه الله ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل الى دمشق فدخل دمشق فى رابع عشرى شعبان وأعطى العادل حلب فى ثانى شهر رمضان فسار فى ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكوج يدبر أمره وابن العميد فى البلد وكان الظاهر أحب أولاده الى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويازكوج سائرين الى خدمة السلطان فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشرى شوال فأقام فى خدمة والده لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار فى باطنه لا يخفى عن نظر والده قال وفى ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد ترسلنا الى الخليفة الناصر لدين الله فى انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا الى السلطان فسيره معنا من بغداد وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة فى دولة الخليفة وفى سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده فى معظم الايام قال وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها بعد ان سار فى صحبته القاضى محيى الدين بن كمال الدين وكان بينهما صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن فى خدمته وأقمنا أياما نراجع فى فصل حال فلم يتفق صلح فى تلك الدفعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الى وداع الشيخ الى القصر واجتهدوا فى ذلك اليوم ان ينقضى شغل فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيى الدين فان السلطان اشترط ان يكون صاحب اربل والجزيرة على خيرتهما فى الانتماء اليه أو الى صاحب الموصل فقال محيى الدين لا بد من ذكرهما فى النسخة فوقف الحال وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذى الحجة قال وفى تلك الدفعة عرض على السلطان مواضع اليها بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من ان يحال توقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر لم أعرفه الا بعد خدمتى له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصله رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه وانتمى اليه ورسل اربل وحلف لهم وساروا ووصل اليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع عشرى ذى الحجة فأقام عنده وعيد وعاد الى حلب قال العماد وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ورسل صاحب اربل زين الدين يوسف ابن على كوجك بن بكتكين ورسل صاحب الحديثة وتكريت يشكون من صاحب الموصل ويطلبون ان يكونوا من أولياء السلطان المنتمين اليه ففعل السلطان ذلك وكان أبو سنجر شاه سيف الدين غازى هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره فعهد الى ابنه سنجر شاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود فبقيت الجزيرة بيد سنجر شاه وهو من تحت يد عمه وفى قلبه منه ما فيه وكانت اربل وأعمالها وما يليها كلها مضافة الى الموصل وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها فمن ثم طلب هو الانحياز الى خدمة السلطان فأجابه وسمع بذلك صاحب الموصل

فاستشفع بدار الخلافة الى ان أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير الى السلطان ان يجدد لصاحب الموصل الايمان ويكون له من جملة الاعوان حربا لمن حاربه سلما لمن سالمه وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام فالان له السلطان وقال أنا أقضي حاجته على ما أورد ولكن قد سبق مني يمين لاولئك السلاطين فانا استثنيهم وأردهم الى اختيارهم لي أوله فأبى ذلك وأراد ان تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك وأشار الى ان لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم فعظم ذلك على السلطان وكان ذلك محرّكا له الى ان يعود الى الموصل ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط وحضر عنده السلطان وجماعة الامراء العزاء

﴿فصل﴾ في باقي حوادث هذه السنة قال العماد وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الامطار وكثرت مكاتبات العماد للفاضل وأورد في بعضها أبياتا منها

عذر الزمان بأي وجه يقبل ❊ ومحبكم بالصد فيه يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا ❊ بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري ❊ لا صبح الا وجهك المتهلل
خيرتم بين المنية والمنى ❊ لا تهجروا فالموت عندي أسهل
يا غائبين وهم بفكري حضر ❊ يا راحلين وهم بقلبي نزل
ما للسلو الى فؤادي منهج ❊ ما للصبابة غير قلبي منهل
لا تعدلوا عني فمالي معدل ❊ عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي ❊ الا التفرق فهو خطب معضل
ان لم يجدني طيفكم في زورة ❊ فلانني منه أدق وأنحل
لا صبر لي لا قلب لي لا غمض لي ❊ لا علم لي بالبين ماذا أفعل

قال ابن الاثير وفي جمادى الاولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز وهو حينئذ نائبه في بلاده واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلقندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب الغرّاف وهما من أكابر الامراء فلما قبضه كان بيده أربل وشهرزور ودقوقا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين صغيرا والحكم فيها الى مجاهد الدين ولهم أيضا قلعة العقر فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين علي باربل وكان فيها الاحكم له مع مجاهد الدين وامتنع معز الدين بالجزيرة وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصر دقوقا فملكها ولم يحصل لعز الدين الا شهرزور وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شئ على الموصل وبقي مقبوضا فاخرجه وأعاده الى ولاية قلعة الموصل الا ان الذي أخذ من البلاد لم يعد الى طاعته وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين قال ابن الاثير وعلى الحقيقة ليس على الدول شئ أضر من ازالة مدبر لها واقامة غيره فان الاول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه فالى ان يعرف حاله يتفسد أكثر مما يصلح قال ابن القادسي وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الابله الشاعر وهو من أسماء الاضداد واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله وكان فصيحا هجاء وله أشعار رقيقة منها

زار من أحيا بزورته ❊ والدجى في لون طرته
يا لها من زورة قصرت ❊ فأماتت طول جفوته

﴿ثم دخلت سنة ثمانين﴾ قال العماد وقد تقرّاص لبرد فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة الى الكرك مرة أخرى وأرسل الى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية والاجل الفاضل وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل

وجاء نور الدين بن قرا ارسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخو صاحب سنجار وعسكر ماردين فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق فأقامه برأس الماء بحوران الى حين العود وأمر العادل بالاقامة معه وقال القاضى ابن شداد سير السلطان الى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا ارسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر فأكرمه الملك العادل اكراما عظيما وأصعده القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى ولما بلغه وصول ابن قرا ارسلان خرج الى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على الجسر بالبقاع فى تاسع ربيع الاول ثم عاد الى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل فتأهب للغزاة وخرج مبرزا الى جسر الخشب ووصل العادل وابن قرا ارسلان دمشق فأقاما بها أياما ثم رحلوا يلتحقون بالسلطان ورحل السلطان من رأس الماء ثانى ربيع الآخر طالبا الكرك فأقام قريبا منها اياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر الشهر فوصل تقى الدين واجتمع به ومعه بنت العادل وخزائنه فسيرهم اليه وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابعت العساكر الى خدمته حتى أحدقوا بالكرك فى رابع عشر جمادى الاولى وركب المجانيق عليه وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الى الذب عن الكرك وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابلة ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة ولكن كان فتحها بعد ذلك ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعبئ للقتال وأمر العساكر ان تخرج الى ظهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقى العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد العدو وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان قبالة الفرنج فى طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماعين والفرنج مقيمون بالواله الى السادس والعشرين من جمادى الآخرة ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم الى آخر النهار ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر ان يدخل الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا على نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصاها وأخذوا جنينين والتحقوا بالسلطان برأس الماء قلت وقد وصف القاضى الفاضل حصن الكرك فى بعض كتبه فقال (هو شجا فى الحناجر وقذا فى المحاجر قد أخذ من الآمال بمخنقها وقعد بارصاد العزائم وطرقها وصار ذئبا للدهر فى ذلك الفج وعذرا لتارك فريضة الله من الحج وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للاسدين

ما مر يوم الا وعندهما ❊ لحم رجال أو يولغان دما

وفى كتاب آخر (وأما الكرك فكفات المجنيقات عليه متظافره وحجارتها على من فيه حاجره وقد جدعت انوف الابرجه وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجه وكل جوانبها وعرة المرتقى صعبة المختطى والسلطان يستعذب المشقات التى تتفادى منها الهمم ويباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم) ومن كتاب آخر (وقد جمعت الحجارة فى الاسقاط بين رؤس الابراج ورؤس الاعلاج فرمت الشراريف والواقفين عليها لحمايتها وأرت الفرنج باهتدائها الى اردائها غاية غوايتها فما أخرج أحد منهم رأسا الا دخل فى عينه نصل وما هجر قراب الاسلام سيف الا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل وما على الجرف الاسراف والتبذير حجر ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الاسنة فجر ولقد أخذنا من العدو بالمخنق وشرعنا فى طم الخندق والحائط واقع والواقعة بهم محيطه والدروع بالسيوف مفصله وبالجروح مخيطه) ومن كتاب آخر (عذاب الله بالحصن وأهله واقع ماله من دافع وان دليل النصر قد ظهر وما دونه من مانع وأما المجنيقات فقد نكأت فى الابراج بالهدم وفى الاعلاج بالهتك فلم تبق لها الحجارة الطائرة اليها حجارة قائمه وان لها من امطارها عليها ليلا ونهارا ديمة دائمه واطفنا عليها بالزحوف حتى وقعت الاسوار من سكرها وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها وعاطتها كفة المجنيق عقارا عقرها فالسور المقابل للمجنيقات قد انهدمت ابراجه وأبدانه وانهدت قواعده وأركانه ولولا الخندق الذى هو واد من الاودية واسع عميق لما تعذر الى الزحف اليهم والهجم عليهم طريق) ومن كتاب آخر (الحصن الذى نحن حاضروه وحاصروه فى حصانة الحصانة

قد هدّت الحجارة منه ما أحكموه بالحجاره وعدا عليه بالتخريب ما أعدّوه للعماره فعسى المنجنيقات ترمى ولا ترم سهامها ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها فقابل المنجنيقات من الابراج والابدان قد أتى التخريب على ما فيه من العمران فلم يبق الا طم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدوّ بالمخنق والقلوب واثقة بحصول الفتح وقد علم كل واحد منا ان متجره قد فاز بالربح فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولا ضجر ولا تسفر هذه النوبة ان شاء الله تعالى الاعن نصر وظفر) وقال العماد رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان والبلقا ثم الرقيم وزيزا والنقوب واللجون ثم أدر ثم الربة وذلك فى بلد ماب فلما تلاحقت العساكر نزل على وادى الكرك ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب فهدمت السور المقابل لها ولم يبق مانع الا الخندق الواسع العميق وهو من الاودية الهائله والمهاوى الحائله والمهالك الغائرة الغائله ولم يكن فى الرأى الا طمه وملؤه بكل ممكن ورد مه فعد ذلك من الامور الصعاب وتعذر لحزونة الارض وتحجرها حفر الاسراب فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابلة من المربض الى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها وتأليفها فتمت دروبا واسعة لا يزحم فيها الجائى الذاهب وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانه وأشياعه على نقل ما يرمى فى الخندق وهان طم الخندق بالدبابات التى قدمت والاسراب التى بنيت وأحكمت فوجد الناس الى الخندق طريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عاملين بالانشراح والناس يجب القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حذرا ولا يخشون سهما ولا حجرا وقد امتلأ الخندق حتى ان أسيرا مقيدا رمى بنفسه اليه ونجا بعد ما توالى من رمى الفرنج رمى الحجارة عليه) وفى بعض الكتب العمادية (لولا الخندق المانع من الاراده وانه ليس من الخنادق المعتاده بل هو وادمن الاوديه واسع الافنيه لسهل المشرع وهجم الموضع فلم يبق الا تدبير طم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدوّ بالمخنق فعملنا دبابات قدّمناها وبنينا الى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللبن سقفناها وأحكمناها فصارت منها الى طرف الخندق طرق آمنه وشرع الناس فى طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنه وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الاولى وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه وتسارع الناس اليه وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولا كبير الا وهو مستبشر بالعمل منتظر لبشرى نجح الامل وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم فى المصلى يوم العيد وليلا كحضورهم فى جامع دمشق ليلة النصف السعيد وهم بحمد الله من الجراح سالمون وبالنصر موقنون عالمون وان أبطأ العدوّ عن النجـدة فالنصر سريع والحصن ومن فيه صريع قد خرقت الحجارة حجابه وقطعت بهم اسبابه وناولته من الاجل كتابه وجرت لثام سوره وحلت نقابه فاناف الابرجة مجدوعه وثنايا الشرفات مقلوعه ورؤس الابدان محزوزه وحروف العوامل مهموزه وبطون السقوف مبقوره واعضاء الاساقف معقوره ووجوه الجدر مسلوخه وجلود البواشر منسوره والنصر أشهر من نار على علم والحرب أقوم من ساق على قدم قال واشرف السلطان على أخذها فوصل الخبر ان الفرنج قد تجمعوا وجاؤا منجدين لاهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها فثنى السلطان عنان العزم اليهم وكانوا فى منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك فانتظر السلطان ان يخرجوا الى البلقا وتقدم عنهم باميال فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا على قصد الكرك عزموا ولما رأى السلطان ان الفرصة من الفئتين فاتت مرّ على نابلس فاغار وغنم وفى طريق عوده نزل على سبسطيه وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة وأودعوها امتعة نفيسه وبها من الفرنج اسقف وقسس ورهبان ففدوها باسارى مسلمين ولاذوا بالامان معتصمين ثم أناخ على جينين فاهبط اوجها وهدم برجها وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا واجتمع باصحابه على الفوار وتحدث بالايجاد لحوادث الغور فى الغوار

(فصل) ثم رحل السلطان الى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك فاجتمع بهم وأكرمهم وكانوا قد مرضوا وماتت جماعة من أصحابهم وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة فى الرباط بالمنيبع واستأذن فى العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدور ذلك الصدر على تلك الحاله وتجرت تلك العثرة كما شاء الله عن الاقاله ثم استقل مودعا وداع الابد وكان حسام الدين طمان مقدّم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا فى الجهاد فاذن له فى العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم فى مسيرهم فساروا

على

على سمت الرحبه فاغتنم الامير طمان بركة تلك الصحبه فادركت المنية شهاب الدين بشيرا بالسخنه ووصلوا بشيخ الشيوخ الى الرحبه وهنالك لقى ربه قال ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده والوفاق لعقده مشيم الكرم كريم الشيم صالح العمل ناجح الامل مفارقا للدنيا فى حياته مقبلا على الآخرة قبل وفاته فهو ممن رفعت سريره الملائك ووضعت له فى عليين الارائك وكانت وفاته فى شعبان بوأه الله الجنان قلت كان صدر الدين هذا أحد السادة وأبوه وجده من أكابر الاعيان وشيوخ مشايخ الزمان وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبى سعد احمد بن محمد النيسابورى وقد ذكرت ترجمة والده فى تاريخ دمشق والحقتها من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعانى فى تاريخه وقال ابن القادسى توفى صدر الدين فى رجب برحبة مالك بن طوق ودفن فى قبة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبى وكان مولده فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسمائه وكان شيخا طائلا فى العلم والدين والسداد ثابت الجنان فى الحوادث المزعجه والوقائع الباغتة المحلجه سديد البديهة صافى الفكره جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل وكان يرسل الى الاطراف ورتب فى مشيخة الشيوخ منذ توفى والده فى جمادى الاولى سنة احدى واربعين وخمسمائه ولم يزل على ذلك الى أن توفى وتولى بعده مشيخة الرباط صفى الدين اسماعيل ومن شعره يعنى صدر الدين

ولم أخضب مشيبى وهو زين ❊ لايشارى جهالات التصابى
ولكن كى يرانى من أعادى ❊ فارهبه بوثبات الشباب

قلت ووقفت على كتاب فاضلى اليه جوابا عن كتاب عتب فيه (وقف على التحية الطيبه والكرامة الصيبه والالفاظ العذاب الاانها الغضاب والنعيم الاانه العذاب والمسامحة الاانها الحساب والمتشابهات اللواتى أولها أحسن تأويلها والمحكمات اللاتى هن أم الكتاب ويكفى انه مزج الصاب بعسله وارعف قلمه بما لايرعفه الشجاع من انوف أسله وهذا باب قد آن سده وسبيل قد وجب صده وعين دهر أصابت هذه الموده وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف وبادرة هم قد حان ان تنكشف وتنكسف فلا نظر بعدها العين التى اصابت ولاخط فى أثرها للخطرة التى آبت ولا كان للايام فى فضل سيدنا على عبده نصيب ولاعدا أبدا على شباب الرضى عنه مشيب ولا تمكن من حبيب وده الى القلب رقيب ولاملك رقه غير تلك اليد الكريمه ولاسمعت حديث الحوادث ثلك المودة القديمه) قال العماد وخرجنا من دمشق فى شعبان وخيمنا على سعسع ودعا تقى الدين فأمره ان يرجع بالعسكر الى مصر فسار فى منتصف الشهر ثم رجعنا من فرض الجهاد الى فرض الصيام بدمشق ورجع كل عسكر الى مركزه ومدح العماد تقى الدين فى هذه الكرة بقصيدة ثائية نحو خمسة وثمانين بيتا أولها

اذا شئتما عن غير قلبى تحدثا ❊ فما حل فيه الهم الاليلبثا
خذا شاهدى صدقى على صحة الهوى ❊ ضنا ساكنا منى ووجدا محدثا
مريضكما أشفى على الناس سقمه ❊ فلا تعجلا فى أمره وتريثا
رثى لى عدوى من جفاء احبتى ❊ وناهيك من حال عدوى لها رثى
عهود كم بعد النوى ماتشعثت ❊ وحاشى لذاك العهد ان يتشعثا
واملك بالملك المظفر ظافرا ❊ من الجد والجدوى قديما ومحدثا
مخوف السطا صعب الابا حسن الثنا ❊ مرجى الندى سهل الرضى طيب النثا
صفا آخر العمرين من عمر الذى ❊ به العمران اليوم بالعدل ثلثا
هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى ❊ فذملكوا لم تلق فى الدين محدثا
غثائى وغثى انت حامل نقصه ❊ بفضلك ان البحر يحتمل الغثا

ومنها فى وصف القصيده

وقد سهلت والشاء أوعر من تقى ❊ فلافرق عندى بين تاء وبين ثا

❊(فصل)❊ يحتوى على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ الذى كان صلاح الدين

بكاتبه بوقائعه وهو الذى هم على عمارة وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة الناصرية مصرية كما سبق وسبب ذكره هنا انه هو الذى شرع فى تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان فى هذا العام وقد تقدم للقاضى الفاضل كلام فى تفضيل مصر وذم الشام فى أوائل أخبار سنة أربع وسبعين وله من كتاب آخر (فدعونا من بعلبك البلد الاعسر ومن رأس عينها الضيقة المحجر ومن ثلجها الذى تنفش الجبال بعهنه ومن بردها الذى لا يشفع الجمر عنده الا باذنه وعودوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم فانها اقد علتها وحشة لقطينها فسألت مطالع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيل الذى وفى لكم فى هذه السنة بنقصه وأبى ان يكون ماؤه ذخيرة لغير جود كم الذى أحصاه الله ولم نحصه واذكروا فيضها وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام ووجهه ويتغلغل برده فيسرى الى قلب العليل وكان جاريا على غير طريقه واذكروا صحة هوائها وتعصبه لايامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة اجسامكم) ومن كتاب آخر (وأما أحوالى فانى لم أزل ملتاثا مذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها وابنيتها وأبنائها وأوديتها وادوائها وقراها وقرنائها ومن لى بمصر فانى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها واتبع بردى وماء عساه بشربة من مائها وامتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها فالظل بها هائل ولا طائل وما كنا نسمع به من تلك الفضائل متضائل حتى اذا جاءه لم يجده شيأ فهى بلاد تستجدى ولا تجدى وفعل المال بها لازم التعدى) وقال العماد هذا زين الدين على بن نجا الواعظ من أهل دمشق ومن ساكنى مصر وهو ذو لهجة فى الوعظ فصيحه وبهجة للفضل صحيحه وقبول من القلوب وفصول فى فصل الخطاب للخطوب وقد تأثث وتأثل وقبل وأقبل وأحسن السلطان اليه بالاعطيات والاقطاعات وأجمل واعطاه واجزل وأتم له مراده واكمل وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويميل اليه لقديم معرفته وكريم سجيته ووصل فى هذه السنة منه كتاب الى السلطان يشوقه الى مصر ونيلها ونعيمها وسلسبيلها ودار ملكها ودارة فلكها وبحرها وخليجها ونشرها واريجها ومقسمها ومقياسها وانيسى ناسها وقصور معزها ومنازل عزها وجيزتها وجزيرتها وخيرتها وجيرتها وبركتها وبركتها وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقليوبها واستلاب النفوس باسلوبها وملتقى البحرين ومرتقى الهرمين وروضة جنانها وجنة رضوانها ومساجدها وجوامعها ومشاهدها ومرابعها ونواظر بساتينها ومناظر ميادينها وساحات سواحلها وآيات فضائلها ورحاب شوارعها وحلاب مشارعها وشروق غربيتها وغروب شرقيتها وطيب طوبتها ومسار مسراها ومجرى فلكها ومرساها وعجائب بناها وغرائب مبناها وبيان عيانها باسان بلسانها وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها وشتاؤها فى الفصل ربيع نضير وغبارها عبير وماؤها كوثرى وترابها عنبرى ثم وصف العماد غير ذلك ثم قال وذكر زين الدين الواعظ فى كتابه ما دل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والاخبار والاداب والآثار ولو ظفرت به لاوردته بلفظه وجلوته بوعظه لكننى فقدته فعزمت معانيه وأحكمت مبانيه قال فكتبت الى زين الدين الواعظ فى جوابه عن السلطان (عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ونحن نسلم له المسئلة فى طيبها وتوفير نصيبها ورقة نسيمها ورائق نسيبها لكن لاريب ان الشام أفضل وان اجرسا كنه أجزل وان القلوب الى قلبه أميل وان الزلال البارد به اعل وانهل وان الهواء فى صيفه وشتائه أعدل وان الزهر به اشب والنبت به أكهل وان الجمال فيه أكمل والكمال فيه أجمل وان القلوب به أروح والروح به أقبل ودمشق عقيلته المشوطه وعقلته المنشوطه وحديقته الناضره وحدقته الناظره وهى عين انسانه بل انسان عينه وصير فى نقوده فى عين نضاره ولجينه فستامها مستهام وما على محبها ملام ومافى ربوتها ريبه وفى كل حبوة حبيبه ولكل شائب من نورها شبيبه وعلى كل ورقة ورقا وعلى كل معانقة من قدود البانات عنقا وشاد ياتها على الاعواد تطرى وتطرب وساجعاتها بالاوراد تعجم وتعرب وكم فيها من جوار ساقيات وسواق جاريات واثمار بلا اثمان وروح وريحان وفاكهة ورمان وخيرات حسان وجميع ما فى سورة الرحمن ونحن نتلو عليه الآ ها الى ان يرجع الينا فنتلو على منكرها فبأى آلاء ربكما تكذبان وقد تمسكنا بالآية والسنة والاجماع وغنينا بهذه الادلة عن الاختراع والابتداع اما أقسم الله تعالى بدمشق فى قوله (والتين والزيتون) والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام خيرة الله من أرضه يشوق اليها خيرته من عباده) هذا أوضح برهان قاطع على انه خير بلاده أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السكنى بالشام أما فتح

دمشق بكر الاسلام وما ننكران الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضا فالذكر والتسمية فى جنب فضيلة القسم ولا الاخبار عنها دليلا على الكرم وانما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق اليها عليه أفضل الصلاة والسلام ثم المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد وأين قطوب المقطب من سناء سنير وأين ذرى منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم وبينهما الرق ما بين الفرق والقدم وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله واستطالته سيله برد بردى فى نقع الغليل ونفع فعليل وما لذلك الكثير طلاوة هذا القليل وسيل هذا السلسبيل واذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر ظهر عند ذلك قصر القصر على ان باب الفراديس فى الحقيقة باب النصر وما رأس الطابية كباب الجابية ولو كان لناسها باناس لم يحتاجوا الى قياس المقياس ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ولا نأبى فضله كما أباه وحب الوطن من الايمان ومع هذا فلا ننكر ان مصر اقليم عظيم الشان وان مغلها كثير وماءها غزير وان عدها غمير وان ساكنها ملك أو أمير ولكن نقول كما قال المجلس السامى الاجلى الفاضلى اسماه الله ان دمشق تصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك ان أحسن ما فى البلاد البستان وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض ان يكون المساوى حتى شرع فى عد المساوى ولعله يرجع الى الحق ويعيد سعد اسعاده ووفاقه الى الاوفق ان شاء الله) قلت وقد قيل فى وصف دمشق ومدحها شئ كثير من النظم والنثر واشتمل ما جمعته فى أوّل تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة من ذلك ما وصف شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله فى مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ووصف كلا من البلدين بما يليق به وكان أوّل ما قدم دمشق يذمها فى مكاتباته الى مصر نظما ونثرا حبا للوطن ثم لما استقر فيها قرت عينه وفضلها فى بعض مكاتباته وقد ذكرت كل ذلك فى جزء مستقل به وأما القاضى الفاضل رحمه الله فقد قال فى بعض مكاتباته الى مصر (ومما أسر به قلبه الكريم انى وصلت الى دمشق المحروسة حين شرد بردها وورد وردها واخضر نبتها وحسن نعتها وصفا ماؤها وصفا دواؤها وتغنت أطيارها وتبسمت ازهارها وافتر زهر اقحوانها فحكى ثغور غزلانها ومالت قضب بانها فانثنت تثنى ولدانها فلما قربت من بساتينها ولاح لى فيح ميادينها وتوسطت جنة واديها ورأيت ما أبدعه الله فيها سمعت عند ذلك حماما يغرد وهزارا يشدو ويردد وقمريا ينوح وبلبلا باشجانه يبوح فوقفت اثنى على باديها وأكاد بالدمع أباديها أسفا على أيام خلت بعدما حلت منها وفيها فعند ذلك عادت روحى وزال أنينى ونوحى

وكانت النفس قد ماتت بغصتها ❊ فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع الى قوله ويرضى بحكمه لفضله وفصله وهو الوزير العادلى صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على المعروف بابن شكر فى كتاب البصائر له فقال (دمشق نزهة الابصار وعروس الامصار ومجرى الانهار ومغرس الاشجار ومعرس السفار ومعبد الابرار المستغفرين بالاسحار ظلها الممدود ومقامها المحمود وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب ومحاسنها المجموعه وفضائلها المروية المسموعه ودرجتها المرفوعه وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعه ونسيمها العليل وهجيرها الاصيل وماؤها السلسبيل وقد شرفها الله تعالى بالذكر فى كتابه وآوى اليها من اختار من أنبيائه وأحبابه فقال تعالى فى كتابه المبين (وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات ومنزل الرسالات ومسكن ارباب الكرامات وورد فى تفضيل بقعتها من الاخبار ما لا يشك فى صحة اسناده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام صفوة الله من بلاده فيها خيرة الله من عباده) ونبه فى خبر آخر على عظم فضله فقال ان الله تكفل لى بالشام وأهله وبارك فى سكناها وركب فى سكانها أهل الاسلام بقوله عليه السلام (البركة فى الشام) وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد الى انها ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) قال (ولما أنعم الله تعالى على باسكانى فى فنائها وتخيرى لبنائها ونزهتى فى افنانها وانسى بانسانها مضيت الى جامعها الجامع وشفعت بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت اليه وحللت الحبى لديه رأيت مرآى صغر الروايه ورونقا حصل من الحسن على النهايه ونورا يجلو الابصار وجمعا يفضل

على جوع الامصار وعبادة موصولة على الاستمرار وقرآنا يتلى فى آناء الليل وأطراف النهار ومنقطعين اليه قد انفقوا فى الاعتكاف به نفائس الاعمار والبركات تحف بجوانبه والعلوم تنشر فى زواياه ومحاريبه والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى والمصاحف بين ايدى التالين تنشر فلا تطوى واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى والخلق منقسمون الى حلق قد نبذ أهلها ماوراءهم من العلق والاسلام فيه فاش والجهل به متلاش وهو مما بناه الاولون لعبادتهم وجعلوه ذخرا لآخرتهم وبارح معبدا لكل مله اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلا وقبله وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ليله للمتهجدين ونهاره للعلماء المجتهدين) قال (وعاشرت أهلها وباشرتهم ثم كاثرتهم وكاشفتهم فرأيت سادة ادباء وعلماء نجباء رأيتهم يتناظرون فى الفقه مناظرة الوالد مع ولده ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جدده ويفسرونه عن علم واستبصار ويحتاطون فى علمهم بصحيح الاخبار ويتبعون ما وردت به ثقاة الآثار وعامتهم مشغولون بالمعاش آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش لا يخوضون فى لغط ولا أكثار ولا يجتمعون على فساد نية فى مقيم ولا بعيد الدار) قال (فأقمت منها فى أشرف البلدان التى هى انموذج الجنان وعنوان الدار التى خازنها رضوان والقلوب فيها عند ذكر الله حاضره والنفوس بالخير دون الشر آمره)

﴿فصـــل﴾ فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد كانت أربل وما يجرى معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل معدودة فى ولاية السلطان فأراد صاحب اربل ان ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاذعن الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتب له وفيه (ان الله لما مكن لنا فى الارض ووفقنا فى اعزاز الحق واظهاره لاداء الفرض رأينا ان تقدم فرض الجهاد فى سبيل الله فنوضح سبيله ونقبل على اعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو اعدائه ونجمع كلمتهم فى رفع كلمته العليا فى أرضه على استنزال نصر من سمائه فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضه واقتناء هذه الفضيله يحظى من عوارفنا الجزيله بحسن الصنيعة ونجح الوسيله ومن أخلد الى الارض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه فان اناب قبلناه وان أصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه) وتفصيل ما كتب فى منشوره اربل وقلعتها وأعمالها جميع ماقطعه الزابى الكبير شهرزور وأعمالها معايش بيت قفجاق معايش بيت القرابلى الدست والزرزاريه قال وفى هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفى صاحب ماردين وهو قطب الدين ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى ابن ارتق والامراء الارتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا وكانوا يتولون بيت المقدس وجوه من الافرنج قبل المصريين وانما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين فبقى الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الارتقية ديار بكر وماوالاها وحلب وأعمالها وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر الى ان انتهى الى هذا قطب الدين أعمال ميافارقين وماردين فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين وانتهى الى ابن عمه نور الدين محمد بن قرا ارسلان ابن داود بن سليمان بن ارتق حصن كيفا وخرتبرت والبلاد التى تناسبها وأضاف السلطان اليه آمد وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابه ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته قلت وفى هذه السنة أيضا توفى خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن على وولى ابنه يعقوب قال القاضى ابن شداد وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل ابن أسد الدين خلعا جاءت لها ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين بن قرا ارسلان وأعطاه دستورا فسار الى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا الى السلطان بخبران عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على اربل مع مجاهد الدين قايماز وانهم نهبوا وحرقوا وانه نصر عليهم وكسرهم فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد وتقدم الى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار ويبوس البقاع الى بعلبك ومرض العماد فانقطع بها وسار السلطان الى حمص ثم الى حماه فأقام بها الى ان شفى العماد ولحقه بها وكان الاجل الفاضل بدمشق فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن اليأس الى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه فسار من دمشق الى بعلبك فى يوم وليلة وعمل معه عمل من طب لمن حب فبرئ بعون الله تعالى فرجع الى دمشق فلما استقام مزاجه رحل الى السلطان فوافقه بحماه

﴿ودخلت سنة احدى وثمانين﴾ قال العماد والسلطان مخيم بظاهر حماه فسار الى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها فى صفر لقصد الموصل فسار وقطع الفرات وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها وكان السلطان قد سير الى معاقل الفرات وقلاعه ونواحيه وضياعه وأمر أهلها بعمارة كل سفينة فى الفرات وزورق ومركب وجمعها من كل مشرق ومغرب ثم وصل الى حران وفيها مظفر الدين بن زين الدين وهو أخو زين الدين يوسف صاحب اربل وقد كان أول من دخل فى خدمة السلطان وأول ما قصد تلك البلاد فى المرة الاولى واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الاطراف فى الانتماء الى السلطان وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب وأظهر من المودة فوق ما كان فى الحساب وكان كثير الحث للسلطان على المسير الى الموصل هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان ان مظفر الدين اذا عبرتم الفرات يستدرك كل مافات ويقوم بكل ما يحتاج اليه فى تلك البلاد من النفقات والغرامات والازواد وتقدم يوم الوصول الى حران بخمسين ألف دينار وكتب خطه بذلك فلما وصل السلطان الى حران لم ير منه ما التزمه الرسول فارتاب به وظن انه مال مع المواصلة ووشت الاعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت خلاف للسلطان انه لم يتغير وان ما التزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان فانعزل عنده عن مرتبته وهان فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره وشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه وبعضهم باستبقائه واستئلافه فعفا السلطان عنه على ان يسلم اليه قلعتى الرها وحران ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ثم أعيدت اليه القلعتان فى آخر السنه لما رأى السلطان من حركاته المستحسنه قال القاضى ابن شداد وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة والتقاه مظفر الدين بالبيرة فى ثانى عشر المحرم وكان قد وصل اليه عز الدين بن عبد السلام يعنى الموصلى رسولا واسمه ابراهيم بن على بن عبد السلام ويكنى بأبى الخليل فلقيه بحماه يعتذر مما جرى فأعطاه دستورا بعد ان أكرمه وسار من غير غرض قلت وصحب ابن عبد السلام فى هذه السفرة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة فمدح السلطان بقصيدة أولها

على الحى من وادى الغضا اذ تفرقوا ❊ سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها الى قوله

وقالت لى الآمال ان كنت لاحقا ❊ بابناء أيوب فانت الموفق

قال له السلطان لقد وفقت وأجازه جائزة سنيه ثم قال القاضى وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب ان يسير فى مقدمة العسكر الى رأس عين ووصل السلطان حران فى الثانى والعشرين من صفر وفى السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشئ كان جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها ثم أقام فى الاعتقال تأديبا له الى مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التى كانت بيده وأعاده الى قانونه فى الاحترام والاكرام ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ثم رحل السلطان ثانى ربيع الاول من حران الى رأس عين ووصله فى ذلك اليوم رسول قليج ارسلان يخبره ان ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يبعد عن الموصل وماردين وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قرا ارسلان ومعه عسكر نور الدين فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قرا ارسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستورا طمعا فى ملك أخيه فأعطاه دستورا وقال العماد خرج السلطان من حران فى ربيع الاول فمر على رأس عين ودارا فخرج أميرها بأصحابه فى الخدمة وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابة عن أخيه نور الدين فانه كان مريضا ثم رحل الى نصيبين وقدم صاحب الجزيرة سنجرشاه ابن أخى صاحب الموصل فأكرمه السلطان ثم سار من أقرب الطرق من دجلة وتنكب طريق الدولعية فنزل على بلد آخر ربيع الاول ثم توجه الى الموصل وخيم على الاسماعيليات وقدم على السلطان زين الدين صاحب اربل وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل

الاسماعيليات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري الى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل فان أهلها مواصلون الاعاجم ومخاطبون لسلطانهم القائم وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم وانهم يتعززون بالبهلوان ويعجزون الاعن الطاعة والاذعان وانهم يرسلون الى الفرنج ويقوّون نفوسهم على قصد الثغور وتفريق الجمهور وانه ما جاء طمعا في استضافة ملك ولا استزادة ملك ولا قلع ثبت قديم ولا قطع أصل كريم وانما مقصوده الاصلي ومطلوبه الكلي ردّهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام وكشف ما اعتادوه واعتودوه من الظلم والظلام وكظمهم عن استحلال الحرام وقطعهم عن مواصلة الاعجام والزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الارحام فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخي صاحب الموصل ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه وأبعده عما استحقه بالارث والتوليه وحرمه ما يستوجبه من التربية والتنبيه وأخاف حرمه وقطع رحمه ولو تمكن منه لاطاح دمه ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من دبيب عقاربه لما التجأ الى هذا الجانب ولما اختار الاجانب على الاقارب وهذا صاحب اربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم وخلف في أحيائهم ميتهم وهذا ولده في جوارهم مسكوه بجورهم وحديث صاحب الحديثة في حادثة لا تخفى وعين من بتكريت من مخافتهم وآفتهم لا تكرى قلت وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان الى الديوان (وكان قد تحبب الى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره ولم يستأذن في ذلك استثناءا مخصصا الا لمحلهم من جوار دار الخلافة ولانهما يرى الخادم اضافته الى ما يجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القرب من الجوار والدخول في زمام شرف تلك الدار فان أذن له استثناهما في صلح ان تم معهم أوجاهما مع مباينيه ان اختار المشار اليهم البقاء عليها وهذا بردشرف قد أعوزه علمه وتاج اذا أسلمه الخط الشريف نظم الفخار منتظمه) وفي كتاب آخر (وما كان بشهادة الله في قتال المذكورين الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حدّ السنان مضطرا في حكمه) وأصحب العماد الرسول قصيدة مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضل أوّلها

قضى الوجد لي ان لا أفيق من الوجد ❊ فيا ضلة اللاحي اذا ظنّ ان يهدي
محبكم جلد على كل حادث ❊ ولكن على هجرانكم ليس بالجلد
ببغداد حطوا رحلكم لتخصكم ❊ أبو الفضل مجد الدين بالفضل والجد
رآه الامام الناصر الدين ناصرا ❊ فحاول تعويلا على نجده المجدي

ومنها

اليك صلاح الدين الجاء أمره ❊ فحط ركنه والعقد بالشدّ والشد
مليك على حرب العدوّ مصمم ❊ ومازال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه ❊ مساورة الاميال للاعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكف مجريا ❊ دم الاصفر الرومي بالابيض الهندي
ومن لامير المؤمنين كيوسف ❊ فتى في مراضيه بمهجته يفدي

قال وشرع السلطان في اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد وسير الامير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري ومعه الامراء من قبيلته والاكراد من شيعته الى بلد الهكاريه وجماعة من الامراء الحميديه الى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها واستغلال ضياعها ونصب الجسر وملك الامر وعبر مظفر الدين صاحب حران وغيره من الامراء وخيموا بالجانب الغربي وكان الحر اذ ذاك شديدا فأمر السلطان بالصبر عن القتال الى ان يطيب الزمان وأهل الموصل في الحصار وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير بها زعم انه يمكن سد دجلة وسكرها وتبق فرضة أخرى وكسرها ونقلها وتحويلها الى دجلة نينوى وتعطش الموصل اذا الماء عنها انزوى وعرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدهان البغدادي وكان مهندس زمانه وانسان عين الفضل وعين انسانه وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي ولما سمع بكرم

السلطان تفيأ بظله وتعرف الى فضله فصدّق المشير بذلك وقال هذا أمكن ولا يتعذر ويتيسر ولا يتعسر ومن كتاب عمادى الى بغداد (وذكر المهندسون أهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغير قتال ولا حصول ضرر فى تضييق ولا نزال)

(فصل) فيما فعل السلطان فى أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من البلاد قال العماد ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط فتحوّل اليها العزم وترجح بها الحزم وكان ورود خبر موته فى العشرين من ربيع الآخر وكان موته فى التاسع منه ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها ووردت كتب الاولياء من أهل بدليس وغيرها الى السلطان يخطبونه لها وهم خائفون من العجم ان يتولوها فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالاقامة الى انفصال أمر الموصل ومن مشير بالمسير الى بلاد الارمن فان الموصل غير فائتة ومن قائل بانقسام العسكر فى الجهتين فترجح رأى السلطان على المسير اليها فكتب الى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الارمن وديار بكر والموصل فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النظر فى أمر ديار بكر والنظر فى مصالح أيتام ملوكها ثم رحل السلطان عن الموصل فى أواخر شهر ربيع الآخر وقدّم فى مقدّمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما ان يسيرا الى خلاط من أقرب الطرق فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها وتغلب عليها وجاء بهلوان فى عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولى تلك البلاد فنزل من الجانب الآخر وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودّة والمناصحة وهو على خلاف ذلك وكتب الى ناصر الدين ان يقيم على القرب فهو أشدّ للارهاب والرعب ففعل ولو خلاه لسبق اليها وقيل ان هذا الوزير أيضا انفذ الى بهلوان وأمره بالاتيان وأظهر له المودّة والاحسان ولما تمادى الزمان وقرب منها البهلوان راسله بكتمر وحمل اليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الاموال التى أودعت المخزن وندب السلطان اليها الفقيه ضياء الدين عيسى فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزير وشاوره فأحال الحال على البهلوان وانه جاء ليتملك المكان ولو استعجلتم لسهل ما صعب الآن وهان ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان وانفصل الامر كانه ما كان وقال القاضى ابن شداد وفى ربيع الآخر توفى صاحب خلاط وولى بعده غلام له يدعى بكتمر وهو الذى كان وصل رسولا الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصوّنا فى طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه ولما ملك خلاط امتدّت نحوه الاطماع فسار نحوه البهلوان بن ايلدكز فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه واندراجه فى جملته قطمع السلطان بخلاط وارتحل عن الموصل متوجها نحوها وسير اليه الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت الرسل و بهلوان قد قارب البلاد جدا فخوّف بهلوان من السلطان وأشعره انه ان قصده سلم البلاد الى السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوّجه بنت لهم وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها وقاتلها قتالا عظيما ونصب عليها المجانيق وملكها فى آخر جمادى الاولى قال العماد واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السلطان وكان قد مات صاحب ماردين كما تقدّم وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين ابن البقش ومات أيضا صاحب آمد نور الدين محمد بن قرا ارسلان رابع عشر ربيع الاوّل من هذه السنة وتولى ابنه قطب الدين سكمان فاحترزوا من السلطان وخافوا ان يسترد بلاد آمد منهم فنفذ السلطان اليهم شمس الدين بن الفراش ليختبر حالهم فى المحاربة والمسالمة فوجدهم على الطاعة مقيمين واليه راغبين ومنه راهبين ووصل السلطان فى جمادى الاولى الى ميافارقين وكان دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش واستعصى فيها على السلطان فحاصره وقاتله ثم رأى ان القتال يطول فراسل أميرها الاسد ورغبه فى الموادعه ونهاه عن المقاطعه وكان فى المدينة خاتون ابنة قرا ارسلان وهى زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذى توفى فاحال الاسد الامر على الخاتون فراسلها السلطان ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه ووعدها ان يصاهر اليها فما زال بها و بالاسد حتى لانا فقرر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خدامها وطلبت حصن الهتاخ ليكون لها عشا للافراخ وزوج السلطان ابنته معز الدين اسحاق باحدى كرائمها وابرم العهد وأحكم العقد وسارع السلطان الى نداء كل

ما اقترحوه وفتحت ميافارقين وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين على صغر سنه الى خدمة السلطان فاكرمه وأعاده الى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقه وقتل غيلة فى رمضان من هذه السنة كما سيأتى ثم سار السلطان لقصد الموصل وولى تلك الديار مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى فنزل السلطان على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل فى شعبان وعزم على انه يشتى فى ذلك المكان فخرجت من الموصل نساء اتين اليه بكتاب متعرضات للشفاعة فاكرمهنّ السلطان ووعدهنّ بالاحسان وقال قد قبلت شفاعتكنّ لكن لا بد من مصلحة تتم ومصالحة تفعها ايم واستقر الامر على ان يكون عماد الدين زنكى صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا فى اصلاح ذات البين وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين فانه كانت شفاعته سابقه ورأى بهذا الرأى قضاء الحقين وتعطف وتلطف لاجلهنّ واجلالهنّ وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهنّ وكن ظنن انه لا يقيم لحرمة قصدهنّ ولا يصدق ظنونهن وانه لا يعرف حقوقهنّ ويقضى بمكارمه ديونهنّ ولا يشتغل بأمر لا يؤذن بمرادهنّ فدخلن البلد متلاومات متذممات ويلطف الله لا لذات معتصمات

(فصل) فى انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران قال العماد وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام فظهر انزعاجه وتغير مزاجه وتعذر علاجه وطال مرضه وندم على ردّ السفراء وسير الى عماد الدين صاحب سنجار فى انفاذ رسله ليوعز بكل مايعود بسؤله فوصل رسوله شمس الدين بن الكافى وكان من قبل قد سبق القول فى تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها وكذلك ماوراء الزابين من البوازيج والرستاق و بلد القرابلية وبنى قفجاق فدخل شمس الدين بن الكافى وشمس الدين قاضى العسكر من جانبنا الى الموصل لاخذ العهد على هذا الملتزم ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهو من بحر بحرانه فى عوم وخيمنا على نصيبين فى شوّال ولم نترقب عود الرسول بنجاز الاشغال بل كان الارتحال على الارتحال ثم استمر الصلح وصلح الامر وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقيه وفى ديار بكر أيضا والولايات الارتقيه وضرب باسمه الدينار والدرهم وانحل الاشكال وكشف المبهم وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه (ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع ماوراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها وولاية بنى قفجاق وولاية القرابلى والبوازيج وعانه وقررنا عليه الموصل وأعمالها على انه يكون بحكمنا و ينفذ عسكره الى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا وان يطلق المظالم ولا يرتكب المآثم وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبه وعمت الهيبة والرهبه والعزائم الى الجهاد فى سبيل الله نوازع وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع) قال ونفذ السلطان الى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أيازسر بك فتملأ بها وتملك ونال المقاصد وأدرك وكان التركمان الايوائية مستولية بها فشتت شملها وندب للنظر فى تلك الاعمال القاضى شمس الدين بن الفراش وأقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك وسير الى البلاد نوّابه ورتب فيها لاقامة سنن العدل والاحسان أصحابه ووقف ضيعة فى البوازيج تعرف بنا فيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد وقال القاضى بن شداد لما ايس السلطان من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيدا عنها وهى الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديدا فاقام مدة وفى هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة واجتمع به وأعاده الى بلده ومرض السلطان بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض وكان يتجلد ولم يركب فى محفه ووصل حران شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وايس منه وأرجف بموته ووصل اليه أخوه العادل من حلب ومعه الاطبا قال وكان سبب صلحه مع المواصلة ان عز الدين صاحب الموصل سيرنى الى الخليفة يستنجد به فلم يحصل منه زبدة وسير الى العجم فلم يحصل منهم زبده فلما وصلت من بغداد وأدّيت جواب الرسالة ايس من نجده فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلوا رقة قلبه وسرعة انقياده فى ذلك الوقت فندبونى لذلك الامر وبهاء الدين الربيب وفوّض الى أمر النسخة وقالوا أمض ما يصل جهدكم وطاقتكم اليه فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا فى أوائل ذى الحجة فاحترمنا احتراما عظيما وجلس لنا وكان أوّل جلوسه من مرضه

وحلف

وحلف فى يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجرشاه وأعطاها المواصلة وحلفته يمينا تامة وحلفت أخاه العادل ومات قدّس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا عنه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة ونحن فى العسكر وجلس العادل فى العزا وفى تلك الايام كانت وقعة التركمان والاكراد وقتل بينهم خلق عظيم وفى هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته فى سلخ ذى الحجة قال العماد وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل ثم رحل الى حران فالقينا بها عصى النوى والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى متواصلة الجوى والفضل خائف من كساده آسف على عتاده مشفق من انخفاض قدره وانقراض عصره والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائى ونضوب مائى والدين يندب والملك يصخب والايدى الى الله تعالى مرفوعه والنيات بالاخلاص مشفوعه والكفر فى أراجيف والقدر فى تصاريف والسلطان كلما زاد أله زاد فى لطف الله أمله وكلما بان ضعفه قوى على الله توكله وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا وهو يملى على فى كل وقت وصاياه ويفرق بقلمى على عفاته عطاياه ومن جملة ذلك انه اشتدّت به الحال ليلة ايس بها منه الاطبآ وغلب القنوط وعدم الرجآ فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون الى بابه والقاصدون المرتجون جنى جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهما ولانت لسماعها الصخرة الصما فسأل عن ذلك فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك متأسفين على ما نابك فدعانى وأمرنى بكتب أسمائهم وتفريق ما اجتمع فى خزانته من المال عليهم وأمسينا وما على الباب سائل وكأنه ظن ان ما به من الالم شغل شاغل فوجد بتلك السماحة راحه واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه وكان خلقه أحسن ما كان فى حال الصحه يخاطبنا بسجاياه السهلة السمحه ولا يخلو مجلسه من ذوى فضل وأولى نباهه ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد فتارة فى أحكام شرعيه ومسائل فقهيه وأونة فى صناعات شعريه وألفاظ عربيه ومعان أدبيه ومرة فى أحاديث الاجواد وشيم الامجاد ودفعة فى ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب له والاستعداد وينذر انه ان خلصه الله من نبوة هذه النوبه وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوه اشتغل بفتح البيت المقدس ولو ببذل نفائس الاموال والانفس وانه لا يصرف بقية عمره الا فى قتال أعداء الله والجهاد فى سبيله وانجاد أهل الاسلام والاقبال على قبيله وانه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وانجاز الموعود قال وربما استروح فى بعض ساعات الليل أو النهار الى السماع لاشارة الاطباء به لاجل التفريج والامتاع ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها قال ولما سمع العادل فى حلب بمرض أخيه السلطان ووصوله الى حران بادر بالوصول وصادف وقت القبول وقام بضبط الامور وسياسة الجمهور والجلوس فى كل يوم فى النوبتية السلطانيه لتولى مصالح الرعيه واقامة وظيفة السماط والعمل فى كل يوم بالاحتياط والتصدى لكشف المظالم وبث المكارم وتنفيذ ما يخرج من المراسم ورقع كل خرق ورتق كل فتق وحفظ المهابه والقيام عن السلطان فى كل مهم بحسن النيابه ولقد نفعنا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من ارجاف يقوى وانتشار خبر سوء لا يطوى لاسيما اذا خرج الاطباء وقالوا ما فيه أمل ولكل عمر اجل فهنالك ترى الناس يستشعرون وبابعاد ما يعز عليهم من اعلاقهم ودوابهم يستظهرون فزال بحضور العادل كل مخافه وسلم الله برأفته من كل آفه وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه مقتفيا لمراضيه وكان من جملة وصاياه عند اشفائه وارجاء ترجى شفائه ان ادركنى الاجل المحتوم ودنا اليوم المعلوم فقد خلفت أبابكر وعمر وعثمان وعليا وكلهم اراه عمرادى فى اقامة الجهاد مليا فعنى بأبى بكر سيف الدين أخاه وبعمر تقى الدين ابن أخيه وبعثمان وعلى ولديه الملكين العزيز والافضل ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقى الدين فى الشام ومصر المعوّل وأقام العادل الى ان وضح المزاج وصح المنهاج وطابت القلوب وغابت الكروب ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق وهب له نسيم مصر فاستجدّ الى نشره النشق وسيأتى ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز فى سنة اثنتين وثمانين ووصول الملك الافضل من مصر وبعده الملك المظفر تقى الدين قال العماد وكانت صدقاته الراتبة داره وبالابرار باره على ان جوده مستوعب للموجود ولا يترك فضلا للوفود ولما مرض وعرض له

من الالم ماعرض قال لي اكتب الى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره في التعيين فلم يبق في اتمالك الامن وصل اليه نصيب ودعا بالصالحات ومن الله لدعائه مجيب فدفع بالصدقة البلاء ورفع باصدق الولاء ونظر الله الى النيات واسنى سنا منته السنيات ومن جملة تلك الصدقات انه أمرني ان أكتب الى نائبه بدمشق الصفي بن القابض ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صوريه فقلت ماعنده غير دنانير مصريه فقال يتصدق بها مصريه خمسة آلاف لمفوز من الثواب باضعاف قال ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام فبنيت في أربعة او خمسة أيام وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وامهما فأسكنهم فيها مدة مقامه وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه ثم اخلاها لمن ينزل بها ضيفا وجعلها للاوين اليها وقفا وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة فاهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله وقوم ماسيره اليهم بما يربي على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والشئ البديع والغريب وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا في النصرة الناصرية على ماسيأتي شرحه الى الجهاد وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد وتجددت الفتوح وانجدت الملائكة والروح وامتحت باليسر العسرة وصحت بحط الكسرة وخص الله السلطان بفضيلة فتح القدس وقضى حاجاته التي كانت في النفس وسيأتي ان شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعه وكتب الفاضل من دمشق الى تقي الدين بمصر (ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها وفاضت أنوارها وآثارها وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها وانجلى غبارها وخمد شرارها وما كانت الافلتة وقى الله شرها وعظيمة كفى الاسلام أمرها ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ماعندها صبرها وما كان الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ولاليوقف الاجابة وان سدت طريقها الذنوب ولا ليخلف وعد فرج وقد ايس الصاحب والمصحوب

نعي زاد فيه الدهر ميما ❊ فأصبح بعد بؤساه نعيما
وماصدق النذير به لاني ❊ رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديده والعزمة ماضية حديده والنشاط الى الجهاد والجنة مبسوط البساط وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط وعرضنا نحن على الاهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج في سم الخياط) ومن كتاب آخر (الاحوال بالحضرة مستقيمه والنعمة بالعافية عظيمه والبقية الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمه عرف وعرف الناس شكرها ولزم ولزموا قدرها فسيوف الجهاد قد كادت تهتز في اغمادها وخيل الله قد كادت تنادى أهلها اركبي لميعاد طرادها والمسجد الاقصى مبشر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان)

❊(فصل)❊ في باقي حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الاعيان قال العماد في هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق في ذي القعدة وهي عصمة الدين ابنة معين الدين انر وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد ونصرة الاسلام تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين وهي من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة وأحزمهن متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ولها أمر نافذ ومعروف وصدقات ورواتب للفقراء وادرارات بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا قلت وكلاهما ينسب اليها فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسي والرباط خارج باب النصر راكب على نهر باناس في أول الشرف القبلي وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغرب فهو منسوب الى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها وهي زمرد بنت جاولي أخت الملك دقاق لامه وزوج زنكي والد نور الدين رحمهم الله قال العماد وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها وكان السلطان حينئذ بحران في بحر المرض وبحرانه وعنف الالم وعنفوانه فاأخبرناه بوفاتها خوفا على تزايد علته وتوقد غلته وهو يستدعى في كل يوم درجا ويكتب اليها كتابا طويلا ويلقي على ضعفه من تعب الكتابة والفكر حملا ثقيلا حتى سمع نعي ناصر

الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت اليه الخاتون وقد تعدت عنه اليهما المنون وكانت وفاة ناصر الدين بحمص فى تاسع ذى الحجة فجأة من غير مرض وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده ومقابلته بأحسن عوائده قلت وقبر الخاتون المذكورة فى التربة المنسوبة اليها بسفح جبل قاسيون قبلى المقبرة السركسية وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته فى مقبرتها بمدرستها العونية فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات وكتب الفاضل الى تقى الدين (ورد الخبر عشية يوم الاربعاء الحادى عشر من ذى الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الاحد وقت الوقفة انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الاجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله بمرض حاد اعجل من لمح البصر ومن رد النظر فانا لله وانا اليه راجعون وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله الى كتاب أبيه رحمه الله يقول فيه وكتبته وقد صار فى حفرته واستقر فى قبره فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلع والمعونة على ساعة هذا المصرع ونشكر الله ثم نشكره ونذكر بأحسن ما يذكره به من يذكره اذ وقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية وقدم قبلها من لا يسره التقدم بين يديه وجعل الله أنفسنا فداها فان تلك نعمة علينا كما هى نعمة عليه ولا فرق الله لهذا البيت شملا ولا قضب له حبلا وأعظم الله أجر الملك المظفر فى ابن عمه وأمتعه ببقاء عمه وأعاذه من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه فليس الا التسليم لما لا يستطيع الخلق له دفعا وتفويض أمر هذه الانفس اليه تعالى فانا لا نملك لها ضرا ولا نفعا ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر فى مطالعه ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالانهاء والاشعار وسبق بما لا يسره السبق به من هذه الاخبار) قال العماد وفيها فى جمادى الآخرة توفى أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن انر ونحن قد فتحنا ميافارقين بها ولقد كان من الاكارم الاكابر ومن ذوى المآثر والمفاخر ومارأيت أحسن منه خلقا وأزكى عرقا ولم يزل فى الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما ولفور فضائله ووفور فواضله وجد شهامته وحد صرامته رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج أخته فزوجه بالتى تزوجها مظفر الدين كوكبرى بعده قلت وهى ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت الى ان توفيت بدمشق بدار أبيها وهى دار العقيقى فى شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة وهى آخر أولاد أيوب لصلبه موتا وكان يحترمها الملوك من أولاد اخوتها وأولادهم ويزورونها فى دارها قال وفيها توفى الامير عز الدين جاولى وهو من أكابر الامراء وله مواقف حميدة فى الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه ولما عدنا بعد فتح ميافارقين الى الموصل طرقه البلاء فى طريقه فقفز بحصانه على بعض السواقى فعثر به وانكسرت رجله ثم عملت عليه قدمه واشتد ألمه وطال به سقمه وانتقل الى دمشق وتوفى بها فى آخر هذه السنة أو فى سنة اثنتين وثمانين ولقد فجع الاسلام منه بذمر مشيح لذمار الكفر متيح قال وفيها يوم الاربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا ارسلان وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة قتلته مماليك مخدومه غيلة وتحالوا له فى مباغتته بالقتل حيلة وذلك انه كان جالسا فى ديوانه وايوانه متصدرا بمكانته فى مكانه وعنده الاكابر والاماثل فدخل عليه واحد منهم وقال له الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذى يصل منه الى الامير وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه ثم أخرجوا الصلاح من حبسه وهو أحد الامراء الاكابر فقتل أولئك القاتلين وكانوا به واثقين قال وفيها توفى الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلى وكان المدرس بها وكان علامة زمانه فى علمه ونسيج وحده فى نظمه وقد أوردت من شعره فى صدر الكتاب ما يستدل به على فضله وانه ممن عقم الدهر بمثله واشتريت كتبه بأغلى الاثمان ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان قال وفى هذه السنة رد السلطان قلعتى الرها وحران الى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين لتوفره فى الخدمة على حفظ القوانين وظهر منه كل ما حقق به الاستظهار وأوجب لامره الاقرار ورغب فى مصاهرة السلطان وقلده طوق الامتنان قال وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون وعنده أولاده الاصاغر والملك العزيز والملك الظاهر بدمشق والافضل بمصر فلما ورد نعى الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعد فى العرين وخيف على بلاده لصغر أولاده واحتيج أيضا الى الاحتياط على ما فى خزائنه واستخراج دفائنه وكذلك الخاتون خلفت املاكا وتراثا وأوقافا وأمتعة وأثاثا لم يكن من الحركة بد وقدم الكتب الى

البلاد بما صمم عليه عزمه وأجرى به حكمه وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والانحاء وكتب (الى ولدنا ناصر الدين قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه وان مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياه الله نعم الخلف الصالح وان انتقل والده الى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه مسلمة اليه مقررة في يديه وما مضى من والده رحمه الله الاعينه وولدنا قرة العيون وبه استقرار السكون والحمد لله الذى جبر به كسر المصاب وألبسناوا ياه أثواب الثواب فليشرح ولدنا صدره ولا يشغل سره ويعرف خواصه وأصحابه وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما انهم باقون على عادتهم) وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة قال وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف امامي ناصري بتفويض ولاية ماردين والحصن وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف (الناصر لدين الله) قلت وفيها في جمادى الاولى توفى الحافظ أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد المديني الاصبهاني محدّث مشهور له تصانيف كثيره وفي هذه السنة توفى بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي المعروف بابن الصابوني ودفن بسارية من القرافة ومولده ببغداد سنة خمسمائة وجدّ أبيه لامه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني فبه عرف بابن الصابوني وكان جدّه صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ونسبته بالمحمودي اليه ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بدمشق فذكر له ان قصده زيارة الامام الشافعي رضي الله عنه بمصر فجهزه وسيره صحبة الامير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار الى ولده بمصر وصار بينه وبينه صحبة أكيده ومحبة عظيمه بحيث انه ما كان يصبر عنه ساعة واحدة وأقبل عليه ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود الى الشام ووقف عليه وقفا بالديار المصرية وعلى عقبه وهو باق بأيديهم الى الآن وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حقه الى الملك العادل لما كان نائبه بمصر (الاخ الاجل الملك العادل أدام الله دولته غير خاف عنه قضية الوقف الذى أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني وانه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين (يعني الخبوشاني) ما جرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله الى موضع غيره لتنقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا اليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء والاخ الاجل الملك العادل يتقدّم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار اليه ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات وحسم مادّة الشكوى منه ممن يتعدّى عليه ان شاء الله تعالى) وقرأت بخط الشيخ عمر الملا الموصلي رحمه الله كتابا كتبه الى ابن الصابوني هذا بشيراز يطلب منه فيه الدعاء ويصف حاله أوّله أخوه عمر بن محمد الملا يقول فيه (وبعد فالذى يتطلع اليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة غارق في بحار النعماء ومغمور في هواطل الآلاء غير ان أيدى البلوى بالنقم ترفعني تارة الى مقام الصدّيقين وتضعني تارة أخرى الى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لا يفتر والحركة في طلب الفوز لا تسكن والعمر ينقضي بالعنا والمنى وما أشبه حالي بحال القائل

آمل في يومي ادراك المنى ❊ حتى اذا ولى تمنيت غدا
لا وطرا أقضي من الدنيا ولا ❊ أفعل للاخرى فعال السعدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا ❊ ضلالة خالصة ولا هدى

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه الا رجاء ان تحرك همتك لي بالشفقة والرأفه فتدعو الله لي بقلب حاضر منور بنور الشفقة والرحمه ويؤمن على دعائك من حضر من السادة الاخوان وتقول اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول

لا تنهني بعدا كرامك لي ❊ فشديد عادة منقطعه

وقد توسل بنا اليك نسألك ان تبلغه آماله وان تحييه حياة السعدا وان تميته موت الشهدا وتحشره في زمرة السعدا وان تجعل خير عمره آخره وخير أعماله خواتيمها وخير أيامه يوم يلقاك فيه)

ثم دخلت سنة اثنتین وثمانین) قال العماد فرحل السلطان الی الشام وودّع مظفر الدین صاحب حران من الفرات ورحل صوب حلب والعادل صاحبها علی المقدمه وقد هیأ أسباب التکرمه فوصل حلب فی العشر الاوسط من المحرم ثم رتب العادل فی حلب نوّابه وصحب السلطان فوصلوا حماه وفیها نائب تقی الدین ناصر الدین منکورس بن ناصح الدین خمارتکین وهو صاحب بوقبیس وقد جمع النهضة والامانة ثم وصل السلطان الی حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدین أبا الحارث شیرکوه بن ناصر الدین وکان عمره اذذاک ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جده ولقبه بلقبه وکتب له منشورا بما اقر علیه من البلاد وذلک بحمص وسلمیه وتدمر ووادی بنی حصین والرحبة وزلبیا وکتب منشورا آخر باسقاط المکوس بالرحبة وفیه (وهذا دأب السلطان فی جمیع البلاد اقتصر منها علی الرسوم التی یبیحها الشرع وهی الخراج والاجور والزرع) واعتمد علی الامیر الحاجب بدر الدین ابراهیم بن شروة الهکاری فی ولایة قلعة حمص ثم نقله الی قلعة حلب والیا بها ست سنین ورتبه العزیز فی آخر عهد السلطان بقوص قال ورتب السلطان مع أسد الدین بحمص أمیرا من الاسدیة یعرف بارسلان بوغا فقدم علی أصحابه بتولی مصالح بابه حتی تفرد الاسد بالامر لسداده وبلغ مدی رشاده ونعت بالملک المجاهد ونهض بحامل المجاهد قال وأقمنا بحمص أیاما حتی استعرضنا خزائن ناصر الدین وقسمنا میراثه وکانت أخت السلطان الحسامیة زوجة ناصر الدین وهی مستحقة للثمن والباقی بین البنت والابن وخلف عینا وورقا مجتمعا ومفترقا وبلغ التراث فی الملک والعین والاثاث ما عظم عن ان یقدر بمقدار واناف عن ألف ألف دینار فما أعاره السلطان طرفه بل ترکه علی أهل الترکة قال ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها واجتمع بالمسار شملها وطلعت أعیانها ونبعت عیونها ووافت ابکارها وعونها وظهر مکنونها ومخزونها وترامت الینا بثراتها ومکرماتها سهولها وحزونها ودخلنا المدینة وزینة الدنیا خارجه وسکینة النعمی فارجه ودمشق کالهدی مزفوفه وبالهدی محفوفه وبالحسن موصوفه وکان الناس قد ساءهم خبر المرض فسرهم عیان السلامه وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا للشفاء کری الکرامه وماألذ الرجاء بعد الابلاس والثری غب الافلاس والامل عقیب الیاس وانهم ظفروا فی حالة الایحاش بالایناس وأمنوا بمشاهدة الانوار السلطانیة حنادس الوسواس واجتمع السلطان فی القلعة بأهله وأقلع المرجف عن جهله وحسنت الاحوال وأمنت الاهوال وشاهدنا الفضل والکرم بالمشاهدة الفاضلیة الکریمه وعدنا الی عادة السعادة القدیمه واجتمع السلطان به فبثه أسراره واستزال بصفو رأیه أکداره ودخل جنته وجنی ثماره وزاره مرة واستزاره وراجعه فی مصالح دولته واستشاره وجلس السلطان فی دار العدل لکشف المظالم وبث المکارم واحیاء المعالم واقامة مواسم المراسم وقال القاضی ابن شداد ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل یطلب جهة حلب وکان وصوله الیها یوم الاحد رابع عشر المحرم وکان یوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافیته ولقائه فأقام بها أربعة أیام ثم رحل فی ثامن عشره نحو دمشق فلقیه أسد الدین شیرکوه بن محمد بن شیرکوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظیمة وقرب زائدة ومن علیه بحمص وأقام أیاما یعتبر ترکة ابیه ثم سار یطلب جهة دمشق وکان دخوله الیها فی ثانی ربیع الاول وکان یوما لم یر مثله فرحا وسرورا

(فصل) فی ذکر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولایات بین أولاده قال العماد وکان السلطان لملازمة أخیه العادل له قد مال الی رأیه وکان الملک الافضل نور الدین علی بمصر وهو ولده الاکبر وقد بدا یظهر وعلی تجوید الخط والادب وسماع الاحادیث النبویة بتوفر وقد مالت الیه بمصر جماعه وله منهم طاعه وربما تم تقی الدین النائب هنالک من أحد أمرا فوقعت منه فیه شفاعه فکتب یشکو من اختلال أمره واشتغال سره وکان فی نفس السلطان ان ینقل ولده الملک العزیز عثمان الی مصر لیکون عزیزها ولیحرز مملکتها ویحوزها وهو مفکر فی طریق تدبیره ووجه تقریره حتی بدا له نقل الافضل الی الشام فکتب الیه یتشوقه ویستدعیه بجمیع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه فخرج ووصل دمشق یوم الاثنین الثالث والعشرین من جمادی الاولی وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة فی دار رضوانه وکتب الی تقی الدین انه قد استقل أمره وزال عذره فابتهج بتفرده وخفی عنه انه کان فی ذمة ولد السلطان وعصمته وان تمام حرمته بحرمته قال ولما وصلنا الی دمشق کان بها من أولاد السلطان الملک الظاهر غازی غیاث الدین فزار عمه العادل وهو صهره وقد اشتد بمصاهرته ظهره فقال له قد نزلت عن حلب

لك وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان وألزم الخدمة ولا أفارق السلطان فاطلبها من أبيك ان كانت ترضيك وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي فيها ومحبتي لتوليها أرى ان أحداً أولادك بها أحق وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب ان اوثره بها فقال السلطان المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فان مصر لا بدّ ان يكون لي بها ولداً اعتمد عليه وأسند ملكها اليه ورحل الى الزرقا ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل فالتمس العادل عوض حلب بلاداً عينها ونواحي بمصر بينها وكان قدم الملك العزيز اليه لاشفاقه عليه فسأل أباه ان يسير معه العادل فانه نعم الكافي الكافل فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك المصريه ولما سمع تقي الدين هذا الخبر نبا ونفر وذم الغير واستبدل من الصفو الكدر وغار من تغير الرأي فيه واذا تولى أبو بكر فلا عمر فعبر الى الجيزة مظهراً انه يمضي الى بلاد المغرب ليتملكها وكتب يسأل السلطان ان لا يمنعه من سلوك مسلكها وسمت همته الى مملكة جديده وأقاليم ذات ظلال مديده وبلاد واسعه ومدن شاسعه وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش وسار الى بلاد برقة فملكها وهزته الامنية للنفائس من بلاد نفوسة فادركها وتجاوز الى افريقية وهو يكتب أبداً الى مالكه الملك المظفر يرغبه في تلك المملكه ويقول ان البلاد سائبة فما تجدد لتقي الدين ما تجدد وتمهد لعمه العادل ما تمهد عادله ذكر المغرب فعبر بعسكره ومالت اليه عساكر مصر لبذله وقدم مملوكه يوزبا في المقدمة فلما انتهى الى السلطان خبر عزمه قال لعمري ان فتح المغرب مهم لكن فتح البيت المقدس أهم والفائدة به أتم والمصلحة منه أخص وأعم واذا توجه تقي الدين واستصحب معه رجالنا المعروفه ذهب العمر في اقتناء الرجال واذا فتحنا القدس والساحل طوينا الى تلك الممالك المراحل وعلم نجاح تقي الدين في ركوب تلك اللجة فكتب اليه يأمره بالقدوم عليه وجهز ولده العزيز الى مصر وقرر له قوص وأعمالها وسار ومعه عمه العادل فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان وأما الملك الظاهر فسيره السلطان الى حلب وأنعم عليه بها وبسائر قلاعها وأقاليمها وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو وعاد السلطان ومعه الافضل وقدم تقي الدين في آخر شعبان وتلقاه السلطان وخيم على المصرى فوق قصر أم حكيم فلما قرب ركب الى موكبه ورحب به ودخل دمشق وعاد الى ما كان له من البلاد ومنبج والمعرة وسائر أعمالها ثم أضاف اليه ميافارقين وجميع ما في ذلك الاقليم من المعاقل وكتب الى مصر باستدعاء رجاله واعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله فامتثلوا الامر وفارقوا الى الشام مصر سوى مملوكه زين الدين يوزبا فانه رتب له عسكراً الى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد افريقية ثم قصده صاحب المغرب فاخذه مأسوراً ثم أغزاه مع الغزو في ثغر من الثغور فالفاه مشهوراً مشكوراً فقدمه عليهم قلت وكتب الفاضل الى تقي الدين (سبب هذه الخدمة ما تصل بالمملوك من ترد د رسائل مولانا في التماس السفر الى الغرب والدستور اليه (يكفي الزمان فما لنا نستعجل) يا مولانا ما هذا الواقع الذي وقع وما هذا الغريم من الهم الذي ما اندفع بالامس ما كان لكم من الدنيا الا البلغه واليوم قد وهب الله هذه النعمه وقد كان الشمل مجموعاً والهم مقطوعاً ممنوعاً افتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت والاسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت يا مولانا الى اين وما الغاية وهل نحن في ضائقة من عيش أو في قلة من عدد او في عدم من بلاد أو في شكوى من غدم كيف نختار على الله وقد اختار لنا وكيف ندبر لانفسنا وهو قد دبر لنا وكيف ننتجع الجدب ونحن في دار الخصب وكيف نعدل الى حرب الاسلام المنهي عنها ونحن في المدعو اليها من حرب أهل الحرب معاشر الخدام والجيش وأرباب العقول والاراء أليس فيكم رجل رشيد

تعقب الرأي وانظر في أواخره ❋ فطالما تم مت قدماً أوائله

لا زال مولانا يمضي الاراء صائبه ويلحظها باديه وعاقبه ولا خلت منه دار ان خلت فهيهات ان تعمر ولا عدمته أيام ان لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر) وقال القاضي ابن شداد وفي سابع عشر جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الافضل الى دمشق ولم يكن رأى الشام قبل ذلك وكان السلطان رأى رواح الملك العادل الى مصر فانه كان أنس باحوالها من الملك المظفر فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض وحصل ذلك في نفس العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومنّ الله بعافيته سير يطلب العادل

الى دمشق فتجهز من حلب جريدة وأقام بدمشق فى خدمة السلطان يجرى بينهما أحاديث ومراجعات فى قواعد تقرر الى جمادى الآخرة فاستقر عود السلطان الى مصر ويسلم بلاد حلب الى الظاهر وسلم السلطان اليه ولده الملك العزيز وجعله أتابكه قال ولقد قال لى الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للعزيز اعلم يامولاى ان السلطان قد أمرنى ان أسير فى خدمتك الى مصر وأنا أعلم ان المفسدين كثير وغدا فما تخلو ممن يقول مالا يجوز عنى ويخوفك منى. فان كان لك عزم تسمع فقل لى حتى لا أجى فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك ثم التفت وقلت للملك الظاهر انا اعرف ان أخاك ربما سمع فى أقوال المفسدين وأنا فما لى الا أنت وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدرى من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير ثم ان السلطان سير ولده الظاهر الى حلب وأعادها اليه وكان رحمه الله يعلم ان حلب هى أصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأب فى طلبها ذلك الدأب ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه فسار حتى أتى العين المباركة وسير فى خدمته شحنة حسام الدين بشارة ووالياً شجاع الدين عيسى بن بلاشو ونزل يوم الجمعة بالعين المباركة وخرج الناس الى لقائه فى بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة وصعد القلعة ضاحى نهاره وفرح الناس به فرحاً شديداً ومد على الناس جناح عدله وأفاض عليهم وابل فضله وأما الملك العزيز والعادل فان السلطان قررحالهما وكتب الى الملك المظفر يخبره بسيرهما الى مصر ويأمره بالوصول الى الشام فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الى برقه فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده فى الحال والله يعلم مايكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيره وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلا الى خدمة السلطان فسار السلطان الى لقائه فلقيه بمرج الصفر وفرح بوصوله فرحاً شديداً وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماه وسار اليها وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح فتم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه فى شوّال من هذه السنه ومن كتاب فاضلى الى السلطان (الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لا يعرفان الا المولى والداً ومنعماً وكل واحد منهما ماله عش كثير الفراخ وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ فلا يقنع كل واحد منهما الا طرف يملكه وأقليم يتفرد به فيدبر مولانا فى ذلك بما يقتضيه صدره الواسع وجوده الذى ما نظر مثله الناظر ولا سمع السامع ولا ينس قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه مروا القرابة ان يتزاوروا ولا يتجاوروا وما على مولانا عجلة فى تدبير يدبره ولا فى أمر يبتته (وستبدى لك الايام ما كنت عارفا) وفى غد ماليس فى اليوم ولله أقدار ولها امد وقد رزق الله مولانا ذرية تودّ لو قدمت أنفسها بين يديه ولوا كحلت اجفانها بغبار قدميه ما فيها من يشكى منه الا التزيد فى الطلب وهو من باب الثقة بكرم المنعم ولهم أولاد والمولى مد الآمال لهم كما قال مولى الامة (تناكحوا تناسلوا فانى مكاثر بكم الامم) طالما قال لهم المولى لدوا وعلىّ تجهيز الاناث وغنى الذكور وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشموس والبدور) قال العماد ومدحت تقى الدين بقصيدة سينية سنيه قطوفها دانية جنيه تشتمل على مائة واربعين بيتاً أنشدته اياها فى ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق وأوردت بعضها ومطلعها

عفا الله عنكم عن ذوى الشوق نفسوا ❊ فقد تلفت منا قلوب وانفس
ألم تعلموا انى من الشوق موسر ❊ ألم تعلموا انى من الصبر مفلس
ظننتم بعينى انها تألف الكرى ❊ فهلا بعثتم طيفكم يتجسس
وليس لقلبى فى السرور تصرف ❊ فقلبى على الاحزان وقف محبس
لفتك محبيه تيقظ طرفه ❊ وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف مناظر ❊ يقول دليل الدل عندى اقيس
اذا درست ألحاظه السحر أصبحت ❊ رسوم اصطبارى دارساً حين تدرس

ولم أنس أنسى بالحمى رعى الحمى ❊ عشية لى مجنى ومجلى ومجلس
لحى الله أبناء الزمان فكلهم ❊ صحيفته أودى بها المتلمس
ولولا ابتسامات المظفر بالندى . ❊ لما راق نفسى صبحه المتنفس
جلت شمس لقياه الحنادس بعدما ❊ عرتنا وهل يبقى مع الشمس حندس
وصار به هذا الزمان جميعه ❊ نهارا فما للناس ليل معسعس
اذا صال فالمغلول الف مدرع ❊ وان جاد فالمبذول آلف مكيس
وليس يغبنون على فضل رأيه ❊ ويغبن فى الاموال منه ويبخس
اذا أطلق الملك المظفر فى الوغى ❊ اعنته فالشمس بالنقع تحبس
فداك ملوك لايلبون داعيا ❊ وكلهم عن دعوة الحق يخنس
تشكى اليك الغرب جور ملوكه ❊ فاشكيته والجور بالعدل يعكس
سيهدى الى المهدية النصر والهدى ❊ بهديكم فيها وتونس تؤنس
رددت كراديس الفرنج وكلهم ❊ لدى الاسر فى غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم ❊ وأبيضكم من اسود القصر اشوس
أفاد دم الانجاس طهر سيوفكم ❊ ومايستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجدا ❊ فلله نصرانية تتمجس
وكم كفى الاسلام سوءا ملككم ❊ كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفتح البيت المقدس غيركم ❊ ويبتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم فى جهاد مثلث ❊ اذا نصروا التوحيد فى ء مخمس
اذا ما تقى الدين صال تساقطت ❊ لاقدامه من عصبة الشرك ارؤس
وما عمر الاشبيه سميه ❊ شديد على الاعداء ثبت عمرس

﴿فصل﴾ فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد كان المنجمون فى جميع البلاد يحكمون بخراب العالم فى هذه السنة فى شعبان عند اجتماع الكواكب الستة فى الميزان بطوفان الريح فى سائر البلدان وخوفوا بذلك من لا وثوق له باليقين ولا إحكام له فى الدين من ملوك الاعاجم والروم وأشعروهم من تأثيرات النجوم فشرعوا فى حفر مغارات فى التخوم وتعميق بيوت فى الاسراب وتوثيقها وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا اليها الماء والازواد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا فى الضحك من عقولهم وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين موقن ان قولهم مبنى على الكذب والتخمين فلما كانت الليلة التى عينها المنجمون لمثل ريح عاد وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند السلطان فى فضاء واسع وناد للشموع المزهرات جامع ومايتحرك لنا نسيم ولا السرح الهواء فى رعى منابت الانوار مسيم فما رأينا ليلة مثلها فى ركودها وركونها وهدوها وهدونها قال ابن القادسى وحكم أصحاب النجوم ان فى الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة والشمس والقمر فى برج الميزان ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سموميا وفى يوم الثلاثا التاسع والعشرين تهلك البلاد وتحمل الرمل ونسبوا ذلك الى الخارمى، (١) وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثا الى نصف ليلة الاربعاء فاستعد لذلك أقوام فى البلاد وجمعوا الكعك وحفروا السراديب فأهل رجب وماجرى مما قالوا شئ فخزى أهل التنجيم لذلك ولم يهب فى ذلك اليوم هواء البتة وكان الزمان حارا واشتد الحر فى ذلك اليوم وبعده ولم يظهر مما قالوا شئ وعمل الشعراء فى ذلك شعرا يزرون عليهم فى حكمهم منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الهرثى وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت وأبو الفتح سبط ابن التعاويذى قال أبو الغنائم بن المعلم

(١) وعلى هامش الاصل المنقول منه لعله الخوارزمى

قل لابی الفضل قول معترف ❊ مضى جمادى وجاءنا رجب
وماجرت زعزعا كما حكموا ❊ ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا ❊ أبدت أذى فی قرانها الشهب
يقضى عليها من ليس يعلم ما ❊ يقضى عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصطرلاب خير من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفی ❊ أی مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد وهی ❊ للسبع فی كل حادث سبب
لا المشترى سالم ولا زحل ❊ باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا ❊ ب التمادی وزالت الريب
فليبطل المدعون ماوضعوا ❊ فی كتبهم ولتخرق الكتب

وقال عيسى بن مودود

مزق التقويم والزيج فقد بان الخفاء ❊ انما التقويم والزيج هواء وهباء
قلت للسبعة ابرا * م ومنع وعطاء ❊ ومتى ينزلن فی الميزان يستولی الهواء
وتثير الرمل حتى * يمتلی منه الفضاء ❊ ويعم الارض خسف * وخراب وبلاء
ويصير القاع كالقف وكالطود العراء ❊ وحكمتم فأبى الحا * كم الا ما يشاء
ما أتى الشرع ولا * جاءت بهذا الانبياء ❊ فبقيتم ضحكة تضحك منها العلماء
حسبكم خزيا وعارا * ما تقول الشعراء ❊ ثم ما أطمعكم فی الحكم الا الامراء
ليت اذ لم يحسنوا فی الدين ظنا ما اساءوا ❊ فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفاء
وعليه الحربى ما ❊ جادت على الارض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذی قال وفی السابع والعشرين من شوال توفی محمد أبو عبد الله بن برى بن عبد الجبار النحوی وكان آية فی النحو ثقة عالما صالحا وكان مبلدا فی أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب ومرشد بن صادق وغيرهما قال العماد وفی هذه السنة جاء نعی أتابك محمد بن أتابك ايلدكز المعروف بالبهلوان وهو الذی كان نزل على خلاط فی العام الماضی وكانت حياته متصلة الجد والجدى واضطربت من بعده تلك الممالك واخربت اصفهان والى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت الحرب أوزارها وتولى بعده أخوه قزل ارسلان فازال مهابة الملك السلجوقی وسلك نهج السعيد الشقی الى ان ذهب فاتضع الملك وانقطع السلك واتسع الهلك وطمعت خراسان فی العراق وعدمت الافاقة من الآفاق وأظلمت مطالع الاشراق قال واشتغل السلطان فی بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصيد والقنص والانتهاز فيه لبوادر الفرص وكان يركب الى تل راهط للصيد بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص الميامين وله شاهين يجرى كانه بحر اذا حلق فشرار وان أحرق فجمر فكم صاد ليوسف يعقوبا وعقربا نجاز وعد صيده عرقوبا فطلبته من السلطان فقال أنت للقلم والدواوين فمالك والبزاة والشواهين فقلت يكون فی ملكی وكل ما يقنصه يأمر لی به المولى وهذا أربح لی وانفع وأولى فقال نعم فلما أصبح سير لی سبع عشرة قطعة من طير وحجل وقال هذا صيد شاهينك فی طلق واحد على حجل فلكت ذلك الشاهين خمس ست سنين والسلطان يصطاد به ولی قنصه وله مطلعه ولی مخلصه فمازال لی على هذا الحق محافظا ولهذه النكتة ملاحظا الى ان أودى الجارح وانقطعت تلك المنائح فيالله دره من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التی أعاد منحها جدا واعتده لی حقا معدا فدون حقه على مثله ان يوسف ومن حقنا بعده ان نتلو (يا أسفى على يوسف) قال ولما دخل شهر رمضان نوّع أقسام الانعام واتفق ان بعض التجار كانت بضاعته يواقيت رفيعة وما لها نفاق وهی أكثر من مائة قطعة فحملها الى الخزانة السلطانية فی بضاعات وقال خذوها واكتبوا لی بأثمانها فی مصر على بعض الجهات فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح وكان من كرم شيم السلطان اذا عرف فی خزانته موجودا انه لا يستطيب تلك الليلة حتى

يفرقه جودا فقال لى قد اجتمعت لنا يواقيت وعمائم وقد تقاضتنى نفسى بخلعها على أهل الفضل والمكارم فنبدأ بأهل الدين والتقوى ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى وكان فى الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر ويذكر بابا الحلال والحرام والبعث والحشر ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ ووضع المنبر فى ايوان القلعة فقلت بقى احضار الفقهاء فى المدة الباقية من الشهر فقال انهم يمضى بهم الخلاف الى التشاجر والتضاغن فقلت أنا أضمنهم ولا يحضر الا أوقرهم وأرزنهم فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفيه فى المدرسة المعمورة النوريه واعترض عليه العماد الكاتب وفى اليوم الثانى استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضى القضاة محيى الدين بن الزكى فكان السلطان يجلس فى كل يوم لطائفة فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها اليهم قال القاضى بن شداد وفى شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والاكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان ان معين الدين بن معين الدين قد عدى بالراوندان فكتب الى عسكر حلب ان حاصروه وكان نزولهم عليه فى العشر الاول من سنة اثنتين وثمانين وأعطى برج الرصاص لتميرك فى بقية ذلك الشهر وفى ثانى جمادى الاولى وصل معين الدين من الراوندان وقد سلمها الى علم الدين سليمان ثم مضى الى خدمة السلطان قال ابن القادسى وقدم الحاج فى عاشر صفر فأخبروا ان سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه ومنع من قولهم حى على خير العمل وشرط على العبيد ان لا يؤذوا الحاج وأخبر الحاج ان قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح ولما فتح مات فى المدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة قال ووصل الخبر ان ريحا هبت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا وماتت بهائم كثيرة ووصل الخبر الى بغداد بقتل البهلوان وان القتال وقع هناك واحرقت المحال ونهبت الاموال واقتتل أهل المذاهب واحترقت مدارس وبقى الامر على ذلك من سابع محرم الى ربيع الآخر فاحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة بعد ان احترق اطفال فى المهود بالليل وقام قزل أخو البهلوان فكف الناس وكان قزل قد رتب شحنة فى اصفهان بعد الفتنة التى وقعت بها ومعه ألف فارس فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصلب وصادرهم وأشير على قزل بان يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار فقال له الشحنة أهل البلد فقراء فقال بعض المصالحة لقزل ما أخذ الا من الاغنياء فوثب عيار فقتل المصلحى وكان العيار متعلقا على قاضى البلد فوكل الشحنة بدار القاضى فجاء ابن الخجندى الى دار القاضى فحسن له اخراج الموكلين به وتحالفا على اخراج الشحنة من البلد وان يقطعوا خطبة السلطان الذى نصب قزل ففعل ذلك فى سابع شوال ثم كثر القتل فى البلد فكل من فى قلبه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجل أو امرأة وكان القتل الكثير فى أصحاب ابن الخجندى وكان الحريق والنهب واحراق الدور فى أصحاب القاضى وجرى القتال يوم عرفة ويوم العيد ودام وبطل الناس من المعايش وخربت الاسواق ووقع الغلاء ومات الناس من الجوع وبقى أهل أصفهان على قدم الخوف وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا والعيارون يأخذون أموال الناس مقاواة وهرب الناس من أصفهان

(فصل) قال العماد مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الاسلام ووهن الكفران قمص طرابلس رغب فى مصافاة السلطان والالتجاء اليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب انه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه فمات الصغير وانتقل الملك الى أمه ثم انها مدت عينها الى بعض المقدمين من العرب فتزوجته وفوضت الملك اليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص الى ظل السلطان فصار له من جملة الاتباع فقبله السلطان وقواه وشد عضده باطلاق من كان فى الاسر من أصحابه فقويت مناصحته للمسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم وصار بدولة السلطان وملكه يقسم ومال اليه من الفرنج جماعه وظهرت له منهم للطماعية طاعه ودخلت الى بلادهم من جانبه السرايا وخرجت بالغنائم والسبايا وأعطى الدنية فى دينه بما استدناه من العطايا فصار الفرنج يدفعون شره ويحذرون مكره فتارة يداورونه وأونة يمارونه وللقمص قوم صدق يساعدونه فى كل حق

وباطل فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أمارى بن فلك وهو مرى الذى تقدم ذكره وتوفى أمارى فى آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى وخلف المعون هذا الولد المجذوم فبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك قال وكان ابرنس الكرك ارناط أغدر الفرنجية وأخبثها وأخفها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والايمان المبرمة وأنكثها وأحنثها ومعه شرذمة لهاشر ذمه وهى من شر أمه على طريق الحجاز ومن نهج الحج على المجاز وكنا فى كل سنة نغزوه وبالبوائق نعروه ويصيبه منا المكروه فاظهر انه على الهدنة وجنح للسلم وأخذ الامان لبلده وأهله وقومه ور وحه وبقى الامن له شاملا والقفل من مصر فى طريق بلده متواصلا وهو يمكن الجائى والذاهب حتى لاحت له فرصة فى الغدر فقطع الطريق وأخاف السبيل ووقع فى قافلة ثقيلة معها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الاجناد فأوقعهم فى الشرك وحملهم الى الكرك وأخذ خيلهم والعده وسامهم الشد والشده فأرسلنا اليه وذممنا فعاله وقبحنا احتياله واغتياله فأبى الا الاصرار والاضرار فنذر السلطان دمه ووفى فى اراقة دمه بما التزمه وذلك فى السنة الآتية كما سيأتى ان شاء الله تعالى وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة وهو فى الاستعداد للجهاد وقد أرسل فى طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصريه فانتظمت أموره على أحسن قضيه ومن كتاب فاضلى الى بعض اخوانه (كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة الى بلاد الكفر فى عسكر فيه عساكر وفى جمع البادى فيه كانه حاضر وفى حشد يتجاوز ان يحصله الناظر الى ان لا يحصله الخاطر وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لانهاضها وتجدت به عزمة الله المسؤل فى حسم عوارض اعتراضها وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها ويذهب الله الشرك بهيبتها وأرجو ان يتمحص عن زبدة وتستريح الايدى بعدها عن المخض وان يكون الله قد بعث سفحه نصرة الاسلام وسلطانه قد نهض للقبض)

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين) وهى سنة كسره حطين وفتح الساحل والارض المقدسة للمسلمين قال العماد فى كتاب البرق وهى السنة الحسنة المحسنه والزمان الذى تقضت على انتظار احسانه الازمنه وطهر فيه المكان المقدس الذى سلمت لسلامته الامكنه وخلصت بمنحة الله من المحنة الارض المقدسة الممتحنه وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة بالسفك ونصرت الدولة الناصريه وخذلت الملة النصرانيه وانتقم التوحيد من التثليث وشاع فى الدنيا بمحاسن الايام الصلاحية حسن الاحاديث ثم ذكر فى كتابى الفتح والبرق ما جملته ان قال نبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم فى العسكر العرمرم ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك يستدنى اليه الامراء الواصلين والاملاك ويجمع الاعارب والاعاجم والاتراك وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين والدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على طريق العسكر المصرى والحاج ووصل الحاج فى آخر صفر وخلا سر السلطان من شغلهم ثم سار ونزل على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فتلقاء بالقريتين وفرقه على أعمال القلعتين وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء فى جمع عظيم من العظماء وعنده الجحافل الحافله والحواصل الحاصله والعساكر الكاسره والقساور القاسره وهو ينتظر أمرا من أبيه ويكتب اليه ويقتضيه وانقضى من السنة شهران وطال بهم انتظار السلطان فانهض منهم سريه تسريه وأمرها بالغارة على أعمال طبريه ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق ودياربكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن يار وق وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمى فساروا مدججين وسروا مدلجين وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين فخرج اليهم الفرنج فى حشدهم فأتاهم الله النصر الهنى والظفر السنى وشفوا منهم حنين الحنايا وأدركوا فيهم منى المنايا وفازوا وظفروا وقتلوا وأسروا وهلك مقدم

الاسبتار وحصل جماعة من فرسانهم فى قبضة الاسار وأفلت مقدّم الداوية وله حصاص ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين فكانت هذه باكورة البركات ومقدّمة ما بعدها من ميامن الحركات وجاءتنا البشرى ونحن فى نواحى الكرك والشوبك فسار السلطان ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا والقدر يقول له تعيش وترى وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى وامتدّ العسكر فراسخ عرضا وطولا وملأ بالملاء حزونا وسهولا ومارأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر ولا أكرث للكفر ولا أكثر وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والارض) وعرض العسكر فى اثنى عشر ألف مدجج فى ليل العجاج مدلج ولما تم العرض حسم الفرض وسالت بأفلاك السماء والارض وتعين الجهاد وتبين الاجتهاد ثم رتب السلطان للعسكر اطلابا وحزبه احزابا وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل فاناخ ليلة السبت على خسفين ثم سار فى الاردن الى ثغر الاقحوانة وأقام هناك خمسة أيام وقد عين مواقف الامراء وشعارهم وأحاط بحيرة طبرية بحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم وسير ذلك الجيش اليهم علموا انه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله وان الايمان كله قد برز الى الشرك كله فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانخوا دخل القمص معهم بعد ان دخل عليه الملك ورمى بنفسه عليه وصفوا راياتهم بصفوريه ولووا الالويه وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل ورفعوا صليب الصلبوت فاجتمع اليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا فى نوادى أهل أقاليم أهل الاقانيم وصلبوا للصليب الاعظم بالتعظيم وما عصاهم من له عصى وخرجوا عن العدد والاحصا وكانوا عدد الحصى وصاروا فى زهاء خمسين ألفا او يزيدون ويكيدون ما يكيدون قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد وهم هناك مقيمون لا يريمون والسلطان فى كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم ويراميهم وينكى فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله فربضوا وما نبضوا وقعدوا وما نهضوا فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف فلما رأى السلطان انهم لا يبرحون ومن قرب صفورية لا ينزحون أمر أمراءه ان يقيموا فى مقابلتهم ويديموا على عزم مقاتلتهم ونزل هو فى خواصه العسسيه على مدينة طبريه وعلم انهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا الوصول اليها فيتئذ يتمكن من قتالهم ويجهد فى استئصالهم ثم أحضر الجاندرية والنقابين والخراسانية والجارين وأطاف بسورها وشرع فى تخريب معمورها وأخذ النقابون فى النقب فى برج فهدوه وهدموه وتسلقوا فيه وتسلموه ودخل الليل وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدوّ معتكر وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط فى يده وخرج عن جلد جلده وسمح للفرنج بسبده ولبده وقال لهم لا قعود بعد اليوم ولابدّ لنا من لقاء القوم واذا أخذت طبرية أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد وما بقى لى صبر وما بعد هذا الكسر لى جبر وكان الملك قد حالفه فاخالفه ووافقه فنافقه ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الارض بحركته وغامت السماء من غبرته ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد واذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع واستخار الله تعالى وسار وعدم القرار وذلك يوم الخميس ثالث عشرى ربيع الآخر والفرنج سائرون الى طبرية بقضهم وقضيضهم وهم كالجبال السائره والبحار الزاخره أمواجها متلاطمة وأفواجها مزدحمة فرتب السلطان فى مقابلتهم اطلابه وحصل بعسكره قدامهم وحجز بينهم وبين الماء واليوم قيظ وللقوم غيظ وحجز الليل بين الفريقين وحجزت الخيل على الطريقين وهيئت دركات النيران وهشت درجات والجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان فهى ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل فيها الملائكة والروح وفى سحرها نشر الظفر يفوح وفى صباحها الفتوح فما أجتنبا تلك الليلة الباخره فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخره وبتنا والجنة معروضه والسنة مفروضه والكوثر واقفة سقاته الخلد قاطفة جناته والسلسبيل واضح سبيله والاقبال ظاهر قبيله والظهور قائم دليله والله ناصر الاسلام ومديله وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب وملأ جعابها وكنائنها بالنبال وكان ما فرقه

من النشاب أربعمائة حمل ووقف سبعين جمازة فى حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشابه حتى اذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسى وغنت الاوتار اذذاك واليوم ذاك والجيش شاك والقيظ عليهم فيض وما للغيظ منهم غيض وقد وقدا الحر واستشرى الشر ووقع الكر والفر والسراب طافح والظماء لافح والجو محرق والجوى مقلق ولاولئك الكلاب من اللهث لهث وبالعيث عيث وفى ظنهم انهم يردون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها وذلك فى يوم الجمعه بجموع أهلها المجتمعه ووراءعسكرنا بحيرة طبريه والورد عد ومامنه بعد وقد قطعت على الفرنج طريق الورود وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين فكلبوا على ضراوتهم وشربوا ما فى اداوتهم وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع واستنزفوها حتى ماء المدامع وأشرفوا على المصير الى المصارع ودخل الليل وسكن السيل وباتوا حيارى ومن العطش سكارى وهم على شغف البحيرة بحيره وقووا أنفسهم على الشدّه واستعدّوا بالعزائم المحتدّه وقالوا غدا انصب عليهم ماء المواضى ونقاضيهم الى القواضب القواضى فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط فى الفناء وأما عسا كرنا فانها اجترأت ومن كل ما يعوقها برئت فهذا السفانه شاحذ وهذا العنانه أخذ وهذا سهم مفوّق وهذا شهم موفق وهذا مكثر للتكبير ومنتظر للتبكير وهذا تاج للسعاده وهذا راج للشهاده فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكه ومن سحر انفاسها الطاف الله المتداركه والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضى بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ويغرى المئين بالالوف وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدّون ويصدون العدوّ ويردّون وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل فى أوّل الناس وكان حصانه قوى الراس فابعد عن اخوانه ولم يتابعه أحد من أقرانه فانفرد به الفرنج فاثبت فى مستنقع الموت رجله وقاتل الى ان بلغوا اقتله فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان وانتقل الشهيد الى جوار الرحمن ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتهم وخلصت لله نيتهم وأصبح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر وهو يوم النصره ووقوع الكسره وبرح بالفرنج العطش وأبت عثرتها ان تنتعش وكان النسيم من امامها والحشيش تحت أقدامها فرمى بعض مطوّعة المجاهدين النار فى الحشيش فتأجج عليهم استعارها وتوهج اوارها فباوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة اقسام فى الاصطلا والاصطلام نار الضرام ونار الاوام ونار السهام فرجا الفرنج فرجا وطاب طلبهم المخرج مخرجا فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فابرحوا وهم ظماء وما لهم ماء سوى ما بايديهم من ماء الفرند فشوتهم نار السهام واشوتهم وصمت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم وأعجز واوأزعجوا واحرجوا وأخرجوا وكلما حلوا ردوا وردوا وكلما ساروا اوشدوا أسروا وشدوا وما دبت منهم نمله ولا ذبت عنهم حمله واضطرموا واضطربوا والتهفوا والتهبوا وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ وضاقت بهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ فآووا الى جبل حطين ايعصمهم من طوفان الدمار فاحاطت بحطين بوارق البوار ورشقتهم الظبى وفرشتهم على الربى ورشقتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وقرشتهم البلايا ورقشتهم الرزايا ولما أحس القمص بالكسره حسر عن ذراع الحسره وأنثال من العزيمه واحتال فى الهزيمه وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر فخرج بما به يطلب الخروج واعوج الى الوادى وما ودّ ان يعوج ومضى كومض البرق ووسع خناخرقه قبل اتساع الخرق وأفلت فى عدة معدوده ولم يلتفت الى مودّة مرذوده وكان قال لاصحابه انا أسبقكم بالحمله وأفضلكم فى الجملة فاجتمع هو ومؤازروه وجماعة من المقدّمين مظافروه وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان وتؤامروا على انهم يحملون ويبلغون الطعان فحمل القمص ومن معه على الجانب الذى فيه الملك المظفر تقى الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين ففتح لهم طريقا ورمى من اتباعهم فريقا فمضوا على رؤسهم ونجوا بنفوسهم ولما عرف الفرنج ان القمص اخذ بالعزيمه ونفذ فى الهزيمه وهنوا وهانوا ثم اشتدوا وما لانوا وثبتوا على ما كانوا واستقبلوا واستقتلوا واستلحموا وحملوا ووقعنا عليهم وقوع النار فى الحلفاء وصببنا ماء الحديد للاطفاء فزاد فى الاذكاء خطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام ثم استحر الحرب واستمر الطعن والضرب وأحيط بالفرنج من حواليهم ودارت الدوائر عليهم وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل

وجرفهم السيف جرف السيل وملك عليهم الصليب الاعظم وذلك مصابهم الاعظم ولما شاهدوا الصليب سليبا ورقيب الردى قريبا أيقنوا بالهلاك وأثخنوا بالضرب الدراك فبارحوا بؤس رون ويقتلون ويخمدون ويخملون وللوثوب يخفون وبالجراح يثقلون ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون ووصلنا الى مقدمهم وملكهم وابرنسهم فتم أسر الملك وابرنس الكرك وأخى الملك جفرى واوك صاحب جبيل وهنفرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندرونه وصاحب مرقيه وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ومن الاستبتارية معظمها ومن البارونية من اخطأه البوار فأصابه وساءه الاسار وأسر الشيطان وجنوده وملك الملك وكنوده وجبر الاسلام بكسرهم وقتلوا وأسروا بأسرهم فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ومن عاين الاسرى قال ما هناك قتيل ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامتثال أمره ومن اقامة فرضه للنهج المسلوك ونظم له فى حتوف أعدائه والفتوح لاوليائه السلوك وخصه بهذا اليوم الاغر والنصر الابر واليمن الاسر والنجح الادر ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة فكيف ملوك العصر فى السمو والسوم غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسى مقدمه ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمه ومن عجائب هذه الوقعه وغرائب هذه الدفعه ان فارسهم ما دام فرسه سالما لم يذل للصرعة فانه من لبسه الزردى من قرنه الى قدمه كان كانه قطعة حديد ردراك الضرب اليه غير مفيد لكن فرسه اذا هلك فرس وملك فلم يغنم من خيلهم ودوابهم وكانت الوفا ما هو سالم وما ترجل فارس الا والطعن والرمى لمركوبه كالم وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون وزغف موضون وبلاد وحصون وسهول وحزون وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل اقليم مصون وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون واستخرج من كنز مدفون وصحت هذه الكسره وتمت هذه النصره يوم السبت وضربت ذلة أهل السبت على أهل الاحد وكانوا أسدا فعادوا من النقد فما أفلت من تلك الآلاف الا الآحاد وما نجا من أولئك الاعداء الا أعداد وامتلأ الملا بالاسرى والقتلى وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى وقيدت الاسارى فى الحبال واجبة القلوب وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب وحطت حطين تلك الجيف عن متنها وطاب نشر النصر بنتنها وعبرت بها فالفيتها محل الاعتبار وشاهدت ما فعل أهل الاقبال بأهل الادبار وعاينت أعيانهم خبرا من الاخبار ورأيت الرؤس طائره والنفوس بائره والعيون غائره والجسوم رسمتها السوافى والرسوم درستها العوافى واشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق مفصلة المفاصل مفرقة المرافق مفلقة المفارق محذوفة الرقاب مقصرقة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجذوعة الاناف منزعة الاطراف مفقوءة العيون مبعوجة البطون منعفة الاجساد مقصفة الاعضاد مقلصة الشفاه مخلصة الجباه سائلة الاحداق مائلة الاعناق عديمة الارواح هشيمة الاشباح كالاحجار بين الاحجار عبرة لاولى الابصار ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب وقد قطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث وما أهب عذبات العذاب فى تلك الجثث وما أحسن عبارات القلوب بقبح ذلك الشعث وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث هذا حساب من قتل فقد حصرت السنة الاقلام عن حصره وعده وأما من أسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده ولقد رأيت فى الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفى بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس وهنالك العتاة عناه والعداة عراه وذوو الاسرة أسرى وأولو الاثرة عثرى والقوامص قنائص والفوارس فرائس وغوالى الارواح رخائص ووجوه الداوية عوابس والرؤس تحت الاخامص فكم أصيد صيد وقائد قيد وقيد وملك مملوك وهاتك مهتوك وحر فى الرق ومبطل فى يد المحق ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه الطاغوت وهو الذى اذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصرانى وركع وهم يزعمون انه من الخشبة التى يزعمون انه صلب عليها معبودهم وقد غلفوه بالذهب الاحمر وكللوه بالدر والجوهر وأعدوه ليوم الروع المشهود ولموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس وحملته الرؤس تبادروا اليه وانثالوا عليه ولا يسع أحدهم عنه التخلف وللمتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك وهو أشد مصاب لهم فى ذلك المعترك فان الصليب السليب ماله عوض ولا لهم فى سواه

غرض والتأله له عليهم مفترض فهو آلههم تعفر له جباههم وتسبح له أفواههم يتغاشون عند احضاره ويتعاشون لابصاره ويتلاشون لاظهاره ويتغاضون اذا شاهدوه ويتواجدون اذا وجدوه ويبذلون دونه المهج ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم ووهت اصلابهم وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما فكانهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب فهلكوا قتلا وأسرا وملكوا قهرا وقسرا ولما صح الكسر وقضى الامر وتمكن النصر وسكن البحر ضرب السلطان فى تلك الحومة دهليز السرادق وتوافت اليه حماة الحقائق ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد وجدد الاستبشار بما وجد واحضر عنده من الاسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه وقال فى كتاب الفتح وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى فقدم بداية مقدم الداويه وعدة كثيرة منهم ومن الاسبتاريه وأحضر الملك كى وأخوه جفرى وأوك صاحب جبيل وهنفرى والابرنس ارناط صاحب الكرك وهو أول من وقع فى الشرك وكان السلطان نذر دمه وقال لا يجان عند وجدانه عدمه فلما حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له كم تحلف وتحنث وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الترجمان عنه انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وماسلكت غير السنن المسلوك وكان الملك يلهث ظمأ ويميل من سكرة الرعب منتشيا فآنسه السلطان وحاوره وقثا سورة الوجل الذى ساوره وسكن رعبه وامن قلبه وأمر له بماء مثلوج فشربه وأطفأ به لهبه ثم ناول الملك الابرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه فقال السلطان للملك لم تأخذ فى سقيه منى إذنا فلا يوجب ذلك له منى أمنا ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل اصلاهما ولم ينزل الى ان ضرب سرادقه وركزت اعلامه وبيارقه وعادت الى الحمى عن الحومة فيالقه فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه وحين صرع أمر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حتى أخرج فارتاع الملك وانزعج فعرف السلطان انه خامره الفزع وساوره الهلع وسامره الجزع فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكنه وقال له ذاك ذئب أردته وغدرته كما تراه غادرته وقد هلك بغيه وبغيه ثم جمع الاسارى المعروفين وسلمهم الى والى قلعة دمشق الناصح الغيدى فقال لهم أنتم تحت قيدى وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الايدى وأمرهم ان يأخذوا خط الصفى ابن القابض فى دمشق بوصولهم ويحتاط عليهم فى اغلالهم وكبولهم فتفرق العسكر بمن ضمته أيدى السبى أيدى سبا وهادتهم الوهاد والربى قال ولما أصبح السلطان يوم الاحد استقام على الجد وخيم على طبريه وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالامان ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الايمان فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها وسارت الى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها وخالها وولى طبرية قايماز النجمى وكانت طبرية فى عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقا وجبل عوف والحيانيه والسواد وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران فخلصت المناصفات وصفت الصفات وأمنت الآفات هذا والسلطان نازل ظاهر طبريه وقد طاب البريه وعسكره قد طبق البريه فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين طلب الاسارى من الداويه والاسبتاريه وقال أنا أطهر الارض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداه ولا يقلعان عن المعاداه ولا يخدمان فى الاسر وهما أخبث أهل الكفر فتقدم باحضار كل أسير داوى واسبتارى ليمضى فيه حكم السيف ورأى البقيا عليه عين الحيف ثم علم ان كل من عنده أسير لا يسمح به وانه يضن بعطبه فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين فأتوه فى الحال بمئتين فأمر باعطابهم وضرب رقابهم ومحو حسابهم وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعه والمتصونة المتصوفه والمتجمة المتصرفه ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفه فسأل كل واحد فى قتل واحد وسل سيفه وحسر عن ساعد والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس والعساكر صفوف والامراء فى السماطين وقوف فمنهم من فرى وبرى فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه وشاهدت هناك الضحوك القتال ورأيت منه القوّال الفعال فكم وعد أنجزه وحمد أحرزه وأجر استدامه بدم اجراه وبر اعتنق اليه بعنق براه

وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون وتستبدل حركاتهم بالسكون وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم الى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس فكتب الى الصفي بن القابض نائبه بدمشق ان يضرب عنق من يجده من الداوية والاسبتاريه فامتثل الامر في إرهاقهم وضرب أعناقهم فما قتل الامن عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم وما أسلم الا آحاد حسن اسلامهم وتأكد بالدين عزامهم قال العماد ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان اراقة دم الابرنس حتى حدثني الامير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس وهو ذو البيت الكبير والحسب الجليل وكان جده صاحب افريقية والقيروان وكانوا يتوارثون ملكه الى قريب من هذا الزمان ذكر ان الاجل الفاضل حدثه ان السلطان لما عاد الى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران وذلك في سنة اثنتين وثمانين وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الانين فقلت له ما معناه قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه فانذر انك اذا أبللت من هذا المرض تقوم بكل ما لله من المفترض وانك لا تقاتل من المسلمين أحدا أبدا وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا وانك اذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقمص وابرنس الكرك تتقرب الى الله باراقة دمهما فبهما يتم وجود النصر الا بعدهما فأعطاه يده على هذا النذر ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر وخلصه اخلاصه في مرضاة الله فأبل من مرضته واستقل بنهضته واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته ثم جرى من مقدمات الجهاد وتتائجها ما جرى وخيم السلطان في جموع الاسلام بعشترا وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل وطي المراحل ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الاجل الفاضل فقال له ليكن نذرك على ذكرك واستزد نعمة الله عندك بمزيد شكرك ولا تحط غير قمع أهل الكفر بفكرك فما أنقذك الله من تلك الورطة وانعشك من تلك السقطة الا ليوفر حظك من هذه الغبطة فتوكل على الله عازما وجاز الاردن جازما وارعب جاش الكفر وكسر جيوشه وثل عروشه ووقع في الشرك أبرنس الكرك فرقي بضرب عنقه نذره وأما القمص فانه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره ولما وصل الى طرابلس أخافه في منامه القدر وجاءه في صفوه الكدر وتسلمه مالك الى سقر

﴿فصل﴾ هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين هو عين ما ذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق اختصرته منهما وهو مطول فيهما وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فاحببت ايراده على وجهه لما فيه من شرح ما تقدم وتقويته وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها أو مخالفة لبعض ما ذكره قال القاضي أبو المحاسن بن شداد لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك فسير الى حلب من يحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم فسار حتى نزل بارض الكرك منتظرا لاجتماع العساكر المصرية والشاميه وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على ما في طريقهم من البلاد الساحليه ففعلوا ذلك وأقام رحمه الله بارض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الى الشام وامنوا غائلة العدو ووصل ثقل مصر ومعه بنت الملك المظفر وما كان له بالديار المصريه وتأخرت عنه العساكر الحلبيه بسبب اشتغالها بالفرنج بارض انطاكية وبلاد ابن لاون وذلك انه كان قدمات ووصى لابن أخيه لاون بالملك وكان الملك المظفر بحماه وبلغ الخبر السلطان فامره بالدخول الى بلاد العدو واجماد نائرته فوصل تقي الدين حلب ونزل في دار العفيف بن زريق وانتقل الى دارطهان وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب الى حارم ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل وعاد السلطان فوصل الى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الاول ولقيه ولده الافضل ومظفر الدين وجميع العساكر وكان تقدم الى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد فصالحهم وتوجه الى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاه فسارت العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل يقدمهم مسعود بن الزعفراني وعسكر ماردين الى ان أتوا عشترا فلقيهم السلطان وأكرمهم ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الاخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعه وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لا سيما أوقات صلاة الجمعه تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابه وبلغه ان الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض

عكا

عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ورحل من هنالك ونزل غربى طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا ان الفرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلتهم فنزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها فى ساعة من نهار وامتدّت الايدى اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل وامتنعت القلعة وحدها فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها فاخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الفرنج فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك فنزل على طبرية من يحفظ قلعتها ولقى العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها وحال الليل بين الفئتين فباتتا على مصاف شاكيتين فى السلاح الى صبيحة الجمعة فركب العسكران وتصادما وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا ولم تزل الحرب الى ان حال بينهم الظلام وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمه والامور الجسيمه مالم يحك عن من تقدّم وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه فطلب كل من الفئتين مقامه وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس وتحقق المسلمون ان من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم الا الله وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره وأجراه على وفق ماقدره فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد فالقى الله الرعب فى قلوب الكافرين (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكان القمص ذكى القوم والمعيهم فرأى امارات الخذلان قد نزلت باهل دينه ولم يشغله ظن مجانسة جنسه عن يقينه فهرب فى أوائل الامر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده وامن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب فانهزمت منهم طائفة فتبعها ابطال المسلمين فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل حطين وهى قرية عنده وعندها قبر النبى شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حولهم النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفا من القتل فاسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الاسر خوفا على نفسه ولقد حكى لى من أثق به انه لقى بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم وأما القمص الذى هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابه ذات الجنب فاهلكه الله بها وأما مقدموا الاسبتارية والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم وأما البرنس ارناط فكان السلطان قد نذر انه ان ظفر به قتله وذلك انه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية فى حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين فقال مايتضمن الاستخفاف بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال قولوا لمحمد كم يخلصكم وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس فى دهليز الخيمة فانها لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسارى وبمن وجدوه من المقدّمين ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس ارناط وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها وكان على اشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس ارناط فقال السلطان للترجمان قل للملك انت الذى تسقيه والا أنا ماسقيته وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد بذلك الجرى على مكارم الاخلاق ثم أمر بمسيرهم الى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئا ثم عاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم فاقعد الملك فى الدهليز واستحضر البرنس ارناط واوقفه على ماقال وقال ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النيمجاه وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار فاخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك فى انه يثنى به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك وأما هذا فانه جاوز حده فجرى ماجرى وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح فى يوم الاحد فنزل رحمه الله على طبرية وتسلم فى بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها الى يوم الثلاثا قلت وذكر محمد بن القادسى فى تاريخه انه ورد فى هذه السنة كتب الى بغداد فى وصف هذه الوقعة منها كتاب من عبد الله

ابن أحمد المقدسي يقول فيه (كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) وفيه (ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفينا بعشر معشار نعمته التى أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم فانا خرجنا الى عسكر صلاح الدين وتلاحق الاجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر واربل فجمع صلاح الدين الامراء وقال هذا اليوم الذى كنت أنتظره وقد جمع الله لنا العساكر وأنا رجل قد كبرت وما أدرى متى أجلى فاغتنموا هذا اليوم وقالوا والله تعالى لا من أجلى فاختلفوا فى الجواب وكان رأى أكثرهم لقاء الكفار فعرض جنده ورتبهم وجعل تقى الدين فى الميمنة ومظفر الدين فى الميسرة وكان هو فى القلب وجعل بقية العسكر فى الجناحين ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الاقحوانة فتركوا بها اثقالهم وساروا حتى نزلوا بكفرسبت فأقاموا يومين ينتظرون ان يبرز لهم الكفار وكان عسكر الكفار على صفورية فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية فقدم فرسانه وجماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا فى نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر ان الكفار قد توجهوا الينا فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقيهم ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم وصار قلب المسلمين خلفهم فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافهم ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمى فاقتلع المسلمون منهم فوارس وقتلوا خيالة ورجالة فانحاز المشركون الى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام وأقام الناس حولهم الى ان انتصف النهار وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم فانهزموا لا يلوون على شئ ولم يفلت منهم الا نحو من مائتين وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفا وقيل ثلاثة وعشرين ألفا لم يتركوا فى بلادهم من يقدر على القتال الا قليلا وكان الذى أسر الملك هو درباس الكردى وغلام الامير ابراهيم المهرانى أسر الابرنس وقتل صلاح الدين الابرنس بيده لانه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر ثم عاد صلاح الدين الى طبرية فأخذ قلعتها بالامان ثم ضرب أعناق الاسارى الذين كانوا فى العسكر وأرسل الى دمشق فضربت اعناق الذين بها منهم) قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التى ماسمع بها قط هذا ذكر بعضها مختصرا مع انه لا يقدر أحد يصف ذلك لان الامر أكبر من ذلك الذى يبشر به المسلمون ان مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالامان واجتمع عسكر الافرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبى صلى الله عليه وسلم وقتل من الافرنج ثلاثون ألفا وكان عدد الافرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل وأسر منهم ثلاثون ألفا وبلغ ثمن الاسير بدمشق ثلاثة دنانير واستغنى عسكر الاسلام من الاسرى والاموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر وهو مجروح ثلاث جراحات وأخذ جميع أمراء الفرنج وكم قد سبى من النساء والاطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده فى المناداة بيعة واحدة ولقد بيع بحضورى رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارته منكسا ودخل به القاضى ابن أبى عصرون الى دمشق وكل يوم يرى من رؤس الفرنج مثل البطيخ وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجئ من يشتريها من كثرة السبى والغنائم قال وفى كتاب آخر (وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف وقتل الباقون واستأسروهم وكذلك الملوك) قلت وبلغنى ان بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير وكان محتاجا الى نعل فباعه بها فقيل له فى ذلك فقال أردت ان يذكر ذلك ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم ان بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد وما أحسن ما قال أبو الحسن ابن الذروى من قصيده

شرحت لمتن الدين بالسمر والظبى ✻ من المجد معنى كان من قبل يغمض

وما كاد جيش الروم يبرم كيده ✻ الى ان سرت منك المهابة تنقض

حميت ثغور المسلمين فأصبحت ✻ ثغورا بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملوك الكفر حتى تركته ✻ وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض

وكان القاضى الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق فلما بلغته كتب الى السلطان (ليهن المولى ان الله قد أقام به الدين القيم وانه كما قيل أصبحت مولاى ومولى كل مسلم وانه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهره وأورثه

الملكين ملك الدنيا وملك الآخره كتب المملوك هذه الخدمه والرؤس الى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها وكلما فكر الخادم ان البيع تعود وهى مساجد والمكان الذى كان يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد جدّد لله شكرا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه وجزاء يوسف خيرا عن اخراجه من سجنه والمماليك ينتظرون أمر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عوّل على دخول حمام طبريه تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان واليمن وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن والالسنة بعد فى هذا الفتح شرح طويل وقول جليل) وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين لم يذكر منها شيأ هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس وبعضها عند فتح القدس فنقلت الى هذا المكان منها ما يتعلق به والباقى يذكر فى مكانه قال

يا يوم حطين والابطال عابسة * وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا * معفرا خدّه والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى راس البرنس فقد * أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس فى دمه * كانه ضفدع فى الماء قد غطسا
مازال يعطس مزكوما بغدرته * والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عرّى ظباه من الاغماد مهرقة * دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه فى دماء القوم منغمس * من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا * وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله

سحبت على الاردنّ ردنا من القنا * ردينية ملدا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم * ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن * معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا * أساود تبغى من نحور العدا نهسا
أتوا شكس الاخلاق خشنا فلينت * حدود الرقاق الخشن اخلاقها الشكسا
طردتهم فى الملتقى وعكستهم * مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤسهم * ودأبك فى الاحسان ان تطلق المكسا
كسرتهم اذ صح عزمك فيهم * ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم * دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم * ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضى فراشهم * صلاء فزادت من خمودهم قبسا
وقد خشعت أصوات ابطالها فما * يعى السمع الا من صليل الظبى همسا
تقاد بأماء الدماء ملوكهم * أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها * وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الاسواق لا راغب لها * لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يبسا رأس البرنس الذى به * تندى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماضى الغرار لغدره * وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت به * وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا

نسفت به رأس البرنس بضربة * فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوّغ في أوداجه دم بغيه * فصال عليه السيف يحسه لحسا
بعثت امام أمة النار نحوها * فزار امام ارناطها ذلك الحبسا
ولله نص النصر جاء لنصله * فلاقونسا ابقى لرأس ولاقنسا
حكى عنق الداوى صل بضربة * طرير الشباعود المضرابه حسا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل * وأنت وهبت الغانمين به الخمسا
وقد طاب ريانا على طبرية * فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

وللشهاب فتيان الساغورى من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم * يتبدامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم * فولغن في علق النجيع الاحمر
فهناك لم يرغير نجم مقبل * في أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذى من جيشهم لم يخترم * ومن الذى من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت * بالسبي بالثمن الاخس الاحقر
سقت المماليك الكرام ملوكهم * كأسا به سقت اللئيم الهنفرى
وعجمت عود صليبهم فكسرته * وسواك الفاه صليب المكسر
أغلى الاداهم من أسرت وأرخصت * بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الارض يحسد غربها * بك فهو داع دعوة المستنصر
لا يعدمنك المسلمون فكم يدا * أوليتهم معروفها لم تنكر
آمنت سربهم وصنت حريمهم * ودرأت عنهم قاصمات الاظهر
ما ان رآك الله الا آمرا * فيهم بمعروف ومنكر منكر
متواضعا لله جل جلاله * وبك أضمحلت سطوة المتكبر
لم يخل سمع من هناء مهنئ * للمسلمين ومن سماع مبشر
واستعظم الاخبار عنك معاشر * فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر
مضت الملوك ولم تنل عشر الذى * أوتيته من منجح أومفخر

وقال أبو الحسن على بن الساعاتى فى فتح طبريه

جلت عزماتك الفتح المبينا * فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما * غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما * يعز على العوالى ان يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء * وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت فى وجنة الايام خالا * وفى جيد العلا عقدا ثمينا
فيالله كم سرت قلوبا * ويالله كم أبكت عيونا
وما طبرية الاهدى * ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء * وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا * يصد الليث ان يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالى * فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الارض طرا * سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت * وغاية كل قاس ان يلينا

قضيت فريضة الاسلام منها ❊ وصدقت الامانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا ❊ وترضى عنك مكة والحجونا
فلو ان الجهاد يطيق نطقا ❊ لناداك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح آهلها ظلاما ❊ وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء ❊ يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك فى جماجمهم غناء ❊ لذيذ علم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة العوالى ❊ فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا ❊ بروق القاضبات لما هدينا
فكم حازت قدود قناك منها ❊ قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات ❊ كغيد نداك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى ❊ بنان تفضح الغيث الهتونا
أعدت بها الليالى وهى بيض ❊ وقد كانت بها الايام جونا
فليس بعادم مرعى خصيبا ❊ اخو سغب ولا ماء معينا
فلا عدم الشآم وساكنوه ❊ ظبى تشفى بها الداء الدفينا
سهاد جفونها فى كل فج ❊ سهاد يمنع الغمض الجفونا
فالمم بالسواحل فهى صور ❊ اليك واحق الهام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا ❊ سطاك لكان مكتئبا حزينا
أدرت على الفرنج وقد تلاقت ❊ جموعهم عليك رحى طحونا
ففى بيسان ذاقوا منك بؤسا ❊ وفى صفد أتوك مصفدينا
لقد جاءتهم الاحداث جمعا ❊ كأن صروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ولا مسلام ❊ فلست بمبغض زمنا خؤونا
لقد جردت عزما ناصريا ❊ يحدث عن سناه طور سينا
فكنت كيوسف الصديق حقا ❊ له هوت الكواكب ساجدينا
لقد أتعبت من طلب المعالى ❊ وحاول ان يؤس المسلمينا
وان تك آخرا وخلاك ذم ❊ فان محمدا فى الاخرينا

قال ابن أبى طى حدثنى والدى عن احد التجار قال كنت بالموصل فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرت الشيخ عمر الملا فدخل اليه رجل فقال أيها الشيخ رأيت البارحة فى النوم كانى بارض غريبة لا أعرفها وكأنها مملوءة بالخنازير وكأن رجلا فى يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون اليه فقلت لرجل هذا عيسى بن مريم هذا المهدى قال لا فقلت من هذا قال هذا يوسف مازادنى على ذلك قال فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا وقالوا انه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف وحدست الجماعة انه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب وكان المستنجد بالله قد ولى الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه قال وانسيت انا هذه الوقعة فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله قال وحدثتنى ظئر لى من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر قالت كانت والدة السلطان تخبر انها اتيت فى نومها وهى حامل بالسلطان فقيل لها ان فى بطنك سيفا من سيوف الله تعالى

❊(فصل)❊ فى فتح عكا وغيرها وهى بالالف الممدوده ويدل على ذلك انه يقال فى النسبة اليها عكاوى وقد وجدت ذلك فى شعر قديم ومنهم من يقول عكه بالهاء ومثل ذلك حصن عرقه وبعضهم يقول عرقا بالالف ونهر تورا وبعضهم يقول نهر توره بالهاء قال القاضى ابن شداد ثم رحل السلطان طالبا عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر

وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الاولى فأخذها واستنقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء اربعة آلاف نفر واستولى على ما فيها من الاموال والذخائر والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعة فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والاسر قال العماد ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثا والتوحيد ظاهر على التثليث والطيب قد امتاز من الخبيث ونزل بأرض لوبية عشيه وأعادها بازهار بنوده وأنوار جنوده روضة موشيه ثم أصبح سائرا الى عكا فاشيا سرّه بارا بأهل الدين بره وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرا الى نصرته من بثرى به من يثربه وهذا الامير عز الدين ابن فليتة القاسم ابن المهنا الحسيني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج وهو ذو شيبة تقد كالسراج ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبه مأمون المحبه مبارك الطلعه مشاركا في الوقعه فما تم فتح في تلك السنين الا بحضوره ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسائرا ورأيت السلطان له مشاورا ومحاورا وأنا أسير معهما وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين فما كان فيها من يحميها فما صدّقنا كيف نملكها ونحويها وظهر على السور أهلها لاجل الممانعه والثبات على المدافعه وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقه وأرواح جلدهم الزاهقه ووقفنا نتأمل طاولها ونؤمل حصولها وخيم السلطان بقربها وراء التل وانبثت عساكره في الوعر والسهل وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الاطراب تقول متى يجمع الاصباح والاصحاب فما هجدنا ولا غرارا ولا وجدنا من الفرح قرارا والسلطان جالس ونحن عنده وهو يحض جنده ويقدح معهم في اقتباس الارآ زنده ومنا من يستنجز وعده ومنا من يستميح رفده ومنا من يواصله بالدعاء ومنا من يشافهه بالهناء وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه ووقف كالاسد في عريسه ووقفنا بازاء البلد صفوفا وأطللنا على اطلاله وقوفا فخرج أهل البلد يطلبون الامان ويبذلون الاذعان فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ووهب لهم عصمة الانفس والاموال وكان في ظنهم انه يستبيح دماءهم ويسبي ذريتهم ونساءهم وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقله فاغتنموا تلك المهله وفتح الباب للخاصه واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوى الخصاصه فان القوم ما صدّقوا من الخوف المزعج والفرق المحرج كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون وعندهم انهم اذا نجوا بأنفسهم انهم يغنمون فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه واسام فيها سرحه فحصلوا على دور اخلاها اربابها واموال خلاها اصحابها وكالاجل الامان نهابها فطاب لاولئك نهابها وجعل السلطان للفقيه عيسى الهكارى كل ما كان للداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع فأخذها بما فيها من غلال ومتاع واستخرجوا الدفائن وولجوا المخازن وداروا الاماكن وكذلك مماليك الملك الافضل وأصحابه وولاته ونوابه نبشوا المحارز وفتشوا المراكز واستباحوا الاهرا واجتاحوا الاشيا وكان السلطان قد فوّض عكا وضياعها ومعاقلها وقلاعها الى ولده الاكبر الملك الافضل نور الدين على ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الاموال ثم قال ومن جملة ذلك انهم احتاطوا بغير علمي على دار باسمي فباعوا منها متاعا بسبعمائة دينار وأخلوها مما كان فيها من آلات وأذخار وقلدوني المنة في تحصيل تلك الدار فانها كانت من أنفس العقار وسلموها الى غلام صديق لي يصونها ويقوم بحفظها والذب عنها والدفاع دونها فذكر ان الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوها بما قيمته سبعون دينارا وان الاوّلين نقلوا منها من الذخر أوقارا قال وانما وصفت هذا ليعلم ما غنموه والتهبوا على حيازته والتهموه وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فافنى قنودها واستوعب موجودها ونقل قدورها وانقاضها وحوى جواهرها واعراضها وقال في كتاب الفتح وخلى سكان البلد دورهم ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها وافتقر من الفرنج أغنياء واستغنى من أجنادنا فقراء ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عدة ليوم الشدائد وعمدة

لنجح المقاصد فرتعت فى خضرائها بل فى صفرائها وبيضائها سروح الاطماع وطال لمستحليها ومستحليها الامتاع بذلك المتاع قال فى البرق وقرئ على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس يعنى هذا المكان وذلك سنة ثمان وثمانين فقال السلطان هذه رفيعة على ثلاثة اثنان منهم فى جوار الرحمه والآخر باق فى مقر العصمه يعنى بالاثنين الفقيه عيسى وتقى الدين وبالآخر الباقى ولده نور الدين قال ولعمرى هو كما ذكره لكن الافضل ماحصل له ولخواصه بل لذوى اختصاصه واستخلاصه وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فجئنا الى كنيستها العظمى فازحنا عنها البؤسى بالنعمى وحضر الاجل الفاضل فرتب بها المنبر والقبلة وهى اوّل جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح وكان الخطيب والامام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبى النجيب الشهروردى وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف ومن كتاب فاضلى الى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين (صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف وتفرق أهلها بين الاسر والقتل وعاجلهم الامر فلم يقدروا على الخداع والختل وجاء الملك ومن معه من كفاره ولم يشعران ليل الكفر قد آن وقت إسفاره فاضرم الخادم عليهم نارا ذات شرار أذكرت بما أعد الله لهم فى دار القرار فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد وتسنموا هضبة رجاء ان تنجيهم من حر السيوف الحداد ونصبوا للملك خيمة حمراء وضعوا على الشرك عمادها وتوالت الرجال حفظ اطنابها فكانوا أوتادها فاخذ الملك أسيرا وكان يوما على الكافرين عسيرا وأسر الابرنس لعنه الله فصدق بذره وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره وأسر جماعة من مقدمى دولته وكبراء ضلالته وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا ولم يبق أحد من الديوية فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر وتداول فيه القتل والاسر اصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله وتصرف انصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله) قال العماد ومن جملة البشائر بكسرة حطين (ولما أحيط بالقوم وى ملكهم الى جبل يعصمه من العوم فاسعه السيف لاعاصم اليوم واستولى الخذلان عليهم بأسرهم وبردت أيدى المؤمنين بحرّ قتلهم وأسرهم ولم يبق لهم باقيه وغصت بقتلاهم فى الدنيا والآخرة أرض الله الواسعه ونار الله الحاميه فما يطأ من يصل الى مخيمنا الاعلى رءوسهم الباليه وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم الا القمص وهو مسلوب ولا بد ان ندركه فهو مطلوب وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الابرنس صاحب الكرك الغدار كافر الكفار ونشيدة النار فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا وسرنا الى عكا وهى بيضة ملكهم وواسطة سلكهم ومركز دائرة كفرهم ومجمع جمع برهم وبحرهم فتسلمناها بالامان والصخرة المقدّسة الآن بنا تصرخ وتستغيث وعباد الله الصالحون قد وصلت اليهم بوعد الله الصادق المواريث والبشارة بفتح القدس لاتتأخر والهم بعد هذا الفتح السنى على ذلك تتوفر والحمد لله الذى تتم الصالحات بحمده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده)

﴿فصل﴾ فى فتح نابلس وجملة من البلاد الساحليه بعد فتح عكا وطبريه وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك قال العماد وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما وعلى سائر بلاد الساحل مصمما وكان قد كتب الى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه فوصل بعسكره وفتح فى طريقه حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة فقصده من عسكرنا القصاد ووفد اليه الوفاد وأمره السلطان بأن يقيم فى ذلك الجانب جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الاهلون معه بالنصر قال وتوجه عدة من الامراء والعسكريه الى الناصرة وقيساريه والبلاد المجاورة لعكا وطبريه ومضى كل فريق فى صوب وآبوا بالغنيمة والسبى خير اوب قال فأما الفولة فهى قلعة للداوية حصينه وفيها ذخائرهم وأموالهم فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها الا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها كدبوريه وجينين وزرعين والطور زاد فى كتاب الفتح واللجون وبيسان والقيمون وجميع مالعكا وطبرية من الولايات والزيب ومعليا والبعنه واسكندرونه ومنوات قال وتوجه مظفر الدين كوكبرى الى الناصرة فاستباحها وصفورية من سكانها وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية فافتتحوها بالسيف وتسلمت بعدها حيفا وارسوف واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف

والخسوف وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر قال وأما نابلس فان أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفى سلك الرعية مع الفرنج منتظمين وهم يجبون كل عام منهم قرارا ولا يغيرون لهم شرعا ولا شعارا فلما عرفوا كسرهم وانهم لا يرجون جبرهم خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا وكبسهم أهل الضياع فى الدور والرباع وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع وأوقعوا بضعفائهم وضايقوا الحصون على أقويائهم وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين وهو عزيز عند خاله ملئ بفضله وافضاله فاقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها ونواحيها وقلاعها فتوجه اليها بعسكره فأوّل ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الاقساكنيسة منذ فارقه الاسلام وهو متعبدهم المعظم والمشهد المكرم وقد حجبوه بالاستار وحلوه بالفضة والنضار وعينوا له مواسم الزوار وقومته من الرهابين فيه مقيمه ولا يؤذن فى الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمه فدخله وحوى ما فيه وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد وفتح للمسلمين أبوابه وأظهر للمصلين محرابه ثم سار الى نابلس ففتحها بالامان واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان واجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده وعمرت بعدله ورفده قال العماد وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أوّلها

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا * وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ما طبت نفسا ولا استحسنت بعدكم * شيأ نفيسا ولا استعذبت لى نفسا
قلبى وصبرى وغمضى والشباب وما * ألفته من نشاطى كله خلسا
وكيف يصبح أو يمسى محبكم * وشوقكم يتولاه صباح مسا
عادت معاهدكم بالجزع دارسة * وان معهدكم فى القلب ما درسا
وكنت أحدس منكم كل داهية * وما دهانا من الهجران ما حدسا
لما هدت نار شوقى ضيف طيفكم * قريته بالكرى اذ زار مقتبسا
ورمت تأنيسه حتى وهبت له * انسان عينى أفديه فما أنسا
انا الخيال نحولا فالخيال اذا * ما زارنى كيف يلقى من به التبسا
لهفى على زمن قضيته طربا * اذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
عسى يعود شبابى ناضرا ومتى * أرجو انضارة عود للشباب عسا
وشادن يفرس الآساد ناظره * فديته شادنا للاسد مفترسا
فى العطف لين وفى اخلاقه شوس * يالين عطفيه جنب خلقه الشوسا

ومنها فى المديح

ان بان لبس مضينا لاجئين الى الـ * ـفتى الحسام بن لاجين بنابلسا
يميت اعـداء دوأساونائله * يحيى رجاء الذى من نجحه أيسا
ممزق المازق المنسوج عثيره * وقد محا اليوم ليل النقع فانطمسا
لازلت مستويا فوق الحصان وفى * حصن الحفاظ ومن عاداك منتكسا

وسيأتى منها أيضا أبيات عند فتح القدس فى مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله ومن كتاب عن السلطان الى سيف الاسلام أخيه (كاتبنا أخانا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية كان قد وصل الى السواد فجاز العريش وزار الداروم وأجفلت قدامه البلاد ووصل الى يافا ففتحها عنوة ثم حصر مجدل يابا فطلبت منه الامان وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعدوهى

طبريه عكا الزيب معليا اسكندرونه تبنين هوتين الناصره الطور صفوريه الفوله جينين ارعين دبوريه عفربلا بيسان سبسطيه نابلس اللجون اريحا سنجل البيره يافا ارسوف قيساريه حيفا صرفند صيدا بيروت قلعة أبى الحسن جبيل مجدل يابا جبل الجليل مجدل حباب زلداروم غزه عسقلان تل الصافيه التل الأحمر الاطرون بيت جبريل جبل الخليل بيت لحم

لدّ

لدّ الرمله قرتيا القدس صوبا هرمز سلع عفرا الشقيف قال ولم يذكر ما تخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التى ذكرناها اعمال وقرى ومزارع واماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها قال العماد ومما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به الى الديوان وبدأت بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد وجعل بعد عسر يسرا وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا وهوّن الامر الذى ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب الدين بقوله ولقد مننا عليك مرة أخرى فالاولى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابه والاخرى هذه التى عتق فيها من رق الكآبه فهو قد أصبح حرا ريان الكبد الحرّا والزمان كهيئته استدار والحق ببهجته قد استنار والكفر قد ردّ ما كان عنده من المتاع المستعار فالحمد لله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه بعد ان كان جديدا حبله مبيضا نصره مخضرا نصله متسعا فضله مجتمعا شمله والخادم يشرح من نبإ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويمنح الحبور لكافة المسلمين ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخه وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاويه واذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاليه ورأيتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكيه فيوم الخميس الاوّل فتحت طبريه ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسر والكسرة التى ما لهم بعدها قائمه وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهى ظالمه وفى يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ورفعت بها أعلام الايمان وهى أم البلاد وأخت ارم ذات العماد وقد اصدرهذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور وقلب ملك الكفر الاسير بجيشه المكسور مكسور والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الاقدام وأنصار الصليب وكباره وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضه وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضه وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر فأما القتلى والاسرى فانها تزيد على ثلاثين ألفا وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم ورحل الراحل منهم الى الشقاء المقيم وقتل الابرنس كافر الكفار وشديدة النار من يده فى الاسلام كما كانت يد الكليم والبلاد والمعاقل التى فتحت هى طبريه عكا الناصره صفوريه قيساريه نابلس حيفا معليا الفوله الطور الشقيف وقلاع بين هذه كبيرة والملك المظفر تقى الدين ظفره الله مضايق لسور وحصن تبنين والاخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل فى طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة الى عكا وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا اهوأوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه)

(فصل) فى فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجىء المركيس الى صور قال العماد أرسل السلطان الى تبنين لابن أخيه تقى الدين فضايقها وكتب الى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل اليها فى ثلاث مراحل ونزل عليها يوم الاحد الحادى عشر من جمادى الاولى فراسلوا السلطان وسألوا الامان واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فامهلوا وبذلوا رهائن من مقدّميهم ووفوا بما بذلوا وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين فخرج الاسارى مسرورين فسر بهم السلطان وسربهم وأقرهم وقربهم وكساهم وحباهم وآتاهم بعد ردّهم الى مغانيهم غناهم وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه وملك يربحه انه يبدأ بالاسارى فيفك قيودها ويعيد بعد عدمها وجودها فخلص تلك السنة من الاسر أكثر من عشرين ألف أسير ووقع فى أسره من الكفار مائة ألف ولما خلوا القلعه وأخلوا البقعه سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم الى صور وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر من جمادى الاولى وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن وقال القاضى ابن شداد فتحها السلطان عنوة وكان بها رجال أبطال

شديدون فى دينهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصر الله عليهم وأسر من بقى بها بعد القتل ثم رحل منها الى مدينة صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وهو يوم الاربعاء الحادى والعشرون قال العماد سمحت له صيدا فتصدى لصيدها وكانت همته فى قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ووصلنا فى يومين الى صيدا الى منزل فتحها صادين وعن حمى الحق دونها الاهل الباطل صادين ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توعر وصفا من الامر ما ظن انه تكدر فصرفنا الاعنة الى صرفند وهى مدينة لطيفة على الساحل مورود المناهل ذات بساتين وأشجار ورياحين وازهار فأخذناها وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ثم سار فى يومه على سمت بيروت فنزل عليها يوم الخميس وضايقها وحاصرها ثمانية أيام ثم طلبوا الامان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى ومرض العماد فاملى كتاب صلح بيروت ورجع الى دمشق للمداواة ثم وجد الشفاء وعاد الى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتى قال وسامت بيروت بحضورى فكان من سبب ابلالى سرورى بفتحها وحبورى وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم الى صور النهج وعاد الاسلام الغريب فيها الى وطنه وتوطن الدين بها فى مأمنه وسكن فى مسكنه وأما جبيل فان صاحبها أولك كان فى جملة من نقل الى دمشق مع الملك الاسير فضاق ذرعا بسجنه الذى تعجل له فيه عذاب السعير فتحدث مع الصفى بن القابض فى أمره وباح اليه بسره وقال مالكم فى أسرى فائده ولا غنيمة على فتح جبيل زائده وأنا أسلمها بشرط سلامتى فخذوها ولا تفقدونى فقد قامت قيامتى فانهى الصفى حاله واستصوب ما قاله فأمر باحضاره فى قيده والاحتراز من كيده فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وربح نجاته وغنم ومضى اليها من تولاها وانسل منها صاحبها وسلاها وتبعها فتح بيروت وتلاها فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل فى سلك من الفتوح متسق وأمر من الاستقامة متفق وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكنين لمساكنة الفرنج مستسلمين فذاقوا العزة بعد الذله وفاقوا الكثرة بعد القله وصدقت البشائر وصدحت المنابر وظهر عيب البيع وشهر جمع الجمع وقرئ القرآن واستشاط الشيطان وخرست النواقيس وبطلت النواميس ورفع المسلمون رؤسهم وعرفوا نفوسهم وكان كل من استأمن من الكفار يمضى الى سور محمى الذمار فصارت صور عش غشهم ووكر مكرهم وملجأ طريدهم ومنجأ شريدهم وهى التى فر القمص اليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم ولما عرف القمص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها وآوى الى طرابلس وثواها فامتنع بما ملك وكان كما قيل (راح يبغى نجوة من هلاك فهلك) وتعوضت صور عن القمص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بابليس فأدرك ذمار الكفر بعدما أشفى وأيقظ روع الروع بعدما أغفى وضبط صور بمن فيها من مهزومى الفرنج ومنفيها وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه واضرى سراحينه وأخبث ذئابه وانجس كلابه وهو الطاغية الداهيه الذى خلقت له ولامثاله الهاويه ولم يكن وصل الى الساحل قبل هذا العام واتفق وصوله الى مينا عكا وهو بفتحها جاهل وعن فيها من المسلمين ذاهل فعزم على ارساء الشينى بالمينا ثم تعجب وقال ما نرى أحدا من أهليها يلتقينا ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه وبان تندمه وتأخر تقدمه وسأل عن الحال فأخبر بها فتفكر فى النجاة والهواء راكد والقضاء عنه راقد فانه لو خرج اليه مركب لاخذه ولو وقف له قاصد لوقذه فاحتال كيف يخرج بسفينته ولا يدخل مسع فقد سكينته فسأل عن متولى البلد وقال خذوا الى منه أمانا حتى أدخل وأرفع ما معى من المتاع وانقل ما عندى من الثقل فجئ اليه من الافضل بالأمان فقال ما أثق الا بخط يده ولا أنزل الا بعهده الى بلده وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة فما زال يردد الرسل ويدبر الحيل حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعد ما وقع وصار فى صور فزم الامور وجراء الكفر بعد خوره وبصر الشيطان بعد عماه وعوره وأرسل رسله الى الجزائر وذوى الجرائر يستعدى ويستدعى ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعى ويستشير ويستزير ويستنفر ويستنصر وثبت فى صور ونبت وجمع اليه من الفرنج من تشتت وما فتح بلد بالامان الا سار أهله فى حفظ السلطان حتى يصيروا

بصور ويأمنوا المحذور فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحه بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحه فامتلأت وكانت خاليه وانتاشت وكانت باليه وتعالت وكانت معتله وتعقدت وكثرت منحله ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستحدت رمقا بالمهله وتصعبت بعد مقابلتها بالسهله والهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس فان فتحه من كل فتح أنفس والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه ويجمع المتفرق وينظمه

﴿فصل﴾ فى فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها قال العماد لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها غير مكترث بأمرها ولا متحدث فى حصرها ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب ومزاولتها تتعب وليس بالساحل بلد منها أحصن فعطف الاعنة الى ماهو منها أهون وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية فى قيودهما وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبليه متى تمكن باعانتهما من البلاد البقيه وعبر والعيون صور الى صور وما شك المركيس انه بها محصور محسور فلما أرخى من وثاقه واتسع ضيق خناقه حلق فى مطاره وطاره وحرك لغواته أوتارا وتاره واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طى المراحل ونشر القساطل فنزل على عسقلان يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وشديدها قدلان فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا فنصب السلطان عليها المجانيق ورماهم بها وجسر النقاب فسر النقاب وباشر الباشورة فرفع الحجاب واشتد القتال واحتد المصال وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال قد بان عذركم بين نقب السور وجرت حالات وتكررت حوالات وترددت رسالات وقال لهم الملك الاسير لا تخالفوا ما به اشير واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم ولا تخاطروا بغيرى بالكم فانى اذا تخلصت خاصت واذا استنقذت استنقذت وخرج المقدمون وشاوروا الملك ونحوا فى التسليم نحوه الذى سلك وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين واستوفوا بذلك الميثاق واليمين وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة وخرجوا بنسائهم وأموالهم وممن استشهد على عسقلان من الامراء الاكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهرانى وهو أول أمير افتتح بالشهاده واختتم بالسعاده وكان السلطان قد أخذ فى طريقه اليها الرملة وتبنين وبيت لحم والخليل وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية غزة والنطرون وبيت جبريل وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم أطلقه فسلم هذه المواضع الوثيقه كما أخذ مواثيقه كذا قال العماد فى كتاب الفتح وقال فى كتاب البرق وما برح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم المعاقل المجاورة لها والبلاد المتخللة فيما بينها فذكر الداروم وغزة والرملة وتبنين وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام ولد وبيت جبريل والنطرون قال ابن شداد لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعنى ناحية بيروت رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لان العسكر كان قد تفرق فى الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيأ وكانوا قد ضرسوا من القتال ومن ملازمة الحرب والنزال وكان قد اجتمع فى صور يسر الله فتحها كل فرنجى بقى فى الساحل فرأى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة كالرملة وتبنين والداروم فأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا وتسلمها سلخ جمادى الآخره وأقام عليها الى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال قال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فان العدو ملكها فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وذكر ابن القادسى نسخة كتاب كتبه السلطان الى بعض أهله وفيه (انتقلنا الى الجانب الذى فيه القدس وعسقلان ففتحنا قلاعه كلها وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهى حيفا وقيسارية وارسوف ويافا والرملة ولد وتل الصافيه وبيت جبريل والدير والخليل ونازلنا عسقلان وهى المعقل المنيع والحصن الحصين والتل الرفيع وفيهم من القوة والعدة والعدد ما تتقاصر الآمال عن نيل مثله فافتتحناها بما التمام اربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها ونصبت أعلام التوحيد على ابراجها واسوارها وعمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها وكبر المؤذنون فى اقطارها ولم يبق فى الساحل من جبيل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور والعزم مصمم على قصد القدس فالله يسهله ويعجله فاذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا الى صور والسلام) وفى كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال (وقد تفرق العسكر وتوجه قوم الى القدس وابن زين الدين وتقى الدين نازلان على صور وفتحت هونين بالسيف وتبنين

بالسيف واسكندرونه بالسيف) وفى كتاب آخر (ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان فقال له صلاح الدين أنا أجىء اليكم فقال له المنجمون على نجمك ان تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك فقال قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد) قال (ولم يمنعه من ذلك الا فتح صور وما هى شئ يقف عليه وقد خطب لامير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الافرنج) قال العماد وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الامور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها الى جمال الدين ابى محمد عبد الله بن عمر الدمشقى المعروف بقاضى اليمن قال ووصل الى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان واجتمع به على عسقلان فقرت عينه بولده واعتضد بعضده ووضع يده بتأييد الله فى يده وكان قد استدعى بالاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتخب كقطع الليل سحائبها لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غابها رهامها فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى﴾

قال القاضى ابن شداد لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد فى قصده واجتمعت اليه العساكر التى كانت متفرقه فى الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغاره فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره الى الله منتهزا فرصة فتح باب الخير الذى حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه السلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه) وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الاحد الخامس عشر من رجب فنزل بالجانب الغربى وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها الى الجانب الشمالى وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليه المجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى قرنة شماليه ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذى لا يندفع وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقى الله فى قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبى والقتل والاسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ علموا انهم الى ما صار واليه صائرون وبالسيف الذى قتل به اخوانهم يقتلون فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد فانظر الى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدى المسلمين فى مثل زمان الاسرا بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى قلت هذا أحد الاقوال فى ليلة المعراج وفى ذلك اختلاف كثير ذكرناه فى مواضع غير هذا والله أعلم ثم قال القاضى وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن ارباب الخرق والحرف وذلك ان الناس لما بلغهم ما من الله به على يده من فتوح الساحل شاع قصده للقدس فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمس دنانير وعن كل صغير ذكر أو انثى دينارا واحدا قلت كذا قال وسيأتى فى كلام العماد ان على كل صغير دينارين وكذا قال ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه وسيأتى فى كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك فصليت فى يوم الجمعة الآتى ثم قال القاضى فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه والا أخذ أسيرا وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس وأقام عليه رحمه الله يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور قال ولقد بلغنى انه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شئ وكان مائتى ألف دينار وعشرين ألفا وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى

(فصل) هذا الذى ذكره القاضى فى أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعا وقد بسطه العماد فقال رحل السلطان من عسقلان القدس طالبا وبالعزم غالبا وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا والاسلام يخطب من القدس عروسا ويبذل لها فى المهر نفوسا ويحمل اليها نعمى ليحمل عنها بوسى ويهدى بشرى ليذهب عبوسا ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على أعدائها واجابة دعائها وتلبية ندائها واطلاع زهر المصابيح فى سمائها واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه ورده الى سكونه وسكنه واقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الاقصى وجذب قياد فتحه الذى استعصى واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان وكف كف الكفر عنه بايمان الايمان وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس وأدناس أدنى الناس وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت وخفقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها ما عاشت وكان به من مقدمى الفرنج باليان بن بارزان وهو وملكهم فى التسلط شيئان بارزان والبطرك الاعظم وهو النيشانى العظيم الشان والذين أعطتهم حياطة حط بين به من الفرسان الداويه والاسبتارية والبارونيه من ذوى الكفر والشنآن وقد حشروا وحشدوا ونشروا ونشدوا وحميت حميتهم واتت الضيم آنيتهم وحارت غيرتهم وغارت حيرتهم وتبلدوا وتلددوا وقاموا وقعدوا وصوبوا وصعدوا فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران وخمدت نار بطر البطرك وضاقت بالقوم منازلهم فكانت كل دار منها شركا للشرك وقاموا للتدبير فى مقام الادبار وتقسمت افكار الكفار وايس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج وقالوا ههنا نطرح الرؤس ونسلو النفوس ونسفك الدما ونهلك الدهما ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح فهذه الاماكن فيها قامتنا ومنها تقوم قيامتنا وتصيح هامتنا وتصح ندامتنا وتسيح علامتنا وبها غرامنا وعليها غرامتنا وبا كرامها كرامتنا وبسلامتها سلامتنا وباستقامتها استقامتنا وفى استدامتها استدامتنا واذا تخلينا عنها لزمت لامتنا ووجبت ملامتنا ففيها المصلب والمطلب والمذبح والمقرب والمجمع والمعبد والمهبط والمصعد والمرقى والمرقب والمشرب والملعب والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع والمرخم والمخرم والمحلل والمحرم والصور والاشكال والانظار والامثال والاشباه والاشباح والاعمدة والالواح والاجسام والارواح وفيها صور الحواريين فى حوارهم والاحبار فى أخبارهم والراهبين فى صوامعهم والاقساء فى مجامعهم والسحرة وحبالها ومثال السيدة والسيد والهيكل والمولد والمائدة والحوت والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم والمهد والصبى المتكلم وصورة الكبش والحمار والجنة والنار والنواقيس والنواميس قالوا وفيها صلب المسيح وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت وتأله الناسوت واستقام التركيب وقام الصليب ونزل النور وزل الديجور وازدوجت الطبيعة بالاقنوم وامتزج الموجود بالمعدوم وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود واضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت وعنها ندافع وعليها نقارع ومالنا لانقاتل وكيف لاننازع ولاننازل ولاى معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا وتأهبوا وتباهوا وما انتهوا بل تناهوا ونصبوا المجانيق على الاسوار وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار واستشاطت شياطينهم وسرحت سراحينهم وطغت طواغيتهم وأصلتت مصاليتهم وهاج هائجهم وماج مائجهم وحضنتهم قسوسهم وحرضتهم رؤسهم وحركتهم نفوسهم وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم ونصبوا على كل نيق منجنيقا وحفروا فى الخندق حفرا عميقا وشادوا فى كل جانب ركنا وثيقا وفرقوا على كل برج فريقا وجعلوا الى كل طارق بالردى للرد طريقا وأعادوا كل نهج واسع بما وعروه وعوروه به مضيقا وتحمل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقا وخرج جماعة منهم على سبيل اليزك فأدلجوا اليلا واعترضوا عدة من أصحابنا غاره على طريق السلامة ماره وكان قد شذ من المقدمة المنصورة أمير تقدم وما تحرز ولا تحزم وما ظن ان قدامه من له جراءة الاقدام ومن يعتقد ان ربح كفره خسارة الاسلام وهو الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى فوقعوا عليه فى موضع يعرف بالقبيبات فاستشهد رحمه الله ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمه ثم أقبل باقبال سلطانه وأبطال شجعانه واقيال أولاده واخوانه واشبال ممالكه وغلمانه وكرام أمرائه وعظام أوليائه وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى وفريقه الاسنى ويذكر

ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى وقال ان اسعدنا الله على اخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا وأى يد له عندنا اذا أيدنا وانه مكث فى أيدى الكفر احدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه ودامت همم الملوك دونه متوسنه وخلت القرون عنه متخليه وخلت الفرنج به متوليه فما ادخر الله فضيلة فتحه الا لآل أيوب ليجمع الله لهم بالقبول القلوب وكيف لا يهتم بفتح البيت المقدس الاقوى والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى وهو مقام الانبياء وموقف الاولياء ومعبد الاتقياء ومزار أبدال الارض وملائكة السماء ومنه المحشر والمنشر ويتوافد اليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر وفيه الصخرة التى صينت جدة ابهاجها من الانهاج ومنها منهاج المعراج لها القبة الشماء التى هى على رأسها كالتاج وفيه ومض البارق ومضى البراق واضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق ومن أبوابه باب الرحمه الذى يستوجب داخله الى الجنه بالدخول الى الخلود وفيه كرسى سليمان ومحراب داود وفيه عين سلوان التى تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود وهو أول القبلتين وثانى البيتين وثالث الحرمين وهو أحد المساجد الثلاثة التى جاء فى الخبر النبوى انها تشد اليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال ولعل الله يعيده بنا الى أحسن صوره كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره فقال عز من قائل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى) وله فضائل ومناقب لا تحصى ومنه كان الاسراء ولارضه فتحت السماء وعنه تؤثر أنباء الانبياء وآلاء الاولياء ومشاهد الشهداء وكرامات الكرماء وعلامات العلماء وفيه مبارك المبار ومسارح المسار وصخرته الطولى والقبلة الاولى ومنها تعالت القدم النبويه وتوالت البركة العلويه وعندها صلى نبينا بالنبيين وصحب الروح الامين وصعد منها الى اعلى عليين وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه كلما دخل عليها زكريا المحراب ولنهاره التعبد ولليله المحيا وهو الذى أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان ولاجل اجلاله انزل الله سبحانه سبحان وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان فما أجله وأعظمه وأشرفه وأفخمه واعلاه واسناه وأكرمه وأيمن بركاته وأبرك ميامنه وأحسن حالاته واحلى محاسنه وأزين مباهجه وأبهج مزايه وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله الذى باركنا حوله وكم فيه من الآيات التى أراها الله نبيه وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ما وثق على استعادة الآيه مواثيقه وآلاه وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ويرفع باعلاء علمه وتخطر الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه وتصغى الى صرخة الصخره اذنه وسار واثقا بكمال النصره

(فصل) فى نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره قال العماد نزل السلطان على غربى القدس يوم الاحد خامس عشر رجب وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل وسائف ونابل فاستهدفوا للسهام واستوقفوا للحمام وقالوا كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بثنين ودون القمامه تقوم القيامه وبحب سلامتها تقل السلامه وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد ويقسم على حصاره أهل الجلد وأبصر فى شماليه أرضا رضيها للحصار متسعة المجال للاسماع والابصار ممكنة للدنو منه للنقب ان صار من حيز الانصار فانتقل الى المنزل الشمالى يوم الجمعة العشرين من شهر رجب فما أصبح يوم السبت الا على منجنيقات قد نصبت بلا نصب قدام القتال والنزال وفرسانهم فى كل يوم يباشرون دون الباشوره امام جموعهم المحصوره المحسورة المحشوره ويبرزون ويبارزون ويطاعنون ويحاجزون والمطيعون لله عليهم يحملون ومن دمائهم ينهلون وينهلون كما قال الله تعالى فيهم (يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وممن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الدين عيسى بن ملك كان أبوه صاحب قلعة جعبر فانه حاز لشهادته فى المحشر المفخر وأكثر ورود الموت الى ان ورد الكوثر وكان فى كل يوم يفترس فوارس ويلقى بشر وجهه وجوه المنون العوابس فاغتم المسلمون من صرعته وهان عليهم اتلاف المهج بعد تلاف مهجته فركبوا اكتاف الرهج حتى وصلوا الى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه واحرقوه وصدقوا وعد الله فى القتال لاعدائه وصدقوه ولما غصتهم الحرب ووقع السور واتسع النقب فصعب عليهم الهين وهان لنا الصعب عقدوا ما بينهم مشوره وقعدوا ما بينهم مضروره وقالوا ما لنا الا الاستئمان فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان واخرجوا كبراءهم ليؤخذ والهم

الامان فأبى السلطان الاقتالهم وتدميرهم واستئصالهم وقال لا أخذ القدس الاكما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنه فانهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستتر بسنه فانا افنى رجالهم قتلا واحوى نساءهم سبيا فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه وطلب الامان لقومه وتمنع السلطان وتسامى فى سومه وقال لا أمن لكم ولا أمان وماهوانا الا ان نديم لكم الهوان ونأخذ مملككم قسرا ونوسعكم قتلا وأسرا ونسفك من الرجال الدما ونسلط على الذرية والنساء السبا وأبى فى تأمينهم الا الابا فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع وقالوا اذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا من احسانكم وأيقنا انه لانجاة ولانجاح ولاصلح ولاصلاح ولاسلم ولاسلامه ولا نعمة ولا كرامه فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم ونقابل الوجود بالعدم ونلقى أنفسنا على النار ولا نلقى بأيدينا الى التهلكة والعار ولايجرح مناواحد حتى يجرح عشره وانا نحرق الدور ونخرب القبه ونترك عليكم فى سبينا السبه ونقلع الصخره ونوجدكم عليها الحسره وقبة الصخرة نرميها وعين سلوان نعميها والمصانع نخسفها والمطالع نكسفها وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غنى وفقير وكبير وصغير فنبدأ بقتلهم وشت شملهم وأما الاموال فانا نعطيها ولانعطيها وأما الذرارى فانا نسارع الى اعدامها ولانستبطيها فلايحصل لكم سبي ولايقبل لكم سعي ولايسلم عمر ولا عماره ولانضار ولانضاره ولانساء ولاصبيان ولاجماد ولاحيوان فأى فائدة لكم فى هذا الشح وكل خسر لكم فى هذا الربح ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ولايصلح السوء سوى الصلح فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب ان نحسبهم اسارى فنبيعهم نفوسهم ونعم لصغار الجزية رؤسهم ويدخل فى القطيعة مرؤسهم ورئيسهم واستقر الحال بعد مراودات ومعاودات ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطه ويحصل منها الحوطه اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم على انه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه أوامتنع منه وماسلمه ضرب عليه الرق وثبت فى تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة وكل صغيرة أوصغير ديناران الذكر والانثى فيهما سيان ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدمو الداوية والاسبتار فى هذا الضمان وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالاداء ولم يتكل عن الوفاء فمن سلم خرج عن بيته آمنا ولم يعد اليه ساكنا وسلموا البلد يوم الجمعه السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعه وردوه بالرغم والغصب لا الوديعه وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان فأغلقت دونهم الابواب ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النواب ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير يحصر الخارجين ويحسر الوالجين فمن استخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج ولوحفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حفظه لكن تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب مناهج الرشد بالرشا فمنهم من ادلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفيا فى الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج مخفيا بزى الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد واتفقا الاكابر استنابوا أصاغر فأقاموا فى تقصيرهم المعاذر وقنوا لانفسهم الذخائر وادعى مظفر الدين كوكبرى ان منهم جماعة من أرمن الرها وعددها ألف نسمة فجعل اليه أمرها وكذلك صاحب البيرة ادعى ماعدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمنى ذكر انهم من بلده وان الواصل منهم الى القدس لاجل متعبده وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها وحصل له مرفقها ثم تولى الملك العادل استخراجهم وقوم على الاداء منهاجهم وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والاخراج وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سماحة الابتهاج ومافينا الامن فاز باوفى نصيب ورعى منه فى مرعى خصيب وكان السلطان قد رتب عدة دواوين فى كل ديوان منها عدة من النواب المصريين وفيهم من الشاميين فمن أخذ من أحد الدواوين خطا بالاداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء فذكر لى من لاأشك فى مقاله انه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله فربما كتبوا خطا لمن نقده فى كيسهم وتلبس أمر تلبيسهم فكانوا شركاء بيت المال لا امناءه وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وما اضرغناه ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب ألف دينار وبقى من بقى تحت رق إسار ينتظر به انقضاء المدة المضروبه والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبه وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة

مترهبه فى عبادة الصليب متصليه وعلى مصابها متلهبه وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبه انفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها متحدرة تحدّر القطرات من المزن ولها حال ومال ومتاع وأشياء وأشياع واتباع فاستعاذت بالسلطان فأعاذها ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج وأذن فى اخراج كل مالها فى الاكياس والاخراج وابقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها واسفاطها واعدالها والصناديق باقفالها وتبعها من لم يكن من اتباعها فراحت فرحى وان كانت من سجنها قرحى وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى وهى ابنة الملك امارى وكانت مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجوارى فاستأذنت فى الالمام بزوجها وكان بقيده مقيما فى برج نابلس موكلا به ليوم وعد تسريحه فأذن لها فخلصت هى ومن تبعها وأقامت عند زوجها وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفرى وهى ابنة فليب وزوجة الابرنس الذى سفك دمه يوم حطين وهى صاحبة الكرك والشوبك وهى بنوابها محوطه وبرأيها منوطه فجاءت سائلة فى ولدها العانى فوعدت انها ان سمحت بحصنها سمح لها بابنها ثم أعفيت وأطلقت وعزمت على ان تستحضر ابنها هنفرى ابن هنفعرى من دمشق اليها وأقر برؤيته عينها وسار معهما من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل فخرجت فمضت الى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة فسكنت صور واستودعت السلطان ابنها المأسور ووعدها باطلاقه اذا تسلم تلك الحصون

(فصل) فى ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر الى البلاد قال العماد تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها وأغلقت أبوابها لحفظ ناسها فى طلب القطيعة والتماسها وضاق وقت الفريضة وتعذر اداؤها وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها وكان الاقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخنا مملوءا بما أحدثوا من البناء مسكونا بمن كفر وغوى وضل وظلم وجنى مغمورا بالنجاسات التى حرم علينا فى تطهيره منا الونا فوقع الاشتغال بالاهم الانفع والاتم الانجح الانجع وهو حفظهم وضبطهم الى أن يوجد شرطهم ويؤخذ قسطهم واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه المعراج وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء وللقاء الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار ووجهه بنور البشر سافر وأمله بعز النجح ظافر وبابه مفتوح ورفده ممنوح وحجابه مرفوع وخطابه مسموع ونشاطه مقبل وبساطه مقبل ومحياه يلوح وريّاه يفوح قد خلت له حالة الظفر وكأن دسته به هالة القمر والقراء جلوس يقرؤن ويرددون والشعراء وقوف ينشدون ويستنشدون والاعلام تبرز لتنشر والاقلام تزبر لتبشر والعيون من فرط المسرة تدمع والقلوب للفرح بالنصرة تخشع والالسنة بالابتهال الى الله تضرع وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلى مشرع لكم من الدين ماوصى وهنئ الحجر الاسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الاسرا ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء ومقام ابراهيم بموضع قدم المصطفى صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأدام أهل الاسلام بشرف بنيته مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا اليه فى كل طريق واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق وتنزهوا من زهر كراماته فى الروض الانيق وقد سبق ان العماد كان توجه الى دمشق والسلطان على بيروت للالم الذى ألم به فلما سمع بنزول السلطان على القدس ابل من مرضه وتوجه اليه فوصل يوم السبت ثانى يوم الفتح قال وطلعت عليه صجا عند طلوع الصبح فاستبشر بقدومى وخلع على البشير قبل رؤيتى وكان اصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغتروا بها ويشرقوا وهو يقول لهم هذه القوس بار وهذه المأدبة قار قال فكتبت فى ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره كل كتاب بمعنى بديع وعباره فمنها الكتاب الى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافه ومكن دينه المرتضى وبدّل الامن من المخافه وذخر هذا الفتح الاسنى والنصر الاهنى للعصر

الامامى

الامامى النبوى الناصرى على يد الخادم أخلص أوليائه والمختص من اعتزازه باعتزائه اليه وانتمائه وهذا الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقرضت الملوك الماضيه والقرون الخاليه على حسرة تمنيه وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه وتقاصرت عنه طوال الهمم وتخاذلت عن الانتصار له املاك الامم فالحمد لله الذى أعاد القدس الى القدس وأعاذه من الرجس وحقق من فتحه ما كان فى النفس وبدّل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس وجعل عز يومه ماحيا ذل أمس وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين وقطع دابر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين فكأنّ الله شرف هذه الامة وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها فضلكم وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله الكريم (ادخلوا الارض المقدّسة التى كتب الله لكم) وهذا الفتح قد اقدره الله على اقتضاضه بالحرب العوان وجعل ملائكته المسوّمة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان واخرج من بيته المقدس يوم الجمعه أهل الاحد وقمع من كان يقول ان الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد وأعان الله بانزال الملائكة والروح وأتى بهذا النصر الممنوح الذى هو فتح الفتوح وقد تعالى ان يحيط به وصف البليغ نظما ونثرا وعبد الله فى البيت المقدّس سرا وجهرا وملكت بلاد الاردن وفلسطين غورا ونجدا وبرا وبحرا وملئت اسلاما وكانت قد ملئت كفرا وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهرا والحمد لله شكرا حمدا يجدّد للاسلام كل يوم نصرا ويزيد وجوه أهله بشرى فتتوجه بشرا وأبى الخادم الا استباحة أموالهم وأرواحهم وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم وانه لابدّ من تطهير الارض المقدّسة من رجس دمائهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم ولما ايسوا من النجاه وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاه خوّفوا بقتل الاسارى المسلمين وهم أكثر من ثلاثة آلاف وانهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء بهدم واحراق واتلاف وعرف ان جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع وانهم تدعوهم قطاظتهم الى كل أمر فظيع وبذلوا اطلاق الاسرى وشرطوا حمل مال الفدا ومازالوا يبتهلون ويضرعون ويذلون ويخشعون حتى استقرّ الامر انهم يفادون وأجيبت الصخرة المقدّسة عند استصراخها وبركات البركة الناهضة اليها فى مناخها وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون ورجع اضطرابها الى السكون وفديت بنواظر أهل الايمان وصوفحت للوفاء بعدها الجدد بالايمان وذكرت فى يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج وتجلى اظلامها بانارة سناء السراج واعيدت الكنائس مدارس واضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس وزالت ضجرة الصخره ونعشها الله من العثره وبدّل بالانس فيها ما كان من الوحشة والحسره والحمد لله على هذه النصره والمنة له على هذه المبره وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم الى حد طرابلس وكل ما كان جاريا فى مملكة ملك القدس ونابلس ولم يبق الا صور فانها قد تأخر انتزاعها وتقدّم امتناعها والفرنج فيها قد ضربت بأماله الطاعها وهى بتأييد الله مستفتحه والقلوب بتذليل جامحها منشرحه) ومن كتاب آخر (فتح بيت الله المقدس الذى عجز الملوك عن تمنيه فكيف تسنيه وماتت الاطماع دونه فلم تطمع فيه فمنّ الله علينا بتذليل صعبه واعذاب شربه وتسهيل وعره وتحصيل نخره وقضى الملوك فى ليله وجئنا نحن عليه باسفار فجره وقد كانت الصخرة مستصرخه ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخه فأجيبت دعوتها وأصيبت خطوتها وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفا وقوبلت قبلتها بقبل الافواه ودنا المسجد الاقصى للقاصى والدانى وزال رين العائث وقرّت عين الرانى هذا فتح عظيم قدره جسيم فخره فاضل عصره كامل نصره غير منسى الى يوم الحشر ذكره وقد افتض بنابكره واقتضى بسيفنا وتره وزهر زهره وظهر قهره وهلك الكافر وكفره وجاء من نعم الله ما لزم على الابد شكره أبينا الا احراقهم بنيران الصوارم واغراقهم فى امواه الطلى والجماجم وتسلمنا القدس فى يوم كانت فى مثل ليلته ليلة المعراج وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الاولى فى ظلمة ليلها الى ذلك السراج الوهاج والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج ونضوب ما كان نبع من الاجاج وخلا بيت الله لقصد الحاج وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا وحلى به نصرنا ونظم به سلكنا وطرز به ملكنا وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق رهنه دهرا واغتصب من الاسلام قهرا وارتد كفرا وامتدت به الايام عمرا فعمرا

وتقاصرت الهمم عن استفتاحه وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه ونزلوا بالرغم على التماس الكفر
واقتراحه واحتملوا الحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه فلاجرم أعده الله لايامنا وذخره لمواسم اعتزامنا
وفتحه بنا اظهارا لفضل هذه الايام وايثارا لما نحن نؤثره من اعلاء كلمة الاسلام فأصرخنا
الصخره وأهدينا اليها النصره ومكنا من قلبها وان كان من الحجر المره تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين
من رجب وقضينا من حق هذا البيت ما وجب وجاء القدس الى القدس وزال الرجس وذهب وتولى فيه الاسلام
وتولى عنه الكفر وعظم الاجر وفخم الفخر وطاب النشر وزاد البشر ومحي الرجس وثبت الطهر وهلك المشرك
وذل البطرك وأقصي من المسجد الاقصى الساجد الى الشمس وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس عاد بيت الله
المقدس الى طهارته ونطق منه لسان التقديس بعبادته وتهلل وجه السعد بنضارته وخصنا القدر في اتمام أمره
بخطابه واشارته وزادت الوجوه بشرا ببشارته وقد أعاد الله الى الاسلام المسجد الاقصى وملكنا أدناه وأقصاه
وأسنى دولتنا بما أسناه من فتحه وهناه وعلموا انهم هالكون وأنا لهم بالقهر مالكون وفي سبيل القتل والاسر
والسبي سالكون فخرجوا يطلبون الامان ويبذلون الاذعان حتى يسلموا المكان فقيل لهم الآن وقد عصيتم
ورضيتم بما فيه هلاككم وأبيتم فروعوا بقتل أسارى المسلمين وهم ألوف وعرفنا انهم لا يقصرون في الشر فان
جهلهم معروف فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم فنزعوا به
من الخوف ملبسهم وسلموا القدس فاعدناه الى القدس وطهرناه من الرجس وأجبنا دعوة الصخره وغسلنا
عنها وضر الكفر بعبرات العبره فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه وطال في يد الكفر أسره وسجنه واستهل
بغر أيامنا مزنه وأنار يمنه وعاد باحساننا حسنه وزال بنا خوفه وزاد أمنه وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجونا
وبرجس الشرك مشحونا حتى أعاد الله بنا رونقه وأذهب قلقه وأعدم فرقه وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة
رضي الله عنهم له نظير وافق الدين به منيف منير وشرف أيامنا به كثير وهو امام فتوحنا المدخرة لنا وما لها بتأييد
الله تأخير فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك وحالت
دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها حتى دعانا الله لفتحه فاجبناه
ووعدنا بالفوز فاصبناه وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه وذخر لعصرنا هذا
الفخر فاستقبلناه رأوا أحجار المنجنيقات قد أزلت الاسواء بالاسوار وغارت الصخور للصخرة المباركة فجدت
في انقاذها من الاسار وهتمت ثنايا الابراج وأعضل بها في العلاج داء الاعلاج فعاينوا الحمام وشاهدوا الموت
الزآم أقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة
المباركه وجرت على حكم السور بسفه الاحجار المتداركه وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسواة
وانكشفت للعيون انكشاف الاسرار نهضت لاصراخ الصخرة المقدسة الصخور وطارت من أوكار المجانيق
كأنها الصقور فما أسر البيت الحرام بفكاك أخيه من الاسر واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر وانقاذ الصخر
المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوه والحافها من البهاء والرونق والعز الاسلامي بكسوه ولقد غسلت من أدران
الكفر وادناسه وطهرت من ارجاس انجاسه بمياه العيون التي بها قذيت وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بايدي
الشرك صديت وأعيد اليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربه وتذكرت بصحبة الاولياء ما سلف لها في عهد الصحابة
رضي الله عنهم من حسن الصحبه ودنا المسجد الاقصى فاقصي منه الساجد للشمس وسكن العلماء والفقهاء
في مواطن البطرك والقس وأبدل الناقوس بالاذان بل الكفر بالايمان وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي
أسلم وقد بنى الله تعالى هذا الفتح الاعظم والنجح الافخم وقد ندب فلان في الرسالة القدسيه والبشارة الغرسيه
التي تم بها مأتم الكفر وعرس الاسلام وعاد بها المسجد الاقصى الى مداناة المسجد الحرام وتجلت عروس الصخرة
لعيون الناظرين وفاضت عليها مياه احداق الاولياء فرحضت عنها أوضار الكافرين وكان الاسلام منه غريبا
فرجع الى وطنه وسكن منه الى التوطن في مسكنه وزالت مخافته وعاد الى مأمنه ونض العرف من منبعه
وأنار التوحيد من مطلعه وعلا سنا السنه وحلا جنا الجنه وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الامه وخرج

البطاركة والقسيسون من مساجد الائمه وعادت الكنائس مدارس وآيات التثليث بها دوارس ووجوه الايمان باشرة ووجوه أهل الصليب عوابس ومحت أيامن هذه الايام تلك الليالى الدوامس وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات وصلى فى محرابه المحرب ودرس فيه الخلاف والمذهب والحمد لله الذى تسنى بفضله هذا المطلب وتيسر بتأييده الامر الاصعب)

(**فصل**) قال العماد وكان المولى الاجل الفاضل متأخرا بدمشق يعارض مرض من الله بشفائه فمن جملة ما كتب السلطان اليه (اما الفتح فمن جملة بركات همته وآثار جذبات عزمته فان الله تعالى سهل ما سهل أهل الدهر بانه صعب واهب نسيم النصر ايان يقال ليس له مهب وخصنا بهذا الشرف والحقنا فى هذه الفضيلة بصالحى السلف وقد بدل الكفر بالايمان والناقوس بالاذان وجلس العلماء والفقهاء فى مجالس الرهبان وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى فى دخول أبواب النيران وصلى بمحارب الدين فى المحراب ورفع الملائكة ما كان تكاثف بانفاس الكفر من الحجاب وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الامواه وقبلت بالشفاه وبوشرت بالافواه وطهرت باهل العلم والحلم من ادناس أهل الجهل والسفاه والحمد لله ثم الحمد لله وما كان يعوزنا ويعوزه الا حضور المجلس السامى أسماه الله فالهذا الامر رواء الا برآئه ولا للانس لقاء الا بانس لقائه وكاد يتحيف الفتح لولا صالح دعائه وحسن آلائه والحمد لله الذى خصنا بهذه الخاصيه ونضلنا بالنصرة القدسيه وذخر لنا هذا البر الذى عجز بل قصر عنه ملوك البريه والحمد لله على هذه النعمة السنيه فما أشوقنا وأشوق القدس الى قدومه وما أظمأنا وأظمأه الى خصوص الرى به وعمومه ويا حظ هذا البيت الذى هو أخو البيت الحرام من زيارته وما آنق روضه وأوفق رضاه اذا فاز بنظره ونضارته ونحن نعرف ان همته العالية تحدوه وان دينه الى اجابة دعوته تدعوه ونسأل الله ان يكمل صحته وينعش قوته ويقوى نهضته وما أقنانا بهذا البلد الا لتطهيره وترتيب أمره وتدبيره) ومن كتاب آخر (نصرنا الله بملائكته المسومين وأوليائه المؤمنين واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها وهذه موهبة مذهبة ومنقبه لا يبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبه ونوبة ما بعدها للاسلام نبوه وحظوة فى مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه وبشرى تجلو الوجوه بشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها وتقر عين المؤمنين فى البعد والقرب بانوار قربها عاد التقديس الى الارض التى به وصفت وأحاطت البركة بالبقعة التى بقوله تعالى باركنا حوله عرفت وطهرت الصخرة المقدسة وطهرت وزهيت أيامن هذه الايام وزهرت وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث باهل التوحيد وقهرت واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وامامه وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا ونقضنا من الكفر ركا ركا واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى فتح شرف الله به هذه الامه وجلا به الغمه وكشف المله بل شرفنا بفخره وأعددنا لذخره وخصنا بفضيلته فى عصره وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نصره وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره وقامت بواترنا بوتره وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره واصرخت الصخره وحفت بها النصره وزالت عنها المضره وعادت اليها المبره ونعشت منها العثره وفاضت لها من عين المؤمنين العبره وزفت عروسها البكر محصنة لم تقتض منها العذره وحالت العره ولاحت الغره وظهرت من صدف قبتها الدره وصوحفت آثار القدم النبوية بالايمان وجددت بعهدها صفقة الايمان وبطل الناقوس بحق الاذان وفتحت أبواب الجنان لاهلها وأخرج منها أهل النيران والحمد لله على هذا الاحسان حمدا مستمرا على مر الزمان) ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن (فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه وطال فى أسره سجنه واستحكم وهنه وقوى سكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه واجدبت من الهدى ارضه وأخلف مزنه وواصله خوفه وفارقه أمنه واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساءه حزنه وذكر فيه الواحد الاحد الذى تعالى عن الولد ان المسيح ابنه وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه وافرد التوحيد فكاد يهى متنه ودرج الملوك المتقدمون على تمنى استنقاذه فابى

الشيطان غير استيلائه واستحواذه وكان في الغيب الالهي ان معاده في الآخرة الى معاذه وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح) ومن كتاب آخر (البيت المقدس صار مقدسا وأصبح للاسلام معرّسا ورجع اهل التقوى اليه فقد كان بها مؤسسا وخرس الجرس وذهب الدنس وبطل الناقوس وخرج القسوس وزال الاذى بالاذان وصوفحت الصخرة المقدسة بايمان أهل الايمان وما صلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات وما تم الرضى بفتح المسجد الاقصى حتى أقصى منه من أقصاه الله عن رضاه وما تبوأ المسلم المصلي فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلي بالنار مثواه صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالايدي وقال لاولياء الله اهل الاخلاص اهلا بكم فأحسن الخلاص من ولاية أهل التعدى وعاد المسجد الاقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا بعد ان كان للقصين المصلين نارا دارا وتسلم محرب الاسلام محرابه وأصحب لآلافه المألف أصحابه وترنح المنبر لترنم الخطيب وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب خلا باله من أمر القدس باعادته الى قدسه وأخلائه من رجز الشرك ورجسه واجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بانسه ورد الاسلام الغريب الى بيته المقدس ونفى الكافر منه كاسف البال راغم المعطس ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الاماميه ورفع ما رفع قدره من الاعلام العباسيه والافراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشرك وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك واقامة الجمع فيه والجماعات وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن ونزع لباس بأس المسيء عنها بافاضة ثوب ثواب المحسن وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار واعلاء ما كان درس من معالم الابرار ومطالع الانوار وقد رجع الاسلام الغريب منه الى داره وخرج قمر الهدى به من سراره وذهبت ظلم الضلالة بأنواره وعادت الارض المقدسة الى ما كانت موصوفة به من التقديس وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس وقد أقصى عن المسجد الاقصى الاقصون من الله الابعدون وتوافد اليه المصطفون الاقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بزجل المسبحين وخرج المفسدون بدخول المصلحين وقال المحراب لاهله مرحبا واهلا وشمل بجماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا ورفعت الاعلام العباسية على منبره فاخذت من بره أوفى نصيب وتلت بالسنة عذرها (نصر من الله وفتح قريب) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدى عاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت فيه الصخرة لفضلها وباشرت الجباه بها مواضع سجودها وصافحت أيدى الاولياء آثار القدم النبوية بتجديد عهودها وشهد مقام المعراج وموطئ براقه ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد) ومن كتاب فاضلي الى بغداد (تقلص ظل الكافر المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط وجاء أمر الله وانوف أهل الشرك راغمه وادلجت السيوف والآجال نائمه واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا وظفروا يقظة بما لم يصدّقوا انهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا) ومنه في وصف نقب السور (فأخلى السور من السياره والحرب من النظاره وأمكن النقاب ان يسفر للحرب النقاب وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بانياب معوله وحل عقده بضربة الاحراق الدال على لطافة أنمله واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته الى ان كادت ترق لمقتله وتبرأ بعض الحجارة من بعض وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض وثم استقرت على الاعلى أقدامهم وخفقت على الاقصى اعلامهم وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وان كانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان فخدمها الكفر الى ان صارت روضة جنان لاجرم ان الله أخرجهم منها وأهبطهم وارضى أهل الحق وأسخطهم وأوعز الخادم برد الاقصى الى عهده المعهود وأقام له من الائمة من يوفيه ورده

المورود وأقيمت الخطبة يوم الجمعه رابع شعبان فكادت السموات للنجوم ينفطرن والكواكب منها للطرب ينتثرن ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدوده وظهرت قبور الانبياء وكانت بالنجاسات مكدوده وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الالسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين فى وطنه الاشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر وخفق علماه فى حفافيه فلوطار سرورا لطار بجناحيه وكان الخادم لا يسعى سعيه الا لهذه المنقبة العظمى ولا يقاسى تلك البؤسى الا رجاء هذه النعمى ولا يحارب من يستظلمه الا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هى العليا وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنة ربما سلقته فاصح قلوبها بالاكتفاء والاقتصار وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ومن طلب خطيرا خاطر ومن رام صفقة رابحة جاسر ومن سما الان تجلى غمرة غامر) ووصف فيه يوم حطين فقال (وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة له شهودا وكان الضلال صارخا وكان الاسلام مولودا وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه وأكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت ما دهموا قط بأمر الاوقام بين دهمائهم يحرضهم يبسط لهم باعه وكان مد اليدين فى هذه الدفعة وداعه لا جرم انه يتهافت على ناره فراشهم ويجتمع فى ظل ظلامه خشاشهم ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال واصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه ولم يفلت منهم معروف الا القمص وكان لعنه الله جليا يوم الظفر بالقتال ومليئا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ثم أخذه الله بعد أيام بيده وأهلكه لموعده وكان لعدتهم فذالك وانتقل من ملك الموت الى مالك وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما يسر عليها من الراية السوداء صبغا البيضاء صنعا الخافقة هى وقلوب أعدائها العالية هى وعزائم أوليائها)

(فصل) قال العماد ومن قصائدى التى هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه

أطيب بانفاس تطيب لكم نفسا ❊ وتعتاض من ذكراكم وحشتى أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس ❊ غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهودكم ❊ وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان فى حدسى لكم كل طارق ❊ وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أرى حدثان الدهر ينسى حديثه ❊ وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراسيات وثابت ❊ رسيس غرام فى فؤادى لكم ارسى
حسبت حبيبى قاسى القلب وحده ❊ وقلب الذى يهوى بحمل الهوى اقسى
أما لكم يا مالكى الرق رقة ❊ يطيب بها لملوككم منكم نفسا
وان سرورى كنت أسمع حسه ❊ فذ سرت عنكم ما سمعت له حسا
وان نهارى صار ليلا لبعدكم ❊ فما أبصرت عينى صباحا ولا شمسا
بكيت على مستودعات قلوبكم ❊ كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عنى الجميل فاننى ❊ جعلت على حبى لكم مهجتى حبسا
رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ❊ وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا فى الارض سبعة أبحر ❊ ولسنا نرى الا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ❊ وبطشته الكبرى وعزمته القعسى
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا ❊ ينير بما يولى ليالينا الدمسا
جنودك املاك السماء وظنهم ❊ عداتك جن الارض فى الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى ❊ فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا ❊ فلا عدمت اخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم * فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها * وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه * فلا بطركا ابقيت فيها ولا قسا
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة * بان أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت * ملائكة الرحمن اجنادك الحمسا
وكم لبنى أيوب عبد كعنتر * فان ذكروا بالهاس لايذكروا عبسا
وقد طاب رياناعلى طبرية * فياطيبها مغنى و ياحسنها مرسى
وعكا وما عكا فقد كان فتحها * لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا و بيروت وتبنين كلها * بسيفك التى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وارسوف وتبنى وغزة * تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفى عسقلان الكفر ذل بملككم * فنظره بل أمره اربدوار جسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم * فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذى لك أصبحت * كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم * فانك قد سيرت دينارهم فلسا
ولاتنس شرك الشرق غرب لك مريا * بماء الطلى من صاديات الظبى الخمسا
وان بلاد الشرق مظلمة فخذ * خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرك فاقصد بلادهم * بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم * وقد طردت عنه ذئابهم الطلسا

وهى طويلة وقد تقدم بعضها فى ذكر كسرة حطين وللعماد أيضا من جملة القصيدة التى مدح بها حسام الدين ابن لاجين وقد تقدم بعضها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من * يمشى على الارض أومن يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى * صور فان فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب * وابعث الى ليل انطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه * من العداة ومن فى دينه وكسا
ولاتدع منهم نفسا ولانفسا * فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى * تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

ومن قصيدة أخرى له انفذها الى الخليفة الناصر

أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى * وصيته فى جميع الارض جواب
ما كان يخطر فى بال تصوره * واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه الملوك الاقدمون وقد * مضت على الناس من بلواه احقاب
وجاء عصرك والايام مقبلة * فكان فيه لفيض الكفر انضاب
نصرا عاد صلاح الدين رونقه * ايجازه بليغ القول اسهاب
قرع الظبى بالظبى فى الحرب يطربه * لا قينة صنع باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه * لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للاسلام قد فتحت * فى قمع طاغية الاشراك أبواب
ففى موافقة البيت المقدس للبيت الحرام لنا تيه واعجاب
والصخر والحجر الملثوم جانبه * كلاهما لاعتمار الخلق محراب

نفى من القدس صلبانا كما نفيت * من بيت مكة ازلام وانصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس وقد ذكر العماد من ذلك جملة فى أواخر كتاب البرق فرأيت تقديم ما اخترته منها هنا وزدت عليه مالم يذكره فمن ذلك قصيدة الحكيم أبى الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الاندلسى الجليانى منها

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى * أحرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلى عمر * فى قلة النقل قضى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس فى وله * أبو عبيدة فدى من مسرته
غداة جزوا النواصى فى قمامته * وأعولوا بالتباكى حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على * عهد الصحابة فى استمرار ملته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه الملك المظفر سام فى مسيرته
وفى الثلاثة عثمان يؤيده * علا على على ايثار نصرته
وكلديك ذو وقربى رقوا شرفا * وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتح ما بين البزاة لقى * ملك الفرنج أخيذا بين عترته
أما رأيت معالى يوسف نسقت * حتى رمت كل ذى ملك بحسرته
أضحى لنشر الهدى فى فتح منهجه * وبات يطوى العدى فى سد ثغرته
واستقبح الرجس عنوا بمشهده * فاستفتح القدس محشوا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين اذهلهم * بوقعة التل واستشراء سورته
يعيى الجوارح والفرسان وهو على * بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الاقصى على بهم * وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
ابشر بملك كظهر الشمس مطلع * على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة * تحكى النبوة فى أيام فترته

قال وانفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزى قصيدة وعرضتها على السلطان بالقدس وفيها ذكر الانكلتير وفتح يافا وذكر الهدنة التى يأتى ذكرها فى اخر الكتاب فمنها وسيأتى الباقى المختار أيضا

الوقت أضيق من سماع قصيدة * موسومة لصفات أغيد أهيف
الجد فى هذا الزمان مبين * والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدى والهادى الى * سبل الجهاد أبى المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ * ـمنصور والمستظهر البر الوفى
شدت قوى أركان ملة أحمد * وتحملت بجهاده فى الموقف
ملك اذا أم الملوك جنابه * لاذوا باكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه * وقفوا باعظم من يصول وأرأف
مولى غدا للدين أكرم والد * حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه * أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم * وأقام فى الانجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لانه * يروى أحاديث العوالى الرعف
ملك له فى الحرب بحر تدفقه * وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أنزل فى الجهاد مفصل * فلذاك يقرأوه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسيانا كان من * عزم ابن مرداس وحلم الاحنف

يا أيها الملك الذى لطباعه ❊ وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة اذا عربت ❊ ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك فى الرؤس ختانة ❊ ذهبت بهجة كل علج أقلف
آفاتهم وافت باخذك منهم ❊ يافا فكم من حسرة وتأسف
أومارأى الاعلاج حين دعوتها ❊ بلسان سيف فى الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت ❊ منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن باختها ❊ وكذاك حتى الاربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ ❊ بشباسنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الاخضر استفتحته ❊ فزهى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمته ❊ وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل ❊ من عامل وبمشرف من مشرفى
وبجهبذ العزم الذى لا ينثنى ❊ وبناظر الرأى الذى لم يطرف
خذ الخراج من البسيطة كلها ❊ واستأد فرضى جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة ❊ وابسط لرحتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثارها ❊ وصدورها بل عن قليل تشتفى
فانهض بها وتقاض حقك موفنا ❊ ان الاله بما تؤمله حفى
هم فتية الاتراك كل مجفجف ❊ يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة ❊ لا ينظرون اليه من طرف خفى
ان صبحوا الاعداء فى أوطانهم ❊ تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا ❊ لله در المصطفى والمصطفى

قلت وذكرت بقوله (هذا الطراز الاخضر استفتحته) حكاية حسنة لائقة بالحال حدثنى بها شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى قال قرأت بخط شيخنا أبى الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائه قال رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفا على حائط بجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول

ملك الصياصى والصواصى ناصر ❊ للدين بعد اياسه ان ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما ❊ يطوى الطراز له ويقتل قيصرا

قلت وهذا قبل ان يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين وقرأت بخط بعض أصحابنا قال وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة انه رأى من ينشده هذا الشعر فى النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائه فذكر البيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة وقبل مولد صلاح الدين بسنة والمعنى بالطراز الاخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك ولم يبق من الطراز فى أثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكا وهكذا كان الامر على ما سبق بيانه فتح هذا الطراز أولا ثم فتح البيت المقدس وكنى بقيصر عن الابرنس الذى قتله بيده لانه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم فى معاداة الاسلام والله أعلم قال العماد وكان فخر الكتاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ الى قصائده لاعرضها فرأيت ان أثبت له هذه القصيدة فى الفتح وهى مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاما حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها

جند السماء لهذا الملك أعوان ❊ من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن ❊ وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما ❊ له سوى الشكر بالافعال اثمان

اضحت

أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده * صيدا وماضعفوا يوما وماهانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم * خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس * فحام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ * ـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ * ـاسلام انصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم * بامر من هو للعوان معوان
للناصر ادّخرت هذى الفتوح وما * سمت لها هم الاملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا * ل الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما * فطهرت منه اقطار وبلدان
فاين مسلمة عنها واخوته * بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لم * يبدهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح فى عصر النبى لقد * تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد * غدا برقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائرما * ملكته وملوك الارض خزان
فالله يبقيك للاسلام تحرسه * من ان يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة * فالكفر فى سنة والنصر يقظان
ياجامعا كلمة الايمان قامع من * معبوده دون رب العرش صلبان
اذا طوى الله ديوان العباد فما * يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبى المعروف بالجوّانى نقيب الاشراف بالديار المصرية من قصيدة

أترى مناما مابعينى أبصر * القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذى * بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم * ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى * وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى * هو فى القيامة للانام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد * ماذا يقال له وماذا يذكر
يايوسف الصدّيق أنت لفتحها * فاروقها عمر الامام الاطهر
ولانت عثمان الشريعة بعده * ولانت فى نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به * يختال والدنيا به تتبختر
فـ ـثر ونظم طعنه وضرابه * فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو * ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له * فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لاترى الاطلى بسنابك * تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار ان تطأ الثرى * فيصدها عنه طلى وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا * عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسى

أطلت على أفقك الزاهر * سعود من الفلك الدائر

فابشر فان رقاب العدا * تمد الى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم * حكت فتكة الاسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة * فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها * فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك فى غزوهم * فتعسا لجدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآ * م وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة * فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غرق هالك * بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا * فاثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى * فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا * فلله أجرك من صابر
نبيت الملوك على فرشهم * وترفل فى الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجها * د على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حق من * سيرضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه * فعادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى * فخلصته من يد الكافر
واعليت فيه منار الهدى * وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو * ح من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه * بها لاصطناعك فى الآخر
محبتكم ألقيت فى النفو * س بذكر لكم فى الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملو * ك لمثلك من مثل سائر

وباقى القصيدة تقدم فى أخبار سنة أربع وسبعين وقال أبو الحسن على بن محمد الساعاتى

أعينا وقد عاينتم الآية العظمى * لاية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق * وشاع الى ان اسمع الاسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب * وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها * فيشهد ان السيف من يوسف احمى
وما كان الا الداء أعيا دواؤه * وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما * والسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته * فما كان الا ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى فى السلطان

عصفت به ريح الخطوب زعازعا * فلقين طود الا تخف اناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما * طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وانما * عند الزحاف تحركت سكناته
أشمت الاعداء وهى جحافل * عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزما فى الحروب مسددا * لا زيغه يخشى ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب * ولك الفعال كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه * لبكائهن تبسمت حجراته

وله من قصيدة أخرى

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما ❊ تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة ❊ من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة فى بعض أقارب السلطان

الست من القوم الاولى بسيوفهم ❊ ثنوا صخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الافضل

والقدس اعضل داؤه من قبلكم ❊ فوفيتم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على تمنى فتحه ❊ زمنا وغلتهم به لم تبلل
وأتى زمانكم فامكن آخرا ❊ ما قد تعذر فى الزمان الاوّل
ما كان قط ولا يكون كفتحكم ❊ للقدس فى الماضى ولا المستقبل
أوجدتم منه الذى عدم الورى ❊ وفعلتم فى الفتح مالم يفعل
أيدى الملوك تقاصرت عن مفخر ❊ طلتم به فبلوا لبعض الانمل
أحييتم شرع الكرام ولم يزل ❊ نصر المحق بكم وقهر المبطل

وله من قصيدة فى مدح الملك المؤيد

وكم لبنى صلاح الدين فينا ❊ على الاسلام من حق تأكد
وان لهم على الاملاك طرا ❊ بفتح القدس فضلا ليس يجحد

وله من أخرى فى مدح الملك الظاهر غازى

هم الملوك ذو و بأس ومكرمة ❊ ان سالموا امنوا او حاربوا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الورى فتحت ❊ عكا وصيدا و بيروت وارسوف
جيش الفرنج اذا لاقى سوابقهم ❊ كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبى الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا ❊ ويفوق فخرهما السها والفرقدا
ما يوسف ممن يقاس بحاتم ❊ أنى وقد وهب الحصون واصفدا
او ان يقال كأنه يوم الوغى ❊ والروع كالاسد الهصور اذا عدا
أومن يشبه جوده بغمامة ❊ اومن يقال انه عمر الردى
بل مالك الدنيا ومالئ رحبها ❊ خيلا ورجلا ناصر دين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما ❊ رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيد يلقاهم اذا ❊ رفع السرادق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده ❊ من كل فج آمنين المسردا
من بعد ما درست معالم سبله ❊ دهرا وعز لخوفها ان يقصدا

﴿فصل﴾ فى صفة اقامة الجمعة بالاقصى شرفه الله تعالى فى رابع شعبان ثامن يوم الفتح وقد وهم محمد بن القادسى فى تاريخه فيما قرأته بخطه فانه قال فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه ولبس خلعة سوداء ولم يكن السلطان هو الذى باشر الخطبة على ما سنذكره وقد تقدّم ان يوم الفتح وان كان يوم الجمعة الا ان الوقت ضاق عن اقامة فرض صلاة الجمعة فيه قال العماد لما تسلم السلطان القدس أمر باظهار المحراب وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا وكانوا قد بنوا من غربى القبلة دارا وسيعه وكنيسة رفيعه فأوعز بكشف ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب وهدم

ماقدامه من الابنيه وتنظيف ماحوله من الافنيه بحيث يجتمع الناس للجمعه فى العرصة المتسعه ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر ونقض ما أحدثوه بين السوارى وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى وعلقت القناديل وتلى التنزيل وحق الحق وبطلت الاباطيل وتولى الفرقان وعزل الانجيل وصفت السجادات وصفت العبادات وأقيمت الصلوات وأديمت الدعوات وتجلت البركات وانجلت الكربات وانجابت الغيابات وانثابت الهدايات وتليت الآيات وأعليت الرايات ونطق الاذان وخرس الناقوس وحضر المؤذنون وغاب القسوس وزال العبوس والبوس وطابت الانفاس والنفوس وأقبلت السعادات وأدبرت النحوس وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه وطلب الفضل من معدنه وورد القرّاء وقرأوا الاوراد واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد وعبد الواحد ووحد العابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد والزاهى والزاهد والحاكم والشاهد والجاهد والمجاهد والقائم والقاعد والمتهجد والساهد والزائر والوافد وصدح المنبر وصدع المذكر وانبعث المعشر وذكر البعث والمحشر واملى الحفاظ وابكى الوعاظ وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء وتحدّثت الرواه وروى المحدّثون وتحنف الهداه وهدى المتحنفون واخلص الداعون ودعا المخلصون وأخذ بالعزيمة المترخصون ولخص المفسرون وفسر الملخصون وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء وكثر المترشحون للخطابه المتوشحون بالاصابه المعروفون بالفصاحه الموصوفون بالحصافه فمافيهم الأمن خطب الرتبه ورتب الخطبه وانشأ معنى شائقا ووشى لفظا رائقا وسوى كلاما بالموضع لائقا وروى مبتكرا من البلاغة فائقا وفيهم من عرض علىّ خطبته وطلب منى نصبته وتمنى ان ترجح فضيلته وتنجح وسيلته وتسبق بمنيته فيها أمنيته وكلهم طال الى الانتهاء بها عنقه وسال من الالتهاب عليها عرقه ومامنهم الامن يتأهب ويترقب ويتوسل ويتقرب وفيهم من يتعرض ويتضرع ويتشوف ويتشفع وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه وضرب فى اخماسه اسداسه ورفع لهذه الرياسه راسه والسلطان لا يعين ولا يبين ولا يخص ولا ينص ومنهم من يقول ليتنى خطبت فى الجمعة الاولى وفزت باليد الطولى واذا ظفرت بطالع سعدى فما أبالى بمن خطب بعدى فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان وامتلأ الجامع واحتفلت المجامع وتوجست الابصار والمسامع وفاضت لرقة القلوب المدامع وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع وغصت بالسابقين اليها المواضع وتوسمت العيون وتقسمت الظنون وقال الناس هذا يوم كريم وفضل عميم وموسم عظيم هذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصب البركات وتسال العبرات وتقال العثرات ويتيقظ الغافلون ويتعظ العاملون وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وانتاش وما أفضل هذه الطائفة الحاضره والعصبة الطاهره والامة الظاهره وما أكرم هذه النصرة الناصريه والاسرة الاماميه والدولة العباسيه والمملكة الايوبيه والدولة الصلاحيه وهل فى بلد الاسلام أشرف من هذه الجماعه التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعه وتكلموا فيمن يخطب ولمن يكون المنصب وتفاوضوا فى التفويض وتحدّثوا بالتصريح والتعريض والاعلام تعلى والمنبر يكسى ويجلى والاصوات ترتفع والجماعات تجتمع والافواج تزدحم والامواج تلتطم وللعارفين من الضجيج مافى عرفات للحجيج حتى حان الزوال وزال الاعتدال وحيعل الداعى واعجل الساعى فنصب السلطان الخطيب بنصه وابان عن اختياره بعد فحصه وأوعز الى القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بان يرقى ذلك المرقى وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى فاعرته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الافاضة والاضافه فرقى العود ولقى السعود واهتزت أعطاف المنبر واعتزت أطراف المعشر وخطب وانصتوا ونطق وسكتوا وافصح واعرب وابدع واغرب واعجز واعجب وأوجز واسهب ووعظ فى خطبتيه وخطب بموعظتيه وابان عن فضل البيت المقدّس وتقديسه والمسجد الاقصى من أوّل تأسيسه وتطهيره بعد تنجيسه واخراس ناقوسه واخراج قسيسه ودعا للخليفة والسلطان وختم بقوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ونزل وصلى فى المحراب وافتتح بسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب فأم بتلك الامه وتم نزول الرحمه وكمل وصول النعمه ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واشتهر الايناس وانعقد الاجماع واطرد القياس وكان قد

نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير فجلس عليه زين الدين أبو الحسن على بن نجا فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا وخوّف بذى الحجة ذوى الحجا وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات ما دجا وأتى بكل عظة للواقدين موقظه ولناظامين محفظه ولا ولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظه وضج المتباكون وعج المتشاكون ورقت القلوب وخفت الكروب وتصاعدت النعرات وتحدرت العبرات وتاب المذنبون واناب المحوبون وصاح التوابون وناح الاوابون وجرت حالات جلت وجلوات حلت ودعوات علت وضراعات قبلت وفرص من الولاية الالهية انتهزت وحصص من العناية الربانية أحرزت وصلى السلطان فى قبة الصخره والصفوف على سعة الصحن بهامتصله والامة الى الله بدوام نصره مبتهله والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبله والايدى الى الله مرفوعه والدعوات له مسموعه ثم رتب فى المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته قلت هذه الفاظ العماد فى هذا الفصل من كتاب الفتح وذكره فى كتاب البرق بعبارة أخرى تشمل على فوائد زائده وفى تكرار ما تقدم أيضا بغير تلك العبارة فائده فانها معان جليلة كلما ذكرت جلت وكلما تكررت حلت

(فصل) قال العماد فى كتاب البرق لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح تقدم السلطان فى المسجد الاقصى ببسط العراص واخلائها لاهل الاخلاص وتنظيفها من الادناس وكنس ما فى ارجائها من الارجاس وقد كان سبق أمره من مبتدأ الامر بهدم ما هنالك من أبنية الكفر وابراز المحراب القديم وأعاده موضعه الى الوضع الكريم فقد كان الداويه بنوا غربيه دارا وادخلوه فيها وخلطوه بمبانيها واتخذوا منه جانبا مستراحا للاعلال وجانبا هريا للغلال فأمر فى العاجل بكشف قناعه ورفع الوضيع من أوضاعه ونقل ما وقع من انقاضه ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه حتى ظهر موضع المنبر والمحراب واستظهر بازالة ما قدامه من الحجاب واجتمع الخلق فى ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع وتعاونوا وتعاونوا حتى كشفوه ونظفوه ورشوه وفرشوه وكان قد أمر باتخاذ منبر فى تلك الايام فنجروه وركبوه ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه والهمم مراحه والخواطر الجوورد ها ملتاحه مرتاحه وهذا الفضلاء بلغاء وعلماء أتقياء وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبه وامل الفوز بفضيلة تلك الرتبه وأعد لذلك المقام مقالا ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالا حتى اذا حيعل الداعى وتعين الفرض على الساعى حضر السلطان صلاة قبة الصخره بادية على أساريره أسرار سروره بالاسره وامتلأت تلك العراص والصحون واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون وآن لدين الله ان تقضى له الديون وتفك الرهون ووجلت القلوب وخشعت الاصوات وحسنت الظنون وعين السلطان القاضى محيى الدين أبا المعالى محمد بن على القرشى الزكى بن الزكى للصلاة والخطبه وفرع تلك الرتبه فصعد وسعد وحمد وأحمد وادت المعانى الشريفة ألفاظه ونبه الاقاصى والادانى ايقاظه وجلا المسامع وجلب المدامع وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع والنهج المتبوع والشرط الموضوع وذكر فى الفتح البكر ما اقتض به ابكار الاستعارات بابدع البراعات وابرع العبارات وصدح بالصدق ونطق بالحق وفاز بالسبق وحاز الفضيلة على فضلاء الغرب والشرق فهو لنشر المعانى أضمخ خطيب له بنشر المعالى اضمخ طيب فاين قس فى عكاظه من قياس الفاظه وأين سحبان من سجعاته وأين ابن نباتة من نباته ولوعاش الافتقر الى ذقره واحتقرا اعراضهما عند جوهره ودعا لامير المؤمنين ثم لسلطان المسلمين ونزل وقام اماما أكمل بصلاته الفرض وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة فى ركعاته وسجداته أهل السماء والارض وسر السلطان بنصبه ورفعه وامتلأ صدره حبورا منه بجلاء بصره وسمعه فقد أخذت بالابصار اشعة أنوار الخطبه فى سواد الاهبه وعظمت أخطار المهابة فى خواطر المحبه وكرمت سرائر الزلفى الى الله والقربه ثم رتب السلطان بعده خطيبا يستمر اقامته للجمع والجماعات وتستقر ملازمته لاداء الصلوات ولما قضيت الصلاة تلك الجمعه نصب سرير للوعظ ابقى تلك الامة المجتمعه وتقدم السلطان الى زين الدين الواعظ ليفرع السرير وينفع بعظاته الصغير والكبير وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع فحقق ورقق وأشهد وأشهق وخلب بعباراته الحلوة العبرات وشار العسل بمعسول الاشارات وبشر البشر ببشارة البشارات وذكر الفتح وبكارته والقدس وطهارته والدين وجسارته والكفر وخسارته والقدر واعانته والظفر وابانته

والصخرة واصراخها والروعة وافراخها والنار ومراطها والقيامة واشراطها والرحمة وبابها من باب الرحمه والجنة وجناها لهذه الامه وما أعده الله لهذه الطائفه وما أنزله من الامن على القلوب الخائفه ووصف ببلاغته مالا يبلغ اليه نطق الالسنة الواصفه ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ولائله والنجح ووسائله والشرع ومسائله والذنب وغوائله واحسان السلطان وفواضله والبحر وساحله والدين وحقه والكفر وباطله وكان يوما راجحا وسوسارابحا

(فصل) في ايراد ما خطب به القاضي محيي الدين رحمه الله قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من انشائه وأودعها سر بلاغة عذبت بافشائه وذكرت الخطبة الاولى ويد الفصاحة فيها طولى افتتحها بهذه الآيات

«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الحمد لله»
«الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآيه الحمد لله الذي»
«أنزل على عبده الكتاب قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض»
«الحمد لله فاطر السموات والارض»

والخطبة هي

«الحمد لله معز الاسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومصرف الامور بامره ومديم النعم بشكره»
«ومستدرج الكافرين بمكره الذي قدر الايام دولا بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وافاء»
«على عباده من ظله وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع والظاهر على خليقته»
«فلا ينازع والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم بما يريد فلا يدافع أحمده على اظفاره واظهاره»
«واعزازه لاوليائه ونصره لانصاره وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد»
«باطن سره وظاهر جهاره وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له»
«كفوا أحد شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله»
«رافع الشك وداحض الشرك وراحض الافك الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى»
«وعرج به منه الى السموات العلى الى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما»
«طغى صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول»
«من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن وعلى أمير المؤمنين»
«علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الاوثان وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان أيها الناس»
«ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة»
«من الامة الضاله وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام وتطهير»
«هذا البيت الذي أذن الله ان يرفع وان يذكر فيه اسمه واماطة الشرك عن طرقه بعد ان امتد عليها رواقه واستقر»
«فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فانه بني عليه وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه فهو»
«موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام وهو مقر»
«الانبياء ومقصد الاولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الامر والنهي وهو في أرض المحشر وصعيد»
«المنشر وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه»
«وسلم بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى»
«الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا»
«لله وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لا تشد»
«الرحال بعد المسجدين الا اليه ولا تعتقد الخناصر بعد الموطنين الا عليه ولولا انكم ممن اختاره الله من عباده»
«واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار فطوبى لكم»

«من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبويه والوقعات البدريه والعزمات الصديقيه والفتوح العمريه»
«والجيوش العثمانيه والفتكات العلويه جددتم للاسلام أيام القادسيه والوقعات اليرموكيه والمنازلات الخيبريه»
«والهجمات الخالديه فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم»
«فى مقارعة الاعداء وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهى دار السعداء فأقدروا رحمكم»
«الله هذه النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمه وترشيحكم»
«لهذه الخدمه فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بانواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون»
«وقر به عينا الانبياء والمرسلون فماذا عليكم من النعمة بان جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدّس فى آخر»
«الزمان والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوّة اعلام الايمان فيوشك ان تكون التهانى به بين أهل»
«الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ونص عليه فى خطابه»
«فقال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله الآية أليس»
«هو البيت الذى عظمته الملوك وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الهكم عز وجل أليس هو»
«البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله ان تغرب وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب أليس»
«هو البيت الذى أمر الله موسى ان يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلان وغضب عليهم لاجله فالقاهم فى التيه»
«عقوبة للعصيان فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل»
«فيه من كان قبلكم من الامم الماضين وجمع لاجله كلمتكم وكانت شتى وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى»
«فليهنكم ان الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم بعد ان كنتم جنودا لاهويتكم جنده وشكركم الملائكة المنزلون»
«على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى»
«الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث فالآن يستغفر لكم املاك السموات وتصلى عليكم الصلوات»
«المباركات فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم»
«ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم واحذروا من اتباع الهوى وموافقة الردى ورجوع القهقرى والنكول عن العدا»
«وخذوا فى انتهاز الفرصه وازالة ما بقى من الغصه وجاهدوا فى الله حق جهاده وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه»
«اذ جعلكم من خير عباده واياكم ان يستزلكم الشيطان وان يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم ان هذا النصر»
«بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد وبجلادكم فى مواطن الجلاد لا والله ما النصر الا من عند الله ان الله عزيز»
«حكيم واحذروا عباد الله بعد ان شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بهذا الفتح المبين وأعلق»
«أيديكم بحبله المتين ان تقترفوا كبيرا من مناهيه وان تأتوا عظيما من معاصيه فتكونوا كالتى نقضت غزلها»
«من بعد قوّة انكاثا والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين والجهاد الجهاد فهو من»
«أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم اذكروا أيام الله يذكركم اشكروا الله يزدكم»
«ويشكركم جدوا فى حسم الداء وقطع شأفة الاعداء وتطهير بقية الارض التى أغضبت الله ورسوله واقطعوا»
«فروع الكفر واجتثوا أصوله فقد نادت الايام بالثارات الاسلاميه والملة المحمديه الله أكبر فتح الله ونصر غلب»
«الله وقهر أذل الله من كفر واعلموا رحمكم الله ان هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوا لها»
«هممكم وأبرزوها وسيروا اليها عزماتكم وجهزوها فالامور باواخرها والمكاسب بذخائرها فقد أظفركم الله بهذا»
«العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون وقد قال الله تعالى»
«ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين اعاننا الله واياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر»
«المسلمين بنصر من عنده إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده»

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفة

«اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك اللامع»
«والمحامى عن دينك المدافع والذابّ عن حرمك الممانع السيد الاجل الملك الناصر جامع كلمة الايمان وقامع»

«عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين مطهر البيت المقدس أبا المظفر يوسف بن»
«أيوب محيي دولة أمير المؤمنين اللهم عم بدولته البسيطه واجعل ملائكتك براياته محيطه وأحسن عن الدين»
«الحنيفي جزاءه واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه اللهم أبق للاسلام مهجته ووق للايمان حوزته وانشر»
«في المغارب والمشارق دعوته اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون وابتلى المؤمنون»
«فافتح على يده اداني الارض وأقاصيها وملكه صياصي الكفرة ونواصيها فلا تلقاهم كتيبة الامزقها»
«ولا جماعة الا فرقها ولا طائفة بعد طائفة الا ألحقها بمن سبقها اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه»
«وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وارجاء الممالك واكنافها اللهم ذلل»
«به معاطس الكفار وأرغم به أنوف الفجار وانشر ذوائب ملكه على الامصار وأثبت سرايا جنوده في سبل الاقطار»
«اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين واحفظه في بنيه وبني أيوب الملوك الميامين واشدد عضده ببقائهم»
«واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم اللهم كما أجريت على يده في الاسلام هذه الحسنة التي تبقى على الايام وتتخلد»
«على مر الشهور والاعوام فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين واجب دعاءه في قوله رب أوزعني»
«أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»
ثم ما جرت العادة به

﴿فصل﴾ في المنبر قال العماد لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه وتكميل حسنه وتتميمه ووضع منبر رسمي في أول يوم قضى به الفرض واحتيج بعد ذلك الى منبر حسن رائق بحسنه لائق وبجماله شائق وبكماله فائق فذكر السلطان المنبر الذي أنشاه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنه وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه فامر ان يكتب الى حلب ويطلب فحمل وعمل على ما أمر به وامتثل فجاء كالروض النضير والوشي الحبير عديم النظير وكان من حديث احداثه ما الهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره اليه وانبعاثه وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه ان البيت المقدس بعده سيفتح وان صدور المسلمين الحرجة لاجله ستشرح وهو من أولياء الله الملهمين وعباده المحدثين المكرمين وكان بحلب نجار يعرف بالاخترينى من ضيعة تعرف باخترين لم يلف له في براعته وصنعته قرين فامره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس وقال له اجتهد ان تاتي به على النعت المهندم والنحت المهندس فجمع الصناع وأحسن الابداع وأتمه في سنين واستحق بحق احسانه التحسين والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل وذكر جميل وأجر جزيل لو كان اليه سبيل وهيهات ان يعود القدس الى الاسلام ويقضي الاصباح فيه على الاظلام فان الفرنج عليه مستولون مستعلون وهم يكثرون على الايام ولا يقلون أما نا صفونا على أكثر اعمال حوران وقابلوا بالكفر الايمان وقد أعجزوا ملوك الاسلام الى اليوم فما أصعب وأتعب وقم القوم ويقول من له قوة اليقين وعرف ان الله كافل بنصرة الدين اصبروا فلسر هذه الامة نبأ وهو كما قال الله تعالى ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور وأثر تقواه للمتقين مأثور أزهد العباد وأعبد الزهاد وهو من الاولياء الابرار والاتقياء الاخيار وقد نظر بنور الفراسة ان الفتح قريب وان الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب ويزيده قوة عزمه جدا وتمده بحياء الحياة الربانية مدا قد طهره الله من العيب وأطلعه على سر الغيب ونزهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الاسلام بعده بركته وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته وهو الذي رباه وليه وأحبه وحباه وهو الذي سن الفتح وسنى النجح واتفق ان جامع حلب في الايام النورية احترق فاحتيج الى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم وشابه المحراب المنبر في الرسم ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله وصح به في محراب الاقصى تفريق شمله وظهر سر الكرامه في فوز الاسلام بالسلامه وتناصرت الالسن بالدعاء لنور الدين بالرحمه ولصلاح الدين بالنصرة والنعمه وقال العماد في موضع آخر من كتاب البرق وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده فامر في حلب باتخاذ منبر للقدس تعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين وابدعوا

في

فى تركيبه الاحكام والتزيين وانفق فى ابداع محاسنه وابداع مزاينه ألوفا وكان لترديد النظر فيه على الايام ألوفا وبقى ذلك المنبر بجامع حلب منصوبا سيفا فى صوان الحفظ مقروبا حتى أمر السلطان فى هذا الوقت بالوفاء بالنذر النورى ونقل المنبر الى موضعه القدسى فعرفت بذلك كرامات نور الدين التى أشرق نورها بعده بسنين وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم والله يحب المحسنين قلت وهذا الذى نسبه الى نور الدين رحمه الله من انه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين وليس بالبعيد من مثل ذلك وكان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصريه وقهر العدو بين يديه مرارا وكان فتح القدس فى همته من أول ملكه فان لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسببا فان الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير وهم أمراؤه واتباعه واجناده واشياعه ثم يحتمل ان يكون رحمه الله وقف على ما ذكره أبو الحكم بن برجان الاندلسى فى تفسيره فانه أخبر عن فتح القدس فى السنة التى فتح فيها وعمر نور الدين اذ ذاك احدى عشرة سنة وقد رأيت انا ذلك فى كتابه ذكر فى تفسير أول سورة الروم ان البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة وأشار انه يبقى بايديهم الى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة قال ونحن فى عام اثنتين وعشرين وخمسمائه فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه ان يمتد عمره اليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقربا الى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه وهذا الذى ذكره أبو الحكم الاندلسى فى تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الامة المرحومة وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن على بن محمد فى تفسيره الاول فقال وقع فى تفسير أبى الحكم الاندلسى فى أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وانه ينزع من أيدى النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه قال وقال لى بعض الفقهاء انه استخرج ذلك من فاتحة السورة قال فاخذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أره أخذ ذلك من الحروف وانما أخذه فيما زعم من قوله تعالى غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين فبنى الامر على التاريخ كما يفعل المنجمون ثم ذكر انهم يغلبون فى سنة كذا ويغلب فى سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير قال وهذه نجامة وافقت اصابة ان صح انه قال ذلك قبل وقوعه وكان فى كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولا هو من قبيل الكرامات أيضا فان الكرامة لا تكتسب بحساب ولا تفتقر الى تاريخ ولذلك لم يوافق الصواب لما دار الحساب على القراءة الاخرى الشاذة التى هى بفتح الغين من غلبت الروم ويوضح ذلك انه قال فى سورة القدر لو علم الوقت الذى أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذى يرفع فيه

﴿فصل﴾ قال العماد وأما الصخرة المقدسة فان الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسه وأعادوا رسومها القديمة دريسه وستروها بالابنيه وعوّجوا أوضاعها بزعم التسويه وكسوها صورا هى أشنع من التعريه وملؤوها بتصاريف التصاوير ونبشوا فى ترخيمها اشباه الخنازير وجعلوا المذبح لها مذبحا ولم يتركوا فيها للايدى المتبركه ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا وقد زينوها بالصور والتماثيل وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه باعمدة الرخام منصبه وقالوا محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح وكان فيها صور الانعام منبثة فى الرخام والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره وبتلك الكنيسة المعمورة مغموره فامر السلطان بكشف نقابها ورفع حجابها وحسر لثامها وقشر رخامها ورحض وضرها ونقض ابنيتها ونقل حجرها وابرازها للزائرين واظهارها للناظرين فبانت من الشين وبانت للعين وحبيت بالقبل وفديت بالمقل فعادت كما كانت فى الزمن القديم وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم وما كان يظهر منها قبل الفتح الا قطعة من تحتها قد أساء الكفر فى بحتها فظهرت الآن أحسن ظهور وسفرت أيمن سفور وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى كل يوم فى مزيد قال وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينيه ونقلوا منها الى صقليه وقيل باعوها بوزنها ذهبا واتخذوا ذلك مكتسبا ولما ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها فهى الآن مبرزة للعيون بحزها باقية على الايام بعزها مصونة للاسلام فى حذرها وحرزها وقال فى البرق ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزا وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شرا مرموزا فان

الفرنج نقلوا منها الى بلادهم قطعا وأبدعوا فيها ابدعا حتى قيل انها بيعت بوزنها ذهبا وأفضى الامر بها ان يكون حجرها منتهبا فغطاها بعض ملوكهم اشفاقا عليها ليلا تمتد يد ضيم اليها فابقت حزوزها في القلوب حزازات وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات واجازات وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد وثبت أركانها بكل تسديد وقال في الفتح ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما حسنا ووقف عليها دارا وأرضا وبستانا وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات وربعات معظمات لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعه وعلى أسرتها موضوعه ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين فأبهج ليلها وقد حضرت الجموع وزهرت الشموع وبان الخشوع ودان الخضوع ودرت من المتقين الدموع واقشعرت من العارفين الضلوع فهنالك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره وكل أشعث أغبر لا يوبه له لو اقسم على الله لا بره وهنالك كل من يحيي الليل ويقومه ويسمو بالحق ويسومه وهنالك كل من يختم القرآن ويرتله ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الاسحار ومن الفته لتهجده الاوراد والافكار وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها وتلحق الشمس أنوارها وتحمل القلوب اليها أسرارها قال وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنه وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الالسنه فما منهم الا من أجمل وأحسن وفعل ما أمكن وجلى وبين وحلى وزين وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر ومن جملة أفعاله المشكوره ومكرماته المشهوره انه حضر يوما في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد احمال ولاجل الصدقة وارفد مال فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق وافتخر ان فاق الكرام بالانفاق وجاء الملك الافضل نور الدين علي بكل نور جلي وكرم ملي وبسط بها الصنيعه وفرش فيها البسط الرفيعه وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه وأما الملك العزيز عثمان فانه لما عاد الى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ولم يرد بعد حصولها به نقلها وكانت احمالا بأموال واثقالا لاكيال وذخائر وافيه وعددا واقيه وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا الناخيلهم وعدتهم فتوفرت بذلك عدد البلد واستغنى به عما يصل من المدد قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماما ومؤذنين وقواما وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين فأحياه وجدده ونهج لقاصديه جدده وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد وانجاح المقاصد واصفاء الموارد للقاصد والوارد وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام وكان ينتابهما فيهما الانام وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صهيون واجناده على بابها مخيمون وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والاكابر الابرار والاتقياء الاخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعيه ورباط للصلحاء الصوفيه فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب اسباط وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفا واسدى بذلك الى الطائفتين معروفا وارتاد أيضا مدارس للطوائف ليضيفها الى ما أولاه من العوارف

(فصل) قال في البرق وشرع الفرنج في اخلاء البيوت وبيع ما ادخروه من الاثاث والقوت وامهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان وكان خروجهم شبيها بالمجان لاسيما ما تعذر لثقله نقله وصعب حمله وكانوا كما قال الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين) فباعوا ما تهيأ لهم على البيع اخراجه رخيصا وابقوا ما لم يجدوا من تركه محيصا وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور أما الصناديق والاخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الانواع والاقسام فانها بقيت بحالها متروكه ولمن يسكن تلك الاماكن مملوكه وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير المزوج من سائر الانواع والذي يذكرون انه قبر عيسى

عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار مثقل من نفائس الحلى بالاوقار فأعاده البطرك منه عاطلا وترك طلا لا ماثلا فقلت للسلطان هؤلاء انما أخذوا الامان على أموالهم فبابال هذا المال وهو بألوف يحملونه فى أثقالهم فقال هم ما يعرفون هذا التأويل وينسبون الينا الماحومناه التحليل ويقولون انهم لم يحفظوا العهد ولم يحفظوا العقد ونحن نجريهم على ظاهر الامان ونغريهم بذكر محاسن الايمان وكانت المهلة انه من عجز بعد أربعين يوما عن اداء ما عليه من القطيعه ضرب عليه الرق بحكم الشريطة ووقف الشريعه فتولاهم النواب بعد خروجنا من القدس وبقى منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفا فى الحبس ففرقهم السلطان وتناهبتهم البلدان وحصل لى منهم سبايا نسوان وصبيان وذلك بعد ان وفى ابن بارزان بالضمان وادى ثلاثين ألف دينار واخرج من ذكرانه فقير بحسب الامكان وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفا واعتقدانه لم يبق غير فقير وبقى بعد ادائه على ماذكرناه كثير وأما النصارى الساكنون بالقدس فانهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامه فاعفاهم ولم يكلفهم الغرامه وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم الوف فثمروا وعمروا وعرّشوا وغرّسوا فلهم منها مجان وقطوف وكانت لامراء الفرنج ومقدميهم مجاورة للصخره وعندباب الرحمة مقبره وقباب معمره فعفينا آثارها ورحضنا أوضارها وقال فى الفتح وأمر السلطان باغلاق كنيسة قمامه وحرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه وتفاوض الناس عنده فيها فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها وتعمية نهج مزارها وقالوا اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار ومهما استمرت العماره استمرت الزياره وقال أكثر الناس لا فائدة فى هدمها وهدها فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولا ينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان قال وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون واستباح كل ما للكفر بها من مصون ثم عمد الى ما جمعه ففرّقه واخرجه فى ذوى الاستحقاق وانفقه فأكثروا عدله على بذله واستكثروا ما افاضه بفضله فقال كيف امنع الحق مستحقيه وهذا الذى أنفقه هو الذى أتقيه واذا قبله منى المستحق فالمنة له علىّ فيه فانه يخلصنى من الامانة ويطلقنى من وثاقها فان الذى فى يدى وديعة احفظها لذوى استحقاقها وقيل له لو ادخرت هذا المال للمآل فقال املى قوى من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الاسراء المطلقين وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم وأساهم وواساهم واذهب أساهم فانطلق كل منهم الى وطنه ووطره ناجيا من ضره وضرره وقال فى البرق سمعت الملك العادل يوما فى أثناء حديثه فى ناديه وهو يجرى ذكر افراط السلطان فى أياديه يقول انى توليت استيفاء قطيعة القدس فانفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاء الى خازنه بكرة وقال نريد اليوم ما نخرجه فى الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شئ باق فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال ففرقتها على رجال الرجاء بيد النوال

﴿فصل﴾ قال العماد وللحكيم أبى الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد قلت قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك ان قال لم أزل من أول ما ولى الملك الناصر الامر فى مصر اعلم انه مؤيد بعناية من الله سبحانه فامتدحته فى سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها فى التباشير

لتظفرنّ بما لم يحوه ملك ❊ أبا المظفر حظا خطه الازل
دليل ذلك آراء لك اقترنت ❊ بالحزم والعزم لم يخصص بها الاول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا ❊ فى سن عشرين وامتدت له الحيل
وانى الثلاثين والاقطار أجمعها ❊ طوع له وملوك الارض والملل

قال ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب ❊ أخرى الزمان لدين كاد ينبستر
زهدت فيما سبى الاملاك منكدرا ❊ علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها ❊ وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال وسدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضا على مائة بيت منها فى التباشير

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها ❊ بنى اصفر بالراعفات اللهاذم
فتسبى فلسطينا وتجبى جزائرا ❊ وتملك من يونان ارض الاساحم
وتعنو لها الاملاك شرقا ومغربا ❊ بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال وبعثت اليه فى غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها

فيا ملكا لم يبق للدين غيره ❊ وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك فى الشام طائر ❊ فقص جناحيه باقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فم العدا ردى ❊ فانهم يأجوج افرغ بها ردما
اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـمقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الاقصى وهمتك العلى ❊ وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فها هو الان تهم وقد أتت ❊ فتوح كما فاض الخضم الذى طما
وان أنت لم ترد الفرنج بوقعة ❊ فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدما
وما كل حين تمكن المرء فرصة ❊ ولا كل حال أمكنت تقتضى غنما
وليس كفتح القدس منية قادر ❊ وما ان تلقاها سوى يوسف جزما

قال وأنشأت قصيدة أخرى فى سنة اثنتين وثمانين وحضرت بها بين يديه منها

الله أكبر أرض القدس قد صفرت ❊ من آل الاصفر اذ حين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم ❊ من غير تيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين ان يخرج عداتهم ❊ عنها والاعدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا ❊ ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من ❊ قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر يجفل من ❊ غاراته الروم والصقلاب واللان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة ❊ ويرهب القنول بالثالوث رهبان
ولابن أيوب فى الافرنج ملحمة ❊ دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك بالارض من ملك ❊ كأنه ملك فى الخلق حنان

ثم قال وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها

فى باطن الغيب ما لا تدرك الفكر ❊ فذو البصيرة فى الاحداث يعتبر
مالى أرى ملك الافرنج فى قفص ❊ أين القواضب والعسالة السمر
والاسبتار الى الدواية التأموا ❊ كأنهم سد يأجوج اذا اسجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها ❊ وفى المقادير ما تسلى به السير
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب ❊ بحا فل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا ❊ تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا ❊ كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا ❊ فى ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا ❊ وهو الغضنفر اعدى ظفره الظفر

امـلى عليهـم فصار واوسط كفته * كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعـده * ونذره فى كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس فى دمه * فـات حياوحيى وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه * والنجم يخدمه والشمس والقمر
اذا بدا أتبهر الاعيان هيبته * ويختفى وهو فى الاذهان مشتهر
تقدم الجيل فى أخرى الزمان به * على صدور علا من قبلنا صدروا
أما رأيتم فتوح القادسية فى * اكناف لوبية تجلى وذا عمر
والحق يعرس والطغيان منتحب * والكفر يطمس والايمان مزدهر
هذا المليك الذى بشرى النبى به * فى فتنة البغى للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت * له الرواة بما لم ينه أثر
أعين اسكندر بالخضر وهو له * عون من الله يستغنى به الخضر
وصنع ذى العرش ابداع بلا سبب * فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
بيناسبا ياه تجلى فى دمشق اذا * ملك الفرنج مع الاتراك محتجر
ازاء ه زعماء الساحلين معا * مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا * وحوله كل قسيس له زبر
ونحن فى ذا وذا طير صحيفته * بفتح عكا التى سدت بها الثغر
تغزوا اساطيلنا منها صقلية * فتذعر الروم والصقلاب والخزر
من ذا يقول لعل القدس منفتح * اليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها نفذ سفنا * من باب عكا الى طرطوش تنتشر
يسبى فرنجة من أقطارها وله * مع المجوس حروب قد حها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب * وبعضهم رومة الكبرى له وطر
براية تخرق الارض الكبيرة فى * جمع تقول له الاجسام لاوزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما * بدأت فالصب للمحبوب مدكر

وأما القصائد القدسيات التى له فمنها التائية له وقد تقدم ذكرها ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصاريف دهر اعربت لمن اهتدى * وبسطه أمر اغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب * وفى صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال ابرمت لاسارنا * فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا * فبعناهم بالرخص جهرا على الندا
وجروا جيوشا كالسيول على الصوا * فأضحت غثاء فى البطاح ممددا
وقالوا ملوك الارض طوع قيادنا * اذا الكل منهم فى القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا * فأودع سجنا وسط حلق مؤصدا
وأقسم أن يسقى بدجلة خيله * فما ورد الاردن الا مصفدا
فكم واثق عجلان قهقه خصمه * وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
اتى الكند من اسبان يحيى قيامة * فكان تقضى ملكه قبل يبتدى
فما عقد الرايات الامحللا * ولا حلل الرايات الامعقدا
ووقعة يوم التل اذ اقبضت به * جبابرة الافرنج حيرى وشردا

عليهم من البلوى سرادق ذلة * ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقى سلاحه * وينساق ما بين السبايا مَلهدا
يباعون اسراباشرائح احبل * كشلة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق فى مأتم * يسرونها الاشجى وتنهدا
ألم تر للسلطان صدق نذره * دم الغادر الابرنس فاقتيد اربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه * وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الارض مهربا * فادركه الموت المفاجئ مكمدا
وماطرق الاسماع من عهد آدم * كلحمة التل التى تلت العدا
أتوا واديا مازال يشفى خبائثا * ويصفى بعقبى الدار طائفة الهدى
به جمّت أصحاب ليكة وهى فى * ذراه وذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا * لامر صلاح الدين فى الناس مخلدا
واعدى جنود الرعب بردى عداته * وسلم جميع المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل * سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بن بدر النابلسى

هذا الذى كانت الآمال تنتظر * فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت * فى سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا * لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب فى مضاجعها * ونام من لم يزل حلفا له السهر
يا بهجة القدس اذ اضحى به علم الـ * ـاسلام من بعد طى وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت * بعد الصليب به الايات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به * وبين ذى منطق يصغى له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له * شم الذرى وتكاد الارض تنفطر
يا مالك الارض مهدها فما أحد * سواك من قائم للهدى ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلى ثمرا * الا لتعلو به اعلامك الصفر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة * فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا احاديثا وكانوا قبل حادثة * على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها * حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
هذا الذى سلب الافرنج دولتهم * وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
مراكزا ما اختطاها الخوف مذ مائة * عاما ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أصرح باسماء البلاد فقد * أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجمال قولى عن مفصله * فى لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهى طويلة وله من قصيدة أخرى

الم بدار الناصر الملك الذى * فى كفه للجود سبعة أبحر
فاذا مررت بملكه وفتوحه * فاسخر بما يروى عن الاسكندر
واذا بصرت بجاشه وبجيشه * فاحث التراب على ذؤابة سنجر

وللشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة

كبرت على كسرى لعبدك دولة * قصرت مهابتها تطاول قيصر

اهدى صلاح الدين للاسلام اذ ❊ أدى قبيل الكفر مالم يكفر
رب المـــلاحم لم يؤرخ مثلها الـــعلماء قدما فى قديم الاعصر
خلعت عليه خلعة الملك التى ❊ زيدت بهارا بالطراز الاخضر
رايانه صـــفرا تؤود وتنثنى ❊ حمرا تمج نجيع آل الاصفر
لم تدن شوس الملوك له وقد ❊ ملك السواحل فى ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة ❊ من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالــــبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه ❊ بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحا ❊ عمر فانت شريكه فى المتجر
حتى جمعت لمعشر الاســـلام بيـــن الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـــحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنه انسان عــــين صورة ❊ يلقاك اســـوده بمعنى أنور

❊(فصل)❊ فى حصار صور وفتح هونين وغير ذلك قال العماد ثم ان السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال ويفرق الاموال حتى وردت كتب سيف الدين على بن أحمد المشطوب وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت وهما مجاورتان لصور فكتب يحرض السلطان على حصار صور فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان وأخذ صوب عكا وسبقه اليها الافضل وتقى الدين وودع السلطان ولده العزيز ورده الى مصر فكان آخر عهده به واستصحب السلطان أخاه العادل فوصلا الى عكا مستهل رمضان فاصلح من شأنها ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بازاء السور بعيدا منه على النهر ومعظم البلد فى البحر وهى مدينة حصينه متوسطة فى البحر كانها سفينه وكان المركيس الذى فى صور قد حفر لها خندقا من البحر الى البحر وبنى بواشيره واحكم فى التعمير تدبيره واستظهر بتكثير العدد والعدد واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس فاقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوما حتى تلاحقت الامداد وكثرت العدد وآلات الجهاد ورتبت المنجنيقات ثم حوّل السلطان مضاربه الى تل قريب من السور يشرف منه ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقى الدين فحصروهم وضايقوهم ووصل فى تلك الايام من حلب الملك الظاهر غازى ولد السلطان بعسكره الحلبى فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصرى وكان بعكا فجاء منه عشرة شوانى وكان للفرنج فى البحر مراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها فاحاط بهم المسلمون وقاتلوهم برا وبحرا فبينما هم فى أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر اذ ملك الفرنج خمسة من شوانى المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربى ومتوليه بدران الفارسى وألقى جماعة أنفسهم فى البحر من ناج وهالك وذلك انهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور الى السحر ثم غلبهم النوم فما انتبهوا الا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم فاصبح المسلمون وقد انثلموا وأتاهم من الامر مالم يعلموا ونفذ السلطان الى المراكب الباقية ان يسيروا الى بيروت وخاف عليها لقلتها ان يستولى عليها عبدة الطاغوت فنجا منها شينى رئيس جبيل والباقون نظروا الى الفرنج ورآهم فالقوا أنفسهم فى الماء وخرجوا الى البر على وجوههم ثم ان الفرنج بعد هذا اطمعت فخرجت يوما وقت العصر مستعدة للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين وأسر مقدم كبير لهم وظن انه المركيس فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان المركيس بعد فى الحياة فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لانهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال وتقل الاموال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأى السلطان والاتقياء من الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النورى الثابت الجنان الى الفتح لئلا يضيع ما تقدم من الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا ولا تعجلوا

فاظهروا الموافقة وفى أنفسهم مافيها فلم يصدقوا القتال وتعللوا بان الرجال جرحى والعلوفات قد قلت فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الاثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقى لئلا يناله العدو ورحل فى آخر شوال وهو أول يوم من كانون الاول وسار تقى الدين الى دمشق على طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا فوصلها فى ثلاث مراحل لانه سلك طريق الناقورة وهى طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبر بها الاجمل جمل فعبرت بها الاثقال والاجمال فى اسبوع وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها الى ان يعرفوا عبور الثقل وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقى الى بلاده قال وفى مدة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخى عز الدين جاولى انه استشهد فى عفربلا تحت حصن كوكب كبسه الفرنج فيها ليلا وذلك انه كان قد بقى على السلطان بعد ما فتح من بلاد العدو من جملة اعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب وكان فى صفد جمهرة الداويه وفى كوكب جمهرة الاسبتاريه فاحتاج السلطان فى فتحهما الى المطاولة فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتى ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محمودا فاقام فى حصن عفربلا وهو قريب من حصن كوكب ونغص على المقيمين فيه المطعم والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاختلت الحراسه واعتلت السياسه فلما كانت ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة ماطره حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلبهم النعاس فما استيقظوا الاوفرنج كوكب عليهم باركه فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب وكان هذا الامير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين وهو يسهر أكثر ليله متهجدا وقد جعل منزله مسجدا فجمع بين التهجد والجهاد وكان كثير الاجتهاد فاغتم السلطان بمصابه وزاد تألما الى مابه وتقدم الى صارم الدين قايماز النجمى ان يرابط كوكب فى خمسمائة فارس ففعل ولم يزل بها الى ان فتحت كما سيأتى قال وفتحت هونين والسلطان محاصر صور وكان لما فتح تبنين قد امتنعت عليه هونين فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الامان وجاء خبرها الى السلطان وهو على صور فنفذ الامير بدر الدين دلدرم ففتحها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين وكان قد بقى أيضا من عمل صيدا قلعة أبى الحسن وشقيف ارنون وأقام السلطان بظاهر عكا ناظرا فى أمور رعيته ثم دخلها وسكن بالقلعة الا فضل برج الداويه وولى عكا عز الدين جرديك ووقف دار الاسبتار نصفين نصفا على الفقهاء ونصفا على الصوفيه ووقف دار الاسقف بيمارستانا ووقف على كل من ذلك كفايته وأظهر به عنايته وسلم جميع ذلك الى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبى النجيب وهو فى ذلك مصيب

(فصل) فى ورود رسل التهانى من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق قال العماد ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنئ السلطان بما أفرده الله به من الفضيله وأقدره عليه من نجح الوسيله وهو فتح القدس الذى درجت على حسرته القرون الاولى وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى فما منهم الا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه ويخطب بصداقته ويتقرب بالوفاء والوفاق ويتباعد عن الشقاء والشقاق فمن جملتهم رسول صاحب الرى ورسول المستولى على ممالك همدان واذربيجان واران فما من يوم يمضى وشهر ينقضى الا ويصل منهم رسول ويتصل به سول وذكر العماد فى البرق انه وصل الى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل ارسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولى على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان ثم ذكر من خرقه فى كرمه شيئا كثيرا ثم قال وهذا كله لا يكون فى بحر سلطاننا جدولا كان السلطان مذهب المذهب ظاهر المحفل والموكب قد خصه الله بالصدر الارحب والنصر الاغلب عزمه الى الجهاد مصروف وخلقه بالمعروف معروف وهمه بالسماح مشغوف ما يفتحه بالسيف فى البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف فى الجهاد وللخالق تقواه وللمخلوقين جدواه وانما يريد للآخرة دنياه فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه قال ولم يكن فى الملوك السالفة أمضى منه عزما وأجدى فضلا وأعم جدوى وأكمل جهدا فى الجهاد واملك جلدا على الجلاد فانه باشر بنفسه الحرب ومارس الصعب وقذف بالحق حين حققه على

الباطل

الباطل فازهقه ولا حدّ ولا عدّ لما فى سبيل الله من نفائس النفوس والاموال انفقه ومن أوّل هذا العام الى منتهاه لم يخف لورده لبد ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقى فى فصلى القيظ والقر مض الحر وعض البرد بحر وجهه الكريم وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل انما تسنى بشهر سيفه فى فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الاسلام وشدّ ظهوره وأنشد العماد للقاضى الفاضل فى وصف اسيافه

ماضيات على الدوام دوامى ❊ هى فى النصر نجدة الاسلام
فى يمين السلطان ان جردتها ❊ أشبهتها صواعق فى غمام
تنثر الهام كالحروف فما أشـ ❊ ـبه هذى السيوف بالاقلام
فى محاريب حربه البيض صلت ❊ وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه فى التوسط بين الاصدقاء (ما دخل بينكم الا كدخول المرود فى الاجفان يرد اليها ما ذهب منها من النور والغمض او كالنسيم بين الاغصان يعطف بعضها على بعض)

قال العماد ووصل أخى تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة فى العتب على احداث ثقلت وأحاديث نقلت ووشايات أثرت وسعايات فى السلطان شعثت وذلك فى شوّال ونحن على حصار صور وسبب ذلك انه لما تم الفتح الاكبر وخص وعم النجح الاظهر وقطع دابر المشركين وحط اقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بحطين أمرنى السلطان بافشاء كتب البشائر الى الآفاق وتقديم البشرى به الى العراق فقلت هذا فتح كريم ومنح من الله عظيم فلا ينبغى ان يكون مبشر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرحمة والرافة الامن هو عندنا أجل وأجلى وأعلم وأعلى وأجمع لفنون الفضائل وأعرف باداء الرسائل فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع فقال هذه نصرة مبتكره وموهبة مبشره بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيرا ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا وكان فى الخدمة شاب بغدادى من الاجناد قد هاجر للاسترفاد وتوجه بعد وصوله وتنبه بعد خموله فسأل فى البشارة الى بغداذ وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ وشفع له جماعة من الاكابر حتى حظى باشرف البشائر فقلت هذا لا يحصل له وقع ولا يصل اليه نفع والواجب ان يسير فى مثل هذا الخطير خطير ويسفر فى هذه النصرة الكبرى كبير ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب ولما فتح البيت المقدّس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب ووصل البشير الجندى فحقروه وما وقروه فانه كان عندهم منظورا بعين الاحتقار فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من النقد والعين ونقم على السلطان أرسال مثله وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه وبدرت منه أحاديث نسبت اليه وقال فى سكره وحالة نكره ما نعرض عن ذكره تخيل وموّه وتنكر وتكره وظن ان لكلامه أصلا وللفظه متواصلا وانهيت الى العرض الاشرف مقالاته وعلمت جهالاته وتجنى على السلطان بارساله وطرق الى هداء ما انكروه من مقال المذكور وضلاله ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا وطلبوا الشمل استبعاده بالخدمة تفريقا واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدوله ويغلب الصوله وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام الناصر ويدل بما له من القوّة والعساكر فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الامر المطاع بارسال أخى وانفاذه وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا فى كشف سر الامر بالمراد فان أخاه هناك مطلع على الاسرار وهو منتظم فى سلك الاولياء الابرار وعوّل عليه الديوان فى السفاره وردّ معه جواب البشاره وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب ومكدرات موارد القرب والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه والمعاتبة مع شدّتها للعواطف الامامية لينه فسار الاخ الى دمشق وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا جاحد النعمة شاكيا وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات فقلت له اسكت واصمت وقلت للسلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان فقال نعم ما قلت ولما قرب أخى أصبحت لقدومه انتخى فأمر السلطان الامراء على منازلهم باستقباله وتقدم لجلالة قدومه باجلاله وتلقاه الملوك الحاضرون العادل والمظفر والافضل والظاهر

ثم ركب وتلقاه بنفسه وخصه من تقريبه بأنسه ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ومصارع الكفار ثم نزل وأنزله بالقرب ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لى وله وحده فأدى الامانة فى مشافهته ووجه مقاصده فى مواجهته وأحضر التذكره وقد جمعت المعرفة والنكره فقرأتها عليه وكانت فى الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطه وخيلت سقطه وجلبت سخطه وقال ان الامام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ايداع هذه المعانى فى ارق منها الفاظا وأرفق وأوفى منها فضلا وأوفق معاذ الله أن يحبط عملى ويهبط أملى وامتعض وارتمض ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف وقال أما ما تحمله الاعداء وعدا به المتمحلون فما عرف منى الا الاعتراف بالعارفه وذكر السلطان أياديه السالفه فى الفتوحات واقامة الدعوة العباسيه بمصر واليمن وازالة الادعية وابادة الاعداء وفتح البيت المقدس قال وأما النعت الذى أفكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر فهذا من عهد الامام المستضئ والآن كل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فانه اسمى لى من الذى هو اسمى وأشرف وأرفع وأعرف وما عزمى الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين ثم ندب مع أخى من سار فى خدمته لزيارة القدس ثم ودعه واودعه من شفاهه كل ما فى النفس وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ومضى ما مضى وكان جماعة من الملوك والامراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل فى حقه وأرادوا ان يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب وتلقى ذلك بصدر رحيب ولفظ مصيب قلت ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين ابن ذياده من الديوان العزيز ببغداد الى السلطان صلاح الدين وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزه يقول فيه (لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به والمنافسة فيه لما جوهر بالعتاب ولا رفع دونه الحجاب بل كان يترك معه الامر على اختلاله ويدمل الجرح على اعتلاله وقد ذكرت الاسباب التى أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليوعيها سمعه الكريم ويستورى فيها رأيه الاصيل وينصف فى استماعها والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولا مؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولى هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية فى رأب التنائى والاصلاح فان اجبار الدواء المقر لا يتهم فيه الطبيب المجتلب للعافيه) ثم ذكر من تلك الامور (ان من انتفى من العراق بسبب من الاسباب لجأ الى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه وكان الادب يوجب ابعاد من ابعد عنه وتقريب من قربه اليه) ثم قال (وان مما أضحك بثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام واشباه الانعام وطغام الشام من الخوض فى المذاهب والانتهاء فى التشيع الى اختلاف كل كاذب ومنها ما جرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج وارهاج تلك الفجاج والاقدام على مناسك الله وشعائره وأيقاد سعير الفتنة فيها وثوائره واحتذاء السيرة القاسطه واحياء بدع القرامطه ما نفر منه كل طبع ومجه كل سمع فكيف جاز لصلاح الدين ان يرخى عنان أخيه فيما يقرض سوابقه وأواخيه ومنها ما قضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والادب وهو ما اوجب التلقب باللقب الذى استأثر به أمير المؤمنين) ثم قال (وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوّخوا البلاد وأسرفوا فى العناد وجاسوا خلال الديار وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك واقتحموا من الشقاق أشق المهالك فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب الى المشاركة فى اللقب ومن الحكم الذائعة فى وجيز الكلام الذى يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والاكراد وهم اسلتهم ومهاداتهم وقرع اسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم وفل عزائمهم وهم لا يعرفون الا انهم رعية للعراق وخول للديوان يرثون الطاعه خالفا عن سالف) ثم قال فى آخر الكتاب (وهذا كله لا أقوله انكارا لجلائل مقامات صلاح الدين ومشاهير مواقف جهاده فى سبيل المؤمنين فانه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده والمربى على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتى من بعده وهو الولى المخلص الذى عهد فوفا واستكفى فكفا وطب فشفا فكيف يجوز له بسعادته ان يهجن مساعيه الغر المحجله ويخرج من مكانته المكرمة المبجله ويبطل حقوقه الثابتة المسجله) ثم قال (فقد علم كل من نظر فى التواريخ والآثار ونصحته بصيرته فى التبصر والاعتبار ان هذا البيت العظيم ما زال برفع الاقدار الخامله فينزون عليه بطرا فيغار الله له منتصرا ويعقبه عليهم اظفارا

وظفـروا كدأب آل طولون وآل سامان وآل بويه وآل سلجوق وقرونا بين ذلك كثيره فمن الذى زازلوه فثبت ومن الذى حصـدوه فنبت وأى نار أوقدوها فما خبت) ثم قال فى آخره (اللهم قد بلغت وللرأى الصلاحى ما يزيد علوه ان شاء الله تعالى) وذكر ابن القادسى ان الجندى الذى أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجى قال وكان صبيا كثير الادبار مشمرا فى دروب بغداد ثم توجه الى الشام هاربا من الفقر فحين وصل الى بغداد رسولا قامت القيامة بمراسلته وكتب الى صلاح الدين بالانكار عليه وقيل له اما كان فى أصحابك أمير من هذا نرسله الى الديوان فاعتذر صلاح الدين ووصلت كتبه بالاعتذار وقبل عذره وأما ابن البوشنجى فانه حين وصوله الى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين فأنكر ذلك عليه فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته

(فصل) فى باقى حوادث سنة ثلاث وثمانين فيها قتل الامير شمس الدين ابن المقدم وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها قال العماد وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون نحرم من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام ونفوز بالحج مع ادراك فضيلة فتح بيت المقدس فى هذا العام فالحج والجهاد ركنا الاسلام فاجتمع جمع جم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام وسار بهم الامير شمس الدين ابن المقدم شيخ أمراء الاسلام الكرام فودعه السلطان على كره من مفارقته واستمهله ليحج فى السنة الاخرى على مرافقته فقال ما معناه ان العمر قد فرغ والامر قد بلغ والشيب قد أنذر والفرض قد أعذر فاغتنم فرصة الامكان قبل ان يتعذر فمضى والسعادة تقوده والشهادة تروده حتى وصل الى عرفات وماعرف الآفات وشاع وصوله وذاع قفوله وضربت طبوله وسالت سيوله وجالت خيوله وضربت خيامه وخفقت اعلامه فلما أصبحوا انفرت كالعادة نفاراته ونعرت بوقاته فغاظ ذلك أمير الحاج العراقى فركب اليه فى احزابه فأوقع به وبأصحابه وابلاهم بجراحه ونهابه وجرى حكم الله الذى كان الطبل أوكد اسبابه وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا وهتكت أستارهم وافتضحوا ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدم الى خيمته وهو مجروح وفيه روح وحمله معه الى منى فقضى ودفن بالمعلى وتم ذلك بقضاء الله وقدره فى تقلب حوادث الدهر وغيره وارتاع أمير الحاج بما اجترمه وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه وكيف عدا على الحاج العائذ بالله وسفك دمه فكتب محضرا على ما اقترحه بعذره فيما اجترحه والزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ماعينه من المراد فكتبوا مكرهين غير مشتهين وكان عذره انه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى فلما انتهت الحالة الى الخليفة أنكرها انكارا شديدا ونسبها الى طيش طاشتكين ولم يجد له رأيا سديدا فلاجرم اتضع عنده قدره واتضح له وزره ووهى أمره وادخرها له حتى نكبه بها بعد سنين وحبسه بها وأطال سجنه ثم عفا عنه بعد مدة مديده وشدة شديده وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها وولى امارة الحاج غيره ولما وصل الى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته لامه على ترك الحزم واضاعته فاحتسبه عند الله غازيا شهيدا ساعيا الى الجنة بقدمه سعيدا وأقام ابنه عز الدين ابراهيم فى بلاده مقامه وأقر عليه انعامه وقال محمد بن القادسى فى تاريخه ونقلته من خطه أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علما على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين وجرت بينهما مراجعات افضت الى الخصومة بين حاج العراق وحاج الشام ونهب البعض البعض وجرت جراحات فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة فى ذلك ومات ابن المقدم بمنى فى اليوم الثانى ووصلت النجابة من مكة فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدم وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج فقرئ ذلك بجامع القصر الشريف قال وفى ثانى شوال من هذه السنة توفى أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذى الشاعر وكان كاتبا بديوان المقاطعات وخدم بيت ابن رئيس الرؤسا وأضر فى آخر عمره ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه قال وفى خامس رمضان توفى الفقيه الحنبلى أبو الفتح نصر بن فتيان بن مطر المعروف بابن المنى وكان فقيها زاهدا صالحا عالما مولده سنة احدى وخمسمائة وتفقه عليه جماعة من أئمة الحنابلة كالحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور وأخيه ابراهيم والشيخ الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ومحمد بن خلف بن راجح والناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى وغيرهم

﴿ثم دخلت سنة أربع وثمانين﴾ قال العماد خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الاوسط من المحرم فحاصرها وصابرها أياما فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها ورآها تحتاج الى طول مصابرة ومرابطه ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه وانما كان في خواصه فوكل بها قايماز النجمي ووكل بصفد طغرل الجاندار كل واحد منهما في خمسمائة وسيرا الى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الاسدي وكانت هذه الحصون الاربعة ضيقة المسالك صعبة المدرك قال ثم ان السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن نور الدين محمد بن قرا ارسلان وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان لانها كانت لهم من مواهبه كما سبق فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار الى مصر وقدم رسولهم في ذلك فتمت الوصلة بينهما قال وأول من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج ارسلان بالروم وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلي والديباج والوشي في يديه زنود وخواتيم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة وفي عقودها درة يتيمة وفي يده عود من العسجد وكل عدته تبرها مجوهر وكان اذ شاهده السلطان تبسم وعامله بخلقه وقال هذا سافر بنضاره لينظر و بدينار ليبصر وقال القاضي ابن شداد لما دخلت سنة أربع وثمانين رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيء أمرها فاشتغل بذلك ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل المحرم وكان سبب بداءته بكوكب انه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل اليهم قوة أو حماة فخرج الفرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا فانه كان قد أعطى العساكر دستورا ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة قال وفي تلك المنزلة وصلت الى خدمته فاني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشتكين على ضرب الطبول والدبدبة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من أكبر أمراء الشام وكان كثير الخير كثير المغزاة فقدر الله انه جرح بعرفة يوم عرفه ثم حمل الى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلى وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان قدس الله روحه فشق عليه قال ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة أبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق ثم خرجت الى القدس فبلغه خبر وصولي فظن اني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام والاحترام ولما ودعته ذاهبا الى القدس خرج الي بعض خواصه وأبلغني تقدمه الي بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس فظننت انه يوصيني بمهم الى الموصل وانصرفت الى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب ورحل رحمه الله لانه علم ان هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الى دمشق وكان دخوله اليها في سادس ربيع الاول وفي ذلك اليوم اتفق دخولي الى دمشق عائدا من القدس فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام وكان له غائبا عنها أربعة عشر شهرا قال وفي اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج انهم قصدوا جبيل واغتالوها فخرج مترجا ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب جبيل فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الى حلب قاصدين الخدمة للغزاة فسار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة ووصلت اليه رحمه الله في هذه المنزلة فانه كان قد سير الي الى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص فخرجت على عزم المسير الى الموصل متجهزا لذلك فوصلت اليه امتثالا لامره فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني وكنت قد جمعت له كتابا في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه فقدمته بين يديه

فأتحبه وكان يلازم مطالعته ومازلت أطلب دستوراتى كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ويستدعينى للحضو فى خدمته فى كل وقت ويبلغنى على ألسنة الحاضرين ثناؤه علىّ وذكره اياى بالجميل فأقام فى منزلته تلك شهر ربيع الآخر اجمع وصعد فى أثنائه الى حصن الاكراد وحاصره يوما يحسبه به فما رأى الوقت يحتمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس فى هذا الشهر دفعتين ودخل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها من العساكر وتقوية للعساكر بالغنائم ثم نادى فى الناس فى أواخر الشهر انا داخلون الى الساحل وهو قليل الازواد وهو محيط بنا فى بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سيرالىّ مع الفقيه عيسى وكشف لى انه ليس فى عزمه أن يمكننى من العود الى بلادى وكان الله تعالى قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته وحب الجهاد فاحببته الى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى وهو يوم دخوله الساحل الاعلى وجميع ما حكيته من قبل انما هو روايتى عمن أثق به ممن شاهدوه ومن هذا التاريخ ما أسطر الا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبرا يقارب العيان والله الموفق

﴿فصـــل﴾ قال العماد كان جماعة من أهل الحزم وأولى العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفية آثارها وان يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج اليها وتملكها وان تبنى قلعة القيمون فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيره وعمارة كثيره وأشير عليه بتبقيتها وان تعمر وتحصن فولى أمر عمارتها وتدبيرها الامير بهاء الدين قراقوش وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب فى تلك العمارة فقدم عليه وهو بكوكب ففوض اليه عمارة عكا فشرع فى تجديد سورها وتعلية ابراجها وكان قد قدم من مصر ومعه اساتيذ العمل وانفاره وآلاته ودوابه وابقاره قال ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الاوّل ودخل دمشق فى سادسه وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة فى الربيع وانه يجتمع على حمص بالجميع وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها وتجنب عقبة فيق لاستصعاب رقيها ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء فقد كانوا متعطشين الى رؤيته ومتشوقين الى طلعته لانه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام فكسر فيها الكفر ونصر الاسلام وفتح فيها الارض المقدسة واشباهها من البلاد التى كانت باوضار الكفر منجسه فأصبحت بالايمان مؤسسه فلما استقر قراره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الاجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد وابتدأ بالجلوس فى دار العدل وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل قال وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودودا المعروف بالشحنه وهو أخو عز الدين فرخشاه لامه وفوض اليه فى هذه الايام ولاية الديوان وكان مع الصفى ابن القابض فبقيت معه الخزانة وحدها وكان الصفى قد بنى للسلطان دارا مطلة على الشرفين بالقلعة وانفق عليها أموالا كثيرة وبالغ فى تعبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفا ولا استحسنها وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التى أوجبت عزله عن الديوان وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت وما خلقنا الا للعباده والسعى للسعاده وما جئنا دمشق لنقيم وما نروم ان لا نريم قال ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضى الفاضل وكان مقيما بجوسق أين الفراش بالشرف الاعلى فى بستانه فاستضاء برأيه فيما يريد فعله وكان لا يأتى أمرا الا من بابه فأقام عنده الى الظهر ثم ودعه ورحل

قلت وما أحسن ما قال ابن الذروى فى الآراء الفاضلية من قصيدة مدحه بها

أرأيك هذا النصر للدين ينتمى ❋ فلا ينتحله كل عضب ولهذم
وان كان فيه للاسنة والظبى ❋ مساعدة فالفضل للمتقدّم
تشير على الاسلام منك فراسة ❋ لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها ❋ قواطع بترا ونوافذ اسهم
الا حبذا فتح نشرت لواءه ❋ وقلت لخيل الله ياخيل أقدمى
وقت وقد نام الانام مناجيا ❋ بمولاى نجّ المسلمين وسلم

﴿فصل﴾ فى دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح ما يسره الله تعالى من بلاده قال العماد ثم رحل السلطان فسلك فى جبل نبوس الى عين الجر الى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك وخيم بمرج عدّوسة ثم رحل على

سمت النبوة ثم أتى الدرّاعه ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار فى جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصى ولما تراآى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران واجتمع السعدان وسعد الجمعان فخيم السلطان عند مخيمه وسأل ان يزوره السلطان بموكبه فاجاب دعوته ثم رتب السلطان يوما لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا وكان أيام المشمش وقد وصل من دمشق فافرح قدومه وطلعت فى ابراج الاطباق نجومه كأنها كرات من التبر مصوغه وبالورس مصبوغه صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية حلا منظرا وذوقا ولو نظم جوهره لكان طوقا كأنما هو خرط من الصندل وخلط بالمندل وجمد من الثلج والعسل وتصاحب هو والسلطان فى الركوب والجلوس والتناجى بما فى النفوس وتكررت المشاوره فى الموضع الذى يبتدأ بقصده واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها وانها اذا ملكت ملكت طرابلس فاقاموا بقدس الى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع ووصلت قبائل العربان ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر وخيم بقرب حصن الاكراد على البقيعة ثم شن الاغارة على نواحى الحصن وصافيثا والعريمة وتلك الحصون فاستخرج ما فيها من المخزون وفتح حصن يحمور وسامة الدمور ولم تزل الاغارات والغنائم وهم فى تلك المنزلة الى آخر الشهر فوصل قاضى جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فاشار على السلطان بقصدها وتكفل بفتحها وفتح اللاذقيه وتلك الحصون والمعاقل الشماليه وكانت تلك البلاد قد سلمها اليه ابرنس انطاكية وعوّل عليه فيها وقال ان الاشتغال بطرابلس مع احترامها يذهب الزمان ويفوّت الامكان والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم فاصغى السلطان الى قوله وأصغى له ورد طوله وكان قد وصل اليه مقدمو جبل بهرا فوفر لهم رواتبهم وأجرى فندبوا الى أتباعهم وكتبوا الى أشياعهم

﴿فصل﴾ فى فتح انطرطوس قال العماد واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى فسرنا فى أجام مؤتشبه واكام معشبه وحزون وسهول وشعاب وتلول حتى خرجنا الى ساحة الساحل ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل فى ثلاث مراحل حتى وصلنا الى انطرطوس سادس الشهر فاحدقنا بها من البحر الى البحر فاخلى الفرنج البلد وما خرجوا الى الحصر واجتمعوا فى برجين عظيمين هما لانطرطوس كالقلعتين ونقلوا اليهما من الاموال ما قدروا عليه فحصر مظفر الدين كوكبرى أحد البرجين حتى أنزلهم بالامان ثم نقبه من أساسه وألقاه على أم راسه وعجل دماره ورمى فى البحر أحجاره وملك جميع ما فيه وامتنع البرج الآخر وفيه الداويه وشوكتهم ومقدمهم الذى أسر يوم حطين وأطلق لما سلم ما اشترط عليه من البلاد ثم اجتمع باصحابه فى هذا البرج وقوّوا بآلات الحصر فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه وقال القاضى ابن شدّاد دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أوّلا ومقدمها عماد الدين زنكى والقلب فى الوسط والميسرة فى الاخر ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين وسار على الثقل فى وسط العسكر حتى أتى المنزل فتهنا تلك الليلة فى بلد العدوّ ثم رحل فى صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقابلها ولم يعرض لها ولكن أقام عليها بقية يومه ورحل يوم الاحد ووصل الى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان فى عزمه الاجتياز الى جبلة فاستهان بامرها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسرى بايديهم وأموالهم وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالكسب والنهب ووفى بقوله رحمه الله فانه كان قد عرض عليه الغدا فقال نتغدى بانطرطوس ان شاء الله تعالى وعاد الى خيمته فرحا مسرورا وحضرنا عنده للهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما الى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه وأخذ من كان فيه وأمر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيا بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيهما من الخيالة والمقاتلة فيه وخندقه فيه الماء وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه فاشتدّ فى خراب السور حتى أتى عليه وخرّب البيعة وهى بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من أقطار بلادهم

وأمر بوضع النار فى البلد فانحرق جميعه والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير وأقام عليها يخربها الى رابع عشر الشهر وسار يريد جبلة وعرض له ولده الظاهر فى أثناء طريق جبلة ومعه العساكر التى كانت بتيزين

﴿فصل﴾ فى فتح جبلة وغيره قال القاضى ابن شداد وكان وصول السلطان الى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقا بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة فقوتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها وسلمت بالامان يوم السبت تاسع عشر الشهر وأقام عليها الى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقيه وقال العماد بعد فتح انطرطوس وصل اليناريحال جماة فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام وكانت الطريق الى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل وهنالك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب مأهول معمور ولا طريق له الا تحت تله واتفق ان طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج فى الساحل جهز اسطولا يشتمل من الشوانى على ستين قطعة بحسب كل واحدة منها قلعة أوتلعه وقدم عليها طاغية يقال له المرعريط فوصل وماضر ولا نفع فان فرنج الساحل ما رفعوا به رأسا وتضجروا منه وكان فى عشرة آلاف رجل يحتاجون الى ميره وكلف كبيره فسار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد فى البحر وتلدد وابلس واضطرب أشهرا لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهرا فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل الى جبلة جاء بالشوانى وصفها على موازاة الطريق ومباراة المضيق وفيها الرماة فأمر السلطان بنقل الجفانى الى هنالك وتصفيفها وتكثير ستائرها وأجلس الرماة من ورائها فمازال الامر على ذلك والرماة ترمى وتصمى وعامة المسلمين فى سلوك ذلك المضيق حتى خفت الاثقال وعبرت الاحمال وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة وجازوا على مدينة يقال لها بلنياس وقد انجلى عنها الناس فخيم المسلمون فيها ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق ما فيه طريق وهو مطرد من الجبل الى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالحفل ومضى يمينا الى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة الى آخرها ونزل السلطان قبل وصول الاثقال على بلده وهى بلدة كاسمها جلده وهى بليدة من غربى النهر على شاطئ البحر وجانباها الاخران بخندق فيه البحران وقد أخلاها أيضا أهلها وتفرق شملها وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى على جبلة فتسلمها المسلمون فى الوقت وذلك ان قاضيها كان قد سبق ودخلها وقرن بالنجح للمسلمين أملها فما وصلوها أعلى الاعلام الناصرية على سورها وخلص المسلمون بها من مسا كنة الكفرة وتحصن الفرنج بحصنيها واحتموا بقلعتيها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط ان يسترهنهم الى ان يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين فضبط عنده جماعة من رؤس الفرنج والمقدمين حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التى عنده ففك بهار هائنه وتولى قاضى جبلة الامر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين وفى الجبل على سمت طريق حماه حصن يعرف بكسرائيل وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين فتسلمه السلطان أيضا منهم ثم سلم جبلة الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضى جبلة وشرفه وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفه وصرفه فى املاك آبائه وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه

﴿فصل﴾ فى فتح اللاذقية قال القاضى ابن شداد وهى بلد مليح خفيف على القلب غير مسور وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فنزل السلطان رحمه الله عليه يوم الخميس رابع عشر جمادى الاولى محدقا بالبلد وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما الا من ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الاصوات وقوى الضجيج الى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار وفرق بين الناس الليل وهجومه وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا فى اخذ النقوب من شمالى القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لى من ذرعه عشرين ذراعا وعرضه اربع أذرع فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد فلما رأى عدو

الله ما حل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان وطلبوا قاضى جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم قاعدة الامان فأجيبوا الى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يبخل به فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الى صبيحة السبت ودخل قاضى جبلة اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الى مأمنهم ورقى عليها العلم الاسلامى المنصورى فى بقية يوم السبت وأقنا عليها يوم الاحد سابع عشر جمادى الاولى وقال العماد رحل السلطان الى اللاذقية يوم الاربعاء الثالث والعشرين من جمادى الاولى فبات بالقرب منها وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ أهلها بقلاعها وهى ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة اشم شامخ فسهل لنا فرعها وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها فطلبوا السنجق الناصرى ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة فلما أصبحوا صعد اليهم قاضى جبلة وانزلهم بالامان وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدة وذخيره وأسلحة وميره وخيل ودواب كثيره وامنوا على أنفسهم واموالهم وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم واطفالهم وخفوا من اثقالهم ودخل جماعة منهم فى عقد الذمه وتمسكوا بحبل العصمه وانتقل الباقون الى انطاكيه ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطى وركب السلطان الى البلد وطافه وهزالى احسانه أعطافه وأمنه بعد ما أخافه قال ورأيتها بلدة واسعة الافنيه جامعة الابنيه متناسقة المغانى متناسبة المعانى فى كل دار بستان وفى كل قطر بنيان أمكنتها محرّمه وأروقتها مرخمه وعقودها محكمه ومساكنها مهندسة مهندمه وسقوفها عاليه وقطوفها دانيه وأسواقها قاصيه وآفاقها مضيه وارجاؤها فسيحه وأهواؤها صحيحه لكن العسكر شعث عمارتها واذهب نضارتها ووقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالا الى منازلهم بالشام فشوهوا وجوه الاماكن ومحوا محاسنا المحاسن قال وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمه نفيسة قديمه باجزاء الاجزاع مرصعه وبألوان الرخام مجزعه واجناس تصاويرها متنوعه وأصول تماثيلها متفرعه وهى متوازية الزوايا متوازنة البنايا قد تخيرت بها الاشباح الاشباه وصورت فيها أمواج الامواه وزينت لاخوان الشيطان وعينت لعبدة الاوثان والصلبان ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها وجروا شامها وكسروا اجرامها وأهدوا الاسى لهدأساسها وأفاضوا عليها لباس ابلاسها وحكموا بعد الغنى بافلاسها فافتقرت وأقفرت وخربت وتربت ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بفتحه البوس عاد الى هذه الكنيسة بالامان القسوس وهى متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثه قال ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للاسلام مرابع ولشموسه مطالع فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت وكما أفاقت فاقت ورغب فى أعطاء الجزيه سكان البلد من النصارى والارمن حبا للوطن ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينه وردّ الى سكانها السكينه ودار خلال ديارها وخرق أسواقها فى سائر أقطارها ووقف على البحر للنظر الى موانيها وشوانيها وأقاصيها وادانيها وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها وفى كتاب عمادى الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال (وهذه اللاذقية مدينة واسعه وخطة جامعه معاقلها الازام واعلاقها الاتستام وهى أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها اعمالا وضياعا وأزينها ومافى البحر مثل ميناها ولا للمراكب الواردة مثل مرساها وهى جنة كان يسكنها أهل الجحيم وطالما مكثت بالكفر دار بؤس فعادت بالاسلام دار نعيم) قال وكانت شوانى صقليه قد قابلت فى البحر اللاذقيه طمعا فى امتناعها فلما خابت خبت نارها وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقا عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها فكان ذلك مقتضيا لبقاء ساكنيها بالجزيه تؤديها ولما وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره طلب مقدم تلك الشوانى امانه ليصعد ويشاهد سلطانه فأمنه فصعد وعفر وكفر وتروى ساعة وتفكر وقال ما معناه أنت سلطان عظيم وملك رحيم وقد شاع عدلك وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر احسانك فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفه لملكت قيادها اذا أعدت اليها بلادها وصاروا لك عبيدا وأطاعوك قريبا وبعيدا والاجاءك من وراء البحار فى عدد الامواج أفواج

بعد

بعد أفواج وسار اليك ملوك ذوى الاقاليم من سائر الاقاليم وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم فقال له السلطان قد أمرنا الله بتمهيد الارض ونحن قائمون فى طاعته بالفرض وعلينا الاجتهاد فى الجهاد وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ولو اجتمع علينا أهل الارض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله فى اللقاء ولم نبال باعداد الاعداء فصلب على وجهه وركب بكربه ولم يغن خطابه عن خطبه

﴿فصل﴾ فى فتح صهيون وغيرها قال القاضى ابن شداد رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى طالب صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الاربعاء ونصب عليها ستة مجانيق وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا ولا يبلغ وهو نقر فى حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامى شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون وعلموا انه النصر والفتح المبين واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادى وكان صائب الحجر فلم يزل يضرب بها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد فى السور من الترقى اليه منها ولما كان يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة وانضم من كان فى الربض الى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ونهب الباقى واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان فامنهم السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن الصغير ديناران فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيدو وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون تسلمها النواب فانها كانت تتعلق بصهيون وقال العماد كان الطريق الى صهيون فى أودية وشعاب ومناقذ صعاب وأوعاث وأوعار وانجاد واغوار فقطعنا ذلك الطريق فى يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهى قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها ويدوران حواليها والجانب الجبلى مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ما اليه لسوى القضاء والقدر من طريق والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الاربع وهى ممتنعة علينا بالركن الامنع والسمو الامتع ونقل السلطان خيمته الى جانب الجبل وأقام الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ونهج بهما من جانب الوادى الى ردّ الاعادى طريقين وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالى والجد المتوالى فانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه وقد استصحب الكماة الحماه ومعه الرجال الحلبيه والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين فأظهر على صهيون اليد البيضاء وأنار فى فضاء الفضائل واضاء وكان نازلا على جانب الوادى مقابل الحصن وشرع الجدار فى الانقضاض وأصبحنا يوم الخميس وللجلاميد وقوع وللسور سجود وركوع ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى والحنايا سهام المنايا تصمى حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن وهان بما دب فيه من الوهن وأصبحنا يوم الجمعة ثانى جمادى الآخره وبحر الحرب فى أمواجه الزاخرة وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها كأن الله أعماهم عنها حتى يسلك الحتف اليهم منها فتعلقوا فى الصخور وتسلقوا السور وملكوا عليهم ثلاثة أسوار واحتووا على كل ما فيها من ذخائر وغلال ودواب وابقار وازدحم الفرنج فى القلة وتفادوا من الخوف لا من القله وصاحوا الامان وبذلوا الاذعان ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا المكان فامنوا على المال والنفس حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس وأغلقت دونهم الابواب وسيرت اليهم النوّاب وما استقر خروجهم حتى استخرج القرار وجبى الدرهم والدينار وغنم الصغار الكبار والصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من

ذخائره وأمواله الى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس فأحكمه وحصنه وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد ويوم الاحد قلعة الجماهريين ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه قال وبفتح صهيون حصل الامن على اللاذقية وقوى الامل فى فتح انطاكيه فانه قفل محكم على بابها وسبب قوى من أسبابها ففتح الرتاج ووضح المنهاج

﴿فصل﴾ فى فتح بكاس والشغر والسرمانيه قال القاضى ابن شداد ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس وهى قلعة حصينة على جانب العاصى ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخره وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهى على جبل مطل على العاصى فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمجنيقات والزحف المضايق الى يوم الجمعة أيضا تاسع جمادى الآخره ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر اليها منها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المجنيقات من سائر الجوانب ورأوا انهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان وذلك فى يوم الثلاثا ثالث عشره وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية يسر الله فتحها فأذن فى ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطانى على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الظاهر الى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالا شديدا وضايقها مضايقة عظيمه وتسلمها أيضا يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر المذكور قال فاتفق فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية فى أيام الجمع وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر الله له الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات قال وهذا من نوادر الفتوحات فى الجمع المتوالية لم يتفق مثلها فى تاريخ وقال العماد سار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشية ونزل على العاصى فى طاعة الله على تل كشفهان فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر وحوّل خيمة خفيفة الى الجبل لحصار قلعة الشغر وهى قلة شامخة من أعلى القلل مطلة على واد عميق وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر وهى عالية حصينة منيعة لا تصل المجانيق اليها فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها فبينما هو مفكر فى ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب فارسلوا فى طلب الامان واستمهلوا ثلاثة أيام فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر والكفر صاغر فتسلمها المسلمون ونصر فوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس وتلك الاعمال على غرس الدين قليج وكان هذا قليج قد تسلم كفردبين وهو معقل حصين يسكنه الارمن فى ذلك الصقع وبذل فى استخلاصه غاية الوسع فولاه السلطان تلك الحصون وحاطها بالله أمرها المصون وعاد الى مخيمه يوم السبت وهو حسن السمت كريم النعت قال وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها ولما أخرجهم منها دخلها فابطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها وهد أركانها وما برح حتى سواها بالارض وخلط طولها بالعرض قال وهذه ست مدن وقلاع فتحت فى ست جمع تباع جبلة واللاذقيه وصهيون وبكاس والشغر وسرمانيه وأطلق بها الانفس والنفائس العانيه فقد كان فى هذه المعاقل من أسارى المسلمين عده لولا فتحها ما زالت عنهم تلك الشده وهذا اقليم جبلة واللاذقية هو عين انطاكية التى فقئت ونحرها الذى عنه حلئت ولم يبق لانطاكية من الحصون سوى ثلاثة القصير وبغراس ودربساك وقد أصبحت معدومة الاطراف قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف

﴿فصل﴾ فى فتح حصن برزيه قال القاضى ابن شداد ثم سار السلطان جريدة الى قلعة برزيه وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الفرنج والمسلمين يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع علو قلتها فكان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها وفى بكرة الاحد الخامس والعشرين من جمادى الآخره صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمجنيقات وآلات الحصار الى الجبل فاحدق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال عليها من كل جانب وضرب اسوارها بالمجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر

ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك عدة خطوات وصاح فى الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بعض ساعة حتى رقى الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت عنوة واستغاثوا الامان وقد ملئت الايدى منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد آوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكوره وحصونهم المشهوره وكان يوما عظيما وعاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا فمنّ عليهم السلطان ورقّ لهم وأنفذهم الى صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله وقال العماد وصف للسلطان قلعة برزيه وانها لحصن افامية متاخمه وله مناصفة مقاسمه وان المسلمين من جوارها فى جور وفى حور بعد كور ووصفوا علوها فركب السلطان اليها وأشرف عليها فالفاها كما وصفوها وبالغوا فيها وما انصفوها فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها ولم يتحرك سكونها وكيف تهدّ الخنساء بصخر والعنقاء بصقر وحجر الجبل بحجر ومدار الفلك بمدر فلما رأى السلطان ذلك قوى رأيه على ان يفرق العسكر ثلاث فرق ويتناوبون على قتالهم زحفا ليتعبوهم ويضجروهم فانهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم وتقل عدّتهم ففعل ذلك وكانت النوبة الاولى لصاحب سنجار والثانية للسلطان وخواصه ثم امتزجت الثالثة بالثانية وعادت رجال النوبة الاولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر واجدوا عاقبة الصبر فى الحصر فطلب العدوّ الامان وأرسلوا الى السلطان وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس ان السلطان يؤمنهم فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبا باقدامهم كما يسوقون أغنامهم وخانوا اخوانهم وراموا حرمانهم وتفرقوا بالسبى أيدى سبا وسافروا بها من العسكر الى البلاد وباعوها فى سوق الكساد وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة وولاه الامير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدم وهو صاحب حصن افاميه مناظر برزيه وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين وصيادوها المسلمون بافاميه فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر قال وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب انطاكية وقد سبيت وخبيت فمازال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها وزوجها وابنتها وجماعة من أصحابها وصهرها وكانت امرأة ابرنس انطاكيه تعرف بدام سبيل فى موالاة السلطان عينا له على العدوّ تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها أنفس الهدايا فلما فتح حصن برزيه وحصل فى أسره هذه الجماعه واقترقت بهم أيدى المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الاسر وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم الى انطاكية لاجل امرأة الابرنس فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين وفى بعض كتب البشائر العماديه (آخر ما فتحناه حصن برزيه الذى تضرب بحصانته الامثال ولا ترقى الى ذروة تمنيه الآمال وقد أخذناه بالسيف عنوه وفتحناه ضحوه فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث ولو وكلنا الله الى اجتهادنا فى الفتح لنعذر ولكنه سبحانه سهل ويسر) ومن كتاب فاضلى الى السلطان (وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذى تضرب به الامثال وتضرب عنه الآمال ويكاد يحزن اذا قادت أيدى السلاسل ازمة الجبال ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الاوجال بل من خطوات الآجال وكان للكفر درعا حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الاسلام ودعوا بان يفلج الله حجة سيفه الد الخصام وقد كان الناس يعدّون مواهبه مما لا تحصى فقد تحققت بها فتوحاته فهى أيضا لا تحصر فرحبا بفتوح يقول غائبها الحمد لله وحاضرها الله أكبر وما بقى الملوك يستبطئ خبر انطاكية فقد ألقت الارض افلاذها وقد ولدت لكرمه ذهبها ولنصره فولاذها ولم نرفى نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه ولا نعرف بعدها للزمن سيئة ولا كريهه الا انا نرجع فى معرفة قدرها

والاخلاص شكرها الى ما رضيه الله شكرا من نجاه من أهوال يوم القيامه وأدخله دار المقامه بأنهم قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده الحمد لله الذى هدانا لهذا وكان آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فرضى بالحمد منهم ورضى عنهم وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا وقدسوا به وسبحوا وثقلت به موازين اعمالهم فربحوا ونجحوا ونحن نقول الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها وعلى عزة الملة به ونصرتها وعلى بهجة القلوب به ومسرتها وعلى غنى الايدى به وميرتها وعلى روعة قلوب الاعداء به وحسرتها وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وفتوح مولانا من تلك النعم وان قصرنا فى شكرها فما نقصر فى ذكرها وان عجزنا عن حصرها فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود مطردة السعود متوافية الرسل عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعى بالمساعد كادت العيون قبل وقوعها تلحظها وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها فما يشرح صدر من خبرها فيسمعه ذو صدر الا انشرح وما يسأل الناس هل فتح الملك الناصر وانما يقال ما اسم البلد الذى فتح فمن عند مولانا الجنان ومن عندنا اللسان وعليه الجهد وعلينا الحمد فهى فتوح كثمرات الجنه لا مقطوعة ولا ممنوعه واعمالها المبرورة الى الله مرفوعه ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغورى وقد تقدم بعضها

لما ملكت حصون انطاكية ❊ يئس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كل مثلث متكبر ❊ بموحد متواضع ومكبر
برزت الى برزيه عزمتك التى ❊ مدت يدا عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ ❊ فى الافق ذى مثل يروع مسير
فانهض لصور فهى أحسن صورة ❊ فى هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل ❊ سور العاصم عاصم لمسور

﴿فصل﴾ فى فتح حصن دربساك قال القاضى ابن شداد ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياما وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب وهى قلعة منيعة قريبة من انطاكية يسر الله فتحها فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف فى الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها قال ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام عوض الجدار مكشوفين واشتد الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة ان ينزلوا بانفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقى عليها العلم الاسلامى يوم الجمعة أيضا ثانى عشر رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر ورحل عنها من الغد بكرة السبت وقال العماد ثم عبرنهر العاصى الى شرقيه عند شقيف دركوش وهو ثغر على الفرات للاسلام منيع فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكيه وقد صوبنا اليها عزائمنا الناكيه ثم قلبنا اقدامها حصون وحماها بحمايتها مصون فاذا ذهبت معاقلها جاءتها غوائلها فنزلنا على دربساك وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته وامتنعوا بمنعته فنصبنا عليه المنجنيقات فما زالوا يجالدون ويتجلدون الى ان ضاق بهم الخناق وتسلق النقابون الى الباشورة وهدوا بالنقب برجا ووسعوا للزحف نهجا فطلبوا الامان وفدوا أنفسهم بالوف فاومنوا على انهم يخرجون بهوانهم وثياب أبدانهم ويدعون كل ما فى الحصن من خيل وعده وذخيرة وغله واثاث وقماش وذهب وفضه وأمهلوا ثلاثة أيام ثم أخرجوا من ديارهم وتسلم الحصن يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب وفى بعض الكتب العماديه (هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الاهنى والنصر الاسنى وهو فتح دربساك الذى لم يكن لانطاكية الا به الامتساك وقد قص الآن جناحها وفل سلاحها وحق فرحها وبطل اقتراحها وخرجت باخراج حصونها من ولايتها ارواحها وقد بقيت عرضا للعسكر وعرضا بلا جوهر وشبحا بغير روح وصدرا غير مشروح والكفر مفجوع بالنفس والبلد والامل والولد ونحن لا راحة لنا الا فى هذا التعب ولا أرب لنا فى غير هذا الارب ولا اجتهاد لنا الا فى الجهاد ولا مغزى لنا غير الغزاه ومانرجو من الله الا انجاز العدات فى جميع العداة

أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين وبان صباح الموحدين وأبينا أمانهم الا ان يفدوا نفوسهم وينزعوا من الحرب لبوسهم ويخلعوا باسهم ويلبسوا بوسهم وينجوا بنيابيب أبدانهم وقد أدّوا خمسة آلاف دينار من أثمانهم

《فصل》 فى فتح بغراس قال القاضى ابن شدّاد وهى أيضا قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر فى مرج لها وأحدق العسكر بها جريدة مع انا احتجنا فى تلك المنزلة الى يزك يحفظ من جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها قال وأنا ممن كان فى اليزك فى بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطانى عليها فى ثانى شعبان وقال العماد ولما فتحت دربساك لم يبق لنا همة الا بغراس وقد شارف رجاء أكثر الناس فى فتحه الياس وهو حصن حصين ومكان مكين هو للداوية وجار ضياعها وغاب سباعها وهو بقرب انطاكية حصارها وحصاره سوا ومالداء داوية دوا فنزل العسكر بين انطاكية وبينه يتقاضون منهم الدين دينه ويشنون الغارات ويسنون النكايات ولا يبرحون بازاء انطاكية صفا يرمون ولاهلها فتحا وحتفا يتناوبون على سبيل اليزك ويدعون العدا الى المعترك وليس بينهما الا النهر فصعد السلطان جريدة الى الجبل وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك القلل ونقل اليها أحواض الماء وروايا وبث فى النواحى سراياه وفرق على الجميع عطاياه وأقمنا عليه اسبوعا نجرى اليه من كل منجنيق من فيض الحجارة ينبوعا ونحن نفكر فيما يكون ومتى تتم الحركة ويقيم السكون وهذا بكار يطول وتعب لا يزول اذ رأينا باب الحصن وقد فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لاهله وسلم الحصن بما فيه من الاموال وقدّر ما فيه من الغلة تخمينا باثنى عشر ألف غراره وسلمها السلطان مع دربساك الى صاحب عزاز علم الدين سليمان بن جندر وكتبت عليه جميع ما فى القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر فقلت كانى بمن تولى القلعة وقد باع الغله وشفى من فقره بها الغله ثم أشار بتخريبها وهدمها ولم يلتزم بحكمها وقال ابقاؤها غرر وحفظها على المسلمين ضرر وخطر فجاء الامر على ما حسبته بعد سنين وعاد اخلاؤها بمضرة المؤمنين فانه أظهر ذلك الوقت انه أخلاها وانه للتخريب خلاها فجاء اليها مقدّم الارمن ابن لاون فدخلها وأتم عماراته وكملها وذلك فى سنة سبع أوثمان وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لانطاكية جناحين ولطاغية الكفر سلاحين فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكوره مع ابراج ومغارات وشقفان كثيره حتى خلص ذلك الاقليم وتم الفتح العظيم وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح لعبدة الشيطان مصارع

《فصل》 فى عهد الهدنة مع صاحب انطاكية وعود السلطان قال العماد كان السلطان قد عزم على قصد انطاكية فرأى همم الاجناد لاسيما الغرباء قد ضعفت ونياتهم فى الجهاد قد فترت وتشوّقوا الى بلادهم والراحة من جهادهم وكان صاحب انطاكية قد اشرف على الهلاك وعلم انه ان قصد غلب فنفذ أخا زوجته رسولا الى السلطان متذللا يطلب الهدنة على انه يطلق من عنده من أسارى المسلمين وهم جمع كبير فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الاوّل الى انقضاء ايار فيكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة واوان حصادها فيستريح فيها الاجناد ويعودون بعدها الى فرض الجهاد فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه وقال القاضى ابن شدّاد وفى بقية ذلك اليوم يعنى يوم فتح بغراس وهو ثانى شعبان عاد السلطان الى المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوّة قلق عماد الدين صاحب سنجار فى طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل انطاكية لاغير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الى سبعة أشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان ثم رحل عنه يطلب دمشق وسأله ولده الظاهر صاحب حلب ان يجتاز به فاجابه فدخلها حادى عشر شعبان فاقام بقلعتها ثلاثة أيام ثم سار الى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقى الدين وأصعده الى قلعة حماه وبات بها ليلة واحدة فاعطاه جبلة واللاذقية وسار الى بعلبك وأقام بمرجها يوما ودخل حمامها ثم أتى دمشق فاقام بها حتى دخل شهر رمضان وما كان يرى تبطيل وقته

عن الجهاد مهما أمكنه وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد وكوكب فرأى ان يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم وقال العماد وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر الغريبه واتحفهم بالتحف العجيبه وارتاح الى العبور على ارتاح ووصل الى حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظره ووجوها ناضره وقلوبا حاضره والسنا شاكره وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهره فاقام بقلعتها أياما يسيره وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيره ثم سار منها على طريق المعرّه وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله فتبرك بزيارة الميت والحي ثم وصل الى حماه فنزل بقلعتها ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا وعلى معاضدته مواظبا وما حضر معنا على بلدا وحصن الافتحناه وكان السلطان يستوحش لغيبته ويأنس بشيبته وكان بجنب السلطان جالسا ولنظره عليه حابسا وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح فلما تولاها تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعه وسر بما رأى من الحصانة والرفعه ووقف الملك المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه وأصبح السلطان راحلا ولم يقم بحمص وجاء الى بعلبك على طريق الدراعة واللبوة ووصل الى دمشق قبل رمضان وأشير على السلطان بان يريح عسكره فقد أجهد في عامه مورده ومصدره وأربح في سبيل الله متجره فقال ان القدر غير مأمون والعمر غير مضمون وللفرص أوقات وللدهر آفات وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون وان لم نبادرها اختل أمر نا المصون لاسيما صفد وكوكب فانهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد والثغور الاسلامية بهما واهية السداد نخرج ونشتو عندها ونقصد قصدها فاذا فتحناها اخلصت هذه البلاد وصفت الإوراد قال فما لبث السلطان ولا مكث ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث وقال لا نبطل الغزوه ولا نعطل هذه الشتوه

(فصل) في فتح الكرك وحصونه قال العماد ووردت البشرى بنجح الدرك في تسليم حصن الكرك وذلك انها في مدة غيبتنا في بلاد انطاكية لم تعدم من محاصرتها المضايقة النا كية وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر أقامه السلطان هنالك عند توجهه الى البلاد الشماليه لقصد جبلة واللاذقيه فأقام بتبنين مقويا للامراء المرتبين على الحصون حافظا على الدهماء بحركته في الامور عادة السكون وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلا قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلا وأمره مشكلا حتى فنيت أزوادهم ونفدت موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم فتوسلوا بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل فما زالت الرسالات تتردّد والاقتراحات تتجدد والقوم يلينون والعادل يتشدّد حتى دخلوا في الحكم وخرجوا على السلم وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامه وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامه وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وقال القاضي ابن شدّاد وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بها من الاسر وكان أسر في وقعة حطين المباركه وكتب العماد في بعض البشائر (سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز فأذقناه عام أوّل كأس الحمام وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام) وكتب القاضي الفاضل الى السلطان شفاعة (أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته وأخذ عدوّه قائلا أو بيته وأرغم أنفه بسيفه وكبته خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان خطيب عيذاب ولما نابه المنزل منها وقل عليه المرفق فيها وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الارض ذكرها ووجب على أهلها شكرها وحصل لمن جرت على يده أجرها هاجر من هجير عيذاب وملحها ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب

ونزع من مصر الى الشام ومن عيذاب الى الكرك وهو عجيب والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا اللطيف ورأيه أعلى ان شاء الله تعالى)

(فصـــــل) فى فتح صفد قال القاضى ابن شداد ثم سار فى أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والوطن والولد فى هذا الشهر الذى يسافر الانسان أين كان ليجتمع فيه بأهله فأتاها وهى قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فأحدق العسكر بها ونصبت عليها المجانيق وكانت الامطار شديده والوحول عظيمه ولم يمنعه ذلك عن جدّه ولقد كنت ليلة فى خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب فقال فى تلك الليلة ما ننام حتى ننصب الخمسة وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور فى الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله قال المؤلف أخرج الترمذى هذا الحديث وقال هو حديث حسن غريب قال ولم يزل القتال متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالامان فى رابع عشر شوّال وقال العماد لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل وجعل طريقه على مرج برغوث وعبر مخاضة الاحزان وجاء الى صفد وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد فنزل عليه فى العشر الاوسط من رمضان فضايقها ونصب المجانيق عليها الى أن سلمها مقدمها فى ثامن شوّال بالامان وراح الى صور وقد كانوا عدموا القوت ووجدوا الموت الموقوت وعلموا انهم ان لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم فى الاصفاد فتبرؤوا من الجهاد والجلاد وانها كانت فى عين الاسلام قذى لا يتوقع منها على الايام الا مضرة وأذى فسهل الله صعبها وأوطأ هضبها وكشف عن البلاد كربها وقذف فى قلوب أهلها رعبها فخرجوا اذعنين واستسلموا مسلمين وتبرؤوا من حصنهم ونزلوا بهوانهم ووهنهم وأحضروا رهائنهم للاستمهال فى نقل متاعهم وندموا على ما كان من امتناعهم قال واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد وقالوا متى فتحت صفد فان كوكب لا تمتنع وأملنا عن حفظها ينقطع والرأى ان نجردلها نجدة لعلها تثبت الى أن توافينا من البحر ملوكنا فسيروا مائتى رجل فتفرقوا فى تلك الاودية يكنون فى الشعاب والهضاب واتفق ان أميرا من أصحابنا خرج متقنصا فوقع أحدهم فى قنصه وحصل طائر منهم فى قفصه فاستغرب وجوده فى ذلك المكان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعده حتى دل على مكمن ذئابه فما أحسوا الا بصارم الدين قايماز النجمى وأجناده الا وقد نزلوا عليهم فى آكام ذلك الشعب ووهاده فتلقطوهم من كل غار ووجار ولم يهتد أحد من أولئك الضلال الى نهج فرار فما شعرنا ونحن على صفد للحصار حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين فى الاصفاد مقودين فى الاقياد وكان فيهما مقدّمان من الاسبتار وقد أشفيا على البتار فان السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداويه فاحضرا عند السلطان للمنيه فأنطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما وقالا عند دخولهما ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سوء فعرفت ان بقاءهما مرجو فقال الى مقالهما وأمر باعتقالهما فان تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقنت منهما الدم وفتح الله علينا صفد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان وجمعنا بين فضيلتى الصوم والجهاد وسلمت قلعة صفد الى شجاع الدين طغرل الجاندار واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفار

(فصـــــل) فى فتح حصن كوكب قال القاضى ابن شداد ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب فنزل على سطح الجبل وجرد العسكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذله موضعا يتجاوزه نشاب العدوّ وبنى له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه والنشاب يتجاوزه ولا يقدر ان يقف أحد على باب خيمته الا أن يكون ملبسا وكانت الامطار متواترة والوحول بحيث تمنع الماشى والراكب الا بمشقة عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدوّ متسلطا عليهم بعلوّ مكانه وجرح وقتل جماعة ولم يزل راكبا مركب الجدّ رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب وقد تمكن من السور علم انه مخذول مأخوذ فطلب الامان فأمنهم وتسلمها فى منتصف ذى القعدة ونزل الى الغور والى الثقل وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح

فى سطح الجبل وقال العماد وجئنا الى كوكب فوجدناها فى مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء ومنزل العوّاء قد نزلتها كلاب عاويه ونزغت بها ذئاب غاويه وقالوا لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاسبتار وخلصه الى الابد من العار ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار فنتشدد للانتظار ثم وصف القتال بالرمى والمنجنيق والنقب والتعليق والحفر والتعميق والحصر والتضييق ثم قال وكان الوقت صعبا والغيث سكبا وتكاثرت السيول وتكاثفت الوحول ودامت الديم لدموعها مريقه وبقيت الخيم فى الطين غريقه وكنا فى شغل شاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام ووهى الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام مناخل الانداء والانوار معدومة لوجود الانواء وماء الشرب مفقود مع سيول الماء والرواحل فى الطين باركه وهى للعلف تاركه والطريق زلقه وهى مع سعتها ضيقه فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان وبنى له من الحجاره ما صار له كالستاره ونزلت الاثقال والخيم الى أسفل التل بالغور وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصابرته ونحن نركب اليه من الخيام بكرة وعشية للسلام وتنفيذ المهام حتى بلغ الرجال أماكن النقوب وتمكن لهم المطلوب فشرع الكفرة فى التذلل وسلموا الحصن بالامان وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحد سوى قايماز النجمى على كره منه وذلك فى منتصف ذى القعدة ونزل السلطان الى المخيم بالغور ومن كتاب فاضلى الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان (مما تجدد بحضرتنا فتح كوكب وهى كرسى الاسبتارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم وكان يجمع الطرق قاعدا وللمتقى السبل راصدا فتغاقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت وسلكت طرقها وامنت وعمرت بلادها وسكنت ولم يبق فى هذا الجانب الاصور ولولا ان البحر يجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن وما هم بحمد الله فى حصن يحميهم بل فى سجن يحويهم بل هم أسارى وان كانوا طلقاء وأمواتا وان كانوا أحياء قال الله تعالى فلا تعجل عليهم انما نعدّ لهم عدا وكان نزولنا على كوكب بعد ان فتحنا صفد بلد الداوية المصونه وفتحنا الكرك وحصونه والمجلس السامى اعلم بما كان على الاسلام من مؤنته المثقله وقضيته المشكله وعلته المعضله والله تعالى المشكور على ما طوى من كلمة الكفر ونشر من كلمة الاسلام فان بلاد الشام اليوم لا يسمع فيها الغوو لا تأثيم الا قيلا سلاما سلاما فادخلوها بسلام وكان نزولنا على كوكب والشتاء فى كوكبه وقد طلع من الانواء فى موكبه والثلوج تنشر على الجبال ملاءها والاودية قد مجت بماءها وفاضت عند امتلائها فشمخت أنوفها سيولا وخرقت الارض وبلغت الجبال طولا والاوحال اعتقلت الطرقات ومشى المطلق فيها مشية الاسير فى الحلقات فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر وكابرنا العدوّ والزمان وقد تحرز الحظ المكابر وعلم الله النية فأنجدها بفعلها وضمير الامانة فأعان على حملها ونزلنا من رؤس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من نقلها) ثم قال (والآن فالمجلس السامى يعلم ان الفرنج لا يسلون عما فتحنا ولا يصبرون على ما جرحنا وانهم لعنهم الله أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ويد الله فوق أيديهم وسيجعل الله بعد عسر يسرا وما هم الا كلاب قد تعاوت وشياطين قد تغاوت وان لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا وكانوا لباطلهم الداحض انصر منا لحقنا الناهض وقد كتب المستخدمون بالاسكندريه وصاحب قسطنطينيه والثغور المغربيه ينذرون بأن العدوّ قد أجمع أمرا وحاول نكرا وغضبوا وزادهم الله غضبا وأوقدوا نار الحرب جعلها الله عليهم حطبا وسلوا سيوفا للبغى لا يبعد ان يكونوا اغمادها وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق واليه نرغب فى ان يثبت قلوبنا اذا كادت تزيغ قلوب فريق ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه الى ما له دعينا ونؤمل من الله أن ينصرنا د نياودينا ونرجو ان يمدنا بنفسه سريعا وبعسكره جميعا وبذخره الذى كان لمثله مجموعا وان يلبيها دعوة اما ان يطيع بها ربه لانها دعوته واما ان ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فانها شريعته واما ان يعين بها أخاه فانها شدّة الاسلام لا شدّته هذا وان كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا فى مرض الاجسام فلا يقعد عنا فى مرض الاسلام فالبدار البدار فان لم يكن الشام له بدار فاليمن له بدار والجنة الجنه فانها لا تنال الا بانقياد الحرب على أهل النار والهمة الهمه فان البحار لا تلقى الا بالبحار والملوك الكبار لا يقف فى وجوهها الا الملوك الكبار وفى هذه السنة تنزل على انطاكيه وينزل ولدنا المظفر تقى الدين على اطرابلس ويستقر

الركاب

الركاب الملكى العادلى بمصر لانها مذكورة عند العدوّ انها تطرق وان الطلب على مصر والشام منه يفرق ولاغنى عن ان يكون المجلس السيفى بحرا فى بلاد الساحل يزخر سلاحا ويجرّد سيفا يكون على ما فتحنا قفلا ولما لم يفتح بعد مفتاحا وما يدعى للعظيم الا العظيم ولا يرجى لموقف الصبر الكريم الا الكريم هذا والاقدار جاريه ومشيئة الله ماضيه فان يشأ ينصرنا على العدد المضعف بالعدد الاضعف فانا لا نرتاب بأن الله تعالى ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها ولا جمع علينا هذه الامة ليفرقها وانما يؤثر أن يتساهم آل أيوب فى ميراثهم منه مواقف الصبر ومطالع النصر ولا يسرنا ان ينقضى عمره فى قتال غير الكافر ونزال غير الكفر المناظر فانما هى سفرة قاصده وزجرة واحده فاذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر فليحضر وليشاهد أولاد اخيه يستشعرون لفراقه غما قد عاشوا ما عاشوا ولا يعرفون ان لهم مع عمهم عما) وله اليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور (المولى على حسب اختياره ان سار فثله من سار وسر وقاد الجيش وجرّ ونفع الولى وضر العدوّ الذى اضر وان أقام فالعذر الذى أقعده واشفاق السلطان عن نصره الذى ردّه عن وجهه والرأى الذى ردّده فلا يكن فى صدره من الامر من حرج ولا يخف استقصار عزمه ان ركد أو خرج فكانه مكانه من القلب وودّه وده وله من انسان جده وهو سيف الاسلام ان ضرب فبحدّه أو صين ففى غمده لازال المولى منوّها باسمه ومرفها فى جسمه ومجردا سيف عزمه وسعيدا بحكم التوفيق فلا خرج التوفيق عن حكمه) ومن كتاب عمادى الى الديوان بفتح الكرك والشوبك وظفر وكوكب يقول فيه (والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدّها فى سمت مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك وتشتمل على البلاد الساحلية الى منتهى أعمال بيروت ولم يبق من هذه المملكة الا صور وفتح أيضا جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التى للفرنج والارمن وحده من أقصى بلاد جبلة واللاذقية الى بلاد ابن لاون وبقيت انطاكية بمفردها والقصير من حصونها ولم يبق من البلاد التى لم تفتح أعمالها ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس فانها لم يفتح منها الا مدينة جبيل وقد سحبت عليها المهلة الذيل ومعاقلها باقيه وليس لها من عذاب الله الواقع واقيه والخادم الآن على التوجه اليها وعزم النزول عليها والله قد رتب الجانب القبلى والبلد القدسى وشحن الثغور من حد جبيل الى عسقلان بالرجال والاموال والآلات العدد والعدد المتواصل المدد ورتب فيها ولده الافضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنه قال العماد ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل الى الوهاد من التلاع تجدد للاجل الفاضل عزم مصر فركب السلطان معه للوداع ثم تحوّل الى صحراء بيسان وأقام بها الى مستهل ذى الحجة ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل وسلكا طريق الغور الى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر وهو يوم التروية وصلى الجمعة فى قبة الصخرة وعيد بها يوم الاحد عيد الاضحى وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر فى مهامها ونظم أسباب أحكامها ثم أذن للعادل فى العود الى مصر لمساعدة ولده العزيز وودّعه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان قاله ابن شداد ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا فى مورده ومصدره فما عبر ببلد الاقوى عدده وكثر عدده وانفصل العماد عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان ومازال منفصلا عنه الى ان وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديده وفى هذه السنة فى الثالث والعشرين من رمضان توفى الامير مجد الدين مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن على بن منقذ وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين واربعمائة فبلغ عمره ستا وتسعين سنه وفيها فى الثامن والعشرين من جمادى الاولى توفى الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمى الهمدانى ببغداد صاحب المصنفات على صغر سنه منها العجالة والناسخ وغيرهما ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى قال العماد ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد ان اثنى عشر رجلا اعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة الى قرب الصياقلة مجذوبى السيوف لاداله الدولة الزاهقه ونصرة الدعوة الباطله وهم ينادون يا لعلى وفى زعمهم انهم يقبلون بالصوله ويقلبون بالباس لباس الدوله ويخالون انهم اذا ثاروا أثاروا واذا داروا أداروا فما كثرت بهم مكثرث ولا انبعث اليهم منبعث فلما تحققوا انهم لا مجيب لهم ولا داع تفرقوا فى الدروب واضمحلوا وكانوا عقدوا على الوفاء

فانحلوا ثم أخذوا ووقذوا واعتقلوا ولم يستنقذوا ولما علم السلطان بهذا الامر عراه الهم وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال الى متى نتحمل منهم هذا الوهم فطردهم وردعهم وردهم وكان قد وفد الى الباب السلطانى جماعة من أولاد الوزراء المصريين والامراء بها المقدمين ومن أهل المعروف المعروفين ووافق ذلك دخول الفاضل اليه فأخبره بالخبر فقال له يجب ان تشكر الله على هذه النعمة فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك وموافقة نياتهم لنيتك اليس لم يلب دعوتهم أحد ولم يكن من ورائهم مدد فطب نفسا وزد بمنزلتك عند الله أنسا فقال السلطان كان الملوك قبلى تخافهم وتهرب منهم الرعيه وتتوقع منهم البليه والآن فقد تكاثروا علينا وتوافدوا الينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا فاذا ركبنا ونزلنا تعاورونا بالقصص وساورونا بالغصص فقال له أنت أولى بشكر الله على هذه العارفه كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه وخدمه واتباعه وأمرائه وخواصه وذوى استخلاصه وجهاته والزامه كل من كان يرتع الخلق فى رياض انعامه وكان بالشام فى كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب وملوك يلوذ بهم الاقارب والاجانب واليوم أنت سلطان الجميع وقد ردّ الله الآمال فى تلك الصنائع كلها الى مالك من حسن الصنيع وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك ووفدوا الى جنابك فلا يجدون بعد الله الاجود لك فأكرم وفودك فأغرورقت بالدموع عيناه وبالسماح يداه وأقسم انه ما عاش لا يردّ قاصدا ولا يصدّ وافدا وتقدّم فى الحال بقضاء حقوق الوافدين وانجاح آمال القاصدين قلت وكتب الى السلطان فى هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذى من بغداد

فلا يضجرنك ازدحام الوفو ❊ د عليك وكثرة ما تبذل
فانك فى زمن ليس فيـــــه جواد سواك ولا مفضل
وقد قل فى أهله المنعمو ❊ ن وقد كثر البائس المرمل
وما فيه غيرك من يستما ❊ ح وما فيه الا من يسأل

وقرأت رقعة بخط الفاضل (المملوك ينهى وصول نجز الكتاب الجوينى وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة فى السير وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم ونحافة الاعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذى هو نظير انقطاع العمر وما أظن ان الله أجرى على يد المولى ولا فرح عدوّاله بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل والاديب الفاضل فى أيام مولانا التى هى تاريخ الكرم ومواسم النعم) وفى آخرها (ومما يجب ان يعلم المولى ان ارزاق أرباب العمائم فى دولته اقطاعا وراتبا يتجاوز مائتى ألف دينار بشهادة الله وربما كانت ثلثمائة ألف دينار) وفوق الرقعة بالخط الصلاحى (وقفت على رقعة القاضى الفاضل وما يقطع لاحد رزق ان شاء الله تعالى بل هى علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا وعلى الجملة ما تقدّمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت اكتب فيها الذى لهما ولغيرهما ان شاء الله تعالى) وكان فى آخر الرقعة ذكر الجمال الحنيفى وكأنه كان له مثل حاجة الجوينى رحم الله الكل اجمعين

(ثم دخلت سنة خمس وثمانين) قال العماد والسلطان فى عكا نافذ الامر نابه القدر فأحكم أمرها وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمى بهم الثغر فانفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا وتقدّم الى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة وعوّل عليه فى الولايه والحفظ والجبايه وقال القاضى ابن شداد أقام بعكا معظم المحرّم يصلح أحوالها ورتب فيها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشاره وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر قال العماد وولى مملوكه فارس الدين كشتغدى شهرزور وأعمالها وكان قد تزوّج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقيه من الشهرزوريه وقصد حصول المناصره بحكم المصاهره قال وحكم السلطان بدر الدين مودود افى ولاية دمشق وجدّد له منشورا بانشائى وفيه (وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها وأعمالها والعشرى والزكوات وكل ما يجرى فى الديوان وما يبتاع للخزانة وولاية المرج والغوطة وما يضاف اليها من الاعمال وولاية الجبل ووادى بردا ويبوس وتولى الشحنكيات وحفظ الطرقات) ثم رحل السلطان الى طبريه فالحقها بعدلته العمريه ثم وصل وأقام بدمشق

شهر صفر ووجه الدين به قد سفر وعز من آمن وذل من كفر وبدأ بحضور دار العدل وحكم بالشرع المطهر ووصل فى ثانى عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه والوزير يومئذ معز الدين بن حديده يأمر بالخطبة لولى العهد عدة الدين أبى الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فاستقبله السلطان وأولاده وأمراؤه واجناده وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعى فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا وأسارى الفرنج الفرارس وعددها النفائس وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب وهو الذى كان فوق القبة بالصخرة المقدسه ليدل على تطهير ما كان هنالك من الاسباب المدنسه وسار الضيا آن رسولهم ورسول السلطان ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وادراعها قد نكست بنودها واتعست أنوفها وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها قلت وقال ابن القادسى قدم ابن الشهرزورى ومعه صليب الصلبوت الذى تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبى الشريف يتبين منه شئ قليل وكان من نحاس وقد طلى بالذهب فجعل يداس بالارجل ويبصق الناس عليه وذلك فى سادس عشر ربيع الآخر كذا قال صليب الصلبوت وقد نص العماد فى البرق على انه الصليب الذى كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك والله أعلم ثم ان الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدة فى سنة احدى وستمائة وأراده على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك ثم قضى الله سبحانه ان عادت اليه ولاية العهد فى أواخر عمره فخطب له بذلك ونقش اسمه على الدينار والدرهم الى ان توفى الناصر سنة اثنتين وعشرين وتولى بعده فاقام نحو تسعة أشهر وكتب بالظاهر ثم توفى وولى ابنه المستنصر المنسوب اليه المدرسة ببغداد ثم توفى سنة أربعين وولى ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن والله المستعان

(فصل) فى فتح شقيف ارنون قال القاضى ابن شداد وهو موضع حصين قريب من بانياس خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة فى الثالث من ربيع الاول فسار حتى نزل فى مرج فلوس ونزل من الغد يوم السبت فى مرج برغوث فاقام به والعساكر تتتابع الى حادى عشره ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون فخيم به وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب فاقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية فى كل يوم تصبح متزائدة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والاحاديث قال وبلغنى انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده اناة فحضر بين يدى السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر انه مملوكه وتحت طاعته وانه يسلم اليه من غير تعب واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وانه يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ويأخذ مغل هذه السنه فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان فى كل وقت ويناظرنا فى صحة دينه ونناظره فى بطلانه وكان حسن المحاورة متأدبا فى كلامه ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا انه صادق فى ذلك وانما قصد به تدفيع الزمان وظهرت لذلك مخايل كثيره من الخوض فى تحصيل الميره واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة اليه وأظهر ان سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان وما آنسه وقال نفكر فى ذلك ونجمع الجماعه ونأخذ رأيهم ثم وكل به من حيث لا يشعر الى أن كان من أمره ما سيذكر قال وفى أثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان وقال العماد كان الشقيف فى يد صاحب صيدا ارناط وقد أكمل فى حفظه الاحتياط فنزل الى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر انه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله فلا يسلم من جوله وحينئذ

يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه ويخدمه على اقطاع يغنيه وعن حب أهل دينه يسليه فأكرمه وقربه وقضى أربه وأجابه الى ماسأله وقبل منه عزيزاما بذله بذله واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه ووجد اليه سكونا وسكينه فشرع ارناط في اذالة حصنه وازالة وهنه وترميم مستهدمه وتوفير غلاله وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه وفي سنة من تيقظه وكان يبتاع من عسكرنا الميره ويكثر فيه الذخيره وقدأ ثمر الغدر وظن ان له النصر والسلطان حسن الظن به يحمل صدق الواشي به على كذبه وكان انتهاء المدة يوم الاحد ثامن عشر جمادى الآخرة وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ المدة وتسليم الحصن وخاف ان فارقه ان تجئ امداد الفرنج اليه وكان مشفقا أيضا من جانب انطاكية لانتهاء أشهر هدنتها فكتب الى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة وسير بذلك الفقيه عيسى الهكاري ولم نستدع الاصاحب آمد قطب الدين سكمان بن قرا ارسلان فجاء في امداده واعداده ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرع وقال ان قومي الى الآن لم يخلصوا من صور وقد أنعمت فاتمم وسأل أن تكون المهلة سنة فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب فكلمه بايناس ومارده بياس فأرخى طوله وأرجى أمله وأمر السلطان بتحويل الخيم الى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من المدة يومان فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الامان فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادره فأمر بحمله الى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لا يعلم وقيل لعله يحسن ولا يحوج الى المقابحة ويسلم وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم فأبدى ضرورة وضراعه وقال سمعا وطاعه وكان له ملق وملق وفي لسانه ذلق وما عنده من كل مايفرق فرق وقال انا أنفذ الى نوابي في التسليم وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم فأظهروا عصيانه وقالوا يبقى مكانه فقيد وحمل الى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء الى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم

﴿ فصل ﴾ وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف ارنون اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع قال القاضي ابن شداد كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه فأمرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفا أبدا وان يكون مملوكه وطليقه فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلا عظيما ذا رأي وباس شديد وصرامة عظيمة فقال له انني نائب الملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لي في تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعا على المسلمين ويجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى بلغ السلطان من جانب اليزك ان الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الارض التي نحن عليها فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض اليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وجرحوا أضعاف ماقتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الامملوك للسلطان يعرف بايبك الاخرش وكان شجاعا باسلا مجربا للحرب ممارسا فتقنطر به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفي يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا منهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة في كل

يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والفرنج قد تكاثروا
حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرا عظيما وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة
في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل من الفرنج أيضا عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان
ممن قتل منهم مقدّم الالمانية وكان عندهم عظيما محترما واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الامير
غازي بن سعد الدين مسعود بن البيطار وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ولم يتقطر من عينه
عليه دمعة على ما ذكره جماعة لازموه قال وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها
وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدّة ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين من هذه الوقعة
النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم انه يهجم على الفرنج ويعبر على الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم
وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما
صمم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين الى صور ملتجئين الى سورها فرأى رحمه الله ان يسير الى عكا ليلحظ
ما بنى من سورها ويحث على الباقي فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون فمضى الى عكا فرتب أحوالها وعاد
الى العسكر بمرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة
من رجالة العدوّ يتبسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتطبون وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم
فرأى أن يقرّر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه انهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع
ثم أنفذ الى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة وأن خيل العدوّ اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة
عينها لهم وان يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة وارسل الى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر
العدوّ حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وجحفله الى الجهة التي عينها الهزيمة عسكر تبنين حتى
قطع تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارسا وأمرهم أن يتراأوا للعدوّ حتى يظهروا
اليهم ويناوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم
يقدمهم الملك لعنه الله وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام
بين أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث بعوثا
كثيرة فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم وقتل من الفرنج عشرة أنفس ومن المسلمين ستة اثنان من الترك وأربعة
من العرب منهم الامير زامل وكان شابا ناما حسن الشباب يتقدم عشيرته وكان سبب قتله انه تقنطرت به فرسه ففداه
ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضا وأسر هو وثلاثة من أهله فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح
خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة قال ومن نوادر هذه الوقعة ان مملوكا من مماليك السلطان يقال له ايبك أثخن
بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما وبات ليله أجمع على تلك الحال الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه
فلم يجدوه فعرّفوا السلطان فقده وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه الى المخيم وعافاه الله وعاد
السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر فرحا مسرورا وقال العماد اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا
على ملكهم الذي خلص من الاسر وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد البحر
فسر بنا للثار وأخذنا من هذا العار وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور واتفقوا انهم يقصدون
بلدا اسلاميا من الساحل ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد ثم جاء الخبر انهم على
قصد صيدا للحصر وقد جسروا على عبور الجسر ووقعت عليهم اليزكية فردوهم ووقع في الاسر من سباعهم
سبعة فحملوا الى سجن دمشق ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوّعة على الجسر وقال لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا
غير هذه الكره واذاقونا بعد ان حلا لنا جنا الفتوحات مرارة هذه المره فايقظنا الله من رقدة المغره وأخذ الناس
حذرهم وقالوا بهذا وعد الله حيث قال فيقتلون ويقتلون وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون ثم ذكر وقعة
الكمين قال وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليصدوا الكمين
وسلكوا أسفل الوادي وانما الطريق أعلاه ولا خبرة لهم بتلك الارض فعرف الفرنج انهم ضائعون فطاردوهم

وردّوهم الى المضيق وانفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا قال وكان معهم مملوك للسلطان يقال له ايبك الساقى فاعتزل الى صخرة واحتمى بها ونكب كنانته ورماهم بنشابها وهم لا يقدرون على الاقتحام اليه بالخيل فرموه بالزنبورك حتى كثرت فيه الجراحات وظنوا انه قد مات ووصل الخبر الى المسلمين فادركوهم ووقفوا على الشهداء وقبروهم وجاؤا الى ايبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه الى الخيام وهم يظنون انه لا خلاص له من الحمام وكان فى اجله باقيه فمنّ الله عليه بالعافيه

(فصل) فى نزول الفرنج خذلهم الله على عكا قال القاضى ابن شدّاد ثم بلغنا بعد ذلك ان الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا وانحوا النواقير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل باسكندرونه وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفرا يسيرا وأقاموا هنالك ولما بلغ السلطان حركتهم الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لا قصد المكان فاقام مستكشفا الحال الى يوم الاحد ثانى عشر رجب فوصل قاصد اخبر ان الفرنج فى بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وتقدّم الى الثقل ان سار بالليل وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائرا الى عكا على طريق طبرية اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون باخباره وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صبيحة الثلاثا وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا وسير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه واشتدّ حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئا وسار السلطان جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فانه كان واعدهم اليه وتقدّم الى الثقل ان يلحقه الى مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدوّ من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدوّ تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان فى أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر الناس ان ينزلوا على التعبية فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامى بالعدوّ وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدوّ فى خيامه بحيث لا يخرج منها أحد الا يجرح أو يقتل وكان عسكر العدوّ على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريبا من باب البلد وكان عدد راكبهم ألفى فارس وعدد راجلهم ثلاثين ألفا قال وما رأيت من نقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتابع ووصل تقى الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين وفى اثناء هذه الحال توفى الحسام سنقر الخلاطى وفاة بأسهال شديد وكان شجاعا دينا فأسف المسلمون عليه ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك سلخ رجب فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية فى فتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر العدوّ الى ان ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو أخذة الى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التى لعكا واتصلت الحرب الى ان حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين فى السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الاخرى وأصبحوا ثانى شعبان يوم السبت على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالى عكا ولم يكن هنالك للعدوّ خيم لكن عسكره كان قد امتدّ جريدة شمالى عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالى عكا فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كبيرا والتفت السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف اليزك الاسلامى مانعا من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذى جدده وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقى ومعه الحوائج

ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدوّ ودخل السلطان فى ذلك اليوم الى عكا ورقى على السور ونظر الى عسكر العدوّ وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة ولم يعودوا الى القتال وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الراجل كله الى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدوّ من ورائه وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعانى هذه الامور كلها بنفسه ويضاحفها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى ولقد أخبرنى بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزموا عليه واشتدت منعة العدوّ وحمى نفسه فى خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العدوّ على الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلوا بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فعاد العدوّ ناكصا على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح والعاطب طريح يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم ولا يلوى الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما وكان قصاراهم ان يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها قال وكنت ممن دخل ورقى على السور ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل مع النهار حتى كان الحادى عشر من شعبان ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصليبين مشرف على عكا وخيام العدوّ وفى هذه المنزلة توفى حسام الدين طمان وكان من شجعان المسلمين ودفن فى سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وبلغ السلطان ان جمعا من العدوّ يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما وأسروا جماعة وأحضروا رؤسا بين يديه وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان وفى عشية ذلك اليوم وقع بين العدوّ وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبى ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وسئموا يوما فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ نريد ان يصطرع صبيان صبى منا وصبى منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الفرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الارض وأخذه أسيرا فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقا فاخذ الدينارين وأطلقه قال ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع فى البحر ومازال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون قلت وذكر العماد كل هذه الوقايع والنوادر فى كتابه بألفاظه المسجوعة وقال كان من رأى السلطان ان يسايرهم فى الطريق ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم وأتعب قتالهم وقالوا يعنى أمراءه بل نمضى على أسهل الطرق فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة وسرنا على جب يوسف الى المنية وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفركنا ونزل يوم الاربعا على جبل الخروبة ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر محيطين بها للحصر وضرب الملك العتيق خيمه على تل اصليه وربطب مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ثم عبر السلطان بجيشه ونزل ببرج عكا على تل كيسان وصرنا محاصرين المحاصرين قد أحطنا بالعدوّ وهو بالبلد محيط واستشطنا منه وهو مستشيط واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ومنعنا الطرق من ورائهم فى وعرها وسهلها ورتبنا بالزيب والنواقير رجالا يصدونهم عن سبلها ودمنا نصدهم ونصدمهم ونوجدهم فى البحر ونعدمهم واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز وزادوا من جانبنا فى التحرس والتحرز وذلك فى آخر رجب لانسلاخه والاسلام يناديها

باستصراخه وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الاراء على ان يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الاسلامية فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدّر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل وكالحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق وكالجبل الاشم ما فيه متعلق فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج الى تل المصلبين نحو القبه وثبتوا عند الوثبه وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال وحملت اليها الغلال والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا وأصحابنا رأوا ان انفتاح باب البلد غنيه فتوقفوا عن تمام العزيمه ولوانهم استمروا لباد العدوّ بصرعه فان للصدمة الاولى في الروع روعه فبلغ العدوّ ريقه ووجد الى الجلد طريقه ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات وضربوا الجروخ وفوّقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرّقوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل وهم في كل يوم في ازدياد والبحر يمدهم بالامداد وشرعوا في حفر الخنادق وسدّ المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات (فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها وتهوي الى أوكار افئدتهم طيور نشابها وتجنيهم من القنا والنشاب ثمار الرّدا متشابها وقد ارتفع الاسلام الى درجات سيذكر أمرها وانخفض الكفر الى دركات سيرّذ كرها فالنصر خافق علمه وكتاب البشارة قد استمدّ قلمه وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي فتأهبت الخواطر لمعاني المسار واعدت الفاظ البشرى المهداة الى كافة البشر من الاستبشار فان الفرنج محصورون والنازل المحصور كالمركب المكسور والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور)

﴿فصل﴾ في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى قال القاضي ابن شداد لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها اعادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم واصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة اطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها الى آخرها وامتدت ميسرة العدوّ في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤس التلال فكان طرف ميمنتهم الى النهر وطرف ميسرتهم الى البحر وأمر السلطان الجاووش ان ينادي في الناس ياللاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة وامتدّت الميمنة الى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة الى النهر كذلك أيضا وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين ابن البلنكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ثم قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجميع هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم الى النزال ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدوّ على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يتعدّون عن أصحابهم فينال منهم غرضا فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفا فامدّه باطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت

ميسرة

ميسرة العدوّ واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم قال ولقد رأيت الرجالة تسير سيرا الخيالة ولا يسبقونها وهم يسيرون خببا وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدى العدوّ وانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدوّ المنهزمين الى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدوّ الى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا كان هناك وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله تعالى وأما الميسرة فانها ثبتت فان الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فانه أخذ يطوف على الاطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد وينادى فيهم يا للاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو يطوف ويخترق الصفوف وآوى الى تحت التل الذى كان عليه الخيام وأما المنهزمون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الاقحوانة قاطع جسر طبرية وتم منهم قوم الى دمشق وأما المتبعون لهم فانهم أتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤا عائدين الى عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فانهم لم يلتمسوا شيئا أصلا سوى انهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم وأما السلطان فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدوّ فلما رأى الفرنج نازلين على التل أراد والقاهم فأمرهم بالصبر الى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح فى الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس ورآهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد ورآهم فلما رآهم منهزمين والمسلمون ورآهم فى عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانه انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا فى الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتحايا الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس فى قتل وطرح وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون السالمون الى عسكر العدوّ فهجم المسلمون عليهم فى الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد ألجمهم فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون فى القتلى ودمائهم فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلسوا فى خدمته يتذاكرون من فقد منهم فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرا ومن المعروفين استشهد فى ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهنا لا يوم العزا وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله واركبه وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل فى ذلك اليوم الامير مجلى يعنى ابن مروان وزاد العماد والحاجب خليل الهكارى ثم قال القاضى هذا الذى قتل من المسلمين وأما العدوّ المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد حملوا الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم رأى الغلمان خلوّ الخيام عمن يعترض عليهم فان العسكر انقسم الى منهزمين ومقاتلين فلم يبق فى الخيم أحد ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا انها تمت وان العدوّ ينهب جميع ما فى الخيم فوضعوا أيديهم فى الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا فلما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع فى الكتب والرسل فى ردّ المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع فى هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم واخبروهم بالكرة للمسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من أكف الغلمان وجمع الاقمشة فى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالى وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى ان كل من عرف شيئا وحلف عليه يسلم اليه وهو يتلقى هذه الاحوال بقلب صلب وصدر رحب ووجه منبسط ورأى مستقيم واحتساب لله تعالى وقوة عزم فى نصر دينه وأما العدوّ المخذول فانه عاد الى خيمه وقد قتلت شجعانهم وقعدت ملوكهم وطرحت مقدموهم وأمر السلطان

ان خرج من عكا عجل يسحبون القتلى الى طرف النهر ليلقوا فيه قال ولقد حكى لى بعض من ولى أمر العجل انه أخذ خيطا وكان كل ما أخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف وسائة وكسرا وبقى قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فانهم ولى أمرهم غيره وبقى من العدوّ بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا فى خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فانه مارجع منها الا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا فى حال سبيلهم وأخذ السلطان فى جمع الاموال المنهوبة واعادتها الى أصحابها وأقام المنادية فى العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير فى خيمته حتى ان الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر وأقام من ينادى على من ضاع منه شئ فضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة الى الهميان والجوهرة ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك الا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول اليها ولقد حضرت يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للعدل قائمة لم ير فى الدنيا أعظم منها وكان ذلك فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان قال وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع الى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من اراسح القتلى وآثار الوقعة من الوخم وهو موضع قريب من مكان الوقعة الا انه أبعد عنها من المكان الذى كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك ان يكون مقيما فى المكان الذى كان نازلا فيه واستحضر الامراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا ان هذا عدوّ الله وعدوّنا وقد وطئ أرض الاسلام وقد لاحت لوائح النصرة عليه ان شاء الله تعالى وقد بقى من هذا الجمع اليسير ولا بدّ من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون ان هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدوّ ان بقى وطال أمره الى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين يعنى الثانى من الشهور الشمسية فانفصلت آراؤهم على ان المصلحة تأخر العسكر الى الخروبة وان يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم اليهم فقد أخذ منهم التعب واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا فى مقابلة الرجالة وكان السلطان رحمه الله التياث مزاجى قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر فى تلك الايام فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر الى عاشر رمضان قال وكان لما بلغه خبر العدوّ وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأى بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه رحمه الله ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد والا ان نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت اشارة الجماعة انهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم فى يوم واحد وكان الامر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول وشاهدت الفعل كما قال وقال العماد عبأ السلطان ميمنته وميسرته وطلب من الله نصرته وهو يمر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويحض على حظ الابد ويحث على الجلاد والجلد قال وكنت فى جماعة من أهل الفضل قد ركبنا فى ذلك اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ونحن على بغال بغير أهبة قتال فرأينا العسكر موليا والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا فوصلنا الى طبرية فيمن وصل ووجدنا ناسا كنها قد أجفل فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه وكل منا ذاهل عن شبعه وريه ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق وهو غير مفيق ومنهم من وصل الى دمشق وهو غير معرج على طريق ووصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وجالوا جولة ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم وحكموا فى رقابهم أسيافهم وكان ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ولا زالوا بل وصلوا وصالوا وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكانما مرت الرياح بالجبال وعاد من كان من الميمنة مثل

تقى الدين وقايماز النجمى والحسام بن لاجين ومن ثبت من أبطال المجاهدين فلم يفلت من الاعداء الاعداد ولم ينج من آلافهم الا آحاد وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذى كنا أطلقناه وذكر انهم فى مائة ألف وعشرين ألفا حين سألناه ثم ضربنا عنقه وقال فى الفتح وعشرة آلاف قال العماد ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفا فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف وكان الواحد يقول قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين وتركتهم مصروعين وكان السلطان من الثابتين فى تلك الجوله والكابتين لاهل الصوله وقد بقى وحده عند تولى المسلمين ولاشك ان الله أنزل ملائكته المسوّمين حكى بعضهم قال كنت منهزما من فارس مدجج قد لز بقربى حصانه وهز لصلبى سنانه فايست من البقاء ثم أبطأت على طعنته فالتفت فاذا هو وحصانه كلاهما ملق وما بالقرب أحد فعرفت انه نصر الهى وصنع ربانى قال وعاد السلطان الى مضاربه وأمر بموارة الشهداء ومن جملتهم الفقيه أبو على بن رواحه وكان غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحه وهو شاعر مفلق وفقيه محقق من ولد عبد الله بن رواحة الصحابى الانصارى فى الشهادة والشعر معرق فطرفه الاعلى يوم موته مع جعفر الطيار وطرفه الاقرب يوم عكا فى لقاء الكفار قال فى البرق وكان السلطان قد أنعم عليه فى حلب بمزرعة وكتبت توقيعه واراد الله تعويقه اذ قرب الى الآخرة طريقه وحملت توقيعه الى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فاعلم وراجعته فى معناه فسكت وما تكلم وكان ساعة الوقعة راكبا معنا ثم قال وتوفى ابطول فمضى الى خيمته يتودع فما اعلم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادى وكان قال لنا لما أصبح رأيت رجلا يحلق رأسى فى المنام فقلنا له هذا من أضغاث الاحلام فنقله الله بعد ساعة الى دار السلام قلت وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابى ذاك لم يعقب وانما فى اجداده من اسمه رواحه وقد بيناه فى التاريخ والله أعلم قال ومنهم اسماعيل الصوفى الارموى المكبس وشيخ من الحاشية فى بيت الطشت وغلام فى الخزانة أمين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعاده وجاءتهم الشهاده وهؤلاء سوى من وقع فى الوقعه وذهب قبل الرجعه وأجمع السلطان وذووا الاراء على انه يصبح القوم فتفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب لما بان من الامر وراب وذلك ان غلمان العسكرية والاوباش ظنوا ان تلك الفورة هزيمه فنهبوا الاثقال وعدوها غنيمه فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا وكان فى ظنه انه ان فرغ من لقاء خطب يلقى خطوبا وأصبحنا واذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق والغنى معدم والجرئ متندم فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم وانتعش الفرنج فى تلك المده وانتشلوا من تلك الشدّه وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عدم وبنت ما هدم وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل الى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر فحمل أكثر من خمسة آلاف جثه حملت الى النار قبل يوم البعثه وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبه عند خيم الاثقال المضروبه فسار اليها رابع رمضان وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها وإحكام أسبابها فوجد الفرنج بذلك الفرج وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر وفى كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم وبما ظهر من أثرهم والجد فى تعميق الخندق وتتميم محتفرهم فكان من قضاء الله انا أغفلناهم وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور وثقوا من ترابها السور فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سورا فعاد مخيمهم بلدا مستورا معمورا فلوه بالستائر ومنعوه من الطير الطائر وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه ورتبوا عليه رجالا ولم يتركوا اليه لواغل مجالا وتركوا فيه أبوابا وفروجا ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا وبان ضعف رأى الانتقال فانه بعدما أضحك أبكى وجاء كتاب من الفاضل الى العماد جوابا عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه (وعرفت ما جرى على قضيته فسبحت الله تعالى فان من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته والامر كان عظيما والمدفوع أعظم والسلامة كانت غريبة الا أن نقول ولكن الله سلم والسلطان أعزه الله اذا سلم فكل الناس قد سلموا واذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدموا وكل جوهر بالاضافة اليه عرض وهو جوهر بالحقيقة ما عنه من كل جوهر عوض) ومن كتاب له الى

السلطان أوّله (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآيه ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى وردالكتاب بخط مولانا من معترك حربه وجلاده وتوفيق جهاده قبل أن تضع الحرب أوزارها وهرع الناس الى المجلس العادلى والعزيزى يستمعون الاخبار ويستوضحون من وجوهها الانوار ويسألون كيف كانت عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار ويشكرون الله على سلامة أديانهم وقلوبهم وابدانهم وسلامة سلطانهم وماأدراك ماسلامة سلطانهم ونصرة كلمة ايمانهم ودلائل الخير لاتخفى وقد يقرأ الكتاب ومايلمح قارئه منه حرفا وتصوّر الناس الامر الذى وقاهم الله شره وكفاهم أمره)

(فصل) في باقى حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره قال العماد وفى يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج الى صور مقلعا محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوه وغنيمة صفوه وقدكان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون ويمسون على القتال ويصبحون وندم الفرنج على تلك الحركه فانها أفضت بهم الى الهلكة فانهم مادامو رابضين وعلى يد الصبر قابضين يتعذر الوصول اليهم والدخول عليهم وفى بعض الكتب الى بعض الاطراف (والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين فى تسكين ثائرهم وتخريب عامرهم ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدّهم فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بأدوائهم ملازم فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين ومايقضى عجبنا من تظافر المشركين وقعود المسلمين فلاملبى منهم لمناد ولا مثقف لمنآد فانظروا الى الفرنج أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا وأى ضالة نشدوا وأية نجدة انجدوا وأية أموال غرموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولاعظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم الاجارى جاره فى مضمار الانجاد وبارى نظيره فى الجدّ والاجتهاد واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والارواح وأمدّوا أجناسهم الانجاس بانواع السلاح معا كفاء الكفاح وما فعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا الا لمجرد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك يخرج بلد عن يده وتمتدّ يد الى بلده والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيره وعدموا الغيره ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان أوخبا سنا ونبا سنان لماوجد فى شرق البلاد وغربها وبعد الآفاق وقربها من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار وهذا أوان رفض التوانى واستدناء أولى الحمية من الاقاصى والادانى على انا بحمد الله لنصره راجون وله باخلاص السرّ وسرّ الاخلاص مناجون والمشركون باذن الله هالكون والمؤمنون آمنون ناجون) قال العماد وكان السلطان قد كتب الى مصر يستدعى باخيه العادل فى رجال فقدم عليه منتصف شوّال وكتب أيضا فى طلب الاسطول المصرى فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذى القعدة فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها وبددتها وكسبتها وسلبتها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم قال وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته وشكرت فى العدو نكاياته وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد وهو الذى ردّ الفرنج عن بحر الحجاز ووقف لهم على طرق المجاز ولم يترك منهم عينا تطرف ولم يبق لهم دليلا يعرف وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره وأمواله مبذوله وأكياسه لعقد الانفاق فى سبيل الله محلوله قال ونقل السلطان الى البلد فى المراكب جماعة من الامراء باجنادهم وعددهم وأزوادهم واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول وكانوا زهاء عشرة آلاف هذا ورجالة المسلمين يتطرقون اليهم ليلا ويذيقونهم من القتل والاسر والسرقة ويلا حتى كان رجالتنا يختفون بالحشيش فى أجراف الانهار فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجؤوه بالقتل والاسار قال ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العده وتقوية النجده بكل مايمكنه من أسباب الباس والشده سير من أحمال النفط الابيض مع عدة وجرده ماوجده ومن التراس والرماح من كل جنس احكمه وأقومه وأجوده وكتبنا فى شكره (وصل السلاح وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد ومن العجب ان العدة تفنى ومايفنى العداة وتنمو على الحصاد كانها النبات فالبحر يمدهم والكفر الى الردى

يرذهم) ومن كتاب الى الديوان (قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه وبسط الكفر جناحه وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روّعت والروعات التى وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل فما أثر ذلك فى نقصهم ولا أرث الانار حرصهم وليس هذا العدو بواحد فيحج فيه التدبير ويأتى عليه التدمير وانما هو كل من وراء البحر وجميع من فى ديار الكفر فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيره ولا خطة صغيرة ولا كبيره الا جهزت مراكبها وانهضت كتائبها وتحرز ساكنها وبرز كامنها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طائرها ونقضت خزائنها وانفضت معادنها وحملت ذخائرها وبذلت أخائرها وتثلت كائن كائسها واستخرجت دفائن نفائسها وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها وغصت بالافواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب وتعصبت للمصاب المصيب ونادوا فى نواديهم بأن البلاد هى بلادهم وان اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم وانه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر فجاؤا الابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد وتواصلت منهم الامداد) قال (ووصلت فى مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر واغتربن لاسعاف الغرباء وقصدن بخروجهن تسبيل انفسهن للاشقياء وانهن لا يمتنعن من العزبان ورأين انهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن ان هذه قربة ما فوقها قربه لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربه وعزبه) قال (وابق من عسكرنا من المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضى للذة بالذله ومنهم من ندم على الزله فتحيل فى النقله فان يد من لا يرتد لا تمتد وأمر الهارب اليهم لا تهامه يشتد وباب الهوى عليه يستد وما عند الفرنج على العزباء اذا أمكنت منها العزب حرج وما أزكاها عند القسوس اذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج) قال (ووصلت أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم واتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهى كافلة لكل ما يحتاجون اليه من المؤنه زائدة بما تنفقه فيهم على المعونه وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها وفى الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس وهن فى زى الرجال يبرزن فى حومة القتال ويعملن على أرباب الحجى وهن ربات الحجال وكل هذا يعتقدن انه عباده ويخلن انهن يستفدن به سعاده ويجعلنه لهن عاده فسبحان الذى أضلهن وعن نهج الهدى أزلهن وفى يوم الوقعة طلعت منهن نسوه لهن بالفرسان اسوه وفيهن مع لينهن قسوه وليس لهن سوى السوابغ كسوه فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة سبين واشترين وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ويقلن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء وانه لا بقاء له الا بالفناء وان قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق فى الضلال بين الرجال والنساء) قال وفى آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل الى الاقطار والامصار للاستنفار والاستنصار وبث الكتب وكتب بالبث وحث الرسل وراسل بالحث وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن وشرح فى الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن ووصف له جلية الحال وطلب منه الاغانة بالمال وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمدان بان يبعث ما دنا منه عزه ودان وحكم على كل ملك بحجة الايمان وهدى الى محجة الاحسان ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لامه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان ويطلب من السلطان اعانته فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار وأرسل رسولا فى السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد لكونه نسيب العماد وكتب الى صاحب اربل والى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته وأشياعه ومعونته قال وفى هذه السنة توفى الامير حسام الدين سنقر الخلاطى أخص مماليك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على مماليكه وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب قال وفى ثالث عشر شعبان توفى الامير حسام الدين طمان صاحب الرقة وهو من المجاهدين المجتهدين والاتقياء المتهجدين ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيدا الى معاده من معاشه قال وفى تاسع عشر شعبان توفى الامير عز الدين موسك بن جكو وهو ابن خال السلطان وهو من أكابر أقاربه ومقدمى كتائبه وكان للقرآن حافظا وعلى الاحسان

محافظا ولقضاء حقوق الناس ملاحظا ولم يزل للسلطان فى هذه الغزوات ملازما وعلى قمع جمع الكفر عازما ولما اشتد به مرضه استأذن فى الدخول الى دمشق ودفن بجبل قاسيون قال وفى حادى عشر رمضان توفى بدمشق القاضى شرف الدين ابن أبى عصرون ومولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة فبلغ عمره ثلاثا وتسعين سنة ونصفا وأضر قبل وفاته مدة عشر سنين ودفن بالمدرسة التى أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق وكان شيخ المذهب وقد ختمت به الفتيا وأوحشت غيبته الدين والدنيا قال وفى تاسع ذى القعدة توفى الامير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فى العسكر بمنزلة الخروبة وكان صاحب أسد الدين شيركوه ومضى معه الى مصر حين ملكها ثم اختص بالسلطان بعده وتولى حله وعقده ودرت بوساطته وشفاعته للناس ارزاق ونقل الى القدس فدفن بظاهره ولقد كان من الاعيان ومن أهل الجد فى نصرة الايمان فنقله الله الى الجنان قال وفى هذه السنة اقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين ايازولاية شهرزور وأعمالها وولى جمال الدين ابن المحسن نقابة الاشراف بدمشق قال وفى عاشر جمادى الاولى منها كان مولد ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز بمصر الذى اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه فى محرم سنة خمس وتسعين وورد بذلك الى السلطان جده كتاب كريم فاضلى من مصر نسخته (المملوك يقبل الارض بين يدى مولانا الملك الناصر دام رشاده وارشاده وزاد سعده واسعاده وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده واشتد باعضاده فيهم اعتضاده وانمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده وينهى ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سويا برا زكيا تقيا نقيا من ذرية كريمة بعضها من بعض ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة فى السماء ومماليكه تكون ملوكا فى الارض وكان مقدمه الميمون فى ليلة الاحد وهى من الجمعة أولى العدد وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الاحد) ثم ذكر باقى الكتاب

(فصل) فى ورود خبر خروج ملك الالمان قال القاضى ابن شداد ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر يخبر فيها انه قد صح ان ملك الالمان خرج الى القسطنطينيه فى عدة عظيمة قيل مائتا الف وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلاميه فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستندبنى لذلك وأمرنى بالمسير الى صاحب سنجار وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعائهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرنى بالمسير الى بغداد فسرت حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول فى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فأجابوا الى ذلك بنفوسهم وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بعظم عسكره ووعد الديوان بكل جميل وعدت اليه خامس ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبقت العساكر وأخبرته باجابتهم وتأهبهم للمسير فسر بذلك وقال العماد فى كتاب الفتح ونمى الخبر بوصول ملك الالمان الى قسطنطينية فى ثلثمائة ألف مقاتل على قصد العبور الى بلاد الاسلام وقطع بلد الروم والارمن الى الشام وفيهم ستون ألف فارس مدرع ومعهم ملوك وكنود وكل شيطان لربه كنود وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن وهو فى قلعته على الفرات وبين أهل الذمة فى المأمن يبدى نصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا ويقطع ان الواصلين فى كثره وان الناهضين الى طريقهم فى عثره وابرق فى كتابه وارعد وابدع فى خطابه وأبعد ولاشك انه الى جنسه النجس مائل وبملاءة أهل ملته قائل ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم وورد هذا الخبر وخيل انه أليم كاد الناس يضطربون على انهم يصدقون ويكذبون ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون وقلنا ان وضح هذا الخطر وصح هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ويغضبون لله ولا يرضون انهم لا يعضدون على ان الله ناصرنا ومؤازرنا وظاهرنا وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس وبثثنا الارسال الى بلاد الروم عيونا وجواسيس وندبنا رسل الاستنصار وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار وقلنا ما هذه المرة الى مره لا يسيغها الا كل مر ابى وما هذه الكرة مثل كل كره ولا يحضرها الا كل كيش كمى قال وعول السلطان على ارسال القاضى بهاء الدين ابن شداد يوسف بن رافع بن تميم ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم وقال له ما أحتاج أوصى وأنت توفى القول وتستقصى وجعل له الى كل طرف فى طريقه رسالة وأودعه اليه مقاله فسار ووصل الى حلب والقاضى ضياء

الدين ابن الشهرزورى رسول السلطان ببغداد قد عاد وذكر انه قد بلغ المراد فما هذا الرسول الرائح ووصل وهو مغتاظ وتغير على ونسب انفساد القاضى بهاء الدين الى ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه واعلمه بما عمله وعلمه وقال له الشغل قد فرغ والقصد قد بلغ وقرر مع السلطان أمرا وعاد على النجب الى بغداد وصادف بها القاضى بهاء الدين ابن شداد فلم يسفر أمر سفارته عن سداد وقيل جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ونندبه فيما نخيره وقال فى كتاب البرق وصل الخبر بخروج ملك الالمان من بلاده فى مائتى ألف دارع وفى راجل فى دبيب رجل الدبا فى عدد رمل اللوا وأقام بحشرهم القيامه واستثارهم لشار كنيستهم بالقدس قامه وساروا فى شهور حتى وصلوا قسطنطينية وكان ملك الروم يكتب الينا بأخبارهم ونبإ خروجهم من ديارهم ويقول أنا لا أمكنهم من العبور فلما جاؤا لم يقدر على منعهم فصدعنهم الازواد وحرمهم الاسعاد وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم وقلت أزوادهم ولما وصلوا الى حدود بلاد الاسلام وسلكوا فى الاودية والآجام والوهاد والآكام تسلمهم تركمان الاوج وتراكم الثلوج وشتاء الكلاب فى تكلب الشتاء واحتاجوا الى أكل الدواب واحراق عددهم لاعواز الاحطاب وعدموا العلف وما وجدوا الخلف ومناهل الزلال جامدة وهم بالبلاد جاهلون ومن البلاء ناهلون لا يقطعون فى يومين فرسخا وقد أذهب الله عنهم البركه وصعب عليهم الحركه وخرج الامر عن حسابهم وهم كل يوم فى نقص أنفسهم ودوابهم وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسه وعددهم الكريمة الرئيسه ما يعجزون عن نقله ولا يخفون بثقله فاتخذوا لاسرارها من اضلاع تلك الشعاب وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لا تبوح بها أبدا ولا تطلع على مكنونها ومدفونها أحدا هذا وبحرهم عباب الموج هباب الفوج فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر هذا وقد نقص شطرهم وانقطع ظهرهم لكنهم عرضوا فى ستين ألف مدرع مدجج مقنع ذلك وقد باد أكثر راجلهم وترجل معظم ابطال باطلهم وسيأتى باقى أخبارهم قلت ومن قصيدة للحكيم أبى الفضل الجليانى

يا منقذ القدس من أيدى جبابرة ❊ قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم فى وصف ربهم ❊ وصدق الوعد مأمونا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما ❊ يعيى الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خار والفتكه ❊ فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا كيف نتركها ❊ والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى ❊ لينصروا القبر والاقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا ❊ الى الخوامع القاه ترحله
استصرخوا الاهل والعدوى تمزقهم ❊ واستكثروا المال والهيجا تنفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه ❊ وكلما جد صدما جل مقتله
سيف امام فلسطين يرى اما ❊ خلف البحار لغدا مهاه صيقله
كم قد اعتدوا وكم قد فل جمعهم ❊ من غير ضرب ولا طعن يزيله
وانما اسم صلاح الدين يذكر فى ❊ جيش العدو فيسبيهم تخيله

❊(ثم دخلت سنة ست وثمانين)❊ قال العماد رحمه الله والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبه فى خيامه المضروبه على الحالة المحبوبه وعنده العادل والافضل والمظفر وعكا محصوره وانقرضت هذه السنة وهو على مرابطة المحاصرين لعكا واتفق فى أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر العربية الى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالى الانداء والانواء وحالت الوحول عن الركوب والنزول وكانت نوب اليزك مترتبه والاحوال متهذبه وربما ركب السلطان يوما للقنص بالبزاه ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاه ثم وقعت وقعة الرمل وذلك انه ركب يوما فى صفر فتصيد وطاب له قرب القنص فابعد واليزكية على الرمل وساحل البحر فخرج الفرنج فى وقت العصر فى عدد لا يدخل فى الحصر وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم وحملوا عليهم وطردوا عليهم الى خيامهم وأخذوا عليهم من خلفهم وامامهم ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع حتى فنى النشاب

وبقي الانشاب وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب والفرنج لا يعجزهم الا الرما ولا يهتكهم الا الاصما فلما انسوا بخلو الجعاب تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر وكادت تعبث بهم يد القهر فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان واستشهد جماعة من الشجعان وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا وصرعوا اقرانا فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم فرّت بهم الحملة في الاوبه وأعجلتهم عن الركبة والوثبه وأظلم الليل وافترق الجمعان وكثر التأسف على من فقد ومنهم الحاجب ايدغمش المجدى قال ومن عجائب هذه الوقعه ان مملوكا للسلطان يقال له سراسنقر عثر به جواده فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه ليضربه فضرب يد قابض شعره فسيبه واشتد سراسنقر يعدو وهم خلفه فلم يدركوه وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الامر قال وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم شقيف ارنون بالامان وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده وصاحبه ارناط في الاسر فسلمه بخلاصه وصار الى صور قال واغتنم السلطان هيجان البحر وحضور مراكب الاسطول من مصر فما زال يقوى عكا بتسيير الغلات والقوات اليها في المراكب وملأها بالذخائر والاسلحة والكماه فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج الى مراسيها ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا في موانيها وانقطع خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد فانتدب العوّام بالسباحه وحملهم على ذلك من السلطان السماحه حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور ونكتب اليهم ويكتبون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته وينزل في منزلته وعمل لها برجا من خشب وهوادي من قصب ويدرّجها على الطيران من البعد وكنا نقول ما لهذا الولع بما لا ينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت وشفت الغليل ونقعت وأتت بالكتب سارحة شارحه وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار حتى قل وجودها لكثرة الارسال ولقد عطب عوّامون فما ارتدع الباقون ومنهم من سلم مرارا مس القوم فاجترأ وأنس بالعوم

(فصل) في قدوم الملوك وحريق الابراج قال العماد ولما انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال جاءت العساكر الاسلامية من البلاد فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبه وسابق الدين عثمان صاحب شيرز وعز الدين ابراهيم بن المقدّم ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدوّ وصمم ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنه والعادل في آخر الميسره والافضل في أوّل ميمنة القلب وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب ثم وصل الظاهر في عساكر حلب وعماد الدين محمود بن بهرام الارتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد ووصل معه حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار يقترض على الديوان العزيز من التجار وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار فاعتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره غير انه أبدى ردّ التوقيع وقال كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين ولولا صرف أموال هذه البلاد الى الجهاد لكانت محمولة الى الديوان وأركب الرسول معه مرارا وأراه مبارك النزال ومعارك القتال حتى يشهد بما يشاهد ويبين له المجتهد والمجاهد وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع وقال القاضي ابن شدّاد قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول واستعفى من الرقعة والتثقيل بها قال وفي ذلك اليوم بلغ السلطان ان الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد فقاتلهم قتالا شديدا الى الليل وخاف السلطان ان يهجم العدوّ البلد فانتقل الى تل الخيل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب قال وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن انه قد طم العدوّ بعض الخندق وقد قوي عزم العدوّ على منازلة البلد ومضايقته فجدّد السلطان الكتب الى العساكر بالحث على الوصول وفي سحر ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين وكان السلطان رحمه الله ما يقدم عليه عسكر الا ويعرضهم ويسير بهم الى العدوّ وينزل بهم

في

فى خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين قال وكان العدوّ قد اصطنع ثلاثة ابرجة من خشب وحديد والبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الاسوار وهى مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحه لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل فى قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه وايس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان قد فرغ عملها ولم يبق الا جرّها الى قريب السور وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره فى احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وباحثهم فى الاجتهاد فى احراقها ووعدهم عليه بالاموال الطائله والعطايا الجزيله وضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى فذكر ان له صناعة فى احراقها وانه ان أمكن من الدخول الى عكا وحصل له الادوية التى يعرفها أحرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الادوية مع النفط فى قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب فبينما الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانى والثالث بالثالث فاحترقا كالاوّل وركب السلطان والعساكر وسار اليهم وانتظر ان يخرجوا فينا جزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم من فتح له باب خير فلينتهزه فلم يظهر العدوّ من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل واستمر ركوب السلطان اليهم فى كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل فوصل فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وهو ابن أخى نور الدين رحمه الله وصهره زوج ابنته فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر فى لقائه وساربه حتى اوقفه على العدوّ وعاد معه الى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم فحضر هو وجميع أصحابه وقدّم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الى جانبه وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر وفى سابع جمادى الاولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى فلقيه السلطان وأنزله الى جانب عمه عماد الدين وفى تاسع جمادى الاولى وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى نائبا عن أبيه ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله واستحسن أدبه واستنجبه وأنزله عنده فى الخيمه وكارمه مكارمة عظيمه وقدّم له تحفا حسنه وأمر بضرب خيمته بين ولديه الافضل والظاهر وفى أواخر الشهر وصل صاحب أربل زين الدين يوسف بن زين الدين على فاكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى فى الميسره وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدّم قال وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا عموا على الاقامة والحصر فشرعوا فى بناء الابراج العظام العاليه ونقلوا فى البحر آلاتها وأخشابها الجافيه واقطاع الحديد وبنوا ثلاثة أبراج عالية فى ثلاثة مواضع من اقطار البلد فتعبوا فيها سبعة أشهر فلم يفرغوا منها الا فى ربيع الاوّل فعلت كأنها ثلاثة اطواد قد ملئت طبقاتها بعدد واعداد وكل برج لا بد له فى اركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر العجل ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ وكل يوم يقربونها ولو ذراعا على حسب التيسير فى تسييرها وسقوها بالخل والخمر وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا فى طم الخندق وجاء عوّام من عكا فاخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة الى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق آخر مع الابراج فاشفى البلد وبقى له رمق ضعيف ورميت الابراج بكل قارورة نفط فما أثرت ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الاوّل بالابراج الا وقد اشتعلت والتهبت ووقعت وكانت آية من قدرة الله ظهرت وذلك انه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلى بن عريف النحاسين وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مولعا ولتحصيل عقاقيرها متتبعا وكل من

عرفه عذله وانكر عمله وكان قد ألف منها مقادير وقدورا وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا ولم يكن النفط من صناعته ولكن الله وفقه لسعادته فلما كان يوم حريقها جاء الى الامير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ وقال ائذن لي في تصويب المنجنيق لاحرق البرج والله ولي التوفيق فزجره وزبره ونهاه ونهره وقال صناع هذا الشغل قد خاروا وحاروا وبعدما اجتهدوا أغاروا فقال الناس دعه وشانه وما يدريك ان الله وفقه وأعانه فرمى ابن العريف الى البرج الاول قدورنفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه ورواه ثم رماه بقدر محرقه وأردفها بأخرى مزهقه فتسلطت النار على طبقاتها فاضرم على أهل السعير سعيرا وكان يوما على الكافرين عسيرا ثم أحرق الثاني والثالث فاجتمع عليه الاصحاب يفدونه ومن أولياء الله يعدونه وحملوه بعد ذلك الى السلطان فلم يقبل عطاء وقال عملته لله فما أريد به من سواه جزاء وقيل احترق في البرج الاول سبعون فارسا بعدتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم وخرج رجال من البلد فنضفوا الخندق وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤا الى مواضع الابراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت وكشفوا عن الستائر التي تهتكت فأخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا قال وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شواني الاسطول والاسراع به في الوصول فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر فاستظهر به الاسطول الاول الذي بالثغر فركب السلطان بجميع كتائبه وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بعادهم في البحر فجدوا في الامر وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال وخرج للتلقي الاسطول الواصل وقابلوا الحق بالباطل وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت وأخذت مركبا للعدو برجاله وأخذ الناقطعه ومازالت الحرب قرعة وفزعه وصرعة وصرعه حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان وتفرق الاسطولان وكانت المقتلة في الكفر شديده والسطوة مبيده وقال القاضي ابن شداد لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيره وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعبيره ووصوله فعلم انه هو فركب والناس في خدمته وعبأ تعبية القتال وقصده مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول ولما علم العدو بالاسطول استعد له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا ولما خرج اسطول العدو واشتد السلطان في قتالهم من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وايناسا له ولرجاله التقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الاخروية وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي وأخذ منه شيني وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضا كان واصلا من قسطنطينيه ودخل الاسطول المنصور الى عكا وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها ميرة وذخائر وطابت قلوب أهل البلد بذلك وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقد قتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضا والاسطولان مقابلان والعسكر من البر يقاتلهم وكان النصر بحمد الله للمسلمين قال العماد وقتلنا منهم مدة مقامنا على عكا ستين أ كثر من ستين ألف ورزأناهم بكل حتف وكلما بادوا في البر زادوا من البحر وكم جسروا وخسروا وقتلوا وأسروا وهزموا وكسروا وخلفهم خلف ويقوم مقام ما تتهم ألف وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم

﴿فصل﴾ فيما كان من أمر ملك الالمان قال القاضي ابن شداد تواصلت الاخبار بوصول ملك الالمان الى بلاد قليج ارسلان وانه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وانه أعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان يظهر اشقاقه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الى البلاد أظهر من الفساد ما كان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على انه ينفذ معه من يوصله الى بلاد ابن لاون وأنفذ معه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى انهم القوا بعض أقمشتهم ولقد بلغنا والله اعلم انهم جمعوا عددا كثيرة من زرديات وخود وآلات وسلاح عجزوا عن حملها وجعلوها بيدرا واحدا

وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك رابية من حديد وساروا على هذه الحال حتى وصلوا الى طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه وان ملكهم الملعون عنّ له ان يسبح فيه وكان ماء شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب وانه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به الى ان قتله ولما رأى ما حل به أوصى الى ابنه الذى كان فى صحبته ولما مات أجمعوا رأيهم على انهم سلقوه فى خل وجمعوا عظامه فى كيس حتى يحملوه الى القدس الشريف ويدفنوه فيه وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فان ولده الاكبر كان خلفه فى بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون اليه واستقر قدم ولده الحاضر فى تقدّمه فى العسكر ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقى نفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون الامر وهم فرنج وهو أرمنى فاعتصم عنهم فى بعض قلاعه المنيعة ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكاغيكوس وهو مقدّم الارمن وهو صاحب قلعة الروم التى على طرف الفرات ومعنى هذا الاسم الخليفة ونسخة الكتاب (كتاب الداعى المخلص الكاغيكوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الايمان رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره وذلك انه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها وأحوج ملك الروم الى ان أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا وخمسين قنطارا فضة وثياب اطلس مبلغا عظيما واغتصب المراكب وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن الى ان دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان وردّ الرهائن وبقى ثلاثة أيام سائرا وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد ووقع القتال بين التركمان وبينهم وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة وسار حتى أشرف على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالما عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل وصوله الى هذه البلاد انفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده وما لقيه فى طريقه وانه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختيارا أو كرها فاقتضى الحال انفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك فى جواب كتابه وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان ان أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف ثم كثر عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الانهر وأكل خبزا ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام فى الماء البارد ففعل ذلك وخرج وكان أمر الله انه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات وأما لاون فكان سائرا يتلقى الملك فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال فدخل فى بعض حصونه واحتمى هناك وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه وتأكدت قواعده وبلغه هرب رسل لاون فأنفذوا استعطفهم وأحضرهم وقال ان ابى كان شيخا كبيرا وانما قصد هذه الديار لاجل حج بيت المقدس وأنا الذى دبرت الملك وعاينت المشاق فى هذه الطريق مع من أطاعنى والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة وفى الجملة هم فى عدد كثير ولقد عرض عسكره فكان فى اثنين وأربعين ألف مجفجف وأما الرجالة فلا يحصى عددهم هم اجناس متفاوتة وخلق غريبة وهم على قصد عظيم وجدّ فى أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية ليس له جزاء الا ان يذبح مثل الشاة ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه فاجتمعت القسوس للحكم عليه فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا الا الحديد حتى أنكر عليهم

الاكابر ذلك وهم من الصبر على الذل والشقا والتعب على حال عظيم) وقال العماد لما قاربوا بلاد عز الدين قليج ارسلان نهض اليهم ابنه قطب الدين ملك شاه فوقع بينهم الحرب ثم اندفع عنهم الى مدينة قونية فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها فنفذوا الى السلطان قليج أرسلان أنا لم نصل لاخذ بلادك وانما ثرنا لثار بيت المقدس ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والازواد وانفذ قليج أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم من العبور وانهم غلبوا على ذلك ثم ان الالمانية طلبوا من قليج أرسلان انفاذ جماعة من الامراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا الى بلاد الارمن فنفذ معهم خمسة وعشرين ووافق ذلك غرض قطب الدين فانه كان كارها لجماعة من المقدمين فتقدّم اليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الالمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر وورّطهم في الضرر فانهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق وقد تبعتهم اللصوص حتى وصلوا الى بلاد الارمن ومقدّمهم لافون بن اصطفان بن لاون فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدوهم فنهم من خلص بعد حين بمال جزيل ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين ووصل مقدّم الارمن الى خدمته ودخل في طاعته وهداهم لمقصده وقام لهم بالضيافات والعلوفات وذلك في طرسوس فتمكنوا بها البر يحوا النفوس فعن لملك الالمان ان يسبح في النهر لاماطة مابه من الوضر فعرض له مرض سلك به في سقر وقيل لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده ويتبعه من بعده فنزل على مخاضة ذات مخافه لا يخلو من هجمها من آفه فجرى اليها واجترأ عليها فجذبته سورة الماء الى شجرة شجت رأسه وبحت أنفاسه وأخرجوه ونفسه على الخروج وعزم على الدروج فتسلم مالك ملك الالمان باله واحماله الى جهنم وجلس ابنه مكانه واتبع شانه واستتبع رجاله وفرسانه وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمى وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم الى أخيه وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من اجداث وأكثرهم حملة عصي وركاب حمير وكل بالارض التي يسلكها غير خبير فتبرم بهم صاحب انطاكيه وثقلت عليه وطأتهم المفاجيه وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا لهم في ذلك الصوب من ارب وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل اليها ماله وخزائنه واثقاله فاخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله وأموال رجاله وكان على ماحدسه فانه لم يعد اليها واستولى الابرنس بانطاكية عليها وجاءت فرقة منهم ليلا الى حصن بغراس وظنوا انه في أيدي أجناسهم الانجاس ففتح والى القلعة الباب وأخرج الاصحاب وتسلم تلك الاموال باحمالها والصناديق باقفالها وأسر منهم وقتل كثير وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها الى طرقهم وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض وكان الواحد يبتاع أسر منهم ثلاثه ولا يرى من رفقائهم اغاثه فهانت الالمانية بعد تلك المهابة في الانفس وباعوهم في الاسواق بالثمن الابخس ولما تكامل وصول السالمين الى انطاكيه سلكوا الى طريق طرابلس جبلة واللاذقيه فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فما وصلوا الى طرابلس الا في خف ولم يصف ممن جاء مع الملك غير ألف وجاؤا الى النازلين على عكا فغرقوا في لجهم وخمدوا في وهجهم ثم هلكوا على عكا بعد انقضاء مدّه واقتضاء شدّه بتاريخ ثاني عشر ذي الحجه سنة ست وثمانين. وقال في الفتح وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الالف برعب قلب وقصور يد ورغم أنف واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه وسخط حكمه وهلك بعد قليل ولم يحظ بنقع غليل وقال القاضي ابن شداد مرض ولد ملك الالمان الذي قام مقامه مرضا عظيما وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داويا وجهز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهرا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية انفذوا اليهم عسكرا يكشفون أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة فاغاروا عليهم وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلوا الخيل والعدة وأكثر

ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما وقلت ازوادنا واحطابنا فاوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها ومات الكند الذى وصل الى انطاكيه وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تأخر معه ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض قال ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان الى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الاراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأى على ان العسكر يسير بعضه الى البلاد المتأخمة لطريق عسكر العدوّ الواصل وان يقيم هو رحمه الله على منازلة العدوّ المقابل بباقى العسكر المنصور فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقى الدين ثم عز الدين ابن المقدّم صاحب كفرطاب وبارزين وغيرهما ثم مجد الدين صاحب شيزر ثم الياروقية من جملة عسكر حلب وسار الى دمشق ولده الافضل لمرض عرض له وكذا بدر الدين شحنة دمشق ثم سار الملك الظاهر الى حلب لايالة الطريق وكشف الاخبار وحفظ ما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدوّ والمجتاز ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فامر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل الى منزلة تقى الدين فى طرف الميمنه وكان عماد الدين زنكى فى طرف الميسره ووقع فى العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفى ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفى ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمد الله تعالى وكان المرض عند العدوّ أكثر وأعظم وكان مقترنا بموتان عظيم وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدوّ قال العماد وتقدّم السلطان بهدم سور طبريه وهدم يافا وارسوف وقيساريه وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلها الى بيروت وفى بعض الكتب السلطانيه (قد عرفنا خبر العدوّ المشؤم الواصل من جانب الروم وهذا أوان تحرك ذوى الحميه ونهوض أهل الهمم الابية العليه وانهم فى كثره مستنّون فى طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسى وقف والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف فأين المؤدّون فرض الجهاد المتعيّن وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون وحاشى ان يكونوا للاسلام مسلمين وأين المقدّمون فى الدين ومعاذ الله أن لا يكونوا فى نصرته على الموت مقدمين ولولا التقيد بهذا العدوّ الرابض لاطلقت أعنة النهضة الى العدوّ الناهض ولابد من لقائه قبل تلفق الجعين وارآة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين) ومن كتاب فاضلى الى بغداد (ومن خبر الفرنج انهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه ويخرج منه للمسلمين ما هو أمرّ من أجاجه وقد تعاضدت ملوك الكفر على ان ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفه ويرسلوا اليهم من كل سلاح شوكه فاذا قتل المسلمون واحدا فى البر بعثوا ألفا عوضه فى البحر فالزرع أكثر من الحصاد والثمرة انمى من الجذاذ وهذا العدوّ المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينه واستجن من الجنابات بحصون حصينه فصار محصورا وممتنعا حاسرا ومتدرّعا مواصلا ومنقطعا وعددهم الجم قد كاثر القتل ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل وأصحابنا قد أثرت فيهم المدّة الطويله والكلف الثقيله فى استطاعتهم لا فى طاعتهم وفى أحوالهم لا فى شجاعتهم وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبويه فى الصحبة البدريه اللهم ان تهلك هذه العصابه ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الاجابه وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح واستخرج منهم كل مذخور وأغلق دونهم الكنائس ولبس ولبسهم الحداذ وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبره فيا عصبة محمد عليه السلام أخلفه فى أمته بما تطمئن به مضاجعه ووفه الحق فينا فانا والمسلمون عندك ودائعه وما مثل الخادم نفسه فى هذا القول الا بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا وقبل ترابها خاشعا وناجاها بالقول صادعا ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذى خامر ولو امن عدوّ الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر ولولا ان فى التصريح ما يعود على العداله بالتجريح لقال ما يبكى العيون وينكى القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب قائم من نفسه بما يجب رب انى لا أملك الا نفسى وها هى فى سبيلك مبذوله واخى وقد هاجر اليك هجرة يرجوها مقبوله وولدى وقد بذلت

لعدوك صفحات وجوههم وهان على محبوبك مكروهى فيهم ومكروهم ونقف عند هذا الحد ولله الامر من قبل ومن بعد)

(فصل) فى الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة قال القاضى ابن شداد علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت فى اطراف البلاد وان الميمنة قد خفت لان معظم من سار كان منها لحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجاءة فخرجوا واستخفوا طرف الميمنه وفيها مخيم العادل فلما ابصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من اجامها وركب السلطان ونادى منادية يالاسلام وكان رحمه الله اول راكب ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقدة لولدها الثاكلة لواحدها ثم ضرب الكوس فاجابته كاسات الامراء من اماكنها وركب الناس وسارع الفرنج فى قصد الميمنة حتى وصلوا الى المخيم العادلى قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا فى وجاقه وامتدت أيديهم فى السوق واطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص واخذوا من شرابخاناته شيأ وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى ومن يجرى مجراه ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى المخيم ويشتغلوا بالنهب وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم فى الخيام والاقمشة والفواكه والطعام فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فرائسها وامكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين وعلى اعقابهم ناكصين وسيف الله يقتل فيهم وصاح صائح السلطان فى الناس يا ابطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر الى اجابة دعوته اهل حلقته وخاصته ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبى وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام العادل الى خيامهم اولهم فى الخيم الاسلامية وآخرهم فى خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وكان مقدار ما امتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخا وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر قال ولقد خضت فى تلك الدماء بدابتى واجتهدت ان أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين وحكى لى من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن واسر منهن اثنتان واسر من الرجال فى ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان قد أمر الناس ان لا يستبقوا أحدا هذا كله فى الميمنة وبعض القلب واما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضى القضاء على العدو لبعد المسافتين وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر فان العدو ظهر فى قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين ورآهم الى مخيمهم على ما قيل ثم ان السلطان أمر الناس بالتراجع ولم يفقد من المسلمين أحد فى ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالى السور خرجوا الى مخيم العدو من البلد وجرى بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعا من النسوان والاقمشة حتى القدور وفيها الطعام ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس فى عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف وقال آخرون سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها فى خيم العادل وآخرها فى خيم العدو ولقد لقيت انسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له كم عددت فقال الى هاهنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا وكان قد عد صفين وهو فى الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف أكثر عددا من الباقى قال وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن ان جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا للنهب باطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الحلبى اليهم واخذ عليهم الطرق فلم ينج منهم احد الا من شاء الله قال وجاء فى ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع منهم حديثا فى سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل العدو من حينئذ مكسور

الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كندبقال له كندهرى وسيأتى ذكره وقال العماد لما شاع عند الفرنج خبر وصول الالمانية قالوا اذا وصل ملكهم ونكى فى المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤسنا فذكر الوقعة بمعنى ما تقدم الى أن قال ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ما سره وعرف لطف الله وبره ونصره وعاين هنالك مصارع الاعداء ومشارع البلاء وكانوا مفروشين فى مدى فرسخ على الارض وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض وكل صف يزيد على ألف قتيل وشاع القتل فى الفرنج فى كل قبيل وكانت هذه النوبة بلا نائبه وتلك الغزوة بلا شائبه وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر واغتنمها تجارة رابحه وغنيمة ميسره قال ولما عرفت بالواقعه والنصرة الجامعه صدرت ثلاثين او اربعين كتابا بالبشارات بابلغ المعانى وابرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره ورأى البشارة شائره وركبت أنا والقاضى بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ما هنالك من اشلاء صرعى واجساد فالعجل ما سلبوا وعروا وفروا وفروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتله وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشا بالظلام فعدنا الى الخيام واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسه واستبشرت الوجوه بتلك الاوجه العابسه وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل لا حزر تكثير بل حزر تقليل وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من ألف فقتلوا اضعافا مضاعفه وعدموا من وراءهم مساعدة ومساعفه وحكى من نوادر هذه الوقعة ان فرنجيا عقر جفنا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجى فرسه بسيف فى يده فنزل بحده مستنا فى جدده وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندى وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحا ما عده خسارا وامتلأت الايدى بالاسلاب والاكساب وحصل من العدد ما لم يكن فى الحساب وبعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص قال وشرع الفرنج فى الخداع والمراسلة وسألوا فى الصلح واذن لهم السلطان فى الخروج للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج وهى قد تورمت وانتنت وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت وضاقت بها القشاعم والخوامع وعليها اضافت فساءهم ما سرنا ونفرهم ما اقرنا

(فصل) قال العماد وكان الرأى بعد هذه النصرة ان نرد عليهم الكرة مرة بعد مره الى ان يهلكوا حسره ويبيدوا فلا يبقى لهم جمره فاشتغل السلطان بما جاءه من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الالمان فجاءت للفرنج نجدة من البحر ومدد أضعاف ما نقص منهم من العدد والعدد فاضحوا كأن لم ينكبوا وثبتوا مكانهم ولم يثبوا ووصل اليهم المعروف بالكندهرى ففرق الاموال واستخدم الرجال وانفق فى عشرة آلاف راجل وأظهر انه يخرج الى لقاء عسكر الاسلام فتحول السلطان الى منزلة الخروبه ليوسع عليهم الدائره ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيره فاحرقها المسلمون وقتل منهم من الفوارس سبعون وأسر عدة معروفون ثم نصب منجنيقين فاحرقا أول شعبان وكان الكند قد انفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار ومن جملة من وقع فى الاسر فارس كبير فاأمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالاموال ولم يعرفوا بالحال فاخرجوه اليهم قتيلا فاكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا وباتوا يندبونه نوحا ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحا وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الارض وحثوا على رؤسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمه وكتموا أمره ولم يظهر احدا على سره واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا اليها على أجنحة الطيور وأيدى السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو قال العماد ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وانه مستمر على المودة راغب فى المحبه ويعتذر عن عبور الملك الالمانى وانه قد جفع فى طريقه بالامانى ونال من الشده ونقص العده ما أضعفه وأوهاه وانه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هنالك ولا يرجع ويموت بما به كاده وانه قد بلغ فى اذاه اجتهاده ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا فاجيب فى ذلك الى مراده ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده وقال القاضى ابن شداد كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبه وكان

وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطانى بمرج عيون سنة خمس وثمانين فى رجب فى جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة فى جامع قسطنطينية فضى الرسول واقام الخطبة ولقى باحترام عظيم واكرام زائد وكان قد أنفذ معه فى المركب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم الى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كبير من التجار ورقى الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال فى ذلك فاقام مدة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن مايفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذى يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب ولما مات وصل خبر وفاته الى ملك قسطنطينية فانفذ هذا الرسول فى تتمة ذلك ثم وصف القاضى الكتاب وعبر عنه بالفاظه وقد عبر العماد عن معانيه فاغنى عن ذلك ثم قال وكان من حديث ملك الالمان انه بعد ان استقرت قدمه فى انطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره وكان له اموال برفقته فاخذها منه غيلة وخديعة وأودعها فى خزانته وسار عنها خامس عشرى رجب نحو عكا فى جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الاصل فى تهييج الجموع وذلك انه صوّر القدس فى ورقة عظيمة وصوّر فيه صورة القمامة التى يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم فصوّر القبر وصوّر عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر وابدى هذه الصورة وراء البحر فى الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور وللصور عمل فى قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم الا الله تعالى وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا فى استدعائهم الى هذه الواقعة فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق وسلك به الساحل خوفا من انه اذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم واختاف حزر الناس لهم ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتى ألف فانظر الى صنيع الله مع أعدائه ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد وافى اعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل ولم يزالوا سائرين وأيدى المسلمين تتخطفهم من حولهم نهبا وأسرا وقتلا حتى أتوا طرابلس فاقام بها حتى استجم عسكره وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه ففرحوا من ذلك لان المركيس صاحب مشورته وكان الملك جفرى وهو ملك الساحل بالمعسكر هو الذى يرجع اليه فى الامور فعلم انه مع قدوم الملك الالمانى لايبقى له حكم وفى أواخر شعبان نزل الملك الالمانى فى المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة مراكب وسار الباقون الى صور ثم وصل الى عكا فى نفر يسير فى سادس رمضان وكان لقدومه وقع عظيم عندهم ووصل خبر وصولهم الى طرابلس ثامن شعبان والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات والهجوم عليهم فى كل وقت مفوّضا أمره الى الله تعالى معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا ببره من نفذ اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء ولقد كنت اذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى اذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس مايشرح صدرى واتيقن معه نصر الاسلام وأهله

(فصل) فى ادخال البطس الى عكا قال ابن شداد كان رحمه الله قد أعد ببيروت بطسة وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يدخلها مركب للمسلمين وكان قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان وجاؤا قاصدى البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم

واعترضوهم

واعترضوهم فى الحرّاقات والشوانى وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا أولم تكونوا أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا ونحن نردّ القلوع الى العسكر ووراءنا بطسة أخرى فى هوائها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدين العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدّت البطسة الاسلامية فى السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرجا عظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك فى العشر الاواخر من رجب قال وفى العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والى البلد والمقدّم على الاسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الاقدر ما يكفى البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها الخاص ولا عام خشية الشيوع والبلوغ الى العدوّ فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والميرو جميع ما يحتاج اليه فى الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فاقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت فى البحر تتوخى النوتية بها الريح التى تحملها الى عكا فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الازواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدوّ يقاتلها والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس فى تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤسهم يبتهلون الى الله تعالى فى القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ويدعو الى ربه بنصره وقد علم من شدّة القوم ما لم يعلمه غيره وفى قلبه ما فى قلبه والله يثبته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتدّ والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين الى مينا البلد وتلقاهم أهل عكا تلقى الامطار عن جدب وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال وكان دخولها فى وقت العصر رابع عشر شعبان وقال العماد كان السلطان قد أمر نوّاب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها الى عكا فابطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد اعواز الاقوات فافكر فيما يتعجل به الغرض فكتب الى متولى بيروت عز الدين سامة بجهز بطسة كبيرة ملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زى الفرنج محلوقى اللحى محلوقى الحلى وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهى بساحل بيروت منبوذة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها فلئت بالشحوم واللحوم وأربعمائة غرارة غلة واحمال من النشاب والنفط ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا ان تشتبه بطس العدوّ فى البحر فشدّوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها فى البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول ما هذه طريقها وهى كالسهم النافذ قد سدّد فوقها فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر وظهرت رابع عشر شعبان من لجّ البحر ثلاث مراكب كأنها ثلاث هواضب فجاءت بجاة اعلامها كالاعلام طائرة كالسهام ولم تبال بمراكب العدوّ فخرقتها وقربت من سفينة فغرّقتها وعبرت وعين الكفر عبرى وامتلأ الثغر بها واثرى

﴿فصل﴾ قال العماد ووصل ملك الالمان ورام ان يظهر بجيشه وقعا ويبدى به نفعا قد بوافى راجل أكرجلى الدبا وخيل اغصت الوهاد والربى وقربوا من تل العياضيه وعليه خيم اليزكيه والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه والعصبة الموصليه فثارت اليهم ودارت عليهم وركب السلطان وتقدّم الى تل كيسان ولم يزل الحرب الى ان جنّ الظلام وكف الكفر وسلم الاسلام وكانت الدائرة على الكفره قال القاضى وقتل منهم وجرح خلق عظيم والسيف يعمل فى بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدّة خوفه وقتل من المسلمين فى ذلك اليوم اثنان وجرح جماعة كثيرة ومن كتاب الى بغداد (قد بلى الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت وفارقوا المحبوب بين الاوطان والاوطار وهجروا المألوفين الاهل والديار وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالا لامر كبيرهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم وتحرّقا على قمامتهم لا يطلبون مع شدّة الاملاق مالا ولا

يجدون مع كثرة المشاق ملالا بل يتساقطون على نيران الغلبى تساقط الفراش ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متشبثين الجاش حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات وسرن الى الشام فى البحر والبر متجهزات وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل فارس وراجل ورامح ونابل والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الاسكندرية فاخذت برجالها وأراح الله من شر احتفالها ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات وقد وجد فى الوقعات التى جرت عدة منهن بين القتلى وماعرفن حتى سلبن وان البابا الذى برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندى محرم لامنكح له ولا مطعم فلاجل هذا يتهافتون على الورود ويتهالكون على يومهم الموعود وقال لهم انى واصل فى الربيع جامع على الاستنفار شمل الجميع واذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ويصل معه باهله وولده كل من يقول ان لله أهلا وولد فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم فى ضلالتهم ولجاجتهم فى غوايتهم بخلاف أهل الاسلام فانهم يتضجرون ولا يصبرون بل يتقللون ولا يجتمعون ويتسللون ولا يرجعون واغا يقيمون ببذل نفقه واذا حضر واحضر وابقلوب غير متفقه ليعلم ان الاسلام من عند الله منصور وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور قال القاضى ولما عرف ملك الالمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذى هو شرذمة من العسكر رأى ان يرجع الى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبه والصنايع الغريبه ماهال الناظر اليه وخيف على البلد منه فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابه يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهى تسمى كبشا ينطح بها السور بشدّة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها وآلة أخرى وهى قبو فيه رجال تسحب ذلك الا ان رأسها محدّد على مثال السكة التى يحرث بها ورأس الكبش مدوّر هذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدّتها وثقلها وهى تسمى سفودا ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة وأعدّوا فى البحر بطسة غائلة وصنعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذى ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذبان ليأخذوه به) قال (ونصب العدوّ على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه آثارا بينا وخيف من غائلته فاخذ سهمان من الجرخ العظيم واحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدوّ فى اطفاء النار فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فاحرقته واشتدت نارهما بحيث لم يقدر احد ان يقرب من مكانهما ليحتال فى اطفائهما وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وغم الكافرين) قال (ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها يعنى نوادر ماجرى فى القتال على عكا ان عواما مسلما كان يقال له عيسى كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدوّ وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدوّ وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتبا للعسكر وعام فى البحر فجرى عليه أمر أهلكه وابطأ خبره عنا وكانت عادته اذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر فى البلد واذا البحر قد قذف اليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رئى من ادّى الامانة فى حال حياته وقدر الله له اداءها بعد وفاته الا هذا الرجل وكان ذلك فى العشر الاواخر من رجب أيضا) وقال العماد فقد يعنى عيسى ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر فظنت به الظنون وما تيقنت المنون وكانت له لاشك عند الله منزله فلم يرد ان تبقى حاله وهى مجهولة محتمله فوجد فى عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها وبرأه الله مما قالوا فاذهب حق اليقين من الظنون باطلها

(فصل) فى احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش قال القاضى وفى الثانى والعشرين من شعبان جهز العدوّ لعنه الله بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان وهو برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب مينتا عكا تحرس منه المينا ومتى عبره المركب امن من غائلة العدوّ فاراد العدوّ اخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من

دخول شئ من البطس اليه فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صوارى البطس برجا وملؤوه حطبا ونفطا على انهم يسيرون البطس فاذا قاربت برج الذبان ولاصقته احرقوا البرج الذى على الصارى والصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا فى البطسة وقودا كثيرا حتى يلقى فى البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية وملؤوها حطبا ووقودا على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من المير وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شئ من آلات السلاح حتى اذا أحرقوا ما ارادوا احراقه دخلوا تحت القبو فامنوا واحرقوا ما ارادوا احراقه وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم فلما أحرقوا البطسة التى ارادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذى أرادوا يحرقون به من على البرج فاوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى واراد واشتعلت البطسة التى كان فيها البرج باسرها واجتهدوا فى اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة الا من شاء الله تعالى ثم احترقت البطسة التى كانت معدة لاحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فاخذوها اليهم وأما البطسة التى فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت وهلك جميع من بها لانهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى واندر العجائب فى نصرة دين الله ولله الحمد وكان يوما مشهودا وقال العماد وعند ميناء عكا فى البحر برج يعرف ببرج الذبان وهو فى حراسة الميناء عظيم الشان وهو منفرد عن البلد محمى بالرجال والعدد وقصد الافرنج حصاره قبل مجئ ملك الالمان فى الثانى والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام الآلات ابرزوها ومكروا ومكروه ودبروا ودبروه واحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه لا يطاوله طود ولا يباريه وقد حشى حشاه بالنفط والحطب وضيق عطنه بسعة العطب حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته اعدى اليه بآفاته ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الاخشاب والستائر مابه التصق واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها ولم يقربوا منها واوقدت بطسة الحطب التى من ورائها وعادت على الفرنج فالتهبوا وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن (ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل ميناء الثغر على مراكبه وقد رفعناه واعليناه وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها صقالا كانه سلم وهو فى مقدمها مركب مقدم وقد جعلوها بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شرار يفه وصعد الرجال اليه فى تجاويفه وتعبوا فى ذلك اياما واشبعوه توثيقا واحكاما حتى اذا التصق بالبرج الصقت به قوارير النفط وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمجنيقات على اولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجا عاليا فى أكبر مركب وحشوه بالحطب وعملوا على رأس صناريه مكانا يقعد فيه الزراق وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه النيران فاهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس وكبت الفرنج على الوجوه والرؤس) قال القاضى وفى ثالث رمضان زحف العدو على البلد فى خلق لا يحصى فامهلهم أهل البلد حتى تشبثت مخاليب اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور وتحصل منهم فى الخندق جماعة عظيمة فاطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم فى الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقى فى الخندق منهم ثم هجموا على كبشهم فالقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فاحرق حريقا شنيعا وظهرت له لهبة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل والشكر وسرت نار الكبش بقوتها الى السفود فاحترق وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة فى الاصل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة والقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام وبلغنا من البلد انه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامى والقنطار مائة رطل ولقد انفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذى يكون بحجر المدار قيل انه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه وكان

ذلك من أحسن ايام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التى ضيقوا فيها نفقاتهم وقال العماد واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة وآلة للغوائل غائلة فى رأسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان فى طول رمحين كالعمودين الغليظين وهذه الدبابة فى هيئة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للعطب عليها دليل وملؤوها بالكماة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة وبلى البلد منها بالبلاء الافظع وقالوا اما فى دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها مجانيق ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق فابعدت رجالها من حواليها ثم رموها بحزم الحطب حتى ما بين القرنين وقذفوها بالنار فبادروا ليطفئوها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من اضلاعها ثم خسفها المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار وعلم الفرنج ان اعمالهم حبطت وآمالهم هبطت وكان ذلك فى ثالث عشر رمضان وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والامجد صاحب بعلبك وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وعز الدين ابن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك وجماعة من الامراء والخواص والمماليك

(فصل) فى حوادث أخر متفرقة فى هذه السنة قال العماد ووصل الخبر فى سادس عشر رمضان من حلب ان صاحب انطاكية اغار على غرة نشره وشره فرتب أصحابنا له كمينا ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا فقتلوا أكثر رجاله وافلت وباله فى وباله قال القاضى خرج عليه نواب الملك الظاهر فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفرا وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه فى موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار الى بلده قال وفى اثناء العشر الاوسط القت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون وكان العدو قد ظفر لنا ببركوس فيه نفقة ورجال اراد الدخول الى البلد فاخذه فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحيا لذلك وجابرا له قال العماد وفى هذا التاريخ القت الريح الى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة فاخذتا وأخذوا واخذت وجد الفرنج فى استنقاذها فاستنقذت قال وفى تاسع عشر الشهر رحلنا الى منزلة تعرف بشفرعم وسببه انه كثر المستأمنون من الفرنج واخبروا انهم فى عزم الخروج الى المرج هائجين الى الثار ثائرين الى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا الصواب ان تفسح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج فنصبحهم فى اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر فخيمنا هنالك ورحبت المنازل وعذبت المناهل وعادت معالم تلك المجاهل وحللنا التلال والآكام وركزنا بتلك الاعلام الاعلام ونزلنا لمقام الشتا مستعدين ولاسباب التوقى من الامطار مستجدين قال ومرض زين الدين صاحب اربل فى شهر رمضان وتوفى فى الثامن والعشرين منه قال القاضى وكان استأذن فى الرواح فلم يؤذن له فاستأذن فى الانتقال الى الناصرة فاذن له فاقام بها أياما يمرض نفسه ثم توفى وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته قال العماد وكان كريما اريحيا جوادا سخيا وبكرنا الى مظفر الدين نعزيه فى أخيه وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه فاذا هو فى شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الاشياع والاشياء وهو جالس فى مخيم اخيه المتوفى وقد اشرف على حفظه واوفى وقد قبض على جماعة من امرائه واعتقلهم وبخل عليهم وما اغفلهم منهم صارم الدين بن بلداجى متولى خفتيان كان ليتسلم منه المكان وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته امن وخاطب فى اسباب ولاية أربل واعمالها وان يستقل ببلادها واموالها ورغب فى شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها وانه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر ويجعل كل ما فى يده من الاعمال فى الموفر ويخدم بخمسين الف دينار يحضرها نقدا ويلتزم بها على الميثاق عقدا فاجيبت رغبته واصيبت طلبته وعقد لواؤه ونجح رجاؤه واراد سرعة الرحيل فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقى الدين ليترك فى منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال واضيف اليه ما استعيد من مظفر الدين من الاعمال وكتب منشور اربل وكتابا الى صاحب الموصل فيه (لا شك فى احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقر رحمته مجاهدا فى سبيله شاكرا لنعمته وهو من السعداء الذين انزل الله تعالى فيهم ومن يخرج من بيته

مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله فما الجع القلوب بمصابه وما انكى فى النفوس افول شبابه ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار فى ايثاره وبلى بدره التم بسراره واصبح فى ضمير البلى من اسراره وهذا ربل من انعام البيت الكريم الاتابكى على البيت الزينى مذ سبعين عاما لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاما ولم يزيدوا احكامه الا احكاما وابراما ومارأى ان يخرج هذا الموضع منهم وان يصدف به عنهم والامير الاجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه والمقدم فى الولاية بمقتضى وصية أبيه وقد أنهض ليسد مسد اخيه) قال وكان الملك المظفر تقى الدين متوليا منذ سنين اعمال ميافارقين فطلب من عمه تفويض كل ماوراء الفرات اليه والاعتماد فيه عليه فأنعم عليه بذلك فاقام عندنا بالمنزلة المظفرية الى ان يؤذن له فى المضى الى تلك الولايه وسير نوابه اليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعايه قال ولما أحس العسكر الشرقى بالشتاء أبدوا خلق السآمه وضجروا من الاقامه واما عماد الدين صاحب سنجار فانه عرف كراهية السلطان لفراقه فلم يجر الاعلى وفاقه وأما صاحب الجزيرة سنجرشاه فانه استطال المقام واباه ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستيذان فاغضبه انفصاله وساءه ارتحاله وكان تقى الدين واصلا فلقى صاحب الجزيرة عنافاصلا فردّه عن طريقه وجد فى تعويقه ورجع به الى الرضى وعفا الله عما مضى وقال القاضى ترددت رسله ورقاعه الى السلطان فى طلب الدستور والسلطان يعتذر بان رسل العدوّ متكررة فى معنى الصلح ولايجوز ان ينفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أوحرب فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته وتبعه أصحابه فلما بلغ السلطان صنيعه كتب اليه (انك انت قصدت الانتماء الى فى الابتداء وراجعتنى فى ذلك مرارا واظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من اهلك فقبلتك واويتك ونصرتك فبسطت يدك فى اموال الناس ودمائهم واعراضهم فنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فاتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس واقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت بهذه الحركة وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدوّ فانظر لنفسك وابصر من تنتمى اليه غيرى واحفظ نفسك ممن يقصدك فمابقى لى الى جانبك التفات) وسلم الكتاب الى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار فلقيه تقى الدين عند عقبة فيق فاخبره بامره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له فى الرواح ففهم تقى الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فامره بالرجوع وقال أنت صبى ولاتعلم غائلة هذا الامر فقال مايمكننى الرجوع فقال ترجع من كل بد من غير اختيارك وكان تقى الدين شديد البأس مقداما على الامور ليس فى عينه من أحد شئ فلما علم انه قابضه ان لم يرجع رجع معه وسأل السلطان الصفح عنه ففعل وطلب ان يقيم فى جوار تقى الدين خشية على نفسه فاذن له فاقام فى جوازه الى حين ذهابه وقال العماد فى الفتح وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام وتقرر ملاله وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان (من ضاع مثلى من يديه ❋ فليت شعرى ما استفادا) فلما قرأ هذا البيت ماراوح فى الخطاب ولاغادى وقال فى البرق وفى مستهل ذى القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من امارات السعد وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحب سنجار والجزيرة وحبوا بالحباء الوافر والعطا يا الغزيرة وما فارقا الا فى السنة الاخرى فى ثالث صفر قال وغلت الاسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم فى استعار وبلو بامور صعبه وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبه فاستأمنوا الينا لفرط جوعهم ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا فى رجوعهم فنهم من أسلم فحسن اسلامه ومنهم من خدم فوافق استخدامه ومنهم من حن الى الفه فرجع القهقرى الى خلفه

(فصل) كان القاضى الفاضل رحمه الله تعالى فى هذه الاوقات بالديار المصريه يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر وتعمير الاسطول وحمل المال ونقل الميرالى عكا والسلطان يكاتبه فى مهماته وترجع اجوبته باحسن عباراته مشيرا وناصحا ومسليا وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا فمن بعض كتبه (المملوك ينهى ان الله

تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته ولا تفرج الشدائد الا بالرجوع اليه والامتثال لامر شريعته والمعاصى فى كل مكان باديه والمظالم فى كل موضع فاشيه وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها الا ما يستعاذ منه وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة فى رضاه ونعوذ بالله ان يكون حجة عليه فى غضبه بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بانه على صفة تقشعر منها الاجساد وتتصدع بذكرها الاكباد والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فى اتباعه وشيوع المظالم فى ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الاقصى و بالغفلة عن مرمتهما و بفقدهما فى اشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة لا يؤمن سقوطهما وافتضاح القدرة فى العجز عن اعادتهما والمرمة أقرب تناولا ولا من الانشاء والتجديد ولا شبهة ان مولانا عز نصره فى اشغال شاغلة وامور متشدده وقضايا غير واحدة ولا متعدده ولكن قد ابتلى الناس فصبروا واضجرتهم الايام فما ضجروا وأى عبادة أعظم من عبادته التى قام بها والناس عنها قعود وصبر فى طلب جنتها على نارى الحرب والوقت ذوات الوقود غير ان مولانا اذا ذكر نصيبه من الاقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل فى الامور الخطيره ولا يقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة فالمولى اذا اقبل كان واحدا واذا ادبر كان مقوما بجميع الخلق ولا يطمع بان يقوم به الالف وليذكر المولى نوبة الرملة التى كان وقوعها من الله سبحانه أدبا لا غضبا وتوفيقا لا اتفاقا ولا يكره المولى ان تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول وحسناته تزيد وأثره فى الاسلام يبقى وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامة جنده وباعداد فى اعدائه لجهاده بصاحب صيدا فى الفرنج فهو جهاد قد أربى فيه رأى المولى فرج والحديد بالحديد يفلح وا كيد ما قوبل به العدو سلاحه وأسرع جناح طار لقنصه جناحه ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب وكالسماء مطرا واسنة كواكب) ومن كتاب آخر (المملوك يقبل الارض بين يدى مولانا الملك الناصر لطف الله بقلبه وخفف عنه وروح سره ووصل الراحة به ونسأل ان يرحمنا الذى رحمنا به فقد بلغت منا الحناجر القلوب وقد وقفت فى طرقنا الذنوب وبينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على ان قلب المولى قد طاب وقصد العدو قد خاب اذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو انها جماد) ثم ذكر البطس الذى تقدم ذكرها الواصلة الى عكا ليلة نصف شعبان فقال (وبينا نحن نعتقد ان البطس فى عكا وصل الخبر بانها فى دمياط ويوم وصل الخبر بانها فى دمياط نحن على انتظار خروجها منه وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال وتحذيرهم من تمادى المقام وما تيقنا اخرجت ام هى باقية كان الريح فى بيت ما خرجت منه من ها تين الجمعتين ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية والى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدوده والايدى مرفوعه بان يفرج الله عنا وعنكم بوصولها فمن شبع فى هذه الايام فما واسى المسلمين ومن نام ملء عينيه فما هو من أخوة المؤمنين والمملوك شفيق على البطس فى وقت الدخول حذران يعترض العدو طريقها فيحول بينها وبين الوصول فينعكس المراد بها ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف ما يحدث من النعمة بالفرج المسير فيها واكد هذه الحال فى نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا وقد وقع لهم هذا الواقع الذى وقع للمملوك من خوفهم عليها واستبعادهم دخولها فما المملوك وكل من يعرف الامر الا كاهل الصراط رب سلم رب سلم فنسأل الله سبحانه ان لا يكلنا الى انفسنا فنعجز ولا الى الناس فنضيع ومجهود أهل الارض قد انتهى وبقى ما يفعله الله والخير منتظر منه والفرج بالقوت قد سير فى البحر من خمسة عشر يوما والفرج بالنفقة قد سير فى البر من عشرة أيام والله يا مولانا ما تحرز شئ من هذه الامور الا بأن تضرب الوجوه بالشوك وتستحلب الحجارة وينبه النوام وتبح الاصوات من التذكار وتحفى الاقلام من الكتابة ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه والله المستعان فليخلص المولى نيته فى الاستعانة والاعوان قليل

وقد كانوا اذا عدوا قليلا ❋ فقد صاروا أقل من القليل

ومن كتاب آخر (وما تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا وما ارجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر وحاجة المولى من الانفاق الى ما لا يسعه التدبير ويضيق عنه الامكان ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى والضعيف با كثر مما يحتاج اليه وضياع

فرصة واختلاف رأى بين المتشاورين من الجماعة وجود الالسنة بالاراء وبخل الايدى بالمعونة وانفراد المولى بالتعب واشتراك الناس فى الراحة وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذرا فى القعود وكتمه المولى على نفسه ئلا يجلب لاصحابنا ضعف النفوس فهذه الامور وان كانت شدائد وزائدات على العوائد فقد الهم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الاجر ولولم يرالله تعالى ان قوة مولانا اكمل القوى وعروة عزمه اوثق العرى لما أهله لان ينصر ملة لا يعرف الملوك غير الله ينصرها وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها فليس الا التجرد للدعاء والتجلد للقضاء فلا بد من قدر مفعول ودعاء مقبول ومن الامثال المنظومه

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا ✽ يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها وان يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا خير من ان نلقاه والحجة علينا فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم وهذا على دين ما غلب بكثره ولا نصر بثروه انما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنه (واشتدى أزمة تنفرجى) والغمرات تذهب ثم لا تجى والله تعالى يسمع الاذن ما يسر القلب ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب) ومن كتاب آخر (يا مولانا اعلم ان الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه ودل على لطفه بك كما دل على قدرته فانه تعالى خلق الخلق من غير مادّة واقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه فى الملوك كرما ودينا وسهل لك من مصر مالا من غير جهة وجبى منها بلادا بغير جند وسكن فيها رعية بغير ولاة فاشكر الله ولا تحتقر خدمة من يبيع الانفاس والنوم والراحة اجتهادا فيما يريحك ويخفف عنك ثم لا يريد العوض منك انما يريده من الله عنك لان خدمتك طاعة له والوجوه التى وقعت الاشارة اليها خضنا فيها وفى غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا اليه يا مولانا ليس لك فى مصر الا الثغور وما علمت فى هذه السنة الا بقدر عن جبال ما سير اليك من الاساطيل ان الله آخذ بيد الكريم والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب فشتان ما حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها فى سبيل الله وحساب من قال بيده هكذا وهكذا فى سبيل الله) ومن كتاب آخر (وما فى نفس المملوك شائبة الا بقية هذا الضعف الذى بجسم مولانا فانه بقلوبنا ونفديه باسماعنا وابصارنا

بنا معشر الخدام ما بك من أذى ✽ وان اشفقوا مما اقول فبى وحدى

ومن كتاب آخر (انما أتينا من قبل انفسنا ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا ولو اطعناه لما عاقبنا بعدوّنا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه الا به فلا يستخصم أحد الا عمله ولا يلم الا نفسه ولا يرج الا ربه ولا تنتظر العساكر ان تكثر ولا الاموال ان تحضر ولا فلان الذى يعتقد عليه ان يقاتل ولا فلان الذى ينتظر انه يسير فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن ان يكلنا الله اليها والنصر به واللطف منه والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا انها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن فى الطريق عائق خار الله لمولانا فى القضاء السابق واللاحق (وفى كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال (ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم وصورته الجميلة ونفسه الطاهرة ونظرته المطرقه وصفحته الحييه وسكون حركاته الموزونه لخلع عليه فؤاده ووهبه عينه ورقاده ولقد يرد المولى عرصات القيمة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده فى سبيل الله وان ايمانا صبره عن ذلك الولد الكريم لكريم وان ايمانا اسلى عن ذلك الملك العظيم لعظيم) ومن كتاب آخر (وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خورا وانما يشكو منه ضجرا والقوى البشرية لا بد ان يكون لها حد والاقدار الالهيه لها قصد وكل ذى قصد خادم قصدها وواقف عند حدها وانما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله كما يثبت فيه شكر المسارع من ابطاله قال الله تعالى فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر يا مولانا اليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الارض فلم

يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فى اقامة دينه واعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه الا انت هذا وفى الارض من هو للنبوة قرابه ومن له المملكة وراثه ومن له فى المال كثره ومن له فى العدد ثروه فاقعدهم واقامك وكسلهم ونشطك وقبضهم وبسطك وحبب الدنيا اليهم وبغضها اليك وصعبها عليهم وهونها عليك وامسك أيديهم واطلق يدك واغمد سيوفهم وجرد سيفك واشقاهم وانعم عليك وثبطهم وسيرك ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين نعم وأخرى اهم من الاولى انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الارض واطراف الدنيا ومغرب الشمس ومن خرا البحر ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين الى الداعى ساعين فى أثر الساعى وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون كنت يا مولانا كما قيل أبقاك الله

ولست بملك هازم لنظيره ❊ ولكنك الاسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعد الا بدعوة ولا مجاهد معك الا بلسانه ولا خارج معك الا بهم ولا خارج بين يديك الا بالاجرة ولا قانع منك الا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع وذراعا بباع تدعوهم الى الله وكأنما تدعوهم الى نفسك وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم والاراء تختلف بحضرتك والمشورات تتنوع بمجلسك فقائل لم لا نتباعد عن المنزله وآخر لم لا نميل الى المصالحه ومتندم على فائت ما كان فيه حظ ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ومشير بالتخلى عن عكا حتى كأن تركها تعليق المعاملة وما كأنها طليعة الجيش ولا قفل الدار ولا خرزة السلك ان وهت تداعى السلك وأنبت فى بد الملك فالهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذل والتجلد وتحت قدمك الجمر وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر

ولكن مولانا صفحة وجهه ❊ كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكى للهم نصيبه ❊ كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة ان المملوك قد أطال ولكن قد اتسع المجال وما مراده الا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه وحببه اليه فرب ممتحن بنعمه ورب منعم عليه بشقه وكم مغبوط بنعمة هى داؤه ومرحوم من بلوى هى دواؤه ويريد المملوك بهذا ان لا يتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه ولا صدر عن سعة ولا لسان عن حسنه ولا ترى منه ضجره ولا تسمع منه نهره فالشدة تذهب ويبقى ذكرها والازمة تتفرج ويبقى أجرها وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا والمملوك يستحسن بيتى حاتم ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى ❊ وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة ❊ غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

والمملوك يأن يسمع ان مولانا عز نصره على ما يعهده من سعة صدره أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره ويا ليتنى كنت معهم وماذا كانت تصنع الايام إما شيبا من مشاهدة الحروب فقد شبنا والله من سماع الاخبار أو غرما يمكن خلفه من الوفر فقد غرمنا فى بعد مولانا ما لا خلف له من العمر أو مرض جسم نخبره ما كان الطبيب حاضره ولقد مرضنا أشد المرض لفراقه الا أن التجلد ساتره) ومن كتاب آخر (المملوك يوصى المولى بالاسلام والاسلام هو قلب المولى فيروحه ولا يحمله ويشغله بما يثقله ويوصى المولى بقلوب المسلمين وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم انه لا توقية عنده لزواتب الحياة اشتغل قلبه واستطار لبه وضعفت نفسه فحسب المولى من جهاده تفقد جسمه وآلات مطعمه وترويح خطراته فقد بلغ المملوك من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الاثم فيه وانما نتجشم كل مشقة لنسلم منه ونحن فى ضر قد مسنا ولا نرجو لكشفه الا من ابتلى به وفى طوفان فتنه ولا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا ولله قدر لا سلاح لنا فى دفعه الا أن نقول لا حول ولا قوة الا بالله وقد أشرفنا على أهوال قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب وقد جمع العدو لنا وقيل لنا

اخشوه

اخشوه فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل منتجزين بذلك موعودا لانقلاب بنعمة من الله وفضل فانرجو الا ذلك الفضل العظيم وليس لنا الا الاستعانة بالله فادلنا الله فى الشدائد الا على الدعاء له وعلى طروق باب كرمه وعلى التضرع اليه فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ونعوذ بالله من القسوه ومن القنوط من الرحمه ومن اليأس من الفرج فانه لا ييأس منه الا مسلوب الرشد مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة الا بترك الحيلة بل قصد من تمضى اقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى ان علم الله من جند مولانا انهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم فيعذرهم المولى وان علم انهم قد ذخروا قوة وقصروا فى نصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله والملوك يذكر المولى بصبره ورحب صدره وبفضل خلقه وبتقواه لربه وبمداراة مزاجه وبيرالقلوب الاسلامية وبيرجسمه وان كان كبر عليك اعراضهم الآية الى ولوشاء الله لجمعهم على الهدى والمولى أولى بهذا البيت

لابطران تتابعت نعم ❋ وصابر فى البلاء محتسب

قيل للمهلب أيسرك ظفر ليس فيه تعب فقال أكره عادة العجز ولا بدّ أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه لاراد لحكمه فلا يتسخط مولانا بشئ من قدره فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجرى وهو ساخط موزور فيصطلى نارا لشدّة أعاذه الله منها ولا يجد راحة الثواب وفرالله حظه منه من شكا بثه وحزنه الى الله شكا الى مشتكى واستغاث بقادر ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة فلتكن شكوى مولانا الى الله خفية عنا ولا يقطع الظهور التى لا تشتدّ الا به ولا يضيق صدورا لا تنفرج الا منه وماشرد الكرى وأطال على الافكار ليل السرى الا ضائقة القوت بعكا ولم يبق الا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكر فقد علم مولانا بالمباشرة انه لا يدبر الدهر الا رب الدهر ولا ينفذ الامر الا بصاحب الامر وانه لا يقل ّالهم ان كثر الفكر

قد قلت للرجل المقسم أمره ❋ فوض اليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب اليه الا ثغرا يصير نصرانيا بعد ان أسلم أو بلدا يخرس فيه المنبر بعد ان تكلم يامولانا هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون وسهرت فيها والعيون هاجعة وهذه الايام التى ينادى فيها ياخيل الله اركبى وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرؤس وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور وبناتها بل بنارها هى نعمة الله عليك وغراسك فى الجنة ومحملات محضرك يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وهى مجوّزاتك على الصراط وهى مثقلات الميزان وهى درجات الرضوان فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم ان مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ومن ربط جاش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله (لوكان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما ركبت) وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع فى اللحاق بالغبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار مااستعمل الله فى القيام بالحق الا خيار الخلق وقد عرف ماجرى فى سير الاوّلين وفى أنباء النبيين وان الله تعالى حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم ويسلك سبيلهم ويقتدى باولى العزم منهم وماتغلو الجنة بثمن وما ابتلى الله سبحانه من عباده الا من يعلم انه يصبر وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا وكانّ ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الاجر وانما يقظات العين كالحلم وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يضعف به جسمه ويضر مزاجه والامة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته والله يثبت تلك القاعدة القائمة فى نصرة الحق ومما يستحسن من وصايا الفرس ان نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز وان نزل بك ما ليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه وكفى خطبه وماتشاؤون الا أن يشاء الله هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بايمانه واذا نظر الله الى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلا على قوة الا على قوته فهنالك الفرج ميعاده واللطف ميقاته فلا يقنط من روح الله ولا يقل متى نصر الله وليصبر فانما خلق للصبر بل ليشكر فالشكر فى موضع الصبر أعلى درجات الشكر وليقل لمن ابتلى أنت المعافى وليرض عن الله سبحانه فان الراضى عن الله هو المسلم الراضى فأما اخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بالسنتهم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وكتب السلطان الى القاضى الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ويقول ما أخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها فكتب اليه الفاضل (فأما قول المولى اننا

نخاف أن تؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت فيكفي مستغفرا لسان السيف الاحمر في الجهاد ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الاضداد ولعين الله موقفك وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك وطوبى لقدم سعت في مناهجك وطوبى لوجه تم بغبار عجاجك وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت وان الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت)

﴿فصل﴾ كان بلغني ان السلطان رحمه الله لما اشتد امر الفرنج على عكا أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فان العماد والقاضي لم يتعرضا له في كتبهما غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان ارسل لاجله وسيأتي وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها ثم اراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ما كنت أرومه فنقلته على وجهه قال نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بامر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حضر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين وفتح بيت المقدس والكتاب الذى سير الى المغرب والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك ان شاء الله

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الامير الاجل الاسفهسلار الاصيل العالم المحترم شمس الدين عدة الاسلام جمال الانام تاج الدوله امين الملة صفوة الملوك والسلاطين شرف الامراء مقدم الخواص ادام الله توفيقه ويسر طريقه وانجح مقصده واعذب مورده وحرس مغيبه ومشهده واسعد يومه وغده يستخير الله سبحانه ويتوجه كيفما يسر الله الى الجهة الاسلامية المغربية حرس الله جانبها ونصر كتائبها ومراكبها ويستقرى في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في احوالهم وآدابهم واشغالهم وافعالهم وما يحبونه من القول نزره اوجه ومن اللقاء منبسطه او منقبضه ومن القعود بمجالسهم مخففة او مطولة ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه وهل هي السنن الدينيه او العوائد الملوكيه ولا يلقه الا بما يحبه ولا يخاطبه الا بما يسره والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به والمقصود ان تقص القصص عليه من أول وصولنا الى مصر وما أزلنا من البدع بها وعطلنا من الالحاد فيها ووضعنا من المظالم عنها واقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها وغزواتنا التي تواصلت الى بلاد الكفار من مصر فكانت مقدمة ملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ومقدمة ملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا وتفصيل ما جرى للنامع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم وما اعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس وتلك على الاسلام منة الله العظمى الى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والاسر لهم واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتها وانه لا يمضي يوم الا عن قوة تتجدد وميرة تصل وأموال واسعة تخرج ومعونات كثيرة تحمل وان ثغرنا حصره العدو وحصرنا نحن العدو فما تمكن من قتال الثغر ولا تمكن من قتالنا وخندق على نفسه عدة خنادق فما تمكنا من قتاله وقدم الى الثغر أبرجة احرقها أهله وخرج مرتين الى عسكرنا فكسر العدو أقله فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعه وارتاد ساعات لم تكن الاهب فيها مؤخوذه وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم فقتل الله العدو القتل الذريع وأوقع به الفتك الشنيع وانجلت احدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها الى مصارعها وهمدت أجسامها في مضاجعها والعدو وان حصر الثغر فانه محصور ولو أبرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور المكسور وتذكر ما دخل الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات واحراقها لمراكبهم وهي الاكثر ودخولها بالميرة بحكم السيف الاظهر وان أمر العدو مع ذلك قد تطاول وخطبه قد تمادى ونجدته تتواصل ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجهره وأموال قناطيرها مقنطره وان عساكرنا لو أدركته لما استدرك ولولا سبقه لها بالدخول الى انطاكية لتلف وهلك وتذكر ان الله قصم طاغية

الالمان وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق فى نهر الدنيا الذى هو طريقه الى الاحراق فى نار الآخره وان هذا العدوّ لو أرسل الله عليه اسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه لاخذنا العدوّ اما بالجوع والحصر أو برزنا فأخذناه بيد الله تعالى التى بها النصر فان كانت الاساطيل بالجانب المغربى ميسره والعدة منها متوفره والرجال فى اللقاء فارهه وللمسير غير كارهه فالبدار البدار وأنت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار وان كانت دون الاسطول موانع امامن قلة عده أومن شغل هنالك بهمة أو بمباشرة عدوّ ما تحصن منه العوره أو قد لاحت منه الفرصه فالمعونة ما طريقها واحده ولا سبيلها مسدوده ولا أنواعها محصوره تكون تارة بالرجال وتارة بالمال ومارأينا أهلا لخطابنا ولا كفؤا لانجادنا ولا محقوقا بدعوتنا ولا مليا بنصرتنا الا ذلك الجناب فلم ندعه الا لواجب عليه والى ماهو مستقل به ومطيق له فقد كانت تتوقع منه همة تقد فى الغرب نارها ويستطير فى الشرق سناها وتغرس فى العدوة القصوى شجرتها فينال من فى العدوة الدنيا جناها فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ولا يعين الاسلام الاسلام وما اختص بالاستعانة الا لأن العدوّ جاره والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ولانه بحر والنجدة بحريه ولا غرو ان يجيش البحار البحار وان سئل عن المملوكين بوزبا وقراقوش وذكر ما فعلا فى أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال فيعلم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والامراء ولا من المعدودين فى الطواشية والاولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما القافى أمثالهما والعادة جارية ان العساكر اذا طالت ذيولها وكثرت جموعها خرج منها وانضاف اليها فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ولا كان هذان المملوكان ممن اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد افتقد ولا يقدر فى مثلهما انه ممن يستطيع نكايه ولا ياتى بما يوجب شكوى من جنايه ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد فى الارض ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وان سئل عن النوبة المصريه وما فعل بجندها فيعلم الامير ان القوم راسلوا الكفار واطمعوهم فى تسليم الديار فاشفى الاسلام على أمر شديد وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقوبلوا بما يجب وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين لله بما سعوا فى الارض من فساد فأما بقية الجيش وان كان منهم من هو تبع للمذكورين فى الرضا فانهم اقتصر بهم على أن لا يكونوا جندا ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنه وأما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد فى كتاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدوله أدام الله علوه مقرونا بالهدية المذكوره ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الاشتيه والله سبحانه يوفق الامير ويسهل سبيله ويهدى دليله ويكلأ بعينه ويمده بعونه ويحمل رحله ويبلغه أهله ويشرح له صدره وييسر له أمره ان شاء الله تعالى وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائه)

﴿فصل﴾ فى نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهديه العنوان (بلاغ الى محل التقوى الطاهر ومستقر حزب الله الظاهر من المغرب اعلى الله به كلمة الايمان ورفع به منار البر والاحسان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)(من الفقير الى رحمة ربه يوسف بن أيوب(أما بعد)فالحمد لله الماضى المشيه الممضى القضيه البر بالبريه الحفى بالحنفيه الذى استعمل عليها من استعمر به الارض واغنى من أهلها من سأله القرض وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض وزان سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض وصلى الله على سيدنا محمد الذى أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان وبنى الاسلام بأمته التى شبهها صاحبها بالبنيان وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم وان الله بهم لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وهذه التحية الطيبه الكريمة الصيبه الواجبة الرد الموجبة للقصد العذبة الورد المتنفسة عن العنبر والورد وفادة على دار الملك ومدار النسك وجل الجلاله واصل الاصاله ورأس الرياسه ونفس النفاسه وحكم الحكم وعلم العلم وقائم الدين وقيمه ومقدم الاسلام ومقدمه ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على اليقين ومعلى الموحدين على الملحدين أدام الله له النصره وجهز به تيسير العسره وردّ له الكره

ويسطله باع القدره وأوثق به حبل الالفه ومهد له درجات الغرفه وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ويسر عليه في سبيله كل ما هو أشدّ وطأ وأقوم قيلا تحية استنير منها الكتاب واستنيب عنها الجواب وقد حفزها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا الى ان تيسر الاسباب والآخر امر عظيم ما كره اذا استفتحت به الابواب وكان وقت المواصله وموسم المكاتبه هذا بفتح البيت المقدس وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس وما فتح الله للاسلام من الثغور وما شرح لاهله من الصدور وما أنزله عليهم من النور ولم يخل المسلمون فيه من دعوات اسرار ذلك الصدر وملاحظات أنوار ذلك البدر ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فان الغرب مستودع الانوار وكنز دينار الشمس ومصب أنهار النهار ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الاسرار وعنه يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ولم تتأخر المكاتبة الاليتم الله ما بدأ من فضله وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله والمفتتح بيد الله من الشام مدن وامصار وبلاد كبار وصغار وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر ولبني الكفر مصانع ولبني الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر اطرابلس وصور ومدينة انطاكية يسر الله أمرها وفك من يد الكفر أسرها واذا امن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها وما يتأخر من الله سبحانه جوابها فالدعاء أحد السلاحين ومع النية يطير الى وكره من السماء بجناحين بعد ان كسر العدوّ الكسرة التي لم يجبر بعدها والجئ الى حصونه التي للحصر أعدها وكان يومها كريما ولطف الله فيها عظيما قضت كل حاجة في النفس واغنت المسلمين فأما العدوّ بعد يومها فكأن لم يغن بالامس وكانت على أثر غزوات قبلها فالظن بالجهزة بعد النكس ولم يؤخر فتح البلاد بعدها الا ان فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا وركبوا اليهم سهلا ووعرا وبذلوا ماعونا وذخرا وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا ارسانا تقتادهم بل خرج كل يلبي دعوة بطركه ولا يحتاج الى عزمة مالكه وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها وأتت العزيمة بحمد الله على أشخاصها عند لقائها ومنهم ملك الالمان خرج في جموع بريه من الله تعالى بريه ملأت الفجاج وازدحمت فانفذها العجاج ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج وامتطى من البحر مشبه الرجاج لينصر دينا مشبه الزجاج يقبل الكسر ولا يسرع اليه الجبر وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ما بين أقوات وأطعمه وآلات وأسلحة وشلة وجنه وحديد مضروب وزبره ونقدي ذهب وفضه الى ان شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجله لا تشرق شارقة الا طلعت على العدوّ من البحر طالعه تعوّض من الرجال من قتل وتخلف من الزاد ما أكل فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة وقدهان عليهم موقع الحصر وأعطاهم البحر ما منعهم البر وبطروا لما كثروا ونظروا فانهم لا يستطيعون أن يلقوا ويحصروا ويستطيعون أن يحصروا على أن يحصروا ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ويصل الى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وازواده ويتكثر به من مقاتلته واجناده فانقطعت مادّة عكا من البحر وحصرنا منازلهم من العدوّ من جهة جانب البر فخدقوا على نفوسهم وحثوا التراب على رؤسهم وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة فكأنهم قبل الممات يعودون فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها فنفذت عمارتنا الى الثغر وأوصلت اليه الاقوات التي حل منها البحر ما لا يحمله الظهر والاسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر وما لقينا عمارة العدوّ بأوفر منها عدة فعددهم اكبر كبير ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه والقليل مع العزم الصادق كثير واستمر مقام العدوّ محاصر الثغر محصورا منا أشدّ الحصر لا يستطيع قتال الثغر لانا من خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ولا نستطيع نحن الدخول اليه لانه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ولما خرج ملك الالمان بحشده وجمعه التي هي منه أحشد وعاد جيشه اللعون على رسم قديم الى الشام فكان العود لامة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد قويت به نفوسهم وجمحت به رؤسهم وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ويخرجنا من خيمنا فبعثنا اليه من يلقاه بعساكر الشمال اليه فسلك ذات الشمال متوعرا فيها محتجزا

عن لقائها مظهرا انه صريع داء ومابه غير دائها وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعين اللعين قائد جيشه الى سجين سجين قد هلك فى طريقه غرقا وخاض الماء فخاضه الماء شرقا وبقى له ولده هو الآن المقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر وربما وصل بهم الى عكا فى البحر تهيبا أن يسلك البر ولو سبق أصحابنا الى عساكر الالمان قبل دخولها الى انطاكية لاخذوه أخذا سريعا وسبق بحر سيوفهم الى أن يكون الطاغية فيه لا فى النهر صريعا ولكن لله المشيئة فى البريه والطاغية انما يمشى الى البليه فانه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شان وكان ليومنا فى النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان ولما كانت حضرة سلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه ومساعى سلفه فى الجهاد الغر المحجله المؤمرة الكاشفة لكل معضله الكاسفة لكل مشكله والاخبار بذلك سائره والآثار ظاهره والصحف عنه باسمه والسير به معلمة وعالمه وكل بجهاده قد سكن الا السيوف فى اغمادها وقد أمن الا كلمة الكفر فى بلادها لا يزال فى سبيل الله غاديا ورائحا ومواجها ومكافحا ومماسيا ومصابحا يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الاسره وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يجهد نور الاسره يذود الفرق الكافرة ولو ترك سبيلها لملأ أقراره كل واد وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ولولاه لا خمد شراره كل زناد كان المتوقع من تلك الدولة العاليه والعزمة الغاديه مع القدرة الوافيه والهمة المهدية الهاديه أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين فيملأ ها عليهم جوارى كالاعلام ومدنا فى اللجج سوائر كأنها الليالى مقلعة بالايام تطلع علينا معشر الاسلام آمالا وتطلع على الكفار آجالا وتردنا اماجلة واماارسالا مسوّمة تمدها ملائكة مسوّمة ومعلمه تقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه وانما هى منه عزمه كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمه وكلمة كانت تنفخ الروح فى الكلمه ولما استبطئت ظن انها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به فى هذه التحيه فقد تحفل السحاب ولا تمطر الى أن تحركها ايدى الرياح وقد تترك النصرة فلا تظهر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح وسير لحصن مجلسه الاطهر ومحله الانور الامير الاجل المجاهد الامين الاصيل شمس الدين نفير الاسلام والمسلمين سفير الملوك والسلاطين أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ كتب الله سلامته وأحسن صحابته وما اختير للوفادة الا من هو أهلها ولا حمل الوديعة الا من هو محلها ولا بعث لنهج الصلة الا من هو مفتاحها ولا داء الامانة الا من هو قفلها ومهما استوضح منه وسئل عنه فانه على نفسه بصيره ومن البيان ذو ذخيره وفى العربية ذو بيت وعشيره والمشاهدة له أوصف على ان تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف وما اجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ونظرا يأذن له فى القول على اختصاره وتوسطه وافراطه فكل هو به واف وكل هو للفهم الكريم كاف والله تعالى يجعل هذه العزمة منا فى استنهاض العزمة منه بالغة مبلغا يسر أهل دينه ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا الها من دونه والسلام الصادر عن القلب السليم والودّ الصميم والعهد الكريم على حضرة الكرم العليه وسدّة السيادة الجليه سلام مودّة ما وفد الغرب قبلها مثلها ورسالة ماخطرت الى ان انفذت وراعها المحبة رسلها وليصل السلام ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ان شاء الله تعالى وكتب فى شعبان سنة ست وثمان وخمسمائه والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه) الهدية ختمة كريمة فى ربعة مخيشة بمسك ثلثمائة مثقال عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبه عود فى سفط عشرة أمنا دهان بلسان مائة درهم وواحد قسى بأوتارها مائة وقوسان سروج عشرون نصول سيوف هنديه عشرون نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلده سبعمائة سهم

وكان اقلاعه من الاسكندرية فى شينى عمارته مائة وعشرون فى ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائه ووصل الى اطرابلس أوّل البلاد فى الخامس والعشرين من شوّال وأقام بها الى ثامن ذى القعدة وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبى يحيى بن أبى بكر بن محمد بن الشيخ أبى حفص ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذى الحجة وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه فى العشرين من ذى الحجة وفى هذا النهار حملت هدية السلطان الى خزانته

وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرّم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ووصل الى الاسكندرية فى الشامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين

﴿فصل﴾ لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة وبلغنى انه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جارى عادتهم وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفى فى سنة خمس وتسعين وفيه يقول شاعره

أهل لان يسعى اليه ويرتجى * ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا * وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه * وراءه فى الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها

هبت بنصركم الرياح الاربع * وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها * فاليك يا يعقوب تومى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما * أنت المقدم والخلائف تبع

وقد مدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لنعماه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الهدى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المسلمين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا * بأنى بذاك القطع بالنجح كافل
فاراعنى من وجبة البر رائع * ولا هالنى من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالى طلابه * يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتها * وادناعطا يالك العلى والفضائل
فلا زلت للعلياء والجود ثانيا * تبلغك الايام ما انت آمل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر وله على ما وجدت بخط بعض الثقاه

تصرّم عمرى فى التغرّب والنوى * وافنى ارتحالى طارفى وتلادى
وأخلقت الايام بردشبيبتى * وأصلد من وقع الخطوب زنادى
وأشغلنى الحرص الموكل فى الورى * عن العمل المنجى ليوم معادى
فلا راحة الاخرى تيقنت نيلها * ولا أنا فى الدنيا بلغت مرادى

وله على لسان بعض غلمانه

ورب قيص دعانى الى احتمال الرثاثة منه العدم
أقطب وجهى له كلما * تهلل لى ضاحكا وابتسم

ومن كتاب فاضلى الى بعض اخوانه (وأما الاخبار المغربية واختلال جانبها وضعف مطلوبها وطالبها فاذا نجزت الظلماء الى الغرب فيحق كان الانوار الناصرية قد تناصرت فى الشرق فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط فى سلك ملكه ويمكن من مؤمنها حكم عدله ومن كافرها سيف فتكه . والله يجزيها الخير عن نيتها فى الخير ويكتب سلامة عزمها فى طرق النفع أينما يممت السير) ثم انى وقفت على كتاب فاضلى للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختار لها صورته (المملوك يقبل الارض بالمقام العالى المولوى الملكى الناصرى جعل له الله فى الدنيا والآخرة المقام العالى وأبقى دولته التى هى الايام بالحقيقة والايام قبلها هى الليالى وينهى ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام وان له ولله الحمد آثارا فى دولته تشهد بها الايام وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الاقلام والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها ولا كارها السفر رسولها ولا مستبعدا

مصلحة قريبة الامر منها الكن على وجهها وقد تجزت الهدية المغربية على ما أمر به وكتب الكتاب على ما مثل ونفم الخطاب والوصف فوق العادة وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك فى انه لا يمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له انه لا تنجح الحاجة الا به من لفظة أمير المؤمنين وان الذين أفاضوا فى هذا الحديث وأشاروا به ماقالوه نقلا ولا أحاطوا به قياسا ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما وآخر ما كتب فى أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولى عهده بالامير الاصيل النجار الجسيم الفخار وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذى اتباع مولانا اليوم مائة مثله مترجمة بمعظم أمره وملتزم شكره هذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه وما هو الا أن يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان فى ستة أشهر فيلقاهم فيكسر مرة ويتماسك أخرى واعلم الامير نجم الدين بذلك فامسك مقدار عشرة أيام ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لا يستصحبها وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه وان الكتاب لا يأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين وان السلطان عز نصره رسم له ذلك والملك العادل دامت قدرته بأن لا يشير الا به وانه اذا لقى القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان أبقاه الله من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفى وطريق جحدناله ممكن والكتابة حجة تقييد اللسان عن الانكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين فى مكان الاجماع مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه مرخصين الغالى مخطين عن العالى شاقين عصا المسلمين مفرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته متقلدين لمن لا تصح ولايته فيفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار بل تمضى وتستشف الامور وتكشف الاحوال فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده فعدهم بهذه المخاطبه واجعل كل ما نأخذه ثمنا للوعد بها خاصه فامتنع وقال أنا أقضى اشغالى وأتوجه الى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره وما يفوت وقت والى ان أنجز أمر المركب وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ما كتبه ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر الا بالمكاتبة بها فأما الذى يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذى يدعى به على المنبر لمولانا وهو الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه واذا كتب الصالح بن رزيك اليهم من السيد الاجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله الخادم وهذا مبلغ رأى المملوك والمؤمن لا يذل نفسه وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده وان كان مولانا أعز الله نصره يقول أنت غافل وغائب وما تعرف ما الاسلام فيه فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث فجواب ما تكتب بعد سنتين فما يخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله واذا كانت لنا ان شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته واذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها والاحوال المملوك غائب عنها فالمفهوم من الامر للمملوك ان يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد وتحرير الالفاظ وتنضيد الخبر عما أجراه الله تعالى على يد مولانا عز نصره والثانى المطلوب فقد فعل هذا كله فى النسخة وبقيت اللفظة التى ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عز نصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة ويكفى ان المولى انعم بخطه فى كتابه الى المملوك وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهانى حرسه الله الموصى بأن لا يناظر فى الخطاب ما صرح باللفظة فهى اما تقية فالمملوك أولى بها واما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك فان كان ولا بد فالنسخة بين يديه والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون وقد تاب المملوك عنهم والكتاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون فينوبون عن المملوك فى التبييض والا فكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان وبغير حضرته كتب ولا بهديه سار ويحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون ان الكتاب كتب بمصر ويشهدون بما لم يروه وما لم يقرؤوه من الخطاب ولو وصل من المولى أدام الله أيامه كتاب مختوم وسير ولم نعلم ما فيه لانقطع فضول كثير وخمدت أراجيف شنيعة ولا يعتقد المولى ان المملوك يعظم القصص

فما للألسنة والاعين شغل الا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ولا للخلق خوض الا فى أوامرهم وأحوالهم ولو علم المملوك ان هذا الذى استعفى منه يضرّه بحيث ينفع المولى أبقاه الله لهان عليه ولكنه مضرّة بغير منفعة وتعرّض لما تذم عاقبته أو يبقى على الخوف منه وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته فقصود المولى أبقاه الله تحصيل تبييضها بين يديه وربما حصل استتاره وأمنت المكاره فيه وغمضت العيون عنه وشحت الايام عليه طالع المملوك بذلك)

﴿فصل﴾ وللقاضى الفاضل رحمه الله من كتب اخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله (كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد مافيه مقصود لقاصد ولا صلة ولا عائد ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب فى حديد بارد) ومنها فيما خرب من البلاد الفرنجية المغنومة (خراب البلاد فى هذا الوقت الضيق لا شبهة فى تقويته لنفس العدوّ واضعافه لانفس المسلمين وكل من يسمعه بفجأه من يدهه اليأس مايقع وجاه المولى يعلم ان العدوّ أخذها من المصريين فى تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة أخرى وبالقتال مرات و بولاة سوء لو كان فيهم خير لما عجزوا عنها ونحن قد حملنا عن العدوّ المؤنة بتخريب البلاد التى كان العدوّ يريد ان يحاصرها وينازلها وينصب المنجنيق والبرج عليها ونخاف النجدة ان تصلها وقوّة الاسلام ان يثوب اليها ويتوقع ان يبدهه المصاف قبل النزول عليها فعرّفناه انه قادم على من لا سلاح له الا أن يأتى السلاح ولا حفظ للبلاد الا أن يخربها فقد نكلنا عن اللقاء وفررنا قبل المواجهة وزدنا زيادة عجيبة وهوان المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد) ثم قال وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها وأهون الاعداء ملك الالمان لا يشك مولانا ان جمعه لا يفى بعشر قراقر من سستين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس فى السنة الماضية وانما الزائد سمعه ملك وقد هلك ورأس قد قطع وقائد جيش وقد كبا الحمار) ومنها عند ورود كتاب السلطان اليه يبشر بعافيته من مرض عرض له فى شهر رمضان (أسفرت بشارته عن ان المولى أتاه الفرج وغذاؤه الفروج واستقل بحمد الله وصح وقالت العافيه للمرض قبح وكان مافى كتابيه الاوّلين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر ضعف ينتقده صيارفة الخطوط فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطرى الذى يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال

ولاح هلال مثل نون أجادها ❊ بذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذى ما أوجبه المملوك الا مسرته بعافية المولى أدامها الله وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها المملوك الا بنور الشمس الذى له فى كل مكان أثر ولكل عين به نظر فلا أخلى الله الدنيا من آثاره والعيون من أنواره وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذى هو العدوّ فجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ويستخدم شكرهم للنعمتين فقد حلى الله بهذا المرض سيف الله الذى هو المولى وما صقله الا لتصدأ به قلوب أعدائه ومن فوائد هذا المرض ان المولى يستأنف العمر جديدا والعزم حديدا ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر) ومنها (وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها وهنيئا له ان الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه والنبى صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة فى أمته والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة مالو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى وأهل الحرب يطالبونه بازاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد وبقية الامة تطالبه بالامن فى سربهم والاستقامة فى كسبهم والخفارة فى سبلهم ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله اليها ولمعالى الامور أعانه الله عليها واذا عدّد مايراد منه فلا بدّ أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره وهل استمرّت به قط عسره وهل تمت لعدوّ قط عليه كره وهل بات قط الا راجيا وهل أصبح الا راضيا ألا يعلم ان الله تعالى ذخر له من الصالحات مالم يركفؤ له غيره ألا يحصى من سبقه من الملوك الى الدنيا فعجزوا عما سبق اليه المولى من الآخره وهل تعرف راية قاتل تحتها فى سبيل الله الا رايته وهل يعرف مال ينفق فى سبيل الله الا ماله وهل يسمع فى مجلسه الا كتاب الله يتلى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ أو يرى به الا الخيل تعرض والسلاح يقلب لا اقداح الشاربين ولا أصوات المغنين

المغنيين ولا وقائع الكذابين ولا سعايات النمامين ويحق اذا توفر حظ مولانا أبقاه الله على تشبيه المملوك فاذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فان مجلسه أولى بأن يكون مسجدا من كل مجلس ولا غرو ان تعترف المدائح كما تعترف الضوال وان تتبع كما تتبع الطرائد ولينصرن الله من ينصره ولعل المولى عز نصره قد نفذ الى جانب الشمال جماعة فان صاحب انطاكية خذله الله عاث وشعث وخلا الخيمان بأرض فطلب الطعن وحده ولو قرن أهل عكا وكذلك يفعلون بمشيئة الله ولو كان ماهم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم الى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم ومالكا قام برعاياهم فاقعد ما يروعهم وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وباخوته ويتقدم الى الاهوال أمام ماليكه وأمرائه وعسكره وجملته فكأنه منهم مكان بسم الله من الكتاب ومكان الامام من المحراب ومكان النواصي من وجوه الصواهل ومكان الاسنة من وجوه الذوابل وخير ما كان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا وأغير ما كان على محارم الله اذا كانت أنفس الملوك غير غيرى وقد اطمأنت القلوب الى ان الله سبحانه قد كشف الغمة وفرجها وأطفأ نار الحرب التى كان العدو أججها فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله الا ان الاسلام قد رضى بما يسخط الكفر ولا يسمع من قصصه الذى هو أحسن القصص الآن يقول ماقاله سميه على نبينا وعليه السلام قضى الامر فأما ملك الالمان فقد سلبه الله ما أضيف اليه كما كان المملوك رأى فى منامه على كوكب واعلم به مولانا فى ضمن رسالة فقال أبقاه الله قد قبلت البشرى وصورة الرؤيا ان رسولا جاء من السلطان عز نصره الى المملوك فقال اكتب كتابا ببشارة ملك الالمان فقلت حتى أفكر فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الالمان ما أضيف اليه والمشهور ان ملك الالمان خرج فى مائتى ألف وانه الآن فى دون خمسة آلاف) ومنها (ورد كتاب من المهدية الى الاسكندرية ثانى رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية وذكر من فيه أخبارا وقد طولع بها ولما تكررت علمت صحتها وهو ان عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة وقد افتتحت عدة حصون كافرة وان يوزباشو هد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره الى بلاد الاندلس موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر وان أهل صقلية من المسلمين الى الآن فى حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال فى اعمالها وان عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذر وخيفة نصر الله كلمة التوحيد وأهلك كل جبار عنيد وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها فباعت بها وتزودت منها وانها قاصدة الشام خيب الله قصدها) ومنها (وقد سيرا لحمل الآن من المجلس العزيزى بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد فى الخدمة ولما عرف المملوك انهم لا يطرقون المعنى الذى يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على ان يقتصد فى الانفاق ويقدر الاخراج للعلم ان هذا الحجر قد رمينا بعدمه وسمع بخبر المولى فانهزم فرارا من سطوة كرمه والبلاد ليست الآن كعهدها فى انقطاع أسفارها ووقوف معايشها وكساد اسواقها وانكسار تجارها ولولم تكن الدراهم سلعة لا تخرج من مصر كما يخرج الدينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار وان تصريف الدراهم بعد ان يصير مستخرجا بذهب شغل شاغل واستخراج بان غير الاول وعسى الله ان يأتى بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا وللكفر خذلانا وأسرا بعا وجيزا ومولانا خلد الله ملكه من وراء ضرورة لا تخفى عن المملوك والمماليك من وراء ضرورة لا تخفى عن المولى وصدر المولى بحمد الله واسع وفرج الله منه قريب وهذه الضائقة لما يريده الله تعالى من حسن موقع الفرج بعدها فقد أنفق المولى مال مصر فى فتح الشام وانفق مال الشام فى فتح الجزيره وأنفق مال الجميع فى فتح الساحل وينفق ان شاء الله تعالى مال القسطنطينية فى فتح رومية والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم الى أن يسلموها اليه فشكره الله على ما أخرجه فى سبيل الله منها وعقبهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها فلا يكن فى صدر المولى حرج ولا فى خلقه فان الله سبحانه لا يضيق رزقا على يده الكريمه لاسيما وقد أجرى عليها أرزاق خلقه) ومنها (ينهى المملوك وصول رسول ملك الروم بما فى صحبته من هدية وبما على لسانه من رسالة وبما على يده من كتاب وحضر بين يدى الملك العادل وجرى من المفاوضة ماز بدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفرنج الى الموافقة على حرب السلطان واطلاق طريقهم وامتنع وسد الدربندات وحفظ عليهم الطرق

ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم وجعل عذره للمتمس موافقته ان البلاد فى هذه السنة غالية السعر والمصلحة تقتضى ان لا تكون الحركة الا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخرى) ثم قال (وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده مدافع عن نفسه ان تم له الدفع ادعى انه بسببنا وان لم يتم ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا وقد جعل ما أورده من ان يقال ان البطاركة فى قامة من قبله وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ويدفع به عن نفسه لا سيما اقامة الخطبة الاسلامية ونقله المنبر ونسخته فى الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية أرغم الله بها أنفه وعجل بسيفها حتفه ومولانا أبقاه الله يتثبت فى الاجوبة ولا يجيب الى ما على الاسلام فيه غضاضة ولا الى ما للكفر فيه قوة (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ومن كتاب آخر (وصل الى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكلتيرة ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قد كتب السلطان أعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيرة والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق موانى قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ولا شبهة أن مولانا يتقبل من المذكور ويقوى نفسه على هذه المباينة فان فى تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة وقطع الميرة عن الشام وامتناع الجانب كثير من جوانب البحر وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقا وما سمى العتيق الا لانه صار لمولانا عتيقا ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى انا نجده على قبرس فانا انما وعدناه بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا و والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر أن يكون عدوا وكذلك صاحب الغرب (والله يعصمك من الناس) وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذى ندب لاجله الرسول ما لم يذكره فى الكتاب وهى المعونة على الجهاد وعرف استدعاء المساعدة على تكريت ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيت فى يد من هو الآن بها كانت فى يد المولى أبقاه الله تعالى ومهما خرجت عنه خرجت عنا وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لا سيما وهى طريق الى غيرها وقد فتح الله للمولى بلادا هى مع سعتها ضيقة عن ربوبتها فالمولى أولاد كثر الله منهم ما منهم الا من هو متطلع الى طرف وله أهل ما منهم الا من هو متطلع الى مملكة وأمراء ما منهم الا من هو متوقع زيادة ومماليك ما منهم الا من يريد أن يوفى الحق عليه فى الخدمة ومن سيرة المولى لهذا الامر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه وما يليق أن يسير الا من يريهم ما يعجزون عنه ويكون عنوانا لما لعلهم فى شك منه من قوة المولى على ما يريد وامساكه مع القدرة ويرى المملوك ان مطلبهم نقد ومطلبنا منهم وعد وان كان ولا بد من تسيير فلا يسير الا من يقضى الشغل ويستزيد الجعل وما تضمنه الكتاب البغدادى من عزم الخليفة على الحج فى هذه السنة المملوك يستبعده بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله وآخرهم حج الرشيد رحمه الله ويستقر به بالاضافة الى خلقه وان سار صلح أن يهتم بما أشار اليه ابن الشهرزورى ولا شك انه قد أنسى الرسالة التى توجه فيها فانا بعثناه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا) وكتب الفاضل الى السلطان (ينهى المملوك انه عرف تسحب رجل وصبى من القصر الغربى وان المؤيد يعنى ابن السلطان وكان ينوب عن أخيه العزيز بمصر أحضر نائبه الطواشى بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر ان هربهما صحيح وان أحدهما وهو الصبى من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا أطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربى وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة والآخر كان معتقلا فى الايوان فحدثت له خنازير فى حلقه وأشفى على الهلاك فأمر الطواشى بنقله الى القصر الغربى من الايوان وفك حديده وحمل ليتداوى فى أوائل سنة ثلاث وثمانين واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقى فى القصر الغربى الى أن علم انه تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربى فذكر استاذين كان الطواشى أقامهما ورضى أمانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربى قد خرب ودثر وأكثرت التسليقات عليه ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من فى القصر من النساء وانهم كانا أنهيا مرة بعد أخرى ان المكان غير حريز والاعتقال فيه غير وثيق قال وجمعت أصحاب الارباع وجيرة القصر ورجوت بترك الشناعة الظفر بهما والبحث واقع عنهما) وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر (انتهى الينا بالديار المصريه وبالحضرة العليه ان جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر

من القول غير المعروف وانشئوا من العصبيه ما أطاعوا فيه القوى الغضبيه وأحيوا بهما ما أماته الله من أهل حمية الجاهليه والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا (واعتصموا بحبل الله جميعا) ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحنا ويشحنها وقد نهى الله عن المجادلة لاهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق الا أن يقال أحسنها وما علمنا ان فى ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد ولا هداية تعتقد بدراية تعقد ونار عداوة توقد وقلما أثمرت المشاجرة الاخلافا فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الالسنة الخائضه وعقل الاعنة الراكضه فان أقنع بلطفه المرضى والا كانت همته الرائضه ومن عاد بعد الزجر أبعد عن مستقره وأزعج وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الادب وليعلم العبد انه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب)

(فصل) فى ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء قال العماد وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس والكندهرى وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وانجادها وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا وأشغلوا القوم بنيران النصال وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هنالك وباتوا والايزاك ترميهم وتشويهم وتصميهم وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا وميسرته الى البحر زحفا وعنده فى يمين قلبه أولاده الافضل والظاهر وأخوه العادل فى أوّل الميمنة ويليه حسام الدين بن لاجين ثم صارم الدين قايماز النجمى ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقى فهؤلاء عظماء دولته وكبراء مملكته ومعهم أمراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان فى الميمنة أيضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النورى وعلى ميسرته صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وتقى الدين وابن المشطوب سيف الدين وخشترين والامراء الهكارية والحميديه والزرزارية والمهرانيه وأمراء القبائل من الاكراد ورجال الحلقة الخاصة واقفون فى القلب وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف وفى مرج عكا عين غزيرة الماء يجرى منها نهر كبير الى البحر فسار الفرنج ذلك اليوم شرقى النهر حتى وصلوا الى رأس الماء وشاهدوا مواقف الهائجين الى الهيجاء فانحرفوا الى غربى النهر ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا فانهض السلطان اليهم الجاليشيه وانتظر من الله فى كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم وأثخنوا فيهم بالتوت رضا وبالدبابيس قضا وبالنصال قرضا وبالاسنة وخزا ووحضا وقضوا فيهم من حق الجهاد سنة وفرضا وكان المراد أن يحموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا فما راموا أمكانهم وأصبحوا يوم الاربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالاسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم وأرادوا ايباسطونهم والسلطان يمد الرماة بالرماه والكماة بالكماه وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم وأحس العدوّ بالضعف وانه متورط فى الحتف فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى الاندفاع وساروا عائدين على هيئة الاجتماع والنهر عن يمينهم والبحر عن يسارهم وقد أيقنوا ان صح منهم الثبات بانكسارهم وأصحابنا حواليهم ومن ورائهم يغرقونهم فى دمائهم ويشاولونهم ويقاولونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم وهم يتحركون فى سكون ويتظاهرون فى كون ويتذوّبون فى جمود ويتلهبون فى خمود وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى امرهم ولا يصح لدينا كسرهم ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق وأبلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاء حسنا وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا وبذل اياز الطويل هذا اليوم جهده وفل فى فل جهدهم حدّه وكذلك سيف الدين يازكوج عام فى بحرهم وقام بأمرهم وأصبحوا يوم الخميس الى نار الوطيس ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ونقص منهم خلق وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام فرحين بذل الكفر وعز الاسلام وعرف الفرنج مشاق خزيهم واخفاق سعيهم فاحترزوا من الهلكه وما عادوا الى مثل هذه الحركه قال القاضى وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يطير عليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون فى وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد فى ذلك اليوم اصلا وعلم العدوّ مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهى تسحب بالبغال وهم يدنون من العلم وهو عال جدّا كالمنارة خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق وقد ألجمهم العطش من شدّة الحر وأخذ منهم التعب وأثختهم الجراح وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة فى ذلك اليوم فانهم أذاقوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فانه قام فى ذلك اليوم أعظم مقام يحكى عن الاوائل وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعدّدة وهو من فرسان الاسلام وشجعانه وله مقامات متعدّدة وجرح خلق كثير فى ذلك اليوم وعزم السلطان فى تلك الليلة على كبس بقيتهم فى الخيم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوا اهم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية أن يغتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الاطلاب فى الجانب الشرقى من النهر يسير قبالة العدوّ حتى وصل الى مخيمه وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامى وحملت عليهم وانتشب القتال بينهم فقتل من العدوّ وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدّم عندهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره وكان عليه لبس لم ير مثله وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد وعاد السلطان الى مخيمه واعيد الثقل الى مكانه وعاد كل قوم الى منزلتهم وكان عماد الدين زنكى غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به وبقى عسكره فعادوقد أقلعت حماه وبقى التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة لكونه لم يقدر على مباشرة الامر بنفسه ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكى فى حال الحرب كيف لم يقدر على مباشرة القوم ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمصافقة الامر ومخاطبة الحرب ولقد سمعت منه وقائلا يقول ان الوخم قد عظم فى مرج عكا بحيث ان الموت قد كثر فى الطائفتين فأنشد متمثلا

أقتلانى ومالكا ❊ واقتلا مالكا معى

يريد بذلك انى قد رضيت بأن اتلف انا اذا اتلف أعداء الله وحدث بذلك قوّة عظيمة فى نفوس العساكر الاسلامية وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة منضما الى كثرتهم وشدّة الغلاء والجدب عليهم

❊(فصل)❊ فى وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا قال العماد لما كان يوم الجمعة الثانى والعشرون من شوّال انتخب السلطان من اجناده عدّه وكثرهم العدّه وأمرهم أن يكمنوا فى سفح تل هوشما الى عكا بعيدا من عسكر العدوّ بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل فكمنوا تلك الليلة فلما أصبح الصباح ركب منهم عدّة يسيرة وساروا نحو الفرنج وصالوا عليهم وأغاروا فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم زهاء أربعمائة فارس هكذا قال العماد فى البرق وقال فى الفتح مائتا فارس وكذا قال ابن شدّاد مائتا فارس وطمعوا فى المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا قليلا حتى أوصلوهم الى الكمين فخرج عليهم أسد العرين وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم فلم ينج منهم ناج ووقع فى الاسر مقدّمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت اليه الاسرى والاسلاب فترك الاسلاب والخيول لآخذيها وكانت مقوّمة بأموال عظيمة فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها وجلس وأحضر الاسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم وأذن لهم فى ان يسيروا غلمانهم لاحضار ما يريدون احضاره ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال وحفظهم بالقيود الثقال قال القاضى ابن شدّاد ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوّ من أن يضرب مصاف وان يبالغ فى طلب البلد وحصاره من شدّة الامطار وتواترها أذن السلطان للعساكر فى العود الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشرى شوّال وعقيبه ابن أخيه صاحب الجزيرة بعد ان أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف مالم ينعم به على غيرهما وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل فى أوّل ذى القعدة مشرفا مكرما وسار الظاهر فى المحرّم سنة سبع وتقى الدين فى صفر منها ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصه قال العماد واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل الميرة والذخائر وأخرج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم

من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا وكان مقدّم البدل الداخل من أمراء سيف الدين المشطوب دخل فى سادس عشر المحرّم سنة سبع وفى ذلك اليوم خرج المقدّم الذى كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء ودخل مع المشطوب خلق من الامراء واعيان من الخلق وتقدّم الى كل واحد أن يصحب معه ميرة سنة كاملة وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطئ النهر وهو الموضع الذى تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فأقام ثم يحث الناس على الدخول وتحرس الميرو الذخائر لئلا يتطرق اليها من العدوّ من يتعرّضها وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر وكان دخولها يوم الاثنين ثانى ذى الحجة فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب الميناء فانقلب كل من فى البلد من المقاتلة الى جانب البحر ليلقى البطس وأخذ ما فيها ولما علم العدوّ انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا فى خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين وأما البطس فان البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها بعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وحرج السلطان لذلك حرجا شديدا وكان ذلك أوّل علامة أخذ البلد وقال العماد لما دخل الشتاء وعصفت الاهواء ووقع فى سفن الفرنج الكسر أنفذوها الى الجزائر للاحتياط وخافوا عليها من اختباط البحر وقال فى الفتح نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها فخلا وجه البحر من مراكبهم وحصل الامن فيه من جانبهم وكان أصحابنا فى البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدّم وجندى واسطولى وبحرى ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونوّاب وعمال وقد تعذر عليهم الخروج فرأى السلطان أن يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفه وما أفكر ان فى ذلك مخافة وآفه واشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر وتقدّم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل فمن نجز أمره انتقل وكان الرأى ازاحة علة المقيمين فانهم قد جرّبوا واصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا فى ثروة وكرم ونخوة وفيهم أبو الهيجاء السمين وله اتباع وأشياع وله فى شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ولعله أنفق من ماله فى تلك السنة خمسين ألف دينار فلما فسح لهم فى الانتقال لاجل الاستبدال انتشر ذلك الضم وانتثر ذلك النظم ودخل الى عكا من لم يجرّب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها وما ثبت ممن كان مقيما بها الا الامير بهاء الدين قراقوش ودخل عشرون مقدّما وأميرا شبه المكرهين عوض ستين واستخدمت الرجال وأنفقت الاموال وتفاوت الداخلون والخارجون فلا جرم وقع الوهن وقضى الامر وتكفل بالداخلين المشطوب وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدوّ ولم يستتم البلد ما كان يحتاج اليه من الرجال والاموال فان كل من عين للدخول كرهه وصار يتوسل فى ان يعفى ويبذل فى نفسه الفداء ثم لما حقت كلمة الدخول على من تعين له استمهلوا زمانا يتهيأون فيه للدخول ولانفاذ قضاء الله تعالى أسباب لا بدّ من وقوعها

﴿فصل﴾ فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى ليلة سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا فانثلم الثغر وبادر الفرنج اليها فجاء أهل البلد وسدّوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها وعادت أقوى مما كانت وفى ثانى ذى الحجة هلك ابن ملك الالمان وكند كبير يقال له كندبنياط ومرض الكندهرى وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان وحزن الفرنج على ابن ملك الالمان حزنا عظيما واشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النار ان والثلاثة بحيث بقى عسكرهم كله نارا تتقد وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة فى سرايا سريه وأساطيل بحريه ومن جملة ذلك ملوطه مكللة باللؤلؤ منوطه وبازرار الجوهر مربوطه قيل انها من ثياب ملك الالمان وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر فى براكس ونكسب من العدوّ ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فأذن لهم فى ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدوّ بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغه فأسروهم

وكبسوهم وأحضروهم بين يدى السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه قال العماد فلما أكرموا بهذه المكرمه اثنوا على اليد المنعمه وأسلم منهم شطرهم وأحضروا مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عاليه ومعها طبق يماثلها فى الوزن ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا فما أعارها السلطان طرفه احتقارا قال واستشهد فى عكا سبعة من الامراء منهم الامير سوار والتقى فى هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج فى البحر فأحرقت للكفر شوانى برجالها وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن اركز فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء وسلموه الى البلاء فقاتل وصبر فعرضوا عليه الامان فقال ما أضع يدى الا فى يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر الخطير الا مع الخطير فجاء اليه المقدم الكبير وظن انه قد حصل له الاسير فعاقره وعانقه وقوى عليه وما فارقه ووقعا فى البحر وغرقا وترافقا فى الحمام واتفقا وعلى طريقى الجنة والنار افترقا واستشهد أيضا الامير نصير الحميدى قال وفى تاسع جمادى الاول قتل القاضى المرتضى بن قريش الكاتب فى خيمته قتله شريك له فى دار بنابلس أراده على بيعها وخرج من خيمته فوجد قاضى نابلس فقتله وضربه وما أمهله وهرب ليحجو فأدرك وضرب بعمود خيمة فأهلك واستكتب السلطان أخا المستشهد مكانه فلم يبلغ فى الاحسان ميدانه قال وفى هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام أخى السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها قال ووصل القاضى الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور فى ذى الحجة وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين على ان أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبه وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبه وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد على احسانه والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة فى المهمات فوصل الى القدس واعتاق بتوالى الامطار ثم وصل فى ذى الحجة ورجع الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تدبيره وتأسس ركنه برأى مشيره قلت وفى جمادى الاولى من هذه السنة توفى بالموصل قاضى القضاة محيى الدين أبو حامد محمد بن قاضى القضاة كمال الدين بن الشهرزورى وقد أثنى العماد الكاتب عليه فى الخريدة ثناء كثيرا وأنشد له اشعارا حسنة منها فى التوحيد

قامت باثبات الصفات أدلة * قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت * هزمت ذوى التشبيه والتمثيل
فالحق ماصرنا اليه جميعنا * بادلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد * ألقاه فرط الجهل فى التضليل

وله فى مدح الصحابة رضى الله عنهم

لا تمس فى هوى الصحا * بة ارجع الى سقر * لا بلغت المنى ولا * نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا * م هم السمع والبصر * وهم سادة الورى * وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقدم من بعده عمر * ثم عثمان بعده * وعلى على الاثر
أيها الرافضى حسبك فالحق قد ظهر

﴿ثم دخلت سنة سبع وثمانين﴾ ففيها وصل الى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيرة وغيرهما وأخذت عكا يسر الله فتحها قال العماد والغيم فى هطلانه والبحر فى هيجانه والسلطان مقيم بخيمه على شفرعم ولطف الله به قد خص وعم والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل وسفن البدل الى عكا فى البحر متصلة السبل والفرنج مستمرون على الحصار متحرزون من الاصحار ونوب اليزك راتبه ووظائف الجهاد مواظبه ووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال وفى ثالث صفر رحل تقى الدين لتسلم البلاد التى أضيفت اليه شرقى الفرات وكان له بالشام المعره وحماه وسلميه وجبله واللاذقيه وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر وسميساط وضياعها وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها وسار على انه يرجع عن قريب فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفار على

عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته فانه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته وجور مجاورته وسيأتى ذكر وفاته فى آخر السنه ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه انه أغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ولم يطق الكفار لحاقه واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف فى الطريق منها أربعون وغنم ابقارا وغنما وأنفذ للعماد منها بغلة وذلك رابع صفر وفى ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته وكان فيه خلق عظيم منهم فغرق بعضهم وأسر بعض وفيهم امرأتان سيبتا وفى ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا منهم من خيمهم جماعة منهم اثنتا عشرة امرأة وفى ثالث ربيع الاول كان اليزك للحلقة السلطانية وخرج اليهم من العدو خلق وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومى صغير عثر به فى الحملة فرسه يسمى قراقوش وكان شجاعا له وقعات وفى تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش فأمر العادل أن يكمن بالعسكر خلف التل الذى كانت فيه الوقعة المعروفة به وسار هو فكمن وراء تل العياضية ومعه من أولاده الصغار والقاضى الفاضل وانذر الفرنج فلم يخرج منهم احد ووصل فى اثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون اسيرا من الفرنج أخذوا فى بيروت فيهم شيخ كبير هرم لم يبق فى فمه ضرس ولم يبق فيه قوة الا مقدار ما يتحرك فسأله عن مجيئه فقال للحج الى قمامة وبينى وبين بلادى مسيرة أشهر فرق له وأطلقه واعاده الى العدو راكبا على فرس وطلب أولاده الصغار ان يأذن لهم فى قتل اسير فلم يأذن وسئل عن ذلك فقال لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر ثم لما اقبل الربيع توافت العساكر وفاء بوعدها فوصلت فى شهر ربيع الاول فأول من قدم الامير علم الدين سليمان ابن منذر صاحب قلعتى عزاز وبغراس وهو شيخ له رأى وتجربه ومنزلة كبيرة ومرتبه والملك الامجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والى دمشق فى رجالهم وابطالهم وفى كل يوم يقدم امير بعد امير والله يتولى التدبير وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب فى عدة من عبدة الصليب ثانى عشر ربيع الاول فى ست بطس عظام مملوءة بفوارس ذوى اقدام فقلنا ما حمل الماء الا اهل النار وما اجلب للدوابر الا الادبار وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم يتقادون له بحيث اذا حضر حكم على الجميع وما زالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس وكان يعزه ويحبه حبا عظيما فطار من يده حتى سقط على سور عكا فاصطاده اصحابنا وأنفذوه الى السلطان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا قال القاضى بن شداد ولقد رأيته وهو يضرب الى البياض مشرق اللون ما رأيت بازيا أحسن منه قال العماد وكان مع هذا الملك باز أشهب كأنه عند ارساله نار تتلهب ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله وكان فى ظن الفرنج انه يقدم فى جمع جم فلما رأوا جمعه قليلا سقط فى أيديهم فوعدهم بالمدد خلفه قال القاضى وقدم بعده كندفرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكورا كان حاصر حماه وحارم عام الرملة وفى ثانى عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس فى عيد لهم وقد اجتمع جمع كبير فى بيعة قريبة من البحر وانهم صلوا معهم صلاة العيد فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان فى البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية وكان فيهم سبع وعشرون امرأة وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم وأسروهم باسرهم وكنسوا جميع ما فى الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة كذا فى كتاب القاضى وقال العماد فى الفتح وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا وركبوا فى طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم فى أثرهم فلم يظفروا بطائل ولم يرجعوا بحاصل قال العماد كان عز الدين سامة متولى بيروت ولم يكن لمراكب العدو بد من الجواز بها أو بقربها واذا عبرت أخذت وان كانت مستعدة لحربها فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى وكثرت فى البحر غزواته ووصل ملك الانكلتيرة الى قبرس فى السادس والعشرين من ربيع الآخر واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على

خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا وكان في الزيب وهو شمالى عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج قال القاضى وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدوّ فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها ان السلطان رحيم القلب وقد أذنا لك في الخروج اليه فاخرجى واطلبيه منه فانه يردّه عليك فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامى واخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ومرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق فأمر بدفع ثمنه الى المشترى وأخذه منه ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته الى صدرها والناس ينظرون اليها ويبكون وانا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها قال فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس الإنس اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين قال وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البكنكرى وكان مقدما من أمراء الموصل وصل مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان

(فصل) في مضايقة العدوّ خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها قال العماد لما كان يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف الفرنج الى عكا ونصبوا عليها سبعة مجانيق ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدوّ عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر واذا رجع عنهم عادوه وكان علامة بين السلطان وأهل البلد انه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤسهم فتدق كؤس السلطان اجابة لهم واستبعد السلطان منزلته فتحوّل الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ووصل ملك الانكلتيرة في عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة وهو في جمع شاك وجمع ذاك فبلى الثغر منه بغير البلاء الاوّل هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمه وللرمى مديمه وتمكن الفرنج بها من الخندق فدنوا منه دنوّ المحنق وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قد انقسموا فرقتين وافترقوا قسمين ففريق ينقى الخندق وما ألقى فيه وفريق يقارع العدوّ ويلاقيه قال القاضى ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة ميئسة القوة فيه وانقسم أهل البلد اقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التى يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم لا يلقونه في البحر وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم التعب والنصب وتواترت شكاياتهم من ذلك قال وهذا ابتلاء لم يبتل به أحد ولا يصبر عليه جلد هذا والسلطان رحمه الله يقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده يلاونها را حتى يشغلهم عن البلد وصوّبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم ودام ذلك حتى وصل ملك الانكلتيرة قال وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والميرة والرجال والابطال المقاتلة وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدوّ وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فاعترضها ملك الانكلتيرة الملعون في عدة شوانى قيل انها كانت أربعين قطعة فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدّوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدوّ عليها خلق عظيم وأحرقوا على العدوّ شانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجرّبا في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب فلما رأى امارات الغلبة عليهم قال والله لا نقتل الا عن عزولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها

وما

وما فيها من الآلات والميرولم يظفر العدو منها بشئ اصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها واخذوه الى الشوانى من البحر وخلصوه من الغرق ومشاوابه وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزنا شديدا والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب فى سبيل الله تعالى والصبر على بلائه قال وكان العدو المخذول قد صنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما وحدثتهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمس أذرع على ما نشاهد وأخذ أهل البلد فى تواتر ضربها بالنفط ليلا ونهارا حتى قدر الله تعالى حريقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء واشتدت الاصوات بالتكبير والتهليل ورأى الناس ذلك جبر الذلك الوهن ومحوا لذلك الاثر ونعمة بعد نقمة وايناسا بعد باس وكان ذلك فى يوم غرق البطسة قال العماد فكان ذلك تسمية الثلاث العطسه ثم جرى بعد ذلك عدة وقعات فى هذا الشهر وهو جمادى الاولى وهجم المسلمون خيم العدو ونهبوها ووصل رجل كبير من أهل مازندان يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فحمل حملة استشهد فيها فى تلك الساعة ولم تزل الاخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلا ونهارا وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكلتيرى الملعون ثم مرض مرضا شديدا اشفى فيه على الهلاك وجرح الافرنسيس ولا يزيدهم ذلك الا أصرارا وعتوا وهرب الى السلطان خادمان ذكر انهما لاخت ملك الانكلتيرة وانهما كانا يكتمان ايمانهما فقبلهما السلطان وأكرمهما وهرب أيضا المركيس منهم الى صور وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده قال العماد فى البرق ولما أعوزت الفرنج الحيل وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل وذلك ان ابرجتهم الخشبية احرقت وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت أقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلا ورفعوه كثيبا مهيلا ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه ويحولون الى قدامه ترابه ويقربون الى قرب البلد رقابه فهم من خلفه من النكايات محجوبون يشبون ويذبون ويدبرون الحرب الزبون والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل الجلد لا تعمل فيه النار ولا يصل الى دفعه الاقتدار حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ورمى بكل جمرة ورجم فما يزيد فى كل يوم الا قربا وما يجرى فى كل وقت الا خطبا وحربا وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه ويطيفون بحول الله حواليه ومن كتاب فاضلى الى الديوان (ما قطع الخادم الخدم الا انه قد ضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذى قد استفحل أمره واستشر شره فان الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا عامرا معمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ويعوق الغرض عن الانتهاز ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل وقد أفناهم القتل والاسر واكلتهم الحرب ولقمهم النصر وقد أمدهم البحر بالبحار وأعان أهل النار واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغربيه والالسنة الاعجميه من لا يحصر معدوده ولا يصور فى الدنيا وجوده فما أحقهم بقول أبى الطيب

تجمع فيه كل لسن وأمة ❊ فما يفهم التحديث الا التراجم

حتى انه اذا أسر الاسير واستأمن المستأمن احتيج فى فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان والاصحاب كلوا وملوا وصبروا الى ان ضجروا وتجلدوا الى ان تبلدوا والعساكر التى تصل من المكان البعيد لا تصل الا وقد كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها ولا تستفتح الا بطلب الدستور ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ولهم قاتلهم الله تنوع فى المكائد فانهم قاتلوا مرة بالابرجه وأخرى بالمنجنيقات وراد فة بالدبابات وتابعة بالكباش وآونة باللوالب ويوما بالنقب وليلا بالسرابات وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار وحالة فى البحر بالمراكب ثم شرعوا فأقاموا فى وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب وتلا لا تشبه الابرجة مدورة ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة فلما كملت اخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أولا أولا وترتفع حالا بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم وقد كان الحجر والنار تؤثران فى أبرجة الخشب وهذه ابراج وستائر للرجال والمنجنيقات

من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الراميه ولا تعمل فيها النار الحاميه) قال ووصل فى آخر جمادى الاولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنجار وفى ثانى جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل وجماعة من أمراء مصر والقاهرة كعلم الدين كرجى وسيف الدين سنقر الدووى وغيرهما من الاسدية والناصريه وأما عساكر دياربكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقى الدين وكان قد تعرض للسويدا وغيرها وصعب ذلك على السلطان وقال هذا من عمل الشيطان وفى مثل هذا الوقت يتعرض لهذا المقت وانى أخاف عليه فى هذه السنه حيث أساء عند امكان الحسنه واشتد مرض الانكلتيرى بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف وكان ذلك خيرة من الله عظيمة فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل فكان فى هذه الفترة للبلد بقاء رمق وزوال فرق وانتعاش عثره وانجبار كسره قال القاضى واللصوص يدخلون عليهم الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال فى عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظونه ويقولون له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به الى عسكر المسلمين وجرى ذلك مرارا كثيرة ثم تكررت الرسائل من الفرنج الى السلطان شغلا للوقت بالاطائل تحته منها ان ملك الانكلتيرة طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أياما ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان فى اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ففهم انه محتاج الى ذلك لنفسه لانه حديث عهد بمرض ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ثم أرسل فى طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين وهم مشتغلون بالحصر ومولاة الرمى والجد فى الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف وتخلل السور وانهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالى عدّة لا ينامون أصلا ليلا ولا نهارا والعدوّ عدد كثير يتناوبون على قتالهم واشتدّ ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الاسلامى ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجرى على من بها من المصاب العظيم اشتد فى الزحف والحث على القتال ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاما البتة وانما شرب شيأ أشار به الطبيب ولما هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها انا قد بلغ بنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن فى الغد ان لم تعملوا معنا شيأ نطلب الامان ونسلم ونشترى مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه فى قلوبهم فان عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا فرأى السلطان مهاجمة العدوّ فلم يساعده العسكر فان الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض اطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب وحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء فمازالت ترمى بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ولم يزل الحرب الى الليل وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدوّ من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقعت بدنة من الباشورة ودخل العدوّ اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلونى حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الاكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية وفى الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا انا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة أيام وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس وهو كان مقدّم الجماعة فى الرتبة وقال له انا قد أخذنا منكم بلادا عدّة وكان نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا فقال أرى فيكم رأيى فأغلظ له

المشطوب القول وانصرف عنه ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان فى البلد فأخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامى منهم عز الدين ارسل وحسام الدين تمرتاش بن الجاولى وسنقر الوشاقى وهو من الاسدية الاكابر وذلك فى ليلة الخميس تاسع جمادى الآخرة فاما ارسل وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان وأما ابن الجاولى فظفر به ورمى فى الزردخانات وكان شابا أول ما توفى والده فاقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها ومنعها وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك فى الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثمانى مائة دينار ومن كتاب الى صاحب اربل مظفر الدين (لما عاين أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر وانهم قد أشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه وأعمى قلبه فجوره وفسوقه ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم وباؤا بوبال غدرهم وما قوى طمع العدو فى البلد الا هربهم وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم والمقيمين من أصحابنا الكرام قد استحلوا مر الحمام وأجمعوا انهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الاعداء أضعاف أعدادهم وانهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم وكانوا تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب) قال القاضى وفى سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرا انه يريد كبس القوم ومعه المساحى وآلات طم الخنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا وقالوا نخاطر بالاسلام كله وفى ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيرة رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج فى الغد يعنى يوم الجمعة يتحدث ويتحدثون معه فى معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم وفى ذلك اليوم تقدم الى قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم عليهم وترجل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ولفيفهم وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار وفى ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النورى وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا واجتهد الناس فى ذلك اليوم اجتهادا عظيما قال العماد وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظرا نجح الامل البعيد ولما عرف السلطان انه لا سلامه وان عكا عدمت الاستقامه نفذ الى جماعة عكا سرا وقال لهم خذوا من العدو حذرا واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر وخلوا البلد بما فيه واتركوه بما يحويه فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاءه به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصح ذلك فى الليلة الثانيه لمصير السر الى العلانيه قال ولو صح ذلك لنجح المقصد لكن الفرنج اطلعوا على هذا السر فحرسوا الجوانب والابواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا الى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال وعزيمة الرجال قال وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولة الطعن والضرب وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل وكان السلطان يقذف به فى رسالات الفرنج وتردد العدل مرارا فى الخطاب والجواب فلم ينفصل الامر على الصواب وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون من فيها وانا نطلق لهم أسرى بعدد العدة التى يحويها فابوا وغيروا الاشتطاط فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط هكذا قال فى البرق وقال فى الفتح ان ذلك كان يوم السبت وقال اشترطوا اعادة جميع البلاد واطلاق اساراهم من الاقياد وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا فى بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا وكذا قال ابن شداد ان ذلك كان يوم السبت الحادى عشر وقال لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث اعتقدنا انه ربما كان مصاف واصطفوا وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزائدى وذكروا انه يعنى الخارج صاحب صيدا طليق السلطان فذكر نحو ما تقدم قال وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر قال ولما كان يوم الاحد ثانى عشر الشهر وصل من البلد كتب يقول فيها انا قد تبايعنا على الموت فايا كم ان تخضعوا

هذا العدوّ وتلينوا له فأما نحن فقد فات أمرنا وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب انه وقع في الليل صوت ازعج منه الطائفتان وظن الفرنج ان عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدوّ في تلك الايام بعد ان كان قد أشفى البلد على الاخذ ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان انفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص واشتدّ ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى اذا تم انهدامها قاتلوا عليه وثبت الفرنج على انهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدى المسلمين وتعاد البلاد الساحلية اليهم وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج العوّام وفي كتبه ان أهل البلد ضاق بهم الامر وتيقنوا انه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتى ألف دينار وألفا وخمسمائة أسير مجاهيل الاحوال ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم وصليب الصلبوت على انهم يخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الاموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس الملعون فانه كان قد استرضى وعاد عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه اربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم في انكار ذلك عليهم فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وصاح الفرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتدّ حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في انا لله وانا اليه راجعون وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته واقشعت الحال على ان المركيس لعنه الله دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك فنصب علما على القلعة وعلما على مئذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على برج الداوية وعلما على برج القتال عوضا عن علم الاسلام وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه قال ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى فسليته بما تيسر من التسلية وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من الامر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وانفصل الحال على ان رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فانه لم يبق غرض في المضايقة فتقدّم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التى كان عليها أوّلا بشفرعم وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدوّ وحال أهل البلد فانتقل الناس في تلك الليلة الى الصباح واشتغل العدوّ بالاستيلاء على البلد وأقام السلطان الى التاسع عشر ثم انتقل الى الثقل ووصل ثلاثة نفر ومعهم اقوش حاجب بهاء الدين قراقوش وكان لسانه فانه كان رجلا عاقلا مستنجزين ما وقع عليه عقد الصلح من المال والاسرى فأقاموا ليلة مكرّمين وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى قال العماد وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذا أمان الفرنج يعنى على القطيعة المتقدّم ذكرها قال ولم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا من كوزه واعطاف أعلامها مهزوزه وعم البلاء وتم العناء وغز العزاء وقنط الرجاء وحضرنا عند السلطان وهو مغتم وبالتدبير للمستقبل مهتم فعزيناه وسليناه وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها اعداه وقلت له ان ذهبت مدينة فما ذهب الدين ولا ضعف في نصر الله اليقين قال ودخلوا عكا وتسلموها ولم يقفوا على الشرائط التى أحكموها فانهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم بحبسهم واعتقالهم ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله وأودعه خزانته بعدما حصله وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب وأتم شرطهم المخطوب فظهرت امارات غدرهم وبدت دلائل مكرهم وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ وهو بالمغرب في الرسالة (لقد تجاوزت عدّة من قتل على عكا يعنى من الفرنج الخمسين ألفا قولا لا يطرقه التسمح بل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكا افرنسيس وانكلتيرة وملوك آخرون في مراكب

بحرية وحماله حملوا فيها الخيول والخياله والمقاتلة والا له ووصلت كل سفينه تحمل كل مدينه وأحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح اليه والداخل بالميرة عليه) ثم قال (وأخذ البلد على سلم كالحرب ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب وما وهنا لما أصابنا فى سبيل الله وما ضعفنا ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا بل نحن بمكاننا ننتظر ان يبرزوا فنبارزهم ويخرجوا فننا جزهم وينتشروا فنطويهم وينبثوا فنزويهم وأقناعلى طرقهم وخيمنا على خنقهم وأخذنا باطراف خندقهم وأحوج ما كنا الى النجدة البحريه والاساطيل المغربيه فان عاريتنا به ترد وعاديتنا بها تشتد والامير يبلغ ما بلغه من خطب الاسلام وخطوبه ويقوم فى البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ويجل العودة وقبلها الاجابه ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الاصابه ويشعران الراية قد رفعت انصر تقدم به عرابه فان للاسلام نظرات الى الافق الغربى يقلبها وخطرات من اللطف الخفى يقربها ويكفى من حسن الظن انها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو تلم بالسفائن لاخذت كل سفينة غصبا) قال العماد وعزم ملك الافرنسيس على المسير الى بلاده لامر اختل عليه فأخذ قسما من الاسارى وسلمهم الى المركيس ووكله فى قبض نصيبيه ورضى بتدبيره وترتيبه وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التى حفرها اليزك وتواقعوا مع اليزك وامدهم السلطان ففلوا العدو وصرع منهم خمسون فارسا قال القاضى وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم قال ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب فخرج حسام الدين حسين بن تاريك المهرانى ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيرى فأخبر ان ملك الافرنسيس صار الى صور وذكروا أشياء من تحرير أمر الاسارى وطلبوا ان يشاهدوا صليب الصلبوت وانه هل هو فى العسكر أو حمل الى بغداد فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا انفوسهم الى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله وذكروا ان الملوك قد أجابوا السلطان الى ان يكون ما وقع عليه القرار يدفع فى تروم ثلاثة أى نجوم كل ترم شهر ولم تزل الرسل تتواتر فى تقرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما التمسوه من الاسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ما عدا الاسارى المعينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الاول فى ثامن عشر رجب ثم أنفذوا فى ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما ان تنفذوا الينا أصحابنا وتتسلموا الذى عين لكم فى هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقى يصل اليكم فىترومكم الباقية واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيئا من ذلك بل تسلمون ما نقبضه بهذا الترم وتقنعون بأماننا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم ان تسلموا المال والصليب والاسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك اخرجوا خيامهم الى ظاهر خنادقهم مبرزين فى الحادى والعشرين الانكلتيرى وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبيل وركبوا فى وقت العصر السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الى الآبار التى تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم واليزك الاسلامى يشاهدهم ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم وكان اليزك قد أنفذ الى السلطان واعلمه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء فى مصارعهم وعرفوا من عرفوا منهم وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم ولم يبقوا من المسلمين الا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعد للعمل فى عمائرهم قال العماد وطلب السلطان منهم ان يضمهم الداوية فى قبض المال فقال الداوية ما ندخل فى الضمان فاقنعوا منهم بالقول والامان فظهر من فحوى كلامهم الخلف ثم ذكر قتل الاسارى قال فشاهدناهم مستشهدين بالعراء عرايا مجردين ولا شك ان الله كساهم من سندس النعيم ونقلهم الى دار المقامة فى العز المقيم وتصرف السلطان حينئذ فى المال وفرق مجموعه فى رجاء الرجال وأعاد الاسارى الى أربابها واحتوت عليها بدمشق أيدى أصحابها وحفظ الصليب السليب ورده الى مكانه وأعاده

الى صوانه لا لعزه بل لهوانه فانه لا مصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه وامتداد أيدينا اليه وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وأنفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا ومن كتاب عمادى عن السلطان فى ذلك (والكرام آجال والحرب سجال ولله من المؤمنين رجال والآن فقد ثارت الحميات وهبت النخوات ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام فأين ذوو الانفة والحميه والهمم العليه والنفوس الابيه أما يغتمون لمصرع من استشهد من اخوانهم أما يثورون لثار ايمانهم أما تبكى العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم فان مصابهم عظيم ومقامهم عند ربهم الكريم كريم وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقده وآثارة العزائم الراكده)

﴿فصل﴾ فيما جرى بعد انفصال أمر عكا قال العماد ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان وسار السلطان فى عراضهم والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون وكل أسير أتى به السلطان أمر بقتله ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجارى الى قيسارية وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لانها مدرج الوافدين من الاكابر والنواب بها وبما جبنوا عن اقامة الوظائف وكان الامر الفاضلى عندهم كالامر السلطانى فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك وفى تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون فى الساحل بالفارس والراجل وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون وهم يرمرن بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم قال القاضى ولقد شاهدتهم وفى ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هينته من غير انزعاج وثم قسم آخر من الرّجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمال هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرّجالة الا فى وقت الحملة لا غير وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدّمة والانكتار والفرنسيسية معه فى الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة وفى وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا فى وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر الى أن أتوا المنزل فنزلوا وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم قال فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه وليس معه الا صبيان بجنبيتين لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع والعدوّ على اثبات ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حملات كثيرة ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب الى ان أتوا الى نهر القصب فنزلوا عليه وقد قام قائم الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا آيس الناس من امر يتم معهم وفى ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم اياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل وصار بحيث انه اذا عرفه الفرنج فى موضع يخافون منه فاتفق ان تقطر به فرسه فاستشهد فى ذلك اليوم ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيره ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب فنزل عليه أيضا فكنا نشرب من أعلاه والعدوّ يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبات الفريقان هناك قال العماد وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم فى الساقه وكانت الفرنج قد أنست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين وتقدّموا

عـلى البركة مشرفين فبصر بهم ابن المقدّم فعبر اليهـم من وراثهم هوومن معه النهر وهم لم يأخـذوا من خلفهم الحذر ففجأهم وفجعهم وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ثم نهض الفرنج اليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديده لحزب الضلال مبيده جابت لنا غنيه وعليهم هزيمـه وأحضر الاسارى عند السلطان بخزام الذل والهوان فاخبروا انهم جرح منهـم بالامس ألف وسرى فيهـم وهن وضعف ثم رحل السلطان وعبر شعراء ارسوف ونزل عـلى قرية تعـرف بدير الراهب وطلب ملك الانكلتـيرة الاجتماع بالملك العـادل خـلوة فاجتمعا فاشار بالصلح وكان حاصـل كلامه انه طال بيننا القتـال ونحن جئنا فى نصرة افرنج الساحـل فاصطلحوا أنتم وهم وكل منا يرجع الى مكانه فقـال على ماذا يكون الصلح قال على ان يسـلم الى أهل الساحل ما أخـذ منهم من البـلاد فابى الملك العـادل وأخـبره ان دون ذلك قتـل كل فارس وراجـل فرجـع مغضبا وفى يوم السبت رابع عشر رمضـان كانت وقعة ارسوف تأهب المسلمون للقـائهم فازعجوهم وأبلوهم ببـلائهـم فلما رأى العـدوّ ماهوفيـه من الضيـقة احتموا وحملوا حملـة واحـدة فانكشف من كان قدّامهم واندفعوا وثبت ذلك اليوم العـادل وأصحابه وقايماز النجمى وعسكر الموصل ثم كرت العساكر اليهم وجرت النوائب عليهم فجرت بين الفئتين مقتلة عظيمة فلجأوا الى جـدران ارسوف ولولا ذلك لاستوعبت فيهـم الحتوف فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدوّ الى يافا فنزلوها والمسلمون على العادة فى عراضهم مقيمة على تبديد جموعهم واعـتراضهم وقتل يوم ارسوف لهم كند كبـير تحت حكمه من الفرنج عـدد كثير وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعـة من المقدّمين فـاقتـل حتى قتـلوا ولا بذل روحه حتى بذلوا روحهم قال القـاضى ابن شـدّاد رأيتهـم وقد اجتمعوا فى وسـط الرجالة وأخـذوا رماحهم وصـاحوا صيحـة الرجل الواحـد وفرج لهـم رجالتهـم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع النـاس بين أيديهـم ولم يبـق فى طلب السـلطان الا سبعة عشر مقـاتلا والاعـلام باقيـة والكوس تدق لاتفـتر فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبـه فوقف فيـه والنـاس يفـرون من الجوانب وكلما رأى فارا أمر من يحضر عنـده فاجتمـع فى الطلب خلـق عظيـم ووقف العدوّ قبالتهـم على رؤس التـلول والروابى وخاف العدوّ ان يكون فى الشعراء كمين وثابت العسـاكر كلها فتراجـع العدوّ الى منزلته وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقى والجرحى يحضرون بين يديه وهو يتقـدّم بمداواتهـم وحملهم وقتل رجالة كثيره وجرح جماعة من الطائفتين وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان فى وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب فى ذلك كله وقتـل من العدوّ جماعة وأسر واحـد وأحضر فأمر بضرب عنقه وفى بعض الكـتب السلطانية (سار العـدوّ من عكا على قصـد عسقلان وسقنا لمعارضتهم فى كل طريق ومضايقتهم فى كل مضيق ومنازلتهم فى كل مـنزل ومدافعتهم عن كل منهل وهم يسـيرون البحر البحر لا يفـارقون سـاحـله ولا يتجاوزون مراحـله والمواضع مضائق وشعراء ورمال وما للقتال فيها مجال وما وجدنا فسحة الا وضايقناهم فيها وأخذنا عليهم فى نواحيهـا ومن جملة أيامنا المشهووة المشهوده ومواسمنا المعروفة المحموده يوم الاثنين تاسع شعبان عنـد رحيلهم من قيسارية) فذكر الوقعـة السابقه وفيها (انه نفق من خيلهم ألف راس) ثم ذكر يوم ارسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعـد اليأس ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرمله واجتمعت الاثقال بها فى تلك الرحله ورحـل ليلا وأصبح على تبنا وجاوزهـا الى نهر امر ان الخيام عليه تبنى قال وزرنا بتبنا قـبر أبى هريرة رضوان الله عليـه وتبادر الناس بالتيمن به اليـه قلت اعتمد العمـاد فى هـذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك وأما أهل العلم المصـنفون فى أخبار الصحابة رضى الله عنهـم كابن سعد وغيره فذكروا ان أبا هريرة توفى بالمدينة ولم يذكروا غـيره عـلى ما ذكرناه فى ترجمته فى التاريخ والله أعـلم قال العمـاد ورحـل السـلطان ونزل بظاهر عسقلان بعـد العصر وشرع فيما عزم عليـه من الامر وكان لما نزل بالرملة أحضر عنـده أخاه العـادل وأكابر الامراء وشاور فى أمر عسـقلان ذوى الاراء فاشار علم الدين بن سليمان بن جنـدر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها ووافقه الجماعـه وقالوا قد ضاق عن صونها الاستطاعه فان هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهى مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتـين فاعمد الى اشرف الموضعين فحصـنه وحكمه فاقتضت الاراء اقامة العادل

بقرب يافا مع عشرة من الامراء حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم قال القاضى أشار عليه بتخريب عسقلان خشية ان يستولى عليها الفرنج وهى عامرة فيتلفوا من بها من المسلمين ويأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم بعجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيما بها فسار حتى أتى عسقلان وقد ضربت خيمته شماليها فبات هنالك مهموما بسبب خراب عسقلان وما نام تلك الليلة الا قليلا ولقد دعانى الى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضى نصف الليل فحضرت وبدا بالحديث فى معنى خرابها وأحضر ولده الافضل وشاوره فى ذلك وطال الحديث ولقد قال رحمه الله والله لان أفقد أولادى باسرهم أحب الىّ من ان أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف أصنع قال ثم استخار الله تعالى فاوقع فى نفسه ان المصلحة فى خرابها فاستحضر الوالى وأمره بذلك فى تاسع عشر شعبان ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه ودخل الناس الى البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا فى سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يستعملان الناس فى الخراب خشية ان يسمع العدوّ فيحضر ولا يمكن من خرابها وأباح الناس الهرى الذى كان ذخيرة فى البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج وأمر بحريق البلد فاضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوّ بعمارة يافا وخرب من سور عسقلان معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان فى موضع تسع أذرع وفى موضع عشرا وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ان عرض البرج الذى ينقبون فيه مقدار رمح فلم يزل الخراب والحريق يعملان فى البلد واسواره الى سلخ شعبان وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه ان القوم قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا فى غرتهم فعزم على الرحيل وعلى ان يخلف فى عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم يستقصون فى الخراب ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول وانما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما قال العماد ونقض منها الابراج التى على ساحل البحر ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة منيعة حصينة فطال بكائى على رسومها وفض ختومها وقبض أرواحها من جسومها وحلول الدوائر بدورها ونزول السوء بسورها فما برح السلطان منها حتى رأيناها طلولها دوارس ورسومها طوامس والرؤس حياء من معاهدها نواكس قال ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا لكن وجد كلا له متجنبا متجبنا وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين وعادت بعد ذلك بحضرة المسلمين وقال من تعلل واعتذر عن دخولها تدخلها أنت أو أحد أولادك فتدخلها اتباعا للمراد فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها وفض سوارها وسكانها كانوا فى رفاهيه فانتقلوا عنها على كراهيه وباعوا أنفس الاعلاق بابخس الاثمان وفجعوا بالاوطار والاوطان

(فصل) فيما جرى بعد خراب عسقلان قال العماد فارقها السلطان يوم الثلاثا ثانى رمضان ونزل على تبنا ونزل بالرملة يوم الاربعا وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة لد وركب جريدة الى القدس فاتاه يوم الخميس وأعاد اليه رسوم التأنيس وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان وبات فى بيت نوبة وعاد الى المخيم يوم الثلاثا ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية بن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه واخوته فانهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده فاقام فى الخدمة السلطانية مدة وتزوج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار وسار مستهل ذى القعده وفى ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيرة وكان خرج فى فوارسه مخفر الحطابة والحشاشه وكاد يؤخذ الملك لكن أحد خواصه فداه بنفسه بان أظهر حسن لباسه فظن انه الملك فاسر وقال ابن شداد حال بينه وبينهم فرنجى فقتل الفرنجى وجرح هو وفى ثانى عشرة جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين وقتل مقدّم كبير من المشركين ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم

ومن

ومن كتاب الى صاحب سنجار (قد تقدم الاعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان وما تم عليه منا فى طريقه من النكاية والخذلان وانه قطع فى سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين وما صدق كيف وصل الى يافا فاظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار وكلتاهما من العدو على خوف وحذار وكل واحد من الموضعين يحتاج فى تحصينه الى ثلاثين ألف مقاتل وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البلدين وتعينت فى تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وتأمينه) ثم رحل السلطان الى النطرون وخيم على تل عال والنطرون حصن حصين كان للداوية لكن لما فتح تشعثت اسواره وانتقض جداره فامر بهدمه فهدم ثم بعث ملك الانكلتيرة راغبا فى المصالحة والمسالمة الى العادل وزعم ان له أختا عزيزة عليه كبيرة القدر وانها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفى عنها ورغب ان يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ فيها أمره وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان حافظة لها من آفة الزمان فرأى العادل فى ذلك عين الصواب وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب فنفذ الرسول الى الانكلتيرى بالاجابه فدخل الفرنج على المرأة وخوفوها وأثموها فى دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعه وسبة شنيعه وقطع على النصرانية وقطيعه وأنت عاصية للمسيح لا مطيعه فرجعت عن ذلك وما أجابت فاعتذر الانكلتيرى بعدم موافقتها الا ان يدخل العادل فى دينها فعرف انها خديعة كانت من الانكلتيرى قال القاضى ووصل رسول من المركيس يذكر انه يصالح الاسلام بشرط ان يعطى صيدا وبيروت على ان يجاهر الفرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم فاجيب الى ذلك على ان يطلق من بها وبصور من الاسارى ولما سمع الانكلتيرى بذلك رجع الى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس اليه وجاء الخبر ان ملك الافرنسيس مات بانطاكية ووصل كتاب من تقى الدين يخبر فيه ان قزل صاحب ديار العجم ابن الدكز قتل وجرى بسبب قتله فى بلاد العجم خطب عظيم قال العماد وكان محتقر اللغنائم مقترفا للمآثم واضعا للشرب والقصف المواسم وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين وكبرائهم الموصوفين ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقى الدين خلاط ويظهر فيه العناية التامة بيكتمر ويشفع فى حسن بن قفجاق ويتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين باربل ويتقدم بمسير القاضى الفاضل الى الديوان لبت حال وفصل أمر فاجاب السلطان بانا لم نأمر تقى الدين بشئ من ذلك وانما عبر ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد وأما ابن قفجاق فقد تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره الى الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد وأما الفاضل فاعتذر عنه بانه كثير الامراض وقوته تضعف عن الحركة الى العراق قلت وبلغنى ان الفاضل رحمه الله كتب فى الاعتذار بالحضور الى الديوان وتمثل فى كتابه بهذين البيتين

ما كنت أول سار غره قمر * ورائد خدعته خضرة الدمن
مثل لنفسك شخصى انى رجل * مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

قال القاضى وأرسل الانكلتيرى الى السلطان ان المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم فأرسل السلطان فى جوابه القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجمع الملائكة فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهى أيضا لنا فى الاصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها وهرب شيركوه بن باخل الكردى من عكا وكان أسيرا بها وكان ادخر حبلا فى مخدته فتدلى به من طاقة فى بيت الطهارة واشتد هربا فى قيوده الى تل العياضية فكمن فى الجبل وقد طلع عليه النهار ثم كسر قيوده

وسار الى المسلمين ثم تواتر الخبر ان الفرنج على عزم النهوض فسار السلطان من المخيم بالنطرون الى الرملة سابع شوّال وأقام بها عشرين يوما فجرت وقعات وتمت دفعات منها وقعة في ناحية يازور وكان النصر فيها للمسلمين وفقد من المسلمين ثلاثة وذلك ثامن شوّال وفي سادس عشر شوال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى غيرهما وقتل منهم زهاء ستين نفرا وفي خامس شوّال وصل الخبر ان الاسطول المصري استولى على مراكب الفرنج وفيها مركب تعرف بالمسطح قيل انه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقي منهم أربعة نفر مذكورون وفي ثامن عشر شوّال اجتمع العادل والانكلتيري على طعام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان فامتنع رحمه الله وقال الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة الى الرمله وأظهروا قصد القدس بتلك الرحله ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ورحل السلطان الى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة وكان الشتاء قد دخل والغيث قد اتصل فوصل الى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة كنيسة قمامة وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين وتحوّل الفرنج الى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها وسبق منهم الى القدس نيف وخمسون أسيرا سوى من قتل منهم ووافقهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الاضحى فنحر منهم وضحى واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركوا خيلهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى انهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرملة في الثاني والعشرين من ذي الحجه وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة ابراجه واسواره وحفر خنادقه وأرسل الى البلاد في جمع رجال هذه الاعمال وتقبل الامراء فيه العمل وعمل فيه السلطان بنفسه ينقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والولاة والامراء قلت وفي قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما ❊ فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذا انتظموا ❊ وكم نظمتهم طعنا اذا انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب ❊ ان عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
ان يمموك فلا بدع لجهلهم ❊ تسعى الى الاسد في غاباتها الحمر
زاروا نمورا ولا تغني وقاحتهم ❊ اذا اسودك في أبطالهم زأروا
خام عن حوطة البيت المقدّس لا ❊ خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما ❊ فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها ❊ وتحصد الفئة الا وغاد ما بذروا

❊(فصل)❊ في باقي بقايا حوادث هذه السنه قال العماد في ربيع الاوّل منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر بن أخي السلطان وراء الفرات وكان قد امتدّت عينه الى بلاد غيره فاستولى على السويدا وعلى مدينة حاني وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر وتملك معظم تلك البلاد ثم أناخ على منازكرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد الى أن بلغ منه المراد واخفى ولده الملك المنصور وفاته ورحل عن البلد المحصور وفاته وعاد به الى البلاد التي في يده وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده وجاءت رسله الى السلطان بخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان وكاد أمره يضطرب وقلبه يكتئب وشأنه ينعكس وينقلب حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره وقال القاضي

ابن شداد كانت وفاته فى طريق خلاط عائدا الى ميافارقين فحمل ميتا حتى وصل به الى ميافارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه وحمل اليها فدفن بها قال العماد وفيها توفى ابن أخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ففجع السلطان بابن أخيه وابن أخته فى تاريخ واحد وكناله من أعظم الاعوان على مايكابده من الشدائد قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب وهى المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينه قال وفيها فى أواخر ذى الحجة توفى الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب وكان فى خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها وهو الذى أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والاهتمام بالقدس ثم مرض بالقدس وطلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غبا غب على مرحلة من دمشق وفيها فى الثالث والعشرين من رجب كانت وفاة الصفى بن القابض نائب السلطان بدمشق وكان قد خدم السلطان أيام عدمه وهو فى كفالة أبيه وعمه فلما ملك مصر أمرحه فى أموالها وحكمه فى أعمالها حتى نال المنى ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله وفيها توفى نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد ابن كوبه سابع عشر ذى الحجة بدمشق قال العماد وكنت استنبته فى كتابة الانشاء وخرّجته وقلبته فى مراتب المعالى ودرّجته واعتمد السلطان عليه فى الترسل الى سلاطين العجم وخواص الامراء منهم والخدم وكان نبيلا نبيها كريما وجيها وفيها توفى الحكيم الموفق أسعد بن المطران فى شهر ربيع الاول وكان من أهل النظافه والظرافه ومن ذوى الفصاحة والحصافه وفقه الله فى بدايته لهداية الاسلام ونال أسباب الاحترام وتقدّم عند السلطان وماشانه كبر وهو كبير الشان وفى أواخر هذه السنة توفى الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشانى بمصر وهو الذى عمر تربة الشافعى رضوان الله عليها وبنى المدرسة فى جوارها واحيا شعار التوحيد وبنى أمره على التسديد والتشديد وحفظ شمل الشافعية من التبديد وكان السلطان مجيبا له الى كل مايستدعيه ويقضى له من الحوائج مايقتضيه ووقف على المدرسة التى بناها وقوفا وأعطاها فى بنائها ألوفا فلما توفى الخبوشانى طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا وشفع العادل فى صدر الدين أبى الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ فكتب بها له ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله وذلك فى أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسه وتبدّلت بالوحشة الانسه قلت ثم استمرّت عليها يد أولاده واحدا بعد واحد الى الآن قال وفيها توفى الوجيه بن النفيس مستوفى ديوان دمشق بها وكان نبيها مهيبا نزها عارفا مصيبا وفيها توفى القاضى أمين الدين أبو القاسم بحماه فى حادى عشر رمضان وكان كريما سخيا نابها سريا وفيها نقلت تربة القاضى محيى الدين أبى حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان قاضى الموصل وقد بنى رباطا هناك وكانت وفاته بالموصل فى الثامن والعشرين من جمادى الاولى سنة ست وثمانين وقد تقدّم ذلك وسأل ابن أخيه القاضى بعده كتابا الى أمير المدينة فكتب له كتاب منه (سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضى كمال الدين بمصر يحاذن عمه محيى الدين من الموصل الى المدينة المقدّسة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ليدفن فى الرباط الذى أنشاه حيث يبعث مع شفيع الامة يوم البعث والنشور ويأمن ظلام اللحد المحفور فى جوار الضياء والنور ويحشر بما يناله من البركة والحبور منشرح الصدر اذا بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور ولقد وفق فى اختياره أيام حياته نقله الى ذلك البيت المعمور فليعن الامير على هذه المكرمه وليعتز بمواراته فى التربة المجاورة للبقعة المعظمه) قال وكان هذا القاضى خرقا جوادا لبذل اللهى معتادا واسع المروه جامع أسباب الفتوه يحب معالى الامور فضائله متجاوزة حدّ الوفور قال ابن القادسى ووصل الحاج فى صفر بعدما اعتاقت أخبارهم وأخبروا ان داود أمير مكة أخذ مافى الكعبة من أموال وأخذ طوقا كان يلازم الحجر الاسود فأوجب ذلك الشعثه وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربعمائة فضربه بدبوس وقال الى كم حجر وفى يد ذلك الرجل سيف فما تجاسر أحد يقرب منه فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل وتقدّم اليه فقتله فأخذ الحجر وجمعت شظاياه والفت وجعل له طوق فأخذه أمير مكة ذلك الطوق فلما وصل أمير الحاج عزم داود وولى أخاه مكثرا ونقض قلعة كان بناها داود على جبل أبى

قبيس وهو داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين وهو أمير ابن أمير الى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر قال ابن الاثير وفي ربيع الاول سنة سبع وثمانين سار عز الدين يعني صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن أخيه معز الدين سنجر شاه لانه كان سيء السيرة معه خارجا عن طاعته مساعدا للاعداء عليه فعزم على أخذها منه فخضع وطلب العفو والصفح فأجابه وصالحه على قاعدة استقرت بينهما وعاد عنه الى الموصل فعاد سنجر شاه الى حالته الاولى فتجاوز عنه واطرحه

﴿ثم دخلت سنة ثمان وثمانين﴾ قال العماد والسلطان مقيم بالقدس وقد قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء سور جديد محدق به مديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيستن الاكابر والامراء في نقل الحجارة بنهجه ولو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره لعلمت ان له قلبا قد حمل جبلا في فكره ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور وما تعالوا داريبنهما في الجنة بنقل حجارتها ليكون ملكا في دارها وقرا في دارتها وداوم البكور في الركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب قال وفي ثالث المحرم رحل الفرنج على سمت عسقلان وأشاعوا انهم يعيدون بها العمران وهم نازلون بظاهرها جائلون في مواردها ومصادرها فرأى الانكلتيرى دخانا على بعد فقصده وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم غارون عما دههم فوصل اللعين اليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين ولم يفقد من المسلمين الا أربعة وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها وهون ضررها وفي حادي عشر المحرم كبس عز الدين جرديك تبني على من نزل بها من الفرنج فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثني عشر أسيرا ومتاعا كثيرا وأغار أيضا ثاني صفر على ظاهر عسقلان وجاء بثلاثين أسيرا وفي ليلة رابع عشر صفر كنت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصري عند تبني الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها باجمالها وأثقالها ونسائها ورجالها وفي مستهل ربيع الآخر وصل سيف الدين المشطوب وقد خلص من الاسر وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار يحمل منها عشرين ألفا وأعطاهم بالباقي رهائن فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها فتوفي بها في آخر شوال وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور وذلك ان رجلين دخلا صور وتنصرا وأظهرا الترهب والتعبد ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان وأحبهما المركيس ولم يكن يصبر عنهما ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية فجلس مكانه الكندهري بامر الانكلتيرى وسر الانكلتيرى بمصاب المركيس فانه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره وتزوج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته ودخل بها وهي حامل وما الحل في ملة الفرنج عن النكاح حائل ويكون الولد منسوبا الى الملكة هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة وهذا الكندهري ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وملك انكلتيرة من أمه ودخل الفرنج في حكمه وعاش الى آخر سنة أربع وتسعين ولولاهم دون سبع سنين وقال العماد في الفتح أضافه الاسقف بصور فاستوفى رزقه وتعدى وما درى انه يتردى واكل وشرب وشبع وطرب وخرج وركب فوثب عليه رجلان وسكناحركته بالسكاكين وكان عند تلك الداكاكين وهرب أحدهما ودخل الكنيسه وقد أخرج تلك النفس الخسيسه فقال المركيس وهو مجروح وفيه روح أحملوني الى الكنيسة فحملوه فلما أبصره أحد الجارحين وثب اليه وزاده جرحا على جرح وقرحا على قرح فاخذ الفرنج الرفيقين فالفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير فقالا ملك الانكلتيرة فقتلا شر قتله فيالله من كافرين سفكا دم كافر وفاجرين فتكا بفاجر قال ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلاله لانه كان عدو ملك الانكلتيرة ومنازعه على الملك والسرير ومناقشه على القليل والكثير قال وفي تاسع جمادى الاولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ثم خربوها ورحلوا عنها وأسروا من فيها

وكان الانكلتيرى الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين فتمكنوا من نقب المكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم وفى رابع عشره خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بجدل جناب كذا قال فى الفتح وقال فى البرق بجدل بابا وكذا قال ابن شداد وقتل كند كبير ثم نزلوا تل الصافيه ثم الى النطرون ثم الى بيت نوبه وهى وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة وقد ألهيهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحيه ويكمنون لهم تحت كل رابيه وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس وفى انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونيه وهى من القدس على فرسخين فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه والمسلمون فى أثرهم يكمنون لهم وينالون منهم وكان بدر الدين دلدرم فى اليزك فبعث من كمن لهم عند طريق يافا فمرت بهم فوارس فاستولى عليهم الكمين وما سلم منهم أحد وفى ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناة قافلة فكسبت وسلبت وأسرت وفى تاسعه وصل الخبر بان الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وأدلجوا ولم نعلم قصدهم فعرف السلطان انه الى طريق العسكر المصرى فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلى وشمس الدين أسلم الناصرى حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسى وأخبراهم الخبر فنزلوا وعرسوا وهم يظنون ان لا حس للعدو بارض الحسى فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الاموال وخلص أكثرها مع الرجال ومن جملة من كان فى العسكر فلك الدين أخو العادل لامه فنجا بما قدر عليه من القوافل قال العماد وجرى هذا كله والملكان العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة فى الاتيان وسببه ما كان من تقى الدين وموته وتشرط ولده فى بقاء بلاد أبيه عليه وان الافضل كان طلب من والده البلاد قاطع الفرات ونزل عن جميع ماله من الولايات وانه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ورحل من القدس فى ثالث صفر وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات ووصل الى حلب فاحتفل أخوه الظاهر لقدومه وأقام له بسنن المكارم ورسومه ووقف بخدمته ماثلا وبعطف الابتهاج اليه مائلا وأحضر له مفاتيح بلده وقدم له كل ما فى يده وسمع ناصر الدين بن تقى الدين بما أقلقه ودفع منه الى ما أزعجه وأرهقه ووصل رسوله الى العادل وهو بالقدس لاجئا الى ظله راجيا الفضل له لائذا بجنابه عائذا ببابه فاحتمى له واحتمله وقوى فى تقويته أمله وخاطب السلطان فى حقه واستعطفه وقال أنا أمضى اليه وأحضره وأمنه مما يحذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ونعطيه فى السنة الاخرى جاه والمعره ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر وتصف خاصه ففعل واستزاد قلعة جعبر فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر فسار العادل فى العشر الاول من جمادى الاولى وكتب السلطان الى الافضل بالعود فجاء هذا راجعا وذهب ذلك مسارعا ووصل الى حران والرها وعاد فى آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقى الدين قال القاضى ابن شداد عاد الافضل منكسرا متعتبا فوصل دمشق ولم يحضر الى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الفرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار اليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لامره قال ولما بلغ ابن تقى الدين موجدة السلطان أنفذ الى العادل يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه ويقترح أحد قسمين أما حران والرها وسميساط وأما جاه ومنبج وسليه والمعرة مع كفالة اخوته فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شئ منه فكثرت الشفاعة اليه فحلف له على حران والرها وسميساط على انه اذا عبر الفرات أعطى المواضع التى اقترحها وتكفل اخوته وتخلى عن تلك المواضع التى فى يده ثم التمس العادل خط السلطان فابى وألح عليه فخرق نسخة اليمين وانقطع الحديث وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد أولاد أخيه ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده ثم ان العادل التمس من السلطان البلاد التى كانت بيد ابن تقى الدين بعد انتقاله وجرت مراجعات كثيرة فى العوض عنها فكان آخر ما استقر انه ينزل عن كل ما هو شامى الفرات ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقا وخاصته بمصر بعد النزول عن خبزه وعليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقا الى القدس

﴿فصل﴾ في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه قال القاضي ابن شداد وكان تقدم السلطان الى عسكر مصر بالمسير وأوصلهم بالاحتراز عند مقاربة العدو فاقاموا ببنابلس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبي البلاد والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل اليهم بالعرب المفسدين ولما تحقق العدو أمر القفل امر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل فاتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى مايقال له الحسي فانفذ السلطان الى القافلة تنذره بنهوض العدو وأمرهم ان يبعدوا في البرية وركب الانكلتير الملعون مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح فبعث الناس ووقع عليهم بخيله ورجله فكان الشجاع الايد القيم الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانقسم القفل ثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجمالهم واحمالها وجميع مامعهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديده وتبدد الناس في البرية ورموا اموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنه وجمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ولقد حكى من كان أسيرا معهم انه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت ان العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ثم انكشف الامر فعادوا وقد هرب جمع من الاسرى وكان الحاكي منهم واخبران الاسارى خمسمائة والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ووصل العدو الى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوما عظيما عندهم وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد ورتبوا جماعة على لديحفظون الطريق على من ينقل الميره وانفذوا الكندهري الى صور واطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس حرسه الله تعالى ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد الى الاسوار فقسمها على الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد قال ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجا السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خدمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية باسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان أكلمهم واحثهم على الجهاد فذكرت ما يسر الله من ذلك وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر والناس سكوت كان على رؤسهم الطير ثم شرع وقال الحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا أنتم فان لويتم أعنتكم والعياذ بالله طوى البلاد كطي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله مايرجع أحد منا عن نصرتك الى ان يموت فقال الجماعة مثل ماقال وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف فدعاني رحمه الله وقال أعلمت ما الذي تجدد قلت لا قال ان أبا الهيجا السمين انفذ الي اليوم وقال انه اجتمع عندي جماعة المماليك الامراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له وقالوا لا مصلحة في ذلك

فانا نخاف ان نحصر ويجرى علينا مثل ماجرى على أهل عكا وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعا والرأى ان نلتقى مصاف فان قدّر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم وان تكن الاخرى سلم العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشق عليه هذه الرسالة وأقمت تلك الليلة فى خدمته حتى الصباح وهى من الليالى التى أحياها فى سبيل الله رحمه الله وكان مما قالوه فى الرسالة انك ان أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده والا فالاكراد لا يدينون للاتراك والاتراك لا يدينون للاكراد وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك وكان رحمه الله يحدّث نفسه بالمقام ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر الاسلام فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته فى أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم وانصرفت عنه الى دارى فما وصلت الا والمؤذن قد أذن فأخذت فى أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع وكنت أصلى الصبح معه فى غالب الاحوال فعدت الى خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لى واقع أعرضه فأذن لى فيه فقلت المولى فى اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الامر مجتهد فيما هو فيه وقد عجزت أسبابه الارضية فينبغى أن يرجع الى الله تعالى وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الاسبوع وفيه دعوة مستجابة فى صحيح الاحاديث ونحن فى أبرك موضع يقدر أن يكون فيه فى يومنا هذا فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدّق بشئ خفية بحيث لا يشعر انه منك وتصلى بين الاذان والاقامة ركعتين تناجى فيهما ربك وتفوّض مقاليد أمورك اليه وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاك قال وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت الى جانبه فى الاقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله ثم انقضت الجمعة بخير فلما كان عشيتها ونحن فى خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك وكان فى اليزك يقول فيها ان القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا فى البر على ظهر ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها ان الجواسيس رجعوا وأخبروا ان القوم اختلفوا فى الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهب الفرنسيسية الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه وقال الانكلتيرى ان هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب قالوا له نشرب من نهر تقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقى فقالوا ننقسم قسمين قسم يذهب الى السقى مع الدواب وقسم يبقى على البلد فى اليزك ويكون الشرب فى اليوم مرة فقال الانكلتيرى اذا يؤخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين الصرانية فانفصل الحال على انهم حكموا ثلثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثنى عشر من أعيانهم وحكم الاثناعشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرونهم به يفعلونه فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين الى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم ولله الحمد ووقف عسكرهم الى ان لم يبق فى المنزلة الا الآثار ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك فركب السلطان قدّس الله روحه وركب الناس وكان سرورو فرح ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر وكان قد ذكر الانكلتيرى مثل هذا مرارا

(**فصل**) فى تردّد رسل الانكلتيرى فى معنى الصلح وما جرى فى اثناء ذلك الى أن تم ولله الحمد وقد ساق ذلك القاضى ابن شداد أحسن سياق واستقصى الامر فيه بخلاف العماد فقال ان الانكلتيرى جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والاصلح حقن الدماء ولا ينبغى أن يعتقد ان ذلك عن ضعف منى بل للمصلحة ولا تغتر بتأخرى عن منزلى فالكبش يتأخر لينطح ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك يكون هو وعسكره بحكمك ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا وان جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التى كانت تضيق صدرك لما كانت تجرى المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ولو أعطيتنى مقرعة أو قربه قبلتها وقبلتها فاستشار السلطان الامراء فى جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد

الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون واستقر الحال على هذا الجواب انك اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ابن أختك يكون عندى كبعض أولادى وسيبلغك ما أفعل فى حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة وبقية البلاد نقسمها والساحلية التى بيدك تكون بيدك والتى بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم وان أردتم قراها كانت لكم والذى كنت أكرهه حديث عسقلان فانفصل الرسول طيب القلب واتصل الخبر انهم بعد وصول الرسول اليهم راحلون الى جهة عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليج ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى قسطنطينيه فى خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول انى قتلت فى الطريق اثنى عشر فرسا ويقول تقدم الى من يتسلم بلادى منى فانى قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولا اكترث به ثم جاء رسول الانكلتيرى يطلب أن يكون فى قلعة القدس عشرون نفرا وان من سكن من النصارى والفرنج فى البلد لا يتعرض لهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة انهم قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة انهم يقولون هذا تصنعا وانهم راغبون فى الصلح وان ملك انكلتيرة لا بد له من الرواح الى بلده فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة فقال الرسول وليس على الزوار شئ يؤخذ منهم فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له فى مقابلة خسارته فأجاب السلطان وان الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا الى صور بما عمالها ومهما اختلفنا فى قرية كانت مناصفة ثم جاء الرسول يقول الملك يسألك ويخضع لك فى أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدرلها عند ملكك وعظمتك وما سبب اصراره عليها الا أن الفرنج لم يسمحوا بها وهو قد ترك القدس بالكلية لا يطلب أن يكون فيه لا رهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الداروم الى انطاكية ولكم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروح وان لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم قال القاضى فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله المسؤل فى أن يكفى المسلمين مكره فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداما منه فأجابه السلطان بأن انطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فان عادوا بما نريد أدخلناهم فى الصلح والا فلا وأما التى سألها فلا نوافق المسلمون على دفعها اليه والا فلا قدر لها وأما سور عسقلان فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه لد فى الوطأة ثم عاد الرسول وقال ان الملك قال لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ولا يسمع فى البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها وعند ذلك تأهب السلطان للخروج الى جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء وبلغه فى العاشر من رجب ان الفرنج خذلهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولد وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت حن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فى الميمنة ولده الظاهر وفى الميسرة أخوه العادل وركب المنجنيقات وزحف عليها فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته فأجابوا الى ذلك واشترطوا أن ينتظروا الى يوم السبت تاسع عشر رجب فان جاءتهم نجدة والا تمت القاعدة على ما استقر فأبى السلطان الانظار وأمر بالنقب فحشى وأحرق فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول فى الثلمة وقاتلت خارج الابواب الى الليل فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان فأظلم الافق وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الابصار ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ولقد رأيت رجلين على مشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق

فأخذه

فأخذه ونزل الى داخل فقام رفيقه فى مقامه متصدياً للمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر بحيث لم يفرق بينهما الا ناقد بصير ولما رأى العدوّ ما قد آل الامر اليه سيروا يطلبون الامان فقال رحمه الله الفارس بفارس والتركيلى بمثله والراجل بالراجل والعاجز فعلى قطيعة القدس فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة أشدّ من اضرام النار فسأل السلطان ان يبطل القتال الى ان يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل الى أصحابك فقل لهم يحازون الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقى دونه مانع ففعلوا وانحازوا الى قلعة يافا بعد ان قتل منهم جماعة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالا كثيرة وأثاثا وبقايا قماش ما نهب من القافلة المصرية واستقرّت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان وكان قايماز النجمى فى طرف الغور لحمايته من عسكر العدوّ الذى لعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه ان الانكلتيرى الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد على قصد يافا فاشتدّ عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة وكنت ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدوّ بغنم يوثبهم عليه مكان اخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر غير ان الامان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدوّ من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الامر وأخذ منهم الحديد وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة وسمعنا بوق الفرنج فى السحر فعلمنا بوصول النجدة عز الدين جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهرانى وعدل الخزانة شمس الدين وقال امض الى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلى وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة وتخرجون القوم وتستولون على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الى الظاهر وهو ظاهر البلد وهو يسيرها الينا ففعلنا ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فاجابوا وتهيئوا فقال جرديك لا ينبغى ان يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفوهم وكان الناس قد داخلهم الطمع فى البلد وأخذ يشتدّ فى ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولا محصورين فى مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الى ان علا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان يمضى فلما رأيت الوقت يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة فى اخراجهم فاجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفرا بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدّثتهم نفوسهم بالعصيان وكانوا استقلوا المراكب التى جاءتهم وظنوا ان لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانكلتيرى مع القوم ورآهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا فقويت نفوس الباقين فى الحصن فظهرت منهم امارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم فما كان الا ساعة بحيث صرت خارج البلد وقد حمل القوم من القلعة وأخرجوا من كان فى البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس فى الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقى فى بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ولما عرف السلطان أمر الناس زحف وعاد للحصار كما كان وحشروا العدوّ فى القلعة واستبطؤا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فارسلوا بطركهم والقسطلان الى السلطان يعتذران مما جرى ويسألان القاعدة الاولى وكان سبب امتناع نزول النجدة انهم رأوا البلد مشحونا بيبارق المسلمين ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير فلما رأى من فى القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشوانى علموا ان النجدة قد ظنوا ان البلد قد أخذ فوهب رجل منهم نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكان رملا فلم يصبه شئ وعدا الى البحر فحدث الانكلتيرى بالحديث فما كان الا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى الى الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين فاخرجوهم من الميناء فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والاسواق الى يازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا وخرج الانكلتيرى الى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد وأمر من فى القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم سواده ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلى وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا

يجتمعون به فى أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ما قال هذا السلطان عظيم ومافى الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى والله ماليست لامة حربى ولا تأهبت لامر وليس فى رجلى الا زربول البحر فكيف تأخر ثم قال والله انه عظيم والله ماظننت انه يأخذ يافا فى شهرين فكيف أخذها فى يومين ثم قال لابى بكر الحاجب تسلم على السلطان وتقول له بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح فهذا أمر لابد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر ومادوام هذا مصلحة لالنا ولا لكم فارسل السلطان اليه فى الجواب انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث فى يافا وعسقلان والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية الى صور فارسل الانكلتيرى يقول ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد الواحد بلدا صار تبعه وغلامه وانا اطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما واذا احتجت الىّ وصلت اليك فى اسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتى فقال السلطان حيث دخلت هذا المدخل فانا اجيبك على ان تجعل البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وماوراءها والثانى لى وهو عسقلان وماوراءها ثم رتب السلطان الثقل بيازور وامر بخرابها وخراب بيت حن ورتب النقابين لذلك وسار الى الرملة فعاد رسول الانكلتيرى يشكر على اعطائه يافا ويجدد السؤال فى عسقلان ويقول له ان وقع الصلح فى هذه الايام الستة سار الى بلاده والا احتاج ان يشتى ههنا فاجابه السلطان فى الحال وقال أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيته ههنا فلابد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة واذا أقام أيضا ان شاء الله تعالى واذا سهل عليه ان يشتى ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته فما يسهل علىّ ان أشتى واصيف وأنا فى وسط بلادى وعندى أهلى واولادى ويأتى الىّ ماأريده ومن أريده وانا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عنى والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير الذى يكون فى الصيف وانا اعتقد انى فى اعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء ثم جاء رسول يقول لم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى وانا كنت أحرص حتى أعود الى بلادى والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الانواء وعزمت على الاقامة ومابقى بيننا حديث ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا فسار رحمه الله فنزل على العوجا ووصل من أخبره ان العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع وبلغه ان ملك الانكلتيرة نازل خارج يافا فى نفر يسير فوقع له ان يكبسه فاتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوا من اماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب وكانوا على الموت أصبر فارتاع المسلمون منهم ووجوا من ثباتهم وداروا حولهم حلقة وكانت عدة الخيل سبعة عشر وقيل تسعة والرجالة ثلثمائة أو أكثر فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة ودار على الاطلاب بنفسه يحثهم على الحملة ويعدهم بالحسنى على ذلك فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر قال وبلغنى انه قال له الجناح اخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا واخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان فى قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شئ حيث فوتهم الغنيمة فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار الى يازور وقال ولقد بلغنى ان الانكلتيرى أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد قلت ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه (كثر الارجاف بهلاك ملك الانكلتيرة فان كان كذلك فجواب كل من قصر فى يافا عن أخذه عن السلطان الا تنصروه فقد نصره الله وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيرة الا تقتلوه فقد قتله الله ولم يزل لطيفا ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلا وخفيفا ومن كان الله عليه لم يكن قويا ومن كان الله معه لم يكن ضعيفا) قال القاضى ثم سار السلطان الى النطرون ثم الى القدس فنظر الى العمائر ورتبها ثم عاد الى النطرون وتوافت اليه فيه العساكر ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الاسدية فى خدمة ولده الملك المؤيد مسعود ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين فلقيه الظاهر الى بيت نوبه ودخل به على السلطان فنهض واعتنقه وضمه الى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر فبكى الناس لبكائه ساعة ثم باسطه وسأله عن الطريق وكان معه عسكر جميل فقرت عين السلطان به ثم سار ونزل فى مقدمة العسكر مما يلى الرملة

ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأى وقال ان ملك الانكلتيرة قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وارى ان نسير الى يافا فان وجدنا فيها طمعا والا عدنا الى عسقلان فما لحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا فوافقوه على ذلك فارسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا من يافا هذا ورسل الانكلتيرى لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج وأوقع الله عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ وكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الاخبار بتواتر الرسل والذى انكشف له ان فيها ثلثمائة فارس على قول المكثر ومائتى فارس على قول المقلل وان الكندهرى تردد بينه وبين الفرنسيسية فى مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا فسار السلطان الى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيرى مع الحاجب ابى بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج وذكر أبو بكر انه انفرد به وقال له قل لاخى يعنى الملك العادل يتبصر كيف نتوصل الى السلطان فى معنى الصلح ويستوهب له منه عسقلان وامضى ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة بأخذ البلاد منهم فليس غرضى الا اقامة جاهى بين الفرنجية وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لى منه عوضا عن خسارتى على عمارة سورها فارسل السلطان الى العادل ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت ثم ان الانكلتيرى نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك فاحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان وذكر يافا وعملها واخرج الرملة منها ولد وبجدل ويابا ثم ذكر قيسرية واعمالها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها واخرج منها الناصرة وصفورية واثبت الجميع فى ورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التى تبقى فى ايديكم فان صالحتم على ذلك فبارك وقد اعطيتكم يدى فينفذ الملك من يحلف فى بكرة غد والا فنعلم ان هذا تدفيع ومماطلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى الصلح وشرط ان تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة واستقرت القاعدة على انهم يحلفون يوم الاربعاء الثانى والعشرين من شعبان ورضى الاسبتارية والداوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك ولم يحلف الانكلتيرى بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع من السلطان بمثل ذلك ثم حلف الجماعة خلف الكندهرى ابن اخته المتخلف عنه فى الساحل وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ووصل ابن الهنفرى وابن بارزان وجماعة من مقدميهم الى السلطان فاخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة العادل والافضل والظاهر والمنصور وسيف الدين المشطوب وبدلدرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكل مجاور لبلادهم وحلف صاحب انطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين قال ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدى الطاعة والموافقة وتسيير العسكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا فى معنى الديارات التى لهم فى القدس وعمارتها وشكوا من انها أخذت من ايديهم ويسأل ردها الى أيدى نوابهم وورد رسول صاحب ارض الروم يبذل الطاعة والعبودية قال العماد وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور وأدخلوا فى الصلح اطرابلس وانطاكية ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر اولها مبتدأ ايلول الموافق للحادى والعشرين من شعبان قال وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والاقوات ليتقووا بها على فتح القدس لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس قلت ومن الالفاظ الفاضلية (وقد فعلت الاقدار فى رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة وكيف تشنع ملك انكلتيرة بالغدر وهو لعنه الله قد اتى باقبح الغدر وافحشه فى أهل عكا نهارا جهارا وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى وغدر الفرنج معلوم

اذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ❋ ومن عهدها ان لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا ويفسخون اذا قووا ونحن ننتظر فى ملك انكلتيرة ما تقضى عنه المقادير فى أمره اما الهلاك ولا بأس بها فيلتقى الاحبة المركيس والدوك وملك الالمان ويؤنس فى النار غربتهم ويكثر عدتهم واما ان يعافى فهو بين أمرين اما ان يرجع الى لعنة الله والى مرورة البحر فى تغريقه واما ان يقيم فهنالك قد أبدى الشر ناجذيه ونكص

الملعون من الوفاء على عقبيه وانتظر الفرصة لينتهز والعورة ليثب) ومما قيل فى هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور التى تقدمت فى فتح البيت المقدس وهى

ياصاح قل للانكتير الكلب دع ❊ عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس مافيه لسرجك مطمع ❊ كلا ولا نور الاله بمنطفى
والمسجد الاقصى فعنه تقص من ❊ وقع الدبابيس الاليمة تعرف
واستفت نفسك فهى أخبث ناصح ❊ واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرؤس معمم ❊ واطرب لسيف بالدماء مغلف
قد قلت لما قيل صلح قد جرى ❊ هذا حديث مخرّف ومحرّف
سلف تولى السيف عقد شروطه ❊ أحبب به من مسلم ومسلف
ظنوه سلما وهو فى أرواحهم ❊ سلم الى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن بن الساعاتى الانكتيرى هذا فى شعره فى قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها

منعت ظباء المنحنى باسوده ❊ وأشد ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهى الصديق لحاظها ❊ كظبى صلاح الدين فى أعدائه
سل عنه قلب الانكتير فانه فى ❊ خفقانه ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع ❊ واسال سيل نداه فى بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما ❊ لترنم الناقوس فى أفنائه

﴿فصل﴾ فيما جرى بعد الهدنة قال القاضى أمر السلطان ان ينادى فى الوطاقات والاسواق الاان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل الى بلادهم فليفعل وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم الحج فى ذلك المجلس وكنت حاضر ذلك جميعه وأمر ان يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الفرنج منها ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب فى السور خشية من استيفائه عامر افنعل ذلك وخربت وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالا يعلمه الا الله تعالى والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لى فى بعض محاوراته فى الصلح أخاف ان أصالح وما أدرى ايش يكون منى فيقوى هذا العدوّ وقد بقى لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قله يعنى حصنه وقال لا أنزل ويهلك المسلمون فهذا كلامه وكان كما قال رحمه الله لكنه رأى المصلحة فى الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الى يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدوّ الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب فى ذلك ونفذ معهم الخفر يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوّار واقترح ان لا يأذن لاحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا فى الحج فكان يرد فى كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكرون وشرع السلطان فى اكرام من يرد ومد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك وأذن لهم السلطان فى الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك واعتذر الى الملك بان قوما قد وصلوا من ذلك البعد ويسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منعهم ثم اشتدّ المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان وقيل انه مات وسار هو والكندهرى وسائر المقدّمين الى جانب عكا ولم يبق فى يافا الامريض أو عاجز ونفر يسير ثم أعطى السلطان للناس دستورا فسار عسكر أربل والموصل وسنجار والحصن وأشاع رحمه الله أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة منه

قال القاضي وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تتمة الصلح ووقع منه رحمة الله عليه موقعا عظيما وأمر الديوان ان كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق وكتب جرائدها يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغير ذلك وسيرها الى البلاد ليعدوها ورحل من النطرون رابع شهر رمضان وسار حتى أتى ماري صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مريضا بها فوجده قد سار الى القدس وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض وكان قد تماثل فعرف بمجيء السلطان الى ماري صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان وهو أول وصوله ولم ينزل بعد ونزل وقبل الارض وعاد ركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم وقال العماد عاد السلطان بعد السلم الى القدس لتفقد أحواله وعرض رجاله واشتغل بتشييد اسواره وتحصينها وتجليد آثاره وتحسينها وتعميق خنادقه وتوثيق طرائقه وزاد في وقف المدرسة سوقا بدكاكينها وأرضا ببساتينها وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها والوقف الكافل بكفايتها وغير الكنيسة التي في شارع قمامة بالبيمارستان ونقل اليه العقاقير والادوية من جميع الانواع والالوان وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها الى المدينة وأمر بادارة الخنادق على الجميع وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد ان قدم مقدماته وأقام شهر رمضان وأفاض الاحسان وفوض ولاية القدس واعمالها الى عز الدين جرديك حين استعفي منها حسام الدين سياروخ وولى مملوكه علم الدين قيصر ما دون القدس لعمل الخليل وغزة والداروم وعسقلان قلت ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان انه عازم على الحج كتب اليه مشيرا بتبطيله (ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه ان يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا اليه والعياذ بالله ويخرط من يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال) ثم قال (وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلثمائة ألف أو أكثر هل يؤمن ان يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء أعوذ بالله منه ماهذه الشناعة ممتنعة الوقوع ولا مستبعدة من العقول السخيفة فيمنع المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مستورا فانه يسأل مولانا ان لا يشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم ولا من غيرهم يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط المقطعين على المنقطعين ما لا ينادي وليده وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها فمن المستحيل نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير وعرضت للمولى شواغل دونه ومشت الاحوال مشيا على ظلع فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل انما يطلب تمشية من حيث يستقر) قلت ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى محوطا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله الى سنة ست عشرة وستمائة فانه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد خيف من استيلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر ابن أيوب اخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور بقصيدة منها

أعينيّ لا ترقى من العبرات ❊ صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ❊ توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب اسعر نار وجدك كلما ❊ خبت بادّكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله ❊ يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الاقصى الذي جل قدره ❊ على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى ❊ على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي ✽ أنافت بما في الارض من صخرات
على القبلة الاولى التي اتجهت لها ✽ صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ✽ واشرف مبنى لخير بناة
ومازال فيه للنبيين معبد ✽ يوالون في ارجائه السجدات
عفا المسجد الاقصى المبارك حوله الـ ✽ ـرفيع العماد العالى الشرفات
عفا بعدما قد كان للخير موسما ✽ وللبر والاحسان والقربات
يوافى اليه كل أشعث قانت ✽ لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا على مقيمها ✽ توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ✽ فمن بين نوّاح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد باسرها ✽ وتعلن بالاحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها ✽ وتشكو الذى لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ✽ وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها ✽ وياطالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ✽ وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ✽ وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ✽ لهم عظم ماوالوا من الغزوات
أماعلمت أبناء أيوب انهم ✽ بسعاته عدّوا من السروات
وان افتتاح القدس زهرة ملكهم ✽ وهل ثمر الا من الزهرات
فمن لى بنوّاح ينحن على الذى ✽ شجانى باصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعى قاله ✽ يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ✽ ومنزل وحى مقفر العرصات

قلت هذا البيت الاخير لدعبل بن على الخزاعى فى أول قصيدة يرثى بها أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهذه السنة التى توفى فيها العادل قبل التى خرب فيها القدس هى السنة التى نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى وهى المرة الاولى فى زماننا وأقاموا عليه الى ان استولوا بعدان جرى لهم نحو ما جرى لهم على عكا ثم أخذه المسلمون منهم وقتلوا وأسروا ثم ان الفرنج استولوا عليه صلحا فى سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا فى بناء طائفة منه ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم فى احدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر (هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى)

المسجد الاقصى له عادة ✽ سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ✽ ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أوّلا ✽ وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان ثم أخذتا منهم عنوة فى شهور سنة خمس وأربعين وستمائة فى دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد والله يسهل عودهما الى أهل الاسلام ويؤيد الدين الحنيفى على ممر الايام

﴿فصل﴾ فى مسير السلطان رحمه الله من القدس الى دمشق قال العماد ولما استتم السلطان النظر فى أحوال القدس وعمارته وفوّض القضاء والنظر فى الوقوف الى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم وعوّل منه على أمين كريم آثر ان يعود الى دمشق على الثغور عابرا وفى أحوالها ناظرا وكان عزم على الحج وصمم وكتب الى مصر

والين بما عليه عزم وأمر أن يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج اليه من الازواد والنفقات والثياب والكسوات. فقيل له لو كتبت الى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرّفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه برى ويعلم ان قصدك فى المضى مضى والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الآفاق ثم هذه البلاد اذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث وهذه المعاقل التى فى الثغور حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنه فان القوم على ترقب المكنه والغدر دأبهم فما زال به الجماعة حتى حلوا اعقد عزمه على الحج فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة وبات على بركة الداوية ونزل يوم الجمعة بظاهر نابلس وأقام بها الى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم وكان بها سيف الدين المشطوب وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب فأزال الشكوى وأزاح البلوى ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حماء بموضع يعرف بالفريديسه ورتعنا فى مروجها الانيسه وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين وهنالك ودعنا المشطوب وداع الابد فانه انتقل بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد وجئنا ضحوة الاثنين الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة الخاليه فأبصر قللها العاليه وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم رحل ظهرا وبات بقلعة كوكب وصعد نظر رأيه فيها وصوّب ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشا وهنالك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر فلقيناه بالبشر والبرّ ووصل مع السلطان الى دمشق وأقام الى ان خلص أصحابه من الاسر وتوجه الى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله وخرج من ثروته ودخل فى اقلاله قال وتوالت تلك الليلة الامطار وواصلها النهار فأقمنا يوم الاربعاء وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذى عليه قلعة صفد وصعد اليها وكمل فيها الرجال والعدد ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة الى قلعة تبنين وجاز يوم الاحد على هونين وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل واجتمعنا تلك الليلة بالثقل ثم سرنا الى مرج عيون مرحله والى جسر حامد منزله وطريقنا بين عمل صيدا ووادى التيم وطلعنا من تلك الاودية والشعاب طلوع الانوار من الغيم وقال فى الفتح على صيدا يسره وعمل وادى التيم يمنه وعرسنا على مرج تلغيا ثاما مقابل مرج القنعبه ودفعنا الى سلوك المسالك الصعبه ورحلنا يوم الثلاثاء الى البقاع فخيمنا على جسر حامد ويوم الاربعاء بناحية قب الياس ودخل يوم الخميس بيروت وبها والبها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه ولما أراد عن بيروت الانفصال فى الحادى والعشرين من شوّال قيل له ان الابرنس الانطاكى يمتد مع عصابة من الوفد قد وصل الى الخدمه مستمسكا بحبل العصمه فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل واذن للابرنس فى الدخول وشرفه فى حضرته بالمثول وقرّبه وأنسه ورفع مجلسه وكان معه من مقدّمى فرسانه أربعة عشر بارونيا فوهب كلا منهم تشريفا سريا وأجزل له ولهم العطاء وأبدى بهم الاعتناء وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بمبار وأعجبه استرساله اليه ودخوله بغير أمان عليه فلاجرم تلقاه بالاحسان ووافقه وودّعه يوم الاحد وفارقه وكانت الاثقال قد انتقلت من قب الياس الى مرج فليطيه من البقاع فبات فى المخيم وعبر يوم الاثنين عين الجرّ الى مرج تبوس وقد زال البوس وهنالك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده وأصبحنا يوم الاربعاء الى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين لولا اننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين فأخرجت دمشق أثقالها وأبرزت نساءها ورجالها فكانت يوم الزينه وخرج كل من فى المدينه وحشر الناس ضحى ولشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان فى الجهاد طالت فاهتزت بقدومه واختالت وقرّت بفضائله الاعين وأقرّت بفواضله الالسن وأبدوا وجوه الاستبشار والسن الاستغفار وأعين الاستعبار ورفعوا أيدى الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء وجاء ربيع الفضل فى فصل الخريف واتصل تليد الجد بالطريف واتسع فضاء الفضائل وارتدع جاه الجاهل وحل فى القلعة حلول الشمس فى برجها وأخذت بحار سماحه فى موجها وجلس فى دار العدل فأجاب وأجار وانال وأنار وخرجت السنة والسلطان فى اسنى سنائه وأبهى جلاله وأجلى بهائه والناس راتعون فى رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه وينتظرون عزمه ويرقبونه وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره وابتسام ثغر الربيع

واقتراره وأقتناعلى هذا العزم الى آخر السنة والسلطان مشتغل بالصيد والقنص متنزه من العمر الغرض وقرّب العلماء وأكرم الفضلاء وفضل الكرماء وما كان أحسن الى الحق اصغاه وأشرع للباطن الغاه وقال القاضى أبو المحاسن أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الى الديار المصرية وانقطع تشوّفه الى الحج ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكلتيرة المخذول متوجها الى بلاده فى مستهل شوّال فعند ذلك حرّر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة ويتفقد القلاع البحرية الى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود الى القدس الشريف سائرا الى الديار المصرية لتفقد أحوالها وتقرير قواعدها والنظر فى مصالحها قال وأمرنى بالمقام بالقدس الى حين عوده لعمارة بيمارستان انشاه فيه وادارة المدرسة التى أنشاها فيه الى حين عوده وخرج من القدس وودعته الى البيرة ونزل بها ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها ثم أتى فى طريقه الى كوكب فى عاشر شوّال وانفك بهاء الدين قراقوش من الاسر حادى عشر شوّال ومثل بالخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديدا وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام واستأذن السلطان رحمه الله فى المسير الى دمشق لتحصيل القطيعة فأذن له فى ذلك وكانت القطيعة على ما بلغنى ثمانين ألفا قال ولما وصل السلطان الى بيروت وصل الى خدمته البرنس صاحب انطاكية مسترفدا فبالغ فى اكرامه واحترامه ومباسطته وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسدّ خللها واصلاح اجنادها واشحانها بالرجال فدخل دمشق بكرة الاربعاء سادس عشرى شوّال وفيها أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد وجلس للناس فى بكرة الخميس وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا فى الاوقات المعتادة واتخذ الافضل يوم الاثنين مستهل ذى القعدة دعوة لاخيه الظاهر وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان اليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر اليه ثانيا وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنوّ أجل السلطان فودّعه فى تلك الدفعة مرارا متعددة وهو يعود اليه ولما اتخذ الافضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل الى حلب المحروسة وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبرا لقلبه قال وكان العادل قد استأذن السلطان فى أواخر رمضان فى القدس بالمضى الى الكرك لتفقدها فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه وعاد طالبا المضى الى البلاد الفراتية التى أعطاه السلطان اياها فوصل دمشق سابع عشرى ذى القعدة وخرج السلطان الى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعا يتصيدان وكان دخولهما الى دمشق فى الحادى والعشرين منه وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرّجون فى أراضى دمشق ومواطن الصيد وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه ونسى عزمه المصرى وعرض له أمور أخر وعزمات غير ذلك ووصلنى كتابه الى القدس يستدعينى الى خدمته وكان شتاء شديدا ووحلا عظيما قلت وفى عيد الاضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسى قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامى التى مطلعها (حاولك البين حين أصبحت بدرا) يقول فيها يعنى قصيدته

وأبيها لولا تغزل عينيها ❊ لما قلت فى التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا ❊ صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلا ❊ مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال فى آخرها

نلت ما تبتغى من الدين والدنـ ❊ ـيا فتيها على الملوك وفخرا
فتملّ الاعياد صوما وفطرا ❊ وتلق الهناء فطرا ونحرا

بامصر

يا مسر الطاعات لله ان اضـحى مليك على الهناة مصرا
قد جمعت المجدين أصلا وفرعا ❋ وملكت الدارين دنيا واخرى

﴿فصـــل﴾ فى ذكر أمور أخر جرت فى هذه السنة من وفيات وغيرها قال العماد فى شهر ربيع الآخر توفى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش من أهل دمشق قاضى العسكر وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة الى أولاد قليج ارسلان بالروم وكان هذا القاضى لى من أصدق الاصدقاء وأكرم الكرماء وما فارقنى من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله فى السراء والضراء وكنت باحواله شديد الاعتناء وتوصلت له عند السلطان فى تخصيصه بالمواصلة الموصليه والمراسلة فى المهام الخفية والجليه ثم تولى نيابة عن السلطان فى الولاية الشهرزوريه والحكم على المقطعين بها وانصاف الرعيه فلما فوّضت الى مظفر الدين صاحب أربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد وكان خطب أولاد السلطان قليج ارسلان مهما عند السلطان فاعتمد على القاضى شمس الدين فى الوصول اليهم والحكم بتأليف ذات بينهم عليهم فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه قال وفى يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفى الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب بنابلس وقد سبق ذكر هذا الامير وبأسه وبسالته واصابته واصالته واقدامه فى الحروب وتقدّمه فى الخطوب وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التى فتح فى آخرها مصر ولازم صلاح الدين الى منتهى العمر ولما احتيج الى البدل فى عكا اذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب الى دخوله وقابل الامر بقبوله وحصل بقضاء الله فى الاسر واحتوت عليه قبضة الكفر وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا وأتاه الله من نعمة خلاصه مارجا وأنعم السلطان عليه بنابلس واعمالها وخص بأموالها وحين جزنا ودّعنا عند جينين وداع الابد الى جنة عليين وانما سمى مشطو بالشطبة فى وجهه من أثر طعنة فى غزاة حضرها وله مواقف فى الجهاد كثيرة معهوده ومقامات مشهورة مشهوده ووقف السلطان بعده ثلث نابلس واعمالها على مصالح القدس وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذى التزمه التزام الدين وقال القاضى ابن شدّاد وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه انما كان واليه عز الدين جرديك وتوفى المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الاحد الثالث والعشرين من شوّال ودفن فى داره بعد ان صلى عليه فى المسجد الاقصى قال العماد وفى منتصف شعبان توفى سلطان بلاد الروم عز الدين قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بقونيه وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم فضعف بقوّتهم وعجز بقدرتهم وانخفض برفعتهم فانه فرق بلاده على جماعتهم طمعا فى طاعتهم واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن عفراس فخالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الانفاس وقال له أنا بين يديك عوض الاختيار ثم أخلى منه الديار ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياءه وأفنى بالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه واستخلصه لنفسه وأجلسه على ملكه وهو فى حبسه ثم جاء به الى قيصرية ليأخذها من أخيه وأظهر انه بأمر أبيه فوجد قليج ارسلان فرصة فى خلاصه فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد الى الولد فعاد ملكشاه الى قونيه واقصرا دار ملك ابيه فتملكهما ولم يزل قليج ارسلان يتحوّل من ولد الى ولد ومن بلد الى بلد يتردد فى بلاده فى ضيافة أولاده وكلهم يضجر منه ويعرض عنه حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فلما حضره وأبصره أواه ونصره وجاء به الى قونيه فدخلها وحلى عطلها ومات بها فجلس مكان والده وقوى على أخيه قال وجاء الربيع فى شهر ربيع الاوّل فكتب الىّ نشو الدولة أحمد بن نفاذه أبياتا يدعونى الى دمشق فى خامس جمادى الاولى وقد دخل أوان المشمش المعهود وهو موسم دمشق المشهود أوّلها

دعا الناس للذات مشمش جلق ❋ فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بأكله ❋ ولا تثن عنه عزمة السير تسبق
وقل حين يبدو اصفر اللون مشرقا ❋ ويا حسنه من أصفر اللون مشرق
(لاكلك مايلقى الفؤاد ومالقى ❋ وللتوت مالم يبـقى منى ومابقى)

فليس سوى الحلواء فى القدس مأكل ❊ وما جلبوه من زبيب وفستق

قال فعرضت أبياته على السلطان فقال ما قلت فى جوابه فأنشدته

هلموا نسابق نحو مشمش جلق ❊ وثم كما نهوى على الاكل نلتقى
تصفر شوقا لانتظار قدومنا ❊ ومن يتعشق ذا الفضائل يشتق
اذا حضرت اطباقه غاب رشدنا ❊ لما يتلاقى من مشوق وشيق
حكى جمرات بالفضا قد تعلقت ❊ فيا عجبى من جمره المتعلق
كأن نجوم الارض فوق غصونه ❊ فيا حيرتى من نجمه المتألق
وجناتها محمرة وجناتها ❊ فمن يرها مثلى يحب ويعشق
بدت بين أوراق الغصون كأنها ❊ كرات نضار فى لجين مطرق

قال فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال تشبيه الورق باللجين غير موافق فان الورق أخضر فقلت

كرات نضار بالزمرد محدق

تساقطها أشجارها فكأنها ❊ دنانير فى أيدى الصيارف ترتقى
ومشمش بستان الزكى بشهده ❊ شهادته تقضى فزك وصدق
يقول رفيقى فى دمشق تعجبا ❊ أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت الى باب البريد وسوقه ❊ لامثالنا تجنى بساتين جلق
ولو كان لى بالسهم سهم وجدت لى ❊ منالى بايام الثمار ومرفقى
اذا كنت مبتاعا من السوق مشمشى ❊ فمالى الا لذة المتسوق
ومالى بارباب البساتين خلطة ❊ فيصبح فى حيطانها متسلقى
كرام وثوقى فى الشتاء بودهم ❊ ولكنهم فى الصيف ينسون موثقى
وما ثم من يجدى ويقرى ويقتنى ❊ ثنائى سوى المحيى الكريم الموفق
وذلك يوم واحد ليس غيره ❊ امن اجل يوم واحد قلت لى اسبق
على اننى لو قيل بالصين دعوة ❊ آثرت اليها لوعة المتحرق
فان جئت قبلى جلقا فارم منعما ❊ حديثى بنادى المنعمين وحلق
لعل كريما ينتحى لضيافتى ❊ بمشمشة عند القدوم وينتقى
فلا تنس نشوا الدين نشوة خاطرى ❊ وقل عن صبوحى كيف شئت ورقق
وهات وساعدنى وخذ من قريحتى ❊ لطيمة دارى من الجد واعبق

قال فقال لى السلطان عن صبوح ترقق كأنك تريد تمضى الى دمشق وتسبق فقلت الاهل والولد وقد عيل عنهم الجلد ولكن مغيبى عن الخدمة لا يدور به الخلد وظلك هو السكن والبلد قال وكتبت أيضا فى جوابه وصفة المشمش وذكر تشبيهاته وقد أذن لى السلطان لمهم له ايضا اتفق

قد صح عزمى على المسير فلا ❊ أبغى مقامى والقلب قد رحلا
امضى الى دمية مقبلها ❊ ارشف منه المدام والعسلا
مصور بل مدور عجب ❊ ترى به وهو جامد شغلا
ففى قلوب الاشجار منه جذى ❊ وفى ظهور الغصون منه كلا
طلوا بما النضار ظاهره ❊ لباطن فى حشاه نار طلا
تخفى اذا ما بدا لعينك فى ❊ فيك وفيه النوى اذا وصلا
حلى تبرع على عرائس أغصا ❊ ن تشكت من قبلها عطلا
حمر حسان الوجوه قد لبست ❊ من خضر أوراقها لها حللا

عرائس من خدورها برزت * تحسب أشجارها لها كللا
حلاوة لا يمل آكلها * اذا الحلاوات أحدثت مللا
زهر كشهب السماء راجمة * جن جناة بقطفها كفلا
عيونها الرمد فى ترقبنا * جاحظة ابرزت لنا مقلا
ماذا التوانى وذا التأخر وا لا بطاء قدم مسيرنا عجلا
تغدو خفافا الى مواسمها * من قبل نبلى بصحبة الثقلا
قد انتظرنا من الخزانة ما * نعطى فاكدى نوابها البخلا
فان عدمنا من عندهم ذهبا * فما عدمنا عنه به بدلا
وكلنا فى عوارف الملك النا * صر نرعى ونسلك السبلا

قال وقلت فيه رباعية

الشمس لانتظارنا مصفر * والروض الى لقائنا مفتر
قم نغتنم الوقت فهذا العمر * لا لبث له فن به يغتر

قال وفى هذه السنة نصرت الاساطيل فى البحر مرارا ونفذ السلطان فى استدعائها استظهارا قال محمد بن القادسى وفى مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين يعنى الذى قتل أمير حاج الشام شمس الدين ابن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ثم قبض عليه وسببه انه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة وأظهر عليه أستاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه (المصلحة مهادنة الفرنج والمجئ الى البلاد فما يقف بين أيديكم احد والبلاد لكم اذا ملكتم العراق وهذا وقتكم ان كان لكم نية وأتاه شدود الوسط فى الخدمه) ثم ذكر ابن القادسى ان ذلك مستبعد فى حق طاشتكين وزور وبهتان ونسب ذلك الى افتعال ابن يونس عليه وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لامير المؤمنين وله اقطاع بمائة ألف دينار قال وفيها فى ربيع الآخر توفى أبو المرهف نصر بن منصور النميرى الشاعر الاديب الزاهد سمع قاضى البيمارستان وروى عن ابن نبهان وكان قد ربى بالشام وخالط أهل الادب واضر بالجدرى وله أربع عشرة سنة وكان يبصر الاشياء القريبة منه ولا يحتاج الى قائد اذا مشى ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك فاشتغل بالقرآن وحفظه وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فاملى

أحب عليا والبتول وولدها * ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وابرأ ممن نال عثمان بالاذى * كما أتبرا من ولاء ابن ملجم
ويعجبنى أهل الحديث لصدقهم * فلست الى قوم سواهم بمنتم

وله أيضا فى غير ذلك

وزهدنى فى جميع الانا * م قلة انصاف من تصحب
هم الناس مالم تجربهم * وطلس الذئاب اذا جربوا
وليتك تسلم عند البعا * د منهم فكيف اذا تقرب

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين) قال العماد والسلطان مقيم بدمشق فى داره وممالك الآفاق فى انتظاره والانام مشرقة بمطالع أنواره ورسل الامصار مجتمعون على بابه منتظرون لجوابه والضيوف فى فيوض انعامه غانمون والفقراء فى رياض صدقته راتعون ويجلس فى كل يوم وليلة لاسداء الجود وابداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وبرز الى الصيد شرقى دمشق بزاد خمسة عشر يوما واستصحب معه أخاه وأبعد فى البريه وظهر عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقيه وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادى عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامى فخرج للتلقى وسعادته فى الترقى ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته من الحج ماتمناه وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين

ورواتبها وادراراتها وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام قال القاضي ابن شدّاد وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم وكان الوصول الى دمشق ثاني عشر صفر وكان الافضل حاضرا في الايوان الشمالي وفي خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل ان يدخل اليه أحد فدخلت عليه رحمه الله فقام ولقيني ملقى ما رأيت أشدّ من بشره فيه ولقد ضمني اليه ودمعت عينه وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت فسألني عمن في الايوان فأخبرته ان الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر وهو في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل رسل الفرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل الفرنج الى ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثير الميل اليه يسمى الامير أبا بكر وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال لي أكلت اليوم شيئاً وكانت عادته رحمه الله هذه المباسطة ثم قال أحضروا ما تيسر فاحضروا أرزا بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة فاكل رحمه الله وكنت أظن ان ما عنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر الى الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذي عندك من خبر الحاج فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الرحل لدخلوا اليوم ولكنهم في غد يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فانها كانت سنة كثيرة الانداء والامطار وقد سالت المياه في الطرق كالانهار وانفصلت عن خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كزاغندة وما كان له عادة يركب بدونه وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد فاذكرته ذلك فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد واوقع الله في قلبي تطيرا بذلك ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيبع حتى أتى القلعة فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركباته رحمه الله

﴿فصل﴾ في مرض السلطان ووفاته أحله الله بحبوحة جناته قال القاضي لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث الى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدّم الينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك فانصرف ودخلت الى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام وولده الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة للجلوس استيحاشا وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد في طرفي النهار وأدخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من امارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ورأى الاطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتدّ مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى الى غاية الضعف ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره الى مخدّة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدّة حره فغير وعرض عليه ثانيا فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله الا يمكن أحدا تعديل الماء فخرجت أنا والقاضي من عنده وقد اشتدّ منا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي انظر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو ان هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من احضره واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا وتغيب ذهنه ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشي الناس من الكآبة ما لا يمكن حكايته ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقا

دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا تعرفنا أحواله وانصرفنا وكانجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيوتنا حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقنة راحة وحصل بعض الخفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا وفرح الناس فرحا شديدا افاقتنا على العادة الى ان مضى من الليل هزيع ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد فدخل ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول ان العرق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله على ذلك وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم أصبحنا فاخبرنا ان العرق أفرط حتى نفذ فى الفرش وأثرت به الارض وان اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما وخارت القوة واستشعر الاطباء ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع فى تحليف الناس وجلس فى دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله من بعد وفاته واعتذر الى الناس بان المرض قد اشتد وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا الا احتياطا على جارى عادة الملوك ثم سمى القاضى ممن حلف له جاعة منهم سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه وناصر الدين صاحب صهيون وسابق الدين صاحب شيزر وخشترين الهكارى ونوشروان الزرزارى وعلكان ومنكلان ثم مد الخوان وأكلوا ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف وأحضر ميمون القصرى وشمس الدين سنقر الكبير وأسامة وسنقر المشطوب والبكى الفارس وأيبك الافطس وأخو الامير سياروخ وحسام الدين بشارة وبعضهم اشترط فى يمينه وبعضهم لم يشترط ولم يحضر أحدا من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهى ليلة الثانى عشر من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع فى أوائل الامر من أوائل الليل وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة وابن الزكى ولم تكن عادته الحضور فى ذلك الوقت وعرض علينا الملك الافضل ان نبيت عنده فلم ير الفاضل ذلك رأيا فان الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لا ننزل فيقع الصوت فى البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى ان احتضر بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره بالشهادة وذكر الله تعالى ففعل ذلك فنزلنا وكل منا يود لو فداه بنفسه وبات فى تلك الله على حال المنتقلين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا فى بعض الاحيان وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول صحيح وهذه يقظة فى وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائه وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته ووصلت أنا وقد مات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرامته ولقد حكى لى انه لما بلغ الشيخ ابو جعفر الى قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها الى ربه وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى انه لو قبل الفداء لفدى بالنفس ثم جلس ولده الافضل للعزاء فى الايوان الشمالى وحفظ باب القلعة الا عن خواص من الامراء والمعممين وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن ان ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن ان ينشد فيه شاعر او يتكلم فيه قصاص أو واعظ فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك الى بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكنا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى فى ثمن التبن الذى يلت به الطين وغسله الدولعى الفقيه وندبت الى الوقوف على غسله فلم يكن لى قوة تحمل ذلك المنظر واخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا وغشى الناس من البكاء والعويل

ماشغلهم عن الصلاة وصلى عليه الناس ارسالا وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ثم أعيد رحمة الله عليه الى الدار التي في البستان الذي كان متمرضا بها ودفن في الصفة الغربية منها وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر ثم نزل في اثناء النهار ولده الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما يوجد قلب الا حزينا ولا عين الا باكية الا من شاء الله ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد منا أحد في تلك الليلة الا انا حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن واشتغل ذلك اليوم الملك الافضل بكتب الكتب الى اخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه وقال العماد جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدّثنا ونحن نحدّثه ثم صلى به وبنا امامه وكان قيامه وانفصلنا باحسانه مغتبطين وبامتنانه مرتبطين وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد أغلق باغلاق بابه رهنه ولم نشعر بما قضاه القدر واجنه وخرج من خدمه من أخبر بسقمه ودخول الخوف الى حرمه وأمر الملك الافضل بأن يجلس في الايوان لبسط الخوان فجلس في مكان والده متربعا وكان من شرط الادب أن يخلي له موضعا فتطيرنا من تلك الحاله وتكرهنا منها سوء الدلاله فتلاعبت فيه العيون وتراجعت الظنون ودخلنا اليه ليلة الاحد للعياده ومرضه في الزياده وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء في سحر يوم الاربعاء ونابت الظلماء عن الضياء ودخل قره ليلة السابع والعشرين في السرار ودجت مطالع الانوار ومات بموته رجاء الرجال وأظلم بغروب شمسه فضاء الافضال وغاضت الايادي وفاضت الاعادي ودفن بقلعة دمشق في مسكنه ودفن بجماع الكرم والفضل والدين بمدفنه ثم بنى الملك الافضل قبة شمالي الجامع في جواره بشباك الى الجامع لزوّاره ونقله اليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين واسترجعنا وقلنا مالنا الا أن نستعيذ بالله ونستعين قال ومما قلت رباعية في المرثيه

قال الملك الناصر من كلفني ❊ في الجود بغير شيمتي ما أنصفني
مايعلم ان ذلك الملك فني ❊ لم يبق من الجود الا كفني

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ومازال الافضل يتروّى في موضع ينقله اليه واستشار في ذلك فأشير عليه في سنة تسعين بان يبني تربته عند مسجد القدم ويبني عندها مدرسة للشافعيه وقالوا اذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول الى دمشق لاجلها وقالوا ان السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد اوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا ويكون قبره على النهج السائل وطريق القوافل ليدعو له الوارد والصادر والبادي والحاضر وتجوز عليه في الغزوات العساكر قالوا وان تنأت هذه الارض عن مكان الوصية فهي منه قريبه فأمر الافضل ببناء التربة عند مسجد القدم وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار وهم قد شرعوا في عمارتها فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء ثم استقر الافضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها فوقف لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حد المكان الذي زاده الاجل الفاضل في المسجد فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الافضل بين يدي تابوته وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته فقال الافضل كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته وحمله مماليكه وخدمه وأولياؤه وحشمه وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث الى باب البريد وأدخل منه الى الجامع ووضع قدّام باب النسر وصلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن القرشي باذن الافضل ثم حمل منه على الرؤس الى بطن ملحده ثم جاء الافضل وحده ودخل لحده وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه و جلس هنالك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالا كثيره قال محمد بن القادسي وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الاوّل شاعت الاخبار يعني ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب وذكر انه دفن

معه سيفه الذى كان معه فى الجهاد وكان ذلك برأى الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه الى الجنة وان الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل وخطيب دمشق قلت وحكى له انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى جماعة من الصحابة رضى الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله وانهم لما صاروا عند الشباك سجدوا ووجدت فى بعض الكتب الفاضلية (ان رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الاثر النبوى (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) قال وما كان يوسفنا رحمة الله عليه فى الدنيا بالاضافة الى ما صار اليه فى الآخرة الا فى سجن رضى الله عن تلك الروح وفتح له باب الجنه فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح) ومن كلام غيره فى وفاة السلطان رحمه الله تعالى (أفلت الشمس عند الصباح وذهبت روح الدنيا الذى ذهب بذهابها كثير من الارواح وتلك ساعة ظلت لها الالباب حائره وتمثلت فيها السماء مائره والجبال سائره وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد وخفت الارض من جبلها الذى كان يمنعها ان تميد وأصبح الاسلام وقد فقد ناصره ثاكلا لوحيد فهو أعظم فاقد لاعظم فقيد وليس أحد من الناس الا وقد صم عن الخبر وأصيب فى سواد القلب والبصر) قال (وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر) وختم العماد كتابه البرق الشامى بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها فى ديوانه مائتان واثنان وثلاثون بيتا أولها

شمل الهدى والملك عم شتاته ❊ والدهر ساء واقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية ❊ مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا ❊ مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى ❊ لله خالصة صفت نياته
أين الذى مازال سلطانا لنا ❊ يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله ❊ وسمت على الفضلاء تشريفاته
اين الذى عنت الفرنج لبأسه ❊ ذلا ومنها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه ❊ أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم ❊ أجدت لطب الدهر تدبيراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت ❊ بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته ❊ حتى توارت بالصفاح قناته
لذ المتاعب فى الجهاد ولم تكن ❊ مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة ❊ روحاته ميمونة ضحواته
فى نصرة الاسلام يسهر دائما ❊ ليطول فى روض الجنان سناته
لاتحسبوه مات شخص واحد ❊ فممات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا ❊ أبدا اذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ❊ لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما ❊ أودى الى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبى المظفر يوسف ❊ أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه ❊ أركاننا وتهدمت هداته
ما كنت أعلم ان طودا شامخا ❊ يهوى ولاتهوى بنا مهواته
ما كنت أعلم ان بحرا طاميا ❊ فينا يطم وتنتهى زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ❊ محفوفة بوفوده حفاته
من لليتامى والارامل راحم ❊ متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان فى عصر النبى لانزلت ❊ فى ذكره من ذكره آياته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما ❊ رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فان يغب ❊ تحضر لرحمة ربه سقياته
وكعادة البيت المقدس يحزن الـــبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه ❊ من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل أذ خلت ❊ من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه ❊ اذ ليس يشفى بعده صدياته
ياوحشتا للبيض فى اغمادها ❊ لا تنتضيها للوغى عزماته
ياوحشة الاسلام يوم تمكنت ❊ فى كل قلب مؤمن روعاته
ياحسرتا من يأس راحته الذى ❊ يقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فانه ❊ أسد وان بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ❊ فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به ❊ يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره ❊ والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة ❊ فى مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه ❊ لهم فقيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه ❊ واليوم هم حول السرير مشاته
وممالك الآفاق ساعية له ❊ فمتى تجئ بفتحهن سعاته
هذى مناشير الممالك تقتضى ❊ توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك فى الربيع بجمعها ❊ هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند فى الديوان جدد عرضه ❊ واذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة اليك عيونه ❊ عجل فقد طمحت اليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه ❊ حتى تفئ الى هداك بغاته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا ❊ فى ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بأسداء الجميل كأنما ❊ فرضت عليه كالصلاة صلاته
هل للملوك مضاؤه فى موقف ❊ شدت على أعدائه شداته
واذا الملوك سعوا وقصر سعيهم ❊ رجحت وقد نجحت به مسعاته
كم جاءه التوفيق فى وقعاته ❊ من كان بالتوفيق توقيعاته

قال ووجد بخط العماد فى حاشية ديوانه كانت علامته (الحمد لله وبه توفيقى)

ياراعيا للدين حين تمكنت ❊ منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا ❊ دينا تولى مذ رحلت ولاته
أضجرت منا أم أنفت فلم نكن ❊ ممن تصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الارض يامن لم يزل ❊ فوق السماء عليه درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ❊ ووصلت ملكا باقيا راحاته
اعزز على عينى برؤية بهجة الــدنيا ووجهك لا ترى بهجاته
ابنى صلاح الدين ان اباكم ❊ ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتدوا الا بسنة فضله ❊ لتطيب فى مهد النعيم سناته
وردوا موارد عدله وسماحه ❊ لترد عن نهج الشمات شماته

ولئن

ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا * يبنيه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعزعزيزه * وظهور ظاهره لنا سرواته
الافضل الملك الذى ظهرت على الـ * ـدنيا بزهر جلاله جلواته
والدين بالملك العزيز عماده * عثمان حاليـة لنا حالاته
والملك غازى الظاهر العالى الذى * صحت لاظهار العلى معزاته
ولنا بسيف الدين أظهر نصرة * بالعادل الملك المطهر ذاته

والعماد فيه من قصيدة أخرى

من للعلا من للذرى من للهدى * يحميه من للبأس من للنائل
طلب البقاء لملكه فى آجل * اذ لم يثق ببقاء ملك العاجل
بحر أعاد البر بحر ابره * وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق فى أيامه * وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من ابكارها * أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقى بغيرك وابلا * ورأيت جودك مخجلا للوابل
فسقاك رضوان الاله لاننى * لا أرتضى سقيا الغمام الهاطل

﴿فصل﴾ فى تركة السلطان ووصف اخلاقه رحمه الله ذكر القاضى ابن شداد انه لما مات لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية ودينارا واحدا ذهبا صوريا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة يعنى فى البلد ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك وقال العماد فى كتاب الفتح خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة وأبقى له مآثر أثيره ومحاسن كثيره ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما فانه كان باخراج ما يدخل من الاموال فى المكرمات والغرامات مغرما وما كان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول واذا عرف بوصول حمل وقع عليه باضعافه وخص الآحاد من ذوى الغنا فى الجهاد بآلافه ولا جبه أحدا بالرد اذا سأله بل تلطف له كأنه استمهله فانه يقول ما عندنا شئ الساعة ومفهومه انه يعطى وان كان يبطى وانه يصيبه بالنوال ولا يخطى وكان مشغوفا فى سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه فى الاعداء بادناء الآجال وفى الاولياء باجراء الارزاق وما عقر فى سبيل الله فرس أوجرح الا وعوض مالكه مثله وزاده من فضله فضله وحسب ما وهبه من الخيل العراب والاكاديش الجياد للحاضرين معه فى صف الجهاد مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا فى رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش وذلك غير ما أطلقه من المال فى اثمان الخيل المصابة فى القتال ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أوموعود به وصاحبه ملازم فى طلبه وما حضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه واستعاده فكلهم يركب خيله ويطلب خيره وهو يستعير جوادا ويستعر فى الجهاد اجتهادا قال فى البرق وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت اليه عراب فقيل له كان السلطان يضيع هذه وما عنده لها حساب ونسبوا اجوده بها الى السرف وعدوه من معايبه واعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كائبه قال فى الفتح لا يلبس الا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه كالكتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها فى اسداء المعروف وكانت محاضره مصونة من الحظر وخلواته مقدسة بالطهر ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط ويغلظ على الكافرين الفاجرين ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ويكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعيه والاسباب المرضية والادلة المرعيه وكان من جالسه لا يعلم انه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان وكان

حليما مقيلا للعثرات متجاوزا عن الهفوات تقيا نقيا وفيا صفيا يغضي ولا يغضب ويبشر ولا يتقطب ما ردّ سائلا ولا صدّ نائلا ولا أخجل قائلا ولا خيب آملا قال ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته الامير أيوب بن كنان فلما وصل سأله عن سبب تخلفه فذكر دينا فاحضر غرماه وتقبل بالدين وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا قال ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب وربما وصل الى الباب فتحيل وتحمل وكذب فجاء من أخبر السلطان ان الرجل بالباب فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فاجهد ان لا تقع في عينه فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل الى حينه بقدمه قال ومما أذكره له في أول سفرتي معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين انه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه فما طلبها ولا ذكرها وأراه انه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما أنكرها وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفوا عفوا وتحصل حلوا وكله يخرج في الجود والجهاد ثم لم يرض له بالعطلة فولاه ديوان جيشه قال ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بن القابض بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت انما الذهب الذي عنده مصري فقال فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية وأشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما ويرتكب في كسب الاجر آثاما فسمح ومنح وتاجر الله وربح ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على اقدارهم وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار فاعلمته وقلت انقص من كل اسم ربعا فقال اجر ما جرى به القلم قال وكان رحمه الله اذا أطلق لعاف عارفه وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفه قال وكان يغضب للكبائر ولا يغضي عن الصغائر ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد ويسدد الامر ويأمر بالسداد فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده اعف من الزهاد والعباد قال ورأى لي يوما دواة محلاة بالفضة فأنكرها فقلت له ان الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها ثم لم أكتب بها عنده بعدها وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها مواظبا على اداء مفروضاتها ومسنوناتها فما رأيته صلى الا في جماعه ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعه وكان له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم وكان يأخذ بالشرع ويعطي به ولم يكن الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا ولا يتعيف ولا يتطير ولا يتعين ولا يتخير بل اذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع ومازال ناصرا للتوحيد وقامعا جمع أهل البدع بالتبديد شافعي المذهب أصولا وفروعا معتقلا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه ويقصي أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستزادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون في عدله والعالمون في فضله والبلاد في امنه والعباد في منه

﴿فصل﴾ قال القاضي ابن شداد كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت وكان والده أيوب بن شادي واليا بها وكان كريما أريحيا حليما حسن الاخلاق مولده بدوين ثم اتفق له الانتقال من تكريت الى الموصل وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها الى أن ترعرع وكان والده محترما مقدما وهو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي واتفق لوالده الانتقال الى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدة ومعه ولده المذكور فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن اخلاقه حتى بدت منه امارات السعاده ولاحت عليه لوائح التقدم والسياده وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ولم يزل كلما تقدم قدما يبد ومنه أسباب تقتضي تقديمه الى ما هو أعلى منه حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة الى مصر والنهوض اليها وقد مضى ذلك ثم قال ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينيه وملاحظته للامور الشرعيه مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام فكان رحمه الله حسن

العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ويتفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وان لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل جارية على نمط الاستقامة وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابورى رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه فى هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى اذهانهم من الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم عليه وأما الصلاة فانه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى انه ذكر رحمه الله ان له سنين ما صلى الا جماعة وكان اذا مرض يستدعى الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة وكان يواظب على السنن الرواتب وكان له ركعات يصليها ان استيقظ بوقت من الليل والا أتى بها قبل صلاة الصبح وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه ولقد رأيته يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائما وما ترك الصلاة الا فى الايام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى وأما الزكاة فانه مات رضى الله عنه ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الاموال وأما صوم رمضان فانه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعدده وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام وشرع رحمه الله فى قضاء فوائت ذلك فى القدس الشريف فى السنة التى توفى فيها وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فانه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الامراض وملازمة الجهاد عن قضائها وكان الصوم لا يوافق مزاجه فالهمه الله الصوم لقضاء الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الايام التى يصومها فان القاضى كان غائبا والطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول ما أعلم ما يكون فكأنه كان ملهما براءة ذمته ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله وأما الحج فانه لم يزل عازما عليه وناويا له لا سيما فى العام الذى توفى فيه فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملت الزوادة ولم يبق الا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله فأخره الى العام المستقبل فقضى الله ما قضى قال وهذا شئ اشترك فى العلم به الخاص والعام وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى انه كان يتخير امامه ويشترط عليه أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان يستقرى من يحضره فى الليل وهو فى برجه الجزءين والثلاثة والاربعة وهو يسمع وكان يستقرى فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة اذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته وكان شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالا له وان كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور فى مجالسهم سعى اليه وسمع عليه تردد الى الحافظ السلفى بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه فكان يستحضرنى فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأ هو فاذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلا ببعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسىء بالنار مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع منشرحا بذلك صدره مبغضا للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهروردى قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة اليه ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه فحكى التجاءه الى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس وامتناع أصحابه من دخوله للحصر فصلى ودعا فكفى ذلك وقد تقدم ذكره ثم قال وكان رحمه الله عادلا رؤفا رحيما ناصرا للضعيف على القوى وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام بحضرة الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرا

وحضرا على أنه كان فى جميع زمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص كاشفا لما ينهى اليه من المظالم وكان يجمع القصص فى كل يوم ثم يجلس مع الكاتب ساعة فى الليل أو فى النهار و يوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع ظلامته وأخذ قصته وكشف قضيته ولقد رأيته وقد استغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه وأنفذ اليه ليحضره فى مجلس الحكم فما خلصه الا ان اشهد عليه شاهدين انه وكل القاضى أمين الدين أبا القاسم قاضى حماه فى المخاصمة فأقاما الشهادة عندى فى مجلسه فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه وكان من خواص جلساء السلطان ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقى الدين وكان تقى الدين من أعز الناس عليه واعظمهم عنده ولم يحابه فى الحق قال وكنت يوما فى مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى ومعه كتاب حكمى صار فتحه وقال خصمى السلطان وهذا بساط الشرع وقد سمعنا انك لا تحابى فقلت وفى أى قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه فقلت ياشيخ وما الذى أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخير وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش فى اليوم الفلانى من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتمم الشرط الى آخره فتعجبت من هذه القصة وأعلمت السلطان بذلك فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدى وكنت الى جانبه ثم انفرك من طراحته حتى ساواه رحمه الله تعالى ثم ادعى الرجل وفتح كتابه وقرئ تاريخه فقال السلطان ان لى من يشهد ان سنقر هذا كان فى ملكى وفى يدى بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدى وملكى الى ان أعتقته ثم استحضر جماعة من اعيان الامراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كما ذكرها وذكروا التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى وما يحسن أن يرجع خائب القصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قال فانظر الى ما فى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه قال وكرمه كان أظهر من أن يسطر كان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه اياها ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن فى الخزانة ما نعطيهم فباع قرية من بيت المال وخصصنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد وكان يعطى فى وقت الضائقة كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذر ان يفجأهم مهم لعلمهم انه متى علم به أخرجه وسمعته يوما يقول يمكن فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب وما سمعته يقول أعطينا الفلان وكان يعطى الكثير و يبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعطه شيئا وكان الناس يستزيدونه فى كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارا فكم أزيد وأكثر الرسائل فى ذلك كان يكون على لسانى و يدى وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه لعلمى بعدم مؤاخذته بذلك وما خدمه قط أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وأما تعدد عطاياه فقال حضرنا عنده دماوهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر اللهم انك ألهمته الكرم وأنت أكرم الأكرمين فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين قال وكان رحمه الله من عظماء الشجعان قوى النفس شديد الباس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته مرابطا فى مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ونجدهم تتواصل وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد الا قوة نفس وصبرا ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس وهو لا يزداد الا قوة نفس ولقد كان يعطى دستورا فى أوائل الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة ولقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجمان عنه انه يقول كنت أنا وصاحب

صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور فلما أشرفنا عليه تجاوزناه فحزره هو بخمسمائة ألف وحزرته أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك فقلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا يعلم ومارجع من هذا العالم الا الاقل قال وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ كل يوم مرة أو مرتين اذا كنا قريبا منهم وكان اذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها وكان يشارف العدوّ ويجاوره ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك انى قلت له قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ومانقل انه سمع بين الصفين فان رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا فأذن فى ذلك فاحضر جزء اهناك من له به سماع فقرئ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشى تارة ويقف أخرى ومارأيته استكثر العدوّ أصلا ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير يذكر بين يديه الاقسام كلها ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه ولقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكوس والعلم وهو ثابت القدم فى نفر يسير وقد انحاز الى الجبل يجمع الناس ويردّهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدوّ فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ولم يزل مصابرا لهم وهم فى العدّة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة فى الصلح وكان رحمه الله يمرض ويصح ويعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ونتراءى النا ران ويسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الاذان الى ان قضى الامر قال وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف انه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الافى الجهاد وفى الارفاد لصدق وبرّ فى يمينه ولقد كان الجهاد وحبه فى الشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا فى آلته ولا اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحة على مرج عكا فلولم يكن فى البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما قلت وشواهد ماذكر القاضى من ذلك كثيرة وقد سبقت مفرّقة فى رقعته رحمه الله منها ما قاساه على حصار كوكب من الامطار والاوحال وقال الرشيد بن النابلسى من قصيدة له

ما أبهج الدين والدنيا بمالكها الصـــديق يوسف لا لاذت به الغير
ملك تساوى جمادى فى الجهاد وتمـــوز لديه وضاهى ناجرا صفـر
فليس يثنيه حران توقد عن * رضى الاله ولا ان اغدق المطر
ولا ينهنهـــه عما يكابده * ضجّ أعيذ معاليه ولا ضجر
ولا يرى الروح الا ظهر سلهبة * فى بطن معركة مركوبها وعر
صبر جميل كطعم الشهد فى فمه * وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضى وكان الرجل اذا أراد أن يتقرّب اليه يحثه على الجهاد أويذكر شيئا من أخبار الجهاد ولقد ألف له كتب عدّة فى الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه ادابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى فيه وشرحت غريبها وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الافضل قال ولاحكين عنه ما سمعت منه فى ذلك وذلك انه كان قد أخذ كوكب فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر فى العود الى مصر وكان مقدمه أخاه العادل فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس ففعل ووقع له انه يمضى معهم الى عسقلان ويودعهم ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية الى عكا ويرتب أحوالها فاشاروا عليه ان لا يفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقى فى عدّة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت وودّع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا على الساحل طالبى عكا وكان الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا هيجانا

عظيما وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندى حتى خيل لى انني لو قال لى قادر لو جزت فى البحر ميلا واحدا املكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخففت رأى من يركب البحر رجاء كسب دينار او درهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه فبينا انا فى ذلك اذ التفت الى وقال فى نفسه انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم اتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى وقلت له ليس فى الارض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى نية منه فى نصرة دين الله وحكيت له ما خطر لى ثم قلت ما هذه الانية جميلة ولكن المولى يسير فى البحر العساكر وهو سور الاسلام ولا ينبغى ان يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتات فقلت الموت فى سبيل الله فقال غاية ما فى الباب ان أموت أشرف الميتات قال فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها والى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها اللهم انك تعلم انه بذل جهده فى نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه قال وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وانما يكون متكئا على جانبه اذا كان فى الخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر ان يفرق على الناس وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول رحمه الله اذا ركبت يزول عنى المها حتى أنزل وهذه عناية ربانية ولقد مرض ونحن على الخروبة وكان قد تأخر عن تل الجل بسبب مرضه فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا فى ان ينالوا من المسلمين شيأ بسبب مرضه وهى نوبة النهر فخرجوا فى مرحلة الى الآبار التى تحت التل ثم رحل العدو فى اليوم الثانى يطلبنا فركب رحمه الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده فى القلب ونزل هو وراء القوم يطلبه وكلما سار الى العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير الى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو على تل قبالتهم مطل عليهم الى ان دخل الليل ثم أمر العساكر ان تعود الى محل المصابرة وان يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو الى قة الجبل وضربت له خيمة لطيفة وبت تلك الليلة أجمع انا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب رحمه الله وركبت العساكر وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا الى خيمه من الجانب الغربى للنهر وضايقه المسلمون مضايقة شديده وفى ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا الافضل والظاهر والظافر وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبيارق لا غير فيظن الرائى لها عن بعد ان تحتها خلقا كثيرا وليس تحتها الا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله وبقى فى موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم ان يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وبتنا على ما بتنا عليه الى الصباح وعاد العسكر الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو قال ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقال لا ننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل فى خدمته فى ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بانه نصب من المنجنيق الفلانى كذا ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها وكانت من أطول الليالى وأشدها بردا ومطرا قال ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحدا ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شئ من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله قال ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقى الدين ونحن فى مقابلة الفرنج جريدة على الرملة وفى كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام ويقف الناس على ظهر الى الصباح والعدو نيازور بيننا وبينه شوط فرس لا غير فاحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين وأمر بالناس فابعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكا بكاء شديدا حتى أبكانا من غير ان نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفى تقى الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت الى نفسى

فقلت أستغفروا الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم واعرضوا عما سواه فقال رحمه الله ثم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم هذا أحد قال وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف باولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا بالله تعالى اللهم انه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه قال ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته انه يركب فى وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلى ويجلس خلوة وأنا فى خدمته يقرأ شيأ من الحديث أوشيأ من الفقه ولقد قرأ على كتابا مختصرا لسليم الرازى يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه فنزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الى الجلوس وقال نصلى وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان الا من لزم فتقدم اليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجر أخرها ساعة فلم يفعل وقدمها الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها فوقف على الاسم المكتوب فى رأسها فعرفه وقال رجل مستحق فقال يوقع له المولى فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا فى باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول اليها والدواة فى صدر الخركاه الخركاة كبيره فقال له المخاطب هاهى الدواة فى صدر الخركاه قال القاضى فليس لهذا معنى الا أمره ايانا باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله صدق ثم استند على يده اليسرى ومد يده اليمنى وأحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالى فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم وما أرى المولى الا قد شاركه فى هذا الخلق فقال ما ضرنا شئ قضينا حاجته وحصل الثواب قال القاضى ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد ومن الذى يقدر ان يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين قال ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك ولقد نفرت يوما بغلتى من الجمال وأنا راكب فى خدمته فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم ولقد دخلت بين يديه فى يوم ريح مطير الى القدس كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركنى ولقد كان يسمع من المستغيثين اليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن ان يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول ثم قال القاضى وهذه حكاية يندر ان يسطر مثلها فذكر ما تقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيرة وهو فى جمع يسير من أصحابه بعد ان اطافوا بهم وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن فرجع السلطان مغضبا وظن انه ربما صاب وقتل فى ذلك اليوم فنزل بيازور وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الامراء ليأكلوا فحضروا وقرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامن والسرور قال وكان رحمه الله كثير المروءة ندى الوجه كثير الحياء منبسط لمن يرد عليه من الضيوف يكرم الوافد عليه وان كان كافرا ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح فى شوال عند منصرفه من القدس الى دمشق وقد تقدم ذلك وعرض له فى الطريق وطلب منه شيأ فأعطاه العمق وهى بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين ولقد رأيته وقد دخل اليه صاحب صيدا فاحترمه وأكرمه وأكل معه وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الاقدار وكان يوصينا ان لا نغفل عن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من احسانه وقدم بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوى الاقدار وكان أبوه صاحب توريز فاعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان فيه وقع له زيارته فوصل الينا الى العسكر فلقيته ورحبت به وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير وانصرف وبات عندى فى الخيمة فلما صلينا الصبح أخذ يودعنى فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قضيت حاجتى منه ولا غرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فاخبرته بفعله فظهر عليه آثار العتب كيف لم

تخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا وشدّد النكير على في ذلك فما وجدت بدا من ان كتبت كتابا الى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وايصال رقعة كتبتها اليه طى كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان فرحب به وانبسط معه واستوحش له وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها الى أهل بيته وأتباعه وجيرانه ونفقة يرتفق بها وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لايامه قال ولقد رأيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي وقد هابه بحيث ظهر عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان من أى شئ تخاف فاجرى الله على لسانه ان قال كنت أخاف قبل ان أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فمنّ عليه وأطلقه ورق له قال وكنت راكبا في خدمته في بعض الايام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التحرق كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فذكر قصة أم الرضيع الذى سرق وقد مضت قال وكان رحمه الله لا يرى الاساءة الى من صحبه وان أفرط في الجناية ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصرى بكيسين من الفلوس فما عمل بالنوّاب شيأ سوى انه صرفهم من عملهم لا غير وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظا لانساب العرب ووقايعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم حافظا لانساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كنا نستفيد محاضرة منه ما لا نسمعه من غيره وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب ان يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط وطاهر القلم فما كتب بقلمه الذل لمسلم قط وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ان كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه اليه والا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته وسلمه الى من يكفله ويعتني بتربيته وكان ما يرى شيخا الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الى ان توفاه الله عز وجل الى مقر رحمته ومحل رضوانه قلت ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا ❊ ومدّ يدا منه الى دافع الخطب
الى الناصر الملك الذى ملئت به ❊ قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن ❊ لينزله الا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل ❊ لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى ❊ وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله ❊ فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولوانه يبكى على قدر حقه ❊ اسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الاسلام خيرا الهه ❊ فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال فقد غدا ❊ وكان شديد الخوف في أمنع الحجب
وأصبح للبيت المقدس منقذا ❊ باصلب عزم من مقارنة الصلب
أذل له الله العدا مذ أطاعه ❊ وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره ❊ يمتع منه بالجوار وبالقرب

❊(فصل)❊ في انقسام ممالكه بين أولاده واخوته وبعض ما جرى بعد وفاته قال العماد في كتاب البرق خلف السلطان سبعة عشر ولدا أكبرهم الملك الافضل نور الدين أبو الحسن على ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائه وتولى بعده دمشق الى ان خرج منها الى صرخد وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة الى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ومولده

بمصر

بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين وتوفى بها فى ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين وتولى بعده أحد أولاده الصغار ثم الملك الظاهر غياث الدين غازى ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين وتولى حلب واعمالها قال ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان الى آخر سنة اثنتين وتسعين وقال فى كتاب الفتح تولى الملك الافضل دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد وهو الذى حضر وفاة والده وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بابيه فى ايلاء الالاء وادناء الاولياء وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته وضم جماعته وجهز أخاه الظافر خضر امظفر الدين وأنهضه لانجاد عمه العادل كما سنذكره وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجرى معها فى المملكة الافضلية داخلة وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق فتأكدت بينهم القرابة والالفة ولما استقر الافضل بدمشق فى مقام والده قدم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال ثم ندب ضياء الدين ابن الشهرزورى فى الرسالة وأصحبه عدة والده فى الغزاة وسيفه ودرعه وحصانه وأضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه فما تهيأ مسير الرسول الا فى أواخر جمادى الآخرة حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله حتى لا يظن انه انفرد برسوله وقصد مداراة اخوته وفضل بفضل نخوته وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمة أمير المؤمنين وولى العهد عدة الدين وقال ابن القادسى وفى يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزورى ما كان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز وهو صليب الصلبوت الذى كان قد أخذه والده وذكر انه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر ومعه خادم مختص بخدمته وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل وتحفا جمة من الثياب وحمل فى جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان وبنت صاحب جبلة قال العماد وأمرنى بانشاء الكتب وتحريرها وتقريب المقاصد وتقريرها منها (أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ولسانه ناطق بشكر النعماء وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء وطرفه مغض من الحياء وهو للارض مقبل وللفرض متقبل وهو يمت بما قدمه وأسلفه من الخدمات وذخر ذخر الاقوات لهذه الاوقات وقد أحاطت العلوم الشريفة بان الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير للشرك المبيد لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته مستقيما على جد الجد مستلما فى صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد ومصر بل الامصار باجتهاده فى الجهاد شاهده والانجاد والاغوار فى نظر عزمه واحده والبيت المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وهو الذى ملك ملوك الشرك وغل أعناقها وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها وقمع عبدة الصلبان وقطع أصلابها وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها ونظم أسبابها وسد الثغور وسدد الامور وقبض وعدله مبسوط وأمره محوط ووزره محطوط وعمله بالصلاح منوط وما خرج من الدنيا الا وهو فى حكم الطاعة الامامية داخل وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها وان مضى الوالد على طاعة امامه فالممالك أولاده وأخواه فى مقامه) قال وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وأبقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها واحيى سنتى الجود والباس وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة وضاعف ما كان يطلق برسم العفاه وقدم أمير بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف فى وجوه ضرورية ثم أمده بالحمل وأفاض عليه من الفضل وقرروا اليه عز الدين جرديك على ولايته وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالانس ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنه فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما فى المكنه ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم وبايعهم وشايعهم وقد خرجوا فى ايمانهم حانثين ولعقد أيمانهم ناكثين فخيم ببركة الجب واستشار أمراءه أهل الرأى والالب وجهز جيشا فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم وهزمهم اعطاف الاستكانة له بعد هزمهم فرأى ان الجد أعود والعود أحمد قال وتولى حلب وأعمالها وحصونها

ومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازى وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازى وملك مملكة أقطارها واسعه وأمصارها شاسعه فحماها وحواها وجاء العدل روّاها وقوّاها وأقر البيرة وأعمالها وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ودخل فى أمره صاحب حماه ابن تقى الدين فأعزه وحماه قلت وهو مأوى ذرّية والده وبقى الملك منهم فى عقبه وانحاز كل من اخوته وأولادهم اليه وعوّلوا فى تمشية أمورهم عليه والامر مستمر على ذلك فى عقبه الى الان والله تعالى ولى الاحسان ثم زال ملك هذا البيت فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد والله بصير بالعباد ومن كلام القاضى الفاضل فى جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان (متى رأى المملوك خط مولانا طالعا فى كتاب وطليعة على خطاب تمثل ذلك الشخص الكريم وذلك السلطان العظيم وذلك الخلق الكريم وذلك العهد القديم فحيى بعد موته وسبح من يحيى العظام وهى رميم ورفع يده بما الله رافعه ودعا بصالح الله سامعه) قال العماد وكان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته وكان موافقه ومرافقه فى مقتضياته فلما عاد السلطان الى دمشق ودّعه ومضى الى حصنه بالكرك فذابه النائب ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام ولم يطل المقام ورحل طالبا البلاد بالجزيره حذرا عليها من أهل الجزيره وكان السلطان جعل له كل ما هو شرقى الفرات من البلاد والولايات فلما وصل الى الفرات وجد مما خافه دلائل الفترات فأقام بقلعة جعبر وسير الى الولايات الولاه ووصى برعاياه الرعاه واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحرّان والرّها وشحنها بالشحن وعلم العدا انه فى خف فخفوا وعرضوا ووصفوا وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان وتلاعب بالملك الناصر وحدّث أمله بجر العساكر وراسل صاحبى الموصل وسنجار وطير اليهم كتب الاستنفار وضم اليه من ماردين ماردين وطار وطاش وارتاش وانتاش فبينما هو فى اثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع وثمانين وأوّل من بدأ أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين ونزل على حصن الموزر وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها وأضافه الى نائبه بالرها ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين زنكى صاحب نصيبين وارسلوا الى العادل تخرج من بلادنا أو تدخل فى مرادنا فكتب الى بنى أخيه يستنجدهم ويستنفرهم فأنجدوه وكان اجناد حلب أقرب وتقدّم ذكر نجدة الافضل مع أخيه الظاهر ونجدة العزيز الواصلة الى دمشق بعد نجاز الامر ووصلت المواصلة الى رأس عين والعادل بحران وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة فعاد ورجع عماد الدين أخوه وتضرع صاحب ماردين وتشفع بالامراء الاكابر فرضى العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر الى الفرات فكتب اليه بمنازلة سروج وهى من أعمال ماردين وأمدّه بابن تقى الدين وابن المقدّم فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها تاسعه ورحل العادل منتصف رجب الى الرّقة وتسلمها ثم تملك بلد الخابور بجميعه وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها وشرع فى ضم ذخائرها فجاءت الرّسل العمادية فى طلب الصلح فرحل ونزل دارا وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده الى ولده نور الدين أرسلان شاه وجرى بينهم وبينه صلح ثم كاتبه أهل خلاط فرحل اليها فرأى ان البرد يشتد وامداد الحصار يمتد فعاد الى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع أمرها قال واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان وهو هناك سلطان عظيم الشان مستول على جميع البلدان وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام فلما استقر الملك الافضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام

(فصل) فى وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق قال عز الدين أبو الحسن على بن الاثير لما وصل خبر وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين استشار فى الذى يفعله فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات بالاسراع فى الحركة وقصد البلاد الجزرية فانه لا مانع لها منه وقال مجاهد الدين قايماز ليس هذا برأى فانا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار ومعز الدين صاحب الجزيرة ومظفر الدين صاحب اربل ونسير انما الرأى اننا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننتظر ما يقولون فقال أخى ان كنتم تفعلون ما يشيرون به ويرونه

فاقعدوا فانهم لا يرون الاهذا لانهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم انما الرأى ان يبرزهذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم انه على الحركة فليس فيهم من يمكنه ان يخالف خوفا من قصده ولا يتسه لا سيما اذا رأوا اجدّه وخلوا البلاد الجزرية من مانع وحام فهم لا يشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته ومتى أراد الانسان ان يفعل فعلا لا يتطرق اليه الاحتمالات بطلت أفعاله انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم وان كان العكس أحجم فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين فسكت أخى لانه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة والحاكم فيهم واتبع المرحوم يعنى صاحب الموصل قول مجاهد الدين وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين فانهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما فالى ان انفصل الحال وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام الى حران وأقام هناك وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب وامتنعت البلاد به وسار عز الدين عن الموصل الى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف واجتمع فيها بأخيه عماد الدين وسار الى عساكرهما الى تل موزن من شبختان لقصد الرها فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح وان تكون البلاد الجزرية الرها وحران والرقه وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين فلم يجبه الى ذلك وقوى المرض به واشتدّ الى أن عجز عن الحركة فعاد الى الموصل فى طائفة يسيرة من العسكر فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديدا فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار الى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال وبقى كذلك الى ان توفى فى السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائه قال ولم أسمع عن احد من الناس يمثل حاله فى مرضه فانه كان لا يزال ذاكرا لله تعالى حتى انه كان اذا تحدّث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله وأشهد ان الموت حق وعذاب القبر حق وسؤال منكر ونكير حق والصراط حق والميزان حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ويقول لمن عنده يخاطبه اشهد لى بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه وأحضر عنده من يقرأ القرآن فلم يزل كذلك الى ان توفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى أنشاها بباطن الموصل مقابل دار المملكة وهى للفريقين الشافعية والحنفية وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية خفيف العارضين وحكى لى والدى قال هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه قال وكان رحمه الله ديّنا خيّرا قد ابتنى فى داره مسجدا يخرج اليه فى الليل ويصلى فيه أورادا كانت له ويلبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائى الصوفى ويصلى فيها وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائى المذكور وكان من الصالحين وأوصى بالملك لابنه نور الدين ارسلان شاه وأراد أخوه شرف الدين بن مودود بن زنكى اذ يوليه فلم يفعل وبقى نور الدين الى سنة سبع وستمائه فتوفى فى شهر رجب منها ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته وولاه امارة الجيوش والعساكر وسياسة القبائل والعشائر ثم توفى الملك القاهر فى ربيع الاول من سنة خمس عشر وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا قال وأما عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صهر نور الدين رحمه الله وهو صاحب سنجار فانه توفى فى المحرم سنة أربع وتسعين وكانت ولايته ثلاثين سنة وكان عدله قد عم البلاد وعمر العباد وأريقت الخمور وحدّ شاربها وكانت صدقاته تصل الى أقاصى البلاد وتولى بعده ولده الاكبر قطب الدين محمد بن زنكى وكان متولى أمره مجاهد الدين برتقش العمادى قال وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين فى سنة خمس وتسعين فبقى محاصرا لها احد عشر شهرا ولم يبق الا الاسلام عليها فبينما العادل يحاصرها اذ توفى ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين فلما توفى ملك أخوه الافضل مصر وكان بينه وبين عمه العادل نفرة فلما ملك مصر أرسل الى العسكر المصرى الذى مع عمه يأمرهم بمفارقته ففارقوه وعادوا الى مصر فقل جمعه وعسكره ثم خرج الافضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه فسار العادل عن ماردين جريدة الى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه الى قلعة ماردين وترك ولده الملك الكامل محمدا محاصرا لها الى ان اجتمع

صاحب سنجار وصاحب الموصل على ترحيله عنها فرحل قال وفى سنة ست وستمائة سار الملك العادل ابن أيوب من الشام الى سنجار فى العساكر الشامية والمصريه والجزرية والديار بكريه فحصرها ونزل عليها من كل جانب ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر وانتخى صاحب الموصل وصاحب أربل لصاحب سنجار وأنفذ الخليفة رسله فاصلح الامر وانتظم الصلح ولله الحمد

﴿فصل﴾ وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى التى أشار اليها فى آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان الى سنة اثنتين وتسعين فقد وقفت عليها وحاصل ما فيها ان قال لما توفى السلطان رحمه الله وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه ويكرمهم والافضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرب الاجانب ويبعد الاقارب وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزرى الذى استوزره قلت هو الضياء ابن الاثير اخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغورى

متى أرى وزيركم وماله من وزر ❊ يقلعه الله فذا أوان قلع الجزر

قال العماد فلما طلب من الامراء ان يحلفوا له أظهروا له ايمانا وهم قد أضمروا الحنث فيها ولم يخف ذلك عليه ولما رأى الفاضل أمور الافضل مختلة تركه وسار الى مصر وشرع الوزير الجزرى فى تغريق العصبة الناصريه وما منهم الا من فارق الى الديار المصرية وكان قد أشير على الافضل باخلاء البيت المقدس لنواب العزيز باعمانه حذرا من تكاليفه وأثقاله فاجاب الى ذلك وقد كانت نابلس واعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس وباقيها على ابن الامير على بن أحمد المشطوب فشاركه أحد الامراء الاكراد فيه فمدوا أيديهم الى الوقف وساءت سيرتهم وتخوفوا من انكار الملك العزيز عليهم فلجأوا الى الافضل فأفضل عليهم وسكن اليهم فتأثر الملك العزيز بذلك وأقوى الاسباب فيما حدث من النفار نفار الامراء الناصرية الكبار ومفارقتهم دمشق الى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار فاعزهم العزيز ورفعهم فاتفقوا على ان تكون كلمة الاسلام مجتمعة على الملك العزيز لاحياء سنة والده فى الجود والبأس والكرم ومن جملة الاسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه وضعف الافضل عن استخلاصه فقيل للعزيز ان توانيت استولت الفرنج على البلاد فخرج العزيز بعساكره وبلغ الافضل فضاق صدره واجتمع بمن فى خدمته من الامراء برأس الماء وأراد ان يستعطف قايماز النجمى وكان فى اقطاعه بالسواد وكان بينه وبين الافضل شقاق وعناد فارسل اليه فلم يقبل ورحل الى عسكر العزيز ورأى الافضل ان يكتب الى أخيه بكل ما يجب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه ويكون الافضل من بعض القائمين بين يديه طلبا لتسكين الفتن ورغبة فى ذهاب الاحن فاشير عليه بغير الصواب وقيل أنت الكبير واليك التدبير فجد واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذى داخلك والجبن الذى نازلك ونحن بين يديك وكلنا عاقدون بالخناصر عليك ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الاكابر بالانجاد المتظاهر للافضل وسير الافضل الى عمه العادل وهو بحران والرها كتبا ورسلا فلما أبطأ عليه سير عز الدين عثمان الزنجيلى على نجيب ليسرع ويأتى به عن قريب وكتبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته وذلك فى أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين ولم يشعر الافضل الا والعزيز بعساكره قد وصل الى الفوار فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الافضل فاسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة ونزل على دمشق يوم الاحد فلم يزل الافضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل فكتبا الى العزيز يسأله الاجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة فعذله فى أخيه واستنزله عما كان فيه فقال على رضاك واتباع هواك وقال نفس عن البلد الخناق وكان قد بلى البلد منهم بما لا يطاق من قطع الانهار وقطف الثمار فتأخر العزيز الى صوب داريا والاعوج وكان قد اجتمع عند الافضل من الملوك عمه العادل والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك والمنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان فاتفقوا على عقد يؤكد وعهد يمهد ورحل العزيز الى مرج الصفر لكون المقام به أرفق فمرض حتى أيس منه ثم أفاق وأرسل من جانبه

الامير فخر الدين اياز جركس واعتمد عليه فى هذه النوبة فوصل الى العادل فى تعديل الامور فتقرر بينهم الصلح وتزوّج العزيز ابنة عمه العادل وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز فى أوّل شعبان واحدا بعد واحد فخرج الظاهر أوّلا والتقيا ونزلا ببرج الصفر وبات عنده ليلة ثم رجع وخرج العادل ثم الافضل فلما اجتمع باخيه فارقه وما ثوى ورجع كل الى بلده ولما استقر الافضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان وأقام العادل الى تاسع شهر رمضان ورحل الى بلده الرها وحران ثم ان الافضل نظم أبياتا يكتبها الى أخيه العزيز فى استعطافه واستمالته وقال كنت فارقت اخى مذ تسع سنين وما التقينا الا فى هذه السنه فقلت

نظرتك نظرة من بعد تسع ❊ تقضت بالتفرّق من سنين
وغض الدهر عنا طرف غدر ❊ مسافة قرب عين من جبين
وعاد الى سجيته فاجرى ❊ بفرقتنا العيون من العيون
فويح الدهر لم يسمح بوصل ❊ يعود به الهجوع الى الجفون
فراقا ثم يعقبه ببين ❊ يعيد الى الحشا عدم السكون
ولا يبدى جيوش القرب حتى ❊ يرتب جيش بعد فى الكمين
ولا يدنى محلى منك الا ❊ اذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمح لى باخرى ❊ ولو أمضى بها حكم المنون

قال ثم كثر الشر من حول الافضل فى حق الامراء الكبار ذوى الاقدار فانفوا من ذلك وأزمعوا على الانفصال لسوء تلك الحال فممن سار الى مصر عز الدين سامة وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية وعرفه ان أخاه الافضل مسلوب الاختيار مع من حوله من الاشرار وممن سار الى مصر القاضى محيى الدين محمد بن أبى عصرون وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر واعمالها وذلك سنة احدى وتسعين فاستمرّت ولايته الى ان عاد العزيز من الشام وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء الى زين الدين على بن شرف الدين يوسف الدمشقى وكان نائبا لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس ثم استقل ثم عزل بابن أبى عصرون ثم أعيد اليه وكان الافضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات وتشاغل عن أمور الناس بادمان الشراب مع من حوله من الاصحاب ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ فى الذكر والزهد وأناب وشرع فى كتب مصحف بخطه وحسنت طريقته وظهرت حقيقته وذلك فى أوائل سنة احدى وتسعين وفى هذه السنة فى ربيع الآخر وصل الخبر بان العزيز قادم بحصر دمشق مرة ثانية فاشتدّ غم الافضل فاشير عليه بان يرحل الى عمه العادل ويأتى به لدفع هذا القضاء النازل فرحل رابع عشر جمادى الاولى والتقى بعمه بصفين وطلب منه الرجوع معه الى دمشق ففعل ووصل العادل اليها تاسع جمادى الآخرة وتخلف عنه الافضل وقصد حلب للاستظهار باخيه الظاهر فوثق معه الايمان على ما كان عليه من الصفا وكذلك فعل بابن تقى الدين بحماه ووصل الى دمشق واجتمع مع عمه العادل وكان العادل أبدا يشير بصرف الوزير الجزرى وكان قد استولى على الافضل فلم يقبل فكان العادل أبدا مغتما لذلك فبالغ الافضل فى اكرام عمه وازالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب فى خدمة عمه وضاق أخوه الظافر من هذه الحال وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والامراء ممن هم فى طاعته من جملتهم صاحب حماه وعز الدين ابن المقدّم صاحب بارين فراسلا العادل فى الاعتصام به وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهر وبنى عمه وطلب منه تسليم حصنه فشفع العادل فيهم وكفل انه يكفهم ويكفيهم واستصحبهم الى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه فتعذر عليه ردّهم وتيسر له ودّهم فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الاسراع فى القدوم فاقبل العزيز وخيم بالفوّار وشرع العادل فى تدبير أمور الافضل فكاتب الامراء الاسدية من أصحاب العزيز يحثهم على تركه والانقطاع الى حزب الافضل وسلكه وكانت الاسدية أبدا فى عناء من تقدّم الناصرية عليها وراسل العادل أيضا العزيز يخوفه من قبل الاسدية ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل فكانوا اذا القيهم عرفوا فى وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا للاكراد مرافقتهم فى الانصراف عنه ففعلوا وكان أمير أمراء الاكراد

أبو الهيجاء السمين فدارت الاكراد حوله وقالوا الا نأمن عليك من الناصرية فابرموا أمرهم وعجلوا رحيلهم فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والاسدية عشية الاثنين رابع شوّال وكانوا أكثر العسكر واعلم العزيز بهم فما بالى بانصرافهم وقال صفونا من أكدارهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم وبقي في خواصه مقيما تلك الليلة ثم رحل عائدا الى مصر فجاء رسول أبي الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفا ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصريه فتحالف العادل والافضل على ملك مصر ان يكون للعادل الثلث وللافضل الثلثان وخرجا يوم الاربعاء في الجيوش واستناب الافضل بدمشق أخاه الاصغر قطب الدين موسى وأما العزيز فانه ساروا أخذ طريق الجون والرملة وفرق من الاسدية الذين بالقاهرة ان يفعلوا فعل اخوانهم فيمنعوه من دخول البلد وكان مقدّمهم الامير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الامراء الاسديه قد استنابه العزيز بالديار المصريه فهو مقيم على الصفاء والمودّة والاخاء فلما وصل العزيز تلقوه والى ذروة سلطنته رقوه وأما العادل والافضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الاسدية ان يسبقوا العزيز فلم يقدروا واجتهدوا ان يدركوه ويتقدّموا فتأخروا فامرهم العادل بالثبات وتسلم القدس واعماله وما يجاوره من اعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بامر الافضل والعادل فرتب فيها نوابه وأسكنها أصحابه وصحبهم الى الديار المصريه لمحالفة الاسدية ومخالفة الناصريه فنزل بهم العادل على بلبيس وكان أوان أخذ زيادة النيل في الانتهاء والسعر غال وظهرت ندامة الاسدية وضعفت معونتهم وضوعفت مؤونتهم فخاف من مكرهم والعدول الى مستقرهم فارسل الى القاضي الفاضل يستوفده للاستزاره ويسترشده بالاستشاره فالزمه العزيز باجابة سؤاله فخرج اليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الامور على ما يجب الفريقان وعفا العزيز عن الاسدية وأقام العادل عند العزيز وأما الافضل فان العزيز خرج اليه وودّعه فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس ووصل الافضل الى دمشق غرة المحرم سنة اثنتين وتسعين ثم ان الافضل لازم صيامه وقيامه وقلل شرابه وطعامه وحسن شعاره واستوى ليله ونهاره ووزيره الجزرى قد بلى الناس منه ببلايا وهو في غفلة عن تلك القضايا وكان يدخل اليه ويوهمه من قبل أقوام انهم عليه وانهم يميلون الى أخيه فيصدّقه الافضل فيما يدعيه فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه وصار يتصل به كل من هاجر من الشام الى مصر وما منهم الا من يشكو من الوزير الجزرى وكان قايماز النجمى قد لصق بالعادل وكذلك عز الدين سامة وصاهر العادل وظاهره وكان العادل بمصر مستوطنا للقصر فوعد الجماعة بازالة يد الوزير الجزرى وردّه الى بلاده وقرر مع العزيز تسيير عسكره معه الى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الاسلام فاخرج العساكر الى بركة الجب وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الاوّل ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب الى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضي بهاء الدين ابن شدّاد ثم ان العادل أشار على العزيز بان يوافقه على المسير ويرافقه فيه فرآه عين التدبير فسارا بالعساكر نحو الشام ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق فاعلموا الملك الافضل بما أبرم من الامر فضاق صدره وطال فكره واستشار أصحابه فاشار عليه شيوخ الدولة بان يستقبل أخاه وعمه ويسلم لهما حكمه وأشار الجزرى وأصحابه بالتصميم على المخالفه وترك المجاملة والملاطفه ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره وتولى أسباب التحصير وحلفوا الامراء والمقدّمين وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والاصيل وتفرّق الامراء على الاسوار والابراج وجاءت الرسل الظاهرية لاظهار المظاهرة وندب الافضل ملك الدين أخا العادل اليه منه رسولا فوصل الى العسكر العزيزى بالداروم وغزه ولقى عند العزيز من قوله العزه فبقي ملك الدين هناك أياما في اصلاح ذات البين ولا شك انهم اشترطوا على الافضل شروطا وردّوه بها وأقاموا ينتظرون الجواب فنفذ من ذكر ان الافضل أبى ذلك فلما رأى الاكابر وشيوخ الدولة ان الافضل لا يسمع من رأيهم وانه عازم على المحاربة ولا يعدل عن رأى وزيره مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره شرعوا في اصلاح أمورهم في الباطن فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهرا بالعدد والعدد لا يحدث حدثا ولا يعبث بالبلد الا عبثا فكتب الاولياء من البلد الى العزيز والعادل

بانتهاز الفرصة فركبوا وتأهبوا يوم الاربعاء السادس والعشرين من رجب فصادهم عن قصد البلد أحد وما كان فى طريقهم الا الملك الظافر ومعه عسكر حلب فقاتل على ظن قتال الجماعة وما عنده علم بما دبروه من المخامرة فخادوا ولم يكترثوا ووصل العزيز الى الميدان الاخضر ووصل العادل الى باب توما وكان الامير الامين به قد استنهضه اليه بكتبه ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقى وبات العادل فى الدار الاسديه ودخل العزيز من باب الفرج وبات فى دار عمته الحساميه وخرج اليه الافضل ولقيه وتجرع من هم زوال ملكه ماسقيه فلما ملك العزيز دمشق أقام أياما بالميدان الاخضر الكبير الى ان انتقل الافضل من القلعة باهله وأصحابه وأخرج وزيره الجزرى مخفيا فى صناديقه اشفاقا عليه من قتله وتحريقه وتحوّل الافضل تلك الايام الى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلا الى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين قال وكان العزيز قرّر مع العادل ان يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره ورجع عما دبره ونفذ الى أخيه الافضل فى السر يعتذر اليه ويشير بما كان اشترط عليه فأظهر الافضل هذا السر لصحبه والمخصوصين لقربه فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة وأطلع عمك العادل على هذا السر فانه يرى ذلك عين البر فأرسل الى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الافضل واجتمع بالعزيز وعتبه وقرعه بما انبئ به وأنبه وقال له ابنى وتهدم وأوجد مصالحك وتعدم فأنكر الحال واحالها وانتقض الامر قبل ابرامه ووجه الى الافضل من أزعجه والى صرخد أخرجه وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم فى تسليم بصرى للظفر بسلامته وبذلها ولم يتبعها بندامته ورحل الى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به وأما الافضل فانه سار الى قلعة صرخد وسكنها وحوّل أهله وأخاه قطب الدين اليها وأوطنها وعند خروج الافضل من قلعة دمشق دخل العزيز اليها يوم الاربعاء رابع شعبان وجلس يوم الجمعة فى دار العدل واعتقد الناس انه يطول مقامه عندهم فلم يشعروا به الا وقد برّز للرحيل وتقدم الى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الاثنين تاسع الشهر ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم ثم تحوّل الى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر فلما عاد العادل من وداع العزيز قرئ بالجامع منشوره العزيزى بالبلاد والاعمال والنظر فى جميع الاحوال وأشاع انه نائب العزيز وهو سلطانه وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه حالية برسمه وضرب الدينار والدرهم على سكته وأظهر انه قوى بشوكته وشكته وجلس يومى الاثنين والخميس للعدل وبسط يده لجمع الاموال وخزنها لوقت عموم الحاجة الى صرفها

﴿فصل﴾ هذا آخر ما انطوت عليه رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله وللعماد أيضا كتاب آخر سماه بنحلة الرحلة ذكر فيه أيضا نحوا من ذلك وهو ان الاحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان وأراد العماد الرحلة الى مصر فاصحبه الافضل رسالة الى أخيه العزيز فمضى اليه وعنده عمه العادل فلم يتمكن من الرجوع الا معهما خارجا بالعساكر فذكر الحديث فى أخذ البلد قال وخرج الملك الافضل واجتمع بالعزيز فى الميدان ودخلا من باب الفرج متصاحبين الى الضريح الناصرى وصعد العزيز القلعة يوم الاربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده فى هيئة المودع وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع ودخل دار الامير سامة فى جوار تلك القبة وأمر القاضى محيى الدين ابن الزكى بأن يبنيها مدرسة للتربة قلت هى المدرسة المعروفة بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه فهذا اقدر مافى كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا لانه موضوع للدولتين النيرتين الا انه لابدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما او عقيبهما وتبعنا العماد فيما ذكر فى العتبى لكونه أشار اليها فى كتاب البرق واستوفينا ما فى كتاب البرق والفتح القدسى والتاريخ الاتابكى وكتاب القاضى أبى المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن واضاف الى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا فى اقامة فرض الجهاد وتخليص البلاد من أيدى الكفرة والنظر فى مصالح العباد ومن كتاب فاضلى (أما هذا البيت فان الآباء منه اتفقوا فملكوا وان الابناء منهم اختلفوا فهلكوا واذا غرب نجم فما الحيلة فى تشريقه واذا

بدا التخريق ثوب فما يليه الا تمزيقه وهيهات ان يسدّ على قدر طريقه وقد قدّر طروقه واذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه

(فصل) بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة وقفت على ما حسن لى الحاقه بهذا الكتاب من ذلك ان القاضى الفاضل كتب فى (سنة ثلاث وتسعين) الى القاضى محيى الدين ابن الزكى كتابا قال فيه (ومما جرى فى هذه المدّة من المثلات الجارية والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا ونحن نيام وظن الناس ان اليوم الموعود قد طرق فى الليل الممدود فاذاهم قيام ان الله تعالى أتى بساعة كالساعه كادت تكون للدنيا كساعه فى الثلث الاول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة وذلك انه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفه وبروق خاطفه ورياح عاصفه قوى لهوبها واشتدّ هبوبها وارتفعت لها صعقات وتدافعت لها اعنة مطلقات فرجعت لها الجدران واصطفقت وتلاقت على بعدها واعتنقت وثار من السماء والارض عجاج فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام وتبع الواحدة الاخرى وتقفى الثانية على أثر الاولى وترى البروق واقفة وهى تتعاقب وقائمة وهى تتجاذب ولا تحسب الا ان جهنم قد سال منها واد وعدا منها عاد وزاد عصف الريح الى ان انطفأت سرج النجوم ومزقت اديم السماء ومحت ما كان فوقه من الرقوم ولا تزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا فكنا كما قال الله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق وكما قلنا ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق لا عاصم من الخطف للابصار ولا ملجأ من الخطب الا معاقل الاستغفار وفر الناس رجالا ونساء واطفالا ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم لا يستغربون العذاب لانهم على موجباته مصرون وفى وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون معتصمين بالمساجد الجامعه ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعه بوجوه عانيه ونفوس عن الاموال والاهل ساليه ينظرون من طرف خفى ويتوقعون أى خطب جلى قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون وندموا ونجد الله ان نفعهم بأنهم نادمون وقاموا الى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت وكلما قيل استقلت بركت وكلما أخذت قيل ما تركت حتى الثلث الاخير من الليلة المذكورة والقلوب الى الحناجر بالغه والابصار عن سننها زائغه الى ان أذن الله فى الركود واسعف الساجدين بالامر لها بالهجود وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه ويرى انه قد بعث بعد النفخه وأفاق بعد الصيحة والصرخه وان الله قد رد له الكرّه وأدبه بعد ان كاد يأخذه على الغره وورد من الخبران المراكب كسرها ما كان معترضا فى التحرز للعارض والاصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بجاها النافض وان فى الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا وركب فما أغنى الفرار عما هو امامه شيا ولا يحسب المجلس انى أرسلت القلم محرفا والقول مجزفا فالامر أعظم ولكن الله سلم والخطب اشق وما بلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق ونرجو ان الله سبحانه قد أيقظنا بما وعظنا ونبهنا بما ولهنا فما من عباده من رأى القيامة عيانا ولم يلتمس عليها من بعده برهانا الأهل بلادنا فما اقتص الاوّلون مثلها فى المثلات ولا سبقت لها سابقة فى المعضلات والحمد لله الذى من فضله ان جعلنا نخبر عنها ولا تخبر عنا ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور اذا عنا وشغلت خدمته بهذا المهم وجعلته على علم من هذا العلم فالسعيد من وعظ بغيره وقد كانت انا وفينا الموعظه وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظه) ومن كتاب له آخر الى العادل فى سنة ثلاث وتسعين أيضا (وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته الى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعه وأوقع فى ضائقة تنفق الافكار فيها من سعه وللاسلام اليوم قدم ان زلت زل وهمة ان ملت فان النصر منه مل وتلك القدم القدم العادليه وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفيه فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودمثوا ذلك المهاد واسهروا فى الله فليست بليلة رقاد ولا ينظر فى حديث زيد ولا عمرو ولا ان فلانا نفع ولا ضر ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر انظروا الى انكم الاسلام كله قد برز الى الشرك كله وانكم ظل الله فان صحت تلك النسبة فان الله لا ناسخ لظله واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تهونوا وان ذهب الناصر فان الله خير الناصرين

فما هى

فما هى الاغمرة وتنجلى وهيعة وتنقضى وليلة وتصبح وتجارة وتربح) ومن كتاب له آخر الى الملك العادل (أدام الله ذلك الاسم تاجا على مفارق المنابر والطروس وحياة للدنيا وما فيها من الاجساد والنفوس وعرف المملوك ما عرفه من الامر الذى اقتضته المشاهدة وحرست به العاقبة فى بيروت ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله

ألم تر ان المرء تدوى يمينه ❋ فيقطعها عمدا ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا قد سبق اليه ومن قلم من الاصبع ظفرا فقد جلب الى الجسد بفعله نفعا ودفع عنه ضرا

وتجشم المكروه ليس بضائر ❋ ما خلته سببا الى المحمود

وأخر كل شقوه أول كل غزوه فلا ييأس مولانا نية الرباط وفعلها وتجشم الكلف وحملها فهو اذا صرف وجهه الى وجه واحد وهو وجه الله صرف الله اليه الوجوه كلها والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ومن كتاب له آخر (هذه الاوقات التى أنتم فيها عرائس الاعمار وهذه النفقات التى تجرى على أيديكم مهور الحور فى دار القرار وما أسعد من أودع يد الله ما فى يديه فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذى ما كل من طلبه وصل اليه وسواد العجاج فى هذه المواقف بياض ما سودته الذنوب من الصحائف فما أسعد تلك الوقعات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات)

﴿فصل﴾ وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه خطفة البارق وعطفة الشارق ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين الى أن توفى هو رحمه الله فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدم فأحببت الحاقها به من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن فى شوال سنة ثلاث وتسعين وتولى ابنه شمس الملوك اسمعيل هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر الى حلب بعد أخذ عمه منه بصرى وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك وذهب الامير أبو الهيجا السمين الى بغداد بأصحابه فأكرم ثم سير فى جيش الى همذان ثم بعد رجوعه مات بدقوقا وانقضت مدة هدنة الفرنج التى عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا فكسرهم وفتح يافا عنوة وكانوا كاتبوا ملك الالمان وكان قد ملك صقليه فانهوا اليه تلك البليه وقالوا ان عظام أبيه الى الآن فى صور فى تابوت مكلل بالديباج وكأنه فى الاسر منتظر الافراج فانه لا يقبر الا بالبيت المقدس اذا استخلص والآن ما كان غلا منه استرخص فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهوا عن كل سنة وفرض فتدافعت الى عكا سفنهم وتدفق مزنهم وامتلأت بهم فى الساحل مدنهم وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة فلما سمع بوصولهم الى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الامر الى سهله ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم ولا مماطلة روم وكثر فيه الحديث وذكر الطيب والخبيث فمن قائل تجبن وتجنب ومن قبل أن ينكب تنكب ومن قائل رجاله هابوا فغابوا ولو انه دعاهم ما أجابوا واتسع القول ووقع الهول حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين

سلم الحصن ما عليك ملامه ❋ ما يلام الذى يروم السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب ❋ سنة سنها ببيروت سامه

وتصرفت الفرنج فى بيروت واعمالها الساحليه وبقى لسامة جميع الولاية الجبليه ثم توجه الى مصر

﴿ودخلت سنة أربع وتسعين﴾ فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين وأرسل العادل القاضى محيى الدين محمد بن على القرشى الى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه ووصل فى الثالث والعشرين من ربيع الاول فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الالمان ثم انتقل عسكر المسلمين الى جانب الطور ومع العزيز اخوته الظافر والمعز والمؤيد وكان الافضل قد جاء الى عمه قبلهم وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك وعز الدين ابن المقدم وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الاعيان ثم تراجعوا الى بلادهم بعد عقد الهدنة ورجع العزيز الى مصر بعد ان خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطى اللاواء وعاد المعظم الى دمشق وقد قرت به العيون وحسنت فيه الظنون فكان أعز أولاد

العادل عنده وأعلقهم بقلبه وأخصهم بحبه قد ولاه سلطنة دمشق وأطاب فيها بنشر كرمه النشق واقام العادل حتى استقرت الهدنه وظهرت فى عمارة تبنين المكنه ثم عاد الى دمشق وأقام قليلا ثم شرق ورقع بها من الامر ما تخرق ورتق ما تفتق ورد بلاد اولاد عماد الدين زنكى اليهم لانه توفى فى هذه السنة واستولى عليها ابن عمهم صاحب الموصل فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل وتوفى جماعة من أمراء الموصل منهم الامير عز الدين جرديك وكان فارس الاسلام ومقدامه وشجاعه وهمامه وما برح من أيام نور الدين الى آخر أيام صلاح الدين رحمهما الله ليث العرين أشم العرنين وهو الذى أعان صلاح الدين على القبض على شاور وولاه صلاح الدين القدس فى آخر عهده فقام بمصالحه من بعده ثم تسلمه منه الملك الافضل وسلمه الى أبى الهيجاء السمين فلما خرج الافضل من دمشق وصل الى الموصل وانتقل من حوض الكوثر الى أعذب منهل قال ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين فى شهر رمضان وملك ربضها ومدنها وولاياتها واوصاف عليها وشتا وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى وما شك أحد أن ماردين فى ملكه مضافة الى ملكه وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مردان من أهل رأس عين له من قصيدة

فان تك مصر أم ملك فارد ❊ اذا ذكر البلدان اعلى الممالك

تقاعس عنها سنجر وابن عمه ❊ وقصر عنها عزم زنكى الاتابكى

فان تك قد شوركت فى فتح غيرها ❊ فمالك فى أمثالها من مشارك

❊(ودخلت سنة خمس وتسعين)❊ والملك العادل نازل على ماردين وقد وصل اليه أصحاب الاطراف مساعدين وقد أصلح بين صاحب الموصل وبنى عمه عماد الدين وردهم الى سنجار والخابور ونصيبين وقد أذعن له الجماعه بالطاعه ونائبه فى تلك البلاد ولده الملك الكامل محمد قال وفيها ليلة الاحد العشرين من المحرم توفى الملك العزيز بداره بالقاهرة وكان على عزم الصيد فى اعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه عمت بها على الزمان سخطه فتفاقم ألمه وأقام يومين أو ثلاثه لا يستطيع له مخلوق اعانة ولا اغاثه ثم حم حمامه وأظلمت بفجيعته أيامه وقبر فى داره لينقل منها الى دار قراره ثم حوّل منها فى الايام الافضليه الى التربة المقدسة الشافعيه وورد كتاب القاضى الفاضل تعزية به للملك العادل (أدام الله سلطان مولانا الملك العادل وبارك فى عمره وأعلى أمره بأمره وأعز نصر الاسلام بنصره وفدته الانفس الكريمه وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمه وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام فى مواقف الفتوح الجسيمه وينقلب عنها بالامور المسلمة والعواقب السليمه ولا نقص له رجالا ولا عددا ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ولا قصر له ذيلا ولا يدا ولا أسخن له قلبا ولا كبدا ولا كدر له خاطرا ولا موردا ولما قدّر الله ما قدر فى الملك العزيز رحمة الله عليه وتحياته مكررة اليه من انقضاء مهله وحضور أجله كانت بديهة المصاب عظيمه وطالعة المكروه أليمه فرحم الله ذلك الوجه ونضره ثم السبيل الى الجنة يسره

واذا محاسن أوجه بليت ❊ فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعز على الملوك وعلى الاولياء بل على قلب مولانا الاسلبه الله ثوب العزا بسرعة مصرعه وانقلابه الى مضجعه ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثوب الشباب وزفه الى التراب وسريره محفوف باللذات والاتراب وكانت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين وكانت فى الساعة السابعة من ليلة الاحد العشرين من المحرم والملوك فى حال تسطيرها مجموع له بين مرض قلب وجسد ووجع أطراف وغليل كبد وقد جمع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد والاسى فى كل يوم عليه جديد) ووصل قبل هذا الى العماد كتاب من الفاضل فيه (وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة الا أنها بلا سكون وفى الزاوية المسنونة لاهل العافية الا أنى على مثل حد المنون وكيف يعيش العاقل فى الزمان المجنون ونحن على انتظار البرق الشامى أن يمطر وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر واشتغال سيدنا فى هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكييف والتصانيف التى تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة يتعين شكرها على العلماء ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء) قال العماد ولما توفى الملك العزيز خلف بنين صغارا يزيدون على العشره وولده الاكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر وكان الى أبيه أحب أولاده يشيم

من شيمه مخيله سداده وقد اختص لديه ونص عليه فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين اياز سركس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه وعقدوا الامر لولده ناصر الدين ونعتوه بالملك المنصور وأخذوا له ايمان الجمهور قال وكانت الاسدية فى الايام العزيزية الناصرية مغمورين وبالاستيلاء عليهم مقهورين وكبيرهم سيف الدين يازكوج وكان عند وفاة العزيز غائبا باسوان فلما بلغه ذلك حضر وجمع الاسدية واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهره فقال لهم نعم ما رأيتموه من حفظ العزيز فى ولده لكنه صغير السن لا يحتمل ثقل هذا الفن ولا بدّ من كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين ويرتب القوانين وما هاهنا الا الملك العادل وهو الآن فى بلاد الشرق مشغول وهاهنا من هو أقرب منه وهو الملك الافضل فقال الاسدية هذا هو الرأى الراجح ولم يسع الصلاحية مخالفته فاتفقوا على استدعاء الافضل من صرخد فخرج منها ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من صفر وسلك البرية فوصل الى القدس يوم الخميس وخرج اليه عسكره وساروا معه الى بيت جبريل ثم أغذ السير فلما قرب منهم فى تاسع ربيع الاوّل تلقوه والى أعلى مراقى العلا رقوه وسروا بقدومه وجروا المرسومه قال وكان الناصرية كتبوا الى رفقائهم بالشام انا أحوجنا الى الوفاق وتأكيد الميثاق وقد كتب الى نور الدين بالحضور وضبط الامور وهو عندكم فى صرخد وان وصل الينا انتظم أمره وتمهد فاجتهدوا فى حصره وهو فى حصنه ولا تسمحوا بفك رهنه ووصل الى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها الى صرخد فوصلوا الى بصرى يوم الاربعاء فقيل لهم ان الافضل أدلج ليلا واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا الى دمشق وقيل لما عبر الافضل بالبيت المقدس وجد فى طريقه نجابا مسرعا فاستحضره واستكشف ورده وصدره فقال أنا نجاب فخر الدين ايازسركس ومعى كتبه الى من يأنس به ويحبه فتسلم منه الكتب وعاد النجاب فى خدمته فلما وصل الى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه واقفا ببابه فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا الى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال فأخذوا فى الانتقال وتوهم الافضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم فتفرقت الكلمة المجتمعه وتوقفت الهمم المسرعه وأمر الافضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر ثم الدعاء له فى الآخر ونقشت السكة أيضا باسم الولد فى البلد وغير البلد قال ولما استقر الافضل بمصر حملوه على قصد دمشق وحصرها وقالوا له اطلب بلدك الذى منه أخرجت وعن المقام فيه أزعجت ومالك فى مصر ما يكفيك ودمشق لك بوصية أبيك وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياه وقال له انتهز الفرصة فعمنا عنا مشغول والى أن يتم من ماردين مراده وينضم الى بياضه سواده تخرج دمشق عن يده ويجله اليوم فيها عن غده وأنا أصل اليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والاساود والاسود فازالوا به حتى خرج بالعسكر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه قال ووصل الى الملك العادل الامير سراسنقر أحد الامراء الناصرية المفارقين فاستحثه على مفارقة ماردين وتواصل من الناصرية جماعة بعده وعندهم من الاستحثاث ما عنده فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الاميرين عز الدين ابن المقدّم وبدر الدين دلدرم وسرى ليلا لخمس بقين من رجب وأوصى ولده الكامل أن يسير فى مضايقة حصن ماردين بسيرته ويقتدى بعزمته ووصل الى دمشق يوم الاثنين حادى عشر شعبان وأخذ فى تحصين البلد ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا الى السوق الكبير وأعلنوا الفتح بالتكبير ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير فخرجوا من باب الفراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس واما الافضل فانه وصل الى الميدان الاخضر وضرب فيه دهليز سرادقه وأقدم برواعده وبوارقه فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزله وكانت منهم زله فنزلوا عند ميدان الحصا ثم تأخروا الى مسجد القدم وامتلأ ذلك الفضاء بمضارب الخيم ففترت الصدمة الاولى وقصرت الصدعة الطولى وخمد الجمر فصار رمادا واستحالت تلك الامواج المتلاطمة ثمادا ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هنالك وتمت فوارط عدمت الاستدراك وامتدت خيامهم من اقصى داريا الى الغوطه وظنوا انهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطه وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصرى ففارقوه ودخلوا دمشق فاكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهرانى واياز البانياسى وابن كهدان ومنقال الخادم وابن أخت السلطان ابن سعد الدين

بكشيه وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم واحسن العادل جزاءهم فتكاثرت الاطماع وتتابعت الرؤس والاتباع ووصل الملك الظاهر ومعه أخواه الظافر والمعز وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص وعسكر حماه دون سلطانها وحسام الدين بشارة صاحب بانياس وهو شيخ الدولة وكبيرها واميها واميرها وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومابزال أسرى من كبراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين فرغبهم في السلامة والسلم والاحتمال والحلم وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبه والتقرب بالمقاربة والمراقبه وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد وأخوه نور الدين مودود قال ولما جنبوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار وكسر الانهار ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم وغنيمة وغنم حتى ز والقوافل وصدوا الفروض والنوافل قال وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه ونظفوا من ارتاب به حواليه وأخرجوا منه المغاربه ورجاله وأجناده الراتبه ومعهم الامير فارس الدين ميمون صاحب نابلس وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان ثم وصل الخبر بان سركس ومن معه واصلون الى دمشق فتجرد من المحاصرين عسكر الى طريقهم وكانوا قد وصلوا الى طبرية وعبروا منها الى البقاع وتكشوا خلال تلك الضياع وسيروا الى بعلبك ما صحبهم من الاثقال والاحمال وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل وتجردوا خيلا وقطعوا هاليلا وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر وقد فاتوا العسكر فتقوى عسكر البلد فصاروا يبكرون ويركبون ويقربون من العسكر المصرى ولا يرقبون وحفر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل قال وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع الا في قطع الماء ومنع الميره والمضايقة الكثيره واحراق البساتين وتخريب الطواحين حتى اذا انحسمت المواد وفنيت في البلد الازواد واضطروا الى التسليم واضطربوا على التأخير والتقديم فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والاستسلام فتباينت أراء الملوك المحاصرين بما دبره العادل سيف الدين ولا بد للكبار من الاحتيال اذا صمم الصغار على الاغتيال وليس في ذلك بدعه فان الحرب خدعه فنفذ الى الظاهر في الباطن وقال له أنت السلطان وحكمك على جميع الاماكن والمواطن وأنا أسلم اليك دمشق على انها تكون لك لا لغيرك فقال الظاهر لاخيه الافضل قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل فقال له هذه لا تخلو من أقسام جالبات لاسقام أجلك ان لا تتولاها تولية النائب وان أخذتها دوني فمن النوائب وان أعطيتني عنها عوضا مما أعرف لك فيه غرضا فمالك ما يصلح ان تقايض به دمشق وأنت لا تدعى لها العشق فتغير بهذا رأى الظاهر والله المطلع على الضمائر وقيل أرسل العادل وقال أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر وتربص وتصبر فخذوا يميني وكلوني الى ديني وظن انهم لا يوافقون وفي الحصر يضايقون فلما أجابوه الى هذا الملتمس وقعقعوا في الاستضاءة بهذا القبس عرف انهم نادمون فما هم عليه من الحصر قادمون فعاد عن هذا البذل وردهم الى سنن العدل وقيل كان يكتب الى الافضل ان الامر انفصل مع الظاهر وانه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر فخذ لنفسك وابدل معي وحشتك بانسك ويكتب أيضا الى الظاهر ان الافضل قد صالحني وعلى الرضى صافني وانك تحصل على المضاغنه وستفضى بك المباينة الى المغابنه وقيل انه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكاتبوه ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه وخبزت تلك الملطفات في عجين لم تفرق على من يقصد العسكر من المساكين فاذا فتشوا عثر على تلك الملطفات فنعت من كتب اليه ولا علم له بالآفات وعدوا من الخاسرين فصار أكثر العسكر من المتهمين

﴿ثم دخلت سنة ست وتسعين﴾ وهم على ذلك والشتاء قد هجم وكل بأمره مهتم ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق وخرج من دمشق جماعة يظهرون انهم من الناصحين وترددوا اليهم ومنهم غادين ورائحين وأبرقوا وأرعدوا وقالوا غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل ومعه من المال الصامت الى أبيه العادل فيستظهر بولده والمال والرجال فلا يقعد عن النهوض الى القتال والصواب ان تتأخروا قليلا فرحلوا الى سفح جبل العقبه وبقيت أسواقهم مملوءه وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج اليه عادمون وعلى ما فرط منهم نادمون وفقدوا حتى الماء للشرب وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل واضطروا الى راحة الرحيل ووصل الكامل تاسع عشر صفر وقد جمع التركمان واستصحب جند الرها وحران ونزل في جوسق أبيه فاستبشر

السلطان برحيلهم وقدوم ابنه وقضت خشية الله بأمنه وأقام الكامل حتى توجه أبوه الى مصر فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما وانتقل الى حران والرها واستقام به أمرهما وذلك حادى عشر ربيع الاول وأما المحاصرون فانهم انتقلوا من الكسوة الى مرج الصفر وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الاثقال الى بانياس وأصحابقية الاحمال الملك الافضل الى مصر وودّعاه وكلاهما سار جريدة الى مقره واستمر بعد ذلك على امرار أمره وكلما رحل القوم عن منزل أحرقوا ما لم يظفر واله بمحمل وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد ولم يعرجوا الى بلد وأخذوا فى السير والسرى وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم فى منازلهم ويخلفونهم فى مناهلهم وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامه فلقوا من البرد ما حضهم على النجاة والسلامه وهذا المرج بقرب جبل الثلج فى تموز لا يقيم به الا لابس فروة فكيف فى كانون وقد عرفوا انهم الجانون حيث لم يلزموا القانون وأرسلت الصلاحية الى الملك العادل يستعجلونه ويحثونه ولا يمهلونه فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الاول وودّع أعيان البلد وسار وتلا من تقدمه الى تل العجول وأقام حتى اجتمع اتباعه وأرسل الى الافضل العدل النجيب أبا محمد وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد فى صلاح دينه ويمكنه من خواص حاجاته ويرسله فى مهام الرسائل وكان مدلول الرسالة أرفق فى السير ووافق على الخير فما عندك اليوم من يصدقك وأنا لك كالوالد وأبلغك مقصودك وأحالفك ولا أخالفك وأوافقك ولا أفارقك فاشار على الافضل جماعته بان يرد جواب الرسالة ان مقاربتى لك بمباعدتك للصلاحية منوطه وموافقتى بمخالفتهم مشروطه فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا واستدلوا به على ان ظفروا وجدّ جدّهم واحتدّ حدّهم فطووا المراحل الى السائح وكان الافضل على بلبيس وقد تفرق معظم أصحابه الى أخبازهم وجماعة منهم مع العادل فى الباطن كاتبوه وعلى الابطاء عاتبوه فسار الجمعان بعضهم الى بعض والتقوا فانكسر أصحاب الافضل وانهزموا فدخلوا القاهره وأغلقوا الابواب للمحاصره وانتهى الى الافضل ان جماعة منهم أرسلوا الى العادل فى اصلاح أحوالهم وانجاح آمالهم فقال سيف الدين يازكوج للافضل لكل زمان عمل ولكل أوان أمل فاصلح الامر كيف تهيا فلا ملام على اللبيب باى زى تزيا فشرع الافضل فى اصلاح الامر مع عمه وراسله على ان يكون بحكمه ثم سلم الامر ومر سالما وحصل له من التجربة ما عاد به بالعواقب عالما قال وخيم العادل بالبركه واستبد بملك مصر آمنا من الشركه ونفذ المقطعين الى اقطاعهم ونظر للصلاحية فى صلاح ضياعهم وأرسل الى الافضل ان وافقتنى على ما أعطيك وقبلت سعدت فهؤلاء الذين عندك ما منهم الا من كتب الىّ وتقرب وانتظر يومى هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها وان لم تصدّقنى فتسلها واعلم انهم غرّوك وضرّوك وساؤوك بما سرّوك وقيل لم يبق من الامراء من لم يكتب اليه ولم يخامر الأربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج فلما عرف الافضل صدق عمه سلم المسئله وسأل المعدله فقرر للافضل فى ديار بكر ميافارقين واعمالها وجبل جور وحانى وجلين والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين فرضى بها مكرها وخرج الى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر فى الليلة التى دخل العادل فى بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة وقدّم سيف الدين يازكوج وحكمه واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز ولم ينافسهم مع حصول المعنى له فى التفضيل والتمييز وأقام وهو كل يوم فى ارتفاع وسياده وقوته فى نموّ وزياده قال ورد القضاء الى القاضى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى ولم يزل قاضى القضاة بالديار المصريه من الايام الناصريه وكان نائبه القاضى زين الدين على بن يوسف الدمشقى وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز فى مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيى الدين ابن أبى عصرون وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه فلما انقضت أيام العزيز وجاء الافضل كان أوّل ما حمل عليه ان صدر الدين يعزل وتولى زين الدين القضاء فلما جاءت نوبة العادل فى هذه السنة ردّ صدر الدين الى منصبه وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية فى التربة المقدسه وبالمشهد الشريف الحسينى الذى أجرى عليه حكم المدرسه الى شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه وكتب اليه وهو بدمشق فاستدعاه وقد كان ذلك ولاه فى ممالكه الجزريه أمور المناصب الشرعيه والامور الدينيه ومدارس الشافعيه وربط الصوفيه وهو قاضى قضاتها ووالى هداتها وهادى ولاتها وله

فى مناصبه نوّاب وفى مراتبه أصحاب قال ولما دخل العادل القاهره استشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفى الدين ابن شكر الظاهره ونزل فى الدار السلطانيه فى الحجرة الفاضليه وتصدّر فى مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته وسيف صرامته وقمع المتجبرين ووضع المتكبرين وأخذ قوس الوزارة باريها وأجرى الله الامور أحسن مجاريها قال وندب العادل من الاسدية والصلاحية أميرين كبيرين الى الشام لاصلاح ذات البين بحمص وحماه وحلب وغيرها وهما سراسنقر وكرجى قال ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار الى صرخد وأقام بها وندب الى البلاد التى بديار بكر من يتسلمها ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين وكذا الدنيا ما تقبل على أحد ولا تمدّه بمدد الا تواردت على حياضه الجموع وتزاحم فى رياضه الرتوع فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه وأحلوا به فيها مكروه المكروه قال وأما الظافر فان عمه أحسن اليه ووعده بعطاء جزيل وودّعه بثناء جميل وأقطعه باعمال دمشق حزما وضياع السواد وشق عليه انه لا يجد ما يجود به وهو من الاجواد ووصل الى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن فى جوسق بستانه بالنيرب وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس واختار البعد عن مقاربة الناس ولزم السكينه ولم يدخل المدينه وطلب من القاضى بجامع النيرب خطيبا شافعيا ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا واحتاط غاية الاحتياط وطوى بساط النشاط

﴿فصل﴾ قال العماد واستدعى العادل ابنه الكامل الى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران وهو فى تلك البلاد نائب السلطان فسلم تلك الولاية الى أخيه الفائز ووصل الى دمشق سادس عشر شعبان ونزل بجوسق أبيه فى بستانه ومعه شمس الدين المعروف بقاضى دارا وهو وزيره ومستحثه على المكارم ومشيره قال وخدمته بكلمة اوّلها

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبى ❋ وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبى
ساروا فيا صحتى من مهجتى ارتحلى ❋ غابوا فيا سنتى عن مقلتى غيبى
قد كان بهضمنى دهرى فادركنى ❋ محمد بن أبى بكر بن أيوب
الكامل المالك الاملاك حيث له ❋ رق الاعاجم منهم والاعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة ❋ مخمر طينه بالطهر والطيب
لا يدعى جوده البحر الخضم ولا ❋ يلفى تأبيه فى الشم الشناخيب
دعتك مصر الى سلطانها فاجب ❋ دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال وعزمت على صحبته فى هذه السفرة الى مصر فخرج فى الثالث والعشرين من شعبان الى الكسوة وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل وصحبه الى رأس الماء مع عدّة من الامراء ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف ووصل الى العباسة فى الحادى والعشرين من رمضان والتقاه والده العادل وانزله بالقصر ثم ركب اليه بعد يومين واستصحبه الى الدار ورتب أحواله على الايثار وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله فادخله اليها فبنى عليها قال وأصبح العادل يوم الاثنين سابع عشر شوّال وركب بالسنجق السلطانى والمركب الخسروانى والسيوف المسلوله والعقود المحلوله وأمر الخطيبين بجامعى مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة الا الدعاء لهما وانقطعت الخطبة لابن العزيز وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاه والكبراء والولاه وقال لهم قول المستفتى المستشير هل تصح ولاية الصغير فقالوا هذا مولى عليه فلا يلى وغيابات الحوادث بنظره لا تنجاب ولا تنجلى فقال فهل يجوز للولى الكبير ان ينوب عنه الى أن يكبر ويرتب الامور بحكم النيابة ويدبر فقالوا اذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابه ومن رآه صوابا أخطأ به الاصابه لا سيما فى السلطنة التى هى خلافة الخليفه فلا حق فيه الا للكبير الذى يعين على الحقيقه وجرى منهم فى هذا المعنى الامعان فلما عرف الشرع أحضر الامراء والتمس منهم الطاعة والسمع وخاطبهم فى اليمين له والميثاق والزمهم بالوفاء والوفاق فأبوا وخاطبهم بما راعهم وملأ بالتقريع اسماعهم ثم قال قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الاسلام وتدبير الممالك بمصر والشام وما هذا أمر يناط بالصبيان أو يحاط بغير

ذى القدرة والسلطان فاذعنوا وأطاعوا وحصل الائتلاف ورفع الخلاف قال ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده معقودا سنجقه بمعاقده والمناصل مجذوبه والصواهل مجنوبه والاعين ناظره والالسن ذاكره ومشى فى ركابه من اليه تحبب والى السلطان تقرّب قال وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال الى برج المقسم والمقسم موضع على شاطئ النيل يزار وهناك مسجد يتبرك به الابرار وهو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بادارة السور على مصر والقاهرة وتولاها الامير قراقوش جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم وبنى فيه برجا هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات وثيق البناء رفيع الفناء وبنى مسجدا جامعا واتصلت العمارة منه الى البلد متتابعة المدد وهو منتزه عن الاكدار والاقذار منزه وبالجنات مشبه والى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه فاختار الكامل أن يجلس فيه يوما للتفرج فجلس فى الطبقة العليا واجتمع الامراء والاعيان فى الطبقة الدنيا ثم مدّ السماط فى الجامع ثم ذكر العماد انه مدحه ثم بكلمة أوّلها

مغرم القلب مدنف * وجده ليس يوصف ❋ وعدونا واخلفوا * ووفينا ولم يفوا

قال وفى الحادى والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق قلت هو أخوه لامه واسمه أبو منصور سليمان ابن شروه بن جلدك واليه تنسب المدرسة الفلكيه بنواحى باب الفراديس بدمشق وبها قبره قال العماد وفى هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل والعادل فى مهامه يستشيره ويستدعيه والمرء كثير بأخيه ثم عاد الى دمشق بعد شهور قال وفى العشرين من الشهر خرج حاج مصر الى البركة وأمر عليهم نصير الدين الخضر ابن بهرام وكان والى المحله وهو مستمر الولاية من الايام الصلاحيه وحج معه من معروفى الاجناد وأمرائها عدّة وكذلك حج فى هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الامير عز الدين سامه وكانت السنة مباركه والنعم متداركه والخير عام والخصب تام قال وانتظرنا زيادة بحر النيل فى أوقاتها فبلغ الى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا فعاد بذلك كل قلب مرتاعا ثم أخذ فى النقص وهو مرجو الزياده مأمول الوفاء على العاده فقنط الناس ووقع الياس واشتدّ المحل وغلا السعر ويئس الفلاحون من الفلاح وأجفلوا من البلاد للانتزاح وطاروا بأجنحة النجاة فى طلب النجاح وقيل ان هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابه وشرعنا فى الاستغفار والانابه وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم الترويه وكانما أصابهم مصيبة فهم فى التعزيه ثم استسقوا ثلاثة أيام الى العيد وأفاض الخطيب فى ذكر الوعيد وغصت بالخلائق الامكنه وضجت بالادعية والضراعات الالسنه قال وفى السنة التى قبلها وهى سنة خمس وتسعين استدعى القاضى ضياء الدين أبو الفضائل القسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى الى بغداد وولى قضاء القضاة وكان متولى القضاء بالموصل فخرج فى أواخر شعبان فلما وصل بغداد بجل وعظم وكان قد تردّد الى بغداد دفعات فى الايام الصلاحية بسبب الرسالة فهو كان المعين لها كما تقدّم ذكره

(فصل) فى وفاة جماعة من الاعيان فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين قال العماد وفيها ثالث عشر جمادى الاولى توفى فى داره بدمشق الامير صارم الدين قايماز النجمى وكان متولى أسباب صلاح الدين رحمه الله فى مخيمه وبيوته يعمل عمل أستاذ الدار واذا فتح بلدا سلمه اليه واستأمنه عليه فيكون أوّل من افتض عذرته وشام ديمته وحصل له من بلد آمد عند فتحه ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة وتصدّق فى يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا وأظهر انه قضى من حقوق الله فى ذمته دينا وهو بالعرف معروف وبالخير موصوف يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر ومن جملتها رباط خسقين ورباط نوى وله مدرسة مجاورة داره ولما كفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل الى مصر فردّه الى دمشق ليلازم خدمة الملك ولده المعظم ويكون من أقوى عدده وأوفى عدده وكان فى خلقه زعاره وكانت حصافته مستعاره قال ولما مات فنبشت أمواله وفتشت رحاله وحضر أمناء القاضى وضمناء الوالى واخرجوا خبايا الزوايا وسموط النقود وخطوط النسايا وغير وارسوم المنزل ومعالمه واستنبطوا دنانيره ودراهمه وحفروا أماكن فى الدار وبركة الحمام فى الجوار فحملوا أوقارا من النضار وظهروا على الكنوز المخفيه والدفائن الالفيه فقيل زادت على مائة ألف دينار وهو قليل فى جنب ما يحرز به من كذا وكذا قنطار

واستقل ماطواه الحزن وأخفاه الدفن وقيل كان يكنز في صحاري ضياعه ومغارات اقطاعه قلت واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع وتأذى بذلك المتأبي منهم والطائع وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل دار الحديث في سنة ثلاثين وستمائة واخرب الحمام الذي كان مجاورا لها وادخله في ربعها وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية قال العماد وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي يعني بمصر الحاجب لؤلؤ وكان في الايام الصلاحية أشجع الشجعان وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاة ومواقف مع العداة وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر ايلة الى بر الحجاز وأتى في كسرهم وأسرهم بالاعجاب والاعجاز وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار فأنقذ واستنقذ ومازل حتى أخذ وساق الى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم بها مأسورين قلت وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه ❁ والدر في البحر لايخشى من الغير

فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم ❁ فالدر مذ كان منسوب الى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة تقدم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين قال العماد ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهره في سنة احدى وتسعين من مبراته الظاهره انه لما حط القحط رحله ووصل المحل محله وتم الغلا وعم البلا ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق اليها وذلك انه كان يخبز كل ليلة اثنى عشر ألف رغيف فاذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء ثم يفتح من الباب مقدار مايخرج منه واحد بعد واحد ويعلم انه غير عائد فيتناول كل منهم قرصه ويرى ذلك من خيراته فرصه فما يزال قاعدا حتى يفرق الالوف على الالوف وكان هذا دأبه في هذا الغلاء حتى هب رخاء الرخاء فحينئذ تنوعت صدقاته واستغرقت بالصلاة أوقاته وكان بهي الشيب نقي الجيب قد جعل الله البركة في عمره وخصه مدة حياته بامرار أمره فأنجده في اوان ضعفه بتضعيف بره ولاشك انه من الاولياء الابدال والصالحين الصالحي الاعمال قال وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة وأنا بالديار المصرية توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي وهو أكبر الائمة الشافعية ورئيسها واليه فتياها وتدريسها وهو من أصحاب محمد بن يحيي وكم واجه الملوك بالحق المر وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر ولما وصل الى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها فأعجبه سمت المذكور فولاه مدرسته بمصر وهي المعروفة بمنازل العز فوليها وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه وخلت منازل العز من منازل عزه وأصبح الناس حول سريره مزدحمين وعليه متوجعين فوصلوا به الى القرافه معان الرحمة والرأفة وهناك الاصاغر والاكابر من الملوك والامراء مشاه وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاه ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين وبنار اللهف والتلهب عليه مضطرمين ونمى الخبر الى حماه وعرف بن تقي الدين فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه وكان اتفق حضوره عنده في الرساله فاهتدى برشده الى الضلاله قال وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق قلت وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الاولى ويعرف بابن العقاده قال وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي وكان أبرع فقيه وأفقه بارع ورد الى اصفهان سنة تسع وأربعين ولقي بها العلماء المبرزين وخالط صدورها بني الخجندي وكان تفقه بكرمان وقرأ على فخر الدين الرازي من أكبر تلامذة محمد بن يحيي وتنقل في بلاد خراسان والعراق ولقيته بمصر سنة اثنتين وسبعين في العهد الصلاحي وسامه السلطان المقام بها ليفوض اليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه نعبر وماصبر وعاد الى البلاد ثم وفد الى دمشق في جمادى الاولى سنة خمس وتسعين ثم سار الى حلب في ثاني شعبان فكان من وفاته بها ما كان قال وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين ابن محيي الدين محمد بن يحيي وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن نور الدين قرا أرسلان وفيها مات بدمشق في العشر الاوسط من شعبان الهمام العبدي الشاعر البغدادي وهو أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة

وقدم

وقدم دمشق سنة خمس وتسعين وهو أشعر من رايتـه فى هذا الزمان وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصوره كلمة شاعره وصادفته ذا سمت حسن وفصاحة وحصافة ولسن ومعه ديوان شعره يحوى قلائد دره وفرائد سحره وتوفر على مدح الامجد صاحب بعلبك ومن شعره

وما النـاس الا كامل الحظ ناقص ❋ وآخر منهـم ناقص الحظ كامل

وانى لـمستتر من حيـاء وعفـة ❋ وان لم يكن عندى من المال طائل

قال وتوفى فى هـذه السنة قبـل الفـاضل بثلاثة أيام الاثير بن بنان وكان مشمولا فى الدولتـين بكل قبول واحـترام واحسان وكان السـلطان لما تصرف فى القصر ولا بيـع موجـوده وبذل فى نصرته غاية مجهوده ولما فرغ من شـغله أبقـاه عـلى رسم انعامه كله واستمـرار امراره واستقرار قراره وجلس فى بيته يسمع عليـه روا ياته العـاليـة حتى أدرك أيام الملك العزيز ولم يدرك فى العزامل ولم يملك عملا حتى تغير خلقه وتقلل رزقه وتبطل حقه وآل أمره الى اعتقـاله بالديون واحتباسـه فى الرهون وممن غاظه وزير العـزيز وكان مؤدبه فى الصغر واستوزره فى الكبر واسمعـه ما كرهه وقال له ما أحسن ما أدبت مخدومك وخرجته وعلى مراتب اخلاقك درجته وقال الفاضـل انا خلصتك فى أيام شاور مرتين ودافعت عنـك دفعتـين وهذه قصائدك فى مدحى ومقـاصـدك لمنحى وكان يعرف لتقـادم عهـده وانتقاله فى الحـالات مبادى أرباب المنـاصب الى الغـايات فكرهـه النـواب ودحضوه ولمعارض النوائب عرضوه وكان بالقـاهرة جارى وباب داره مقابل باب دارى وأنا أعينه فى الايام الصـلاحيه باصلح اعانه واصونه بأرجح صيانه

❋(فصل) فى وفاة القـاضى الفاضل رحمه الله قال العمـاد وفى هذه السنة تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى وفجيعة أهـل الفضـل بالدين والدنيا وذلك بانتقال القـاضى الفاضل من دار الفنا الى دار البقاء فى داره بالقاهـرة سادس ربيع الآخر يوم الثـلاثا وكان يعنى ذلك اليوم بمصاب الافضـل يوم الكسره وبمصاب الفاضـل يوم الحسره وذكر انه ليلة الثـلاثاء فى مدرسته صلى العشاء وجلس مع الفقيه ابن سـلامة مدرسها وتحـدث معـه ماشاء وشوهـد من كل ليلة ابش وأبسم وأهش وقد طابت المحاضره وطالت المسامره وانفصـل الى منزله صحيح البدن فصيح اللسن وقال لغلامه رتب حوائج الحمام وعرفنى حـين أقضى منى المنام فوافاه سحر اللاعـلام فـما اكترث بصوت الغلام ولم يدر ان كلم الحمام حمى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام فبادر اليه ولده فالفـاه وهو ساكت باهت فعرف ان القـدر له باغت فلبث يومه لا يسمع له الا أنين خفى علم منه انه بعهد الله وفى ثم قضى سعيدا ومضى شهيدا حميدا فوقاه الله تعـالى الوصية فكانت له بسيد الاولين والآخرين اسوه وان تردى عن رداء العمر فله من حلل البقـاء فى عليين كسوه ولانه لم يبق فى مدة حياته عملا صالحا الا وقدمه ولا عهدا فى الجنة الا أحكمه ولا عقـدا فى البر الا أبرمه فان صنائعه فى الرقاب وأوقافه عـلى سـبل الخـيرات متجاوزة عن الخراب لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين الى يوم الحساب وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والايتام بالـكتاب والخيرات الدارة على الايام فكانت حياة ثانية الى يوم البعث واعادة حياة الانام وكان رحمه الله للحقوق قاضيا وفى الحقائق ماضيا سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وفضـله جامع وشمل الفضـل به جميع وهو واحـد الزمان وصاحب القران قد خصـه الله بالمكانة والامكان والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحـه ومختتمـاتها ومبادى أمور دولته وغاياتها ما افتتح الاقاليم الا بالاقاليد آرابه وآرائه ومقـاليد غناه وغنائه وكنت من حسناته محسوبا والى مناسب الآيه منسوبا أعرف صناعته ويعرف صناعتى وأعارض بضاعته الثمينة بزجاة بضاعتى ولم يزل يجذب بضبعى ويجلب نفعى وما أوسع درعـه للخطاب فى شغلى اذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعى وكانت كتابته كتائب النصر ويراعته رائعة الدهر وبراعته بارية للبرية وعبارته نافثة فى عقد السحر وكانت بلاغته للدولة مجمله وللمملكة مكمله وللعصر الصـلاحى على سائر الاعصار مفضله ومفتتحاته فى الفتوحات البديعة بديعه ومخترعاته فى الصنائع المخترعـة صنيعه وانما نسجت على منواله ومزجت من جرياله ورويت بزلاله وهو الذى

نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الاساليب وأغربه من الابداع وابدعه من الغريب وما الفيته كرد عاء ذكره في مكاتبته ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تأتي فصوله مبتكره مبتدعة مبتدهة لا مفتكره بالعرف والعرفان معرفة لا نكره وكانت الدولة باد التـه تدال والزلة بازالتـه تزال والكرام في ظله يقيلون ومن عـثرات النوائب بفضـله يستقيلون وبعز حمى حمايته يعزون ولهز عطف عطفه يهتزون فالى من الوفادة بعده وبمن الافاده وفيمن السيادة ولمن السعاده والحمد لله الذي له الغيب والشهاده وانا لله وانا اليه راجعون ولامره منقادون وقد وصفه العماد أيضا في كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضـلاء مصر واعمالها فقال وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزائنها اقدّم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر كالقطرة في تيار بحره بل كالذرة في أنوار فجره وهو المولى القاضي الاجـل الفاضل الاسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الاشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني صاحب القران العديم الاقران وواحد الزمان العظيم الشان رب القلم والبيان واللسن واللسان والقريحة الوقاده والبصيرة النقاده والبديهـة المعجزه والبديعة المطرزه والفضـل الذي ما سمع له بمماثل في الاوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره أو جرى في مضماره فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع يخترع الافكار ويفترع الابكار ويطلع الانوار ويبدع الازهار وهو ضابط الملك بارائه ورابط السلك بالآئه ان شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعه مالو دوّن لكان لاهل الصناعة خير بضاعه أين قس في مقام حصافته ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته فضله بالافضال حال ونجم قبوله في أفق الاقبال عال لا منّ في فعـله ولا مين في قوله ولا خلف في وعـده ولا بطء في رفده الصادق الشيم السابق بالكرم ذو الوفاء والمروّه والصفاء والفتوّه والتقى والصلاح والندى والسماح منشر رفات العلم وناشر راياته وجالي غيابات الفضل وتالي آياته وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته وأخلصوا للولايته قد وفقه الله للخير كله وفضـل هـذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله فهو مع ما يتولاه من اشغال المملكة الشاغله ومهماته المستغرقة في العاجلة لا يغفل عن الآجـله ولا يفتر عن المواظبة عـلى نوافل صـلاته ونوافل صـلاته وحفظ أوراده ووظائفه وبث أصفاده وعوارفه ويختم كل يوم من القرآن المجيد ويضيف اليـه ماشاء الله من المزيد وانا أوثر ان أفـرد لنظمه ونثره كتابا فانني أغار من ذكره مع الذين هم كالسها في فلك شمسـه وذكائه وكالثرى عنـد ثريا علمه وذكائه فانما تبدو النجوم اذا لم تبرز الشمس حاجبها وتحجب نور الغزالة عند اشراقها كواكبها وانه لا يؤثر أيضا اثبات ذلك فانا ممتثل لامره المطاع ملتزم له قانون الاتباع واضع أذني لاذنه قابض يميني عـلى يمنه راكـن بأملي الى ركنه قاطن برجائي في ظـل أمنـه اقترض رضـاه ولا اعترض عـلى ما يحكم به ويراه ولا أقوم الاحيث يقيمني ولا أسوم الا ما يسومني ولا أعرف يد المكتني غـير يده ولا أتصدّى الالما جعلني بصـدده وأسأل الله التوفيق للثبات على هـذا السنن وابتهاج جـدده وهو أحق ممدوح بمدحي وأقضاهم بحقه وأسماهم في أفقه وأولاهم بتصدقه وأهداهم الى طرقه ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره ومقاصد معاهدهـا معموره وقصائد قلائدها على مجده موفوره ثم ذكر منها بعض ما تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوّلها

بحياتكم ما عندكـم بعدي ❊ فسوى الاسى ما بعـدكم عندي

ما للاحبـــة لا عـــدمتهم ❊ رغبوا عن الاسـعاد في الزهد

ان لم يفوا فلقـد وفى كرما ❊ عبـد الرحيم بذمة المجـــد

ذو الرتبـــة الشماء والشرف الـــعالي السنا والسودد العد

الناس كلهم له تبـــع ❊ في فضله والدهر كالعبـد

كم غاص بحر بنانه فغـدا ❊ درّ البيان يساق في العـــقد

ان سوّد البيضاء بيـــض من ❊ ثوب الليالي كل مسوّد

قلم أقالـــيم البـــلاد به ❊ وثغورها للضبط والســـدّ

ملك كتيبته كتابته * فرد بجيش النصر فى جند
الاسمر الخطى تابعه * فى حكمه والابيض الهندى
والنائبات بجده ابدا * مثلومة مغلولة الحد

وهى طويلة ثم قال ولو أوردت من كلامه طرفا لظهر عجز الافاضل واعترفت بالقصور ذووا الفضائل فلا يحسن ذكر البحر فى الجداول ولا العرش فى المنازل فأنا أوثران افرده بقسم لا يمتزج بسواه ولا يتبهرج به من فى جلته اوردناه ولعله يأذن لى فى ذلك فلا سبيل اليه الا باذنه ولا نفاذ للتصرف الا بعد الفكاك من رهنه قلت وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا وقد تقدم لابى الحسن بن الذروى فيه أبيات حسنة على حجه وللتاج ابى الفتح البلطى فيه

لله عبد رحيم * يدعى بعبد الرحيم
على صراط سوى * من الهدى مستقيم
يمى الى شرف فى * ذرى المعالى صميم
مهذب حاز ما شئت من تقى وعلوم
نسك ابن مريم عيسى * وهدى موسى الكليم
يرى التهجد انسا * فى جنح ليل بهيم
مسهد الطرف يتلو * أى القرآن العظيم

وللقاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيده

عبد الرحيم على البرية رحمة * امنت بصحبتها حلول عقابها
ياسائلا عنه وعن أسبابه * نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم ان فيصل خطبه * بخطى براعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الاجل على الورى * بسمو منصبها وطيب نصابها
واتته خاطبة اليه وزارة * ولطالما اعيت على خطابها
ما قبوها لان بعلها * اسماؤه أغنته عن القابها
مال الزمان لغيره اذرامها * تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من آرابها * وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا * ذلت من الايام شمس صعابها
واتت سعادته الى أبوابه * لا كالذى يسعى الى ابوابها
تعنوا الملوك لوجهه بوجوهها * لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه * مشغولة بالذكر فى محرابها
فى الصوم والصلوات اتعب نفسه * وضمان راحته على اتعابها
وتعجل الاقلاع عن لذاته * ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها * منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها * عمالها بذالها وهابها

وله فيه أيضا من أخرى

وسألت من أى المعادن ثغرها * فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
ابصرت جوهر ثغرها وكلامه * فعلمت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل * لا يدرك الساعى اليه سوى العنا
يدنو من الافهام الا انه * تلقاه ابعد ما يكون اذا دنا

قلت كان والده تولى القضاء بعسقلان وانفذ ولده الفاضل الى مصر فاتصل بكتاب الدولة المصرية ابى الفتح ابن قادوس وغيره وفتح الله عليه فى سنة الصناعة ففاق فيها أهل عصره مضافا الى ما منحه الله تعالى من علو قدره وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره وقرأت من نظمه

وسيف عتيق للعلاء فان يقل ❋ رأيت ابا بكر فقل وعتيق
فزربابه فهو الطريق الى الندى ❋ ودع كل باب ما اليه طريق

وله ايضا

سبقتم باسداء الجميل تكرما ❋ وما مثلكم فيمن تحدث أو حكى
وقد كان ظنى ان اسابقكم به ❋ ولكن بكت قبلى فهيج الى البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة وقرأت فى تاريخ ابى على حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبى الذى ذيله على تاريخ ابى القاسم السمنانى قال حدثنى الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين ان يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل الى مصر وأخذها من ابن أخيه الافضل قال دخل العادل من باب وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر قال وأكثر أهل مصر يذكرون ان كتبه التى جمعها مقدار مائة الف مجلد وكان يجمعها من سائر البلاد قال وسمعت قاضى القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى ببغداد أيام ولايته يحدث ان القاضى الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية ان يستدعيه وزيره صفى الدين ابن شكر اليه او يجرى فى حقه اهانة وكان بينهما مقارصة فاصبح ميتا وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله قلت واخبرنى القاضى ا شهيد ضياء الدين بن ابى الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ان القاضى الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحدا من اولاده وكانت الدوله باسرها تأتى الى خدمته الى ان توفى قال ولما قدم العادل مصر وملكها بات واصبح فزار قبر الشافعى رضى الله عنه وجاء الى قبر الفاضل فزاره قال ابن ابى الحجاج وانا حاضر ذلك

❋ثم دخلت سنة سبع وتسعين❋ قال العماد فيها توفى الامير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم فى حصن افاميه وفيها او فى سنة ست قبلها توفى السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل ارسلان بن اتسز بن محمد وهو الذى زالت دولة السلجوقيه بملكه واجتمع له مع خوارزم خراسان والعراق ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه قال وفيها كتب السلطان العادل للامير فخر الدين اياز شركس باعمال تبنين وهونين وبانياس والحوله وما يجرى معها وكانت مع الامير حسام الدين بشاره فحاصره وانجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق فسلم البلاد وخرج قال وفيها توفى الامير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء وشيوخ الدولة الكبراء أمير الاسدية ومقدمها وكريمها ومكرمها ولم ار غيره خصيا لم تقاومه الفحول ولم يؤثر فى محال مآثره المحول وله فى الغزوات والفتوحات مواقف معروفه ومقامات موصوفه وهو الذى احتاط على القصر حين استتبت على متوليه أسباب النصر وذلك قبل موت العاضد بمدة ولما خطب لبنى العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه واستظهر على أقارب العاضد وبنيه وتولى عمارة الاسوار المحيطة بمصر والقاهره واتى فيها بالعجائب الظاهره وكان معاذ الالتجاء وملاذ الارتجاء غير انه نسب الى اللجاج لشدة ثباته وفرط جوده ولا يكاد يجمح لصلابة عوده ولما توفى تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر وصارت اقطاعاته للملك الكامل قال وفيها نقل الى العادل عن غلام الامير ايبك الفطيس ان جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه وأسندا ذلك الى الملكين المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدى صلاح الدين رحمه الله فاحضر الغلام وعصره فمات ولم يقروا اعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه فى ذلك من الامراء الصلاحيه وتكلم الناس باحاديث فى هذه القضيه قال وفى هذه السنة اشتد الغلا وامتد البلا وتحققت المجاعة وهلك القوى فكيف الضعيف ونهك السمين فكيف العجيف وخرج الناس حذر الموت من الديار وتفرق فريق بمصر فى الامصار ورأيت الارامل على تلك الرمال والجمال باركة تحت الاحمال ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم تسترق الجياع باللقم فقل من الى الشام خلص الا بعد ان قل عدد أهله ونقص قلت ثم زالت تلك الشده بعد مده وتوفى العماد

الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب الفتح والبرق وهذه الرسائل الثلاث العتبي والنحلة والخطفة بدمشق في أول شهر رمضان من هذه السنه وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائه ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله وتوفي الملك الافضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة وحمل الى حلب فدفن بها وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة وستمائة وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة واخواه الاشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائه رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين

تم الجزء الثاني من الروضتين وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل وافق الفراغ من نسخه في يوم الاربعاء رابع شهر المحرم الحرام افتتاح سنة ثلاث وعشرين ومائة والف غفر الله لكاتبه وقارئه ولمن رأى عيبا واصلحه وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ووالدينا ولمن يقول آمين

قال الفقير الى مولاه المعيد المبدي المدعو بابي السعود أفندي المترجم بقلم الترجمة بديوان عموم المدارس المصريه والقائم بوظيفة تحرير صحيفة وادي النيل العصريه تم بحمد الله طبع هذا الاثر الجليل والسفر المفيد الجميل بمطبعة وادي النيل المملوكة له الكائنة الآن في داره بعطفة درب المذبح بشارع باب الشعريه من الحاضرة القاهريه وقد كان هذا الكتاب طللا من تحريف النساخ عافيا فباعانة الله سبحانه أحييناه وكان رسما من تصحيف الكتاب واهيا فبقدرة الله جل شانه رفعنا مناره واعليناه وكان جدارا يريد أن ينقض بمرور الزمن فبتوفيق الله الحسن أقمناه رجاء احياء الشعائر الاسلاميه وابقاء المآثر التاريخية العليه عسى أن يطلع على أحوال من ذكر فيه بعض من يوفقه الله للاطلاع عليه من أرباب الجاه والسطوه فيكون له فيه ان شاء الله تعالى أجمل عبرة وأحسن اسوه وكان ختام طبعه وتمام تعميم نفعه من نسخة أصل باليد فريدة ظفرنا بها في الكتبخانة المصرية الخديويه في أواخر شهر رجب الفرد سنة ١٢٨٨ من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل الصلاة والتحيه ولا ملام ولا عتاب اذا كان قد فات علينا بعض غلط في تصحيح هذا الكتاب فان سير الطبع لا يتحمل المهل والعمل صعب والنقد اسهل وهل سلم كتاب مطبوع من فهرست خطأ وصواب وآخر دعوانا من فضل الاصحاب وغاية رجانا من محبة الاحباب

وان تجد عيبا فسد الخللا ❊ جل من لا عيب فيه وعلا

(ترجمة المؤلف)

وهذه هي ترجمة مؤلف الكتاب المسمى بالروضتين في اخبار الدولتين

وجدت على نسخة الاصل منقولة من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر فأوردناها هاهنا احياء لذكر صاحب التصنيف وتعريفا لقيمة هذا التأليف الشريف

وهو عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان الامام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو شامة المقدسي الاصل الدمشقي الشافعي الفقيه المقرئ النحوي ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة بدمشق وكانت وفاته سنة خمس وستين وستمائة ودفن بمقابر باب كيسان قرأ القرآن العظيم وله دون العشر وجمع القراآت كلها سنة ست عشرة على الشيخ علم الدين السخاوي وسمع بالاسكندرية من الشيخ أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره وحصل له سنة تسع وثلاثين عناية بالحديث وسمع أولاده وقرأ بنفسه وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرس وأفتى وبرع في العربية وصنف شرحا نفيسا للشاطبية واختصر تاريخ دمشق مرتين الاول في عشرين مجلدا والثاني في عشر وشرح القصائد النبوية للسخاوي في مجلد وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النوريه والصلاحيه وكتاب الذيل عليه وكتاب شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وكتاب ضوء القمر السارى الى معرفة البارى والمحقق في علم الاصول فيما يتعلق بافعال الرسول وكتاب البسملة الاكبر في مجلد وكتاب البسملة الاصغر وكتاب الباعث على انكار البدع والحوادث وكتاب السواك وكشف حال بني عبيد والاصول في الاصول ومفردات القرا ومقدمة نحو ونظم المفاصل للزمخشري وشيوخ البيهقي وغير ذلك وذكر انه حصل له الشيب وعمره خمس وعشرون سنة وولى مشيخة الاقراء بتربة الاشرفية ومشيخة دار الحديث الاشرفيه وكان متواضعا مطرحا للكلف أخذ عنه القراآت الشيخ شهاب الدين الكفرى والشهاب أحمد اللبان وزين الدين أبو بكر بن يوسف المزى وجماعة وقرأ عليه الشاطبية الشيخ شرف الدين الفزارى الخطيب ودخل عليه اثنان جليلان الى بيته الذى بآخر المعمور في طواحين الاشنان ومعهم فتوى فضرباه ضربا مبرحا كاد يتلف منه ولم يدر به أحد ولا أغاثه وتوفي رحمه الله في تاسع عشر رمضان ودفن بباب الفراديس وقيل بباب كيسان قال رحمه الله تعالى جرت لى محنة بدارى بطواحين الاشنان فألهمم الله الصبر ولطف وقيل لى اجتمع بولاة الامر فقلت أنا قد فوضت أمرى الى الله تعالى وهو يكفينا وقلت في ذلك شعرا

قلت لمن قال أما تشتكى * ماقد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله لنا عاجلا * من يأخذ الحق ويشفى الغليل
اذا توكلنا عليه كفى * وحسبنا الله ونعم الوكيل

ومن نظمه في السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل الاظله قوله شعر

امام محب ناشئ متصدق * وباك مصل خائف سطوة الباس
يظلهم الله الجليل بظله * اذا كان يوم العرض لاظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم * فذكرهم بالنظم في بعضهم قاسى

وقال في المعنى أيضا

وقال النبي المصطفى ان سبعة * يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشئ متصدق * وباك مصل والامام بعدله

(اه من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر)


Bibliotheca Alexandrina
0415096